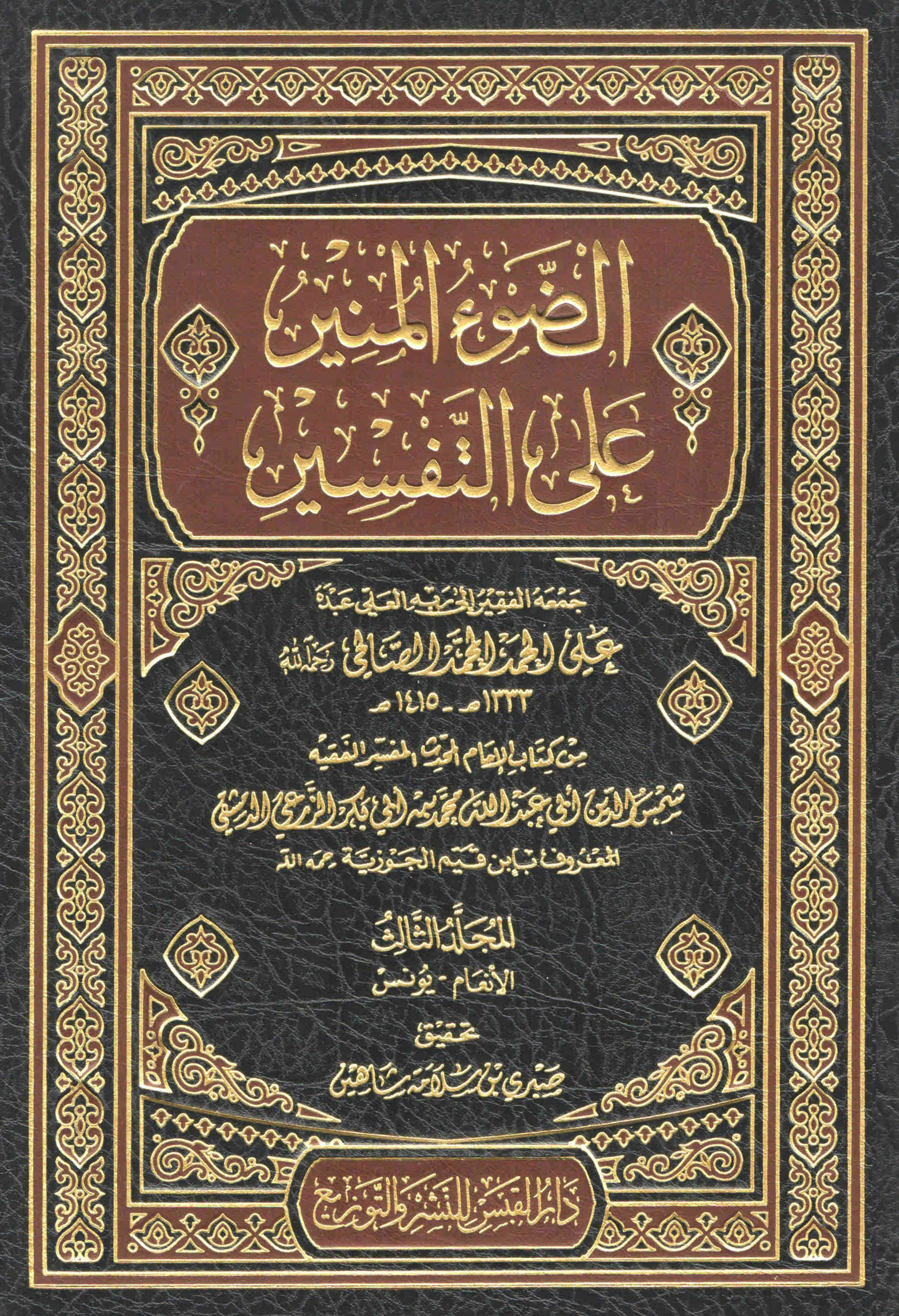
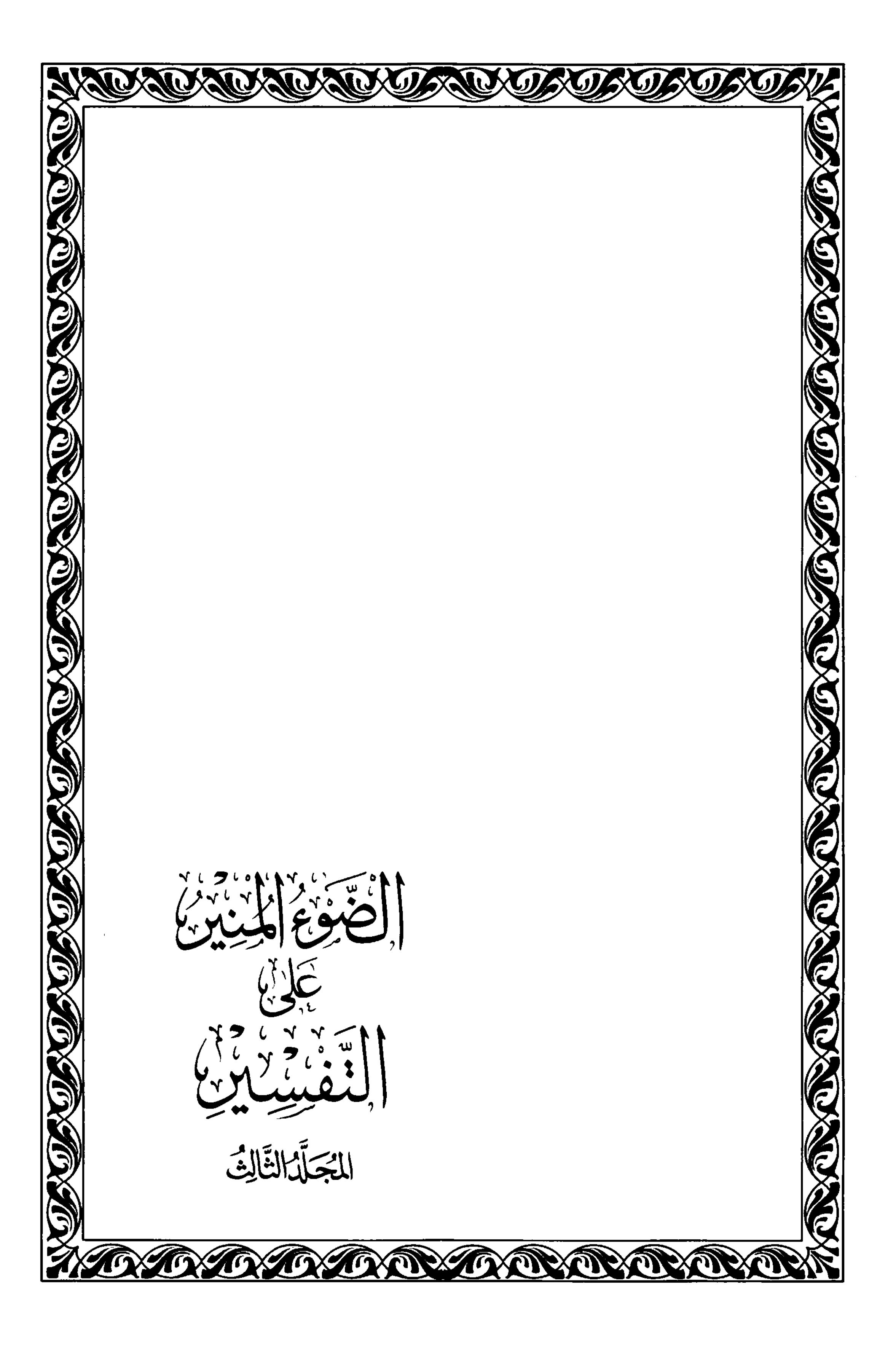

الضوء المنير
على التفسير
جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده
علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله
١٣٣٣هـ - ١٤١٥هـ
من كتاب الإمام المحدث المفسر الفقيه
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله
المجلد الثالث
الأنعام - يونس
تحقيق
صبري بن سلامة شاهين
دار القبس للنشر والتوزيع


الضوء المنير
على
التفسير
المجلد الثالث


ح دار القبس للنشر والتوزيع ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالحي، علي الحمد

الضوء المنير على التفسير./علي الحمد الصالحي- ط٢- الرياض، ١٤٣٦هـ

ردمك ٣-٠-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٤-٣-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (ج٣)

١-القرآن - تفسير أ- شاهين، صبري سلامة (محقق) ب- العنوان

ديوي ٢٢٧،٣ رقم الإيداع ١٤٣٦/١٥

طبعة جديدة مصححة ومحققة

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

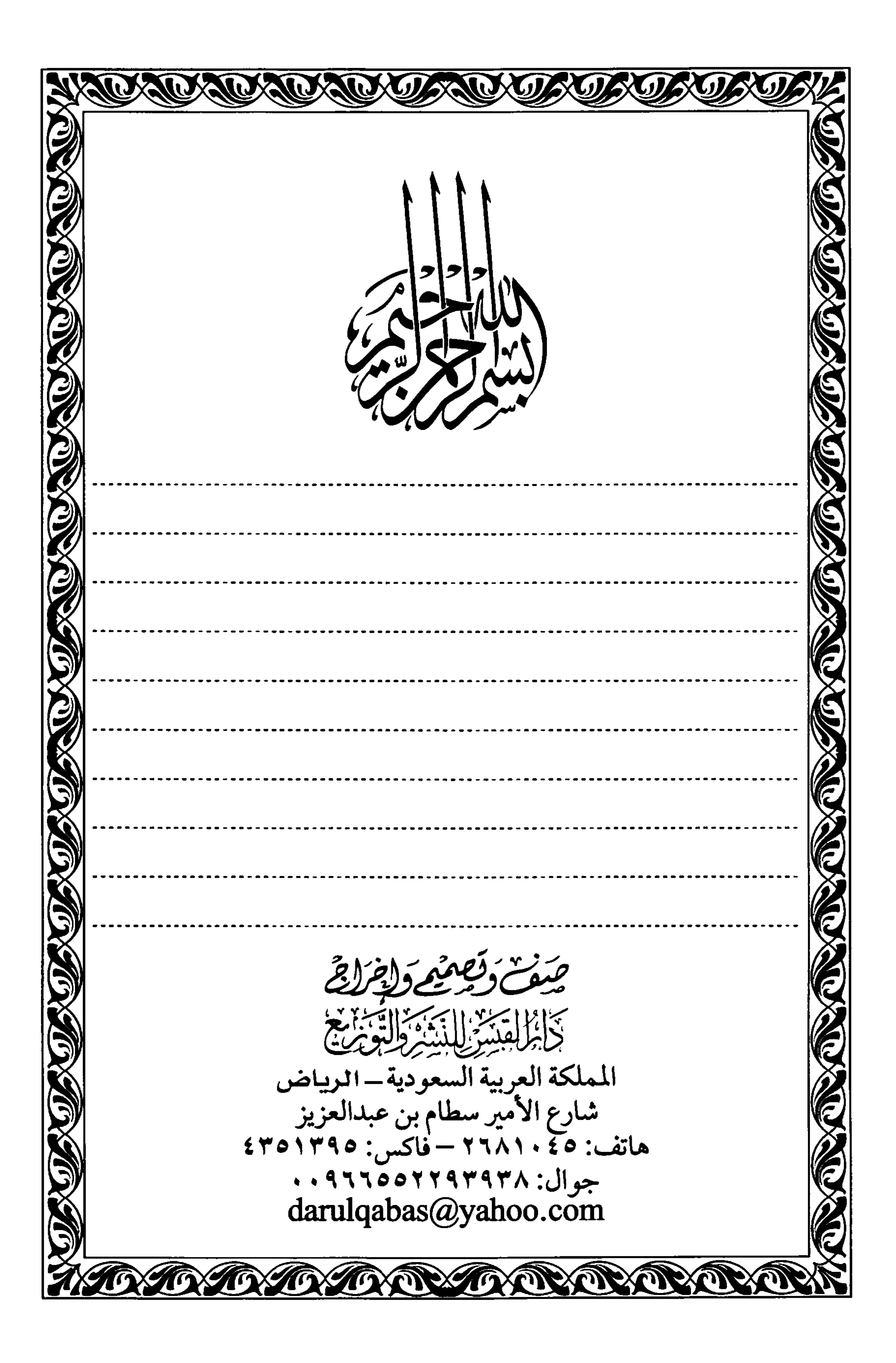
الموقع الرسمي للمؤلف: www.assalehi.com - البريد الإلكتروني: assalehi@hotmail.com

هاتف: ٩٦٦١١٤١١٨٨٩٨+ ، ٩٦٦١١٤١١٨٨٧٤+ ؛ فاكس: ٩٦٦١١٤١٣١٤٧٤+

جوال: ٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣+

العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢١١٧٠ الرياض:١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، وإن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التكرم والتفضّل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.



صف وتصميم وإخراج
دار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية – الرياض
شارع الأمير سطام بن عبدالعزيز
هاتف: ٢٦٨١٠٤٥ – فاكس: ٤٣٥١٣٩٥
جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٢٩٣٩٣٨
darulqabas@yahoo.com



بسم الله الرحمن الرحيم

[(١)] قال تعالىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام: ١]. فعدل المشرك من: خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور؛ بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه.

[(٢)] قوله تعالىٰ: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ أي: يعدلون به غيره في العبادة، التي هي المحبة والتعظيم، وهذا أصح القولين.

وقيل: الباء، بمعنىٰ «عن» والمعنىٰ: ثم الذين كفروا عن ربهم يعدلون: عن عبادته إلىٰ عبادة غيره، وهذا ليس بقوي، إذ لا تقول العرب: عدلت بكذا، أي: عدلت عنه. وإنما جاء هذا في فعل السؤال، نحو: سألت بكذا، أي: عنه؛ كأنهم ضمنوه: اعتنيت به واهتممت، ونحو ذلك.

...[(٣)] قوله سبحانه: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ أي: يعدلون به غيره، فيجعلون له من خلقه عدلًا وشبهًا، قال ابن عباس: «يريد: عدلوا به من خلقي الحجارة والأصنام، والأصنام، بعد أ ن أقروا بنعمتي وربوبيتي».

وقال الزجاج: «أعلم الله سبحانه أنه خالق ما ذكر في هذه الآية، وأن خالقها لا شيء مثله، وأعلم أن الكفار يجعلون له عديلًا» والعدل: التسوية، يقال: عدل الشيء بالشيء، إذا سواه به، ومعنىٰ يعدلون به: يشركون به غيره.

---

(١) ١٧٨ الجواب الكافي.

(٢) ٢١ مدارج جـ٣.

(٣) ٢٢٩ إغاثة جـ٢.

قال مجاهد: قال الأحمر: «عدل الكافر بربه عدلًا، وعدولاً؛ إذا سوىٰ به غيره فعبده»[١] وقال الكسائي: «عدلت الشيء بالشيء، أعدله عدولًا، إذا ساويته به»[٢].

ومثله قوله تعالىٰ عن هؤلاء المشبهين، إنهم يقولون في النار لآلهتهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

فاعترفوا أنهم كانوا في أعظم الضلال وأبينه؛ إذ جعلوا لله شبهًا وعدلًا من خلقه سوّوهم به في العبادة والتعظيم.

[٣]الرب تعالىٰ هو الخالق للنور والظلمة، كما استفتح سبحانه سورة الأنعام بقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١]. فاستفتح السورة بإبطال قول أهل الشرك أجمعين؛ من الثنوية المجوس القائلين: بأن للعالم نورين: نور، وظلمة، فأخبر أنه وحده رب النور والظلمة وخالقهما، كما أنه وحده خالق السماوات والأرض.

والله تعالىٰ جعل الموجودات: عاليًا، وسافلًا، ومتوسطاً بينهما. وجعل لسافلها الظلمة، وهي مسكن أهل الظلمات من خلقه، وجعل لعاليها النور، وهو مسكن أهل النور منهم، وجعل هذه الأرض وما فوقها إلىٰ العلو متوسطاً بينهما، فكلما كان أقرب إلىٰ العرش والكرسي؛ كان أعظم نوراً؛ ولهذا كان فضل نور العرش والكرسي؛علىٰ ما تحته؛ كفضل نور الشمس والقمر علىٰ أخفىٰ الكواكب، وكلما كان أقرب إلىٰ السفلي المطلق؛ كان أشد ظلمة؛ ولهذا لما كان محبس أهل الظلمات سجين؛ كانت سوداء مظلمة لا نور فيها بوجه، فكلما كان أقرب إلىٰ الرب تعالىٰ؛ كان أعظم نوراً ظاهراً وباطناً، وكلما بعد عنه؛ كان أشد ظلمة بحسب بعده عنه.

وذكر الإمام أحمد في كتاب: (الزهد): أن موسىٰ أقام أياماً لا يحدث بني إسرائيل إلا

(١) انظر: لسان العرب (١١/ ٤٣٦).
(٢) انظر: لسان العرب (١١/ ٤٣٣).
(٣) ٢٠٣ مختصر الصواعق جـ٢.

متبرقعاً؛ من النور الذي غشي وجهه حين كلمه ربه، فلم يكن أحد ينظر إليه(١).

فنسبة الأنوار كلها إلىٰ نور الرب، كنسبة: العلوم إلىٰ علمه، والقوىٰ إلىٰ قوته، والغنىٰ إلىٰ غناه، والعزة إلىٰ عزته، وكذلك باقي الصفات. والعبد إذا سما بصره صعوداً إلىٰ نور الشمس؛ غشي دون إدراكه، وتعذر عليه غاية التعذر، وأي نسبة لنور الشمس إلىٰ نور خالقها ومبدعها؟! وإذا كان نور البرق يكاد يلتمع البصر ويخطفه، ولا يقدر العبد علىٰ إدراكه فكيف بنور الحجاب؟! فكيف بما فوقه؟! والأمر أعظم من أن يصفه واصف أو يتصوره عاقل؛ فتبارك الله رب العالمين، الذي أشرقت الظلمات بنور وجهه، وعجزت الأفكار عن إدراك كنهه، ودلت الآيات وشهدت الفطر باستحالة شبهه. فلولا وصف نفسه لعبادة؛ لما أقدموا علىٰ وصفه. فهو كما وصف نفسه وأثنىٰ علىٰ نفسه. وفوق ما يصفه الواصفون.

(٢)ومما يدخل في هذا الباب: جمع الظلمات، وإفراد النور، وجمع سبل الباطل، وإفراد سبل الحق، وجمع الشمائل، وإفراد اليمين.

أما الأول فكقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الإنعام: ١].

وأما الثاني فكقوله: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأما الثالث فكقوله: ﴿ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴾ [النحل: ٤٨].

والجواب عنها يخرج من مشكاة واحدة؛ وسر ذلك ـ والله أعلم ـ أن طريق الحق واحد، وهو علىٰ الواحد الأحد، كما قال تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١].

قال مجاهد: «الحق طريقه علىٰ الله ويرجع إليه، كما يقال: طريقك عليَّ».

---

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٠) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦١/ ١٧٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٥٥٨ رقم ٨٩٣٠).

(٢) ١١٩ بدائع جـ١.

ونظيره قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]. في أصح القولين. أي: السبيل القصد، الذي يوصل إلى الله، وهي طريق عليه، قال الشاعر:

فهن المنايا أي واد سلكنه   عليها طريقي أو عليّ طريقها

وقد قررت هذا المعنى، وبينت شواهد من القرآن، وسر كون الصراط المستقيم على الله، وكونه تعالى على الصراط المستقيم، كما في قول هود: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] في كتاب (التحفة المكية)[(١)].

والمقصود: أن طريق الحق واحد؛ إذ مَرَدُّه إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة؛ فإنها لا ترجع إلى شيء موجود، ولا غاية لها يوصل إليها؛ بل هي بمنزلة بنيات الطريق، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود، فهي وإن تنوعت؛ فأصلها طريق واحد.

ولما كانت الظلمة بمنزلة طرق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق؛ بل هما هما؛ أفرد النور وجمعت الظلمات. وعلى هذا جاء قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فوحد: ولي الذين آمنوا؛ وهو الله الواحد الأحد، وجمع: الذين كفروا؛ لتعددهم وكثرتهم، وجمع الظلمات؛ وهي طرق الضلال والغي؛ لكثرتها واختلافها، ووحد[(٢)] النور؛ وهو دينه الحق وطريقه المستقيم، الذي لا طريق إليه سواه.

ولما كانت اليمين جهة الخير والفلاح وأهلها هم الناجون؛ أفردت، ولما كانت الشمال جهة أهل الباطل وهم أصحاب الشمال؛ جمعت في قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨].

فإن قيل: فهلا كذلك في قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١]

---

(١) المقصود به «مفتاح دار السعادة» كما أشرت في المقدمة (ج).

(٢) يأتي ص ١٤١ ما هو شبيه بهذا البحث على قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] (ج).

وما بالها جاءت مفردة؟.

قيل: جاءت مفردة؛ لأن المراد أهل هذه الجهة، ومصيرهم ومآلهم إلى جهة واحدة، وهي جهة الشمال، مستقر أهل النار، والنار من جهة الشمال؛ فلا يحسن مجيئها مجموعة؛ لأن الطرق الباطلة وإن تعددت فغايتها المرد إلى طريق الجحيم، وهي جهة الشمال. وكذلك مجيئها مفردة في قوله: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]. لما كان المراد: أن لكل عبد قعيدين: قعيداً عن يمينه، وقعيداً عن شماله؛ يحصيان عليه الخير والشر؛ فلكل عبد من يختص بيمينه وشماله من الحفظة، فلا معنى للجمع ههنا.

وهذا بخلاف قوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧]. فإن الجمع هنا في مقابلة كثرة من يريد إغواءهم، فكأنه أقسم أن يأتي كل واحد واحد: من بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله. ولا يحسن هنا: عن يمينهم، وعن شمالهم؛ بل الجمع ههنا من مقابلة الجملة بالجملة المقتضي توزيع الأفراد.

ونظيره: ﴿فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦].

وقد قال بعض الناس: إن الشمائل إنما جمعت في الظلال، وأفرد اليمين؛ لأن الظل حين ينشأ أول النهار يكون في غاية الطول، يبدو كذلك ظلاً واحداً من جهة اليمين، ثم يأخذ في النقصان، وأما إذا أخذ في جهة الشمال؛ فإنه يتزايد شيئاً فشيئًا، والثاني منه غير الأول، فكلما زاد منه شيئاً فهو غير ما كان قبله؛ فصار كل جزء منه كأنه ظل؛ فحسن جمع الشمائل في مقالة تعدد الظلال. وهذا معنى حسن...

(١) وأما الجعل فقد أطلق على الله سبحانه بمعنيين:

أحدهما: الإيجاد والخلق. والثاني: التصيير.

فالأول: يتعدى إلى مفعول كقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

(١) ١٣٣ شفاء العليل.

والثاني: أكثر ما يتعدىٰ إلىٰ مفعولين كقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣].

وأطلق علىٰ العبد بالمعنىٰ الثاني خاصة كقوله: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

وغلب ما يستعمل؛ في حق العبد في جعل التسمية والاعتقاد؛ حيث لا يكون له صنع في المجعول كقوله: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف: ١٩] وقوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾ [يونس: ٥٩]. وهذا يتعدىٰ إلىٰ واحد، هو جعل اعتقاد وتسمية.

وأما الفعل والعمل فإطلاقه علىٰ العبد كثير ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٩]. ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٦٢] ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٢]. وأطلقه علىٰ نفسه فعلاً واسماً:

فالأول: كقوله: ﴿ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. والثاني كقوله: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٦]، وقوله: ﴿ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ في موضعين من كتابه:

أحدهما قوله: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]. والثاني قوله: ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

فتأمل قوله: ﴿ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ في هذين الموضعين المتضمنين للصنع العجيب الخارج عن العادة، كيف تجده: كالدليل علىٰ ما أخبر به؟! وأنه لا يستعصي علىٰ الفاعل حقيقة، أي: شأننا الفعل، كما لا يخفىٰ الجهر والإسرار بالقول علىٰ من شأنه العلم والخبرة، ولا تصعب المغفرة علىٰ من شأنه أن يغفر الذنوب، ولا الرزق علىٰ من شأنه أن يرزق العباد. وقد وقع الزجاج علىٰ هذا المعنىٰ بعينه، فقال: ﴿ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ قادرين علىٰ فعل ما نشاء.

***

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

(١)تأمل كيف أتت مجموعة في قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣]. فإنها أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة، وهي: تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالىٰ من معنى الإلهية.

فالمعنىٰ: وهو الإله، وهو المعبود في كل واحدة واحدة من السموات، ففي كل واحدة من هذا الجنس؛ هو المألوه المعبود.

فذكر الجمع هنا؛ أبلغ وأحسن من الاقتصار علىٰ لفظ الجنس والواحد.

ولما عزب هذا المعنىٰ عن فهم بعض المتسننة؛ فسر الآية بما لا يليق بها، فقال: الوقف التام علىٰ السموات، ثم يبتدئ بقوله: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ ﴾ وغلط في فهم الآية، وأن معناها ما أخبرتك، وهو قول محققي أهل التفسير.

***

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

(٢)ذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون، وبين أن ذلك كان لمعنى القياس، وهو ذنوبهم، فهم الأصل ونحن الفرع، والذنوب: العلة الجامعة، والحكم: الهلاك، فهذا محض قياس العلة.

***

﴿ وَقَالُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

---

(١) ١١٦ بدائع ج١.

(٢) ١٣٤ أعلام جـ١.

...[١]إن المشركين قالوا تعنتًا في كفرهم: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا ﴾ [الأنعام: ٨] يعنون: مَلَكا نُشاهده ونراه، يشهد له ويصدقه؛ وإلا فالملك كان ينزل عليه بالوحي من الله.

فأجاب الله تعالىٰ عن هذا، وبيَّن الحكمة في عدم إنزال الملك علىٰ الوجه الذي اقترحوه: بأنه لو أنزل ملكًا ـ كما اقترحوا ـ ولم يؤمنوا ويصدقوه؛ لعوجلوا بالعذاب. كما جرت واستمرت به سنته تعالىٰ مع الكافر في آيات الاقتراح، إذا جاءتهم ولم يؤمنوا بها. فقال: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨]. ثم بين سبحانه: أنه لو أنزل ملكًا ـ كما اقترحوا ـ لما حصل به مقصودهم؛ لأنه إن أنزله في صورته لم يقدروا علىٰ التلقي عنه؛ إذ البشر لا يقدرون علىٰ مخاطبة الملك ومباشرته، وقد كان النبي ﷺ ـ وهو أقوىٰ الخلق ـ، إذا نزل عليه الملك: كُرب لذلك، وأخذه البرحاء، وتحدر منه العرق في اليوم الشاتي[٢]، وإن جعله في صورة رجل: حصل لهم لبس: هل هو رجل، أم ملك؟ فقال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم ﴾ في هذه الحال ﴿ مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٩] علىٰ أنفسهم حينئذ. فإنهم يقولون ـ إذا رأوا الملك في صورة الإنسان ـ: هذا إنسان، وليس بملك. فهذا معنىٰ الآية...

...[٣]قالوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٨] أي: نعاينه ونراه، وإلا فالملك لم يزل يأتيه من عند الله بأمره ونهيه، فهم اقترحوا نزول ملك يعاينونه. فأخبر سبحانه عن الحكمة التي لأجلها: لم يجعل رسوله إليهم من الملائكة، ولا أنزل ملكًا يرونه؛ فقال: ﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨] أي: لوجب العذاب، وفرغ من الأمر، ثم لا يمهلون إن أقاموا علىٰ التكذيب.

(١) ٣٩٢ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٦١) ومسلم (رقم ٢٧٧٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٧٦-٤٨٢) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: البرحاء بضم الموحدة وفتح الراء ثم مهملة ثم مد: هي شدة الحمىٰ. وقيل: شدة الكرب. وقيل: شدة الحر، ومنه برح بي الهم إذا بلغ مني غايته.

(٣) ٢٤٥ مدارج جـ١.

وهذا نظير قوله في سورة الحجر: ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [الحجر: ٦، ٧]. وقال الله ﷻ: ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٨]. و«الحق» ههنا العذاب. ثم قال: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا ﴾ [الأنعام: ٩]. أي: لو أنزلنا عليهم ملكًا لجعلناه في صورة آدمي؛ إذ لا يستطيعون التلقي عن الملك في صورته التي هو عليها؛ وحينئذ فيقع اللبس منا عليهم؛ لأنهم لا يدرون: أرجل هو، أم ملك؟ ولو جعلناه رجلًا لخلطنا عليهم، وشبهنا عليهم الذي طلبوه بغيره.

وقوله: ﴿ مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه جزاء لهم على لبسهم على ضعفائهم، والمعنى: أنهم شبهوا على ضعفائهم، ولبسوا عليهم الحق بالباطل، فشُبِّه عليهم، وتلبس عليهم الملك بالرجل.

والثاني: أنه لبس عليهم ما لبسوا على أنفسهم، وأنهم خلطوا على أنفسهم، ولم يؤمنوا بالرسول منهم، بعد معرفتهم صدقه، وطلبوا رسولًا ملكيًّا يعاينوه، وهذا تلبيس منهم على أنفسهم. فلو أجبناهم إلى ما اقترحوه؛ لم يؤمنوا عنده؛ وللبسنا عليهم لبسهم على أنفسهم.

***

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ ﴾.

[1]الرضى بالله ربًّا: أن لا يتخذ ربًّا غير الله تعالى، يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما: سيدًا وإلهًا. يعني: فكيف أطلب ربًّا غيره، وهو رب كل شيء؟! وقال في أول السورة: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

---

(١) ١٨١ مدارج جـ٢.

[الأنعام: ١٤] يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأ وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤] أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه؟ وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه، وقد أنزله مفصلًا، مبينًا كافيًا شافيًا؟!

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل؛ رأيتها هي نفس الرضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا؛ ورأيت الحديث يترجم عنها، ومشتقًا منها فكثير من الناس يرضى بالله ربًّا، ولا يبغي ربًّا، سواه لكنه لا يرضى به وحده وليًّا وناصرًا؛ بل يوالي من دونه أولياء؛ ظنًّا منه: أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك. بل التوحيد؛ أن لا يتخذ من دونه أولياء. والقرآن مملوء من وصف المشركين: بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله، وعباده المؤمنين فيه. فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته. فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه، فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكمًا: يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه، وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربًّا، ولا إلهًا ولا غيره حكمًا.

وتفسير الرضى بالله ربًّا: أن يسخط عبادة ما دونه. هذا هو الرضى بالله إلهًا. وهو من تمام الرضى بالله ربًّا. فمن أعطى الرضى به ربًّا حقه سخط عبادة ما دونه قطعًا، لأن الرضى بتجريد ربوبيته؛ يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية؛ يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

***

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

[1]المراد بالآية: شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته، فإن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: من يشهد لك على ما تقول؟ فأنزل الله سبحانه آيات: شهادته له، وشهادة ملائكته وشهادة علماءِ أهل الكتاب به، فقال تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣]، أي ومن عنده علم الكتاب يشهد لي وشهادته مقبولة لأنها شهادة بعلم.

قال الله تعالى: ﴿ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٩]، فأخبر سبحانه في هذه المواضع بشهادته لرسوله، وكفى بشهادته إثباتاً لصدقه، وكفى به شهيداً.

فإن قيل: وما شهادته لرسوله؟

قيل: هي ما أقام على صدقه من الدلالات والآيات المستلزمة لصدقه، بعد العلم بها ضرورة، فدلالتها على صدقه؛ أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق، فشهادته سبحانه لرسوله: أصدق شهادة، وأعظمها، وأدلها على ثبوت المشهود به، فهذا وجه. ووجه آخر: أنه صدقه بقوله، وأقام الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه، فإذا أخبر عنه أنه شهد له قولاً؛ لزم ضرورة صدقه في ذلك الخبر، وصحت الشهادة له به قطعاً...

...ونظير هذا استشهادهم بقوله تعالى: ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ [الأنعام: ٩١] حتى رتب على ذلك بعضهم: أن الذكر بالاسم المفرد وهو

(١) ٣٣٨ طريق الهجرتين.

«الله، الله» أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، وهذا فاسد مبني على فاسد. فإن الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلًا، ولا مفيد شيئًا، ولا هو كلام أصلاً، ولا يدل على مدح ولا تعظيم، ولا يتعلق به إيمان، ولا ثواب ولا يدخل به الذاكر في عقد الإسلام جملة، فلو قال الكافر: «الله، الله» من أول عمره إلى آخره؛ لم يصر بذلك مسلماً؛ فضلاً عن أن يكون من جملة الذكر، أو يكون أفضل الأذكار.

وبالغ بعضهم في ذلك حتى قال: الذكر بالاسم المضمر؛ أفضل من الذكر بالاسم الظاهر! يذكر بقوله: «هو، هو» أفضل من الذكر بقولهم: «الله، الله».

وكل هذا من أنواع الهوس والخيالات الباطلة، المفضية بأهلها إلى أنواع من الضلالات، فهذا فساد هذا البناءِ الهائر.

وأما فساد المبني عليه؛ فإنهم ظنوا أن قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي قل هذا الاسم، فقل: الله الله، وهذا من عدم فهم القوم لكتاب الله، فإن اسم الله هنا جواب لقوله: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١]، إلى أن قال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾، أي: قل: الله أنزله. فإن السؤال معاد في الجواب فيتضمنه؛ فيحذف اختصاراً كما يقول: من خلق السموات والأرض؟ فيقال: الله. أي: الله خلقهما، فيحذف الفعل لدلالة السؤال عليه، فهذا معنى الآية الذي لا تحتمل غيره(١).

(٢)إن الله سبحانه، إنما أقام الحجة على خلقه بكتابه ورسله، فقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]. وقال تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، فكل من بلغه هذا

(١) تطرق لهذه المسألة في آخر رسالته العبودية بما يزيدها وضوحًا (ج).
(٢) ١١٦ مختصر الصواعق جـ١.

القرآن فقد أنذر به وقامت عليه حجة الله.

وقال تعالى: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ٨-١٠]. فلو كان كلام الله ورسوله لا يفيد اليقين والعلم، والعقل معارض له؛ فأي حجة تكون قد قامت على المكلفين بالكتاب والرسل؟ وهل هذا القول إلا مناقض لإقامة حجة الله بكتابه من كل وجه؟!

قال تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] أي: ومن بلغه القرآن، فكل من بلغه القرآن وتمكن من فهمه؛ فهو منذر به. والأحاديث التي رويت في امتحان الأطفال والمعتوهين والهالك في الفترة؛ إنما تدل على امتحان من لم يعقل الإسلام، فهؤلاء يدلون بحجتهم أنهم: لم تبلغهم الدعوة، ولم يعقلوا الإسلام.

(١)ومن فهم دقائق الصناعات والعلوم؛ لا يمكنه أن يدل على الله بهذه الحجة. وعدم ترتيب الأحكام عليهم في الدنيا قبل البلوغ؛ لا يدل على عدم ترتبها عليهم في الآخرة، وهذا القول هو المحكي عن أبي حنيفة وأصحابه، وهو في غاية القوة.

***

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

(٢)قد حام أكثر المفسرين حول معنى هذه الآية وما أوردوا فراجع أقوالهم تجدها

(١) ١٧٩ التحفة.

(٢) ١٩٨ عدة الصابرين.

لا تشفي عليلًا ولا تروى غليلا ومعناها أجل وأعظم مما فسروها به ولم يتفطنوا لوجه الإضراب ببل، ولا للأمر الذي بدا لهم وكانوا يخفونه، وظنوا أن الذي بدا لهم العذاب، فلما لم يروا ذلك ملتئمًا مع قوله: ﴿ مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾؛ قدروا مضافًا محذوفًا، وهو خبر ما كانوا يخفون من قبل، فدخل عليهم أمر آخر لا جواب لهم عنه، وهو: أن القوم لم يكونوا يخفون شركهم وكفرهم، بل كانوا يظهرونه، ويدعون إليه، ويحاربون عليه. ولما علموا أن هذا وارد عليهم قالوا: إن القوم في بعض موارد القيامة ومواطنها أخفوا شركهم وجحدوه، وقالوا: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣] فلما وقفوا على النار بدا لهم جزاء ذلك الذي أخفوه.

قال الواحدي: وعلى هذا أهل التفسير، ولم يصنع أرباب هذا القول شيئًا؛ فإن السياق والإضراب ببل، والإخبار عنهم بأنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وقولهم: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ لا يلتئم بهذا الذي ذكروه، فتأمله؟

وقالت طائفة منهم الزجاج: بل بدا للأتباع ما أخفاه عنهم الرؤساء من أمر البعث، وهذا التفسير يحتاج إلى تفسير، وفيه من التكلف ما ليس بخافٍ.

وأجود من هذا ما فهمه المبرد من الآية قال: كأن كفرهم لم يكن باديًا لهم، إذ خفيت عليهم مضرته.

ومعنى كلامه: أنهم لما خفيت عليهم مضرة عاقبته ووباله فكأنه كان خفيًّا عنهم؛ لم تظهر لهم حقيقته، فلما عاينوا العذاب؛ ظهرت لهم حقيقته وشره.

قال: وهذا كما تقول لمن كنت حدثته في أمر قبل: وقد ظهر لك الآن ما كنت قلت لك. وقد كان ظاهرًا له قبل.

هذا ولا يسهل أن يعبر عن كفرهم وشركهم، الذي كانوا ينادون به على رءوس الأشهاد، ويدعون اليه كل حاضر وباد؛ بأنهم كانوا يخفونه لخفاء عاقبته عنهم، ولا يقال لمن أظهر الظلم والفساد وقتل النفوس والسعي في الأرض بالفساد: إنه أخفى ذلك لجهله بسوء عاقبته وخفائها عليه.

فمعنى الآية ـ والله أعلم بما أراد من كلامه ـ: أن هؤلاء المشركين لما وقفوا على النار وعاينوها، وعلموا أنهم داخلوها، تمنوا أنهم يردون الى الدنيا، فيؤمنون بالله وآياته، ولا يكذبون رسله.

فأخبر سبحانه: أن الأمر ليس كذلك، وأنهم ليس في طبائعهم وسجاياهم الإيمان، بل سجيتهم الكفر والشرك والتكذيب، وأنهم لو ردوا؛ لكانوا بعد الرد كما كانوا قبله. وأخبر أنهم كاذبون فى زعمهم: أنهم لو ردوا لآمنوا وصدقوا.

فإذا تقرر مقصود الآية ومرادها؛ تبين معنى الاضراب ببل، وتبين معنى الذي بدا لهم، والذي كانوا يخفونه، والحامل لهم على قولهم: ﴿ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ [الأنعام: ٢٧]، فالقوم كانوا يعلمون: أنهم كانوا فى الدنيا على باطل، وأن الرسل صدقوهم فيما بلغوهم عن الله، وتيقنوا ذلك وتحققوه؛ ولكنهم أخفوه ولم يظهروه بينهم؛ بل تواصوا بكتمانه، فلم يكن الحامل لهم على تمنى الرجوع والإيمان معرفة ما لم يكونوا يعرفونه من صدق الرسل، فإنهم كانوا يعلمون ذلك ويخفونه، وظهر لهم يوم القيامة ما كانوا ينطوون عليه من علمهم: أنهم على باطل، وأن الرسل على الحق فعاينوا ذلك عيانا بعد أن كانوا يكتمونه ويخفونه، فلو ردوا لما سمحت نفوسهم بالإيمان، ولعادوا إلى الكفر والتكذيب، فإنهم لم يتمنوا الإيمان لعلمهم يومئذ أنه هو الحق وأن الشرك باطل، وإنما تمنوا لما عاينوا العذاب الذي لا طاقة لهم باحتماله وهذا كمن كان يخفي محبة شخص ومعاشرته، وهو يعلم أن حبه باطل، وأن الرشد فى عدوله عنه، فقيل له: إن اطلع عليه وليه عاقبك، وهو يعلم ذلك ويكابر، ويقول: بل محبته ومعاشرته هي الصواب. فلما أخذه وليه ليعاقبه على ذلك وتيقن العقوبة، تمنى أن يعفى من العقوبة، وأنه لا يجتمع به بعد ذلك، وفى قلبه من محبته والحرص على معاشرته ما يحمله على المعاودة بعد معاينة العقوبة، بل بعد أن مسته وأنهكته، فظهر له عند العقوبة ما كان يخفي من معرفته بخطئه وصواب ما نهاه عنه، ولو رد لعاد لما نهى عنه.

وتأمل مطابقة الإضراب لهذا المعنى، وهو نفي قولهم: إنا لو رددنا لآمنا وصدقنا، لأنه ظهر لنا الآن أن ما قاله الرسل هو الحق، أي ليس كذلك، بل كنتم تعلمون ذلك وتعرفونه، وكنتم تخفونه، فلم يظهر لكم شيء لتكونوا عالمين به، لتعذروا، بل ظهر لكم ما كان معلومًا، وكنتم تتواصون بإخفائه وكتمانه، والله أعلم.

(١)قالوا: ويكفي في هذا إخباره تعالى عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب، ووردوا القيامة، ورأوا ما أخبرت به الرسل: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨]، فأي علم أبين من علم من ورد القيامة، ورأى ما فيها، وذاق عذاب الآخرة، ثم ورد إلى الدنيا لاختار الضلال على الهدى، ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه. وقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١١١]، فهل بعد نزول الملائكة عيانًا وتكليم الموتى لهم، وشهادتهم للرسول بالصدق، وحشر كل شيء في الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدى، ومع هذا فلا يؤمنون، ولا ينقادون للحق، ولا يصدقون الرسول، ومن نظر في سيرة رسول الله ﷺ مع قومه ومع اليهود علم أنهم كانوا جازمين بصدقه ﷺ، لا يشكون أنه صادق في قوله: إنه رسول الله؟ ولكن اختاروا الضلال والكفر على الإيمان.

قال المسور بن مخرمة ﷺ لأبي جهل ـ وكان خاله ـ: أي خال! هل كنتم تتهمون محمدًا بالكذب قبل أن يقول مقالته التي قالها؟ قال أبو جهل ـ لعنه الله تعالى ـ يا ابن أخي، والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى: الأمين. ما جربنا عليه كذبًا قط؛ فلما وخطه الشيب؛ لم يكن ليكذب على الله. قال: يا خال! فلم لا تتبعونه؟ قال: يا ابن أخي تنازعنا نحن بنو هاشم الشرف فاطعموا وأطعمنا، وسقوا وسقينا، وأجاروا وأجرنا،

(١) ٩٣ مفتاح جـ١.

فلما تجاثينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي. فمتى ندرك هذه[١]؟

وهذا أمية بن أبي الصلت كان ينتظره يومًا بيوم، وعلمه عنده قبل مبعثه. وقصته مع أبي سفيان لما سافرا معًا معروفة، وإخباره برسول الله ﷺ ثم لما تيقنه وعرف صدقه قال: لا أومن بنبي من غير ثقيف أبدًا.

وهذا هرقل تيقن أنه رسول الله ﷺ ولم يشك فيه؛ وآثر الضلال والكفر استبقاء لملكه.

ولما سأله اليهود عن التسع آيات البينات فأخبرهم بها؛ قبلوا يده وقالوا: نشهد أنك نبي. قال: «فما يمنعكم أن تتبعوني؟» قالوا: إن داود ﷺ دعا أن لا يزال في ذريته نبي، وإنا نخشى أن اتبعناك أن تقتلنا يهود[٢].

فهؤلاء قد تحققوا نبوته، وشهدوا له بها، ومع هذا فآثروا الكفر والضلال، ولم يصيروا مسلمين بهذه الشهادة.

فقيل: لا يصير الكافر مسلمًا بمجرد شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ حتى يشهد لله بالوحدانية. وقيل: يصير بذلك مسلمًا، وقيل: إن كان كفره بتكذيب الرسول كاليهود؛ صار مسلمًا بذلك. وإن كان كفره بالشرك مع ذلك؛ لم يصر مسلمًا إلا بالشهادة بالتوحيد كالنصارى والمشركين، وهذه الأقوال الثلاثة في مذهب الإمام أحمد وغيره...

[٣]وأما الفتون فهو مصدر فتنه يفتنه فتونًا، قال الله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]. أي امتحناك واختبرناك. والفتنة يقال على ثلاثة معان:

أحدها: الامتحان والاختبار، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٣٤٦-٣٤٧ رقم ٨٦٠) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٧١): رواه الطبراني مرسلًا، وفيه ابن لهيعة وفيه ضعف، وحديثه حسن.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ١٧٢) والنسائي في الكبرى (٢/ ٣٠٦ رقم ٣٥٤١) وفي الصغرى (رقم ٤٠٧٨) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٤/ ٤١٤ رقم ٢٤٦٥) والطبراني في الكبير (٨/ ٦٩ رقم ٧٣٩٦) وأحمد (٤/ ٢٣٩) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٩٨) وابن قانع في معجم الصحابة (٢/ ١١).

(٣) ٤٧ روضة.

أي امتحانك واختبارك.

والثاني: الافتتان نفسه، يقال: هذه فتنة فلان أي افتتانه. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥]. يقال أصابته الفتنة، وفتنته الدنيا، وفتنته المرأة، وأفتنته، قال الأعشى:

لئن فتنتني هي بالأمس أفتـــنت　　سعيدا فأضحى قد قلى كل مسلم(١)

وأنكر الأصمعي: أفتنته.

والثالث: المفتون به نفسه يسمى فتنةً، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥]. وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]. أي لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه. وأما قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤]. فقيل: المعنى يحرقون، ومنه: فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته، ودينار مفتون.

قال الخليل: والفتن الإحراق، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ وورقٌ فتينٌ أي: فضة محرقة(٢)، وافتتن الرجل وفتن إذا أصابته فتنة، فذهب ماله أو عقله. وفتنته المرأة إذا ولهته. وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣] أي: لا تفتنون على عبادته إلا من سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم. فذلك الذي يفتن بفتنتكم إياه. وأما قوله تعالى: ﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ [القلم: ٥، ٦]. فقيل: الباء زائدة.

وقيل: المفتون مصدر، كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

والصواب: أنَّ يبصر، مضمن معنى يشعر ويعلم، قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ

---

(١) ذكره أبو الحسن الرامهرمزي في أمثال الحديث (ص ١٦٣) والحربي في غريب الحديث (٣/ ٩٤٠)، وابن منظور في لسان العرب (١٣/ ٣١٧، ٣١٨).

(٢) انظر: لسان العرب (١٣/ ٣١٧).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «**المؤمن أخو المؤمن، يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان**»[١] يُروى بفتح الفاء، وهو واحد، وبضمها وهو جمع فاتن، كتاجر وتجار، والمقصود أن الحب موضع الفتون، فما فتن من فتن إلا بالمحبة[٢].

[٣]وقال تعالى لرسوله: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] يعني: أنهم قد عرفوا صدقك، وأنك غير كاذب فيما تقول؛ ولكن عاندوا وجحدوا بالمعرفة. قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ والمفسرون. قال قتادة: يعلمون أنك رسول؛ ولكن يجحدون. قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۝٧٠ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠، ٧١] يعني: تكفرون بالقرآن وبمن جاء به، وأنتم تشهدون بصحته، وبأنه الحق. فكفركم كفر عناد وجحود عن علم وشهود، لا عن جهل وخفاء.

وقال تعالى عن السحرة من اليهود: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: علموا من أخذ السحر وقبله؛ لا نصيب له في الآخرة، ومع هذا العلم والمعرفة؛ فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٠٧٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٦/ ١٥٠ رقم ١١٦١١) وابن سعد في الطبقات (١/ ٣١٩) والقاسم بن سلام في الأموال (رقم ٧٣٠) وانظر: عون المعبود (٨/ ٢٢٥) ونيل الأوطار (٦/ ٥٩).

(٢) يأتي هذا النقل في تفسير سورة الأعراف، الآية ١٥٥ من قوله: وأما الفتون فهو مصدر... إلى قوله: فما فتن من فتن إلا بالمحبة.

(٣) ٩١ مفتاح جـ١.

ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب في القبلة، كما في سورة البقرة. وفي التوحيد، كقوله في الأنعام ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ [الأنعام: ١٩، ٢٠]، وفي الكتاب أنه منزل من عند الله، لقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤][(١)].

***

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾.

...[(٢)]قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦] فنزه نفسه عن هذا الحسبان؛ فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة والعقول المستقيمة، وهذا أحد ما يدل على إثبات المعاد بالعقل، وأنه مما تظاهر عليه العقل والشرع، كما هو أصح الطريقين في ذلك.

ومن فهم هذا؛ فهم سر اقتران قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٨] بقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وكيف جاء ذلك في معرض جوابهم عن هذا السؤال والإشارة به إلى إثبات النبوة، وأن من لم يهمل أمر كل دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه؛ بل جعلها أممًا، وهداها إلى غاياتها ومصالحها؛ كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم؟ فهذه أحد أنواع الهداية وأعمها.

(١) يأتي أصل هذا البحث في سورة طه بكامله إن شاء الله تعالى. (ج).
(٢) ٣٥ بدائع جـ٢.

(١) ومن ذلك قوله: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أي: لا يعلمون حكمته تعالى، ومصلحة عباده في الامتناع من إنزال الآيات التي يقترحها الناس على الأنبياء. وليس المراد: أن أكثر الناس لا يعلمون أن الله قادر؛ فإنه لم ينازع في قدرة الله أحد من المقرين بوجوده سبحانه؛ ولكن حكمته في ذلك لا يعلمها أكثر الناس.

(٢) قوله سبحانه: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٨، ٣٩]، وقد قال النبي ﷺ: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم؛ لأمرت بقتلها»(٣) وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون إخبارًا عن أمر غير ممكن فعله، وهو أن الكلاب أمة لا يمكن إفناؤها، لكثرتها في الأرض، فلو أمكن إعدامها من الأرض لأمرت بقتلها.

والثاني: أن يكون مثل قوله: «أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح»(٤)، فهي أمة مخلوقة بحكمة ومصلحة؛ فإعدامها وإفناؤها؛ يناقض ما خلقت لأجله، والله أعلم بما أراد رسوله.

قال ابن عباس في رواية عطاء: ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾: يريد يعرفونني ويوحدونني

---

(١) ١٩٧ شفاء.

(٢) ٧٧ شفاء.

(٣) أخرجه ابن حبان (١٢/ ٤٧١-٤٧٢ رقم ٥٦٥٦) والنسائي في الكبرى (٣/ ١٤٨ رقم ٤٧٩١) وأبو داود (رقم ٢٨٤٥) وابن ماجه (رقم ٣٢٠٥) والترمذي (رقم ١٤٨٦، ١٤٨٩) والدارمي (رقم ٢٠٠٨) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٦٣ رقم ١٩٩٢٤) والطبراني في الأوسط (١/ ١٦٢ رقم ٥٠٨) (٣/ ١٣٦ رقم ٢٧١٩) وفي الكبير (١١/ ٣٤٩ رقم ١١٩٧٩) وأبو يعلى (٤/ ٢٣٠ رقم ٢٤٤٢) وابن الجعد (رقم ٣١٨١)، وأحمد (٤/ ٨٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٠١٩) ومسلم (رقم ٢٢٤١) وانظر: شرح النووي (١٤/ ٢٣٩).

ويسبحونني ويحمدونني، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[الإسراء: ٤٤]. ومثل قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾[النور: ٤١].

ويدل علىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾[الحج: ١٨]. وقوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾[النحل: ٤٩]، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾[سبأ: ١٠]، ويدل عليه قوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾[النحل: ٦٨]. وقوله: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ﴾[النمل: ١٨]، وقول سليمان: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾[النمل: ١٦].

وقال مجاهد: أمم أمثالكم، أصناف مصنفة، تعرف بأسمائها[١].

وقال الزجاج: أمم أمثالكم في أنها تبعث.

وقال ابن قتيبة: أمم أمثالكم في طلب الغذاء وابتغاء الرزق وتوقي المهالك[٢].

وقال سفيان بن عيينة: ما في الأرض آدمي؛ إلا وفيه شبه من البهائم: فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب. ومنهم من يتطوس كفعل الطاووس، ومنهم من يشبه الخنازير التي لو ألقي إليها الطعام الطيب؛ عافته فإذا قام الرجل عن رجيعه؛ ولغت فيه. فلذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة؛ لم يحفظ واحدة منها، وإن أخطأ رجل ترواه وحفظه.

قال الخطابي: ما أحسن ما تأول سفيان هذه الآية، واستنبط منها هذه الحكمة، وذلك أن الكلام إذا لم يكن حكمه مطاوعًا لظاهره وجب المصير إلىٰ باطنه.

وقد أخبر الله عن وجود المماثلة بين الإنسان وبين كل طائر ودابة، وذلك ممتنع

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ١٨٧) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٣٢).

(٢) انظر: تأويل مختلف الحديث (ص ١٣٤).

من جهة: الخلقة، والصورة، وعدم من جهة: النطق، والمعرفة؛ فوجب أن يكون منصرفًا إلىٰ المماثلة في الطباع والأخلاق.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فاعلم أنك إنما تعاشر البهائم والسباع، فليكن حذرك منهم ومباعدتك إياهم علىٰ حسب ذلك[(١)]. انتهىٰ كلامه.

والله سبحانه قد جعل بعض الدواب كسوبًا محتالًا، وبعضها متوكلًا غير محتالٍ، وبعض الحشرات يدخر لنفسه قوت سنته، وبعضها يتكل علىٰ الثقة بأن له في كل يوم قدر كفايته رزقًا مضمونًا وأمرًا مقطوعًا، وبعضها يدخر، وبعضها لا تكسب له، وبعض الذكورة يعول ولده، وبعضها لا يعرف ولده البتة، وبعض الإناث تكفل ولدها لا تعدوه، وبعضها تضع ولدها وتكفل ولد غيرها، وبعضها لا تعرف ولدها إذا استغنىٰ عنها، وبعضها لا تزال تعرفه وتعطف عليه.

[(٢)]قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقد اختلف في الكتاب ههنا: هل هو القرآن أو اللوح المحفوظ؟ علىٰ قولين:

فقالت طائفة: المراد به: القرآن، وهذا من العام المراد به الخاص: أي ما فرطنا فيه من شيء يحتاجون إلىٰ ذكره وبيانه، كقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩]. ويجوز أن يكون من العام المراد به عمومه والمراد: أن كل شيء ذكر فيه مجملًا ومفصلًا، كما قال ابن مسعود: وقد لعن الواصلة والمستوصلة، ما لي لا ألعن من لعنه الله في كتابه؟ فقالت امرأة: لقد قرأت القرآن فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[(٣)] [الحشر: ٧]،

---

(١) انظر: العزلة (ص ٥٥).

(٢) ٤٠ شفاء.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٨٦) (٥٩٣٩) ومسلم (رقم ٢١٢٥) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٣٧٣).

ولعن رسول الله ﷺ الواصلة والمستوصلة(١). وقال الشافعي: ما نزل بأحدٍ من المسلمين نازلة؛ إلا وفي كتاب الله سبيل الدلالة عليها(٢).

وقالت طائفة: المراد بالكتاب في الآية: اللوح المحفوظ، الذي كتب الله فيه كل شيء، وهذا إحدىٰ الروايتين عن ابن عباس، وكان هذا القول أظهر في الآية، والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ وهذا يتضمن: أنها أمم أمثالنا في الخلق والرزق والأكل والتقدير الأول، وأنها لم تخلق سدىٰ، بل هي معبدة مذللة قد قدر خلقها وأجلها ورزقها وما تصير إليه.

ثم ذكر عاقبتها ومصيرها بعد فنائها، ثم قال: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾، فذكر مبدأها ونهايتها، وأدخل بين هاتين الحالتين قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] أي: كلها قد كتبت وقدرت وأحصيت قبل أن توجد، فلا يناسب هذا ذكر كتاب الأمر والنهي، وإنما يناسب ذكر الكتاب الأول.

ولمن نصر القول الأول؛ أن يجيب عن هذا بأن في ذكر القرآن ههنا الإخبار عن تضمنه لذكر ذلك والإخبار به، فلم نفرط فيه من شيء، بل أخبرناكم بكل ما كان وما هو كائن: إجمالًا وتفصيلًا.

ويرجحه أمر آخر، وهو أن هذا ذكر عقيب قوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧].

فنبههم علىٰ أعظم الآيات وأدلها علىٰ صدق رسول الله ﷺ، وهو الكتاب الذي يتضمن بيان كل شيء، ولم يفرط فيه من شيء.

ثم نبههم بأنهم أمة من جملة الأمم التي في السماوات والأرض، وهذا يتضمن؛

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٤٠) ومسلم (رقم ٤١٢٤) وانظر: الفتح (١٠/ ٣٧٦) وشرح النووي (١٤/ ١٠٢-١٠٣).

(٢) انظر: قواعد التحديث (ص ٥٩).

التعريف: بوجود الخالق وكمال قدرته وعلمه وسعة ملكه، وكثرة جنوده، والأمم التي يحصيها غيره، وهذا يتضمن: أنه لا إله غيره، ولا رب سواه، وأنه رب العالمين. فهذا دليل على وحدانيته وصفات كماله من جهة خلقه وقدره، وإنزال الكتاب الذي لم يفرط فيه من شيء دليل من جهة أمره وكلامه، فهذا استدلال بأمره، وذاك بخلقه: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]؟!

وشهد لهذا أيضًا قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

ولمن نصر إن المراد بالكتاب: اللوح المحفوظ أن يقول: لما سألوا آية أخبرهم سبحانه بأنه لم يترك إنزالها لعدم قدرته على ذلك، فإنه قادر على ذلك، وإنما لم ينزلها لحكمته ورحمته بهم وإحسانه إليهم إذ لو أنزلها على وفق اقتراحهم لعوجلوا بالعقوبة إن لم يؤمنوا.

ثم ذكر ما يدل على كمال قدرته بخلق الأمم العظيمة، التي لا يحصي عددها إلا هو، فمن قدر على خلق هذه الأمم مع اختلاف أجناسها وأنواعها وصفاتها وهيئاتها، كيف يعجز عن إنزال آية؟!

ثم أخبر عن كمال قدرته وعلمه بأن هؤلاء الأمم قد: أحصاهم وكتبهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم وأحوالهم في كتاب لم يفرط فيه من شيء، ثم يميتهم، ثم يحشرهم إليه ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [الأنعام: ٣٩]، عن النظر والاعتبار الذي يؤديهم إلى معرفة ربوبيته ووحدانيته وصدق رسله.

ثم أخبر أن الآيات؛ لا تستقل بالهدى؛ ولو أنزلها على وفق اقتراح البشر؛ بل الأمر كله له ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] فهو أظهر القولين. والله أعلم.

...[(١)] قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨] قال: منهم من يكون علىٰ أخلاق السباع العادية، ومنهم: من يكون علىٰ أخلاق الكلاب، وأخلاق الخنازير، وأخلاق الحمير، ومنهم: من يتطوس في ثيابه كما يتطوس الطاووس في ريشه، ومنهم: من يكون بليدًا كالحمار، ومنهم: من يؤثر علىٰ نفسه كالديك، ومنهم: من يألف ويؤلف كالحمام، ومنهم: الحقود كالجمل، ومنهم: الذي هو خير كله كالغنم، ومنهم: أشباه الذئاب، ومنهم: أشباه الثعالب التي تروغ كروغانها[(٢)].

وقد شبه الله تعالىٰ أهل الجهل والغي بالحمر تارة، وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة، وتقوىٰ هذه المشابهة باطنًا حتىٰ تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفيًّا، يراه المتفرسون، وتظهر في الأعمال ظهورًا يراه كل أحد، ولا يزال يقوي حتىٰ تعلو الصورة، فتنقلب له الصورة بإذن الله، وهو المسخ التام، فيقلب الله ﷻ الصورة الظاهرة علىٰ صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم، ويفعل بقوم من هذه الأمة، يمسخهم قردة وخنازير.

***

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

[(٣)] قال الإمام أحمد: حدثنا يحيىٰ بن غيلان: حدثنا رشدين بن سعد، عن حرملة بن عمران التجيبي، عن عقبة بن مسلم، عن عقبة بن عامر ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا علىٰ معاصيه وما يحب؛ فإنما هو استدراج**»، ثم تلا قوله تعالىٰ:

---

(١) ١٦٠ الجواب الكافي.
(٢) انظر: فيض القدير (٤/ ١٢٨) وعون المعبود (١٠/ ١٩٧) وتحفة الأحوذي (٥/ ٤١١).
(٣) ٢١٧ عدة الصابرين.

الآية. ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1] [الأنعام:م ٤٤].

[2]قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]. وهذا من أعظم الغرة: أن تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان موكل بالغرور. وطبع النفس الأمارة الاغترار. فإذا اجتمع الرأي والبغي والرأي المحتاج والشيطان الغرور والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف، فالشياطين غروا المغترين بالله وأطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه في عفوه وتجاوزه، وحدوثهم بالتوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويف، حتى هجم الأجل، فأخذوا على أسوأ أحوالهم.

وقال تعالى: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾ [فاطر: ٥]، وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت: ٥٠] أي: أنا أهله وجدير به، ومستحق له، ثم قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦] فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد في غروره، فقال: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَى﴾ [فصلت: ٥٠] يعني: الجنة والكرامة. وهكذا تكون الغرة بالله. فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعد اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك؛ حتى يتردى في آبار الهلاك.

[3]وقد أخبر تعالى أن تسليط الشيطان؛ إنما هو على الذين يتولونه، والذين هم به

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٤٥) وفي الزهد (رص ١٢) والطبراني في الأوسط (٩/ ١١٠ رقم ٩٢٧٢) وفي الكبير (٣٣٠٨٧ رقم ٩١٣) والروياني في مسنده (رقم ٢٦١) والبيهقي في الشعب (١٢٨/٤ رقم ٤٥٤٠) وابن المبارك في الزهد (رقم ٣٢١) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٣٢)وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٧١) وعمدة القاري (٢٣/ ٥٤) وفيض القدير (١/ ٣٥٥).

(٢) ٢٩٨ الروح.

(٣) ٣٢٧ مختصر الصواعق جـ١.

مشركون. فلما تولوه دون الله وأشركوه معه؛ عوقبوا علىٰ ذلك بتسليطه عليهم، وكانت هذه الأولوية والإشراك؛ عقوبة خلو القلب وفراغه من الإخلاص والإنابة العاصمة من ضدها. فقد بين أن إخلاص الدين يمنع من سلطان الشيطان؛ لأن فعل السيئات توجب العذاب. فإخلاص القلب لله؛ مانع له من فعل ما يضاده، وإلهامه البر والتقوىٰ؛ ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته، وإلهام الفجور؛ عقوبة خلوه من الإخلاص. فإن قلت: هذا الترك إن كان أمرًا وجوديًّا عاد السؤال؛ عقوبة خلوه من الإخلاص. فإن قلت: هذا الترك إن كان أمرًا وجوديًّا عاد السؤال، وإن كان أمرًا عدميًّا فكيف يعاقب علىٰ العدم؟

قلت: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه؛ فهذا قد يقال: إنه أمر وجودي، وإنما هنا عدم وخلو عن أسباب الخير، وهذا العموم ليس بكف للنفس ومنع لها عما تريده وتحبه؛ بل هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها. والعقوبة علىٰ الأمر العدمي؛ هي بفعل السيئات لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل. فلله سبحانه عقوبتان: إحداهما: جعله خاطئًا مذنبًا لا يحس بألمها ومضرتها؛ لموافقتها شهوته، وإرادته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات. والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات.

وقد قرن الله تعالىٰ بين هاتين العقوبتين في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فهذه العقوبة الأولىٰ، ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] فهذه العقوبة الثانية.

وأعط هذا الموضع حقه من التأمل، وانظر كيف ترتبت هاتان العقوبتان إحداهما علىٰ الأخرىٰ، لكن العقوبة الأولىٰ عقوبة موافقة لهواه وإرادته، والثانية مخالفة لما يحبه ويتلذذ به. وتأمل عدل الرب تعالىٰ في هذه وهذه، وأنه سبحانه إنما وضع العقوبة في محلها الأولىٰ بها، الذي لا يليق بها غيره، وهذا أمر لو لم تشهده القلوب وتعرفه؛ لما جاز أن ينسب إلىٰ الله تعالىٰ سواه ولا يظن به غيره، فإنه من ظن السوء بمن يتعالىٰ

ويتقدس عن كل سوء وعيب.

فإن قلت: هل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده؛ من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له؟ أم ذلك محض جعله في قلوبهم؟

قلت: لا، بل هو محض منته وفعله، وهو من أعظم الخير الذي هو في يده، فالخير كله في يديه، ولا يقدر أحدنا يأخذ من الخير إلا ما أعطاه، ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه.

فإن قلت: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم، ولم يوفقوا له، ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم؛ عاد السؤال، وكان منعهم منه ظلمًا، ولزمك القول: بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه؟

قيل: لا يكون بمنعه سبحانه لهم من ذلك ظالمًا؛ وإنما يكون المانع ظالمًا إذا منع غيره حقًّا لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرمه الرب على نفسه، وأما إذا منع غيره ما ليس حقًّا له؛ بل محض فضله ومنته عليه لم يكن ظالمًا بمنعه.

فإن قلت: فإذا كان العطاء والبذل والتوفيق؛ إحسانًا ورحمة وفضلًا؛ فهلا كانت الغلبة له، كما أن رحمته تغلب غضبه؟

قيل: المقصود من هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع، والمنع المستلزم للعقوبة؛ ليس بظلم. وهذا سؤال عن الحكمة التي أوجبت تقديم العدل على الفضل في بعض المحال، وهلا ساوى بين العباد في الفضل؟

وهذا السؤال حاصله: لم تفضل على هذا، ولم يتفضل على هذا؟

وقد تولى سبحانه الجواب عنه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾ [الجمعة: ٤]، وقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾ [الحديد: ٢٩] وليس في الحكمة اطلاع فرد من أفراد الناس على كمال حكمته في عطائه ومنعه.

بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد؛ حتى أبصر طرفًا يسيرًا من حكمته في خلقه وأمره وثوابه وعقابه، وتأمل أحوال محال ذلك، واستدل بما علمه على ما لم يعلمه وتيقن أن مصدر ما علم وما لم يعلمه، لحكمة بالغة لا توزن بعقول المخلوقين؛ فقد

وفق للصواب.

ولما استشكل المشركون هذا التخصيص قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ فقال لهم الله مجيبًا لهم: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. وهذا جواب شافٍ كافٍ، وفي ضمنه أنه سبحانه؛ أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر؛ من المحل الذي لا يصلح لغرسها؛ فلو غرست فيه لم تثمر، فكان غرسها هناك ضائعًا لا يليق بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

***

﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾.

[(1)]قال تعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] وقال أحبابه وأولياؤه: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان: ٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠﴾ [الليل: ١٩، ٢٠] فجعل غاية أعمال الأبرار والمقربين والمحبين: إرادة وجهه.

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٢٩﴾ [الأحزاب: ٢٩] فجعل إرادته غير إرادة الآخرة وهذه الإرادة لوجهه موجبة للذة النظر إليه في الآخرة. كما في مستدرك الحاكم وصحيح ابن حبان في الحديث المرفوع عن النبي ﷺ: أنه كان يدعو: «**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك**

(١) ٢٣ مدارج جـ٣.

على الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضى، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضى بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[1].

فقد اشتمل هذا الحديث الشريف على ثبوت لذة النظر إلى وجه الله وعلى ثبوت الشوق إلى لقائه. وعند الجهمية لا وجه له سبحانه، ولا ينظر إليه، فضلًا أن يحصل به لذة. كما سمع بعضهم داعيًا يدعو بهذا الدعاء، فقال: ويحك! هبْ أن له وجهًا، أفتلتذ بالنظر إليه؟

***

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

[2]هم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى، ويشكرونه عليها، ويحبونه ويحمدونه على أن جعلهم من أهله، فهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان في هداية من هدى وإضلال من أضل، ولم يطرد عن بابه، ولم يبعد عن جنابه؛ من يليق به التقريب والهدى والإكرام؛ بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد، وحكمته وحمده تأبى تقريبه وإكرامه، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٠٤-٣٠٥ رقم ١٩٧١) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٨) وفي الصغرى (رقم ١٣٠٥) وعبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٤٢ رقم ١٩٦٤٧) والبزار ((٤/ ٢٣٠ رقم ١٣٩٣) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٨٥ رقم ٤٢٤) والداقطني في رؤية الله (رقم ١٧٣) والطبراني في الدعاء (رقم ٦٢٤) وتمام في فوائده (٢/ ١٤٧-١٤٨ رقم ١٣٨٧) وانظر: شرح حديث لبيك لابن رجب الحنبلي (ص ٨٢) وفيض القدير (٢/ ١٤٦).

(٢) ١٢٨ مدارج جـ١.

...[1]ولو علم في الكفار: خيرًا، وقبولًا لنعمة الإيمان، وشكرًا له عليها، ومحبة له، واعترافًا بها؛ لهداهم إلى الإيمان، ولهذا لما قالوا للمؤمنين: ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ أجابهم بقوله: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[الأنعام: ٥٣].

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هم الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان ويشكرون الله عليها.

فهو سبحانه ما أعطى إلا بحكمته، ولا منع إلا بحكمته ولا أضل إلا بحكمته، وإذا تأمل البصير أحوال العالم وما فيه من النقص، رآه عين الحكمة، وما عمرت الدنيا والآخرة والجنة والنار إلا بحكمته.

وفي الحكمة ثلاثة أقوال للناس:

أحدها: أنها مطابقة علمه لمعلومه، وإرادته ومشيئته لمراده، هذا تفسير الجبرية، وهو في الحقيقة نفي حكمته، إذ مطابقة المعلوم والمراد، أعم من أن يكون «حكمة» أو خلافها، فإن السفيه من العباد، يطابق علمه وإرادته لمعلومه ومراده، مع كونه سفيهًا.

الثاني ـ مذهب القدرية النفاة ـ: أنها مصالح العباد، ومنافعهم العائدة عليهم؛ وهو إنكار لوصفه تعالى بالحكمة، وردوها إلى مخلوق من مخلوقاته.

الثالث ـ قول أهل الإثبات والسنة ـ: إنها الغايات المحمودة المطلوبة له سبحانه بخلقه وأمره، التي أمر لأجلها، وقدَّر وخلق لأجلها؛ وهي صفته القائمة به كسائر صفاته: من سمعه وبصره، وقدرته وإرادته، وعلمه وحياته وكلامه.

وللرد على طائفتي الجبرية والقدرية موضع غير هذا، والله أعلم.

[2]قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ

(١) ٤٨١ مدارج جـ٢.
(٢) ١٩١ شفاء.

بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣] فلا ريب أن هذا تعليل لفعله المذكور. وهو امتحان بعض خلقه ببعض، كما امتحن السادات والأشراف بالعبيد والضعفاء والموالي، فإذا نظر الشريف والسيد إلى العبد والضعيف والمسكين قد أسلم؛ أنف وحمي أن يسلم معه أو بعده، ويقول: هذا يسبقني إلى الخير والفلاح وأتخلف أنا، فلو كان ذلك خيرًا وسعادة ما سبقنا هؤلاء إليه، فهذا القول منهم هو بعض الحكم والغاية المطلوبة بهذا الامتحان، فإن هذا القول دال على إباء واستكبار وترك الانقياد للحق بعد المعرفة التامة به، وهذا وإن كان علة فهو مطلوب لغيره.

والعلل الغائية: تارة تطلب لنفسها، وتارة تطلب لغيرها؛ فتكون وسيلة إلى مطلوب لنفسه، وقول هؤلاء ما قالوه وما يترتب عليه هذا القول؛ موجب لآثار مطلوبة للفاعل من إظهار: عدله وحكمته، وعزه وقهره، وسلطانه، وعطائه من يستحق عطاءه، ويحسن وضعه عنده، ومنعه من يستحق المنع، ولا يليق به غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون المنعم عليهم فيما من عليهم، من بين من لا يعرفها ولا يشكر ربه عليها، وكانت فتنة بعضهم ببعض؛ لحصول هذا التمييز الذي ترتب عليه: شكر هؤلاء، وكفر هؤلاء.

(١)أما استشهاده بالآية، فوجهه: أن أتباع الرسل، الذين صدقوهم، وآثروا الله والدار الآخرة على قومهم وأصحابهم؛ قد أودع الله قلوبهم سرًّا من أسرار معرفته ومحبته، والإيمان به، خفي على أعداء الرسل؛ فنظروا إلى ظواهرهم، وعموا عن بواطنهم، فازدروهم واحتقروهم، وقالوا للرسل: «اطرد هؤلاء عنك حتى نأتيك ونسمع منك»، وقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ فقال نوح عليه السلام لقومه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود: ٣١] قال

(١) ١٧٠ مدارج جـ٣.

الزجاج: المعنى: إن كنتم تزعمون أنهم إنما اتبعوني في بادي الرأي وظاهره فليس عليَّ أن أطلع على ما في أنفسهم. فإذا رأيت من يوحد الله؛ عملت على ظاهره، ورددت علم ما في نفوسهم إلى الله. وهذا معنى حسن.

والذي يظهر من الآية أن الله يعلم ما في أنفسهم؛ إذ أهَّلهم لقبول دينه وتوحيده، وتصديق رسله. والله ﷻ عليم حكيم، يضع العطاء في مواضعه وتكون هذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] فإنهم أنكروا أن يكون الله سبحانه: أهلهم للهدى والحق، وحرمه رؤساء الكفار وأهل العزة والثروة منهم؛ كأنهم استدلوا بعطاء الدنيا على عطاء الآخرة. فأخبر الله سبحانه أنه أعلم بمن يؤهله لذلك لسر عنده من معرفة قدر النعمة، ورؤيتها من مجرد فضل المنعم، ومحبته وشكره عليها. وليس كل أحد عنده هذا السر، فلا يؤهل كل أحد لهذا العطاء.

(١)وقد قرن تعالى ذكره الذي هو المراد من الخلق بذكره وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر، والصبر خادم لهما، ووسيلة إليهما، وعونا عليهما، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقرن سبحانه الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به، فقال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] أي: إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان، فما أصنع بعذابكم بعد هذا.

وأخبر سبحانه: أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده، فقال ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝﴾ [الأنعام: ٥٣] وقسم الناس إلى شكور وكفور، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله، قال تعالى في الإنسان: ﴿إِنَّا

---

(١) ١٢٢ عدة الصابرين.

هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: ٣]. وقال نبيه سليمان عليه السلام: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٧]. وقال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧]. وهذا كثير في القرآن، يقابل سبحانه بين الشكر والكفر، فهو ضده.

قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الإيمان، فلم ينقلبوا على أعقابهم.

وعلق سبحانه المزيد بالشكر والمزيد منه لا نهاية له، كما لا نهاية لشكره، وقد وقف سبحانه كثيرًا من الجزاء على المشيئة، كقوله: ﴿ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ﴾ [التوبة: ٢٨]. وقوله في الإجابة: ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ ﴾ [الأنعام: ٤١]. وقوله في الرزق: ﴿ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢١٢]، وفي المغفرة: ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. والتوبة: ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ [التوبة: ١٥]. وأطلق جزاء الشكر إطلاقًا؛ حيث ذكر كقوله: ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٥]. ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها؛ جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال: ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧].

ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده، فقال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]. وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلًا

يقول: اللهم اجعلني من الأقلين. فقال: ما هـذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن الله قـال: ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠]، وقـال تعـالىٰ: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤] فقال عمر: صدقت[1].

وقد أثنىٰ الله ﷻ علىٰ أول رسول بعثه إلىٰ أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣ ﴾ [الإسراء: ٣].

وفي تخصيص نوح ها هنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته؛ إشارة إلىٰ الاقتداء به؛ فإنه أبوهم الثاني؛ فان الله تعالىٰ لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا إلا من ذريته، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ۝٧٧ ﴾ [الصافات: ٧٧]، فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر، فـ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾.

وقد أخبر سبحانه: إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته، فقال: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وأمر عبده موسىٰ أن يتلقىٰ ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال تعالىٰ: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وأول وصية وصىٰ الله بها الإنسان بعـد ما عقل عنه بالشكـر لـه وللوالدين، فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤ ﴾ [لقمان: ١٤]. وأخبر: أن رضاه في شكره، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧]. وأثنىٰ سبحانه علىٰ خليلـه إبراهيم بشكر نعمـه، فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٦٥ رقم ٢٩٥١٤) وابن فضيل الضبي في الدعاء (رقم ٤٨) وأحمد في الزهد (ص ١١٤).

ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١].

فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة، أي: قدوة يؤتم به في الخير، وأنه قانتًا لله. والقانت هو المطيع المقيم على طاعته، والحنيف هو المقبل على الله، المعرض عما سواه، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه، فجعل الشكر غاية خليله.

وأخبر سبحانه: أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره؛ بل هو الغاية التي خلق عبيده لأجلها: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨]. فهذه غاية الخلق وغاية الأمر، فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ويجوز أن يكون قوله: ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ تعليلًا لقضائه لهم بالنصر، ولأمره لهم بالتقوى، ولهما معًا وهو الظاهر، فالشكر غاية الخلق والأمر، وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول في قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥١، ١٥٢] قالوا: فالشكر مراد لنفسه، والصبر مراد لغيره. والصبر إنما حمد لافضائه وايصاله إلى الشكر، فهو خادم الشكر.

وقد ثبت في الصحيحين: عن النبي ﷺ، أنه قام حتى تفطرت قدماه، فقيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»(١).

وثبت في المسند والترمذي أن النبي قال لمعاذ: «**والله إني لأحبك، فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٣٠) ومسلم (رقم ٢٨١٩) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٥) وشرح النووي (١٧/ ١٦٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٦٤ رقم ٢٠٢٠) وابن خزيمة (١/ ٣٦٩ رقم ٧٥١) والنسائي في الكبرى ٦/ ٣٢ رقم ٩٩٣٧) وأبو داود (رقم ١٥٢٢) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٦٠ رقم ١١٠) وفي مسند =

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا إسحاق بن إسماعيل: حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون، عن هشام بن عروة قال: كان من دعاء النبي ﷺ: **«اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»**(١).

قال: وحدثنا محمود بن غيلان: حدثنا المؤمل بن إسماعيل: حدثنا حماد بن سلمة: حدثنا حميد الطويل، عن طلق بن حبيب، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: **«أربع من أعطيهن؛ فقد أعطي خير الدنيا والآخرة: قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وبدنًا على البلاء صابرًا، وزوجة لا تبغيه خونًا في نفسها ولا في ماله»**(٢).

وذكر أيضًا من حديث القاسم بن محمد عن عائشة عن النبي ﷺ قال: **«ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله؛ إلا كتب الله له شكرها، وما علم الله من عبد ندامة على ذنب؛ إلا غفر الله له قبل أن يستغفره. وإن الرجل يشتري الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه؛ حتى يغفر له»**(٣).

وقد ثبت في صحيح مسلم عنه ﷺ أنه قال: **«إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكله**

الشاميين (٢/ ٤٣٦ رقم ١٦٥٠) والبزار (٧/ ١٠٤ رقم ٢٦٦١) وعبد بن حميد (رقم ١٢٠) والحاكم (١/ ٤٠٧ رقم ١٠١٠) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وصححه النووي في رياض الصالحين (ص ١١٦، ٣٢٠) وتهذيب الأسماء (٢/ ٤٠٣).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٤) وابن أبي شيبة (٦/ ٥١ رقم ٢٩٤٠٠) (٦/ ١٠٤ رقم ٢٩٨٢٥) والبزار (٥/ ٤٣٨ رقم ٢٠٧٥) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٧٢): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير عمرو بن عبد الله الأودي وهو ثقة.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧/ ١٧٩ رقم ٧٢١٢) وفي الكبرى (١١/ ١٣٤ رقم ١١٢٧٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٠٤ رقم ٤٤٢٩) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٣٤) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٧٣): رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجال الأوسط رجال الصحيح، وقال المنذري في الترغيب (٢/ ٢٥٦ رقم ٢٣٠١): رواه الطبراني بإسناد جيد. وقال أيضًا (٣/ ٢٨ رقم ٢٩٤٦): رواه الطبراني في الكبير والأوسط وإسناد أحدهما جيد.

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٦٩٥ رقم ١٨٩٤) والبيهقي مختصرًا في الشعب (٤/ ٩٢ رقم ٤٣٨١) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٤٧) وقال الحاكم: هذا حديث لا أعلم في إسناده أحدًا ذُكِرَ بجرح، ولم يخرجاه، ونقل المنذري في ترغيبه (٣/ ٦٨ رقم ٣١٠٨) كلام الحاكم بمعناه.

فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»(١) فكان هذا الجزاء العظيم الذي هو أكبر أنواع الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] في مقابلة شكره بالحمد.

وذكر ابن أبي الدنيا من حديث عبد الله بن صالح: حدثنا أبو زهير يحيى بن عطارد القرشي، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يرزق الله عبدًا الشكر؛ فيحرمه الزيادة، لأن الله تعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾»**(٢).

وقال الحسن البصري: إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يشكر عليها؛ قلبها عذابًا(٣). ولهذا كانوا يسمون الشكر: الحافظ، فإنه الذي يحفظ النعم الموجودة؛ والجالب، لأنه يجلب النعم المفقودة.

وذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال لرجل من همدان: إن النعمة موصولة بالشكر، والشكر يتعلق بالمزيد، وهما مقرونان في قرن، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد(٤).

وقال عمر بن عبد العزيز: قيدوا نعم الله بشكر الله(٥)، وكان يقال: الشكر قيد النعم(٦). وقال مطرف بن عبد الله: لأن أعافى فأشكر؛ أحب إليَّ من أن ابتلى فأصبر(٧).

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٣٤) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٥١) وتحفة الأحوذي (٥/ ٤٣٧).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٢٤ رقم ٤٥٢٦) وعبد الكريم القزويني في التدوين في أخبار قزوين (٢/ ٣٧٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١٧) وانظر: الدر المنثور (١/ ٣٦٩).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١٨) والبيهقي في الشعب (٤/ ١٢٧ رقم ٤٥٣٢).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ١٣٠ رقم ٤٥٤٦) وانظر: الدر المنثور (١/ ٣٧١) وكشف الخفاء (٢/ ١٣٦ رقم ١٩٠٧).

(٦) انظر: فيض القدير (٢/ ١١٩).

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٠٦ رقم ٤٤٣٧) وهناد في الزهد (١/ ٢٥٤ رقم ٤٤٢) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٢٨) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٠٠، ٢١٢) (٧/ ٢٨٣) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٨/ ٣١٦، ٣١٧) وابن سعد في الطبقات (٧/ ١٤٤) وانظر: سير أعلام النبلاء =

وقال الحسن: أكثروا من ذكر هذه النعم، فإن ذكرها شكر[(١)] وقد أمر الله تعالىٰ نبيه أن يحدث بنعمة ربه، فقال: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. والله تعالىٰ يحب من عبده أن يرىٰ عليه أثر نعمته، فإن ذلك شكرها بلسان الحال.

وقال علي بن الجعد: سمعت سفيان الثوري يقول: إن داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: الحمد لله حمدًا كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله؛ فأوحىٰ الله إليه: يا داود أتعبت الملائكة[(٢)].

وقال شعبة: حدثنا المفضل بن فضالة، عن أبي رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز، لم نره عليه قبل ولا بعد، فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «إذا أنعم الله علىٰ عبد نعمة يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده»[(٣)].

وفي صحيفة عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ قال: «كلوا واشربوا وتصدقوا في غير مخيلة ولا سرف؛ فإن الله يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده»[(٤)].

= (٤/ ١٩٥) وتأويل مختلف الحديث (ص ١٧٠).
وورد ذلك من قول أبي بكر الصديق ﷺ ذكره الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح (٦/ ١٥٦) والعيني في عمدة القاري (١٤/ ٢٧٤).
وورد أيضًا من قول أبي الدرداء ﷺ أخرجه الخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (١/ ٤٠٨-٤٠٩) وانظر: فيض القدير (٦/ ٣٦١).

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ١٠٢ رقم ٤٤٢١) وانظر: الدر المنثور (٨/ ٥٤٦).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٣٩ رقم ٤٥٨٢) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٣٧) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٧/ ٩٨-٩٩).

(٣) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ (٣/ ٢٧١ رقم ٥٨٨٨) وفي الشعب (٥/ ١٦٣ رقم ٦٢٠٠) والطبراني في الكبير (١٨/ ١٣٥ رقم ٢٨١) وأحمد (٤/ ٤٣٨) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٦٢ رقم ١١٠٢) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٥١) وفي العيال (٢/ ٥٥٠ رقم ٣٦٩) وابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٩١) (٧/ ١٠).

(٤) فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده».
أخرجه الترمذي (رقم ٢٨١٩) والحاكم (٤/ ١٥٠ رقم ٧١٨٨) والطيالسي (رقم ٢٢٦١) والبيهقي في الشعب (٤/ ١٣٦ رقم ٤٥٧١) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٥١) والعيال (٢/ ٥٥١ رقم ٣٧٠) =

وذكر شعبة: عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن أبيه، قال: أتيت رسول الله ﷺ، وأنا قشف الهيئة، فقال: «هل لك من مال؟» قال: قلت: نعم، قال: «من أي المال»؟ قلت: من كل المال قد آتاني الله من الإبل والخيل والرقيق والغنم، قال: «فإذا آتاك الله مالًا فليرىٰ عليك»[1]. وفي بعض المراسيل: «إن الله يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده في: مأكله ومشربه»[2].

وروىٰ عبد الله بن يزيد المقري، عن أبي معمر، عن بكير بن عبد الله رفعه: «من أعطي خيرًا فرؤىٰ عليه سمي: حبيب الله، محدثًا بنعمة الله. ومن أعطىٰ خيرًا ولم ير عليه سمي: بغيض الله، معاديًا لنعمة الله»[3]. وقال فضيل بن عياض: كان يقال: من عرف نعمة الله بقلبه، وحمده بلسانه؛ لم يستتم ذلك؛ حتىٰ يرىٰ الزيادة، لقول الله تعالىٰ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[4] [إبراهيم: ٧].

[5]قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فأجابهم بأن حكمته وعلمه يأبىٰ أن يضع رسالاته في غير محلها وعند غير أهلها ولو كان الأمر راجعا إلىٰ محض المشيئة لم يكن في هذا جواب، بل كان الجواب: أن

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه الترمذي. وكذا حسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ٣٢).

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٧٦ رقم ٦٥) (٤/ ٢٠١ رقم ٧٣٦٤) وابن حبان (١٢/ ٢٣٤ رقم ٥٤١٦) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٤٦٢ رقم ١٢٦٣) وأحمد (٣/ ٤٧٣) والطيالسي (رقم ١٣٠٣) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٥٢) وفي العيال (٢/ ٥٤٤ رقم ٣٦٣) وابن سعد في الطبقات (٦/ ٢٨) وابن قانع في معجم الصحابة (٣/ ٤١-٤٢) وصححه العراقي في آماليه كما ذكر ذلك المناوي في فيض القدير (١/ ٢٣٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٥٣) وفي العيال (٢/ ٥٤٩ رقم ٣٦٨).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٥٤) وفي العيال (٢/ ٥٤٥ رقم ٣٦٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٥٦) والبيهقي في الشعب (٤/ ١٢٧ رقم ٤٥٣٣).

(٥) ٢٠٣ شفاء العليل.

أفعاله لا تعلل، وهو يرجح مثلا على مثل بغير مرجح، والأمر عائد إلى مجرد القدرة، كما يقوله المنكرون.

وكذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٣] فلما سألوا عن التخصيص بمشيئة الله، وأنكروا ذلك. أجيبوا بأن الله أعلم بمن يصلح لمشيئته، وهو أهل لها، وهم الشاكرون الذين يعرفون قدر النعمة، ويشكرون عليها المنعم، فهؤلاء يصلحون بمشيئته، ولو كان الأمر عائدًا إلى محض المشيئة لم يحسن هذا الجواب.

ولهذا يذكر سبحانه صفة العلم؛ حيث يذكر التخصيص والتفصيل بينهما، على أنه إنما حصل بعلمه سبحانه بما في التخصيص المفصل مما يقتضي تخصيصه، وتفصيله، وهو الذي جعله أهلًا لذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١]. فذكر علمه عقيب ذكر تخصيصه سليمان بتسخير الريح، له وتخصيصه الأرض المذكورة بالبركة.

ومنه قوله: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ [المائدة: ٩٧] فذكر صفة العلم التي اقتضت تخصيص هذا المكان وهذا الزمان بأمر اختصا به دون سائر الأمكنة والأزمنة.

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٦] فأخبر: أنه وضع هذه الكلمة عند أهلها ومن هم أحق بها، وأنه أعلم بمن يستحقها من غيرهم، فهل هذا وصف من يخص بمحض المشيئة لا بسبب وغاية؟

(١) وبالجملة فلا يليق بالعبد غير ما أقيم فيه، وحكمتهُ وحمدُه أقاماه في مقامه الذي

(١) ٣٣ زاد المعاد جـ٢.

لا يليقُ به سِوَاه، ولا يَحْسُنُ أن يتخطَّاه، واللَّهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ مواقعَ عطائِهِ وفضله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فهو سبحانه أعلمُ بمواقع الفضل، ومحالِّ التخصيص، ومحالِّ الحِرمان، فبحمده وحكمته أعطى، وبحمده وحكمته حَرَم، فمن ردَّه المنعُ إلى الافتقار إليه والتذلُّلِ له، وتملُّقِهِ، انقلب المنعُ في حقه عطاء، ومَن شغله عطاؤهُ، وقطعه عنه؛ انقلب العطاءُ في حقِّه منعاً.

فكلُّ ما شغل العبدَ عن اللَّه، فهو مشؤوم عليه، وكلُّ ما ردَّه إليه؛ فهو رحمة به.

والربُّ تعالىٰ يُريد من عبده أن يفعل، ولا يقع الفعلُ؛ حتىٰ يُريد سبحانَه مِن نفسه أن يُعينَه، فهو سُبحانه أراد منَّا الاستقامةَ دائماً، واتخاذَ السبيل إليه، وأخبرنا: أن هذا المرادَ لا يقع؛ حتىٰ يُريد من نفسه: إعانَتنا عليها، ومشيئته لنا.

فهما إرادتان: إرادة من عبده أن يفعل، وإرادة من نفسه أن يُعينه، ولا سبيلَ له إلىٰ الفعل إلا بهذه الإرادة، ولا يملِك منها شيئاً، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التكوير: ٢٩]، فإن كان مع العبد روح أخرىٰ، نِسبتُها إلىٰ روحه، كنسبة روحِه إلىٰ بدنه يستدعي بها إرادةَ اللهِ من نفسه أن يفعلَ به ما يكون به العبدُ فاعلاً، وإلا فمحلُّه غير قابلٍ للعطاء، وليس معه إناء يوضع فيه العطاءُ، فمَن جاء بغير إناءٍ، رجع بالحِرمَانِ، ولا يلومنَّ إلا نفسه.

***

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

(١) قاعدة جليلة: قال الله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٥٥]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ

---

(١) ١٠٧ فوائد.

غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ الآية [النساء: ١١٥].

والله تعالىٰ قد بين في كتابه سبيل المؤمنين مفصّلة، وسبيل المجرمين مفصّلة، وعاقبة هؤلاء مفصّلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وفق بها هؤلاء، والأسباب التي خذل بها هؤلاء.

وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما، وبيّنهما غاية البيان، حتىٰ شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلىٰ مقصوده، والطريق الموصل إلىٰ الهلكة.

فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة علىٰ جميع من أتىٰ بعدهم إلىٰ يوم القيامة. فإنهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلىٰ الهلاك وعرفوها مفصّلة، ثم جاءهم الرسول؛ فأخرجهم من تلك الظلمات إلىٰ: سبيل الهدىٰ، وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلىٰ النور التام، ومن الشرك إلىٰ التوحيد، ومن الجهل إلىٰ العلم، ومن الغي إلىٰ الرشاد، ومن الظلم إلىٰ العدل، ومن الحيرة والعمىٰ إلىٰ الهدىٰ والبصائر، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه. فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضا لما انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس للتوحيد والإيمان والإسلام وأبغض الناس في ضده، عالمين بالسبيل علىٰ التفصيل.

[1]المثال السابع: مما ادعىٰ المعطلة مجازه الفوقية، وقد ورد به القرآن: مطلقًا بدون حرف، ومقترنًا بحرف.

---

(١) ٢٠٥ مختصر الصواعق جـ٢.

فالأول: كقوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٦-١٨] في موضعين.

والثاني: كقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. وفي حديث الأوعال لما ذكر: السموات السبع، وذكر البحر الذي فوقها، والعرش فوق ذلك كله، والله فوق ذلك؛ لا يخفىٰ عليه أعمالكم(١).

وحقيقة الفوقية علو ذات الشيء علىٰ غيره، فادعىٰ الجهمي: أنها مجاز في فوقية الرتبة والقهر، كما يقال: الذهب فوق الفضة، والأمير فوق نائبه، وهذا وإن كان ثابتًا للرب تعالىٰ؛ لكن إنكار حقيقة فوقيته سبحانه وحملها علىٰ المجاز؛ باطل من وجوه عديدة:

أحدها: أن الأصل الحقيقة، والمجاز علىٰ خلاف الأصل.

الثاني: أن الظاهر خلاف ذلك.

الثالث: أن هذا الاستعمال المجازي لابد فيه من قرينة تخرجه عن حقيقته، فأين القرينة في فوقية الرب تعالىٰ؟

الرابع: أن القائل إذا قال: الذهب فوق الفضة؛ قد أحال المخاطب علىٰ ما يفهم من هذا السياق، والعهد، فأمرين: عهد تساويهما في المكان، وتفاوتهما في المكانة؛ فانصرف الخطاب إلىٰ ما يعرفه السامع ولا يلتبس عليه، فهل لأحد من أهل الإسلام وغيرهم عهد بمثل ذلك في فوقية الرب تعالىٰ حتىٰ ينصرف فهم السامع إليها؟!

الخامس: أن العهد والفطر والعقول والشرائع وجميع كتب الله المنزلة؛ علىٰ خلاف ذلك، وأنه سبحانه فوق العالم بذاته، فالخطاب بفوقيته ينصرف إلىٰ ما استقر في الفطر والعقول والكتب السماوية...(٢).

***

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٢٣) والترمذي (رقم ٣٣٢٠) وأبو يعلىٰ (١٢/ ٧٥-٧٦ رقم ٦٧١٣) وأحمد (١/ ٢٠٦) والبزار (٤/ ١٣٥ رقم ١٣١٩) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٧٦- ٧٧ رقم ١٨٢٧) والحاكم (٢/ ٤١٠ رقم ٣٤٢٨) وصححه. بينما حسنه الترمذي.

(٢) أوصلها المختصر إلىٰ ١٧ وجهًا في عدة صحائف. (ج).

﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

(١)قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عند نزول هذه الآية: «**أعوذ بوجهك**»(٢).

ولكن قد ثبت عنه أنه ﷺ لابد أن يقع في أمته خسف؛ ولكن لا يكون عامًّا وهذا عذاب من تحت الأرجل. وروي أنه كان في الأمة قذف أيضًا، وهذا عذاب من فوق. فيكون هذا من باب الإخبار بقدرته على ما سيفعله، وإن أريد به القدرة على عذاب الاستئصال فهو من القدرة على ما لا يريده.

وقد صرح سبحانه بأنه لو شاء لفعل مالم يفعله، في غير موضع من كتابه.

كقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩] وقوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة: ١٣] ونظائره. وهذا مما لا خفاء فيه بين أهل السنة، وبه تبين فساد قول من قال: إن القدرة لا تكون إلا مع الفعل لا قبله. وأن الصواب: التفصيل بين القدرة الموجبة والمصححة، فنفي القدرة عن الفاعل قبل الملابسة مطلقا خطأ، والله أعلم.

***

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

(٣)قد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلًا مطابقًا لحاله؛ فقال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ

(١) ٩٩ تبيان.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٢٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٩٢) (١٣/ ٣٨٨).

(٣) ٨٥ مفتاح جـ١.

هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنعام: ٧١].

***

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾.

(1) المقصود: أن هؤلاء كفروا بالأصلين، اللذين جاءت بهما جميع الرسل والأنبياء، من أولهم إلى آخرهم(2):

أحدهما: عبادة الله وحده لا شريك له، الكفر بما يُعبد من دونه من إله.

والثاني: الإيمان برسله، وما جاءوا به من عند الله، تصديقًا وإقراراً، وانقيادًا،

(١) ٢٥٣ إغاثة جـ٢.

(٢) تقدم أول البحث في سورة البقرة عند ذكر الله تعالى الصابئين (ج).

وامتثالًا. وليس هذا مختصًا بمشركي الصابئة، كما غلط فيه كثير من أرباب المقالات، بل هذا مذهب المشركين من سائر الأمم. لكن شرك الصابئة كان من جهة الكواكب والعلويات ولذلك ناظرهم إمام الحنفاء - صلوات الله وسلامه عليه - في بطلان إلهيتها بما حكاه الله سبحانه في سورة الأنعام (٧٤ - ٨٣) أحسن مناظرة وأبينها، ظهرت فيها حجته ودحضت حجتهم. فقال بعد أن بين بطلان إلهية الكواكب، والقمر، والشمس بأفولها، وأن الإله لا يليق به أن يغيب ويأفل، بل لا يكون إلا شاهدًا غير غائب، كما لا يكون إلا غالبًا قاهرًا، غير مغلوب ولا مقهور. نافعًا لعباده، يملك لعابده الضر والنفع، فيسمع كلامه، ويرى مكانه، ويهديه، ويرشده، ويدفع عنه كل ما يضره ويؤذيه. وذلك ليس إلا لله وحده. فكل معبود سواه باطل.

فلما رأى إمام الحنفاء: أن الشمس والقمر والكواكب ليست بهذه المثابة صعد منها إلى فاطرها وخالقها ومبدعها، فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ٧٩].

وفي ذلك إشارة إلى أنه سبحانه خالق أمكنتها ومحالها التي هي مفتقرة إليها، ولا قوام لها إلا بها، فهي محتاجة إلى محل تقوم به، وفاطر يخلقها ويدبرها ويربُّها. والمحتاج المخلوق المربوب المدبَّر لا يكون إلهًا. فحاجَّه قومه في الله، ومن حاجّ في عبادة الله فحجته داحضة. فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ [الأنعام: ٨٠]. وهذا من أحسن الكلام، أي: أتريدون أن تصرفوني عن الإقرار بربي وبتوحيده، وعن عبادته وحده، وتشككوني فيه؛ وقد أرشدني وبين لي الحق، حتى استبان لي كالعيان، وبين لي بطلان الشرك وسوء عاقبته، وأن آلهتكم لا تصلح للعبادة، وأن عبادتها توجب لعابديها غاية الضرر في الدنيا والآخرة، فكيف تريدون مني أن أنصرف عن عبادته وتوحيده إلى الشرك به؟ وقد هداني إلى الحق، وسبيل الرشاد؟ فالمحاجة والمجادلة إنما فائدتها طلب الرجوع والانتقال من الباطل إلى الحق ومن الجهل إلى العلم، ومن العمى إلى الإبصار، ومجادلتكم إياي في الإله الحق الذي كل معبود سواه باطل،

تتضمن خلاف ذلك.

فخوفوه بآلهتهم أن تصيبه بسوء، كما يخوف المشرك الموحد بإلهه الذي يألهه مع الله أن يناله بسوء، فقال الخليل: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٨٠].

فإن آلهتكم أقل وأحقر من أن تضر من كفر بها وجحد عبادتها، ثم رد الأمر إلى مشيئة الله وحده، وأنه هو الذي يخاف ويرجى. فقال: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗا﴾ [الأنعام: ٨٠]. وهذا استثناء منقطع. والمعنى: لا أخاف آلهتكم، فإنها لا مشيئة لها ولا قدرة، لكن إن شاء ربي شيئا نالني وأصابني، لا آلهتكم التي لا تشاء ولا تعلم شيئًا، وربي له المشيئة النافذة، وقد وسع كل شيء علمًا. فمن أولى بأن يخاف ويعبد: هو سبحانه، أم هي؟

ثم قال: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]. فتعلمون ما أنتم عليه من إشراك من لا مشيئة له ولا يعلم شيئًا ممن له المشيئة التامة، والعلم التام.

ثم قال: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ [الأنعام: ٨١].

وهذا من أحسن قلب الحجة، وجعل حجة المبطل بعينها دالة على فساد قوله، وبطلان مذهبه. فإنهم خوفوه بآلهتهم التي لم ينزل الله عليهم سلطانا بعبادتها. وقد تبين بطلان إلهيتها ومضرة عبادتها. ومع هذا فلا تخافون شرككم بالله وعبادتكم معه آلهة أخرى؟ فأي الفريقين أحق بالأمن وأولى بأن لا يلحقه الخوف؟ فريق الموحدين، أم فريق المشركين؟

فحكم الله سبحانه بين الفريقين بالحكم العدل، الذي لا حكم أصح منه. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ أي: بشرك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولما نزلت هذه الآية شقَّ أمرها على الصحابة، وقالوا: يا رسول الله وأينًا لم يظلم نفسه؟ فقال: «إنما هو الشرك: ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ

عَظِيمٌ﴾[(١)] [لقمان: ١٣]».

فحكم سبحانه للموحدين بالهدىٰ والأمن، وللمشركين بضد ذلك، وهو الضلال والخوف، ثم قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

قال أبو محمد بن حَزْم: وكان الذي ينتحله الصابئون؛ أقدم الأديان علىٰ وجْه الدهر، والغالب علىٰ الدنيا، إلىٰ أن أحدثوا الحوادث، وبدلوا شرائعه. فبعث الله إليهم إبراهيم خليله بدين الإسلام، الذي نحن عليه اليوم، وتصحيح ما أفسدوه، وبالحنيفية السمحة التي أتانا بها محمد رسول الله ﷺ من عند الله تعالىٰ. وكانوا في ذلك الزمان وبعده يسمون الحنفاء.

قلت: هم قسمان: صابئة مشركون، وصابئة حنفاء، وبينهم مناظرات. وقد حكىٰ الشهرسْتانيُّ بعض مناظراتهم في كتابه.

[(٢)]إنه سبحانه ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه وقومه وغلبته لهم بالحجة، وأخبر عن تفضيله بذلك ورفعه درجته بعلم الحجة، فقال تعالىٰ عقيب مناظرته لأبيه وقومه في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣] قال زيد بن أسلم ﷺ: نرفع درجات من نشاء بعلم الحجة.

[(٣)]فإن قيل: فما الفرق بين الحجج البينات؟

قيل: الفرق بينهما: أن الحجج هي الأدلة العلمية، التي يعقلها القلب وتسمع بالأذن، قال تعالىٰ في مناظرة إبراهيم لقومه، وتبيين بطلان ما هم عليه بالدليل العلمي:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢، ٣٣٦٠) ومسلم (رقم ١٢٤) وانظر: فتح الباري (١/ ٨٨) وشرح النووي (٢/ ١٤٣).

(٢) ٥١ مفتاح جـ١.

(٣) ١٤٤ مفتاح جـ١.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ قال ابن زيد: بعلم الحجة. وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠].

...[1] وأنكر على من فهم من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢] أنه ظلم النفس بالمعاصي، وبين أنه الشرك وذكر قول لقمان لابنه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ مع أن سياق اللفظ عند إعطائه حقه من التأمل يبين ذلك، فإن الله سبحانه لم يقل: ولم يظلموا أنفسهم، بل قال: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ ولبس الشيء بالشيء تغطيته به، وإحاطته به من جميع جهاته، ولا يغطي الإيمان ويحيط به، ويلبسه إلا الكفر. ومن هذا قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: ٨١] فإن الخطيئة لا تحيط بالمؤمن أبدًا، فإن إيمانه يمنعه من إحاطة الخطيئة به، ومع أن سياق قوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١] ثم حكم الله أعدل حكم وأصدقه: أن من آمن ولم يلبس إيمانه بظلم؛ فهو أحق بالأمن والهدى، فدل على أن الظلم الشرك.

وسأله عمر بن الخطاب عن الكلالة، وراجعه فيها مرارًا، فقال: «تكفيك آية الصيف»[2]، واعترف عمر بأنه خفي عليه فهمها، وفهمها الصديق.

وقد نهى النبي ﷺ عن لحوم الحمر الأهلية، ففهم بعض الصحابة من نهيه: أنه لكونها لم تخمس، وفهم بعضهم: أن النهي لكونها كانت حمولة القوم وظهرهم، وفهم بعضهم: أنه لكونها كانت جوَّال القرية، وفهم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة وكبار الصحابة: ما قصده رسول الله ﷺ بالنهي وصرح بعلته: من كونها رجسًا.

---

(١) ٣٥١ أعلام جـ١.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٥٦٧، ١٦١٧) وانظر: شرح النووي (٥/ ٥٣) (١١/ ٥٧).

وفهمت المرأة من قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا ﴾ [النساء: ٢٠] جواز المغالاة في الصداق، فذكرته لعمر، فاعترف به.

وفهم ابن عباس من قوله تعالى: ﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف: ١٥] مع قوله: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] أن المرأة قد تلد لستة أشهر، ولم يفهمه عثمان، فهمَّ برجم امرأة ولدت لها؛ حتى ذكره به ابن عباس، فأقر به[١].

ولم يفهم عمر من قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»[٢] قتال مانعي الزكاة حتى بين له الصديق، فأقر به.

وفهم قدامة بن مظعون من قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ﴾ [المائدة: ٩٣] رفع الجناح عن الخمر؛ حتى بين له عمر: أنه لا يتناول الخمر، ولو تأمل سياق الآية؛ لفهم المراد منها، فإنه إنما رفع الجناح عنهم فيما طعموه متّقين له فيه، وذلك إنما يكون باجتناب ما حرّمه الله من المطاعم؛ فالآية لا تتناول المحرم بوجه ما.

وقد فهم من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] انغماس الرجل في العدو حتى بين له أبو أيوب الأنصاري: أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكة بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضات الله وأن الإلقاء بيده إلى التهلكة هو ترك الجهاد والإقبال على الدنيا وعمارتها[٣].

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (رقم ٢٠٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ١٧٤) وشرح النووي (١٢/ ٥).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٢٠٤) والحاكم (٢/ ٩٤ رقم ٢٤٣٤) (٢/ ٣٠٢ رقم ٣٠٨٨) وابن حبان (١١/ ٩ رقم ٤٧١١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٩٩ رقم ١١٠٢٩) وأبو داود (رقم ٢٥١٢) والترمذي (رقم ٢٩٧٢) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٩٩ رقم ١٧٩٧٤) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

وقال الصديق ﷺ: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بالعقاب من عنده**»[١] فأخبرهم أنهم يضعونها على غير مواضعها في فهمهم منها خلاف ما أريد بها.

وأشكل على ابن عباس أمر الفرقة الساكتة التي لم ترتكب ما نهيت عنه من اليهود: هل عذبوا أو نجوا؟ حتى بين له مولاه عكرمة دخولهم في الناجين دون المعذبين، وهذا هو الحق، لأنه سبحانه قال عن الساكتين: ﴿ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

فأخبر أنهم أنكروا فعلهم وغضبوا عليهم، وإن لم يواجهوهم بالنهي، فقد واجههم به من أدى الواجب عنهم، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، فلما قام به أولئك سقط عن الباقين، فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم.

وأيضًا فإن الله سبحانه إنما عذب الذين نسوا ما ذكروا به، وعتوا عما نهوا عنه، وهذا لا يتناول الساكتين قطعا، فلما بين عكرمة لابن عباس أنهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين، كساه بردة وفرح به[٢].

...[٣]ولما نزل قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ

(١) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (١/ ١٤٤-١٤٥ رقم ٥٨) وأبو داود (رقم ٤٣٣٨) والترمذي (رقم ٢١٦٨، ٢٠٥٧) وابن ماجه (رقم ٤٠٠٥) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١/ ٩٤ رقم ٦٤) وأبو يعلى (١/ ١١٩ رقم ١٣١) وأحمد (١/ ٢، ٧) وعبد بن حميد (رقم ١) وصححه النووي في رياض الصالحين (ص ٧٠) وكذا الترمذي.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٩٤، ٩٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٩٢ رقم ١٩٩٨٢) وانظر: تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٧١) وتهذيب التهذيب (٧/ ٢٣٦) وسير أعلام النبلاء (٥/ ١٦) وأحكام القرآن للشافعي (٢/ ١٧٧) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٨-٢٦٠).

(٣) ٢٢٠ مختصر الصواعق جـ١.

ﭐلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٢] قال الصحابة ﷺ: يا رسول الله وأينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال: «ذاك الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾»؟ فلما أشكل عليهم المراد بالظلم، وظنوا أن ظلم النفس داخل فيه، وأن من ظلم نفسه أي ظلم كان لم يكن آمنًا ولا مهتديًا؛ أجابهم ﷺ: إن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك. وهذا والله هو الجواب، الذي يشفي العليل ويروي الغليل، فإن الظلم المطلق التام؛ هو الشرك الذي هو وضع العبادة في غير موضعها، والأمن والهدى المطلق؛ هو الأمن في الدنيا والآخرة والهدى إلى الصراط المستقيم.

...[1]ما حكاه سبحانه من محاجة إبراهيم عليه السلام قومه بقوله: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٠-٨٢] فهذا الكلام لم يخرج في ظاهره مخرج كلام البشر، الذي يتكلفه أهل النظر والجدال والمقايسة والمعارضة؛ بل خرج في صورة كلام خبري، يشتمل على مبادئ الحِجاج، ويشير إلى مقدمات الدليل ونتائجه بأوضح عبارة وأفصحها، والغرض منه: أن إبراهيم قال لقومه متعجبًا مما دعوه إليه من الشرك: ﴿ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ ﴾ وتطمعون أن تستزلوني عن توحيده بعد أن هداني، وتأكدت بصيرتي، واستحكمت معرفتي بتوحيده بالهداية التي رزقنيها، وقد علمتم: أن من كانت هذه حاله في اعتقاده أمرًا من الأمور عن بصيرة، لا يعارضه فيها ريب؛ فلا سبيل إلى استزلاله عنها.

وأيضًا: فإن المحاجة بعد وضوح الشيء وظهوره؛ نوع من العبث بمنزلة المحاجة في طلوع الشمس، وقد رآها من يحاجه بعينه، فكيف يؤثر حجاجكم له أنها لم تطلع،

---

(١) ١٠٦ مختصر الصواعق جـ١.

ثم قال: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ﴾ فكأنه صلوات الله وسلامه عليه، يذكر أنهم خوفوه آلهتهم: أن يناله منها معرة، كما قاله قوم هود: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ [هود: ٥٤] فقال إبراهيم: إن أصابني مكروه فليس ذلك من قبل هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله، وهي أقل من ذلك؛ فإنها ليست ممن يرجىٰ أو يخاف؛ بل يكون ذلك الذي أصابني من قبل الحي الفعال، الذي يفعل ما يشاء، بيده الضر والنفع، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد. ثم ذكر سعة علمه سبحانه في هذا المقام؛ منبهًا علىٰ موقع احتراز لطيف، وهو: أن لله تعالىٰ علمًا فيَّ وفيكم وفي هذه الآلهة لا يصل إليه علمي، فإذا شاء أمرًا من الأمور؛ فهو أعلم بما يشاؤه؛ فإنه وسع كل شيء علمًا، فإن أراد أن يصيبني بمكروه لا علم لي: من أي جهة أتاني؟ فعلمه محيط بما لم أعلمه، وهذا غاية التفويض والتبرئ من الحول والقوة وأسباب النجاة، وأنها بيد الله لا بيدي.

وهكذا قول شعيب ﷺ لقومه: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩] فردت الرسل بما يفعله الله، وأنه إذا شاء شيئًا فهو أعلم بما يشاؤه، ولا علم لنا بامتناعه.

ثم رجع الخليل إليهم مقررًا للحجة، فقال: ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ ﴾ يعني في إلهيته: ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنعام: ٨١، ٨٢]. يقول لقومه: كيف يسوغ في عقل أن أخاف ما جعلتموه لله شريكًا في الإلهية، وهي ليست موضع نفع ولا ضر، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في الإلهية أشياء لم ينزل بها حجة عليكم. والذي أشرك بخالقه وفاطره فاطر السماوات والأرض ورب كل شيء ومليكه؛ آلهة لا تخلق

شيئًا، وهي مخلوقة، ولا تملك لا نفسها ولا لعابديها ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، وجعلها ندًّا له ومثلًا في الإلهية؛ أحق بالخوف ممن لم يجعل مع الله إلهًا آخر؛ بل وحَّده وأفرده: بالإلهية والربوبية، والقهر والسلطان، والحب والخوف والرجاء، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون؟ فحكم الله تعالى بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب، وأقرت به الفطر، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

فتأمل هذا الكلام وعجيب موقعه في قطع الخصوم، وإحاطته بكل ما وجب في العقل أن يرد به ما دعوه إليه؛ بحيث لم يبق لطاعن مطعن ولا سؤال، ولما كانت بهذه المثابة؛ عظمها بإضافتها إلى نفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] وكفى بحجة يكون الله تعالى ملقيها لخليله؛ أن تكون: قاطعة لموارد العناد، وقامعة لأهل الشرك والإلحاد.

(١) المناظرة في العلم نوعان: أحدهما: للتمرين والتدرب على إقامة الحجج ودفع الشبهات. والثاني: لنصر الحق وكبت الباطل.

والأول يشبه السباق والنضال، والثاني يشبه الجهاد وقتال الكفار.

قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]، قال مالك: قال زيد بن أسلم: بالعلم، فعلم الحجة يرفع درجة صاحبه، فإن العلم بالحجج، والقوة على الجهاد مما رفع الله به درجات الأنبياء وأتباعهم، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي: القوى التي يقدرون بها على إظهار الحق وأمر الله، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه. والأبصار: البصائر في دينه، ولهذا يسمي الله سبحانه الحجة سلطانًا.

---

(١) ٢٧ فروسية.

قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن فهو الحجة، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ۝ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ ﴾ [الصافات : ١٥٦] وقال تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم : ٢٣] وقال تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ۝ ﴾ [الروم : ٣٥]، وهذا لأن الحجة تسلط صاحبها على خصمه، فصاحب الحجة له سلطان وقدرة على خصمه، وإن كان عاجزا عنه بيده.

وهذا هو أحد أقسام النصرة التي ينصر الله بها رسله والمؤمنين في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝ ﴾ [غافر : ٥١] فإذا كانت المسابقة شرعت؛ ليتعلم المؤمن القتال، ويتعوده ويتمرن عليه، فمن المعلوم: أن المجاهد قد يقصد دفع العدو إذا كان المجاهد مطلوبًا والعدو طالبًا وقد يقصد الظفر بالعدو ابتداء إذا كان طالبًا والعدو مطلوبًا، وقد يقصد كلا الأمرين.

والأقسام ثلاثة: يؤمر المؤمن فيها بالجهاد. وجهاد الدفع أصعب من جهاد الطلب، فإن جهاد الدفع يشبه باب دفع الصائل ولهذا أبيح للمظلوم أن يدفع عن نفسه، كما قال الله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ [الحج: ٣٩]، وقال النبي ﷺ: «**من قتل دون ماله فهو شهيد**»(١)، و«**من قتل دون دمه فهو شهيد**»(٢).

لكن دفع الصائل على الدين جهاد وقربة، ودفع الصائل على المال والنفس مباح ورخصة، فإن قتل فيه فهو شهيد، فقتال الدفع أوسع من قتال الطلب وأعم وجوبًا؛ ولهذا يتعين على كل أحد: يجاهد فيه العبد بإذن سيده وبدون إذنه، والولد بدون إذن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٨٠) ومسلم (رقم ١٤١) وانظر: فتح الباري (٥/ ١٢٣) وشرح النووي (٢/ ١٦٣).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٣/ ٢٩٢ رقم ١٠٩٢) والنسائي في الكبرى (٢/ ٣١٠ رقم ٣٥٥٧) وأبو داود (رقم ٤٧٧٢) والترمذي (رقم ١٤٢١) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢٦٦ رقم ٥٨٥٨) وأحمد (١/ ١٩٠) وعبد بن حميد (رقم ١٠٦) وقال الترمذي: حسن صحيح.

أبويه، والغريم بغير إذن غريمه، وهذا كجهاد المسلمين يوم أحد والخندق.

ولا يشترط في هذا النوع من الجهاد أن يكون العدو ضعفي المسلمين فما دون، فإنهم كانوا يوم أحد والخندق أضعاف المسلمين، فكان الجهاد واجبا عليهم، لأنه حينئذ جهاد ضرورة ودفع لا جهاد اختيار، ولهذا تباح فيه صلاة الخوف بحسب الحال في هذا النوع، وهل تباح في جهاد الطلب إذا خاف فوت العدو ولم يخف كرته؟ فيه قولان للعلماء هما روايتان عن الإمام أحمد.

ومعلوم: أن الجهاد الذي يكون فيه الإنسان طالبا مطلوبا أوجب من هذا الجهاد الذي هو فيه طالب لا مطلوب، والنفوس فيه أرغب من الوجهين. وأما جهاد الطلب الخالص فلا يرغب فيه إلا أحد رجلين: إما عظيم الإيمان يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ويكون الدين كله لله، وإما راغب في المغنم والسبي.

فجهاد الدفع يقصده كل أحد، ولا يرغب عنه إلا الجبان المذموم شرعًا وعقلًا. وجهاد الطلب الخالص لله يقصده سادات المؤمنين. وأما الجهاد الذي يكون فيه طالبا مطلوبا، فهذا يقصده خيار الناس، لإعلاء كلمة الله ودينه، ويقصده أوساطهم للدفع ولمحبة الظفر.

[(1)]قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

فقسم سبحانه الخلائق قسمين: سفيهًا لا أسفه منه، ورشيدًا.

فالسفيه: من رغب عن ملته إلى الشرك. والرشيد: من تبرأ من الشرك قولًا وعملًا وحالًا، فكان قوله توحيدًا، وعمله توحيدًا. وحاله توحيدًا، ودعوته إلى التوحيد. وبهذا أمر الله سبحانه جميع المرسلين ـ من أولهم إلى آخرهم ـ.

***

(١) ٤٨٢ مدارج جـ٣.

﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

...[(١)] الوكالة يراد بها أمران، أحدهما: التوكيل. وهو الاستنابة والتفويض. والثاني: التوكل، وهو التعرف بطريق النيابة عن الموكل، وهذا من الجانبين، فإن الله تبارك وتعالى يوكل العبد ويقيمه في حفظ ما وكَّله فيه، والعبد يوكل الرب ويعتمد عليه.

فأما وكالة الرب عبده، ففي قوله تعالى: ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩] قال قتادة: وكلنا بها الأنبياء الثمانية عشر[(٢)] الذين ذكرناهم ـ يعني قبل هذه الآية ـ وقال أبو رجاء العطاردي: معناه إن يكفر بها أهل الأرض فقد وكلنا بها أهل السماء، وهم الملائكة[(٣)]. وقال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار أهل المدينة.

والصواب: أن المراد من قام بها إيمانًا ودعوة وجهادًا ونصرة، فهولاء هم الذين وكلهم الله بها.

فإن قلت: فهل يصح أن يقال: إن أحدًا وكيل الله؟

قلت: لا. فإن الوكيل من يتصرف عن موكله بطريق النيابة، والله ﷻ لا نائب له، ولا يخلفه أحد، بل هو الذي يخلف عبده، كما قال النبي ﷺ: «**اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل**»[(٤)]. على أنه لا يمتنع أن يطلق ذلك باعتبار أنه مأمور

---

(١) ١٢٦ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢١٣) بلفظه وأخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٣٣٩ رقم ٧٥٧٦) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣١٢).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٤) وابن أبي حاتم في تفسير (٤/ ١٣٣٩ رقم ٧٥٧٧) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣١٢) والتاريخ الكبير (٨/ ٤١٣ رقم ٣٥٣٠).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٣٤٢).

بحفظ ما وكله فيه ورعايته والقيام به.

وأما توكيل العبد ربه: فهو تفويضه إليه وعزل نفسه عن التصرف وإثباته لأهله ووليه، ولهذا قيل في التوكل: إنه عزل النفس عن الربوبية وقيامها بالعبودية، وهذا معنى كون الرب وكيل عبده أي كافيه والقائم بأموره ومصالحه، لأنه نائبه في التصرف.

فوكالة الرب عبده أمر وتعبد، وإحسان له، وخلعة منه عليه، لا عن حاجة منه، وافتقار إليه كموالاته. وأما توكيل العبد ربه: فتسليم لربوبيته وقيام بعبوديته.

وقوله[1] وهو: «من أصعب منازل العامة عليهم»، لأن العامة لم يخرجوا عن نفوسهم ومألوفاتهم، ولم يشاهدوا الحقيقة التي شهدها الخاصة، وهي التي تشهد التوكيل، فهم في رق الأسباب، فيصعب عليهم الخروج عنها، وخلو القلب منها، والاشتغال بملاحظة المسبب وحده.

وأما كونه «أوهى السبل عند الخاصة» فليس على إطلاقه بل هو من أجل السبل عندهم وأفضلها، وأعظمها قدرًا وقد تقدم في صدر الباب: أمر الله رسوله بذلك وحضه عليه هو والمؤمنين.

ومن أسمائه «المتوكل»، وتوكله أعظم توكل، وقد قال الله له: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩].

وفي ذكر أمره بالتوكل، مع إخباره بأنه على الحق: دلالة على أن الدين بمجموعه في هذين الأمرين: أن يكون العبد على الحق في قوله وعمله واعتقاده ونيته، وأن يكون متوكلا على الله واثقا به، فالدين كله في هذين المقامين. وقال رسل الله وأنبياؤه: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢] فالعبد آفته: إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل. فإذا جمع التوكل إلى الهداية فقد جمع الإيمان كله.

نعم التوكل على الله في معلوم الرزق المضمون، والاشتغال به عن التوكل في نصرة

(١) أي صاحب المنازل. ذكرناه لما اشتمل عليه الجواب من فوائد. رحم الله الجميع. (ج).

الحق والدين: من أوهى منازل الخاصة. أما التوكل عليه في حصول ما يحبه ويرضاه فيه وفي الخلق، فهذا توكل الرسل والأنبياء عليهم السلام، فكيف يكون من أوهى منازل الخاصة؟

قوله: «لأن الحق قد وكل الأمور إلى نفسه، وأيأس العالم من ملك شيء منها».

جوابه: أن الذي تولى ذلك أسند إلى عباده كسبًا وفعلًا، وإقدارًا واختيارًا، وأمرًا ونهيًا، استعبدهم به. وامتحن به من يطيعه ممن يعصيه، ومن يؤثره ممن يؤثر عليه، وأمر بتوكلهم عليه، فيما أسنده إليهم وأمرهم به، وتعبدهم به وأخبر: أنه يحب المتوكلين عليه، كما يحب الشاكرين، وكما يحب المحسنين، وكما يحب الصابرين، وكما يحب التوابين.

(1) إن الله سبحانه جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه، وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه، وناهيك بها منزلة شريفة، ومنقبة عظيمة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٨، ٨٩].

وقد قيل: إن هؤلاء القوم هم الأنبياء. وقيل: أصحاب رسول الله ﷺ. وقيل: كل مؤمن، هذه أمهات الأقوال بعد أقوال متفرعة عن هذه، كقول من قال: هم الأنصار، أو المهاجرون والأنصار، أو قوم من أبناء فارس، وقال آخرون: هم الملائكة.

قال ابن جرير: وأولى هذه الأقوال بالصواب: أنهم الأنبياء الثمانية عشر، الذين سماهم في الآيات قبل هذه الآية، قال: وذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما يليها بأن يكون خبرًا عنهم؛ أولى وأحق بأن يكون خبرًا عن غيرهم، فالتأويل: فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بآياتنا وكذبوا بها وجحدوا

---

(1) ١٦١ مفتاح جـ١.

حقيقتها، فقد استحفظناها واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك، الذين لا يجحدون حقيقتها، ولا يكذبون بها، ولكنهم يصدقون بها، ويؤمنون بصحتها(١).

قلت: السورة مكية والإشارة بقوله ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ إلى من كفر به من قومه أصلًا، ومن عداهم تبعًا، فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة.

والقوم الموكلون بها هم الأنبياء أصلًا، والمؤمنون بهم تبعًا، فيدخل كل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة إليها.

ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلًا وللمؤمنين بهم تبعًا، وأحق من دخل فيها من أتباع الرسول خلفاؤه في أمته وورثته، فهم الموكلون بها: وهذا ينتظم الأقوال التي قيلت في الآية. وأما قول من قال: إنهم الملائكة، فضعيف جدًّا لا يدل عليه السياق، وتاباه لفظة ﴿ قَوْمًا ﴾؛ إذ الغالب في القرآن؛ بل المطرد تخصيص (القوم) ببني آدم دون الملائكة. وأما قول إبراهيم لهم: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٥] فإنما قاله لما ظنهم من الإنس.

وأيضًا فلا يقتضيه فخامة المعنى ومقصوده، ولهذا لو أظهر ذلك وقيل: فإن يكفر بها كفار قومك، فقد وكلنا بها الملائكة، فإنهم لا يكفرون بها لم نجد منه من: التسلية، وتحقير شأن الكفرة بها، وبيان عدم تأهلهم لها والأنعام عليهم، وإيثار غيرهم من أهل الإيمان، الذين سبقت لهم الحسنى عليهم، لكونهم أحق بها وأهلها، والله أعلم حيث يضع هداه، ويختص به من يشاء.

وأيضًا: فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها، وأنه لا ضيعة عليها، وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها، فإن لها قوما غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها ويذبون عنها، فكفر هؤلاء بها لا يضيعها، ولا يذهبها، ولا يضرها شيئًا، فإن لها أهلًا ومستحقًّا سواهم. فتأمل شرف هذا المعنى وجلالته، وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها والمسارعة إلى قبولها، وما تحته من تنبيههم على محبته لهم، وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين، وما تحته من احتقارهم

(١) انظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٦٥).

وازدرائهم وعدم المبالاة والاحتفال بهم، وإنكم وان تؤمنوا بها فعبادي المؤمنون بها الموكلون بها سواكم كثير، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨].

وإذا كان للملك: عبيد قد عصوه وخالفوا أمره، ولم يلتفتوا إلىٰ عهده. وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره، فنظر إليهم، وقال: إن يكفر هؤلاء بنعمي، ويعصوا أمري، ويضيعوا عهدي، فإن لي عبيدًا سواهم، وهم أنتم: تطيعون أمري، وتحفظون عهدي، وتؤدون حقي، فإن عبيده المطيعين يجدون في أنفسهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة، ما يكون موجبا لهم المزيد من القيام بحق العبودية، والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم، وهذا أمر يشهد به الحس والعيان.

وأما توكيلهم بها، فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها، والقيام بحقوقها ومراعاتها، والذب عنها، والنصيحة لها، كما يوكل الرجل غيره بالشيء، ليقوم به، ويتعهده ويحافظ عليه و﴿ بِهَا ﴾ الأولىٰ متعلقة بـ﴿ وَكَّلْنَا ﴾، و﴿ بِهَا ﴾ الثانية متعلقة ﴿ بِكَـٰفِرِينَ ﴾، والباء في ﴿ بِكَـٰفِرِينَ ﴾، لتأكيد النفي.

فإن قلت: فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء الموكلين: إنه وكيل الله، بهذا المعنىٰ، كما يقال: ولي الله؟

قلت: لا يلزم من إطلاق فعل التوكل المقيد بأمر ما إن يصاغ منه اسم فاعل مطلق، كما أنه لا يلزم من إطلاق فعل الاستخلاف المقيد إن قال: خليفة الله، لقوله: ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٢٩] وقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النور: ٥٥]، فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم: إنه خليفة الله؛ لأنه استخلاف مقيد.

ولما قيل للصديق: يا خليفة الله، قال: لست بخليفة الله، ولكني خليفة رسول الله،

وحسبي ذلك. ولكن يسوغ أن يقال: هو وكيل بذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا ﴾.

والمقصود: أن هذا التوكيل خاص بمن قام بها علمًا وعملًا، وجهادًا لأعدائها، وذبًّا عنها، ونفيًا لتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وأيضًا فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص، لا توكيل حاجة، كما يوكل الرجل من يتصرف عنه في غيبته لحاجة إليه.

ولهذا قال بعض السلف: ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا ﴾ يقول: رزقناها قومًا، فلهذا لا يقال لمن رزقها ورحم بها: إنه وكيل لله، وهذا بخلاف اشتقاق ولي الله من الموالاة، فإنها المحبة والقرب، فكما يقال عبد الله وحبيبه. يقال: وليه. والله تعالىٰ يوالي عبده إحسانًا إليه، وجبرًا له ورحمة، بخلاف المخلوق؛ فإنه يوالي المخلوق لتعززه به، وتكثره بموالاته، لذل العبد وحاجته. وأما العزيز الغني فلا يوالي أحدًا من ذل ولا حاجة، قال تعالىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ ﴾ [الإسراء: ١١١].

...[1]لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم: علمًا ومعرفةً وحالًا، تفاوتًا لا يحصيه إلا الله، فأكمل الناس توحيدًا الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ، والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولو العزم من الرسل أكمل توحيدًا، وهم[2] نوح وإبراهيم وموسىٰ ومحمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ وأكملهم توحيدًا الخليلان محمد وإبراهيم ـ صلوات الله وسلامه عليهما ـ فإنهما قاما من التوحيد بما لم يقم به غيرهما، علمًا ومعرفةً وحالًا ودعوةً للخلق وجهادًا.

---

(١) ٤٨٠ مدارج جـ٣.

(٢) في مخطوطتنا: وهم: محمد، نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ، فإنهما... والمطبوعة أصح، إلا أنه سقط منها ذكر: (عيسىٰ). (ج).

فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه، ولهذا أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقتدي بهم فيه، كما قال سبحانه بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذريته، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ٨٩ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠] فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهم، ولما قاموا بحقيقته علمًا وعملًا ودعوةً وجهادًا، جعلهم الله أئمةً للخلائق، يهدون بأمره، ويدعون إليه، وجعل الخلائق تبعًا لهم، يأتمون بأمرهم، وينتهون إلى ما وقفوا بهم عنده، وخص بالسعادة والفلاح والهدى أتباعهم، وبالشقاء والضلال مخالفيهم. وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] أي لا ينال عهدي بالإمامة مشرك، ولهذا أوصى نبيه محمدًا ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم. وكان يعلم أصحابه، إذا أصبحوا: أن يقولوا: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين**»(١) فملة إبراهيم؛ التوحيد ودين محمد ما جاء به من عند الله: قولًا وعملًا واعتقادًا. وكلمة الإخلاص هي شهادة أن لا إله إلا الله. وفطرة الإسلام، هي ما فطر الله عليه عباده من: محبته وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له: عبودية وذلًّا وانقيادًا، وإنابة.

فهذا هو توحيد خاصة الخاصة، الذي من رغب عنه؛ فهو من أسفه السفهاء.

***

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٣ رقم ٩٨٢٩) والدارمي (رقم ٢٦٨٨) وأحمد (٣/ ٤٠٦) والبزار (٥/ ٢٩١ رقم ١٩١١) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٩٣، ٢٩٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٣٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١١٦): رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٦٧٤).

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

(١)إن دعوة محمد بن عبد الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ هي دعوة جميع المرسلين قبله من أولهم إلى آخرهم، فالمكذب بدعوته مكذب بدعوة إخوانه كلهم، فإن جميع الرسل جاءوا بما جاء به، فإذا كذبه المكذب فقد زعم أن ما جاء به باطل، وفي ذلك تكذيب كل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله الله، ولا يمكن أن يعتقد أن ما جاء به صدق، وأنه كاذب مفتر على الله، وهذا في غاية الوضوح. وهذا بمنزلة شهود شهدوا بحق فصدقهم الخصم، وقال هؤلاء: كلهم شهود عدول صادقون، ثم شهد آخر على شهادتهم سواء، فقال الخصم: هذه الشهادة باطلة وكذب لا أصل لها، وذلك تكذيب بشهادة جميع الشهود قطعاً، ولا ينجيه من تكذيبهم اعترافه بصحة شهادتهم، وأنها شهادة حق مع قوله: إن الشاهد بها كاذب فيما شهد به. فكما أنه لو لم يظهر محمد ﷺ لبطلت نبوات الأنبياء قبله، فكذلك إن لم يصدق، لم يمكن تصديق نبي من الأنبياء قبله.

إن الآيات والبراهين التي دلت على صحة نبوته وصدقه أضعاف أضعاف آيات من قبله من الرسل، فليس لنبي من الأنبياء آية توجب الإيمان به، ولمحمد ﷺ مثلها، أو ما هو في الدلالة مثلها، وإن لم يكن من جنسها، فآيات نبوته أعظم وأكبر وأبهر وأدل، والعلم بنقلها قطعي، لقرب العهد، وكثرة النقلة، واختلاف أمصارهم وأعصارهم، واستحالة تواطئهم على الكذب.

فالعلم بآيات نبوته كالعلم بنفس وجوده وظهوره وبلده، بحيث لا تمكن المكابرة في ذلك، والمكابر فيه في غاية الوقاحة والبهت، كالمكابرة في وجود ما يشاهده الناس

---

(١) ١٨٥ هداية.

ولم يشاهده هو من البلاد والأقاليم والجبال والأنهار، فإن جاز القدح في ذلك كله، فالقدح في وجود عيسى وموسى وآيات نبوتهما أجوز وأجوز، وإن امتنع القدح فيهما وفي آيات نبوتهما فامتناعه في محمد ﷺ وآيات نبوته أشد.

ولذلك لما علم بعض علماء أهل الكتاب: أن الإيمان بموسى لا يتم مع التكذيب بمحمد أبداً كفر بالجميع، وقال: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾[الأنعام: ٩١].

قال سعيد بن جبير: جاء رجل من اليهود يقال: له مالك بن الصيف يخاصم النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «**أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى، أما تجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين**»؟!، وكان حبرًا سمينًا، فغضب عدو الله، وقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء. فقال له أصحابه الذين معه: ويحك، ولا موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾(١) الآية، وهذا قول عكرمة.

قال محمد بن كعب: جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ وهو محتب، فقالوا: يا أبا القاسم، ألا تأتينا بكتاب من السماء كما جاء به موسى، ألواحاً يحملها من عند الله ﷻ؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾(٢) الآية [النساء: ١٥٣].

وجاء رجل من اليهود فقال: ما أنزل الله عليك، ولا على موسى، ولا على عيسى، ولا على أحد شيئاً، ما أنزل الله على بشر من شيء، فحل رسول الله ﷺ حبوته، وجعل

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٧) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١٣٤٢ رقم ٧٥٩٧).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٧) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣١٤).

يقول: «ولا على أحد؟»[١].

وذهب جماعة، منهم؛ مجاهد: إلى أن الآية نزلت في مشركي قريش، فهم الذين جحدوا أصل الرسالة، وكذبوا بالرسل، وأما أهل الكتاب فلم يجحدوا نبوة موسى وعيسى، وهذا اختيار ابن جرير، قال: وهو أولى الأقاويل بالصواب، لأن ذلك في سياق الخبر عنهم، فهو أشبه من أن يكون خبراً عن اليهود، ولم يجر لهم ذكر يكون هذا به متصلاً، مع ما في الخبر من أخبر الله عنه من هذه الآية من إنكاره أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً من الكتب، وليس ذلك مما تدين به اليهود؛ بل المعروف من دين اليهود الإقرار: بصحف إبراهيم، وموسى، وزبور داود[٢]، والخبر من أول السورة إلى هذا الموضع خبر عن المشركين من عبدة الأوثان. وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ موصول به غير مفصول عنه.

قلت: ويقوي قوله: إن السورة مكية، فهي خبر عن زنادقة العرب، المنكرين لأصل النبوة، ولكن بقي أن يقال: فكيف يحسن الرد عليهم بما لا يقرون به من إنزال الكتاب الذي جاء به موسى؟ وكيف يقال لهم: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾؟! [الأنعام: ٩١]، ولاسيما على قراءة من قرأ بتاء الخطاب؟، وهل ذلك صالح لغير اليهود؟، فإنهم كانوا يخفون من الكتاب ما لا يوافق أهواءهم وأغراضهم، ويبدون منه ما سواه، فاحتج عليهم بما يقرون به من كتاب موسى، ثم وبخهم بأنهم خانوا الله ورسوله فيه، فأخفوا بعضه وأظهروا بعضه. وهذا استطراد من ذكر جحدهم النبوة بالكلية، وذلك إخفاء لها وكتمان إلى جحد ما أقر به كتابهم بإخفائه وكتمانه، فتلك سجية لهم معروفة لا تنكر، إذ من أخفى بعض كتابه الذي يقر بأنه من عند الله، كيف لا يجحد أصل النبوة؟.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٦٧) وانظر: تفسير السيوطي (٣/ ٣١٤-٣١٥) وتفسير ابن كثير (١/ ٥٨٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٧/ ٢٦٨).

ثم احتج عليهم بأنهم قد علموا بالوحي ما لم يكونوا يعلمونه هم ولا آباؤهم، ولولا الوحي الذي أنزله على أنبيائه ورسله لم يصلوا إليه، ثم أمر رسوله أن يجيب عن هذا السؤال، وهو قوله: ﴿ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾؟ فقال: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ : أي: الله الذي أنزله، أي: إن كفروا به وجحدوه، فصدق به أنت، وأقر به ﴿ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾(١) [الأنعام: ٩١].

جواب هذا السؤال: أن يقال: إن الله سبحانه احتج عليهم بما يقر به أهل الكتابين، وهم أولوا العلم دون الأمم التي لا كتاب لها، أي: إن جحدتم أصل النبوة وأن يكون الله أنزل على بشر شيئاً، فهذا كتاب موسى تقر به أهل الكتاب، وهم أعلم منكم فاسألوهم عنه. ونظائر هذا في القرآن كثيرة، يستشهد سبحانه بأهل الكتاب على منكري النبوات والتوحيد.

والمعنى: إنكم إن أنكرتم أن يكون الله أنزل على بشر شيئاً، فمن أنزل كتاب موسى؟، فإن لم تعلموا ذلك فاسألوا أهل الكتاب.

وأما قوله تعالى: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ فمن قرأها بالياء فهو إخبار عن اليهود بلفظ الغيبة، ومن قرأها بلفظ التاء للخطاب فهو خطاب لهذا الجنس الذين فعلوا ذلك، أي: تجعلونه يا من أنزل عليه كذلك.

وهذا من أعلام نبوته أن يخبر أهل الكتاب بما اعتمدوه في كتابهم، وأنهم جعلوه قراطيس، وأبدوا بعضه، وأخفوا كثيراً منه، وهذا لا يعلم من غير جهتهم إلابوحي من الله، ولا يلزم أن يكون قوله: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ ﴾ خطاباً لمن حكى عنهم أنهم قالوا: ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾، بل هذا استطراد من الشيء إلى نظيره وشبهه ولازمه. وله نظائر في القرآن كثيرة.

كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ

(١) تقدم في أول السورة الكلام على قوله: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ﴾ ما له علاقة بهذا فليرجع إليه (ج).

مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤] إلى آخر الآيات، فاستطرد من الشخص المخلوق من الطين، وهو آدم إلى النوع المخلوق من النطفة وهم أولاده، وأوقع الضمير على الجميع بلفظ واحد.

ومثله قوله تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٩-١٩٠] إلى آخر الآيات.

ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ [الزخرف: ٩-١٢] إلى آخر الآيات.

وعلى التقديرين فهؤلاء لم يتم لهم إنكار نبوة النبي ﷺ ومكابرتهم إلا بهذا الجحد والتكذيب العام، ورأوا أنهم إن أقروا ببعض النبوات وجحدوا نبوته ظهر تناقضهم وتفريقهم بين المتماثلين، وأنهم لا يمكنهم الإيمان بنبي وجحد نبوة من نبوته أظهر وآياتها أكثر وأعظم ممن أقروا به. وأخبر سبحانه أن من جحد: أن يكون قد أرسل رسله وأنزل كتبه لم يقدره حق قدره، وأنه نسبه إلى ما لا يليق به، بل يتعالى ويتنزه عنه.

***

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

...[1]دار بيني وبين بعض علمائهم مناظرةٌ في ذلك، فقلت له في أثناء الكلام: ولا يتم لكم القَدح في نبوة نبينا ﷺ إلا بالطعن في الربِّ تعالىٰ والقدح فيه، ونسبته إلىٰ أعظم الظلم والسفه والفساد، تعالىٰ الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، فقال: كيف يلزمُنا ذلك؟

قلت: بل أبلغ مِن ذلك: لا يَتمُّ لكم ذلك إلا بجحوده وإنكار وجوده تعالىٰ.

وبيانُ ذلك: أنه إذا كان محمد عندكم ليس بنبيٍّ صادق، وهو بزعمكم ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفتريَ علىٰ الله، ويتقوَّل عليه ما لم يقُلْه، ثم يتم له ذلك، ويستمر حتىٰ يُحلِّل، ويُحَرِّمَ، ويفرِضَ الفرائضَ، ويشرع الشرائع، وينسخَ المِلل، ويضربَ الرِّقاب، ويقتلَ أتباعَ الرُّسل، وهم أهلُ الحق، ويسبىٰ نساءَهم وأولادَهم، ويَغْنَم أموالهم ودِيارَهم، ويَتِمَّ له ذلك حتىٰ يفتحَ الأرض، وينسب ذلك كله إلىٰ أمر الله تعالىٰ له به ومحبته له، والربُّ تعالىٰ يُشاهده، وما يفعل بأهل الحقِّ وأتباع الرُّسُل، وهو مستمر في الافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة، وهو مع ذلك كُلِّه يُؤيده وينصُره، ويُعلىٰ أمره، ويُمكِّن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البَشَر.

وأعجَب من ذلك: أنه يُجيب دعوته، ويُهلِكُ أعداءَه من غير فعل منه نفسه ولا سبب، بل تارة بدعائه، وتارة يستأصِلُهم سبحانه من غير دعاء منه ﷺ، ومع ذلك يقضىٰ له كل حاجة سأله إياها، ويعده كل وعد جميل، ثم ينجز له وعده علىٰ أتمِّ الوجوه، وأهنئها، وأكملها، هذا وهو عندكم في غاية الكذِب والافتراءِ والظُّلم، فإنه لا أكذبَ ممن كذبَ علىٰ الله، واستمرَّ علىٰ ذلك، ولا أظلمَ ممن أبطل شرائعَ أنبيائه ورُسُله، وسعىٰ في رفعها من الأرض، وتبديلها بما يُريد هو، وقتل أولياء الله وحزبه وأتباع رُسُله، واستمرت نصرتُه عليهم دائماً، والله تعالىٰ في ذلك كُلِّهِ يقره، ولا يأخُذ منه باليمين، ولا يقطعُ منه الوتَين، وهو يُخبِرُ عن ربه أنه أُوحىٰ إليه أنه لا ﴿ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ ﴾

---

(١) ٨٩ زاد المعاد جـ٣.

[الأنعام: ٩٣]، فيلزمُكم معاشِرَ مَنْ كذَّبه أحدُ أمرين لابد لكم منهما:

إما أن تقُولوا: لا صانِع للعالَم، ولا مُدَبِّرَ، ولو كان للعالَم صانع مدبِّرٌ قديرٌ حكيم؛ لأخذ علىٰ يديه، ولقابله أعظمَ مقابلة، وجعله نكالًا للظالمينَ؛ إذ لا يليقُ بالملوك غيرُ هذا. فكيف بملك الأرض والسماواتِ، وأحكم الحاكمين؟

الثاني: نِسبةُ الربِّ إلىٰ ما لا يليق به من الجور، والسفه، والظلم، وإضلال الخلق دائماً أبَد الآباد، لا بَلْ نصرة الكاذب، والتمكين له من الأرض، وإجابة دعواته، وقيام أمره مِن بعده، وإعلاء كلماته دائماً، وإظهار دعوته، والشهادة له بالنبوة قرناً بعد قرن علىٰ رؤوس الأشهاد في كل مجمع وناد، فأين هذا من فعل أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، فلقد قدحتم في رب العالمين أعظمَ قدح، وطعنتم فيه أشَدَّ طعن، وأنكرتموه بالكلية.

ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذَّابين قام في الوجود، وظهرت له شَوْكة، ولكن لم يتم له أمرُه، ولم تطل مدته، بل سَلَّط اللهُ عليه رُسُله وأتباعهم، فمحقوا أثره، وقطعوا دابره، واستأصلوا شأفته. هذه سُنَّته في عباده منذ قامت الدنيا، وإلىٰ أن يرث الأرض ومَن عليها.

فلما سمع منى هذا الكلام، قال: معاذَ اللهُ أن نقول: إنه ظالم أو كاذب، بل كُلُّ منصف من أهل الكتاب يُقِرُّ بأنَّ مَن سلك طريقه، واقتفىٰ أثَره، فهو مِن أهل النجاة والسعادة في الأُخرىٰ.

قلتُ له: فكيف يكون سالكُ طريق الكذَّاب، ومقتفىٰ أثره بزعمكم مِن أهل النجاة والسعادة؟ فلم يجد بُداً من الاعتراف برسالته، ولكن لم يُرسَل إليهم.

قلت: فقد لزمك تصديقُه ولا بد، وهو قد تواترت عنه الأخبار بأنه رسولُ رب العالَمين إلىٰ الناس أجمعينَ، كِتَابِيهم وأُمِّيهم، ودعا أهل الكتاب إلىٰ دينه، وقاتل مَن لم يدخُلْ في دينه منهم حتىٰ أقروا بالصغار والجزية، فَبُهِتَ الكافِرُ، ونهض مِن فوره[1].

---

(١) ساق الشيخ هذه المناظرة في التبيان من ١١٣/ ١١٤ قريبًا من هذا السياق، وفيه زيادة. (ج).

والمقصود: أنَّ رسولَ الله ﷺ، لم يزل في جِدالِ الكفار على اختلاف مِللهم ونِحَلِهم إلى أن تُوفي. وكذلك أصحابُه من بعده، وقد أمره الله سبحانه بجدالهم بالتي هي أحسن في السور المكية والمدنية. وأمره أن يدعوهم بعد ظهور الحُجَّةِ إلى المُباهلة. وبهذا قام الدينُ، وإنما جُعِلَ السيفُ ناصِراً للحُجَّة. وأعدلُ السيوفِ سيفٌ ينصُرُ حُجَجَ الله وبيِّناتِه، وهو سيفُ رسوله وأُمته.

[١]قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ يعني الذي أنزله جعل سبحانه تعليمهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلا على صحة النبوة والرسالة، إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل، فكيف يقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء؟ وهذا من فضل العلم وشرفه، وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة، والله الموفق للرشاد.

[٢]وقد احتج أبو عبد الله بن منده على إعادة الروح إلى البدن بأن قال: حدثنا محمد ابن الحسين بن الحسن: حدثنا محمد بن زيد النيسابوري: حدثنا حماد بن قيراط: حدثنا محمد بن الفضل عن يزيد بن عبد الرحمن الصائغ البلخي، عن الضحاك بن مزاحم، عن ابن عباس أنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم قاعد؛ تلا هذه الآية: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ الآية. [الأنعام: ٩٣] قال: «والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار» ثم قال: «فإذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة، ينتظمان ما بين الخافقين، كأن وجوههم الشمس، فينظر إليهم، ما ترى غيرهم، وإن كنتم ترون أنهم ينظرون[٣] إليكم، مع كل منهم أكفان وحنوط، فإن كان

---

(١) ٥٧ مفتاح جـ١.
(٢) ٦٠ الروح.
(٣) هكذا في المنقول عنه ـ والظاهر ـ أنه ينظر إليكم. (ج).

مؤمنًا بشروه بالجنة، وقالوا: أخرجي أيتها النفس الطيبة إلى رضوان الله وجنته، فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير من الدنيا وما فيها، فلا يزالون يبشرونه ويحفون به فَلَهُم ألطف وأرأف من الوالدة بولدها، ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل، ويموت الأول فالأول، ويهون عليه، وكنتم ترونه شديدًا حتى تبلغ ذقنه، قال: فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم، فيبتدرها كل ملك منهم، أيهم يقبضها، فيتولى قبضها ملك الموت» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [السجدة: ١١] «فيتلقاها بأكفان بيض، ثم يحتضنها إليه، فلهو أشد لزومًا لها من المرأة إذا ولدتها، ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك، فيستنشقون ريحها، ويتباشرون بها، ويقولون مرحبا بالروح الطيبة والروح الطيب، اللهم صل عليه روحًا وعلى جسد خرجت منه. قال: فيصعدون بها ولله ﷻ خلق في الهواء، لا يعلم عددتهم إلا هو، فيفوح لهم منها ريح أطيب من المسك، فيصلون عليها ويتباشرون، ويفتح لهم أبواب السماء، فيصلي عليها كل ملك في كل سماء تمر بهم، حتى ينتهي بها بين يدي الملك الجبار، فيقول الجبار جل جلاله: مرحبًا بالنفس الطيبة وبجسد خرجت منه. وإذا قال الرب ﷻ للشيء مرحبًا رحب له كل شيء، ويذهب عنه كل ضيق، ثم يقول لهذه النفس الطيبة: أدخلوها الجنة، وأروها مقعدها من الجنة، وأعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم، ثم اذهبوا بها إلى الأرض، فإني قضيت أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فوالذي نفس محمد بيده لهى أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد، وتقول: أين تذهبون بي إلى ذلك الجسد، الذي كنت فيه؟ قال فيقولون: إنا مأمورون بهذا، فلابد لك منه. فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه، فيدخلون ذلك الروح بين جسده وأكفانه»[(١)].

(١) قال السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣١٨-٣٢٠): وأخرج ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس. وذكر الحديث بطوله.

فدل هذا الحديث على: أن الروح تعاد بين الجسد والأكفان، وهذا عود غير التعلق الذي كان لها في الدنيا بالبدن، وهو نوع آخر، وغير تعلقها به حال النوم، وغير تعلقها به وهي في مقرها، بل هو عود خاص للمساءلة.

قال شيخ الإسلام: الأحاديث الصحيحة المتواترة تدل على عود الروح إلى البدن وقت السؤال، وسؤال البدن بلا روح قول قاله طائفة من الناس، وأنكره الجمهور، وقابلهم آخرون، فقالوا: السؤال للروح بلا بدن، وهذا قاله ابن مرة وابن حزم، وكلاهما غلط، والأحاديث الصحيحة ترده، ولو كان ذلك على الروح فقط، لم يكن للقبر بالروح اختصاص.

وهذا يتضح بجواب المسألة، وهي قول السائل: هل عذاب القبر على النفس والبدن أو على النفس دون البدن أو على البدن دون النفس، وهل يشارك البدن النفس في النعيم والعذاب أم لا؟

وقد **سئل شيخ الإسلام** عن هذه المسألة، ونحن نذكر لفظ جوابه، فقال: بل العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة: تنعم النفس وتعذب منفردة عن البدن، وتنعم وتعذب متصلة بالبدن والبدن متصل بها، فيكون النعيم والعذاب عليها في هذه الحال مجتمعين، كما تكون على الروح منفردة عن البدن، وهل يكون العذاب والنعيم للبدن بدون الروح؟ هذا فيه قولان: مشهوران لأهل الحديث والسنة وأهل الكلام.

وفي المسألة أقوال شاذة، ليست من أقوال أهل السنة والحديث: قول من يقول: إن النعيم والعذاب لا يكون إلا على الروح، وان البدن لا ينعم ولا يعذب، وهذا تقوله الفلاسفة المنكرون لمعاد الأبدان، وهؤلاء كفار بإجماع المسلمين. ويقوله كثير من أهل الكلام من: المعتزلة وغيرهم، الذين يقرون بمعاد الأبدان. لكن يقولون: لا يكون ذلك في البرزخ، وإنما يكون عند القيام من القبور، لكن هؤلاء ينكرون عذاب البدن في البرزخ فقط، ويقولون: إن الأرواح هي المنعمة أو المعذبة في البرزخ، فإذا

كان يوم القيامة؛ عذبت الروح والبدن معًا، وهذا القول قاله طوائف من المسلمين من: أهل الكلام والحديث وغيرهم، وهو اختيار ابن حزم وابن مرة.

فهذا القول ليس من الأقوال الثلاثة الشاذة، بل هو مضاف إلىٰ قول من يقول بعذاب القبر، ويقر بالقيامة، ويثبت معاد الأبدان والأرواح.

ولكن هؤلاء لهم في عذاب القبر ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه علىٰ الروح فقط.

الثاني: أنه عليها وعلىٰ البدن بواسطتها.

الثالث: أنه علىٰ البدن فقط، وقد يضم إلىٰ ذلك القول الثاني، وهو قول من يثبت عذاب القبر، ويجعل الروح هي الحياة، ويجعل الشاذ: قول منكر عذاب الأبدان مطلقًا، وقول من ينكر عذاب الروح مطلقًا. فإذا جعلت الأقوال الشاذة ثلاثة؛ فالقول الثاني الشاذ: قول من يقول: إن الروح بمفردها لا تنعم ولا تعذب؛ وإنما الروح هي الحياة، وهذا يقوله طوائف من أهل الكلام من: المعتزلة؛ والأشعرية: كالقاضي أبىٰ بكر وغيره، وينكرون أن الروح تبقىٰ بعد فراق البدن، وهذا قول باطل، وقد خالف أصحابه أبو المعالي الجويني وغيره، بل قد ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأمة: أن الروح تبقىٰ بعد فراق البدن، وأنها منعمة أو معذبة.

والفلاسفة الإلهيون يقرون بذلك، لكن ينكرون معاد الأبدان، وهؤلاء يقرون بمعاد الأبدان، لكن ينكرون معاد الأرواح ونعيمها وعذابها بدون الأبدان، وكلا القولين خطأ وضلال؛ لكن قول الفلاسفة أبعد عن أقوال أهل الإسلام، وإن كان قد يوافقهم عليه من يعتقد أنه متمسك بدين الإسلام؛ بل من يظن أنه من أهل المعرفة والتصوف والتحقيق والكلام.

والقول الثالث الشاذ: قول من يقول: إن البرزخ ليس فيه نعيم ولا عذاب؛ بل لا يكون ذلك حتىٰ تقوم الساعة الكبرىٰ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة ونحوهم، ممن ينكر عذاب القبر ونعيمه؛ بناء علىٰ: أن الروح لا تبقىٰ بعد فراق البدن،

وأن البدن لا ينعم ولا يعذب، فجميع هؤلاء الطوائف ضلال في أمر البرزخ؛ لكنهم خير من الفلاسفة فإنهم مقرون بالقيامة الكبرى.

فإذا عرفت هذه الأقوال الباطلة، فلتعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها: أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة. وأنها تتصل بالبدن أحيانًا، ويحصل له معها النعيم أو العذاب. ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى، أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العالمين. ومعاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى.

(١) وأما المسألة الثامنة: وهي قول السائل: ما الحكمة في كون عذاب القبر؛ لم يذكر في القرآن مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟ فالجواب من وجهين: مجمل، ومفصل:

أما المجمل: فهو أن الله ﷻ أنزل على رسوله وحيين، وأوجب على عباده: الإيمان بهما، والعمل بما فيهما، وهما الكتاب والحكمة، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]. والكتاب؛ هو القرآن؛ والحكمة؛ هي السنة باتفاق السلف، وما أخبر به الرسول عن الله فهو في وجوب تصديقه والإيمان به، كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله، هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام، لا ينكره إلا من ليس منهم، وقد قال النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «إني أوتيت الكتاب ومثله معه»[٢].

وأما الجواب المفصل؛ فهو: أن نعيم البرزخ وعذابه؛ مذكور في القرآن في غير

(١) ٩٢ الروح.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٠٤) وأحمد (٤/ ١٣٠) والمروزي في السنة (رقم ٢٤٤، ٤٠٣) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤/ ٢٠٠ رقم ٤٦٠٤) وصحيح الجامع (رقم ٢٦٤٣).

موضع، فمنها قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا؛ لما صح أن يقال لهم: اليوم تجزون.

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦] فذكر عذاب الدارين ذكرًا صريحًا لا يحتمل غيره.

ومنها قوله تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الطور: ٤٥-٤٧].

وهذا يحتمل: أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر؛ لأن كثيرًا منهم مات ولم يعذب في الدنيا، وقد يقال ـ وهو أظهر ـ: إن من مات منهم؛ عذب في البرزخ، ومن بقي منهم؛ عذب في الدنيا بالقتل وغيره، فهو وعيد بعذابهم: في الدنيا، وفي البرزخ.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [السجدة: ٢١].

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم: عبد الله بن عباس على عذاب القبر، في الاحتجاج بها شيء؛ لأن هذا عذاب في الدنيا يستدعي به رجوعهم عن الكفر، ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن، لكن من فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه فهم منها عذاب القبر، فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين: أدنى، وأكبر. فأخبر أنه يذيقهم بعض

الأدنى ليرجعوا، فدل على أنه بقي لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا، ولهذا قال: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ ولم يقل: ولنذيقنهم العذاب الأدنى، فتأمله.

وهذا نظير قول النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «**فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها**»(١) ولم يقل: فيأتيه حرها وسمومها؛ فإن الذي وصل إليه بعض ذلك، وبقي له أكثره، والذي ذاقه أعداء الله في الدنيا، بعض العذاب الأدنى، وبقي لهم ما هو أعظم منه...

(٢)وأما المسألة العشرون وهي: هل النفس والروح شيء واحد أو شيئان متغايران؟ فاختلف الناس في ذلك: فمن قائل: إن مسماهما واحد وهم الجمهور.

ومن قائل: إنهما متغايران.

ونحن نكشف سر المسألة بحول الله وقوته، فنقول: النفس تطلق على أمور:

أحدها: الروح. قال الجوهري: النفس: الروح. يقال: خرجت نفسه، قال أبو خراش:

نجا سالم والنفس منه بشدقـــه ... ولم ينج إلا جفن سيف ومئزرا(٣)

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٥٣) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٤٩٤-٤٩٧ رقم ٧٢٠) وأحمد (٤/ ٢٨٧) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٥٥-٣٥٧ رقم ٣٩٥) وابن منده في الإيمان (٢/ ٩٦٢-٩٦٤ رقم ١٠٦٤) وهناد في الزهد (١/ ٢٠٥-٢٠٧ رقم ٣٣٩) وقال البيهقي: هذا حديث صحيح الإسناد، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٥٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وحسنه المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٧).

(٢) ٢٦٤ الروح.

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى حذيفة الهذلي وهو من الشعراء المخضرمين، أحد بني عمرو ابن الحارث. وذكر هذا البيت ابن منظور في اللسان (٦/ ٢٣٤) ونسبه كما فعل ابن القيم إلى أبي خراش، بينما ذكره في موضع آخر من اللسان (١٣/ ٨٩) ونسبه إلى حذيفة بن أنس الهذلي، وذكره مرة ثالثة (١٥/ ٣٠٥) ونسبه إلى الهذلي وقال فيه: «نجا عامر» بدل «نجا سالم» أما ابن عساكر فذكره في تاريخ مدينة دمشق (٤٠/ ٤٥١) وقال: وقال الهذلي في مثل قول الأصمعي، وكذا فعل ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٦٢، ٥٥٤).

أي: بجفن سيف ومئزر:

والنفس: الدم. يقال: سالت نفسه، وفي الحديث: «ما لا نفس له سائلة؛ لا ينجس الماء إذا مات فيه»(١).

والنفس: الجسد. قال الشاعر:

نبئت أن بني تميم أدخـــلوا أبياتهم تامور نفس المــنذر(٢)

والتامور: الدم.

والنفس: العين، يقال: أصابت فلاناً نفس، أي: عين.

قلت: ليس كما قال، بل النفس هاهنا الروح، ونسبة الإضافة إلى العين توسع؛ لأنها تكون بواسطة النظر المصيب، والذي أصابه إنما هو نفس العائن كما تقدم.

قلت: والنفس في القرآن تطلق على الذات بجملتها: كقوله تعالى: ﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [النور: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿۞ يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا ﴾ [النحل: ١١١] وقوله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر: ٣٨].

وتطلق على الروح وحدها: كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ﴾ [الفجر: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف: ٥٣]. وأما

---

(١) انظر: الأم (١/ ٥) والاستذكار (١/ ٣١٩) والتمهيد (١/ ٣٣٨) (٣/ ١٦٢) وتنقيح تحقيق أحاديث التعليق (١/ ٤٧) والتحقيق في أحاديث الخلاف (١/ ٦١-٦٢) والمغني (١/ ٤١-٤٢).

(٢) هذا البيت من بحر الكامل، وينسب إلى أوس بن حجر التميمي عمَّر طويلًا ولم يدرك الإسلام، في شعره حكمة ورقة، وكان مغرمًا بالنساء، مات سنة ٢ قبل الهجرة، ذكر البيت ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ١٦٩) وفيه: «بني سليم» بدل «بني تميم» وجعله من قول أوس بن حجر. وابن منظور في اللسان (٤/ ٩٣) وفيه «بني سحيم»، وذكر في (٦/ ٢٣٦) أن أوس ذكر هذا يحرض عمرو بن هند على بني حنيفة، وهم قتلة أبيه المنذر ابن ماء السماء يوم عين أباغ، ويزعم أن عمرو بن شمر الحنفي قتله. وانظر: المغني (١/ ٤١).

الروح فلا تطلق على البدن لا بانفراده ولا مع النفس.

وتطلق الروح على القرآن الذي أوحاه الله تعالى إلى رسوله، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وعلى الوحي الذي يوحيه إلى أنبيائه ورسله، قال تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥]. وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢].

وسمى ذلك روحًا لما يحصل به من الحياة النافعة؛ فإن الحياة بدونه لا تنفع صاحبها البتة، بل حياة الحيوان البهيم؛ خير منها وأسلم عاقبة.

وسميت الروح روحًا لأن بها حياة البدن، وكذلك سميت الريح؛ لما يحصل بها من الحياة، وهي من ذوات الواو، ولهذا تجمع على أرواح، قال الشاعر:

إذا هبَّت الأرواح من نحـــو أرضكم وجدت لمسراها على كبدي بردا[1]

ومنها الروح والريحان والاستراحة. فسميت النفس روحًا لحصول الحياة بها. وسميت نفسًا: إما من الشيء النفيس لنفاستها وشرفها، وإما من تنفس الشيء إذا خرج فلكثرة خروجها ودخولها في البدن؛ سميت نفسًا.

ومنه النفس بالتحريك، فإن العبد كلما نام خرجت منه، فإذا استيقظ رجعت إليه، فإذا مات خرجت خروجًا كليًّا، فإذا دفن عادت إليه، فإذا سئل خرجت، فإذا بعث رجعت إليه.

فالفرق بين النفس والروح؛ فرق بالصفات لا فرق بالذات، وإنما سمي الدم نفسًا؛

---

(١) ورد هذا البيت بلفظ: إذا الريح من أرض الحبيب تنسمت: وجدت لرياها على كبدي بردا.
انظر: التدوين في أخبار قزوين (٣/ ٢٠١) بينما ذكره الحموي في معجم البلدان (٢/ ١٣١) وعزاه إلى المهدي بن الملوح.

لأن خروجه الذي يكون معه الموت يلازم خروج النفس، ولأن الحياة لا تتم إلا به، كما لا تتم إلا بالنفس؛ فلهذا قال:

تسيل على حـد الظبات نفـوسنا   وليست على غير الظبات تسيل(١)

ويقال: فاضت نفسه، وخرجت نفسه، وفارقت نفسه، كما يقال: خرجت روحه وفارقت، ولكن الفيض: الاندفاع وهلة واحدة، ومنه الإفاضة وهي: الاندفاع بكثرة وسرعة، لكن أفاض: إذا دفع باختياره وإرادته، وفاض: إذا اندفع قسرًا وقهرًا، فالله سبحانه هو الذي يفيضها عند الموت تفيض هي.

***

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

(٢)أمر سبحانه بالنظر إليه: وقت خروجه وإثماره، ووقت نضجه وإدراكه، يقال:

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى السموأل بن غريض الأزدي، شاعر جاهلي حكيم، مات سنة ٦٤ قبل الهجرة، أشهر شعره لاميته هذه، وهي من أجود الشعر. ومن علماء الأدب من ينسب هذه القصيدة إلى عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، سجنه الرشيد العباسي وجهل مصيره، وضاع أكثر شعره، مات ١٩٠هـ. ذكره ابن منظور في اللسان (٦/ ٢٣٤)، وجعله من قول السموأل، بينما ذكره النووي في تهذيب الأسماء ٠٣/ ٣٤٥) وفيه «حد السيوف» و«غير السيوف».

(٢) ٢٠٥ مفتاح جـ١.

أينعت الثمار إذا نضجت وطابت؛ لأن في خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة، ثم في خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة إلىٰ ذلك اللون المشرق الناصع، والطعم الحلو اللذيذ الشهي، لآيات لقوم يؤمنون.

وقال بعض السلف: حق علىٰ الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها، فينظروا إليها، ثم تلا: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓ﴾.

ولو أردنا أن نستوعب ما في آيات الله المشهودة من العجائب والدلالات الشاهدة لله: بأنه الله الذي لا إله إلا هو، الذي ليس كمثله شيء، وأنه الذي لا أعظم منه ولا أكمل منه ولا أبر، ولا ألطف؛ لعجزنا نحن والأولون والآخرون، عن معرفة أدنىٰ عشر معشار ذلك، ولكن ما لا يدرك جميعه لا ينبغي ترك التنبيه علىٰ بعض ما يستدل به علىٰ ذلك، وهذا حين الشروع في الفصول...[1].

***

﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾.

[2]قوله ﷻ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] والاستدلال بهذا أعجب؛ فإنه من أدلة النفاة. وقد قرر شيخنا وجه الاستدلال به أحسن تقرير وألطفه، وقال لي: أنا ألتزم أنه لا يحتج مبطل بآية أو حديث صحيح علىٰ باطله، إلا وفي ذلك الدليل ما يدل علىٰ نقيض قوله، فمنها هذه الآية، وهي علىٰ جواز الرؤية أدل منها علىٰ امتناعها، فان الله سبحانه إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلوم أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال ولا يمدح به.

وإنما يمدح الرب تبارك وتعالىٰ بالعدم إذا تضمن أمرًا وجوديًّا: كتمدحه بنفي السنة والنوم، المتضمن كمال القيومية، ونفي الموت المتضمن كمال الحياة، ونفي

---

(١) سرد المصنف فصولًا نافعة جدًّا، فمن أرادها فليرجع إليها. (ج).

(٢) ٢٠٧ حادي الأرواح.

اللغوب والإعياء المتضمن كمال القدرة، ونفي الشريك والصاحبة والولد والظهير المتضمن كمال ربوبيته وإلهيته وقهره، ونفي الأكل والشرب المتضمن كمال الصمدية وغناه، ونفي الشفاعة عنده بدون إذنه المتضمن كمال توحيده وغناه عن خلقه، ونفي الظلم المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه، ونفي النسيان وعزوب شيء عن علمه المتضمن كمال علمه وإحاطته، ونفي المثل المتضمن لكمال ذاته وصفاته، ولهذا لم يتمدح بعدم محض لا يتضمن أمرًا ثبوتيًا، فان المعدوم يشارك الموصوف في ذلك العدم ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدوم فيه، فلو كان المراد بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أنه لا يرىٰ بحال لم يكن في ذلك مدح ولا كمال، لمشاركة المعدوم له في ذلك، فإن العدم الصرف لا يرىٰ ولا تدركه الأبصار، والرب جل جلاله يتعالىٰ إن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض، فإذا المعنىٰ: أنه يرىٰ ولا يدرك ولا يحاط به، كما كان المعنىٰ في قوله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [يونس: ٦١]. أنه يعلم كل شيء، وفي قوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨] أنه كامل القدرة، وفي قوله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩] أنه كامل العدل. وفي قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أنه كامل القيومية.

فقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يدل علىٰ غاية عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدر زائد علىٰ الرؤية، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢] فلم ينف عن موسىٰ الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ إنا لمرئيون، فإن موسىٰ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ نفىٰ إدراكهم إياهم بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ وأخبر الله ﷻ أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝﴾ [طه: ٧٧] فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر، وبدونه فالرب تعالىٰ يرىٰ ولا يدرك، كما يعلم

ولا يحاط به، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية. قال بن عباس: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ لا تحيط به الأبصار(١). قال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار(٢). وقال عطية: ينظرون إلى الله، ولا تحيط أبصارهم به من عظمته، وبصره يحيط بهم؛ فذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾(٣) المؤمنون يرون ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم عيانًا ولا تدركه أبصارهم بمعنى أنها لا تحيط به، إذ كان غير جائز أن يوصف الله ﷻ بأن شيئًا يحيط به، وهو بكل شيء محيط.

وهكذا يسمع كلام من يشاء من خلقه، ولا يحيطون بكلامه.

وهكذا يعلم الخلق ما علمهم، ولا يحيطون بعلمه.

ونظير هذا استدلالهم على نفي الصفات بقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] وهذا من أعظم الأدلة على كثرة صفات كماله ونعوت جلاله، وإنها لكثرتها وعظمتها وسعتها لم يكن له مثل فيها، وإلا فلو أريد بها نفي الصفات لكان العدم المحض أولى بهذا المدح منه.

مع أن جميع العقلاء إنما يفهمون من قول القائل: فلان لا مثل له، وليس له نظير ولا شبيه ولا مثل، أنه قد تميز عن الناس بأوصاف ونعوت لا يشاركونه فيها، وكلما كثرت أوصافه ونعوته فاق أمثاله، وبعد عن مشابهة أضرابه.

فقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ من أدل شيء على كثرة نعوته وصفاته وقوله: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ من أدل شيء على أنه يُرى ولا يدرك.

وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٩٩) وانظر: عمدة القاري (٢٥/ ٨٧).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٩٩).
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٧/ ٢٩٩) (٢٩/ ١٢٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٢).

مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤] من أدل شيء على مباينة الرب لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته، بل خلقهم خارج عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه، وهو يعلم ما هم عليه، فيراهم وينفذهم بصره، ويحيط بهم علما وقدرة وإرادة وسمعا وبصرا، فهذا معنى كونه سبحانه معهم أينما كانوا. وتأمل حسن هذه المقابلة لفظا ومعنى بين قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ فإنه سبحانه لعظمته يتعالى أن تدركه الأبصار وتحيط به وللطفه وخبرته يدرك الأبصار فلا تخفي عليه فهو العظيم في لطفه اللطيف في عظمته، العالي في قربه، القريب في علوه، الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير.

...[1]ومن ظن من القوم أن كشف العين ظهور الذات المقدسة لعيانه حقيقة، فقد غلط أقبح الغلط، وأحسن أحواله أن يكون صادقا ملبوسا عليه، فإن هذا لم يقع في الدنيا لبشر قط، وقد منع منه كليم الرحمن ﷺ.

وقد اختلف السلف والخلف: هل حصل هذا لسيد ولد آدم صلوات الله وسلامه عليه؟ فالأكثرون على أنه لم ير الله سبحانه، وحكاه عثمان بن سعيد الدارمي إجماعًا من الصحابة، فمن ادعى كشف العيان البصري عن الحقيقة الإلهية فقد وهم وأخطأ، وإن قال: إنما هو كشف العيان القلبي بحيث يصير الرب سبحانه كأنه مرئي للعبد، كما قال النبي ﷺ: «**اعبد الله كأنك تراه**» فهذا حق. وهو قوة يقين، ومزيد علم فقط.

نعم قد يظهر له نور عظيم، فيتوهم أن ذلك نور الحقيقة الإلهية، وأنها قد تجلت له، وذلك غلط أيضا، فإن نور الرب تعالى لا يقوم له شيء، ولما ظهر للجبل منه أدنى شيء ساخ الجبل وتدكدك. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ قال: «ذاك نوره الذي هو نوره، إذا تجلى به لم يقم له شيء»[2].

---

(١) ٢٢٩ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٤٦ رقم ٣٢٣٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، و انظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص ٣٦٣).

وهذا النور الذي يظهر للصادق هو نور الإيمان الذي أخبر الله عنه في قوله: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾[النور: ٣٥].

قال أبي بن كعب: «مثل نوره في قلب المؤمن»[١]. فهذا نور يضاف إلى الرب. ويقال: هو نور الله، كما أضافه الله سبحانه إلى نفسه. والمراد: نور الإيمان الذي جعله الله له خلقًا وتكوينًا، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠] فهذا «النور» إذا تمكن من القلب، وأشرق فيه؛ فاض على الجوارح. فيرى أثره في الوجه والعين. ويظهر في القول والعمل. وقد يقوى حتى يشاهده صاحبه عيانًا، وذلك لاستيلاء أحكام القلب عليه، وغيبة أحكام النفس.

والعين شديدة الارتباط بالقلب، تظهر ما فيه. فتقوى مادة النور في القلب. ويغيب صاحبه بما في قلبه عن أحكام حسه؛ بل وعن أحكام العلم فينتقل من أحكام العلم إلى أحكام العيان...

***

﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

[٢]الفعل أو القول المفضي إلى المفسدة قسمان:

أحدهما: أن يكون وضعه للإفضاء إليها: كشرب المسكر المفضي إلى مفسدة السكر، وكالقذف المفضي إلى مفسدة الفرية، والزنا المفضي إلى اختلاط المياه وفساد الفراش

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧).
(٢) ١٤٨ أعلام جـ٣.

ونحو ذلك، فهذه أفعال وأقوال وضعت مفضية لهذه المفاسد، وليس لها ظاهر غيرها.

والثاني: أن تكون موضوعة للإفضاء إلى أمر جائز أو مستحب فيتخذ وسيلة إلى المحرم: إما بقصده أو بغير قصد منه.

فالأول: كمن يعقد النكاح قاصدًا به التحليل، أو يعقد البيع قاصدًا به الربا، أو يخالع قاصدًا به الحنث، ونحو ذلك.

والثاني: كمن يصلي تطوعًا بغير سبب في أوقات النهي، أو يسب أرباب المشركين بين أظهرهم، أو يصلي بين يدي القبر لله، ونحو ذلك.

ثم هذا القسم من الذرائع نوعان:

أحدهما: أن تكون مصلحة الفعل أرجح من مفسدته.

والثاني: أن تكون مفسدته راجحة على مصلحته؛ فههنا أربعة أقسام:

الأول: وسيلة موضوعة للإفضاء إلى المفسدة.

الثاني: وسيلة موضوعة للمباح، قصد بها التوسل إلى المفسدة.

الثالث: وسيلة موضوعة للمبا، لم يقصد بها التوسل إلى المفسدة؛ لكنها مفضية إليها غالبًا، ومفسدتها أرجح من مصلحتها.

الرابع: وسيلة موضوعة للمباح، وقد تفضي إلى المفسدة، ومصلحتها أرجح من مفسدتها، فمثال القسم الأول والثاني قد تقدم.

ومثال الثالث: الصلاة في اوقات النهي، ومسبة آلهة المشركين بين ظهرانيهم، وتزين المتوفَّى عنها في زمن عدتها، وأمثال ذلك.

ومثال الرابع: النظر إلى المخطوبة والمستامة والمشهود عليها ومن يطؤها ويعاملها، وفعل ذوات الأسباب في أوقات النهي، وكلمة الحق عند ذي سلطان جائر ونحو ذلك؛ فالشريعة جاءت: بإباحة هذا القسم، أو استحبابه، أو إيجابه بحسب درجاته في المصلحة، وجاءت بالمنع من القسم الأول: كراهة، أو تحريمًا بحسب درجاته في المفسدة، بقي النظر في القسمين الوسط: هل هما مما جاءت الشريعة

بإباحتهما أو المنع منهما؟ فنقول: الدلالة على المنع من وجوه:

الوجه الأول: قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨] فحرم الله تعالى سبَّ آلهة المشركين - مع كون السب غيظًا وحمية لله وإهانة لآلهتهم - لكونه ذريعة إلى سبهم لله تعالى، وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا لآلهتهم، وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز لئلا يكون سببًا في فعل ما لا يجوز.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] فمنعهن من الضرب بالأرجل وإن كان جائزًا في نفسه؛ لئلا يكون سببًا إلى سمع الرجال صوت الخلخال، فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهن.

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ﴾ الآية [النور: ٥٨] أمر تعالى مماليك المؤمنين ومن لم يبلغ منهم الحلم؛ أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة؛ لئلا يكون دخولهم هجما بغير استئذان فيها ذريعة إلى اطلاعهم على عوراتهم وقت إلقاء ثيابهم: عند القائلة، والنوم واليقظة، ولم يأمرهم بالاستئذان في غيرها، وإن أمكن في تركه هذه المفسدة لندورها وقلة الإفضاء إليها، فجعلت كالمقدمة.

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا ﴾ [البقرة: ١٠٤] نهاهم سبحانه أن يقولوا هذه الكلمة مع قصدهم بها الخير، لئلا يكون قولهم ذريعة إلى التشبه باليهود في أقوالهم وخطابهم، فإنهم كانوا يخاطبون بها النبي ﷺ، ويقصدون بها السب، يقصدون فاعلًا من الرعونة، فنهي المسلمون عن قولها سدًّا لذريعة المشابهة، ولئلا يكون ذلك ذريعة إلى أن يقولها اليهود للنبي ﷺ تشبهًا بالمسلمين، يقصدون بها غير ما يقصده المسلمون[1].

---

(١) أوصلها المؤلف إلى تسعة وتسعين وجهًا، تضمنت علمًا جمًّا جزاه الله خيرًا (ج).

[(١)]أما التزيين فقال تعالىٰ: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وقال: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ٨] وقال: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٣]، فأضاف التزيين إليه منه سبحانه خلقًا ومشيئة، وحذف فاعله تارة، ونسبه إلىٰ سببه ومن أجراه علىٰ يده تارة، وهذا التزيين من الله سبحانه حسن، إذ هو ابتلاء واختبار بعيد، ليتميز المطيع منهم من العاصي والمؤمن من الكافر، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، وهو من الشيطان قبيح.

وأيضًا فتزيينه سبحانه للعبد عمله السيئ، عقوبة منه له علىٰ إعراضه عن توحيده وعبوديته وإيثار سيء العمل علىٰ حسنه، فإنه لا بد أن يعرفه سبحانه السيئ من الحسن، فإذا آثر القبيح واختاره وأحبه ورضيه لنفسه زينه سبحانه له، وأعماه عن رؤية قبحه بعد أن رآه قبيحًا. وكل ظالم وفاجر وفاسق لابد أن يريه الله تعالىٰ ظلمه وفجوره وفسقه قبيحًا، فإذا تمادىٰ عليه ارتفعت رؤية قبحه من قلبه، فربما رآه حسنًا عقوبة له، فإنه إنما يكشف له عن قبحه بالنور الذي في قلبه، وهو حجة الله عليه، فإذا تمادىٰ في غيه وظلمه ذهب ذلك النور، فلم ير قبحه في ظلمات الجهل والفسوق والظلم، ومع هذا فحجة الله قائمة عليه بالرسالة وبالتعريف الأول.

فتزيين الرب تعالىٰ عدل وعقوبته حكمة ـ وتزيين الشيطان إغواء وظلم، وهو السبب الخارج عن العبد، والسبب الداخل فيه حبه وبغضه وإعراضه ـ والرب سبحانه خالق الجميع، والجميع واقع بمشيئته وقدرته، ولو شاء لهدىٰ خلقه أجمعين، والمعصوم من عصمه الله، والمخذول من خذله الله، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

---

(١) ١٠٣ شفاء.

(١) قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] وهذا عطف على ﴿ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: نحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم تلك الآية فلا يؤمنون.

واختلف في قوله: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فقال كثير من المفسرين: المعنى: نحول بينهم وبين الإيمان لو جاءتهم الآية، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة.

قال ابن عباس: في رواية عطاء عنه ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ حتى يرجعوا إلى ما سبق عليهم من علمي، قال: وهذا كقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال آخرون: المعنى ونقلب أفئدتهم وأبصارهم لتركهم الإيمان به أول مرة، فعاقبناهم بتقليب أفئدتهم وأبصارهم، وهذا معنى حسن، فإن كاف التشبيه تتضمن نوعا من التعليل كقوله: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص: ٧٧]، وقوله: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥١-١٥٢] والذي حسن اجتماع التعليل والتشبيه الإعلام بأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر، والتقليب تحويل الشيء من وجه إلى وجه، وكان الواجب من مقتضى إنزال الآية ووصولهم إليها كما سألوا: أن يؤمنوا إذا جاءتهم، لأنهم رأوها عيانًا، وعرفوا أدلتها وتحققوا صدقها، فإذا لم يؤمنوا كان تقليبا لقلوبهم وأبصارهم عن وجهها الذي ينبغي أن تكون عليه.

وقد روى مسلم في صحيحه: من حديث عبد الله بن عمرو؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«إن قلوب بني آدم كلها؛ بين إصبعين من أصابع الرحمن: كقلب واحد، يصرفه كيف يشاء»** ثم قال رسول الله ﷺ: **«اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على**

---

(١) ٩٩ شفاء.

طاعتك»(١).

وروى الترمذي من حديث أنس قال: «كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فقلت: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله، يقلبها كيف يشاء»(٢) قال: هذا حديث حسن.

وروى حماد، عن أيوب وهشام ويعلي بن زياد، عن الحسن قال: قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «دعوة كان رسول الله ﷺ، يكثر أن يدعو بها: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فقلت: يا رسول الله دعوة كثيرًا ما تدعو بها، قال: «إنه ليس من عبد إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه»(٣) وقوله: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال ابن عباس: أخذلهم وأدعهم في ضلالهم يتمادون(٤).

...(٥)وأما العقوبة الأولى فلا يلزم أن تكون على ذنب؛ بل هي جارية مجرى تولد الآلام عما يأكله ويشربه ويتمتع به؛ فتولدت تلك الذنوب بعد البلوغ عن تلك الأسباب المتقدمة قبله، وهذا القول الوسط في العقوبة على العدم، وهو الذي دل عليه القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠] فأخبر سبحانه عن عقوبتهم على عدم الإيمان بتقليب أفئدتهم وأبصارهم.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٥٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٣، ٣٩٨) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢١٤٠) والضياء المقدسي في المختارة (٦/ ٢١١ رقم ٢٢٢٢) وأبو يعلى (٦/ ٣٥٩ رقم ٣٦٨٧) وأحمد (٣/ ١١٢) والدارقطني في الصفات (رقم ٤٠).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٤١٤ رقم ٧٧٣٧) وفي النعوت والأسماء والصفات (رقم ٥٧٩) وأبو يعلى (٨/ ١٢٨ رقم ٤٦٦٩) وأحمد (٦/ ٩١).

(٤) أخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (١/ ١٣٦).

(٥) ٣٣٠ مختصر الصواعق جـ١.

فإن قلت: هذه عقوبة على أمر وجودي، وهو تركهم الإيمان بعد إرسال الرسول ودعائهم لهم.

قلت: الموجب لهذه العقوبة الخاصة؛ هو عدم الإيمان، ولكن إرسال الرسول وترك طاعته؛ شرط في وقوع العذاب، فالمقتضى قائم وهو عدم الإيمان؛ لكنه مشروط وقوعه بشرط وهو إرسال الرسول ففرق بين انتفاء الشيء لانتفاء موجبه ومقتضيه، وانتفائه لانتفاء شرطه بعد قيام المتقضى.

(١)حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك؛ فإنك تعاقب بتقليب القلب، ورد ما يرد عليك من الحق رأسًا، ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك. قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾، فعاقبهم على رد الحق أول مرة: بأن قلب أفئدتهم وأبصارهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته؛ فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره؛ عقوبة لك قال تعالى: ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴾ [التوبة: ٨٣] فمن سلم من هاتين الآفتين والبليتين العظيمتين، فليهنه السلامة.

***

﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾.

(٢)إنه سبحانه ذم أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه، فقال تعالى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ

---

(١) ١٨٠ بدائع جـ٣.

(٢) ٥٣ مفتاح جـ١.

أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١]. وقال: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

فلم يقتصر سبحانه علىٰ تشبيه الجهال بالأنعام، حتىٰ جعلهم أضل سبيلًا منهم. وقال: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٢]. أخبر أن الجهال شر الدواب عنده علىٰ اختلاف أصنافها: من الحمير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب، فالجهال شر منهم، وليس علىٰ دين الرسل أضر من الجهال؛ بل هم أعداؤهم علىٰ الحقيقة.

وقال تعالىٰ لنبيه وقد أعاذه: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٥]. وقال كليمه موسىٰ عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧] وقال لأول رسله نوح ﷺ: ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦].

فهذه حال الجاهلين عنده، والأول حال أهل العلم عنده.

وأخبر سبحانه عن عقوبته لأعدائه: أنه منعهم علم كتابه ومعرفته وفقهه، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦].

وأمر نبيه بالإعراض عنهم، فقال: ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وأثنىٰ علىٰ عباده المؤمنين بالإعراض عنهم ومتاركتهم، كما في قوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص: ٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]. وكل هذا يدل علىٰ قبح الجهل عنده، وبغضه للجهل وأهله، وهو كذلك عند الناس، فإن كل أ حد يتبرأ منه وإن كان فيه.

***

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾.

(١) قبول التأويل له أسباب:

منها: أن يأتي به صاحبه: مموهًا بزخرف من القول، مكسوًّا حلة الفصاحة والعبارة الرشيقة؛ فتسرع العقول الضعيفة إلى قبوله واستحسانه، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢]. فذكر سبحانه أنهم يستعينون على مخالفة أمر الأنبياء؛ بما يزخرفه بعضهم لبعض من القول، ويغتر به الأغمار وضعفاء العقول، فذكر السبب الفاعل وهو ما يغر السامع من زخرف القول، فلما أصغت إليه ورضيته؛ اقترفت ما تدعو إليه من الباطل: قولًا وعملًا.

فتأمل هذه الآيات وما تحتها من هذا المعنى العظيم القدر، الذي فيه بيان أصول الباطل، والتنبيه على مواقع الحذر منها.

وإذا تأملت مقالات أهل الباطل؛ رأيتهم قد كسوها من العبارات المستحسنة ما يسرع إلى قبوله كل من ليس له بصيرة نافذة، فيسمون أم الخبائث: أم الأفراح، ويسمون اللقمة الملعونة التي هي الحشيشة: لقيمة الذكر والفكر، التي تثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن...

(٢) أكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشيء بلفظ، ويردونه بعينه بلفظ آخر، قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢] فسماه زخرفًا وهو القول الباطل؛ لأن صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع، ويلقيه إلى سمع المغرور فيغتر به. والمقصود أن

(١) ٨٧ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) ١٣٤ الجواب الكافي.

الشيطان قد لزم ثغر الأذن: أن يدخل فيها ما يضر العبد، ويمنع أن يدخل إليها ما ينفعه، وإن دخله بغير اختياره أفسده عليه.

***

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

[1]أما اللام في قوله: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [الأنعام: ١١٣] فهي على بابها للتعليل؛ فإنها إن كانت تعليلًا لفعل العدو، وهو إيحاء بعضهم إلى بعض؛ فظاهر، وعلى هذا فيكون عطفًا على قوله: ﴿غُرُورًا﴾ فإنه مفعول لأجله: أي: ليغروهم بهذا الوحي، ولتصغى إليه أفئدة من يلقى إليه فيرضاه ويعمل بموجبه، فيكون سبحانه قد أخبر بمقصودهم من الإيحاء المذكور، وهو أربعة أمور: غرور من يوحون إليه، وإصغاء أفئدتهم إليهم، ومحبتهم لذلك، وانفعالهم عنده بالاقتراف.

وإن كان ذلك تعليلًا لجعله سبحانه لكل نبي عدوًّا، فيكون هذا الحكم من جملة الغايات، والحكم المطلوبة بهذا الجعل، وهي غاية وحكمة مقصودة لغيرها؛ لأنها مفضية إلى أمور هي محبوبة مطلوبة للرب سبحانه، وفواتها يستلزم فوات ما هو أحب إليه من حصولها، وعلى التقديرين فاللام لام التعليل والحكمة.

***

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾.

---

(١) ١٩٣ شفاء العليل.

[(١)]قوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام: ١١٤]. فهذا يبين أن الحكم بين الناس؛ هو الله وحده بما أنزل من الكتاب المفصل، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]. وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

فقوله: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا ﴾ [الأنعام: ١١٤] استفهام إنكار، يقول: كيف أبتغي حكمًا غير الله وقد أنزل كتابًا مفصلًا؟ فإن قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ جملة في موضع الحال.

وقوله ﴿ مُفَصَّلًا ﴾ يبين أن الكتاب الحاكم مفصل مبين؛ ضد ما يصفه به من يزعم: أن عقول الرجال تعارض بعض نصوصه، أو أن نصوصه خيلت أو أفهمت خلاف الحق لمصلحة المخاطب، أو أن لها معان لا تفهم ولا يعلم المراد منها، أو أن لها تأويلات باطلة، خلاف ما دلت عليه ظواهرها، فهؤلاء كلهم ليس الكتاب عندهم مفصلًا، بل مجمل مؤول، ولا يعلم المراد منه، والمراد منه خلاف ظاهره أو إفهام خلاف الحق. ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وذلك أن الكتاب الأول مصدق للقرآن، فمن نظر فيه؛ علم علمًا يقينيًا أن هذا وهذا من مشكاة واحدة، لاسيما في باب التوحيد والأسماء والصفات، فإن التوراة من

(١) ٢١٧ مختصر الصواعق جـ١.

ذلك، ليس هو المبدل المحرف الذي أنكره الله عليهم؛ بل هو من الحق الذي شهد له القرآن وصدقه، ولهذا لم ينكر النبي ﷺ عليهم ما في التوراة من الصفات، ولا عابهم به، ولا جعله تشبيهًا وتجسيمًا أو تمثيلًا، كما فعل كثير من النفاة، وقال: اليهود أئمة التشبيه والتجسيم، ولا ذنب لهم في ذلك، فإنهم قرءوا ما في التوراة، فالذي عابهم الله به من تأويل التحريف والتبديل؛ لم يعبهم به المعطلة، بل شاركوهم فيه، والذي استشهد الله على نبوة رسوله ﷺ به من موافقة ما عندهم من التوحيد والصفات؛ عابوهم به ونسبوهم إلى التشبيه والتجسيم، وهذا ضد ما عليه الرسول وأصحابه، فإنهم كانوا إذا ذكروا له شيئًا من هذا الذي تسميه المعطلة تجسيمًا وتشبيهًا؛ صدقهم عليه وأقرهم ولم ينكره، كما صدقهم في خبر الحبر الذي ثبت من حديث ابن مسعود وضحك تعجبًا وتصديقًا لـه، وفي غير ذلك، ثم قال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١١٥] فما أخبر به فهو صدق، وما أمرم به فهو عدل، وهذا يبين أن ما في النصوص من الخبر فهو صدق، علينا أن نصدق به لا نعارضه ولا نعرض عنه. ومن عارضه بعقله؛ لم يصدق به، ولو صدقه تصديقًا مجملًا ولم يصدقه تصديقًا مفصلًا في أعيان ما أخبر به؛ لم يكن مؤمنًا، ولو أقر بلفظه مع جحد معناه، أو صرفه إلى معان أخر غير ما أريد به؛ لم يكن مصدقًا؛ بل هو إلى التكذيب أقرب.

(١) الرضا بالله ربًا: أن لا يتخذ ربًا غير الله تعالى يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ١١٤]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «سيدًا وإلهًا» يعني: فكيف أطلب ربًا غيره، وهو رب كل شيء؟ وقال في أول السورة: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٤] يعني: معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأً، وهو من الموالاة التي تتضمن الحب والطاعة، وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) ١٨١ مدارج جـ٢.

مُفَصَّلاً ﴾ [الأنعام: ١١٤]. أي: أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم، فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه، وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلىٰ غير كتابه وقد أنزله مفصلًا مبينًا كافيًا شافيًا؟

(١) إنه سبحانه شهد لأهل العلم شهادة في ضمنها الاستشهاد بهم علىٰ صحة ما أنزل الله علىٰ رسوله، فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

(٢) وقد ذم سبحانه الأكثرين في غير موضع كقوله: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص: ٢٤].

وقال بعض العارفين: انفرادك في طريق طلبك، دليل علىٰ صدق الطلب.

مت بداء الهوىٰ وإلا فخـاطر ... واطرق الحي والعيون نواظـر
لا تخف وحشة الطريق إذا سر ... ت وكن في خفارة الحق سائر

***

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

(٣) سألته ﷺ عائشة رضي الله عنها، فقالت: إن قومًا يأتوننا باللحم لا ندري أذكر

(١) ٥٠ مفتاح جـ١.
(٢) ١٤٧ مفتاح جـ١.
(٣) ٣٨٠ أعلام جـ٤.

اسم الله عليه أم لا؟ قال: «سمُّوا أنتم وكلوا»[1] ذكره البخاري.

وسأله ﷺ رجل فقال: أنأكل مما قتلنا، ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾[الأنعام: ١٢١] إلى آخر الآية، هكذا ذكره أبو داود، وأن الذي سأل هذا السؤال هم اليهود[2]، والمشهور في هذه القصة أن المشركين هم الذين أوردوا هذا السؤال، وهو الصحيح، ويدل عليه كون السورة مكية، وكون اليهود يحرمون الميتة كما يحرمها المسلمون، فكيف يوردون هذا السؤال، وهم يوافقون على هذا الحكم؟

ويدل عليه أيضًا قوله: ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فهذا سؤال مجادل في ذلك، واليهود لم تكن تجادل في هذا، وقد رواه الترمذي بلفظ ظاهره؛ أن بعض المسلمين سأل هذا السؤال، ولفظه: أتى ناسٌ إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أنأكل مما نقتل ولا نأكل مما قتل الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾[3] [الأنعام: ١١٨-١٢١]. وهذا لا يناقض كون المشركين هم الذين أوردوا هذا السؤال؛ فسأل عنه المسلمون رسول الله ﷺ ولا أحسب قوله: «إن اليهود سألوا عن ذلك» إلا وهمًا من أحد الرواة، والله أعلم.

وسأله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله ﷺ إني إذا أصبت اللحم انتشرتُ للنساء، وأخذتني شهوتي، فحرمت عليَّ اللحم، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٠٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٢٨١٩) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٢٤٠ رقم ١٨٦٧٥) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٢٥٧ رقم ٢٧١) والطبراني في الكبير (١١/ ٤٥٧ رقم ١٢٢٩٥)، وانظر: عون المعبود (٨/ ١١).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٠٦٩) وقال: هذا حديث حسن غريب، وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٣٥٣).

ﷲُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٧، ٨٨] ذكره الترمذي[(١)].

وسأله ﷺ أبو ثعلبة الخُشني ﷺ، فقال: إن أرضنا أرض أهل كتاب، وإنهم يأكلون لحم الخنزير ويشربون الخمر، فكيف نصنع بآنيتهم وقدورهم؟ فقال ﷺ: «**إن لم تجدوا غيرها فارحضوها واطبخوا فيها واشربوا**» قال: قلت: يا رسول الله، ما يحل لنا وما يحرم علينا؟ قال: «**لا تأكلوا لحم الحمر الإنسية، ولا يحل كل ذي ناب من السباع**» ذكره أحمد[(٢)].

وقد ثبت عنه في صحيح مسلم: من حديث أبي هريرة؛ أنه قال: «**أكل كل ذي ناب من السباع حرام**»[(٣)] وهذان اللفظان يبطلان قول من تأول نهيه عن أكل كل ذي ناب من السباع: بأنه نهي كراهةٍ؛ فإنه تأويل فاسد قطعًا، وبالله التوفيق.

وسئل ﷺ: أما تكون الذكاة إلا في الحلق واللبة؟ فقال: «**لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك**»[(٤)] ذكره أبو داود، وقال: هذا ذكاة المتردي، وقال يزيد بن هارون: هذا للضرورة، وقيل: هو في غير المقدور عليه...

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٠٥٤) والطبراني في الكبير (١١/ ٣٥٠ رقم ١١٩٨١) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ١١٨٦ رقم ٦٦٨٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٣٨٣٩) مختصرًا، ومن طريقه البيهقي في الكبرىٰ (١/ ٣٣ رقم ١٣١) والترمذي (رقم ١٧٩٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح. والطبراني في الكبير (٢٢/ ٢١٩ رقم ٥٨٤) وأحمد واللفظ له (٤/ ١٩٣) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٩٣٣) ولفظه: «كل ذي ناب من السباع فأكله حرام» وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٥٤-٦٥٧).

(٤) أخرجه أبو داود (رقم ٢٨٢٥) والنسائي في الكبرىٰ (٣/ ٦٣ رقم ٤٤٩٧) والترمذي (رقم ١٤٨١) وابن ماجه (رقم ٣١٨٤) وابن الجارود (رقم ٩٠١) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ٢٤٦ رقم ١٨٧١٠) والدارمي (رقم ١٩٧٢) والطبراني في الأوسط (٥/ ١٣٠-١٣١ رقم ٤٨٦٧) وفي الكبير (٧/ ١٦٧ رقم ٦٧١٩، ٦٧٢٠) وأبو يعلىٰ (٣/ ٧٢ رقم ١٥٠٣) وأحمد (٤/ ٣٣٤) والطيالسي (رقم ١٢١٦) وعبد بن حميد (رقم ٤٧٤) وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٢): وهو حديث صحيح، ولكنه محمول علىٰ ما لا يقدر علىٰ ذبحه في الحلق واللبة. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٩/ ٦٤١): لكن من قوّاه حمله علىٰ الوحش والمتوحش.

ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ قَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ حَتَّىٰ نُؤۡتَىٰ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

(١) قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] استشهاده بهذه الآية في هذا الباب ظاهر جدًّا، فإن المراد بها: من كان ميت القلب، بعدم روح العلم والهدى والإيمان؛ فأحياه الرب تعالى بروح أخرى، غير الروح التي أحيا بها بدنه، وهي روح معرفته وتوحيده، ومحبته وعبادته وحده لا شرك له؛ إذ لا حياة للروح إلا بذلك، وإلا فهي في جملة الأموات.

ولهذا وصف الله تعالى مَنْ عدم ذلك بالموت، فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠] وسمى وحيه روحًا، لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فأخبر: أنه «روح» تحصل به الحياة، وأنه «نور» تحصل به الإضاءة.

وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢]. وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن؛ ولهذا من فقد هذه الروح فقد فقد الحياة النافعة في

(١) ٢٥٨ مدارج جـ٣.

الدنيا والآخرة: أما في الدنيا فحياته حياة البهائم وله المعيشة الضنك، وأما في الآخرة فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا، وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته...

(١)الجاهل ميت القلب والروح، وإن كان حي البدن. فجسده قبر يمشي به على وجه الأرض، قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۝ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [النمل: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢].

وشبههم - في موت قلوبهم - بأهل القبور؛ فإنهم قد ماتت أرواحهم، وصارت أجسامهم قبورًا لها. فكما أنه لا يسمع أصحاب القبور، كذلك لا يسمع هؤلاء، وإذا كانت الحياة هي الحس والحركة، وملزومهما، فهذه القلوب لما لم تحس بالعلم والإيمان، ولم تتحرك له؛ كانت ميتة حقيقة، وليس هذا تشبيهًا لموتها بموت البدن؛ بل ذلك موت القلب والروح...

(٢)قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. فأجابهم: بأن حكمته وعلمه يأبى أن يضع رسالاته في غير محلها وعند غير أهلها، ولو كان الأمر راجعا إلى محض المشيئة لم يكن في هذا جواب، بل كان الجواب أن أفعاله لا تعلل، وهو يرجح مثلا على مثل بغير مرجح، والأمر عائد إلى مجرد القدرة، كما يقوله المنكرون، وكذلك قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ

(١) ٢٦٢ مدارج جـ٣.
(٢) ٢٠٣ شفاء العليل.

فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فلما سألوا عن التخصيص بمشيئة الله وأنكروا ذلك، أجيبوا: بأن الله أعلم بمن يصلح لمشيئته وهو أهل لها، وهم الشاكرون الذين يعرفون قدر النعمة ويشكرون عليها المنعم، فهؤلاء يصلحون لمشيئته، ولو كان الأمر عائدًا إلى محض المشيئة؛ لم يحسن هذا الجواب؛ ولهذا يذكر سبحانه صفة العلم، حيث يذكر التخصيص والتفصيل بينهما، على أنه إنما حصل بعلمه سبحانه بما في التخصيص المفصل، مما يقتضي تخصيصه وتفصيله وهو الذي جعله أهلًا لذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٨١]، فذكر علمه عقيب تخصيصه سليمان بتسخير الريح له، وتخصيصه الأرض المذكورة بالبركة(١).

(٢)إن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه وموته وظلمته مادة كل شر وفتنة فيه.

أصل كل خير وسعادة للعبد، بل لكل حي ناطق: كمال حياته ونوره. فالحياة والنور مادة الخير كله، قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. فجمع بين الأصلين: الحياة، والنور، فبالحياة تكون قوته، وسمعه وبصره، وحياؤه وعفته، وشجاعته وصبره، وسائر أخلاقه الفاضلة، ومحبته للحسن، وبغضه للقبيح. فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته في نفسه، فالقلب الصحيح الحي إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه، وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «هلك من لم يكن له قلب

---

(١) هذا النقل قد سبق ذكره عند تفسير الآية ٥٣ من سورة الأنعام.

(٢) ٢٠ إغاثة جـ١.

يعرف به المعروف، وينكر به المنكر»[١].

وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه.

وكذلك إذا قوي نوره وإشراقه، انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هي عليه، فاستبان حُسْن الحسن بنوره، وآثره بحياته، وكذلك قبح القبيح.

وقد ذكر ﷻ هذين الأصلين في مواضع من كتابه. فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢]. فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم متضمن للأمرين، فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به، كما قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. أي: أو من كان كافرًا ميت القلب، مغموراً في ظلمة الجهل: فهديناه لرشده، ووفقناه للإيمان، وجعلنا قلبه حيًّا بعد موته، مشرقًا مستنيراً بعد ظلمته؟ فجعل الكافر لانصرافه عن طاعته، وجهله بمعرفته، وتوحيده وشرائع دينه، وترك الأخذ بنصيبه من رضاه، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته: بمنزلة الميت الذي لا ينفع نفسه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه، فهديناه للإسلام وأنعشناه به، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سخط الله تعالى وعقابه، فأبصر الحق بعد عماه عنه،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ٢٢٩) وابن أبي شيبة (٧/ ٥٠٤ رقم ٣٧٥٨١) والطبراني في الكبير (٩/ ١٠٧ رقم ٨٥٦٤) والبيهقي في الشعب (٦/ ٩٥ رقم ٧٥٨٨) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧٥): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وانظر: التمهيد (٢٣/ ٢٨٣، ٣٣٦) والاستذكار (٥/ ١٧) والفتن لنعيم بن حماد المروزي (١/ ١٦١) وجامع العلوم والحكم (١/ ٣٢١) وتفسير ابن كثير (٤/ ٣١٢).

وعرفه بعد جهله به، واتبعه بعد إعراضه عنه، وحصل له نور وضياء يستضيء به، فيمشي بنوره بين الناس، وهم في سدف الظلام(١)، كما قيل:

لَيْلي بِوَجْهِـــكَ مُشْرِقٌ وَظَلامُهُ فِى النَّاسِ سَارِى
النَّاسُ فِى سُدُفِ الظَّـــلا م وَنَحْنُ فِى ضَوْءِ النَّهَارِ(٢)

ولهذا يضرب الله ﷻ المثلين المائى والنارى لوحيه ولعباده.

أما الأول، فكما قال فى سورة الرعد: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

فضرب لوحيه المثل بالماء، لما يحصل به من الحياة، وبالنار لما يحصل بها من الإضاءة والإشراق، وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها، فواد كبير يسع ماء كثيراً، وواد صغير يسع ماء قليلًا. كذلك القلوب مشبهة بالأودية، فقلب كبير يسع علمًا كثيراً، وقلب صغير إنما يسع بقدره.

وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات، بسبب مخالطة الوحي لها، وإمارته لما فيها من ذلك، بما يحتمله السيل من الزبد. وشبه بطلان تلك الشبهات

(١) يأتي في سورة الأنفال بحث جيد حول هذه الآية إن شاء الله (ج).

(٢) هذان البيتان من بحر مجزوء الكامل وانتحلهما عمر الرافعي المولود سنة ١٢٩٩هـ كان قاضيًا وأديبًا في طرابلس الشام درس على يدي الشيخ محمد عبده في مصر وتولى الإفتاء في طرابلس سنة ١٩٤٨م. وجاءت أبياته هكذا:

ليلي بوجـــهك مشرق في كل معنى كالمـــنار
وبدون وجهـــك مظلم وظلامه في الناس ساري
فالناس في سدف الظـلا م لنور وجهـــك بافتقار
قـــد شاقهم بـدر التـــما م ونحن في ضوء النهار

ولم أقف على قائلها.

باستقرار العلم النافع فيها، بذهاب ذلك الزبد، وإلقاء الوادي له، وإنما يستقر فيه الماء الذي به النفع. وكذلك في المثل الذي بعده: يذهب الخبث الذي في ذلك الجوهر، ويستقر صفوه.

وأما ضرب هذين المثلين للعباد، فكما قال في سورة البقرة: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٧-١٨]. فهذا المثل الناري، ثم قال: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [البقرة: ١٩]. فهذا المثل المائي. وقد ذكرنا الكلام على أسرار هذين المثلين وبعض ما تضمناه من الحكم في كتاب المعالم وغيره[1].

والمقصود: أن صلاح القلب وسعادته وفلاحه موقوف على هذين الأصلين. قال تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ [يس: ٦٩-٧٠]. فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ [ق: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. فأخبر ﷻ أن حياتنا إنما هي بما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان. فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور. وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم. فقد ماتت قلوبهم وقبرت في أبدانهم. فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢]. ولقد أحسن القائل:

---

(١) في كتاب (اجتماع الجيوش الإسلامية) كلام قيم عن هذين المثلين. قلت: وفي أعلام الموقعين ذكر هذا المثل وغيره من أمثال القرآن. وما ذكره من كتاب المعالم فلم نعثر عليه. (ج).

وَفِي الجهلِ قَبْلَ الموْتِ مَوْتٌ لأَهْلِه وَأَجْسَامُهُمْ، قَبْلَ القُبُورِ، قُبُورُ
وَأَرْوَاحُهُمْ فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِهِم وَلَيْسَ لَهُمْ حَتَّى النُّشُورِ نُشُورُ(١)

ولهذا جعل سبحانه وحيه الذي يلقيه إلى الأنبياء روحا، كما قال تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥]. في موضعين من كتابه، وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأن حياة الأرواح والقلوب به، وهذه الحياة الطيبة هي التي خص بها سبحانه من قَبِلَ وحيه، وعمل به، فقال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧]. فخصهم ﷻ بالحياة الطيبة في الدارين. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣]. ومثله قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠]. ومثله قوله تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ [الزمر: ١٠].

فبين سبحانه أنه يسعد المحسن بإحسانه في الدنيا وفي الآخرة، كما أخبر أنه يشقي المسيء بإساءته في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]. وقال تعالى، وقد جمع بين النوعين: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. فأهل الهدى والإيمان لهم شرح الصدر

(١) هذان البيتان من بحر الطويل وينسبان إلى علي بن أبي طالب ﷺ، وعنده صدر البيت الثاني هكذا: وإن امرؤ لم يُحي بالعلم ميت. وذكر البيتين القرطبي في تفسيره (٧/ ٧٨) ونسبهما لبعض شعراء البصرة، ولكن البيت الثاني عنده هكذا:

وإِنِ امرؤ لم يحي بالعلم ميت ❁ فليس لـه حتى في النشور نشور

واتساعه وانفساحه، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. فأهل الإيمان في النور وانشراح الصدور، وأهل الضلال في الظلمة وضيق الصدور.

والمقصود: أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه.

***

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٧﴾.

(١)أما تضييق الصدر وجعله حرجا لا يقبل الإيمان، فقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] والحرج هو الشديد الضيق في قول أهل اللغة جميعهم، يقال: رجل حَرَجٌ وحَرِجٌ أي: ضيق الصدر، قال الشاعر:

لا حـــرج الصـــدر ولا عنـــيف(٢)

وقال عبيد بن عمير: قرأ ابن عباس هذه الآية فقال: هل هنا أحد من بني بكر؟ قال رجل: نعم، قال: ما الحرجة فيكم؟ قالوا: الوادي الكثير الشجر، الذي لا طريق فيه. فقال ابن عباس: كذلك قلب الكافر(٣).

وقرأ عمر بن الخطاب الآية فقال: ايتوني رجلًا من كنانة واجعلوه راعيًا، فأتوه به،

(١) ١٠٦ شفاء.
(٢) ذكره ابن منظور في اللسان (٢/ ٢٣٣).
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٧/ ٢٠٦) وانظر: الدر المنثور (٦/ ٧٩).

فقال عمر: يا فتى ما الحرجة فيكم؟ فقال: الشجرة تحدق بها الأشجار الكثيرة، فلا تصل إليها راعية ولا وحشية. فقال عمر: كذلك قلب الكافر لا يصل إليه شيء من الخير[(١)].

قال ابن عباس: يجعل صدره ضيقًا حرجًا: إذا سمع ذكر الله اشمأز قلبه، وإن ذكر شيء من عبادة الأصنام، ارتاح إلى ذلك.

ولما كان القلب محلا للمعرفة والعلم والمحبة والإنابة، وكانت هذه الأشياء إنما تدخل في القلب إذا اتسع لها، فإذا أراد الله هداية عبد وسع صدره وشرحه، فدخلت فيه وسكنته، وإذا أراد ضلاله ضيق صدره وأحرجه، فلم يجد محلا يدخل فيه، فيعدل عنه ولا يساكنه.

وكل إناء فارغ إذا دخل فيه الشيء ضاق به، وكلما أفرغت فيه الشيء ضاق، إلا القلب اللين، فكلما أفرغ فيه الإيمان والعلم اتسع وانفسح، وهذا من آيات قدرة الرب تعالى.

في الترمذي وغيره: عن النبي ﷺ: «**إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح**» قالوا: فما علامة ذلك يا رسول الله قال: «**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله**»[(٢)].

فشرح الصدر من أعظم أسباب الهدى، وتضييقه من أسباب الضلال.

كما أن شرحه من أجل النعم، وتضييقه من أعظم النقم، فالمؤمن منشرح الصدر منفسحه في هذه الدار على ما ناله من مكروهها، وإذا قوي الإيمان وخالطت بشاشته القلوب كان على مكارهها أشرح صدرا منه على شهواتها ومحابها، فإذا فارقها كان

(١) ذكره المزي في تهذيب الكمال (١٥/ ٣٢٥) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٢٦-٢٧) وابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨٤ رقم ٧٨٧٣) والحاكم (٤/ ٣٤٦ رقم ٧٨٦٣) وابن أبي شيبة (٧/ ٧٧ رقم ٣٤٣١٥) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٥٢ رقم ١٠٥٥٢) وفي الزهد الكبير (٢/ ٣٥٦ رقم ٩٧٤).

انفساح روحه والشرح الحاصل له بفراقها أعظم بكثير: كحال من خرج من سجن ضيق إلى فضاء واسع موافق له، فإنها سجن المؤمن، فإذا بعثه الله يوم القيامة رأى من انشراح صدره وسعته ما لا نسبة لما قبله إليه، فشرح الصدر كما أنه سبب الهداية، فهو أصل كل نعمة، وأساس كل خير.

وقد سأل كليم الرحمن موسى بن عمران ربه: أن يشرح له صدره، لما علم أنه لا يتمكن من تبليغ رسالته والقيام بأعبائها إلا إذا شرح له صدره، وقد عدد سبحانه من نعمه على خاتم أنبيائه ورسله شرح صدره له، وأخبر عن أتباعه أنه شرح صدورهم للإسلام.

فإن قلت: فما الأسباب التي تشرح الصدور، والتي تضيقه؟

قلت: السبب الذي يشرح الصدر النور الذي يقذفه الله فيه. فإذا دخله ذلك النور اتسع بحسب قوة النور وضعفه وإذا فقد ذلك النور أظلم وتضايق.

فإن قلت: فهل يمكن اكتساب هذا النور أم هو وهبي؟

قلت: هو وهبي وكسبي، واكتسابه أيضا مجرد موهبة من الله تعالى، فالأمر كله لله، والحمد كله له، والخير كله بيديه، وليس مع العبد من نفسه شيء البتة، بل الله واهب الأسباب ومسبباتها، وجاعلها أسبابًا، ومانحها من يشاء، ومانعها من يشاء، إذا أراد بعبده خيرا وفقه لاستفراغ وسعه وبذل جهده في الرغبة والرهبة إليه، فإنهما مادتا التوفيق، فبقدر قيام الرغبة والرهبة في القلب يحصل التوفيق.

فإن قلت: فالرغبة والرهبة بيده لا بيد العبد.

قلت: نعم والله، وهما مجرد فضله ومنته، وإنما يجعلهما في المحل الذي يليق بهما، ويحبسهما عمن لا يصلح لهما.

فإن قلت: فما ذنب من لا يصلح؟.

قلت: أكثر ذنوبه أنه لا يصلح لأن صلاحيته بما اختاره لنفسه وآثره وأحبه من الضلال والغي على بصيرة من أمره، فآثر هواه على حق ربه ومرضاته، واستحب

العمى على الهدى، وكان كفر المنعم عليه بصنوف النعم وجحد إلهيته، والشرك به، والسعي في مساخطه، أحب إليه من شكره وتوحيده والسعي في مرضاته، فهذا من عدم صلاحيته لتوفيق خالقه ومالكه.

وأي ذنب فوق هذا، فإذا أمسك الحكم العدل توفيقه عمن هذا شأنه كان قد عدل فيه، وانسدت عليه أبواب الهداية وطرق الرشاد، فأظلم قلبه، فضاق عن دخول الإسلام والإيمان فيه، فلو جاءته كل آية لم تزده إلا ضلالًا وكفرًا.

وإذا تأمل من شرح الله صدره للإسلام والإيمان هذه الآية، وما تضمنته من أسرار التوحيد والقدر والعدل وعظمة شأن الربوبية، صار لقلبه عبودية أخرى ومعرفة خاصة، وعلم أنه عبد من كل وجه وبكل اعتبار، وأن الرب تعالى رب كل شيء ومليكه من الأعيان والصفات والأفعال، والأمر كله بيده، والحمد كله له، وأزمة الأمور بيده، ومرجعها كلها إليه.

ولهذه الآية شأن فوق عقولنا، وأجل من أفهامنا، وأعظم مما قال فيها المتكلمون، الذين ظلموها معناها، وأنفسهم كانوا يظلمون.

(١)فأعظم أسباب شرح الصدر: التوحيدُ وعلى حسب كماله، وقوته، وزيادته يكونُ انشراحُ صدر صاحبه. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالهُدى والتوحيدُ؛ مِن أعظم أسبابِ شرح الصدر.

والشِّركُ والضَّلال؛ مِن أعظم أسبابِ ضيقِ الصَّدرِ وانحراجِه.

ومنها: النورُ الذي يقذِفُه الله في قلب العبد، وهو نورُ الإيمان، فإنه بشرَحُ الصدر ويُوسِّعه، ويُفرِحُ القلبَ. فإذا فُقِدَ هذا النور من قلب العبد، ضاقَ وحَرِجَ، وصار في

(١) ٣١٦ زاد المعاد جـ١.

أضيق سجنٍ وأصعبه.

وقد روىٰ الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ، أنه قال: «إذا دَخَلَ النور القلبَ، انْفَسَحَ وانشرحَ». قالوا: وما عَلامَةُ ذَلِكَ يَا رسُولَ اللهِ؟ قال: «الإنَابَةُ إلىٰ دارِ الخُلُودِ، والتَجَافِي عَنْ دَارِ الغُرُورِ، والاسْتِعْدادُ للمَوْتِ قَبْلَ نُزوله». فنصيب العبد من انشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور.

وكذلك النورُ الحِسِّي، والظلمةُ الحِسِّية، هذه تشرحُ الصدر، وهذه تُضيِّقه.

ومنها: العلم، فإنه يشرح الصدر، ويوسِّعه حتىٰ يكون أوسعَ من الدنيا، والجهلُ يورثه الضِّيق والحَصْر والحبس، فكلما اتَّسع علمُ العبد، انشرح صدره واتسع، وليس هذا لكل عِلم، بل للعلم الموروث عن الرسول ﷺ وهو العلمُ النافع، فأهلُه أشرحُ الناس صدراً، وأوسعهم قلوباً، وأحسُنهم أخلاقاً، وأطيبُهم عيشاً.

ومنها: الإنابة إلىٰ الله ﷻ، ومحبتُه بكلِّ القلب، والإقبالُ عليه، والتنعُّم بعبادته، فلا شيء أشرحُ لصدر العبد من ذلك. حتىٰ إنه ليقولُ أحياناً: إن كنتُ في الجنة في مثل هذه الحالة، فإني إذاً في عيش طيب.

وللمحبة تأثيرٌ عجيبٌ في انشراح الصدر، وطيبِ النفس، ونعيم القلب، لا يعرفه إلا مَن له حِس به، وكلَّما كانت المحبَّة أقوىٰ وأشدَّ، كان الصدرُ أفسحَ وأشرحَ، ولا يَضيق إلا عند رؤية البطَّالين الفارِغين من هذا الشأن، فرؤيتُهم قَذَىٰ عينه، ومخالطتهم حُمَّىٰ روحه.

ومِنْ أعظم أَسباب ضيق الصدر: الإعراضُ عن الله تعالىٰ، وتعلُّقُ القلب بغيره، والغفلةُ عن ذِكره، ومحبةُ سواه، فإن مَن أحبَّ شيئاً غيرَ اللَّه عُذِّبَ به، وسُجِنَ قلبُه في محبة ذلك الغير، فما في الأرض أشقىٰ منه، ولا أكسف بالاً، ولا أنكد عيشاً، ولا أتعب قلباً، فهما محبتان:

محبة هي جنة الدنيا، وسرور النفس، ولذةُ القلب، ونعيم الروح، وغِذاؤها، ودواؤُها، بل حياتُها وقُرَّةُ عينها، وهي محبةُ الله وحدَه بكُلِّ القلب، وانجذابُ قوىٰ

الميل، والإرادة، والمحبة كلِّها إليه.

ومحبةٌ هي عذاب الروح، وغمُّ النفس، وسِجْنُ القلب، وضِيقُ الصدر، وهي سببُ الألم والنكد والعناء، وهي محبة ما سواه سبحانه.

ومن أسباب شرح الصدر دوامُ ذِكره على كُلِّ حال، وفي كُلِّ موطن، فللذِكْر تأثير عجيب في انشراح الصدر، ونعيم القلب، وللغفلة تأثيرٌ عجيب في ضِيقه وحبسه وعذابه.

ومنها: الإحسانُ إلى الخَلْق ونفعُهم بما يمكنه من المال، والجاهِ، والنفع بالبدن، وأنواع الإحسان، فإن الكريم المحسنَ أشرحُ الناس صدراً، وأطيبُهم نفساً، وأنعمُهم قلباً، والبخيلُ الذي ليس فيه إحسان أضيقُ الناسِ صدراً، وأنكدُهم عيشاً، وأعظمُهم همّاً وغمّاً.

وقد ضرب رسول الله ﷺ في الصحيح مثلاً للبخيل والمتصدِّق: «كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، كُلَّمَا هَمَّ الْمُتَصَدِّقُ بِصَدَقَةٍ، اتَّسَعَتْ عَلَيْهِ وَانْبَسَطَتْ، حَتَّىٰ يَجُرَّ ثِيَابَهُ وَيُعْفِيَ أَثَرَهُ، وكُلَّمَا هَمَّ البَخِيلُ بِالصَّدَقَةِ، لَزِمَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا، وَلَمْ تَتَّسِعْ عَلَيْهِ»[1]. فهذا مَثَلُ انشِراحِ صدر المؤمن المتصدِّق، وانفساح قلبه، ومثلُ ضِيقِ صدر البخيل وانحصارِ قلبه.

ومنها: الشجاعة، فإن الشجاع منشرح الصدر، واسع البطان، متَّسِعُ القلب. والجبانُ: أضيق الناس صدراً، وأحصرُهم قلباً، لا فرحة له ولا سرور، ولا لذَّة له، ولا نعيم، إلا منْ جنس ما للحيوان البهيم.

وأما سرور الروح، ولذَّتُها، ونعيمُها، وابتهاجُها، فمحرَّمٌ على كل جبان، كما هو محرَّم علىٰ كل بخيلٍ، وعلىٰ كُلِّ مُعرِض عن الله سبحانه، غافلٍ عن ذِكره، جاهلٍ به وبأسمائه تعالىٰ وصفاته، ودِينه، متعلق القلبِ بغيره.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٠٢١) وانظر: شرح النووي (٧/ ١٠٨).

وإن هذا النعيم والسرور، ليصير في القبر رياضاً وجنة، وذلك الضيقُ والحصر، ينقلبُ في القبر عذاباً وسجناً. فحال العبد في القبر. كحال القلب في الصدر، نعيماً وعذاباً وسجناً وانطلاقاً، ولا عبرةَ بانشراح صدر هذا لعارض، ولا بضيق صدرِ هذا لعارض، فإن العوارِضَ تزولُ بزوال أسبابها، وإنما المعوَّلُ على الصِّفة التي قامت بالقلب تُوجب انشراحه وحبسه، فهي الميزان. والله المستعان.

ومنها: بل من أعظمها: إخراجُ دَغَلِ القَلْبِ من الصفات المذمومة التي تُوجب ضيقه وعذابه، وتحولُ بينه وبين حصول البُرء، فإن الإنسان إذا أتى الأسباب التي تشرحُ صدره، ولم يُخرِجْ تلك الأوصافَ المذمومة من قلبه، لم يحظَ مِن انشراح صدره بطائل، وغايته أن يكون له مادتان تعتورَانِ على قلبه، وهو للمادة الغالبة عليه منهما.

ومنها: تركُ فضولِ النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطةِ، والأكل، والنوم، فإن هذه الفضولَ تستحيلُ آلاماً وغموماً، وهموماً في القلب، تحصُرُه، وتحبِسه، وتضيِّقهُ، ويتعذَّبُ بها، بل غالِبُ عذابِ الدنيا والآخرة منها.

فلا إله إلا الله، ما أضيقَ صدَر مَن ضرب في كل آفةٍ من هذه الآفات بسهم، وما أنكَدَ عيشَه، وما أسوأ حاله! وما أشدَّ حصرَ قلبه!

ولا إله إلا الله، ما أنعمَ عيشَ مَنْ ضرب في كل خَصلةٍ من تلك الخصال المحمودة بسهم، وكانت همتُّه دائرةً عليها، حائمةً حولها، فلهذا نصيب وافر مِنْ قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣] ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٤] وبينهما مراتبُ متفاوتة لا يُحصيها إلا الله تبارك وتعالى.

والمقصود: أن رسولَ الله ﷺ كان أكملَ الخلق في كلِّ صفة يحصُل بها انشراحُ الصدر، واتِّساعُ القلب، وقُرَّةُ العين، وحياةُ الروح، فهو أكملُ الخلق في هذا الشرح والحياة، وقُرَّةِ العين مع ما خُصَّ به من الشرح الحِسِّي، وأكملُ الخلق متابعة له، أكملُهم انشراحاً ولذَّة وقُرَّة عين، وعلى حسب متابعته ينالُ العبد من انشراح صدره

وقُرَّة عينه، ولذَّة روحه ما ينال، فهو ﷺ في ذُروة الكمال مِن شرح الصدر، ورفع الذِكْر، ووضع الوِزْر، ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من اتِّباعه.. والله المستعانُ. وهكذا لأتباعه نصيبٌ من حفظ الله لهم، وعصمتِه إياهم، ودفاعِه عنهم، وإعزازه لهم، ونصرِه لهم، بحسب نصيبهم من المتابعة، فمستقِلٌّ ومستكثِر، فمَن وجد خيراً، فليحمد الله. ومَن وجد غير ذلك، فلا يلومنَّ إلا نفسه.

[1]ولما كان «السلام» اسمًا من أسماء الرب تبارك وتعالى، وهو اسم مصدر في الأصل ـ كالكلام والعطاء ـ بمعنى السلامة، كان الرب تعالى أحق به من كل ما سواه، لأنه السالم من كل آفة وعيب ونقص وذم، فإن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وكماله من لوازم ذاته، فلايكون إلا كذلك.

والسلام يتضمن سلامة أفعاله من العبث، والظلم وخلاف الحكمة وسلامة صفاته من مشابهة صفات المخلوقين، وسلامة ذاته من كل نقص وعيب، وسلامة أسمائه من كل ذم، فاسم «السلام» يتضمن إثبات جميع الكمالات له، وسلب جميع النقائص عنه. وهذا معنى «سبحان الله والحمد لله».

ويتضمن إفراده بالألوهية وإفراده بالتعظيم. وهذا معنى «لا إله إلا الله والله أكبر».

فانتظم اسم «السلام» الباقيات الصالحات التي يثنى بها على الرب جل جلاله.

ومن بعض تفاصيل ذلك أنه الحي الذي سلمت حياته من الموت والسنة والنوم والتغير. القادر الذي سلمت قدرته من اللغوب والتعب والإعياء والعجز عما يريد. العليم الذي سلم علمه أن يعزب عنه مثقال: ذرة أو يغيب عنه معلوم من المعلومات، وكذلك سائر صفاته على هذا.

فرضاه سبحانه سلام أن ينازعه الغضب. وحلمه سلام أن ينازعه الانتقام. وإرادته سلام أن ينازعها الإكراه. وقدرته سلام أن ينازعها العجز. ومشيئته سلام أن ينازعها خلاف مقتضاها. وكلامه سلام أن يعرض له كذب أو ظلم بل تمت كلماته صدقا

---

(١) ١٩٣ أحكام جـ١.

وعدلا. ووعده سلام أن يلحقه خلف.

وهو سلام أن يكون قبله شيء، أو بعده شيء، أو فوقه شيء، أو دونه شيء، بل هو العالي على كل شيء، وفوق كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، والمحيط بكل شيء.

وعطاؤه ومنعه سلام أن يقع في غير موقعه، ومغفرته سلام أن يبالي بها أو يضيق بها، أو يضيق بذنوب عباده، أو تصدر عن عجز عن أخذ حقه، كما تكون مغفرة الناس. ورحمته وإحسانه، ورأفته وبره وجوده وموالاته لأوليائه، وتحببه إليهم وحنانه عليهم، وذكره لهم وصلاته عليهم؛ سلام أن يكون لحاجة منه إليهم أو تعزز بهم أو تكثر بهم.

وبالجملة فهو السلام من كل ما ينافي كلامه المقدس بوجه من الوجوه.

وأخطأ كل الخطأ من زعم أنه من أسماء السلوب، فإن السلب المحض لا يتضمن كمالًا، بل اسم «السلام» متضمن للكمال السالم من كل ما يضاده، وإذا لم تظلم هذا الاسم ووفيته معناه، وجدته مستلزما لإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وشرع الشرائع، وثبوت المعاد، وحدوث العالم، وثبوت القضاء والقدر، وعلو الرب تعالى على خلقه، ورؤيته لأفعالهم، وسمعه لأصواتهم، واطلاعه على سرائرهم وعلانياتهم، وتفرده بتدبيرهم، وتوحده في كماله المقدس عن شريك بوجه من الوجوه، فهو السلام الحق من كل وجه. كما هو النزيه البريء عن نقائص البشر من كل وجه.

ولما كان سبحانه موصوفًا بأن له يدين لم يكن فيهما شمال، بل كلتا يديه يمين مباركة، كذلك أسماؤه كلها حسنى، وأفعاله كلها خير، وصفاته كلها كمال.

وقد جعل سبحانه السلام تحية أوليائه في الدنيا وتحيتهم يوم لقائه. ولما خلق آدم وكمل خلقه فاستوى، قال الله له: اذهب إلى أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يحيونك به، فإنها تحيتك وتحية ذريتك من بعدك[1].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٢٧) ومسلم (رقم ٢٨٤١) وانظر: عمدة القاري (٢٢/ ٢٢٩).

وقال: تعالى: ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام: ١٢٧]. وقال: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس: ٢٥]. وقد اختلف في تسمية الجنة بدار السلام.

فقيل: السلام هو الله، والجنة داره. وقيل: السلام هو السلامة، والجنة دار السلامة من كل آفة وعيب ونقص. وقيل: سميت «دار السلام» لأن تحيتهم فيها سلام، ولا تنافي بين هذه المعاني كلها.

وأما قول المسلم: «السلام عليكم» فهو إخبار للمسلم عليه بسلامته من: غيلة المسلم وغشه ومكره ومكروه يناله منه، فيرد الراد عليه مثل ذلك، أي: فعل الله ذلك بك، وأحله عليك. والفرق بين هذا الوجه وبين الوجه الأول أنه: في الأول خبر، وفي الثاني طلب.

ووجه ثالث: وهو أن يكون المعنى: اذكر الله الذي عافاك من المكروه، وأمَّنك من المحذور، وسلَّمك مما تخاف، وعاملنا من السلامة والأمان بمثل ما عاملك به. فيرد الراد عليه مثل ذلك، ويستحب له أن يزيده، كما أن من أهدى لك هدية يستحب لك أن تكافئه بزيادة عليها، ومن دعا لك ينبغي أن تدعو له بأكثر من ذلك.

ووجه رابع: وهو أن يكون معنى سلام المسلِّم ورد الراد بشارة من الله سبحانه، جعلها على ألسنة المسلمين لبعضهم بعضًا بالسلامة من الشر وحصول الرحمة والبركة، وهي دوام ذلك وثباته، وهذه البشارة أعطوها لدخولهم في دين الإسلام، فأعظمهم أجرا أحسنهم تحية وأسبقهم في هذه البشارة، كما في الحديث: «وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام»(١).

واشتق الله سبحانه لأوليائه للتحية بينهم اسمًا من أسمائه واسم دينه الإسلام الذي هو دين أنبيائه ورسله وملائكته. قال تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٧٧) ومسلم (رقم ٢٥٦٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٨٣، ٤٩٥) وشرح النووي (١٦/ ١١٧).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣].

ووجه خامس: وهو أن كل أمة من الأمم لهم تحية بينهم من أقوال وأعمال: كالسجود وتقبيل الأيدي، وضرب الجوك، وقول بعضهم: أنعم صباحًا، وقول بعضهم: عش ألف عام، ونحو ذلك. فشرع الله تبارك وتعالى لأهل الإسلام ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الزمر: ٧٣]، وكانت أحسن من جميع تحيات الأمم بينها؛ لتضمنها السلامة التي لا حياة ولا فلاح إلا بها، فهي الأصل المقدم.على كل شيء. وانتفاع العبد بحياته إنما يحصل بشيئين بسلامته من الشر وحصول الخير والسلامة من الشر مقدمة على حصول الخير، وهي الأصل، فإن الإنسان بل وكل حيوان إنما يهتم بسلامته أولًا وغنيمته ثانيًا.

على أن السلامة المطلقة تتضمن حصول الخير، فإنه لو فاته حصل له الهلاك والعطب أو النقص، ففوات الخير يمنع حصول السلامة المطلقة، فتضمنت السلامة نجاة العبد من الشر، وفوزه بالخير مع اشتقاقها من اسم الله.

والمقصود أن السلام اسمه ووصفه وفعله، والتلفظ به ذكر له، كما في السنن أن رجلًا سلم على النبي ﷺ فلم يرد عليه حتى تيمم ورد عليه، وقال: «**إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهارة**»[(١)].

فحقيق بتحية هذا شأنها أن تصان عن بذلها لغير أهل الإسلام وألا يُحيَّى بها أعداء القدوس السلام. ولهذا كانت كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار: «**سلام على من اتبع**

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٦٩) ولفظه عنده: أن أبا الجهم بن الحارث من الصِّمَّة الأنصاري قال: أقبل رسول الله ﷺ من نحو بئر جمل، فلقيه رجل فسلَّم عليه، فلم يرد رسول الله ﷺ عليه، حتى أقبل على الجدار فمسح وجهه ويديه، ثم رد عليه السلام.
أما اللفظ المذكور فقد أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣/ ٨٢ رقم ٨٠٣) والحاكم (١/ ٢٧٢ رقم ٥٩٢) وابن خزيمة (١/ ١٠٣ رقم ٢٠٦) والبيهقي في الكبرى (١/ ٩٠ رقم ٤٣٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٣).

الهدى»[١] ولم يكتب لكافر: «سلام عليكم» أصلًا، فلهذا قال في أهل الكتاب: «ولا تبدأوهم بالسلام»[٢].

***

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

[٣]ومن تلاعبه[٤]: تلاعبه بعباد الحيوانات. فطائفة عبدت الخيل، وطائفة عبدت البقر، وطائفة عبدت البشر الأحياء والأموات، وطائفة تعبد الشجر، وطائفة تعبد الجن، كما قال سبحانه: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧) بلفظ: «من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: ومسلم (رقم ١٧٧٣).
وكتب أيضًا: «من محمد رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:» أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ٢٤ رقم ١٣٠٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٦١-١٦٢ رقم ١٤٤٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٠) وشرح النووي (١٢/ ١٠٧).
(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٥٢٠٥) والطبراني في الأوسط (١/ ٢١٧ رقم ٧٠٥) والطيالسي (رقم ٢٤٢٤) وأحمد (٢/ ٣٤٦، ٤٥٩) وانظر: عون المعبود (١٤/ ٧٥) والتمهيد (١٧/ ٩٢-٩٣) وفيض القدير (٦/ ٣٨٩).
(٣) ٢٣٥ إغاثة جـ٢.
(٤) أي الشيطان.

مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سبأ: ٤٠ - ٤١].

وقال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [يس: ٦٠ - ٦١].

وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. يعني: قد استكثرتم من إضلالهم وإغوائهم.

قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن وغيرهم: «أضللتم منهم كثيرًا»، فيجيبه سبحانه أولياؤهم من الإنس بقولهم: ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ يعنون استمتاع كل نوع بالنوع الآخر. فاستمتاع الجن بالإنس: طاعتهم لهم فيما يأمرونهم به: من الكفر، والفسوق، والعصيان. فإن هذا أكثر أغراض الجن من الإنس. فإذا أطاعوهم فيه فقد أعطوهم مُنَاهُم. واستمتاع الإنس بالجن: أنهم أعانوهم على معصية الله تعالى، والشرك به بكل ما يقدرون عليه: من التحسين، والتزيين، والدعاء، وقضاء كثير من حوائجهم، واستخدامهم بالسحر والعزائم، وغيرها. فأطاعهم الإنس فيما يرضيهم: من الشرك، والفواحش، والفجور، وأطاعتهم الجن فيما يرضيهم: من التأثيرات، والإخبار ببعض المغيبات. فتمتع كل من الفريقين بالآخر.

وهذه الآية منطبقة على أصحاب الأحوال الشيطانية الذين لهم كشوف شيطانية وتأثير شيطاني. فيحسبهم الجاهل أولياء الرحمن، وإنما هم من أولياء الشيطان. أطاعوه في الإشراك، ومعصية الله، والخروج عما بعث به رسله، وأنزل به كتبه. فأطاعهم في أن خدمهم بإخبارهم بكثير من المغيبات والتأثيرات، واغتر بهم من قل حظه من العلم والإيمان، فوالى أعداء الله، وعادى أولياءه، وحسن الظن بمن خرج عن سبيله وسنته، وأساء الظن بمن اتبع سنة الرسول، وما جاء به، ولم يدعها لأقوال المختلفين، وآراء

المتحيرين وشطحات المارقين، وترهات المتصوفين.

والبصير الذى نور الله بصيرته بنور الإيمان والمعرفة إذا عرف حقيقة ما عليه أكثر هذا الحلق، وكان ناقدا، لا يروج عليه الزغل، تبين له أنهم داخلون تحت حكم هذه الآية، وهى منطبقة عليهم.

فالفاسق يستمتع بالشيطان، بإعانته له على أسباب فسوقه، والشيطان يستمتع به في قبوله منه وطاعته له فيسره ذلك، ويفرح به منه.

والمشرك يستمتع به الشيطان بشركه به، وعبادته له. ويستمتع هو بالشيطان فى قضاء حوائجه، وإعانته له.

ومن لم يحط علما بهذا لم يعلم حقيقة الإيمان والشرك، وسر امتحان الرب سبحانه كلا من الثقلين بالآخر.

ثم قالوا: ﴿ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وهو يتناول أجل الموت، وأجل البعث. فكلاهما أجل أجَّله الله تعالى لعباده، وهما الأجلان اللذان قال الله فيهما: ﴿ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٢].

وكأن هذا - والله أعلم - إشارة منهم إلى نوع استعطاف وتوبة. فكأنهم يقولون: هذا أمر قد كان إلى وقت، وانقطع بانقطاع أجله. فلم يستمر ولم يدم، فبلغ الأمر الذي كان أجله وانتهى إلى غايته. ولكل شيء آخر، فقال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. فإنه وإن انقطع زمن التمتع وانقضى أجله، فقد بقي زمن العقوبة، فلا يتوهم أنه إذا انقضى زمن الكفر والشرك، وتمتع بعضكم ببعض أن مفسدته زالت بزواله، وانتهت بانتهائه(١). والمقصود: أن الشيطان تلاعب بالمشركين حتى عبدوه، واتخذوه وذريته أولياء من دون الله.

(٢)وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ

(١) يأتي في سورة هود بحث على هذه الآية - إن شاء الله تعالى - في آخر البحث في أبدية النار. (ج).
(٢) ٤٢٠ طريق الهجرتين.

أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وهذا صريح في تكليفهم، فإن هذا القول يقال للجن في القيامة، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض في الدنيا، وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم في معصية الله، وعبادتهم لهم دون الله، ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم، فإنهم كانوا يستوحونهم ويعوذون بهم، ويذبحون لهم وبأسمائهم، ويوالونهم من دون الله، كما هو شأن أكثر المشركين من أولياءِ الشيطان. فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض، ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم القيامة - وقد جمع العابدين والمعبودين -: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

فهؤلاء عباد الجن وأولياءُ الشياطين. وأكثرهم يعلم ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده. وكثير منهم ملبوس عليه، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر.

وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل في شعره إلى هذا الشرك بالجن، فقال:

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم   وأنت إلهي ربنا ورجائيا(١)

ولهذا يقولون في القيامة: ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام: ١٢٨] قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] فهذا خطاب للصنفين، وهو صريح في اشتراكهم في التكليف، كما هو صريح في اشتراكهم في العذاب. وهو كثير في القرآن.

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى، اعتزل الأوثان وعبادة الأصنام، وقرأ كتب الأديان، ابن عم خديجة، قال لرسول الله ﷺ في حديث بدء الوحي: يا ليتني فيها جذع، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، مات سنة ١١ قبل الهجرة. وذكر البيت إسماعيل التيمي الأصبهاني في دلائل النبوة (ص٨١) ونسبه إلى ورقة بن نوفل يخاطب به ضمن قصيدة عمرو بن زيد بن نفيل، وكذا فعل ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٩/ ٥١٥) (٦٣/ ٢٧).

ومما يدل على تكليفهم أيضاً قوله تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين، وشهدوا على أنفسهم بالكفر دل ذلك على تكليفهم وتوجه الخطاب إليهم.

...[1]وكثير من الفقهاء من الطوائف الأربع يقولون: قبحها[2] ثابت بالعقل، والعقاب متوقف على ورود الشرع، وهو الذي ذكره سعد بن علي الزنجاني من الشافعية، وأبو الخطاب من الحنابلة. وذكره الحنفية وحكوه عن أبي حنيفة نصًّا. لكن المعتزلة منهم يصرحون بأن العقاب ثابت بالعقل.

وقد دلَّ القرآن: أنه لا تلازم بين الأمرين، وأنه لا يعاقب إلا بإرسال الرسل، وأن الفعل نفسه حسن وقبيح، ونحن نبين دلالته على الأمرين.

أما الأول: ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥]. وفي قوله: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]. وفي قوله: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الملك: ٨، ٩] فلم يسألوهم عن مخالفتهم للعقل بل للنذر، وبذلك دخلوا النار.

وقال تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. وفي الزمر: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ﴾ [الزمر: ٧١]، ثم قال في الأنعام بعدها: ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣١].

(١) ٢٣٢ مدارج جـ١.

(٢) يأتي إن شاء الله في سورة الأعراف بحث على قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً ﴾ الآية (ج).

وعلى أحد القولين وهو أن يكون المعنى: لم يهلكهم بظلمهم قبل إرسال الرسل، فتكون الآية دالة على الأصلين: أن أفعالهم وشركهم ظلم قبيح قبل البعثة، وأنه لا يعاقبهم عليه إلا بعد الإرسال، وتكون هذه الآية في دلالتها على الأمرين، نظير الآية التي في القصص: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص: ٤٧] فهذا يدل على أن ما قدمت أيديهم سبب لنزول المصيبة بهم، ولولا قبحه لم يكن سببا لكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها، وهو عدم مجيء الرسول إليهم، فمذ جاء الرسول انعقد السبب ووجد الشرط، فأصابهم سيئات ما عملوا، وعوقبوا بالأول والآخر.

***

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأَتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَـٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

(1) قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٣] فهذا قياس جليٌّ، يقول سبحانه: إن شئت أذهبتكم واستخلفت غيركم، كما أذهبت من قبلكم واستخلفتكم فذكر أركان القياس الأربعة: علة الحكم: وهي عموم مشيئته وكمالها، والحكم: وهو إذهابه بهم وإتيانه بغيرهم، والأصل: وهو من كان من قبل، والفرع: وهم المخاطبون.

(١) ١٣٨ أعلام جـ١.

[١] وقدم عليه ﷺ في شهر شعبان سنة عشر وفدُ خَوْلان، وهم عشرة، فقالوا: يارسول الله؛ نحن على مَن وَرَاءَنَا مِن قومنا، ونحن مؤمنون بالله ﷻ، ومصدِّقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباطَ الإبل، وركبنا حُزُونَ الأرض وسهولَها، والمنة لله ولِرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أَمَّا مَا ذَكَرْتُمْ مِنْ مَسِيرِكُم إليَّ، فَإِنَّ لَكُم بِكُلِّ خَطْوَة خَطاهَا بَعِيرُ أَحَدِكُم حَسَنَة، وأما قولُكم: زائِرِينَ لك، فإنه مَنْ زَارَنِى بِالمَدِينَةِ، كَانَ فِى جِواري يَوْمَ القِيَامَةِ**».

قالوا: يَا رسول الله؛ هذا السفرُ الذي لا تَوَىٰ عَلَيْهِ. ثم قال رسولُ الله ﷺ: «**مَا فَعَلَ عَم أَنَسٍ**»؟ ـ وهو صنم خَوْلان الذي كانوا يعبدونه ـ قالوا: بشر، أبدلنا اللهُ به ما جئتَ به، وقد بقيت منا بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسِّكون به، ولو قدمنا عليه، لهدمناه إن شاء الله، فلقد كنا منه في غُرور وفِتنة. فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ومَا أَعْظَمَ مَا رَأَيْتُم مِنْ فِتْنَتِه**»؟ قالوا: لقد رأيتنا أَسْنَتْنَا حَتَّى أكلنا الرِّمة، فجمعنا ما قَدَرْنا عليه، وابتعنا به مِائة ثور، ونحرناها لعم أنس قُرباناً في غَداةٍ واحدةٍ، وتركناها تَردُها السباع، ونحن أحوَجُ إليها من السباع، فجاءنا الغيثُ مِن ساعتنا، ولقد رأينا العُشْبَ يُواري الرجالَ، ويقول قائِلُنا: أنعم علينا عم أنس، وذكروا لرسول الله ﷺ ما كانوا يَقسِمُون لصنمهم هذا من أنعامهم وحُروثهم، وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له، وجزءاً لله بزعمهم، قالوا: كنا نزرعُ الزرعَ، فنجعلُ له وسطَه، فنسميه له، ونسمى زرعاً آخر حجرة لله، فإذا مالت الريحُ، فالذي سميناه لله جعلناه لعم أنس، وإذا مالت الريح، فالذي جعلناه لعم أنس، لم نجعله لله، فذكر لهم رسولُ الله ﷺ أنَّ الله أنزل عليه في ذلك: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، قالوا: وكنا نتحاكم إليه فيتكلم، فقال رسولُ الله ﷺ: «**تِلْكَ الشَّيَاطِينُ تُكَلِّمُكُم**»، وسألوه عن فرائض الدين، فأخبرهم، وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداءِ الأمانةِ، وحُسنِ الجوار لمن

---

(١) ١٠٦ زاد المعاد جـ٣.

جاورُوا، وأن لا يظلِمُوا أحداً. قال: «فإن الظُّلْمَ ظُلُماتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١)، ثم ودَّعوه بعد أيام، وأجازهم، فرجعُوا إلى قومهم، فلم يَحُلُّوا عقدة حتى هدموا عم أنس(٢).

***

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

(٣)أما تحريم بيع الخنزير: فيتناول جملته وجميع أجزائه الظاهرة والباطنة، وتأمل كيف ذكر لحمه عند تحريم الأكل، إشارة إلى تحريم أكله، ومعظمه اللحم؟ فذكر اللحم تنبيهًا على تحريم أكله دون ما قبله، بخلاف الصيد، فإنه لم يقل فيه: وحرم عليكم لحم الصيد، بل حرم نفس الصيد؛ ليتناول ذلك أكله وقتله، وههنا لما حرم البيع ذكر جملته، ولم يخص التحريم بلحمه؛ ليتناول بيعه: حيًّا، وميتًا.

وأما تحريم بيع الأصنام؛ فيستفاد منه تحريم بيع كل آلة متخذة للشرك: على أي وجه كانت، ومن أي نوع كانت، صنمًا أو وثنًا أو صليبًا، وكذلك الكتب المشتملة على الشرك وعبادة غير الله، فهذه كلها؛ يجب إزالتها وإعدامها، وبيعها، ذريعة إلى اقتنائها واتخاذها، فهي أولى بتحريم البيع من كل ما عداها. فإن مفسدة بيعها بحسب مفسدتها في نفسها، والنبي ﷺ لم يؤخر ذكرها لخفة أمرها، ولكنه تدرج من الأسهل إلى ما هو أغلظ منه، فإن الخمر أخف حالاً من الميتة؛ فإنها قد تصير مالاً محترمًا، إذا قلبها الله سبحانه ابتداء خلًّا، أو الآدمي بصنعته عند طائفة من العلماء، وتضمن إذا أتلفت على الذمي عند طائفة بخلاف الميتة. وإنما لم يجعل الله في أكل الميتة حدًّا، اكتفاء بالزاجر

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٤٤٧) ومسلم (رقم ٢٥٧٩) وانظر: فتح الباري (٥/ ١٠٠) وشرح النووي (١٦/ ١٣٤).

(٢) انظر: البداية والنهاية (٢/ ١٩١) (٥/ ٩٣) والطبقات الكبرى (١/ ٣٢٤).

(٣) ٣٧٢ زاد المعاد جـ٤.

الذي جعله الله في الطباع من: كراهتها، والتنزه عنها، وإبعادها عنها بخلاف الخمر.

والخنزير أشد تحريمًا من الميتة؛ ولهذا أفرده الله تعالىٰ بالحكم عليه أنه رجس في قوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]. فالضمير في قوله: «فإنه» وإن كان عوده إلىٰ الثلاثة المذكورة باعتبار لفظ المحرم: فإنه يترجح اختصاص الخنزير به لثلاثة أوجه: أحدها: قربه منه، والثاني: تذكيره، دون قوله: «فإنها رجس» والثالث: أنه أتىٰ بالفاء و«إن» تنبيهًا علىٰ علة التحريم؛ لتنزجر النفوس عنه. ويقابل هذه العلة، ما في طباع بعض الناس من استلذاذه واستطابته، فنفىٰ عنه ذلك. وأخبر أنه «رجس»، وهذا لا يحتاج إليه في الميتة والدم؛ لأن كونهما رجسًا؛ أمر مستقر معلوم عندهم. ولهذا في القرآن نظائر، فتأملها.

ثم ذكر بعد ذلك؛ تحريم بيع الأصنام، وهو أعظم تحريمًا وإثمًا، وأشد منافاة للإسلام من بيع الخمر والميتة والخنزير.

(١)وسألته ﷺ ميمونة عن شاة ماتت فألقوا إهابها، فقال: «**هلا أخذتم مَسْكَها**» فقالت: نأخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال لها ﷺ: «**إنما قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾، وإنكم لا تطعمونه، إن تدبغوه تنتفعوا به**»، فأرسلت إليها فسلخت مسكها فدبغته، فاتخذت منه قِربة تخرقت عندها(٢)، ذكره أحمد.

وسئل عن جلود الميتة، فقال: «**ذكاتها دباغها**»(٣) ذكره النسائي.

---

(١) ٢٨٠ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٢٧) وابن حبان (٤/ ٩٨ رقم ١٢٨١) والبيهقي في الكبرىٰ (١/ ١٨ رقم ٥٧) والطبراني في الكبير (١١/ ٢٨٨ رقم ١١٧٦٥) وأبو يعلىٰ (٤/ ٢٢٢ رقم ٢٣٣٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٦٠) وعمدة القاري (٩/ ٨٨) والحديث صححه الشوكاني في نيل الأوطار (١/ ٧٧).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٣/ ٨٤ رقم ٤٥٧١، ٤٥٧٢) وفي الصغرىٰ (رقم ٤٢٤٣، ٤٢٤٥) والحاكم (٤/ ١٥٧ رقم ٧٢١٨) والبيهقي في الكبرىٰ (١/ ٢١ رقم ٧٠) والدارقطني (١/ ٤٢ رقم ٤) =

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

[1]كثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه فضيعوا أمره ونهيه. ونسوا: أنه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ومن اعتمد على العفو مع الإصرار على الذنب فهو كالمعاند.

قال معروف: رجاؤك لرحمة من لا تطيعه من الخذلان والحمق...

[2]وأما القدرية الإبليسية والشركية فكثير منهم منسلخ عن الشرع، عدو لله ورسله، ولا يقر بأمر ولا نهي، وتلك وراثة عن شيوخهم الذين قال الله فيهم: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل:٣٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ٤٧]، فهذه أربعة مواضع في القرآن بين سبحانه

=

والطبراني في الكبير (٧/ ٤٧ رقم ٦٣٤٢) وأحمد (٥/ ٦، ٧) وصححه ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ٤٩) وانظر: نيل الأوطار (١/ ٧٧).

(١) ٢٨ أعلام جـ٤.

(٢) ٨٧ طريق الهجرتين.

فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل.

وقد افترق الناس في الكلام على هذه الآيات أربع فرق:

الفرقة الأولى: جعلت هذه الحجة حجة صحيحة، وأن للمحتج بها الحجة على الله. ثم افترق هؤلاء فرقتين:

فرقة كذبت بالأمر والوعد والوعيد، وزعمت أن الأمر والنهي والوعد والوعيد بعد هذا يكون ظلماً، والله لا يظلم من خلقه أحداً.

وفرقة صدقت بالأمر والنهي والوعد والوعيد، وقالت: ليس ذلك بظلم، والله يتصرف في ملكه كيف يشاءُ، ويعذب العبد على ما لا صنع له فيه، بل يعذبه على فعله هو سبحانه لا على فعل عبده، إذ العبد لا فعل له، والملك ملكه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فإن هؤلاء الكفار إنما قالوا هذه المقالة التي حكاها الله عنهم استهزاءً منهم، ولو قالوها اعتقاداً للقضاء والقدر وإسناداً لجميع الكائنات إلى مشيئته وقدرته لم ينكر عليهم، ومضمون قول هذه الفرقة أن هذه حجة صحيحة إذا قالوها على وجه الاعتقاد، لا على جهة الاستهزاء، فيكون للمشركين على الله الحجة، وكفى بهذا القول فساداً وبطلاناً[1].

...[2]وأيضًا فإن الله سبحانه نوَّع الأدلة الدالة عليه، والتي تعرّف عباده به غاية التنوع، وصرف الآيات وضرب الأمثال: ليقيم عليهم حجته البالغة، ويتم عليهم بذلك نعمته السابغة، ولا يكون لأحد بعد ذلك حجة عليه سبحانه؛ بل الحجة كلها له، والقدرة كلها له، فأقام عليهم حجته، ولو شاء لسوَّى بينهم في الهداية، كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، فأخبر أن له الحجة البالغة، وهي التي بلغت إلى صميم القلب، وخالطت العقل، واتحدت به، فلا يمكن العقل دفعها ولا جحدها، ثم أخبر أنه سبحانه قادر على هداية خلقه كلهم، ولو شاء ذلك لفعله، لكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، ولكن حكمته تأبى ذلك...

(١) استمر المؤلف في ذكر الفرق وتفرقها، وأطال في الموضوع ببيان شافٍ لمن أراده (ج).

(٢) ١٢٢ طريق الهجرتين.

(١)وقد أنكر الله ﷻ على من جعل مشيئته وقضاءه مستلزمين لمحبته ورضاه، فكيف بمن جعل ذلك شيئًا واحدًا؟!

قال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النحل:٣٥]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الزخرف: ٢٠]، فهم استدلوا على محبته لشركهم ورضاه عنه بمشيئته لذلك، وعارضوا بهذا الدليل أمره ونهيه(٢).

...(٣)وقد أنكر الله سبحانه على من احتج على محبته بمشيئته في ثلاثة مواضع من كتابه: في سورة الأنعام، والنحل، والزخرف، فقال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وكذلك حكى عنهم في النحل، ثم قال: ﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النحل: ٣٥]. وقال في الزخرف: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٠].

فاحتجوا على محبته لشركهم ورضاه به بكونه أقرهم عليه، وأنه لولا محبته له

---

(١) ١٩١ مدارج جـ٢.

(٢) هنا فصل المؤلف بين المشيئة والمحبة تفصيلًا واضحًا يحسن الرجوع إليه. (ج).

(٣) ١٢٦ شفاء العليل.

ورضاه به لما شاءه منهم، وعارضوا بذلك أمره ونهيه ودعوة الرسل، قالوا: كيف يأمر بالشيء قد شاء منا خلافه؟! وكيف يكره منا شيئًا قد شاء وقوعه ولو كرهه لم يمكنا منه ولحال بيننا وبينه؟! فكذبهم سبحانه في ذلك وأخبر: أن هذا تكذيب منهم لرسله، وأن رسله متفقون على أنه سبحانه يكره شركهم ويبغضه ويمقته وأنه لولا بغضه وكراهته لما أذاق المشركين بالله عذابه، فإنه لا يعذب عبده على ما يحبه، ثم طالبهم بالعلم على صحة مذهبهم: بأن الله أذن فيه، وأنه يحبه ويرضى به، ومجرد إقراره لهم قدرا لا يدل على ذلك عند أحد من العقلاء، وإلا كان الظلم والفواحش والسعي في الأرض بالفساد والبغي محبوبا له مرضيا، ثم أخبر سبحانه أن مستندهم في ذلك إنما هو الظن، وهو أكذب الحديث، وأنهم لذلك كانوا أهل الخرص والكذب، ثم أخبر سبحانه أن له الحجة عليهم من جهتين:

إحداهما: ما ركّبه فيهم من العقول التي يفرقون بها بين الحسن والقبيح والباطل، والأسماع والأبصار التي هي آلة إدراك الحق، والتي يفرق بها بينه وبين الباطل.

والثانية: إرسال رسله، وإنزال كتبه، وتمكينهم من الإيمان والإسلام، ولم يؤاخذهم بأحد الأمرين، بل بمجموعها لكمال عدله، وقطعا لعذرهم من جميع الوجوه، ولذلك سمى حجته عليهم بالغة، أي قد بلغت غاية البيان وأقصاه، بحيث لم يبق معها مقال لقائل ولا عذر لمعتذر، ومن اعتذر إليه سبحانه بعذر صحيح قبله، ثم ختم الآية بقوله: ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وأنه لا يكون شيء إلا بمشيئته، وهذا من تمام حجته البالغة، فإنه إذا امتنع الشيء لعدم مشيئته لزم وجوده عند مشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، كان هذا من أعظم أدلة التوحيد، ومن أبين أدلة بطلان ما أنتم عليه من الشرك واتخاذ الأنداد من دونه، فما احتججتم به من المشيئة على ما أنتم عليه من الشرك هو من أظهر الأدلة على بطلانه وفساده...

...(١) وتأمل قوله سبحانه بعد حكايته عن أعدائه واحتجاجهم بمشيئته وقدره على

---

(١) ١٧ شفاء العليل.

إبطال ما أمرهم به رسوله، وأنه لولا محبته ورضاه به لما شاءه منهم: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فأخبر سبحانه أن الحجة له عليهم برسله وكتبه، وبيان ما ينفعهم ويضرهم، وتمكنهم من الإيمان بمعرفة أوامره ونواهيه، وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول، فثبتت حجته البالغة عليهم بذلك، واضمحلت حجتهم الباطلة عليه بمشيئته وقضائه.

ثم قرر تمام الحجة بقوله: ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ فإن هذا يتضمن: أنه المتفرد بالربوبية والملك والتصرف في خلقه، وأنه لا رب غيره ولا إله سواه، فكيف يعبدون معه إلهًا غيره، فإثبات القدر والمشيئة من تمام حجته البالغة عليهم، وأن الأمر كله لله، وأن كل شيء ما خلا الله باطل(١). فالقضاء والقدر والمشيئة النافذة من أعظم أدلة التوحيد فجعلها الظالمون الجاحدون حجة لهم على الشرك، فكانت حجة الله هي البالغة، وحجتهم هي الداحضة. وبالله التوفيق.

***

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

(٢)قاعدة شريفة: الناس قسمان: علية وسفلة. فالعلية من عرف الطريق إلى ربه وسلكها قاصداً الوصول إليه، وهذا هو الكريم على ربه. والسفلة من لم يعرف الطريق إلى ربه ولم يتعرفها، فهذا هو اللئيم الذي قال الله فيه: ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج: ١٨].

والطريق إلى الله في الحقيقة واحد لا تعدد فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل». أخرجه البخاري (رقم ٣٨٤١) ومسلم (رقم ٢٢٥٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٢٢) وشرح النووي (١٥/ ١٢- ١٣).

(٢) ١٧٧ طريق الهجرتين.

موصلاً لمن سلكه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فوحد سبيله لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه، وجمع السبل المخالفة، لأنها كثيرة متعددة، كما ثبت أن النبي ﷺ خط خطًّا ثم قال: «**هذا سبيل الله**». ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره، ثم قال: «**هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[١] [الأنعام:١٥٣].

ومن هذا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، فوحد النور الذي هو سبيله، وجمع الظلمات التي هي سبل الشيطان.

ومن فهم هذا فهم السر في إفراد النور وجمع الظلمات في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]. مع أن فيه سراً أَلطف من هذا، يعرفه من يعرف منبع النور، ومن أَين فاض، وعما ذا حصل؟ وأن أَصله كله واحد، وأَما الظلمات فهي متعددة بتعدد الحجب المقتضية لها، وهي كثيرة جدًّا، لكل حجاب ظلمة خاصة، ولا ترجع الظلمات إلى النور الهادي جل جلاله أصلاً لا وصفاً ولا ذاتاً ولا اسماً ولا فعلاً، وإنما ترجع إلى مفعولاته سبحانه، فهو جاعل الظلمات، ومفعولاتها متعددة متكثرة، بخلاف النور، فإنه يرجع إلى اسمه وصفته جل جلاله، تعالى أن يكون كمثله شيء، وهو نور السموات والأرض. قال ابن مسعود: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السموات والأَرض من نور وجهه[٢] ذكره

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٦١ رقم (٢٩٣٨) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٣ رقم ١١١٧٥) وأحمد (١/ ٤٦٥) والشاشي في مسنده (٢/ ٤٨ رقم ٥٣٥) وابن أبي عاصم في السنة (رقم ١٦) والمروزي في السنة (رقم ١٣) وحسنه الألباني في ظلال الجنة (رقم ١٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٧٩ رقم ٨٨٨٦) وأبو الشيخ في العظمة (١/ ٤٠٥-٤٠٦ رقم ١١١)
=

الدارمي عنه. وفي صحيح مسلم: عن أبي ذر: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ قال: «نور، أَنَّى أَراه»[١].

والمقصود: أن الطريق إلى الله تعالى واحد، فإنه الحق المبين، والحق واحد، مرجعه إلى واحد. وأما الباطل والضلال فلا ينحصر، بل كل ما سواه باطل، وكل طريق إلى الباطل فهو باطل، فالباطل متعدد، وطرقه متعددة.

وأما ما يقع في كلام بعض العلماء أَن الطريق إلى الله متعددة متنوعة، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها، رحمة منه وفضلاً، فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق.وكشف ذلك وإيضاحه: أن الطريق وهي واحدة جامعة لكل ما يرضي الله، وما يرضيه متعدد متنوع، فجميع ما يرضيه طريق واحد، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأَزمان والأَماكن والأَشخاص والأَحوال، وكلها طرق مرضاته، فهذه التي جعلها الله سبحانه لرحمته، وحكمته كثيرة متنوعة جداً لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم، ولو جعلها نوعاً واحداً مع اختلاف الأَذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحد بعد واحد، ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوعت الطرق ليسلك كل امرئٍ إلى ربه طريقاً يقتضيها استعداده وقوته وقبوله.

ومن هنا يعلم تنوع الشرائع واختلافها مع رجوعها كلها إلى دين واحد، بل تنوع الشريعة الواحدة مع وحدة المعبود ودينه، ومنه الحديث المشهور: «**الأَنْبِيَاءُ أَوْلادُ عَلات دينهم واحد**»[٢]، فأولاد العلات أن يكون الأب واحداً والأُمهات متعددة، فشبه دين الأنبياء بالأب الواحد وشرائعهم بالأمهات المتعددة، فإنها وإن تعددت فمرجعها كلها إلى أب واحد.

= (٢/ ٤٧٧ رقم ٣١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٧) وانظر: تفسر ابن كثير (٣/ ٢٥٤) والدر المنثور (٧/ ٣٣٩).

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨) وانظر: شرح النووي (٣/ ١٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٢، ٣٤٤٣) ومسلم (رقم ٢٣٦٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٨٩).

وإذا علم هذا فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذى يعد سلوكه إلى الله، طريق العلم والتعليم، قد وفر عليه زمانه مبتغياً به وجه الله، فلا يزال كذلك عاكفاً على طريق العلم والتعليم، حتى يصل من تلك الطريق إلى الله، ويفتح له فيها الفتح الخاص، أو يموت فى طريق طلبه، فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١٠٠].

وقد حكي عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو حريص طالب للقرآن: أنه رؤي بعد موته، وأخبر أنه في تكميل مطلوبه، وأنه يتعلم في البرزخ، فإن العبد يموت على ما عاش عليه.

ومن الناس: من يكون سيد عمله الذكر، وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله، فمتى فتر عنه أو قصر رأى أنه قد غبن وخسر.

ومن الناس: من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة، فمتى قصر في ورده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها أظلم عليه وقته وضاق صدره.

ومن الناس: من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي، كقضاءِ الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وأنواع الصدقات، قد فتح له في هذا وسلك منه طريقاً إلى ربه. ومن الناس من يكون طريقه الصوم، فهو متى أفطر تغير عليه قلبه وساءَت حاله. ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن وهى الغالب على أوقاته وهى أعظم أوراده.

ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، قد فتح الله له فيه ونفذ منه إلى ربه، ومنهم من يكون طريقه الذى نفذ فيه الحج والاعتمار.

ومنهم: من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم: جامع المنفذ السالك إلى الله في كل واد، الواصل إليه من كل طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه يؤمها أين كانت، ويسير معها حيث

سارت، قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأَين كانت العبودية وجدته هناك: إن كان علم وجدته مع أَهله، أَو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أَو صلاة وجدته في القانتين، أَو ذكر وجدته في الذاكرين، أَو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين، أَو محبة ومراقبة وإنابة إلى الله وجدته في زمرة المحبين المنيبين، يدين بدين العبودية أَنَّى استقلت ركائبها،ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربها، لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت وأين كانت، جالبة ما جلبت، مقتضية ما اقتضت جمعتني أو فرقتني، ليس لي مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها مراقباً له فيها، عاكفاً عليه بالروح والقلب والبدن والسر، قد سلمت إليه المبيع، منتظراً منه تسليم الثمن: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ [التوبة: ١١١]، فهذا هو العبد السالك إلى ربه النافذ إليه حقيقة، ومعنى النفوذ إليه أن يتصل به قلبه، ويعلق به تعلق المحب التام المحبة بمحبوبه، فيسلو به عن جميع المطالب سواه.

(١)توحد طريق الجنة، وأنه ليس لها إلا طريق واحد.

هذا مما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم.

وأما طرق الجحيم فأكثر من أن تحصى، ولهذا يوحد سبحانه سبيله، ويجمع سبل النار، كقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞ ﴾ [النحل: ٩] أي ومن السبيل جائر عن القصد، وهي سبيل الغي.

وقال: ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴾ [الحجر: ٤١] وقال ابن مسعود: خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا وقال: «هذا سبيل الله» ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن يساره، ثم قال: «هذه سبل، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ ﴾ الآية.

(١) ٥٧ حادي الأرواح.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

قيل: هي سبل تجتمع في سبيل واحد، وهي بمنزلة الجواد والطرق في الطريق الأعظم، فهذه هي شعب الإيمان يجمعها الإيمان، وهو شعبة، كما يجمع ساق الشجرة أغصانها وشعبها، وهذه السبل هي إجابة داعي الله بتصديق خبره وطاعة أمره، وطريق الجنة هي إجابة الداعي إليها ليس إلا.

وروى البخاري في صحيحه عن جابر قال: «جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلًا فاضربوا له مثلا، فقالوا: مثله مثل رجل بنى دارًا، وجعل فيها مأدبة، وبعث داعيًا، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان. الدار الجنة والداعي محمد، فمن أطاع محمدًا فقد أطاع الله، ومن عصى محمدًا فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس»[1].

ورواه الترمذي عنه، ولفظه: خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال: **«إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلًا، فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ دارًا، ثم بنى فيها بيتًا، ثم جعل مائدة، ثم بعث رسولًا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة، وأنت يا محمد الرسول، فمن أجابك دخل الإسلام، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٢٨١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٥٦) وعمدة القاري (٢٥/ ٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٨٦٠) والحاكم (٢/ ٣٦٩ رقم ٣٢٩٩) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٥٥) وعمدة القاري (٢٥/ ٢٨).

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

(١)لما ذكر إتيانه سبحانه ربما توهم متوهم أن المراد: إتيان بعض آياته، أزال هذا الوهم ورفعه بقوله: ﴿ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ فصار الكلام مع هذا التقسيم والتنويع نصًّا صريحًا في معناه لا يحتمل غيره.

وإذا تأملت أحاديث الصفات، رأيت هذا لائحًا على صفحاتها باديًا على ألفاظها: كقوله ﷺ: «**إنكم ترون ربكم عيانًا، كما نرى الشمس في الظهيرة صحوًا ليس دونها سحاب، وكما يرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب**»(٢).

وقوله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، ولا حاجب يحجبه**»(٣). فلما كان كلام الملوك قد يقع بواسطة الترجمان، ومن وراء الحجاب؛ أزال هذا الوهم من الأفهام.

وكذلك لما قرأ ﷺ: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٤] وضع إبهامه على أذنه وعينه(٤) رفعًا لتوهم متوهم أن السمع والبصر غير العينين المعلومتين، وأمثال ذلك كثير في الكتاب والسنة، كما في الحديث الصحيح أنه قال: «**يقبض الله سمواته بيده،**

---

(١) ٧٢ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) أخرجه البخاري بنحوه (٨١٦) ومسلم (رقم ١٨٢) (٢٩٦٨) وابن أبي عاصم في السنة (رقم ٤٥٢، ٤٥٧، ٤٦١) وأبو داود (رقم ٤٧٣٠) وابن ماجه (رقم ١٧٩) والحميدي (٢/ ٤٩٦ رقم ١١٧٨) وأبو يعلى (٢/ ٢٨٦ رقم ١٠٠٦) والدارقطني في رؤية الله (رقم ٨، ١٧، ٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٤٣) ومسلم (رقم ١٠١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٠٤) (١٣/ ٤٣٠) وشرح النووي (٧/ ١٠١).

(٤) أخرجه ابن حبان (١/ ٤٩٨ رقم ٢٦٥) وأبو داود (رقم ٤٧٢٨) والطبراني في الأوسط (٩/ ١٣٣ رقم ٩٣٣٤) وأبو عمر الدوري في جزء فيه قراءات النبي ﷺ (رقم ٣٣) وانظر: مشكل الحديث وبيانه لابن فورك (ص ٢٤٨).

والأرض بيده الأخرى»[1]. ثم جعل رسول الله ﷺ يقبض يده ويبسطها[2]، تحقيقًا لإثبات اليد، وإثبات صفة القبض.

ومن هذا إشارته إلى السماء حين استشهد ربه تبارك وتعالى على الصحابة أنه بلغهم، تحقيقًا لإثبات صفة العلو، وأن الرب الذي استشهده فوق العالم، مستوٍ على عرشه.

وهذه أمثلة يسيرة ليعرف الفهم المنصف القاصد للهدى والنجاة منها: ما يقبل التأويل، وما لا يقبله. والله المستعان.

فصل في بيان أنه لا يأتي المعطل للتوحيد العلمي الخبري بتأويل؛ إلا أمكن المشرك المعطل للتوحيد العملي أن يأتي بتأويل من جنسه.

وقد اعترف حذاق الفلاسفة وفضلاؤهم؛ فقال أبو الوليد بن رشد في (كتاب الكشف عن مناهج الأدلة): القول في الجهة.

وأما هذه الصفة فلم يزل أهل الشريعة يثبتونها لله ﷻ؛ حتى نفتها المعتزلة، ثم اتبعهم على نفيها متأخرو الأشعرية: كأبي المعالي، ومن اقتدى بقوله.

وظواهر الشرع كلها تقتضي إثبات الجهة: مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. ومثل قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ومثل قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، ومثل قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، ومثل قوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، ومثل قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات التي إن سلط التأويل عليها؛ عاد الشرع كله متأولًا.

وإن قيل فيها: إنها من المتشابهات؛ عاد الشرع كله متشابهًا؛ لأن الشرائع كلها مبنية

(١) أخرجه بنحوه أبو داود (رقم ٤٧٣٢) وأبو يعلى (٩/ ٤١٠ رقم ٥٥٥٨).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٤٠٢ رقم ٧٦٩٦) وفي النعوت والأسماء والصفات (رقم ١٣٨).

أن الله في السماء، ومنه تنزل الملائكة إلى النبيين بالوحي، وأن من السماء نزلت الكتب وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ حتى قرب من سدرة المنتهى، وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك.

(١)إن أعلم الخلق بالله وأنصحهم للأمة وأقدرهم على العبارة التي لا توقع لبسًا؛ قد صرح بالنزول مضافًا إلى الرب في جميع الأحاديث، ولم يذكر في موضع واحد ما ينفي الحقيقة؛ بل يؤكدها، فلو كانت إرادة الحقيقة باطلة منتفية؛ لزم القدح في علمه أو نصحه أو بيانه كما تقدم تقريره.

إنه لم يقتصر على لفظ النزول العاري عن قرينة المجاز المذكور معه ما يؤكد إرادة الحقيقة؛ حتى نوع هذا المعنى، وعبر عنه بعبارات متنوعة: كالهبوط، والدنو، والمجيء، والإتيان، والطواف في الأرض قبل يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢] وقال: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. ففرق بين إتيان الملائكة وإتيان أمره وإتيان نفسه. وقال محمد بن جرير الطبري في تفسير قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠]: وقد ورد في هذا حديث عن النبي ﷺ وهو المرجع والمعتمد عليه في ذلك، ثم ساق الحديث ولفظه: «إذا كان يوم القيامة تقفون موقفًا واحدًا مقدار سبعين عامًا، لا ينظر إليكم ولا يقضي بينكم، فتبكون؛ حتى تنقطع الدموع، ثم تدمعون دمًا، وتعرقون حتى يبلغ منكم العرق الأذقان، ويلجمكم، فتضجون وتقولون: من يشفع لنا عند ربنا فيقضي بيننا؟ فتقولون: من أحق بهذا من أبيكم آدم؟! جبل الله تربته، وخلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وكلمه الله قبَلا؛ فيؤتي آدم فيطلب ذلك إليه فيأبى، ثم يستقرئون الأنبياء كلها جاءوا نبيًّا، يأبى حتى يأتوني فيسألوني فآتي الفحص قدام العرش؛ فأخر

---

(١) ٢٢٤ مختصر الصواعق جـ٢.

ساجدًا فلا أزال ساجدًا»[١].

[٢]وقال رزين بن معاوية صاحب (تجريد الصحاح)، وهو من أعلم أهل زمانه بالسنن والآثار، وهو من المالكية اختصر تفسير ابن جرير الطبري. وعلى كتابه التجريد اعتمد صاحب كتاب (جامع الأصول) وهذبه، قال في قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. قال مجاهد: ﴿ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ عند الموت حين توفاهم ﴿ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ ﴾ يوم القيامة لفصل القضاء ﴿ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ﴾ طلوع الشمس من مغربها، أو ما شاء الله، وعن قتادة مثله[٣]، وقال محمد بن جرير الطبري: حيث ذكر في القرآن إتيان الملائكة؛ فهو محتمل لإتيانهم لقبض الأرواح، ويحتمل أن يكون نزولهم بعذاب الكفار وإهلاكهم.

وأما إتيان الرب ﷻ؛ فهو يوم القيامة لفصل القضاء لقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ ﴾ [الفجر: ٢٢].

قال رزين: قال بعض المتبعين لأهوائهم، المقدمين بين يدي كتاب الله لأرائهم من المعتزلة والجهمية، ومن نحا نحوهم من أشياعهم؛ فيمتنعون من وصف الله تعالى بما وصف به نفسه من قوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾ [البقرة: ٢١٠] وقوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك: ١٦] وقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] إلى أن قال: وأهل العلم بالكتاب والآثار من السلف والخلف؛ يثبتون جميع ذلك ويؤمنون به بلا كيف ولا توهم، ويمرون الأحاديث الصحيحة كما جاءت عن رسول الله ﷺ، انتهى.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٣٣٠) وابن أبي حاتم (٩/ ٢٩٣١-٢٩٣٢ رقم ١٦٦٢٩) والطبراني في الأحاديث الطوال (رقم ٣٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٨).

(٢) ٢٢٥ مختصر الصواعق جـ٢.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/ ٩٦).

والإتيان والمجيء من الله تعالى نوعان:

مطلق ومقيد. فإذا كان مجيء رحمته أو عذابه؛ كان مقيدًا كما في الحديث: «حتى جاء الله بالرحمة والخير». ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢] وقوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٧١]. وفي الأثر: «لا يأتي بالحسنات إلا الله»[(١)].

النوع الثاني: المجيء والإتيان المطلق كقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

وهذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه، هذا إذا كان مطلقًا فكيف إذا قيد بما يجعله صريحًا في مجيئه نفسه، كقوله: ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. فعطف مجيئه على مجيء الملائكة، ثم عطف مجيء آياته على مجيئه، والمقيد قوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]. فلما قيده بالمفعول وهو البنيان، وبالمجرور وهو القواعد، دل ذلك على مجيء ما بينه؛ إذ من المعلوم أن الله سبحانه إذا جاء بنفسه؛ لا يجيء من أساس الحيطان وأسفلها، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢].

فهذا مجيء مقيد لقوم مخصوصين قد أوقع بهم بأسه، وعلم السامعون أن جنوده من الملائكة والمسلمين أتوهم؛ فكان في هذا السياق ما يدل على المراد، على أنه لا

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (رقم ٥٣٩) وقد ورد مرفوعًا بلفظ أن الطيرة ذكرت عند النبي ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت» الخ الحديث أخرجه أبو داود (رقم ٣٩١٩) والبيهقي في الكبرى (٨/ ١٣٩ رقم ١٦٢٩٨) وفي الشعب (٢/ ٦٢ رقم ١١٦٧) وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٠ رقم ٢٦٣٩٢) وعبد الرزاق (١٠/ ٤٠٦ رقم ١٩٥١٢) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢١٤).

يمتنع في الآيتين أن يكون الإتيان على حقيقته؛ ويكون ذلك دنوًا ممن يريد إهلاكهم بغضبه وانتقامه، كما يدنو عشية عرفة من الحجاج برحمته ومغفرته، ولا يلزم من هذا الدنو والإتيان الملاصقة والمخالطة؛ بل يأتي هؤلاء برحمته وفضله، وهؤلاء بانتقامه وعقوبته، وهو فوق عرشه إذ لا يكون الرب إلا فوق كل شيء. ففوقيته وعلوه من لوازم ذاته، ولا تناقض بين نزوله ودنوه وهبوطه ومجيئه وإتيانه وعلوه؛ لإحاطته وسعته وعظمته، وأن السماوات والأرض في قبضته، وأنه مع كونه الظاهر الذي ليس فوقه شيء؛ فهو الباطن الذي ليس دونه شيء، فظهوره بالمعنى الذي فسره به أعلم الخلق؛ لا يناقض بطونه بالمعنى الذي فسره به أيضًا؛ فهو سبحانه يدنو ويقرب ممن يريد الدنو والقرب منه؛ مع كونه فوق عرشه.

وقد قال النبي ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[1] فهذا قرب الساجد من ربه، وهو فوق عرشه.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «إن الذي تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»[2]. فهذا قربه من داعيه؛ والأول قربه من عابديه، ولم يناقض ذلك كونه فوق سماواته على عرشه.

وإن عسر على فهمك اجتماع الأمرين فإنه يوضحه لك: معرفة إحاطة الرب وسعته، وأنه أكبر من كل شيء، وأن ا لسماوات السبع والأرضين في يده كخردلة في كف العبد، وأنه يقبض سماواته السبع بيده والأرضين باليد الأخرى، ثم يهزهن، فمن هذا شأنه كيف يعسر عليه الدنو ممن يريد الدنو منه وهو على عرشه، وهو يوجب لك فهم اسمه الظاهر والباطن، وتعلم أن التفسير الذي فسر رسول الله ﷺ به هذين

(١) أخرج مسلم (رقم ٤٨٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٠٠) (١١/ ١٣٢) وشرح النووي (٤/ ٢٠٦) (٦/ ١٠٥).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٤/ ٣٩٨ رقم ٧٦٨٠) وفي النعوت والأسماء والصفات (رقم ٢٢) وأحمد (٤/ ٤٠٢) والبزار (٨/ ٢٢ رقم ٢٩٩٤) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٦٨٤) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧).

الاسمين؛ هو تفسير الحق المطابق: لكونه بكل شيء محيط، وكونه فوق كل شيء، ومما يوضح لك ذلك: أن النزول والمجيء والإتيان والاستواء والصعود والارتفاع؛ كلها أنواع أفعاله، وهو الفعال لما يريد، وأفعاله كصفاته قائمة به، ولولا ذلك؛ لم يكن فعالًا ولا موصوفًا بصفات كماله، فنزوله ومجيئه واستواؤه وارتفاعه وصعوده ونحو ذلك؛ كلها أفعال من أفعاله التي إن كانت مجازًا، فأفعاله كلها مجاز، ولا فعل له في الحقيقة؛ بل هو بمنزلة الجمادات، وهذا حقيقة من عطل أفعاله.

وإن كان فاعلًا حقيقة فأفعاله نوعان: لازمة، ومتعدية، كما دلت النصوص التي هي أكثر من أن تحصر على النوعين.

وبإثبات أفعاله وقيامها به؛ تزول عنك جميع الإشكالات، وتصدق النصوص بعضها بعضًا، وتعلم مطابقتها للعقل الصريح.

وإن أنكرت حقيقة الأفعال وقيامها به سبحانه؛ اضطرب عليك هذا الباب أعظم اضطراب، وبقيت حائرًا في التوفيق بين النصوص وبين أصول النفاة؛ وهيهات لك بالتوفيق بين النقيضين والجمع بين الضدين.

يوضحه: أن الأوهام الباطلة والعقول الفاسدة؛ لما فهمت من نزول الرب ومجيئه وإتيانه وهبوطه ودنوه؛ ما يفهم من مجيء المخلوق وإتيانه وهبوطه ودنوه، وهو أن يفرغ مكانًا ويشغل مكانًا، نفت حقيقة ذلك فوقعت في محذورين: محذور التشبيه، ومحذور التعطيل.

ولو علمت هذه العقول الضعيفة أن نزوله سبحانه ومجيئه وإتيانه لا يشبه نزول المخلوق وإتيانه ومجيئه، كما أن سمعه وبصره وعلمه وحياته كذلك؛ بل يده الكريمة ووجهه الكريم كذلك، وإذا كان نزولًا ليس كمثله نزول فكيف تنفي حقيقته؟! فإن لم تنف المعطلة حقيقة ذاته وصفاته وأفعاله بالكلية؛ وإلا تناقضوا، فإنهم أي معنى أثبتوه؛ لزمهم في نفيه ما ألزموا به أهل السنة المثبتين لله ما أثبت لنفسه، ولا يجدون إلى الفرق سبيلًا.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

(١) فائدة قوله تعالى: ﴿ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا ﴾ [الأنعام: ١٦٠] أنث عدد الأمثال لتأويلها بحسنات، ومثله قراءة أبي العالية: (لا تنفع نفسًا إيمانها) بالتاء، والفعل مسند إلى الإيمان؛ لكنه طاعة وإثابة في المعنى.

(٢) الرضا بالله ربًا: أن لا يتخذ ربًا غير الله تعالى، يسكن إلى تدبيره، وينزل به حوائجه، قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سيدًا وإلهًا، يعني: فكيف أطلب ربًا غيره وهو رب كل شيء، وقال في أول السورة: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الأنعام: ١٤] يعني معبودًا وناصرًا ومعينًا وملجأً، وهو من الموالاة، التي تتضمن الحب والطاعة. وقال في وسطها: ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗا ﴾ [الأنعام: ١١٤] أي أفغير الله أبتغي من يحكم بيني وبينكم فنتحاكم إليه فيما اختلفنا فيه، وهذا كتابه سيد الحكام، فكيف نتحاكم إلى غير كتابه، وقد أنزله مفصلًا، مبينًا كافيًا شافيًا!

وأنت إذا تأملت هذه الآيات الثلاث حق التأمل رأيتها هي نفس الرضا بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولًا ورأيت الحديث يترجم عنها ومشتق منها، فكثير من الناس يرضى بالله ربًا، ولا يبغي ربًا سواه، لكنه لا يرضى به وحده وليا وناصرًا بل

(١) ٢٠٩ البدائع جـ٤.
(٢) ١٨١ مدارج جـ٢.

يوالي من دونه أولياء، ظنًّا منه أنهم يقربونه إلى الله، وأن موالاتهم كموالاة خواص الملك. وهذا عين الشرك. بل التوحيد: أن لا يتخذ من دونه أولياء والقرآن مملوء من وصف المشركين بأنهم اتخذوا من دونه أولياء.

وهذا غير موالاة أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين فيه، فإن هذا من تمام الإيمان ومن تمام موالاته، فموالاة أوليائه لون، واتخاذ الولي من دونه لون، ومن لم يفهم الفرقان بينهما فليطلب التوحيد من أساسه، فإن هذه المسألة أصل التوحيد وأساسه.

وكثير من الناس يبتغي غيره حكما، يتحاكم إليه، ويخاصم إليه، ويرضى بحكمه. وهذه المقامات الثلاث هي أركان التوحيد: أن لا يتخذ سواه ربًّا، ولا إلها، ولا غيره حكمًا.

وتفسير الرضا بالله ربًّا: أن يسخط عبادة ما دونه، هذا هو الرضا بالله إلها، وهو من تمام الرضا بالله ربا، فمن أعطى الرضا به ربًّا حقه سخط عبادة ما دونه قطعًا، لأن الرضا بتجريد ربوبيته يستلزم تجريد عبادته، كما أن العلم بتوحيد الربوبية يستلزم العلم بتوحيد الإلهية.

بهذا تم ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأنعام

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[(١)] قال تعالىٰ: ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ [الأعراف: ١-٣]، فأمر سبحانه باتباع ما أنزل علىٰ رسوله ونهى عن اتباع غيره، فما هو إلا: اتباع المنزل، أو اتباع أولياء من دونه، فإنه لم يجعل بينهما واسطة، فكل من لم يتبع الوحي؛ فإنما يتبع الباطل واتبع أولياء من دون الله، وهذا بحمد الله ظاهر لا خفاء به.

...[(٢)] وكذلك الحرج الذي في الصدور منه، فإنه: تارة يكون حرجًا من إنزاله، وكونه حقًّا من عند الله. وتارة يكون من جهة التكلم به، أو كونه مخلوقًا من بعض مخلوقاته ألهم غيره أن تكلم به، وتارة يكون من جهة كفايته وعدمها، وأنه لا يكفي العباد؛ بل هم محتاجون معه إلىٰ: المعقولات، والأقيسة، أو الآراء، أو السياسات. وتارة يكون من جهة دلالته وما أريد به حقائقه المفهومة منه عند الخطاب، أو أريد به تأويلها وإخراجها عن حقائقها إلىٰ تأويلات مستكرهة مشتركة، وتارة يكون من جهة كون تلك الحقائق وإن كانت مرادة، فهي ثابتة في نفس الأمر، أو أوهم أنها مرادة لضرب من المصلحة. فكل هؤلاء في صدورهم حرج من القرآن، وهم يعلمون ذلك من نفوسهم، ويجدونه في صدورهم. ولا تجد مبتدعًا في دينه قط، إلا وفي قلبه حرج من الآيات التي تخالف بدعته. كما أنك لا تجد ظالمًا فاجرًا إلا وفي صدره حرج من الآيات التي تحول بينه وبين إرادته، فتدبر هذا المعنىٰ ثم ارض لنفسك بما تشاء.

***

(١) ٣٥ الرسالة التبوكية.

(٢) ٨١ فوائد.

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

(١) أما الفاء فهي موضوعة للتعقيب، وقد تكون للتسبيب والترتيب، وهما راجعان إلى معنى التعقيب؛ لأن الثاني بعدهما أبدًا إنما يجيء في عقب الأول، فالسبب نحو ضربته فبكى، والترتيب: ﴿أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ [الأعراف: ٤] دخلت الفاء لترتيب اللفظ، لأن الهلاك يجب تقديمه في الذكر، لأن الاهتمام به أولى وإن كان مجيء البأس قبله في الوجود، ومن هذا أن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد بعد ذلك جده دخلت ثم لترتيب الكلام لا لترتيب المعنى في الوجود، وهذا معنى قول بعض النحاة: أنها تأتي للترتيب في الخبر لا في المخبر.

وعندي في الآية تقديران آخران أحسن من هذا:

أحدهما: أن يكون المراد بالإهلاك إرادة الهلاك، وعبر بالفعل عن الإرادة وهو كثير، فترتب مجيء البأس على الإرادة ترتب المراد على الإرادة.

والثاني: وهو ألطف أن يكون الترتيب ترتيب تفصيل على جملة، فذكر الإهلاك ثم فصَّله بنوعين:

أحدهما: مجيء البأس بياتا أي ليلا. والثاني مجيئه وقت القائلة، وخص هذين الوقتين لأنهما وقت راحتهم وطمأنينتهم، فجاءهم بأس الله أسكن ما كانوا وأروحه في وقت طمأنينتهم وسكونهم، على عادته سبحانه في أخذ الظالم في وقت بلوغ آماله وكرمه وفرحه وركونه إلى ما هو فيه. وكذلك قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ [يونس: ٢٤].

والمقصود: أن الترتيب هنا ترتيب التفصيل على الجمل، وهو ترتيب علمي لا خارجي، فإن الذهن يشعر بالشيء جملة أولا، ثم بطلب تفصيله بعد ذلك، وأما في الخارج فلم يقع إلا مفصلًا.

---

(١) ١٩٥ بدائع جـ٢.

فتأمل هذا الموضع الذي خفي على كثير من الناس، حتى ظن أن الترتيب في الآية كترتيب الإخبار، أي إنا أخبرناكم بهذا قبل هذا.

***

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝ ﴾.

(١)الطبقة الحادية عشرة: طبقة أقوام خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا. فعملوا حسنات وكبائر، ولقوا الله مصرِّين عليها غير تائبين منها، لكن حسناتهم أغلب من سيئاتهم، فإذا وزنت بها رجحت كفة الحسنات، فهؤلاء أيضًا ناجون فائزون، قال تعالى: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]، قال حذيفة، وعبد الله بن مسعود وغيرهما من الصحابة: يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: فمن رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الأعراف(٢)، وهذه الموازنة تكون بعد القصاص واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسناته، فإذا بقي شيء منها وزن تكون بعد القصاص واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسنات. فإذا بقي شيء منها وزن هو وسيئاته...

(٣)والقرآن والسنة، قد دلَّا على الموازنة، وإحباط الحسنات بالسيئات، فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض، ولا يرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه ـ فعل أهل الهوى والتعصب ـ بل نقبل الحق ممن قاله، ونرد الباطل على من قاله.

---

(١) ٣٨٠ طريق الهجرتين.

(٢) يروى مرفوعًا، أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٤/ ٣١٣) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٤١٩، ٤٦٣) وفتح الباري (١٣/ ٥٣٩).

(٣) ٢٧٨ مدارج جـ١.

فأما الموازنة: فمذكورة في سورة الأعراف: (٨-٩)، والأنبياء (٤٧)، والمؤمنين (١٠١-١١١)، والقارعة، والحاقة (١٩-٣٧).

وأما الإحباط: فقد قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣]، وتفسير الإبطال هاهنا بالردة، لأنها أعظم المبطلات، لا لأن المبطل ينحصر فيها، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] فهذان سببان عرضا بعد للصدقة فأبطلاها، شبه سبحانه بطلانها بالمن والأذى بحال المتصدق رياء في بطلان صدقة كل واحد منهما، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢] وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله»[(١)].

وقالت عائشة رضي الله عنها لأم ولد زيد بن أرقم وقد باع بيع العينة: «أخبري زيدًا: أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب»[(٢)].

وقد نص أحمد على هذا في رواية، فقال: ينبغي للعبد أن يتزوج إذا خاف على نفسه، فيستدين ويتزوج لا يقع في محظور فيحبط عمله.

فإذا استقرت قاعدة الشريعة أن من السيئات ما يحبط الحسنات بالإجماع، ومنها ما يحبطها بالنص، جاز أن يحبط سيئة المعاودة حسنة التوبة، فتصير التوبة كأنها لم تكن، فيلتقي العملان ولا حاجز بينهما، فيكون التأثير لهما جميعًا.

قالوا: وقد دل القرآن والسنة وإجماع السلف على الموازنة وفائدتها: اعتبار الراجح،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٣) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٢، ٦٦) وشرح النووي (٥/ ١٢٦).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (٥/ ٣٣٠ رقم ١٠٥٨٠) والدارقطني (٣/ ٥٢ رقم ٢١١) وعبد الرزاق في مصنفه (٨/ ١٨٤-١٨٥ رقم ١٤٨١٢) وانظر: الأم (٣/ ٣٨) والاستذكار (٦/ ٢٧١) والمحلى (٧/ ٢٩) والمدونة الكبرى (٩/ ١١٨) وشرح الزرقاني (٣/ ٣٢٦) وتنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٢/ ٥٥٨).

فيكون التأثير والعمل له دون المرجوح.

قال ابن مسعود: «يحاسب الناس يوم القيامة: فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة، دخل النار ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة» ثم قرأ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ [الأعراف: ٨، ٩] ثم قال: «إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح»، قال: «ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف»[١].

وعلى هذا: فهل يحبط الراجحُ المرجوحَ حتى يجعله كأن لم يكن، أو يحبط ما قابله بالموازنة، ويبقى التأثير للقدر الزائد؟ فيه قولان للقائلين بالموازنة. ينبني عليهما: أنه إذا كانت الحسنات أرجح من السيئات بواحدة مثلا، فهل يدفع الراجح المرجوح جملة؟ فيثاب على الحسنات كلها أو يسقط من الحسنات ما قابل السيئات، فلا يثاب عليه ولا يعاقب على تلك السيئات، فيبقى القدر الزائد لا مقابل له فيثاب عليه وحده؟ وهذا الأصل فيه قولان لأصحاب الموازنة. وكذلك إذا رجحت السيئات بواحدة، هل يدخل النار بتلك الواحدة التي سلمت عن مقابل أو بكل السيئات التي رجحت؟ على القولين، هذا كله على أصل أصحاب التعليل والحكم.

***

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝﴾.

[٢]هذا بعض كلام السلف والخلف في هذه الآية[٣]، وعلى كل تقدير فلا تدل على

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٩٠-١٩١) وابن المبارك في الزهد (٣٦٧) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢١٨) والدر المنثور (٣/ ٤٦١).

(٢) ٢١١ الروح.

(٣) الإشارة هنا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ...﴾ الآية. [الأعراف: ١٧٢]. (ج).

خلق الأرواح قبل الأجساد خلقًا مستقرًّا، وإنما غايتها أن تدل على إخراج صورهم وأمثالهم في صور الذر واستنطاقهم، ثم ردهم إلى أصلهم؛ إن صح الخبر بذلك.

والذي صح إنما هو إثبات القدر السابق وتقسيمهم إلى: شقي، وسعيد.

وأما استدلال أبي محمد بن حزم بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ ﴾ [الأعراف: ١١] فما أليق هذا الاستدلال بظاهريته، لترتيب الأمر بالسجود لآدم على خلقنا وتصويرنا، والخطاب للجملة المركبة من البدن والروح، وذلك متأخِّر عن خلق آدم، ولهذا قال ابن عباس: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ يعني آدم ﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ لذريته، ومثال هذا ما قاله مجاهد: ﴿ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ يعني آدم و﴿ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ في ظهر آدم، وإنما قال: ﴿ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ بلفظ الجمع، وهو يريد آدم، كما تقول: ضربناكم، وإنما ضربت سيدهم.

واختار أبو عبيد في هذه الآية قول مجاهد، لقوله تعالى بعد: ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ ﴾ وكان قوله تعالى للملائكة: ﴿ ٱسْجُدُواْ ﴾ قبل خلق ذرية آدم وتصويرهم في الأرحام، (وثم) توجب التراخي والترتيب، فمن جعل الخلق والتصوير في هذه الآية لأولاد آدم في الأرحام، يكون قد راعى حكم (ثم) في الترتيب، إلا أن يأخذ بقول الأخفش، فإنه يقول (ثم) هاهنا في معنى (الواو) قال الزجاج: وهذا خطأ لا يجيزه الخليل وسيبويه وجميع من يوثق بعلمه، قال أبو عبيد: وقد بينه مجاهد حين قال: إن الله تعالى خلق ولد آدم وصورهم في ظهره، ثم أمر بعد ذلك بالسجود، قال: وهذا بين في الحديث، وهو أنه أخرجهم من ظهره في صور الذر.

قلت: والقرآن يفسر بعضه بعضًا، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [الحج: ٥]، فأوقع الخلق من تراب عليهم وهو لأبيهم آدم؛ إذ هو أصلهم، والله سبحانه يخاطب الموجودين،

والمراد آباؤهم كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٥][١].

***

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

[٢]قال الله تعالى إخبارًا عن عدوه إبليس، لمَّا سأله عن امتناعه عن السجود لآدم، واحتجاجه بأنه خيرٌ منه، وإخراجه من الجنة: أنه سأله أن ينظره، فأنظره، ثم قال عدو الله: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

قال جمهور المفسرين والنحاة: حذف «على» فانتصب بالفعل. والتقدير: لأقعدن لهم على صراطك. والظاهر: أن الفعل مضمر، فإن القاعد على الشيء ملازم له، فكأنه قال: لألزمنه، ولأرصدنه، ولأعوجنه، ونحو ذلك.

قال ابن عباس: «دينك الواضح». وقال ابن مسعود: «هو كتاب الله». وقال جابر: «هو الإسلام». وقال مجاهد: «هو الحق».

والجميع عبارات عن معنى واحد، وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى، وقد تقدم حديث سبرة بن الفاكه: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ كُلِّهَا...»[٣] الحديث. فما

(١) وهذا طرف من البحث على المسألة الثامنة عشرة، وفيها مناقشات طويلة، مفادها: هل الروح مخلوقة قبل الأبدان أم بعدها؟ وهي أكثر من كراسة تبدأ من ص (١٩٢) وتنتهي ص (٢١٦) لمن أرادها. (ج).

(٢) ١٢١ إغاثة جـ١، نسخة دار الكتاب العربي، بتحقيق خالد السبع.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ١٥ رقم ٤٣٤٢) وفي المجتبى (رقم ٣١٣٤) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٢٨٤ رقم ١٠٤٣) وفي الجهاد (رقم ١٣) والطبراني في الكبير (٧/ ١١٧ رقم ٦٥٥٨) وأحمد (٣/ ٤٨٣) وابن قانع في معجم الصحابة (١/ ٣٠٣).

من طريق خير إلا والشيطان قاعد عليه يقطعه على السالك.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ [الأعراف: ١٧] قال ابن عباس: في رواية عطية عنه: «مِن قِبَل الدنيا»، وفي رواية عليٍّ عنه: «أشككهم في آخرتهم»(١).

وكذلك قال الحسن: «من قبل الآخرة، تكذيبًا بالبعث والجنة والنار»(٢). وقال مجاهد: «﴿ مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ ﴾ من حيث يبصرون». ﴿ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾: قال ابن عباس: «أرغبهم في دنياهم»(٣). وقال الحسن: «من قبل دنياهم أزينها لهم وأشهيها لهم».

وعن ابن عباس رواية أخرى: «من قبل الآخرة». وقال أبو صالح: «أشككهم في الآخرة وأباعدها عليهم». وقال مجاهد أيضاً: «من حيث لا يبصرون». ﴿ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ قال ابن عباس: «أشبه عليهم أمر دينهم»(٤). وقال أبو صالح: «الحق أشككهم فيه». وعن ابن عباس أيضاً: «من قبل حسناتهم». قال الحسن: «من قبل الحسنات أثبطهم عنها». وقال أبو صالح أيضاً: «﴿ مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾: أُنفِّقُه عليهم وأُرَغِّبُهم فيه». وقال الحسن: ﴿ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ السيئات يأمرهم بها، ويحثهم عليها، ويرغبهم فيها، ويزينها في أعينهم».

وصح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «ولم يقل من فوقهم؛ لأنه علم أن الله من فوقهم»(٥). قال الشعبي: «فالله ﷻ أنزل الرحمة عليهم من فوقهم». وقال قتادة: «أتاك الشيطان يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله»(٦).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٣٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥) والدر المنثور (٣/ ٤٢٦).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٤٤ رقم ٨٢٤٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٣٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥).

(٤) أخرجه الطبري (٨/ ١٣٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥) والدر المنثور (٣/ ٤٢٧).

(٥) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٦٦١).

(٦) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٣٦) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥).

قال الواحدي: وقول من قال: «الأيمان كناية عن الحسنات، والشمائل كناية عن السيئات، حسن؛ لأن العرب تقول: اجعلني في يمينك، ولا تجعلني في شمالك، تريد: اجعلني من المقدمين عندك، ولا تجعلني، من المؤخرين، وأنشد لابن الدُّمَيْنَة:

أَلُبْنَى، أَفِي يُمْنَى يَدَيْكِ جَعَلْتِنِي   فَأَفْرَحُ، أَمْ صَيَّرْتِنِي فِي شِمَالِكِ؟[١]

وروى أبو عبيد عن الأصمعي: هو عندنا باليمين: أي بمنزلة حسنة، وبضد ذلك هو عندنا بالشمال، وأنشد:

رَأَيْتُ بَنِي الْعَلاتِ لَمَّا تَضَافَرُوا   يَحُوزُونَ سَهْمِي بَيْنَهُمْ فِي الشَّمَائِلِ[٢]

أي ينزلوني بالمنزلة السيئة. وحكى الأزهري عن بعضهم في هذه الآية «لأغوينهم حتى يكذبوا بما تقدم من أمور الأمم السالفة ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بأمر البعث ﴿وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي: لأضلنهم فيما يعملون؛ لأن الكسب يقال فيه: ذلك بما كسبت يداك، وإن كانت اليدان لم تجنيا شيئًا؛ لأنهما الأصل في التصرف، فجعلتا مثلًا لجميع ما يعمل بغيرهما»[٣].

وقال آخرون ـ منهم أبو إسحاق، والزمخشري ـ واللفظ لأبي إسحاق: «ذكر هذه الوجوه للمبالغة في التوكيد، أي: لآتينهم من جميع الجهات، والحقيقة ـ والله أعلم ـ

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وابن الدمينة هو: عبد الله بن عبيد الله من بني عامر بن تيم الله، أبو السري، والدمينة أمه، من أرق الناس شعرًا، أكثر شعره في الغزل والنسيب والفخر، كان العباس بن الأحنف يحتفل بشعره، وهو من شعراء العصر الأموي، اغتيل سنة ١٣٠هـ. والبيت ذكره القرطبي في تفسيره (١٨/ ٢٦٩) وفيه «أبيني» بدل «ألبنى» وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني في الزهرة (١/ ٢١٩) ولم ينسبه إلى أحد. والمناوي في فيض القدير (٢/ ٣٠٦) بلفظ مختلف:

ألم أك في يمنى يديك جعلتني   فـلا تجعلني بعدها في شمالكا

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى أبي خراش الهذلي خويلد بن مرة شاعر مخضرم وفارس مغوار مشهور، كان يسبق الخيل وأدرك الإسلام وهو شيخ كبير فأسلم وعاش إلى زمن عمر بن الخطاب ﷺ، مات سنة ١٥هـ. والبيت ذكره ابن منظور في اللسان (١١/ ٣٦٥).

(٣) انظر: لسان العرب (١٣/ ٤٦٢) (١٥/ ٤٢٥).

أتصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم».

وقال الزمخشري: «ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه، كقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

وهذا يوافق ما حكيناه عن قتادة: «أتاك من كل وجه غير أنه لم يأتك من فوقك»[1].

وهذا القول أعم فائدة، ولا يناقض ما قاله السلف، فإن ذلك على جهة التمثيل لا التعيين. قال شقيق: «ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، فيقول: لا تخف فإن الله غفور رحيم، فأقرأ: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على من أخلفه، فأقرأ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. ومن قبل يميني يأتيني من قبل النساء، فأقرأ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. ومن قبل شمالي فيأتيني من قبل الشهوات، فأقرأ: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

قلت: السبل التي يسلكها الإنسان أربعة لا غير، فإنه تارة يأخذ على جهة يمينه، وتارة على شماله، وتارة أمامه، وتارة يرجع خلفه، فأي سبيل سلكها من هذه وجد الشيطان عليها رصدًا له، فإن سلكها في طاعة وجده عليها يُثبِّطه عنها ويقطعه، أو يعوقه ويبطئه، وإن سلكها لمعصية وجده عليها حاملا له وخادما ومعينا وممنيا، ولو اتفق له الهبوط إلى أسفل لأتاه من هناك.

[2] قال تعالى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦] فردَّ أمر الله بقدره واحتج على ربه بالقدر وانقسم أتباعه أربع فرق، كما رأيت: فإبليس وجنوده أرسلوا بالقدر إرسالًا كونيًا، فالقدر دينهم، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/ ١٣٦) والدر المنثور (٣/ ٤٢٧) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٥).

(٢) ٧٣ روضة المحبين.

عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣] فدينهم القدر، ومصيرهم سقر. فبعث الله الرسل بالأمر، وأمرهم أن يحاربوا به أهل القدر، وشرع لهم من أمره سفنا، وأمرهم أن يركبوا فيها هم وأتباعهم في بحر القدر، وخص بالنجاة من ركبها كما خص بالنجاة أصحاب السفينة، وجعل ذلك آية للعالمين، فأصحاب الأمر حرب لأصحاب القدر حتى يردوهم إلى الأمر وأصحاب القدر يحاربون أصحاب الأمر، حتى يخرجوهم منه، فالرسل دينهم الأمر مع إيمانهم بالقدر وتحكيم الأمر عليه. وإبليس وأتباعه دينهم القدر ودفع الأمر به.

فتأمل هذه المسألة في القدر والأمر، وانقسام العالم فيها إلى هذه الأقسام الخمسة، وبالله التوفيق.

(١) فصل في بيان كيد الشيطان لنفسه، قبل كيده للأبوين. ثم لم يقتصر على ذلك، حتى كاد ذرية نفسه، وذرية آدم. فكان مشئوما على نفسه وعلى ذريته وأوليائه وأهل طاعته من الجن والإنس.

أما كيده لنفسه: فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم عليه السلام، كان في امتثال أمره وطاعته. سعادته وفلاحه، وعزه ونجاته.فسولت له نفسه الجاهلة الظالمة: أن في سجوده لآدم عليه السلام غضاضة عليه، وهضما لنفسه، إذ يخضع ويقع ساجدا لمن خلق من طين، وهو مخلوق من نار. والنار ـ بزعمه ـ أشرف من الطين. فالمخلوق منها خير من المخلوق منه، وخضوع الأفضل لمن هو دونه غضاضة عليه، وهضم لمنزلته. فلما قام بقلبه هذا الهوس، وقارنه الحسد لآدم، لما رأى ربه سبحانه قد خصه به من أنواع الكرامة. فإنه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وميزه بذلك عن الملائكة وأسكنه جنته، فعند ذلك بلغ الحسد من عدو الله كل مبلغ.

---

(١) ٢٠٠ إغاثة جـ٢.

وكان عدو الله يطيف به وهو صلصال كالفخار، فيتعجب منه، ويقول: لأمر عظيم قد خلق هذا، ولئن سلط عليَّ لأعصينه، ولئن سلطت عليه لأهلكنه، فلما تم خلق آدم عليه السلام في أحسن تقويم وأكمل صورة وأجملها، وكملت محاسنه الباطنة، بالعلم والحلم والوقار، وتولى ربه سبحانه خلقه بيده، فجاء في أحسن خلق، وأتم صورة، طوله في السماء ستون ذراعا، قد ألبس رداء الجمال والحسن، والمهابة والبهاء، فرأت الملائكة منظرا لم يشاهدوا أحسن منه ولا أجمل، فوقعوا كلهم سجودا له، بأمر ربهم تبارك وتعالى، فشق الحسود قميصه من دبر، واشتعلت في قلبه نيران الحسد المتين، فعارض النص بالمعقول بزعمه، كفعل أوليائه من المبطلين. وقال: ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢]. فأعرض عن النص الصريح، وقابله بالرأي الفاسد القبيح. ثم أردف ذلك بالاعتراض على العليم الحكيم، الذي لا تجد العقول إلى الاعتراض على حكمته سبيلا. فقال: ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٢].

وتحت هذا الكلام من الاعتراض معنى: أخبرني، لِمَ كرمته عليَّ؟ وغور هذا الاعتراض: أن الذي فعلته ليس بحكمة ولا صواب، وأن الحكمة كانت تقتضي أن يسجد هو لي، لأن المفضول يخضع للفاضل، فلِمَ خالفت الحكمة؟ ثم أردف ذلك بتفضيل نفسه عليه، وإزرائه به، فقال: ﴿ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ١٢]. ثم قرر ذلك بحجته الداحضة، في تفضيل مادته وأصله على مادة آدم عليه السلام وأصله. فأنتجت له هذه المقدمات إباءه وامتناعه من السجود، ومعصيته الرب المعبود. فجمع بين الجهل والظلم، والكبر والحسد والمعصية، ومعارضة النص بالرأي والعقل، فأهان نفسه كل الإهانة من حيث أراد تعظيمها، ووضعها من حيث أراد رفعتها، وأذلها من حيث أراد عزتها، وآلمها كل الألم من حيث أراد لذتها، ففعل بنفسه ما لو اجتهد أعظم أعدائه في مضرته لم يبلغ منه ذلك المبلغ. ومن كان هذا غشه لنفسه فكيف يسمع منه العاقل

ويقبل ويواليه؟ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

***

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

(1)أول كيده ومكره: أنه كاد الأبوين بالأيمان الكاذبة: أنه ناصح لهما، وأنه إنما يريد خلودهما في الجنة، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢٠-٢٢].

فالوسوسة: حديث النفس والصوت الخفي، وبه سمي صوت الحلي وسواسًا، ورجل موسوس بكسر الواو، ولا يفتح فإنه لحن، وإنما قيل له: موسوس؛ لأن نفسه توسوس إليه، قال تعالى: ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق: ١٦].

وعلم عدو الله أنهما إذا أكلا من الشجرة بدت لهما عوراتهما، فإنها معصية، والمعصية تهتك ستر ما بين الله وبين العبد، فلما عصيا انهتك ذلك الستر فبدت لهما سوآتهما، فالمعصية تبدي السوأة الباطنة والظاهرة، ولهذا رأى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في رؤياه الزناة والزواني عراة بادية سوآتهم، وهكذا إذا رؤي الرجل أو

(١) ١١١ إغاثة جـ١.

المرأة في منامه مكشوف السوأة يدل على فساد في دينه، قال الشاعر:

إِنِّي كَأَنِّي أَرَىٰ مَـنْ لا حَـيَاءَ لَـهُ   وَلا أَمَانَةَ وَسْطَ النَّاسِ عُـرْيَـانَا[١]

فإن الله سبحانه أنزل لباسين: لباسا ظاهرًا يواري العورة ويسترها، ولباسا باطنا من التقوى، يُجَمِّل العبد ويستره، فإذا زال عنه هذا اللباس انكشفت عورته الباطنة، كما تنكشف عورته الظاهرة بنزع ما يسترها.

ثم قال: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ [الأعراف: ٢٠]. أي: إلا كراهة أن تكونا ملكين، وكراهة أن تخلدا في الجنة، ومن هاهنا دخل عليهما لما عرف أنهما يريدان الخلود فيها، وهذا باب كيده الأعظم الذي يدخل منه على ابن آدم، فإنه يجري منه مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطها، ويسألها عما تحبه وتؤثره، فإذا عرفه استعان بها على العبد، ودخل عليه من هذا الباب.

وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضا أن يدخلوا عليهم من الباب الذي يحبونه ويهوونه، فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه، ومن رام الدخول من غيره فالباب عليه مسدود، وهو عن طريق مقصده مصدود.

فشام عدو الله الأبوين، فأحسَّ منهما إيناساً وركوناً إلى الخلد في تلك الدار في النعيم المقيم، فعلم أنه لا يدخل عليهما من غير هذا الباب، فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين، وقال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

وكان عبد الله بن عباس يقرؤها ملكين بكسر اللام، ويقول: «لم يطمعا أن يكونا من الملائكة، ولكن استشرفا أن يكونا ملكين فأتاهما من جهة الملك[٢]، ويدل على هذه

---

(١) ذكره ابن منظور في اللسان (٧/ ٤٢٧) ونسبه إلى سوار بن المضرب.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ١٧٩).

القراءة قوله في الآية الأخرى: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٍ لَّا يَبۡلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]. وأما على القراءة المشهورة فيقال: كيف أطمع عدو الله آدم عليه السلام أن يكون بأكله من الشجرة من الملائكة، وهو يرى الملائكة لا تأكل ولا تشرب؟ وكان آدم عليه السلام أعلم بالله وبنفسه وبالملائكة من أن يطمع أن يكون منهم بأكله، ولا سيما مما نهاه الله عز وجل عنه؟

فالجواب: أن آدم وحواء عليهما السلام لم يطمعا في ذلك أصلاً، وإنما كذبهما عدو الله وغرَّهما، وخدعهما بأن سمى تلك الشجرة شجرة الخلد، فهذا أول المكر والكيد، ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها، فسموا الخمر: أم الأفراح، وسموا أخاها بلقيمة الراحة، وسموا الربا بالمعاملة، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية، وسموا أقبح الظلم وأفحشه شرع الديوان، وسموا أبلغ الكفر، وهو جحد صفات الرب، تنزيها، وسموا مجالس الفسوق مجالس الطيبة. فلما سماها شجرة الخلد قال: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا كراهة أن تأكلا منها فتخلدا في الجنة ولا تموتا، فتكونان مثل الملائكة الذين لا يموتون، ولم يكن آدم عليه السلام قد علم أنه يموت بعد، واشتهى الخلود في الجنة، وحصلت الشبهة من قول العدو وإقسامه بالله جهد أيمانه، أنه ناصح لهما، فاجتمعت الشبهة والشهوة، وساعد القدر، فأخذتهما سنة الغَفْلة، واستيقظ لهما العدو، كما قيل:

وَاسْتَيْقَظُوا وَأَرَادَ اللهُ غَفْلَتَهُمْ ... لِيَنْفُذَ الْقَدَرُ المَحْتُومُ في الأَزَلِ[1]

إلا أن هذا الجواب يعترض عليه قوله: ﴿ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴾.

فيقال: الماكر المخادع لا بد أن يكون فيما يمكر به ويكيد من التناقض والباطل ما

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى ابن الدهان: عبد الله بن أسعد الحمصي، كان فقيهًا فاضلًا وأديبًا شاعرًا، لطيف الشعر مليح السبك حسن المقاصد، سجل شعره الحروب الصليبية وانتصار صلاح الدين الأيوبي عليهم أعظم تسجيل، مات سنة ٥٨١هـ والبيت ذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٧/ ٨٢) ونسبه إلى ابن الدهان ضمن قصيدة يمدح فيها الملك العادل نور الدين.

يدل علىٰ مكره وكيده، ولا حاجة بنا إلىٰ تصحيح كلام عدو الله، والاعتذار عنه، وإنما يعتذر عن الأب في كون ذلك راج عليه وولج سمعه، فهو لم يجزم لهما بأنهما إن أكلا منها صارا ملكين، وإنما ردد الأمر بين أمرين: أحدهما ممتنع، والآخر: ممكن، وهذا من أبلغ أنواع الكيد والمكر، ولهذا لما أطمعه في الأمر الممكن جزم له به ولم يردده. فقال: ﴿ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طه: ١٢٠]. فلم يدخل أداة الشك هاهنا كما أدخلها في قوله: ﴿أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ﴾ فتأمله.

ثم قال: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٢١]. فتضمن هذا الخبر أنواعا من التأكيد: **أحدها**: تأكيده بالقسم. **الثاني**: تأكيده بإنّ. **الثالث**: تقديم المعمول على العامل، إيذانا بالاختصاص. أي نصيحتي مختصة بكما، وفائدتها إليكما لا إليّ. **الرابع**: إتيانه باسم الفاعل الدال علىٰ الثبوت واللزوم، دون الفعل الدال علىٰ التجدد: أي النصح صفتي وسجيتي، ليس أمرًا عارضًا لي. **الخامس**: إتيانه بلام التأكيد فى جواب القسم. **السادس**: أنه صوَّر نفسه لهما ناصحًا من جملة الناصحين، فكأنه قال لهما: الناصحون لكما في ذلك كثير، وأنا واحد منهم، كما تقول لمن تأمره بشيء: كل أحد معي علىٰ هذا وأنا من جملة من يشير عليك به.

سَعَىٰ نَحْوَهَا حَتَّىٰ تَجَاوَزَ حَدَّهُ   وَكَثَّرَ فَارْتَابَتْ، وَلَوْ شَاءَ قَلَّلا[(١)]

وورّث عدو الله هذا المكر لأوليائه وحزبه عند خداعهم للمؤمنين، كما كان المنافقون يقولون لرسول الله ﷺ إذا جاءوه: ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ١]. فأكدوا خبرهم بالشهادة وبإنَّ، وبلام التأكيد، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَيَحْلِفُونَ

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلىٰ مهيار بن مرزويه الديلمي، الشاعر الكبير في أسلوبه قوة وفي معانيه ابتكار، شاعر زمانه، فارسي الأصل كان مجوسيًّا فأسلم علىٰ يد الشريف الرضي، ولكنه تشيع وغلا في تشيعه حتىٰ سب بعض الصحابة في شعره، حتىٰ قال له أبو القاسم بن برهان: يا مهيار انتقلت من زاوية في النار إلىٰ أخرىٰ فيها. مات سنة ٤٢٨هـ. وذكر البيت بهاء الدين الإربلي في التذكرة الفخرية (ص ٣٢٧).

بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ [التوبة: ٥٦]. ثم قال تعالىٰ: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢٢]. قال أبو عبيدة: خذلهما وخلاهما، من تدلية الدلو، وهو إرسالها في البئر. وذكر الأزهري لهذه اللفظة أصلين:

أحدهما قال: أصله الرجل العطشان يتدلىٰ في البئر ليروىٰ من الماء، فلا يجد فيها ماء، فيكون قد تدلىٰ فيها بالغرور. فوضعت التدلية موضع الإطماع فيما لا يجدي نفعا، فيقال: دلاه، إذا أطمعه، ومنه قول أبي جندب الهذلي:

أُحُصُّ، فَلاَ أُجِيرُ وَمَنْ أُجِرْهُ ... فَلَيْسَ كَمَنْ تَدَلَّى بِالْغُرُورِ(١)

أحص: أي أقطع. الثاني: فدلاهما بغرور، أي جرأهما علىٰ أكل الشجرة، وأصله: دللهما من الدلال والدالة وهي الجراءة، قال شَمَّر: يقال: ما دَلَّلَكَ عليَّ أي ما جرأك عليَّ، وأنشد لقيس بن زهير:

أظُنُّ الْحِلْمَ دَلَّ عَلَيَّ قَوْمِي ... وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ(٢)

قلت: أصل التدلية في اللغة الإرسال والتعليق. يقال: دلىٰ الشيء في مِهْواةٍ، إذا أرسله بتعليق. وتدلىٰ الشيء بنفسه. ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ﴾ [يوسف: ١٩]. قال عامة أهل اللغة: يقال: أدلىٰ دلوه إذا أرسلها في البئر. ودلاها بالتخفيف إذا نزعها من البئر، فأدلىٰ دلوه يدليه إدلاء إذا أرسلها، ودلاها يدلوها دلوا، إذا نزعها وأخرجها.

ومنه الإدلاء، وهو التوصل إلىٰ الرجل برحم منه، ويشاركه في الاشتقاق الأكبر الدلالة، وهي: التوصل إلىٰ الشيء بإبانته وكشفه.

---

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلىٰ أبي جندب الهذلي المشهور بـ المشؤوم، له شعر في ديوان الهذليين. ذكره ابن منظور في اللسان (١٤/ ٢٦٦).

(٢) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلىٰ قيس بن زهير العبسي، كان فارسًا شاعرًا داهية يضرب به المثل، فيقال: أدهىٰ من قيس. وهو أمير عبس، كان يلقب بقيس الرأي لجودة رأيه، وله شعر جيد، زهد في أواخر عمره، مات سنة ١٠هـ. والبيت ذكره ابن منظور في اللسان (١١/ ٢٤٧) والحموي في معجم البلدان (٥/ ٣٨٩).

ومنه الدل وهو ما يدل على العبد من أفعاله، وكان عبد الله بن مسعود يتشبه برسول الله ﷺ في هديه ودله وسمته، فالهدي الطريقة التي عليها العبد، من أخلاقه وأقواله وأعماله، والدل ما يدل من ظاهره على باطنه، والسمت هيأته ووقاره ورزانته.

والمقصود: ذكر كيد عدو الله ومكره بالأبوين. قال مطرف بن عبد الله: قال لهما إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما، فاتبعاني أرشدكما، وحلف لهما، وإنما يخدع المؤمن بالله. قال قتادة: «وكان بعض أهل العلم يقول من خادعنا بالله خدعنا»[(١)]، فالمؤمن غر كريم، والفاجر خب لئيم[(٢)]، وفي الصحيح: أن عيسى ابن مريم عليه السلام رأى رجلًا يسرق، فقال: «سرقت»؟ فقال: لا والله الذي لا إله إلا هو، فقال المسيح: «آمنت بالله، وكذبت بصري»[(٣)].

وقد تأوله بعضهم على أنه لما حلف له جوز أن يكون قد أخذ من ماله، فظنه المسيح سرقة، وهذا تكلف، وإنما كان الله ﷻ في قلب المسيح عليه السلام أجل وأعظم من أن يحلف به أحد كاذبًا، فلما حلف له السارق دار الأمر بين تهمته وتهمة بصره، فرد التهمة إلى بصره لما اجتهد له في اليمين بالله، كما ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له بالله ﷻ، وقال: ما ظننت أحدًا يحلف بالله تعالى كاذبًا.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٥١ رقم ٨٢٩٦) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٤٣١) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٠٧).

(٢) يروى مرفوعًا من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال، وذكره، أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٩٠) والترمذي (رقم ١٩٦٤) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٩٥ رقم ٢٠٥٩٨) والحاكم (١/ ١٠٣ رقم ١٢٨، ١٢٩) والطبراني في الكبير (١٩/ ٨٢ رقم ١٦٦) وأبو يعلى (١٠/ ٤٠١ رقم ٦٠٠٧) وأحمد (٢/ ٣٩٤) والقضاعي في الشهاب (رقم ١٣٣) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٤١٨) وابن المبارك في الزهد (رقم ٦٧٩) وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٢٥٩): لم يضعفه أبو داود ورواتهما ثقات سوى بشر بن رافع وقد وثقه، وقال العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٨٧ رقم ٢٦٨٢) قال الصغاني: موضوع، واعترض بأن إسناده جيد، كما قال المناوي.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٤) ومسلم (رقم ٢٣٦٨) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٨٩) وشرح النووي (١٥/ ١٢١).

[(١)] وأما كيده للأبوين فقد قَصَّ الله سبحانه علينا قِصته معهما: [الأعراف: ٢٠-٢٢] وأنه لم يزل يخدعهما، ويعدهما، ويمنيهما الخلود في الجنة، حتى حلف لهما بالله جهد يمينه: إنه ناصح لهما، حتى اطمأنا إلى قوله وأجاباه إلى ما طلب منهما، فجرى عليهما من المحنة والخروج من الجنة ونزع لباسهما عنهما ما جرى، وكان ذلك بكيده ومكره الذي جرى به القلم، وسبق به القدر، ورد الله سبحانه كيده عليه، وتدارك الأبوين برحمته ومغفرته، فأعادهما إلى الجنة على أحسن الأحوال وأجملها، وعاد عاقبة مكره عليه. ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وظن عدو الله بجهله أن الغلبة والظفر له في هذه الحـرب، ولم يعلم بكمين جيش: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. ولا بإقبال دولة ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

وظن اللعين بجهله أن الله سبحانه يتخلى عن صفيه وحبيبه الذي خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، من أجل أكلة أكلها. وما علم أن الطبيب قد علم المريض الدواء قبل المرض، فلما أحس بالمرض بادر إلى استعمال الدواء، لما رماه العدو وبسهم وقع في غير مقتل، فبادر إلى مداواة الجرح، فقام كأن لم يكن به قَلَبَةٌ.

***

﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

[(٢)] عن أبي الأحوص الجشمي قال: رآني النبي ﷺ، وعليَّ أطمار فقال: «هل لك من مال؟» قلت: نعم، قال: «من أي المال؟» قلت: من كل ما آتى الله من الإبل والشاه، قال:

---

(١) ٢٠٢ إغاثة جـ٢.

(٢) ١٨٣ فوائد، وفيها: أي في السنن.

«فلتر نعمته وكرامته عليك»[(١)]. فهو سبحانه يحب ظهور أثر نعمته على عبده، فإنه من الجمال الذي يحبه، وذلك من شكره على نعمه، وهو جمال باطن، فيحب أن يرى على عبده الجمال الظاهر بالنعمة، والجمال الباطن بالشكر عليها.

ولمحبته سبحانه للجمال؛ أنزل على عباده لباسًا وزينة تجمل ظواهرهم، وتقوى تجمل بواطنهم. فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦]. وقال في أهل الجنة: ﴿ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴾ [الإنسان: ١١، ١٢] فجمل وجوههم بالنضرة، وبواطنهم بالسرور، وأبدانهم بالحرير.

وهو سبحانه كما يحب الجمال في الأقوال والأفعال واللباس والهيئة، يبغض القبيح من الأقوال والأفعال والثياب والهيئة، فيبغض القبيح وأهله، ويحب الجمال وأهله.

[(٢)]وقد جمع سبحانه بين الجمالين، أعني: جمال الظاهر وجمال الباطن؛ في غير موضع من كتابه:

منها: قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦].

ومنها: قوله تعالى في نساء الجنة: ﴿ فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ﴾ [الرحمن: ٧٠]، فهن حسان الوجوه، خيرات الأخلاق.

ومنها: قوله تعالى: ﴿ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة جمال الوجوه،

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٢/ ٢٣٤ رقم ٥٤١٦) وفي الموارد (رقم ١٤٣٤) والحاكم (٤/ ٢٠١ رقم ٧٣٦٤) والنسائي في الكبرى (٥/ ٤٥٩ رقم ٩٥٥٩) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٠ رقم ١٩٤٩٤) والترمذي (رقم ٢٠٠٦) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٤٦٢ رقم ١٢٦٢، ١٢٦٣) والطبراني في الأوسط (٢/ ١٩٧ رقم ١٧٠٢) وفي الكبير (٨/ ٢٦ رقم ٧٢٨٢) وأحمد (٣/ ٤٧٣) والطيالسي (رقم ١٣٠٣) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) ٣٠٠ مدارج جـ٣.

والسرور جمال القلوب.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]. فالنضرة تزين ظواهرهم، والنظر يجمل بواطنهم.

ومنها قوله تعالى: ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان: ٢١] فالأساور جملت ظواهرهم، والشراب الطهور طهر بواطنهم.

ومنها: قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات: ٦، ٧] فجمل ظاهرها بالكواكب، وباطنها بالحراسة من الشياطين.

(١) ومما يبيِّن أنَّ هذه الفواحش أصلها المحبة لغير الله تعالى، سواء كان المطلوب المشاهدة أو المباشرة، أو غير ذلك: أنها في المشركين أكثر منها في المخلصين، ويوجدُ فيهم منها ما لا يوجد مثله في المخلصين.

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦-٣٣].

---

(١) ١٥٥ إغاثة جـ٢.

فأخبر سبحانه أنه جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون، وهو قوله: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال تعالىٰ في الشيطان: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]. وأخبر عنه أنه أقسم بعزة ربه أنه يغوي عباده أجمعين، واستثنىٰ أهل الإخلاص منهم، وأخبر سبحانه عن أولياء الشيطان: أنهم إذا فعلوا فاحشة احتجوا بتقليد أسلافهم، وزعموا أن الله سبحانه أمرهم بها، فاتبعوا الظن الكاذب والهوىٰ الباطل.

قال شيخنا: وفي هذا الوصف نصيب كبير لكثير من المنتسبين إلىٰ القبلة، من الصوفية والعُبّاد، والأمراء، والأجناد، والمتفلسفة، والمتكلمين، والعامة وغيرهم، يستحلون من الفواحش ما حرمه الله ورسوله، ظانين أن الله أباحه، أو تقليدا لأسلافهم وأصله العشق الذي يبغضه الله، فكثير منهم يجعله ديناً، ويرىٰ أنه يتقرب به إلىٰ الله:

إما لزعمه أنه يزكي النفس ويهذبها.

وإما لزعمه أنه يجمع بذلك قلبه علىٰ آدمي، ثم ينقله إلىٰ عبادة الله وحده.

وإما لزعمه أن الصور الجميلة مظاهر الحق ومشاهده، ويسميها «مظاهر الجمال الأحديِّ».

وإما لاعتقاده حلول الرب فيها، واتحاده بها؛ ولهذا تجد بين نساك هؤلاء وفقرائهم وأمرائهم وأصحابهم توافقا وتآلفًا علىٰ اتخاذ أنداد من دون الله، يحبونهم كحب الله: إما تَدَيُّناً، وإما شهوة، وإما جمعاً بين الأمرين. ولهذا يتآلفون ويجتمعون علىٰ السماع الشيطاني، الذي يهيج الحب المشترك، فَيُهَيِّج من كل قلب ما فيه من الحب.

وسبب ذلك: خلو القلب مما خلق له، من عبادة الله تعالىٰ التي تجمع محبته وتعظيمه، والخضوع والذل له، والوقوف مع أمره، ونهيه ومحابّه ومساخطه. فإذا كان في القلب وجدان حلاوة الإيمان وذوق طعمه أغناه ذلك عن محبة الأنداد وتأليهها.

وإذا خلا القلب من ذلك احتاج إلى أن يستبدل به ما يهواه، ويتخذه إلهه، وهذا من تبديل الدين، وتغيير فطرة الله التي فطر عليها عباده. قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠]. أي نفس خلق الله لا تبديل له، فلا يخلق الخلق إلا على الفطرة، كما أن خلقه للأعضاء على السلامة من الشق والقطع. ولا تبديل لنفس هذا الخلق.

ولكن يقع التغيير في المخلوق بعد خلقه، كما قال النبي ﷺ: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيمَجِّسَانِهِ، كَمَا تَنْتَجُ الْبهمِيَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تَحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا**»(١).

فالقلوب مفطورة على حب إلهها وفاطرها وتأليهه. فصرف ذلك التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة.

ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها وردها إلى حالتها التي خلقت عليها فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة، ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها.

***

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

(٢)أما الأصل الثاني(٣)؛ وهو: دلالته على أن الفعل في نفسه حسن وقبيح؛ فكثير جدًّا. كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٣٨٥) ومسلم (رقم ٢٦٥٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٤٩-٢٥٠) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٧-٢٠٩).

(٢) ٢٣٣ مدارج جـ١.

(٣) تقدم الأصل الأول في سورة الأنعام على قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] (ج).

وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨-٣٣].

فأخبر سبحانه أن فعلهم فاحشة قبل نهيه عنه، وأمر باجتنابه بأخذ الزينة. و(الفاحشة) ههنا هي طوافهم بالبيت عراة ـ الرجال والنساء ـ غير قريش.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أي: لا يأمر بما هو فاحشة في العقول والفطر، ولو كان إنما علم كونه فاحشة بالنهي، وإنه لا معنىٰ لكونه فاحشة إلا تعلق النهي به، لصار معنىٰ الكلام: إن الله لا يأمر بما ينهىٰ عنه، وهذا يصان عن التكلم به آحاد العقلاء، فضلا عن كلام العزيز الحكيم.

وأي فائدة في قوله: «إن الله لا يأمر بما ينهىٰ عنه»؟ فإنه ليس لمعنىٰ كونه (فاحشة) عندهم إلا أنه منهي عنه، لا أن العقول تستفحشه.

ثم قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ﴾ والقسط عندهم: هو المأمور به لا أنه قسط في نفسه، فحقيقة الكلام: قل أمر ربي بما أمر به. ثم قال: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ دل علىٰ أنه طيب قبل التحريم، وأن وصف الطيب فيه مانع من تحريمه مناف للحكمة. ثم قال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ولو كان كونها فواحش إنما هو لتعلق التحريم بها، وليست فواحش قبل ذلك، لكان حاصل الكلام: قل إنما حرم ربي ما حرم، وكذلك تحريم الإثم والبغي، فكون

ذلك فاحشة وإثما وبغيا بمنزلة كون الشرك شركًا، فهو شرك في نفسه قبل النهي وبعده.

من قال: إن الفاحشة والقبائح والآثام إنما صارت كذلك بعد النهي، فهو بمنزلة من يقول: الشرك إنما صار شركا بعد النهي وليس شركا قبل ذلك.

ومعلوم أن هذا وهذا مكابرة صريحة للعقل والفطرة، فالظلم ظلم في نفسه قبل النهي وبعده، والقبيح قبيح في نفسه قبل النهي وبعده، والفاحشة كذلك، وكذلك الشرك، لا أن هذه الحقائق صارت بالشرع كذلك.

نعم الشارع كساها بنهيه عنها قبحا إلى قبحها، فكان قبحها من ذاتها، وازدادت قبحا عند العقل بنهي الرب تعالى عنها، وذمه لها، وإخباره ببغضها وبغض فاعلها، كما أن العدل والصدق والتوحيد ومقابلة نعم المنعم بالثناء والشكر حسن في نفسه، وازداد حسنا إلى حسنه بأمر الرب به، وثنائه على فاعله، وإخباره بمحبته ذلك ومحبة فاعله. بل من أعلام نبوة محمد ﷺ: أنه يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث.

فلو كان كونه معروفًا ومنكرًا وخبيثًا وطيبًا إنما هو لتعلق الأمر والنهي والحل والتحريم، به لكأن بمنزلة أن يقال يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه، ويحل لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم، وأي فائدة في هذا؟ وأي علم يبقى فيه لنبوته؟ وكلام الله يصان عن ذلك، وأن يظن به ذلك، وإنما المدح والثناء والعلم الدال على نبوته: أن ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنه وكونه معروفا، وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكرًا، وما يحله تشهد كونه طيبًا وما يحرمه تشهد كونه خبيثًا.

وهذه دعوة جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وهي بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين والكذابين والسحرة، فإنهم يدعون إلى ما يوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغي وإثم وظلم.

ولهذا قيل لبعض الأعراب ـ وقد أسلم، لما عرف دعوته ﷺ: عن أي شيء

أسلمت؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله؟ قال: «ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به، ولا أحل شيئًا، فقال العقل: ليته حرمه، ولا حرم شيئًا، فقال العقل: ليته أباحه».

فانظر إلى هذا الأعرابي وصحة عقله وفطرته وقوة إيمانه واستدلاله على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ما حسن في العقل، وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه ولو كان جهة الحسن والقبح والطيب والخبث مجرد تعلق الأمر والنهي والإباحة والتحريم به؛ لم يحسن منه هذا الجواب، ولكان بمنزلة أن يقول: وجدته يأمر وينهى ويبيح ويحرم وأي دليل في هذا؟

كذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِ ﴾ [النحل: ٩٠].

وهؤلاء يزعمون: أن الظلم في حق عباده هو المحرم والمنهي عنه لا أن هناك في نفس الأمر ظلما نهى عنه، وكذلك الظلم الذي نزه نفسه عنه، هو الممتنع المستحيل، لا أن هناك أمرا ممكنًا مقدورًا لو فعله لكان ظلمًا، فليس في نفس الأمر عندهم ظلم منهي عنه ولا منزه عنه، إنما هو المحرم في حقه والمستحيل في حقه، فالظلم المنزه عنه عندهم هو الجمع بين النقيضين، وجعل الجسم الواحد في مكانين في آن واحد ونحو ذلك.

والقرآن صريح في إبطال هذا المذهب أيضًا، قال الله تعالى: ﴿ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٧-٢٩] أي: لا أؤاخذ عبدا بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح، ولهذا قال قبله: ﴿ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴾ المتضمن لإقامة الحجة وبلوغ الأمر والنهي وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه، فذلك الظلم الذي

تنزه الله ﷻ عنه.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢] يعني لا يحمل عليه من سيئات ما لم يعمله، ولا ينقص من حسنات ما عمل، ولو كان الظلم هو المستحيل الذي لا يمكن وجوده لم يكن لعدم الخوف منه معنى، ولا للأمن من وقوعه فائدة.

وقال تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦] أي لا يحمل المسيء عقاب ما لم يعمله، ولا يمنع المحسن من ثواب عمله.

(١)ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨]. فقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ دليل على أنها في نفسها فحشاء، وأن الله لا يأمر بما يكون كذلك، وأنه يتعالى ويتقدس عنه، ولو كان كونه فاحشة إنما علم بالنهي خاصة كان بمنزلة أن يقال: إن الله لا يأمر بما ينهى عنه. وهذا كلام يصان عنه آحاد العقلاء، فكيف بكلام رب العالمين؟!

ثم أكد سبحانه هذا الإنكار بقوله: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ فأخبر أنه يتعالى عن الأمر بالفحشاء، بل أوامره كلها حسنة في العقول، مقبولة في الفطر، فإنه أمر بالقسط لا بالجور، وبإقامة الوجوه له عند مساجده لا لغيره، وبدعوته وحده مخلصين له الدين لا بالشرك، فهذا هو الذي يأمر به تعالى لا بالفحشاء، أفلا تراه كيف يخبر بحسن ما يأمر به ويحسنه وينزه نفسه عن الأمر بضده، وأنه لا يليق به تعالى. ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

(١) ٩ مفتاح جـ٢.

فاحتج سبحانه على حسن دين الإسلام، وأنه لا شيء أحسن منه بأنه يتضمن إسلام الوجه لله، وهو إخلاص القصد والتوجه والعمل له سبحانه، والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن، لا مرتكب للقبح الذي يكرهه الله، بل هو مخلص لربه محسن في عبادته بما يحبه ويرضاه، وهو مع ذلك متبع لملة إبراهيم في محبته لله وحده، وإخلاص الدين له وبذل النفس والمال في مرضاته ومحبته، وهذا احتجاج منه على أن دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول، وتشهد به الفطر، وأنه قد بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال، وهذا استدلال بغير الأمر المجرد، بل هو دليل على أن ما كان كذلك، فحقيق بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم سواه.

***

﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

(1) الأدب هو الدين كله، فإن ستر العورة من الأدب، والوضوء وغسل الجنابة من الأدب، والتطهر من الخبث من الأدب، حتى يقف بين يدي الله طاهرًا، ولهذا كانوا يستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول: أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة، وهو أخذ الزينة، فقال تعالى: ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ [الأعراف: ٣١] فعلَّق الأمر بأخذ الزينة لا بستر العورة، إيذانا بأن العبد ينبغي له: أن يلبس أزين ثيابه وأجملها في الصلاة.

وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال، وكان يلبسها وقت الصلاة، ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي.

(١) ٣٤٨ مدارج جـ٢.

ومعلوم: أن الله ﷻ يحب أن يرىٰ أثر نعمته علىٰ عبده، لاسيما إذا وقف بين يديه، فأحسن ما وقف بين يديه بملابسه ونعمته، التي ألبسه إياها ظاهرًا وباطنًا. ومن الأدب: نهىٰ النبي ﷺ المصلي أن يرفع بصره إلىٰ السماء.

فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: هذا من كمال أدب الصلاة: أن يقف العبد بين يدي ربه مطرقًا خافضًا طرفه إلىٰ الأرض، ولا يرفع بصره إلىٰ فوق.

قال: والجهمية ـ لما لم يفقهوا هذا الأدب، ولا عرفوه ـ ظنوا أن هذا دليل علىٰ أن الله ليس فوق سمواته علىٰ عرشه، كما أخبر به عن نفسه، واتفقت عليه رسله، وجميع أهل السنة.

قال: وهذا من جهلهم، بل هذا دليل لمن عقل عن الرسول ﷺ علىٰ نقيض قولهم؛ إذ من الأدب مع الملوك: أن الواقف بين أيديهم يطرق إلىٰ الأرض، ولا يرفع بصره إليهم، فما الظن بملك الملوك سبحانه.

وسمعته يقول في نهيه عن قراءة القرآن في الركوع والسجود: إن القرآن هو أشرف الكلام، وهو كلام الله، وحالتا الركوع والسجود حالتا ذل وانخفاض من العبد، فمن الأدب مع كلام الله: أن لا يقرأ في هاتين الحالتين، ويكون حال القيام والانتصاب أولىٰ به.

ومن الأدب مع الله: أن لا يستقبل بيته ولا يستدبره عند قضاء الحاجة، كما ثبت عن النبي ﷺ في حديث أبي أيوب وسلمان وأبي هريرة وغيرهم ﭫ. والصحيح: أن هذا الأدب: يعم الفضاء والبنيان، كما ذكرنا في غير هذا الموضع.

ومن الأدب مع الله في الوقوف بين يديه في الصلاة: وضع اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ حال قيام القراءة، ففي الموطأ لمالك عن سهل بن سعد: «أنه من السنة»، و«كان الناس يؤمرون به»، ولا ريب أنه من أدب الوقوف بين يدي الملوك والعظماء، فعظيم العظماء أحق به.

ومنها: السكون في الصلاة، وهو الدوام الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴾ [المعارج: ٢٣] قال عبدالله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أن أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴾ أهم الذين يصلون دائما؟ قال: لا، ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما أمران الدوام عليها والمداومة عليها، فهذا الدوام. والمداومة في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴾ [المعارج: ٣٤] وفسر الدوام بسكون الأطراف والطمأنينة.

وأدبه في استماع القراءة: أن يلقي السمع وهو شهيد.

وأدبه في الركوع: أن يستوي ويعظم الله تعالى حتى لا يكون في قلبه شيء أعظم منه، ويتضاءل ويتصاغر في نفسه، حتى يكون أقل من الهباء.

والمقصود: أن الأدب مع الله تبارك وتعالى: هو القيام بدينه والتأدب بآدابه ظاهرًا وباطنًا.

ولا يستقيم لأحد قط الأدب مع الله إلا بثلاثة أشياء: معرفته بأسمائه وصفاته، ومعرفته بدينه وشرعه وما يحب وما يكره، ونفس مستعدة قابلة لينة متهيئة لقبول الحق: علمًا وعملًا وحالًا، والله المستعان.

(١)قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١] جمعت أصول أحكام الشريعة كلها؛ فجمعت: الأمر، والنهي، والإباحة، والخبر.

(٢)هديه ﷺ في حفظ الصحة: لما كان اعتدالُ البدن وصحته وبقاؤه إنما هو بواسطة

---

(١) ٧ بدائع جـ٤.

(٢) ٢٨٢ زاد المعاد جـ٣.

الرطوبة المقاوِمةِ للحرارة، فالرطوبة مادته، والحرارةُ تُنضِجُهَا، وتدفع فضلاتِها، وتُصلحها، وتلطفها، وإلا أفسدتْ البدن ولم يمكن قيامُه.

وكذلك الرطوبةُ هي غِذاءُ الحرارة، فلولا الرطُوبة، لأحرقتْ البدن وأيبَسَتْه وأفسدته، فقِوامُ كُلٍّ واحدة منهما بصاحبتها، وقِوام البدنِ بهما جميعاً، وكُلٌّ منهما مادة للأُخرىٰ، فالحرارة مادة للرطوبة تحفظها وتمنعها من الفساد والاستحالة، والرطوبة مادة للحرارة تغذُوها وتحمِلُها، ومتىٰ مالتْ إحداهما إلىٰ الزيادة علىٰ الأُخرىٰ، حصل لمزاج البدن الانحرافُ بحسب ذلك، فالحرارةُ دائماً تُحَلِّلُ الرطوبة، فيحتاجُ البدن إلىٰ ما به يُخلَف عليه ما حلَّلتْه الحرارة لضرورة بقائهِ وهو الطعامُ والشرابُ.

ومتىٰ زاد علىٰ مقدار التحلل، ضعُفتِ الحرارةُ عن تحليل فضلاته، فاستحالتْ موادَّ رديئة، فعاثتْ في البدن، وأفسدتْ، فحصلت الأمراضُ المتنوعة بحسب تنوُّع موادِّها، وقبولِ الأعضاء واستعدادِها، وهذا كُلُّه مستفَادٌ من قوله تعالىٰ: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾، فأرشدَ عِباده إلىٰ إدخالِ ما يُقِيمُ البدنَ من الطعام والشراب عِوَضَ ما تحلَّل منه، وأن يكون بقدر ما ينتفعُ به البدنُ في الكمِّية والكيفية، فمتىٰ جاوز ذلك كان إسرافاً، وكلاهما مانعٌ من الصحة جالبٌ للمرض، أعني عدم الأكل والشرب، أو الإسراف فيه. فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين الإلهيتين، ولا ريب أنَّ البدن دائماً في التحلل والاستخلاف، وكُلَّما كثر التحلُّل ضعفت الحرارة لفناء مادتها، فإنَّ كثرةَ التحلل تُفنِي الرطوبة، وهي مادة الحرارة، وإذا ضعفت الحرارة، ضعفَ الهضم، ولا يزال كذلك حتىٰ تَفنىٰ الرطوبةُ، وتنطفئ الحرارة جملةً، فيستكملُ العبدُ الأجلَ الذي كتب اللهُ له أن يَصِلَ إليه. فغايةُ علاج الإنسان لنفسه ولغيره حراسةُ البدن إلىٰ أن يصل إلىٰ هذه الحالة، لا أنه يستلزمُ بقاءَ الحرارة والرطوبة اللَّتين بقاءُ الشباب والصحة والقوَّة بهما، فإنَّ هذا مما لم يحصُلْ لبَشَر في هذه الدار، وإنما غايةُ الطبيب أن يحميَ الرطوبةَ عن مفسداتها من العفونة وغيرها، ويحميَ الحرارة عن مُضعِفاتها، ويعدل بينهما بالعدل في التدبير، الذي به قام بدنُ الإنسان، كما أنَّ به قامت

السمواتُ والأرضُ وسائرُ المخلوقات، إنما قوامُها بالعدل.

ومَن تأمَّل هَدْيَ النبيِّ ﷺ وجده أفضلَ هَدْيٍ يُمكن حِفظُ الصِّحة به، فإنَّ حفظها موقوفٌ على حُسن تدبير المطعم والمشرب، والملبس والمسكن، والهواء والنوم، واليقظة والحركة، والسكون والمَنكَح، والاستفراغ والاحتباس.

فإذا حصَلتْ هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسِّنِّ والعادة، كان أقربَ إلى دوام الصحة أو غلبتها إلى انقضاء الأجل.

ولمَّا كانت الصحةُ والعافيةُ من أجَلِّ نِعَم الله على عبده، وأجزل عطاياه، وأوفر مِنحه، بل العافيةُ المطلقة أجَلُّ النِّعَمِ على الإطلاق، فحقيق لمن رُزق حظاً مِن التوفيق مراعاتها وحِفظها وحمايتُها عمَّا يُضادها.

وقد روى البخاريُّ في صحيحه من حديث ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ الناس: الصِّحَّةُ والفَرَاغُ**»[1].

وفي الترمذي وغيره من حديث عُبَيْد الله بن مِحصَن الأنصاري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أصْبَحَ مُعَافىً في جَسَدِهِ، آمناً في سِرْبِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فكأنما حِيزَتْ لَهُ الدُّنيا**»[2].

وفي الترمذي أيضاً من حديث أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**أوَّلُ ما يُسْأَلُ عنه العَبْدُ يومَ القيامَةِ مِنَ النَّعِيم، أن يُقال له: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، ونُرَوِّكَ مِنَ الماءِ البارد؟**»[3]. ومن هاهنا؛ قال مَن قال مِن السَّلَف في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٤١٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٣٠).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٤٤٥-٤٤٦ رقم ٦٧١) والترمذي (رقم ٢٣٤٦) وابن ماجه (رقم ٤١٤١) والطبري في تهذيب الآثار (٣/ ٨٧) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (رقم ٢١٢٦) والحميدي (رقم ٤٣٩) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٣٠ رقم ١٨٢٨) وفي مسند الشاميين (١/ ٣٦ رقم ٢٢) والقضاعي في الشهاب (رقم ٥٣٩) وقال الترمذي: حديث حسن.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٥٨) والديلمي في الفردوس (١/ ١٨ رقم ١٩) والحاكم (٤/ ١٥٣ رقم ٧٢٠٣) وابن حبان (١٦/ ٣٦٤ رقم ٧٣٦٤) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٦ رقم ٦٢) وفي مسند =

ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] قال: عن الصحة.

وفي مسند الإمام أحمد: أنَّ النبيَّ ﷺ قال للعباس: «يا عباس، يا عَمَّ رسول الله؛ سَلِ اللهَ العافِيَةَ في الدُّنْيَا والآخِرَة»[(١)].

وفيه عن أبي بكر الصِّدِّيق، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «سَلُوا اللهَ اليَقِينَ والمُعافاةَ، فما أُوتِيَ أحدٌ بَعْدَ ـ اليقينِ ـ خَيراً من العافية»[(٢)].

فجمع بين عافيتي الدِّينِ والدنيا، ولا يَتِمُّ صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه. وفي سنن النسائي من حديث أبي هريرة يرفعه: «سَلُوا اللهَ العَفْوَ والعافيةَ والمُعافاة، فما أُوتِيَ أحدٌ بَعْدَ يقينٍ خيراً من مُعافاةٍ»[(٣)].

وهذه الثلاثة تتضمَّن إزالة الشرور الماضية بالعفو، والحاضرة بالعافية، وَالمستقبلة بالمعافاة، فإنها تتضمن المداومةَ والاستمرارَ على العافية. وفي الترمذي مرفوعاً: «ما سُئِلَ اللهُ شيئاً أحبَّ إلَيْهِ من العافيةِ»[(٤)]. وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: عن أبي الدرداء، قلت: يا رسول الله؛ لأن أُعافَى فأشكُر أحبُّ إليَّ من أن أُبتَلى فأصبر،

=

الشاميين (١/ ٤٤٢ رقم ٧٧٩) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٤٧ رقم ٤٦٠٧) وابن أبي عاصم في الأوائل (رقم ١٥٥) وأحمد في الزهد (ص ٣١) وتمام في فوائده (رقم ٢١٨) وصححه الحاكم. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٧٨) وعمدة القاري (٢١/ ١٩٠).

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٨/ ٣٧٨ رقم ٤٦٥، ٤٦٦) والترمذي (رقم ٣٥١٤) وأحمد (١/ ٢٠٩) والبزار (٤/ ١٣٩ رقم ١٣١٤) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٧٢٦) وصححه الترمذي، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٧٥): رواه كله الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح غير يزيد ابن أبي زياد وهو حسن الحديث.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٢٠ رقم ١٠٧١٧) والترمذي (رقم ٣٥٥٨) والحميدي (رقم ٢) وأبو يعلى (١/ ٩٦ رقم ٩٧) وأحمد (١/ ٧) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ١٣٧ رقم ٥١٣٤): وأحد أسانيده صحيح. وانظر: تحفة الأحوذي (١٠/ ٣).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢٢٠ رقم ١٠٧١٧).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٤٨).

فقال رسول الله ﷺ: «ورسولُ الله يُحِبُّ مَعَكَ العافِيَةَ»(١).

ويُذكر عن ابن عباس أنَّ أعرابيًّا جاء إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال له: ما أسألُ الله بعد الصلواتِ الخمس؟ فقال: «سَلِ اللهَ العافيةَ»، فأعاد عليه، فقال له في الثالثة: «سَلِ اللهَ العَافِيَةَ في الدُّنيا والآخرَة».

***

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

(٢)أكمل الناس لذة؛ من جمع بين: لذة القلب والروح ولذة البدن. فهو يتناول لذاته المباحة علىٰ وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه. فهذا ممن قال تعالىٰ فيه: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وأبخسهم حظًّا من اللذة من تناولها علىٰ وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة، فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٠]. فهؤلاء تمتعوا بالطيبات، وأولئك تمتعوا بالطيبات، وافترقوا في وجه التمتع، فأولئك تمتعوا بها علىٰ الوجه الذي أذن لهم فيه، فجمع لهم بين لذة الدنيا والآخرة، وهؤلاء تمتعوا بها علىٰ الوجه الذي دعاهم إليه الهوىٰ والشهوة، وسواء أذن لهم فيه أم لا، فانقطعت عنهم لذة الدنيا وفاتتهم لذة الآخرة، فلا لذة الدنيا دامت لهم، ولا لذة الآخرة حصلت لهم. فمن أحب اللذة ودوامها والعيش الطيّب فليجعل لذة الدنيا موصلا له إلىٰ لذة الآخرة، بأن يستعين بها علىٰ فراغ قلبه لله وإرادته وعبادته، فيتناولها بحكم الاستعانة والقوة علىٰ طلبه، لا

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٣٠٤).
(٢) ١٤٩ فوائد.

بحكم مجرد الشهوة والهوى.

وإن كان ممن زويت عنه لذات الدنيا وطيباتها فليجعل ما نقص منها زيادة في لذة الآخرة، ويجم نفسه هاهنا بالترك ليستوفيها كاملة هناك.

فطيبات الدنيا ولذاتها نعم العون لمن صح طلبه لله و الدار الآخرة، وكانت همه لما هناك، وبئس القاطع لمن كانت هي مقصوده وهمته، وحولها يدندن، وفواتها في الدنيا نعم العون لطالب الله والدار الآخرة، وبئس القاطع النازع من الله والدار الآخرة. فمن أخذ منافع الدنيا على وجه لا ينقص حظه من الآخرة ظفر بهما جميعا، وإلا خسرهما جميعًا.

***

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

[1]قد حرم الله سبحانه القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء، وجعله من أعظم المحرمات؛ بل جعله في المرتبة العليا منها، فقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فرتب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها؛ وهو الفواحش، ثم ثنى بما هو أشد تحريمًا منه؛ وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريمًا منهما؛ وهو الشرك به سبحانه، ثم ربَّع بما هو أشد تحريمًا من ذلك كله؛ وهو القول عليه بلا علم. وهذا يعم القول عليه سبحانه بلا علم في: أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه، وشرعه.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ

(١) ٣٨ أعلام جـ١.

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧]. فتقدَّم إليهم سبحانه بالوعيد على الكذب عليه في أحكامه، وقوله لما لم يحرمه: هذا حرام، ولما لم يحله: هذا حلال، وهذا بيان منه سبحانه؛ أنه لا يجوز للعبد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام؛ إلا بما علم أن الله سبحانه أحله وحرمه.

[(١)]قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وهذا دليل على أنها فواحش في نفسها لا تستحسنها العقول فتعلق التحريم بها لفحشها، فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق يدل على أنه هو العلة المقتضية له.

وهذا دليل في جميع هذه الآيات التي ذكرناها، فدل على أنه حرمها لكونها فواحش، وحرم الخبيث لكونه خبيثًا، وأمر بالمعروف لكونه معروفًا، والعلة يجب أن تغاير المعلول، فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهيًّا عنه، وكونه خبيثًا هو معنى كونه محرما، كانت العلة عين المعلول، وهذا محال، فتأمله.

وكذا تحريم الإثم والبغي دليل على أن هذا وصف ثابت له قبل التحريم.

ومن هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فعلل النهي في الموضعين بكون المنهي عنه فاحشة، ولو كان جهة كونه فاحشة هو النهي لكان تعليلا للشيء بنفسه، ولكان بمنزلة أن يقال: لا تقربوا الزنا، فإنه يقول لكم لا تقربوه، أو فإنه منهي عنه، وهذا محال من وجهين:

أحدهما: أنه يتضمن إخلاء الكلام من الفائدة. **والثاني**: أنه تعليل للنهي بالنهي.

[(٢)]وأما القول على الله بلا علم فهو أشد هذه المحرمات تحريمًا وأعظمها إثمًا،

---

(١) ٧ مفتاح جـ٢.

(٢) ٣٧٢ مدارج جـ١.

ولهذا ذكر في المرتبة الرابعة من المحرمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان ولا تباح بحال، بل لا تكون إلا محرمة، وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير، الذي يباح في حال دون حال. فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم تحريمًا عارضًا في وقت دون وقت، قال الله تعالى في المحرم لذاته: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثما، فإنه يتضمن الكذب على الله، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته، وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله، وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه، وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه، وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ولا أشد إثما وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم.

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذروا فتنتهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش والظلم والعدوان، إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد.

وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده بلا برهان من الله، فقال: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ [النحل: ١١٦] الآية. فكيف بمن نسب إلى أوصافه ﷻ ما لم يصف به نفسه؟ أو نفى عنه منها ما وصف به نفسه؟

قال بعض السلف: ليحذر أحدكم أن يقول: أحل الله كذا وحرم الله كذا. فيقول

اللهُ: كذبت، لم أحل هذا، ولم أحرم هذا.

يعني التحليل والتحريم بالرأي المجرد، بلا برهان من الله ورسوله.

وأصل الشرك والكفر: هو القول على الله بلا علم، فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودا من دون الله يقر به إلى الله، ويشفع له عنده، ويقضي حاجته بواسطته، كما تكون الوسائط عند الملوك، فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس، إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع في دين الله، فهو أعم من الشرك والشرك فرد من أفراده.

ولهذا كان الكذب على رسول الله ﷺ موجبًا لدخول النار.

...[1] الفائدة الحادية عشرة: إذا نزلت بالحاكم أو المفتي النازلة...

فإما أن يكون عالمًا بالحق فيها، أو غالبًا على ظنه، بحيث قد استفرغ وسعه في طلبه ومعرفته، أو لا، فإن لم يكن عالمًا بالحق فيها ولا غلب على ظنه لم يحل له أن يفتي، ولا يقضي بما لا يعلم، ومتى أقدم على ذلك فقد تعرض لعقوبة الله.

ودخل تحت قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فجعل القول عليه بلا علم أعظم المحرمات الأربع التي لا تباح بحال، ولهذا حصر التحريم فيها بصيغة الحصر، ودخل تحت قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩].

ودخل في قول النبي ﷺ: «من أفتى بغير علم فإنما إثمه على من أفتاه».[2] وكان أحد

---

(١) ١٧٣ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه بسنده الحافظ المزي في تهذيب الكمال (٢٢/ ٢٧١) والحاكم (١/ ٢١٥ رقم ٤٣٦) وأبو داود =

القضاة الثلاثة الذين ثلثاهم في النار.

وإن كان قد عرف الحق في المسألة علما أو ظنًّا غالبًا لم يحل له أن يفتى ولا يقضى بغيره بالإجماع المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وهو أحد القضاة الثلاثة والمفتين الثلاثة والشهود الثلاثة، وإذا كان من أفتى أو حكم أو شهد بغير علم مرتكبا لأعظم الكبائر، فكيف من أفتى أو حكم أو شهد بما يعلم خلافه، فالحاكم والمفتي والشاهد كل منهم مخبر عن حكم الله.

فالحاكم مخبر منفذ، والمفتي مخبر غير منفذ، والشاهد مخبر عن الحكم الكوني القدري المطابق للحكم الديني الأمري، فمن أخبر منهم عما يعلم خلافه فهو كاذب على الله عمدًا: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠].

ولا أظلم ممن كذب على الله وعلى دينه، وإن أخبروا بما لم يعلموا فقد كذبوا على الله جهلا، وإن أصابوا في الباطن، وأخبروا بما لم يأذن الله لهم في الإخبار به، وهم أسوأ حالا من القاذف إذا رأى الفاحشة وحده، فأخبر بها، فإنه كاذب عند الله، وإن أخبر بالواقع فإن الله لم يأذن له في الإخبار بها، إلا إذا كان رابع أربعة، فإن كان كاذبا عند الله في خبر مطابق لمخبره، حيث لم يأذن له في الإخبار به فكيف بمن أخبر عن حكمه بما لم يعلم أن الله حكم به، ولم يأذن له في الإخبار به.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧]. وقال تعالى: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]، والكذب على الله يستلزم التكذيب بالحق

=

(رقم ٣٦٥٧) وابن ماجه (رقم ٥٣) والدارمي (رقم ١٥٩) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٦ رقم ٢٠١٤٠) وأحمد (٢/ ٣٢١) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٢٥٩) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود وفي صحيح الجامع (رقم ٦٠٦٨)، بينما صحح الحديث في صحيح الأدب المفرد.

والصدق، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٨].

وهؤلاء الآيات وإن كانت في حق المشركين والكفار فإنها متناولة لمن كذب على الله في توحيده ودينه وأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا تتناول المخطئ المأجور إذا بذل جهده واستفرغ وسعه في إصابة حكم الله وشرعه، فإن هذا هو الذي فرضه الله عليه، فلا يتناول المطيع لله إن أخطأ، وبالله التوفيق.

الفائدة الثانية عشرة: حكم الله ورسوله يظهر على أربعة ألسنة: لسان الراوي ولسان المفتي ولسان الحاكم ولسان الشاهد.

فالراوي يظهر على لسانه لفظ حكم الله ورسوله والمفتي يظهر على لسانه معناه وما استنبطه من لفظه، والحاكم يظهر على لسانه الإخبار بحكم الله وتنفيذه. والشاهد يظهر على لسانه الإخبار بالسبب الذي يثبت حكم الشارع.

والواجب على هؤلاء الأربعة أن يخبروا بالصدق المستند إلى العلم، فيكونوا عالمين بما يخبرون به صادقين في الإخبار به. وآفة أحدهم الكذب والكتمان، فمتى كتم الحق أو كذب فيه فقد حاد الله في شرعه ودينه، وقد أجرى الله سنته أن يمحق عليه بركة علمه ودينه ودنياه إذا فعل ذلك.

كما أجرى عادته سبحانه في المتبايعين إذا كتما وكذبا أن يمحق بركة بيعهما، ومن التزم الصدق والبيان منهم في مرتبته بورك له في علمه ووقته ودينه ودنياه، وكان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، ذلك الفضل من الله، وكفى بالله عليمًا. فبالكتمان يعزل الحق عن سلطانه، وبالكذب يقلبه عن وجهه، والجزاء من جنس العمل، فجزاء أحدهم أن يعزله الله عن سلطان المهابة والكرامة والمحبة والتعظيم، الذي يلبسه أهل الصدق والبيان، ويلبسه ثوب الهوان والمقت والخزي بين عباده، فإذا كان يوم القيامة جازى الله سبحانه من يشاء من الكاذبين

الكاتمين بطمس الوجوه وردها على أدبارها، كما طمسوا وجه الحق وقلبوه عن وجهه جزاء وفاقًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

***

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

[1]قال سعيد بن جبير ومجاهد وعطية: أي ما سبق لهم في الكتاب من الشقاوة والسعادة، ثم قرأ عطية: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾[2] [الأعراف: ٣٠].

والمعنى: أن هؤلاء أدركهم ما كتب لهم من الشقاوة، وهذا قول ابن عباس في رواية عطاء قال: يريد ما سبق عليهم في علمي في اللوح المحفوظ، فالكتاب على هذا القول الكتاب الأول، ونصيبهم ما كتب لهم من الشقاوة وأسبابها.

وقال ابن زيد، والقرطبي والربيع بن أنس: ينالهم ما كتب لهم من الأرزاق والأعمال، فإذا فني نصيبهم واستكملوه جاءتهم رسلنا يتوفونهم، ورجح بعضهم هذا القول لمكان «حتى» التي هي للغاية، يعني أنهم يستوفون أرزاقهم وأعمارهم إلى الموت.

ولمن نصر القول الأول أن يقول حتى في هذا الموضع، هي التي تدخل على

---

(١) ٤٢ شفاء.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٧٠، ١٧١) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٩٨٠، ٩٨١).

الجمل، وينصرف الكلام فيها إلى الابتداء، كما في قوله:

فـيا عجـبا حتى كُلَيبٌ تسبُّني [(١)]

والصحيح: أن نصيبهم من الكتاب يتناول الأمرين:فهو نصيبهم من الشقاوة، ونصيبهم من الأعمال التي هي أسبابها، ونصيبهم من الأعمار التي هي مدة اكتسابها، ونصيبهم من الأرزاق التي استعانوا بها على ذلك، فعمت الآية هذا النصيب كله، وذكر هؤلاء بعضه. وهؤلاء بعضه هذا على القول الصحيح، وأن المراد ما سبق لهم في أم الكتاب.

وقالت طائفة: المراد بالكتاب القرآن. قال الزجاج: معنى نصيبهم من الكتاب ما أخبر الله من جزائهم نحو قوله: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤] وقوله: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

قال أرباب هذا القول: وهذا هو الظاهر، لأنه ذكر عذابهم في القرآن في مواضع، ثم أخبر أنه ينالهم نصيبهم منه.

والصحيح القول الأول، وهو نصيبهم الذي كتب لهم أن ينالوه قبل أن يخلقوا، ولهذا القول وجه حسن، وهو أن نصيب المؤمنين منه الرحمة والسعادة، ونصيب هؤلاء منه العذاب والشقاء، فنصيب كل فريق منه ما اختاروه لأنفسهم وآثروه على غيره، كما أن حظ المؤمنين منه كان الهدى والرحمة، فحظ هؤلاء منه الضلال والخيبة، فكان حظهم من هذه النعمة أن صارت نقمة وحسرة عليهم.

وقريب من هذا قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أي تجعلونه حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم التكذيب به...

---

(١) هذا صدر بيت من بحر الطويل، وينسب للفرزدق: همام بن غالب التميمي الدارمي، من نبلاء الشعراء، من الطبقة الأولى، وكان شريفًا في قومه، عزيز الجانب، قارب المائة ومات سنة١١٠هـ. ذكره القرطبي في تفسيره (٣/ ٣٥)، بينما ذكر البيت كاملًا الشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٣٥٣) وعجزه: **كأن أباها نهشلٌ أو مجاشع**. وانظر: التمثيل والمحاضرة (ص٩٩)، وطبقات فحول الشعراء (ص١٨).

قال الحسن: تجعلون حظَّكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، قال: وخسر عبد لا يكون حظه من كتاب الله إلا التكذيب به.

[(١)] فليتدبر العاقل هذه الآيات وما اشتملت عليه من العبر، وقوله: ﴿ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ﴾ ذكر الصنفين المبطلين:

أحدهما: منشئ الباطل والفرية وواضعها، وداعي الناس إليها.

والثاني: مكذب بالحق. فالأول: كفره بالافتراء وإنشاء الباطل. والثاني: كفره بجحود الحق. وهذان النوعان يعرضان لكل مبطل. فإن انضاف إلىٰ ذلك دعوته إلىٰ باطلة وصد الناس عن الحق، استحق تضعيف العذاب لتضاعف كفره وشره. ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَـٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل: ٨٨] فلما كفروا وصدوا عباده عن سبيله عذبهم عذابين: عذابًا بكفرهم وعذابًا بصدهم عن سبيله، وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدد العذاب، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْكَـٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى: ٢٦] وقوله تعالىٰ: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ﴾ يعني ينالهم ما كتب لهم في الدنيا من الحياة والرزق وغير ذلك ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أين ما كنتم توالون فيه وتعادون فيه، وترجونه وتخافونه من دون الله ﴿ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا ﴾ زالوا وفارقوا، وبطلت تلك الدعوة ﴿ وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ۝٣٧ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ﴾ ادخلوا في جملة هذه الأمم ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ ﴾ كل أمة متأخرة لأسلافها ﴿ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ضاعفه عليهم بما أضلونا وصدونا عن طاعة رسلك، ﴿ قَالَ ﴾ الله تعالىٰ: ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ ﴾ من الأتباع والمتبوعين بحسب ضلالة وكفره، ﴿ وَلَـٰكِن لَّا

(١) ٣٦ الرسالة التبوكية.

تَعْلَمُونَ ﴾ لا تعلم كل طائفة بما فيه أختها من العذاب المضاعف ﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾، فإنكم جئتم بعدنا فأرسلت فيكم الرسل، وبينوا لكم الحق، وحذروكم من ضلالنا، ونهوكم عن اتباعنا وتقليدنا، فأبيتم إلا اتباعنا وتقليدنا وترك الحق الذي أتتكم به الرسل. فأي فضل كان لكم علينا، وقد ضللتم كما ضللنا، وتركتم الحق كما تركنا، فضللتم أنتم بنا كما ضللنا نحن بقوم آخرين. فأي فضل كان لكم علينا ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ فلله ما أشفاها من موعظة! وما أبلغها من نصيحة! لو صادفت من القلوب حياة، فإن هذه الآية وأمثالها مما يذكر قلوب السائرين إلى الله، وأما أهل البطالة فليس عندهم من ذلك خبر.

[1]الطبقة السابعة عشر: طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعاً لهم، يقولون: إنا وجدنا آباءَنا على أُمة، ولنا أُسوة بهم. ومع هذا فهم متاركون لأهل الإسلام غير محاربين لهم، كنساءِ المحاربين وخدمهم وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أُولئك أنفسهم من السعي في إطفاءِ نور الله وهدم دينه وإخماد كلماته، بل هم بمنزلة الدواب.

وقد اتفقت الأُمة على أن هذه الطبقة كفار وإن كانوا جهالاً مقلدين لرؤسائهم وأئمتهم، إلا ما يحكى عن بعض أهل البدع: أنه لم يحكم لهؤلاءِ بالنار، وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة، وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين: لا الصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم، وإنما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدث في الإسلام.

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»، فأخبر أن أبويه ينقلانه عن الفطرة إلى اليهودية والنصرانية والمجوسية، ولم يعتبر في ذلك غير المربي والمنشأ على ما عليه الأبوان.

---

(١) ٤١١ طريق الهجرتين.

وصح عنه أنه قال ﷺ: «إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة»(١)، وهذا المقلد ليس بمسلم، وهو عاقل مكلف، والعاقل المكلف لا يخرج عن الإسلام أو الكفر. وأما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف في تلك الحال، وهو بمنزلة الأطفال والمجانين. وقد تقدم الكلام عليهم.

والإسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، والإيمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاءَ به، فما لم يأْت العبد بهذا فليس بمسلم، وإن لم يكن كافراً معانداً فهو كافر جاهل. فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفاراً، فإن الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله: إما عناداً وإما جهلاً وتقليداً لأهل العناد. فهذا وإن كان غايته أنه غير معاند فهو متبع لأهل العناد.

وقد أخبر الله في القرآن في غير موضع بعذاب المقلدين لأسلافهم من الكفار، وأن الأتباع مع متبوعيهم، وأنهم يتحاجون في النار، وأن الأتباع يقولون: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣١- ٣٣].

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٢٨) ومسلم (رقم ٢٢١) وانظر: عمدة القاري (٢٣/ ١٠٧).

فهذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا في العذاب، ولم يغن عنهم تقليدهم شيئاً. وأصرح من هذا قوله تعالىٰ: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «**من دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه، لا ينقص من أوزارهم شيئاً**»[(١)]، وهذا يدل علىٰ أن كفر من اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

نعم لابد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه، والقسمان واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضاً:

أحدهما: مريد للهدىٰ مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا علىٰ طلبه، لعدم من يرشده، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة.

الثاني: معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه.

فالأول يقول: يا رب لو أعلم لك ديناً خيراً مما أنا عليه لدنت به، وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوىٰ ما أنا عليه ولا أقدر علىٰ غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي.

والثاني: راضٍ بما هو عليه، لا يؤثر غيره عليه ولا تطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز، وهذا لا يجب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق.

فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به، فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في

---

(١) سبق تخريجه.

طلبه عجزاً وجهلاً.

والثاني: كمن لم يطلبه، بل مات على شركه، وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض.

فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق. وأما كون زيد بعينه وعمرو بعينه قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه، هذا في أحكام الثواب والعقاب.

وأما في أحكام الدنيا فهي جارية مع ظاهر الأمر، فأطفال الكفار ومجانينهم كفار في أحكام الدنيا، لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة. وهو مبني على أربعة أصول:

أحدها: أن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ [الملك: ٨، ٩]، وقال تعالى: ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١١]. وقال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذّب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه. وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[الزخرف: ٧٦]، والظالم من عرف ما جاءَ به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم؟

الأصل الثاني: أن العذاب يستحق بسببين:

أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها.

الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها. فالأول كفر إعراض والثاني كفر عناد. وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل.

الأصل الثالث: أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص، فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان، دون زمان وفي بقعة وناحية دون أُخرى، كما أنها تقوم على شخص دون آخر، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون، وإما لعدم فهمه كالذي لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له. فهذا بمنزلة الأصم الذي لا يسمع شيئاً ولا يتمكن من الفهم، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة، كما تقدم في حديث الأسود وأبي هريرة وغيرهما.

الأصل الرابع: أن أفعال الله ﷻ تابعة لحكمته التي لا يخل بها ، وأنها مقصودة لغايتها المحمودة وعواقبها الحميدة. وهذا الأصل هو أساس الكلام في هذه الطبقات، إلا من عرف ما في كتب الناس ووقف على أقوال الطوائف في هذا الباب وانتهى إلى غاية مراتبهم ونهاية إقدامهم، والله الموفق للسداد الهادي إلى الرشاد.

وأما من لم يثبت حكمة ولا تعليلاً، ورد الأمر إلى محض المشيئة التي ترجح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح، فقد أراح نفسه من هذا المقام الضنك واقتحام عقبات هذه المسائل العظيمة، وأدخلها كلها تحت قوله: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وهو الفعال لما يريد، وصدق الله وهو أصدق القائلين: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ لكمال حكمته وعلمه ووضعه الأشياءَ مواضعها، وأنه ليس في أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد يسأل عنه كما يسأل المخلوق، وهو الفعال لما يريد، ولكن لا يريد أن

يفعل إلا ما هو خير ومصلحة ورحمة وحكمة، فلا يفعل الشر ولا الفساد ولا الجور، ولا خلاف مقتضى حكمته، لكمال أسمائه وصفاته، وهو الغني الحميد العليم الحكيم.

[(1)]قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأعراف: ٤٠] وهذا دليل على أن المؤمنين تفتح لهم أبواب السماء، وهذا التفتيح هو تفتيحها لأرواحهم عند الموت، كما تقدم في الأحاديث المستفيضة أن السماء تفتح لروح المؤمن، حتى يُنتهى، بها إلى بين يدي الرب تعالى، وأما الكافر فلا تفتح لروحه أبواب السماء ولا تفتح لجسده أبواب الجنة.

***

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

[(2)]روى مسلم في صحيحه، من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: **«ينادي منادٍ: أن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وأن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وأن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وأن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا»** وذلك قول الله ﷻ: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣][(3)].

قال عثمان بن أبي شيبة: حدثنا يحيى بن آدم: حدثنا حمزة الزيات، عن أبي إسحاق، عن الأغر، عن أبي هريرة وأبي سعيد، عن النبي ﷺ: ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قال: **«نودوا أن صحوا فلا تسقموا أبدًا واخلدوا فلا**

---

(١) ٢٣٥ الروح.
(٢) ١٦٥ الروح.
(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٣٧).

تموتوا أبدًا، وأنعموا فلا تبأسوا أبدًا»[١].

...[٢]وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيدا أو تنبيها أو احترازا كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٢] فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢] لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم: أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ وهذا أحسن من قول من قال: إنه خبر عن الذين آمنوا، ثم أخبر عنهم بخبر آخر، فهما خبران عن مخبر واحد، فإن عدم التكليف فوق الوسع لا يخص الذين آمنوا، بل هو حكم شامل لجميع الخلق مع ما في هذا التقدير من إخلاء الخبر عن الرابط وتقدير صفة محذوفة أي نفسا منها، وتعطيل هذه الفائدة الجليلة.

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧] فاعترض بقوله ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ ﴾ بين الجعلين، وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام، ومن قصد الاعتناء والتقرير والتوكيد وتعظيم المقسم به والمخبر به والمخبر عنه، ورفع توهم خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك، فمن الاعتراض الذي يقصد به التقرير والتوكيد قول الشاعر:

لو أن الباخلين وأنت منهم ... رأوك تعلموا منك المطالا[٣]

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ١٨٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٤٨٠ رقم ٨٤٧٧).

(٢) ١٣٨ تبيان.

(٣) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى كثير بن عبد الرحمن بن الأسود الخزاعي الشهير بكثير عزة، شاعر متيم مشهور من أهل المدينة، أكثر إقامته بمصر، اشتهر بحبه لعزة فعرف بها وعرفت به. توفي في الحجاز هو وعكرمة مولى ابن عباس في نفس اليوم فقيل: مات اليوم أفقه الناس وأشعر الناس.
ذكر البيت ابن المعتز في البديع (ص ٩١) وأسامه بن منقذ في البديع في نقد الشعر (ص ٢٢٠) وأبو =

ومما يقصد به الجواب عن سؤال مقدر قول الآخر:

فـلا هجـره يبـدو ـ وفي اليـأس راحـة ـ ولا وصـلـه يـصفو لنـا فنكارمـه[١]

فقوله: وفي اليأس راحة جواب لتقدير سؤال سائل: وما يغني عنك هجره؟ فقال وفي اليأس راحة، أي المطلوب أحد أمرين: إما يأس مريح أو وصال صاف.

ومن اعتراض الاحتراز قول الجعدي:

ألا زعمـت بنـو جعـد بـأني وقـد كـذبوا كبيـر الـسن فـاني[٢]

ومنه قول نصيب:

فكـدت ولم أخلـق مـن الطيـر إن بـدا سـنا بـارق نحـو الحجـاز أطيـر[٣]

فقوله: ولما أخلق من الطير لرفع استفهام يتوجه عليه على سبيل الإنكار، لو قال: فكدت أطير. فيقال له: وهل خلقت من الطير؟ فاحترز بهذا الاعتراض، وعندي أن هذا الاعتراض يفيد غير هذا، وهو قوة شوقه ونزوعه إلى أرض الحجاز، فأخبر أنه كاد

=

هلال العسكري في الصناعتين (ص ٩٦).

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب ابن ميادة: الرماح بن أبرد الذبياني الغطفاني وميادة أمه نسب إليها واشتهر بها، شاعر رقيق هجَّاء من مخضرمي الدولة الأموية والعباسية، وكان خيرًا لقومه من النابغة، مات ١٤٩هـ. والبيت ذكره أبو هلال العسكري في الصناعتين (ص ٧٧١).

(٢) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى النابغة الجعدي: قيس بن عبد الله العامري، كان ممن هجر الأوثان ونهى عن الخمر قبل ظهور الإسلام، وفد على النبي ﷺ وأسلم وشهد صفين مع علي ﷺ، كف بصره وتجاوز المائة، مات سنة ٥٠هـ.

ذكر البيت ابن حجر في الإصابة (٦/ ٣٩٢) في ترجمة النابغة الجعدي، ولكن جاء فيها:

ألا زعمت بنو أسد بأني أبـو ولد كبير السن فاني

وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب (٤/ ١٥١٧) وفيه:

ألا زعمت بنو سعد بأني وما كذبوا كبير السن فـاني

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى نصيب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان، شاعر فحل مقدم في النسيب والمدائح، سئل عنه جرير فقال: أشعر أهل جلدته. وتنسك في أواخر عمره، مات سنة ١٠٨هـ. والبيت ذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٢/ ٦٤) وأبو الفرج الأصبهاني في الأغاني (١/ ٣٧٥) والسراج القاري في مصارع العشاق (١/ ٥٨٨).

يطير على أنه أبعد شيء من الطيران، فإنه لم يخلق من الطير، ولا عجب طيران من خلق من الطير، وإنما العجب طيران من لم يخلق من الطير، لشدة نزوعه وشوقه إلى جهة محبوبه، فتأمله. ومن مواقع الاعتراض: الاعتراض بالدعاء، كقول الشاعر:

قد كنت أبكي وأنت راضية ... حذار هذا الصدود والغضب
إن تم ذا الهجر يا ظلوم - ولا ... تم - فما لي في العيش من أرب[1]

[2]المرتبة الرابعة الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة والنار. قال تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]. وأما قول أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] فيحتمل: أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة، وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلى دار النعيم، ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم، وأنهم حمدوا الله على هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة؛ كان أحسن وأبلغ.

...[3]الصنف الثاني: القدرية النفاة، الذي يثبتون نوعًا من الحكمة، والتعليل، ولكن لا يقوم بالرب، ولا يرجع إليه، بل يرجع إلى مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته. فعندهم: أن العبادات شرعت أثمانا لما يناله العباد من الثواب والنعيم، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير.

قالوا: ولهذا يجعلها الله تعالى عوضًا كقوله: ﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا

(١) هذان البيتان من بحر المنسرح، وينسبان إلى العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي، شاعر غزل رقيق، قال فيه البحتري: أغزل الناس، خالف الشعراء في طرقهم فلم يمدح ولم يهج، بل كان شعره كله غزلاً وتشبيبًا، مات سنة ١٩٢هـ. ذكر البيتين ابن رشيق القيرواني في العمدة في محاسن الشعر وآدابه (١/ ٨٠٨) وثعلب في مجالسه (ص ٦٣٦) وعبد الرحيم العباسي في معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١/ ٦٦٣).

(٢) ٨٥ مفتاح جـ١.

(٣) ٩٢ مدارج جـ١.

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقوله: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٢٣] وقوله: ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٠] وقوله فيما يحكي عن ربه ﷻ: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها»[1]. وقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]. قالوا: وقد سماه الله سبحانه جزاءً وأجرًا وثوابًا، لأنه يثوب إلىٰ العامل من عمله، أي يرجع إليه منه. قالوا: ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاءً ولا أجرًا ولا ثوابًا معنىً.

قالوا: ويدل عليه الوزن، فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها وكونها كالأثمان لها لم يكن للوزن معنى، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٨، ٩].

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل وبينهما أعظم التباين.

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطا بالجزاء البتة، وجوزت أن يعذب الله من أفنىٰ عمره في طاعته، وينعم من أفنىٰ عمره في معصيته، وكلاهما بالنسبة إليه سواء، وجوزت أن يرفع صاحب العمل القليل علىٰ من هو أعظم منه عملًا وأكثر وأفضل درجات، والكل عندهم راجع إلىٰ محض المشيئة، من غير تعليل ولا سبب ولا حكمة، تقتضي تخصيص هذا بالثواب وهذا بالعقاب.

والقدرية أوجبت علىٰ الله سبحانه رعاية الأصلح، وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمنا لها، وأن وصول الثواب إلىٰ العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال منَّة الصدقة عليه بلا ثمن.

فقاتلهم الله ما أجهلهم بالله وأغرهم به! جعلوا تفضله وإحسانه إلىٰ عبده بمنزلة صدقة العبد علىٰ العبد، حتىٰ قالوا: إن إعطاءه ما يعطيه أجرة علىٰ عمله أحب إلىٰ العبد

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧). وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٣٢ - ١٣٣).

وأطيب له من أن يعطيه فضلا منه بلا عمل.

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة، ولم يجعلوا للأعمال تأثيرا في الجزاء البتة.

والطائفتان جائرتان منحرفتان عن الصراط المستقيم، الذي فطر الله عليه عباده، وجاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب، مقتضية لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها.

وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومنه، وصدقته على عبده، إن أعانه عليها ووفقه لها، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها، وحببها إليه، وزينها في قلبه، وكره إليه أضدادها، ومع هذا فليست ثمنا لجزائه وثوابه، ولا هي على قدره، بل غايتها - إذا بذل العبد فيها نصحه وجهده، وأوقعها على أكمل الوجوه - أن تقع شكرًا له على بعض نعمه عليه، فلو طالبه بحقه لبقي عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها؛ فلذلك لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه؛ لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم. كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ.

ولهذا نفى النبي ﷺ دخول الجنة بالعمل، كما قال: **«لن يدخل أحدًا منكم الجنة عمله»**. وفي لفظ: **«لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله»**. وفي لفظ: **«لن ينجي أحدًا منكم عمله»**. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»**[(١)].

وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل، كما في قوله: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢] ولا تنافي بينها؟ إذ توارد النفي والإثبات ليس على معنى واحد، فالمنفي استحقاقها بمجرد الأعمال وكون الأعمال ثمنًا وعوضًا لها، ردًّا على القدرية المجوسية، التي زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة.

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله وأغلظهم عنه حجابا، وحُقَّ لهم أن يكونوا

---

(١) تقدم تخريجه.

مجوس هذه الأمة، ويكفي في جهلهم بالله: أنهم لم يعلموا أن أهل سمواته وأرضه في منته، وأن من تمام الفرح والسرور والغبطة واللذة: اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة. وأعظمهم منه منزلة، وأقربهم إليه: أعرفهم بهذه المنة، وأعظمهم إقرارًا بها، وذكرًا لها، وشكرًا عليها، ومحبة له لأجلها. فهل يتقلب أحد قط إلا في منته؟ ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

واحتمال منة المخلوق: إنما كانت نقصا لأنه نظيره، فإذا مَنَّ عليه استعلى عليه، ورأى الممنون عليه نفسه دونه هذا مع أنه ليس في كل مخلوق فلرسول الله ﷺ المنة على أمته، وكان أصحابه يقولون: «الله ورسوله أمنّ»، ولا نقص في منة الوالد على ولده، ولا عار عليه في احتمالها، وكذلك السيد على عبده.

فكيف برب العالمين الذي إنما يتقلب الخلائق في بحر منته عليهم ومحض صدقته عليهم بلا عوض منهم البتة؟ وإن كانت أعمالهم أسبابًا لما ينالونه من كرمه وجوده، فهو المنان عليهم بأن وفقهم لتلك الأسباب، وهداهم لها وأعانهم عليها، وكملها لهم وقبلها منهم على ما فيها؟ وهذا هو المعنى الذي أثبت به دخول الجنة في قوله: ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فهذه باء السببية ردا على القدرية والجبرية، الذين يقولون: لا ارتباط بين الأعمال والجزاء، ولا هي أسباب له، وإنما غايتها أن تكون أمارات.

قالوا: وليست أيضا مطردة، لتخلف الجزاء عنها في الخير والشر، فلم يبق إلا محض الأمر الكوني والمشيئة.

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء، كما هي مبطلة لقول أولئك. وأدلة المعقول والفطرة أيضا تبطل قول الفريقين، وتبين لمن له قلب ولب: مقدار قول أهل السنة، وهم الفرقة الوسط، المثبتون لعموم مشيئة الله وقدرته وخلقه العباد وأعمالهم، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها، وانعقادها بها شرعًا وقدرًا،

وترتيبها عليها عاجلا وآجلًا. وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعا من الحق وارتكبت لأجله نوعًا من الباطل بل أنواعًا، وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

***

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

(١)الطبقة الثانية عشرة: قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فتقابل أثراهما فتقاوما، فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار وسيئاتهم المساوية من دخول الجنة. فهؤلاء هم أهل الأعراف، لم يفضل لأحدهم حسنة يستحق بها الرحمة من ربه، ولم يفضل عليه سيئة يستحق بها العذاب.

وقد وصف الله ﷻ أهل هذه الطبقة في سورة الأعراف - بعد أن ذكر دخول أهل النار وتلاعنهم فيها، ومخاطبة أتباعهم لرؤسائهم وردهم عليهم، ثم مناداة أهل الجنة أهل النار - فقال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٦ - ٤٧]، فقوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين أهل الجنة والنار حجاب.

قيل: هو السور الذي يضرب بينهم، له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله

(١) ٣٨١ طريق الهجرتين.

العذاب: باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي الكفار من جهته العذاب، والأعراف جمع عرف وهو المكان المرتفع، وهو سور عال بين الجنة والنار، عليه أهل الأعراف.

قال حذيفة وعبد الله بن عباس: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار، فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشاءُ، ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته[(١)].

قال عبد الله بن المبارك: أخبرنا أبو بكر الهذلي قال: كان سعيد بن جبير يحدث عن ابن مسعود قال: يحاسب الله الناس يوم القيامة، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن كانت سيئاته أكثر بواحدة دخل النار، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم ﴾[(٢)] [الأعراف: ٨- ٩]، ثم قال: إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح. قال: ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف. فوقفوا على الصراط، ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾، وإذا صرفوا أبصارهم إلى أصحاب النار قالوا: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٧]، فأما أصحاب الحسنات فإنهم يعطون نوراً يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم، ويعطى كل عبد يومئذ نوراً، فإذا أتوا على الصراط سلب الله تعالى نور كل منافق ومنافقة، فلما رأى أهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا: ﴿ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾ [التحريم: ٨].

وأما أصحاب الأعراف فإن النور لم ينزع من أيديهم، فيقول الله: ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٦]، فكان الطمع للنور الذي في أيديهم، ثم أدخلوا الجنة وكانوا آخر أهل الجنة دخولاً. يريد آخر أهل الجنة دخولاً ممن لم يدخل النار. وقيل: هم قوم

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.

خرجوا في الغزو بغير إذن آبائهم فقتلوا، فأُعتقوا من النار لقتلهم في سبيل الله، وحبسوا عن الجنة لمعصية آبائهم. وهذا من جنس القول الأول، وقيل: هم قوم رضي عنهم أحد الأبوين دون الآخر، يحبسون على الأعراف حتى يقضي الله بين الناس ثم يدخلهم الجنة، وهي من جنس ما قبله فلا تناقض بينهما. وقيل: هم أصحاب الفترة وأطفال المشركين.

وقيل: هم أُولو الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف، فيطلعون على أهل النار وأهل الجنة جميعاً.

وقيل: هم الملائكة لا من بني آدم. والثابت عن الصحابة هو القول الأول، وقد رويت فيه آثار كثيرة مرفوعة لا تكاد تثبت أسانيدها. وآثار الصحابة في ذلك المعتمدة.

وقد اختلف في تفسير الصحابي هل له حكم المرفوع، أو الموقوف؟ على قولين: الأول اختيار أبي عبد الله الحاكم، والثاني هو الصواب، ولا نقول على رسول الله ﷺ ما لم نعلم أنه قاله.

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ صريح في أنهم من بني آدم، ليسوا من الملائكة. وقوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَٰهُمْ ﴾، يعني يعرفون الفريقين بسيماهم، ﴿ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾، أي نادى أهل الأعراف أهل الجنة بالسلام. قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ الضميران في الجملتين لأصحاب الأعراف، لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها، قال أبو العالية: ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريدها بهم.

وقال الحسن: الذي جمع الطمع في قلوبهم يوصلهم إلى ما يطمعون، وفي هذا رد على وقول من قال: إنهم أفاضل المؤمنين، علوا على الأعراف، يطالعون أحوال الفريقين، فعاد الصواب إلى تفسير الصحابة، وهم أعلم الأُمة بكتاب الله، ومراده منه.

ثم قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَـٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ هذا دليل على أنه بمكان مرتفع بين الجنة والنار، فإذا أشرفوا على أهل الجنة نادوهم بالسلام، وطمعوا في الدخول إليها، وإذا أشرفوا على أهل النار سألوا الله أن لا يجعلهم معهم، ثم قال تعالى: ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ﴾ يعني من الكفار الذين في النار، فقالوا لهم: ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٨] يعني ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجرؤكم على الحق ولا استكباركم، وهذا إما نفي، وإما استفهام وتوبيخ، وهو أبلغ وأفخم. ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفار يسترذلونهم في الدنيا، ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم بفضله، كما لم يختصهم دونهم في الدنيا، فيقول لهم أهل الأعراف: ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ ﴾ أيها المشركون أن الله تعالى لا ينالهم برحمة، فها هم في الجنة يتمتعون ويتنعمون، وفي رياضها يحبرون، ثم يقال لأهل الأعراف: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٩].

وقيل: إن أصحاب الأعراف إذا عيروا الكفار وأخبروهم أنهم لم يغن عنهم واستكبارهم، عيرهم الكفار بتخلفهم عن الجنة، وأقسموا أن الله لا ينالهم برحمة، لما رأوا من تخلفهم عن الجنة، وأنهم يصيرون إلى النار، فتقول لهم الملائكة حينئذ: ﴿ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٩]، والقولان قويان محتملان، والله أعلم.

***

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١)فإن قلت: فما الحكمة في كون بعض النجوم راتبًا وبعضها متنقلًا.

قيل: إنها لو كانت كلها راتبة؛ لبطلت الدلالة والحكم الذي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها، ولو كانت كلها متنقلة؛ لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ولا رسم يقاس عليها؛ لأنه إنما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب، كما يقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التي يمرون عليها، فلو كانت كلها بحال واحدة لاختل نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها: ولتشبث المعطل بذلك، وقال: لو كان فاعلها ومبدعها مختاراً؛ لم تكن على وجه واحدٍ وأمر واحد وقدر واحد. فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته.

(٢)قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] في سبع آيات من القرآن حقيقة عند جميع فرق الأمة، إلا الجهمية ومن وافقهم، فإنهم قالوا: هو مجاز، ثم اختلفوا في مجازه، والمشهور عنهم ما حكاه الأشعري عنهم، وبدَّعهم وضلَّلهم فيه: بمعنى استولى أي: ملك، وقهر.

وقالت فرقة منهم: بل معنى قصد وأقبل على خلق العرش.

وقالت فرقة أخرى: بل هو مجمل في مجازاته، يحتمل خمسة عشر وجهًا، كلها لا يعلم أيها المراد، إلا أنا نعلم انتفاء الحقيقة عنه بالعقل.

هذا الذي قالوه باطل من اثنين وأربعين وجهًا.

أحدها: أن لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله تعالى بلغتهم، وأنزل بها كلامه نوعان: مطلق، ومقيد.

فالمطلق: ما لم يوصل معناه بحرف مثل قوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ﴾

---

(١) ٢١١ مفتاح جـ١.

(٢) ١٢٦ مختصر الصواعق جـ٢.

[القصص: ١٤] وهذا معناه: كمل وتم، يقال: استوىٰ النبات، واستوىٰ الطعام.

وأما المقيد فثلاثة أضراب:

أحدها: مقيد بـ «إلىٰ» كقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [القمر: ٢٩] واستوىٰ فلان إلىٰ السطح وإلىٰ الغرفة، وقد ذكر سبحانه هذا المعدىٰ بإلىٰ في موضعين من كتابه: في البقرة في قوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [القمر: ٢٩]. والثاني: في سورة فصلت: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت: ١١]، وهذا بمعنىٰ العلو والارتفاع بإجماع السلف كما سنذكره، ونذكر ألفاظهم بعد إن شاء الله.

والثاني: مقيد بـ«علىٰ» كقوله تعالىٰ: ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقوله: ﴿ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ﴾ [هود: ٤٤]، وقوله: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ [الحجرات: ٢٦]، وهذا أيضًا معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون بواو (مع) التي تعدي الفعل إلىٰ المفعول معه نحو: استوىٰ الماء والخشبة بمعنىٰ: ساواها، وهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم، ليس فيها معنىٰ استولىٰ البتة، ولا نقله أحد من أئمة اللغة الذين يعتمد قولهم، وإنما قاله متأخرو النحاة ممن سلك طريق المعتزلة والجهمية يوضحه.

الوجه الثاني أن الذين قالوا ذلك لم يقولوه نقلاً، فإنه مجاهرة بالكذب؛ وإنما قالوه استنباطًا وحملًا منهم للفظة استوىٰ، علىٰ استولىٰ، واستدلوا بقول الشاعر:

قد استوىٰ بشر علىٰ العراق ... من غير سيف أو دم مهراق[1]

وهذا البيت ليس من شعر العرب كما سيأتي بيانه.

---

(١) ذكره ابن حجر في الفتح (١٣/ ٤٠٥) والعيني في عمدة القاري (٢٥/ ١١١) وابن منظور في اللسان (١٤/ ٤١٤) والرازي في مختار الصحاح (ص ١٣٦). وذكره أيضًا المرزوقي في الأزمنة والأمكنة (١/ ٥٤) واليافعي في مرآة الجنان وعبرة اليقظان (١/ ٣٠٠).

الوجه الثالث: أن أهل اللغة لما سمعوا ذلك أنكروه غاية الإنكار، ولم يجعلوه من لغة العرب، قال ابن الأعرابي، وقد سئل: هل يصح أن يكون استوىٰ بمعنىٰ استولىٰ؟ فقال: لا تعرف العرب ذلك، وهذا هو من أكابر أئمة اللغة.

الوجه الرابع: ما قاله الخطابي في كتابه: شعار الدين. قال: القول في أن الله مستو علىٰ عرشه، ثم ذكر الأدلة في القرآن، ثم قال: فدل ما تلوته من هذه الآي: أن الله تعالىٰ في السماء مستو علىٰ العرش. وقد جرت عادة المسلمين خاصهم وعامهم بأن يدعوا ربهم عند الابتهال والرغبة إليه، ويرفعوا أيديهم إلىٰ السماء؛ وذلك لاستفاضة العلم عندهم بأن المدعو في السماء سبحانه[(١)].

...[(٢)]الوجه الخامس والعشرون: أنه لو كان الاستواء بمعنىٰ الملك والقهر؛ لجاز أن يقال: استوىٰ علىٰ ابن آدم، وعلىٰ الجبل، وعلىٰ الشمس والقمر، وعلىٰ البحر والشجر والدواب، وهذا لا يطلقه مسلم.

فإن قيل: هذا جائز وإنما خصص العرش بالذكر؛ لأنه أجل المخلوقات وأرفعها وأوسعها، فتخصيصه بالذكر تنبيه علىٰ ما دونه.

قيل: لو كان هذا صحيحًا لم يكن ذكر الخاص منافيًا لذكر العام، ألا ترىٰ أن ربوبيته لما كانت عامة للأشياء لم يكن تخصيص العرش بذكره منها، كقوله: ﴿ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [المؤمنون: ٨٦] مانعًا من تعميم إضافتها كقوله: ﴿ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤] فلو كان الاستواء بمعنىٰ الملك والقهر؛ لكان لم يمنع إضافته إلىٰ العرش إضافته إلىٰ كل ما سواه، وهذا في غاية الظهور.

الوجه السادس والعشرون: أنه إذا فسر الاستواء بالغلبة والقهر؛ عاد معنىٰ هذه الآيات كلها إلىٰ أن الله تعالىٰ أعلم عباده بأنه خلق السموات والأرض، ثم غلب

---

(١) استمر المؤلف في سردها في المختصر لمن أرادها، وسنذكر منها ما سيمر بك قريبًا، هدىٰ الله الجميع إلىٰ الصراط المستقيم. (ج).

(٢) ١٤٠ مختصر الصواعق جـ٢.

العرش بعد ذلك وقهره وحكم عليه، أفلا يستحي من الله من في قلبه أدنى وقار لله ولكلامه أن ينسب ذلك إليه وأنه أراده بقوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥] أي: اعلموا يا عبادي أني بعد فراغي من خلق السموات والأرض غلبت عرشي وقهرته واستوليت عليه.

الوجه السابع والعشرون: أن أعلم الخلق به قد أطلق عليه أنه فوق عرشه، كما في حديث ابن عباس ﷺ: «**الله فوق العرش**»(١) وفي حديث عبد الله بن رواحة ﷺ، الذي صححه ابن عبد البر وغيره.

وأن العـــرش فـــوق المـــاء طـــاف   وفـــوق العـــرش رب العالمينـــا(٢)

وهذه الفوقية هي تفسير الاستواء المذكور في القرآن والسنة.

والجهمية يجعلون كونه فوق العرش بمعنى أنه خير من العرش وأفضل منه، كما يقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم، والمعنى عندهم: أنه أعلم الأمة بأن الله خير وأفضل من العرش.

فيا للعقول أين في لغة العرب حقيقة أو مجازًا أو كناية واستعارة بعيدة أن يقال: استوى على كذا إذا كان أعظم منه قدرًا وأفضل، هذا من لغة الطماطم، لا من لغة القوم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، وكتاب الله لا يحتمل هذا التأويل الباطل الذي تنفر عنه العقول...

---

(١) لم أجده من قول ابن عباس رضي الله عنهما، ولكن ذكره ابن عبد البر في الاستذكار من قول عبد الله بن مسعود ﷺ (٢/ ٥٢٩) وفي التمهيد (٧/ ١٣٩).

(٢) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان أحد النقباء الاثني عشر، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق والحديبية، استخلفه النبي ﷺ على المدينة في إحدى غزواته، وكان أحد الأمراء في وقعة مؤتة واستشهد بها ﷺ سنة ٨هـ. ذكر البيت ابن قدامة المقدسي في إثبات صفة العلو (ص ٩٩) وأشار إلى تصحيح ابن عبد البر. وفي المغني (٩/ ٣١٤) وابن أبي الدنيا في الإشراف في منازل الأشراف (رقم ٢٣٩) وفي كتاب العيال (رقم ٥٧٢) والذهبي في السير (١/ ٢٣٨) وابن عساكر في تاريخه (٢٨/ ١١٢) وابن منظور في اللسان (٧/ ١٨٣).

...[١]الوجه الثلاثون: أن الاستيلاء الذي فسروا به الاستواء:

إما أن يراد به الخلق أو القهر أو الغلبة أو الملك أو القدرة عليه، ولا يصح أن يكون شيء منها مرادًا.

أما الخلق فلأنه يتضمن أن يكون خلقه بعد خلق السموات والأرض، وهذا بخلاف إجماع الأمة، وخلاف ما دلَّ عليه القرآن والسنة، وإن ادَّعىٰ بعض الجهمية المتأخرين: أنه خلق بعد خلق السماوات والأرض، وادَّعىٰ الإجماع علىٰ ذلك.

وليس العجب من جهله؛ بل من إقدامه علىٰ حكاية الإجماع علىٰ ما لم يقله مسلم، ولا يصح أن يراد به بقية المعاني للوجوه التي ذكرناها وغيرها، فلا يجوز تفسير الآية به، ولهذا لم يقله عالم من علماء السلف؛ بل صرَّحوا بخلافه، كما قال أبو العالية: علا وارتفع، وقال مجاهد: استقر، وقال مالك: الاستواء معلوم. وقال يزيد بن هارون: من زعم أن الرحمن فوق العرش استوىٰ، علىٰ خلاف ما يقر في قلوب العامة فهو جهمي، وقد تقدم حكاية قول من قال: استوىٰ بذاته، واستوىٰ حقيقة، فأوجدونا عمن يقتدىٰ بقوله في تفسير، أو عن رجل واحد من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم، أو عن إمام له في الأمة لسان صدق أنه فسر اللفظ باستولىٰ، ولن تجدوا إلىٰ ذلك سبيلًا...

...[٢]وقد صرَّح أئمة العربية: بأن الشيء إنما يجوز حذفه؛ إذا كان الموضع الذي ادعىٰ فيه حذفه قد استعمل فيه ثبوته أكثر من حذفه، فلابد أن يكون موضع ادِّعاه الحذف قد استعمل فيه ثبوته أكثر من حذفه، حتىٰ إذا جاء ذلك محذوفًا في موضع علم بكثرة ذكره في نظائره أنه قد أزيل في هذا الموضع فحمل عليه، فهذا شأن من يقصد البيان، وأما من يقصد التلبيس والتعمية فله شأن آخر.

مثال ذلك قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يونس: ٣]، في جميع موارده من أولها إلىٰ آخرها علىٰ هذا اللفظ، فتأويله باستولىٰ باطل،

---

(١) ١٤٣ الصواعق جـ٢.

(٢) مختصر الصواعق جـ١.

وإنما يصح أن لو كان أكثر مجيئه بلفظ: استولى. ثم يخرج موضع عن نظائره ويرد بلفظ استوى، فهذا كان يصح تأويله باستولى، فتفطن لهذا الموضع، واجعله قاعدة فيما يمتنع تأويله من كلام المتكلم، ويجوز تأويله.

ونظير هذا اطِّراد النصوص بالنظر إلى الله تعالى هكذا: «ترون ربكم»، «تنظرون إلى ربكم»، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٣] ولم يجئ في موضع واحد: ترون ثواب ربكم، فيحمل عليه ما خرج عن نظائره.

ونظير ذلك اطِّراد قوله: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ ﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿ يُنَادِيهِمْ ﴾ [القصص: ٦٢، ٦٥]، ﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ ﴾ [النازعات: ١٦] ونظائرها، ولم يجئ في موضع واحد: أمرنا من يناديهم، ولا: ناداه ملك، فتأويله بذلك عين المحال.

ونظير ذلك قوله ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول»(١) في نحو ثلاثين حديثًا. كلها مصرحة بإضافة النزول إلى الرب تعالى. ولم يجئ موضع واحد بقوله: ينزل ملك ربنا، حتى يحمل ما خرج عن نظائره عليه.

وإذا تأملت نصوص الصفات التي لا تسمح الجهمية بتسميتها نصوصًا، وإذا احترموها قالوا: ظواهر سمعية، وقد عارضها القواطع العقلية، وجدتها كلها من هذا الباب. و مما يقضي منه العجب أن كلام شيوخهم وتصنيفهم عندهم نص في مرادهم، لا يحتمل التأويل، وكلام الموافقين عندهم نص لا يجوز تأويله، حتى إذا جاءوا إلى كلام الله ورسوله وقفوه على التأويل...

***

﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١١٤٥) ومسلم (رقم ٧٥٨) وانظر: شرح النووي (٦/ ٣٦).

(١)هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء: دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة، ويرادبه مجموعهما، وهما متلازمان، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي، وطلب كشف ما يضره أو دفعه، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا، والمعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضرر.

ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعا، وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ [يونس: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [المائدة: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ [الشعراء: ٦٩، ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٥].

فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدي، فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم. وهذا في القرآن كثير، بيد أن المعبود لابد أن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعى خوفًا ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل

---

(١) ٢ بدائع جـ٣.

دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية. قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني. والقولان متلازمان، وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما، أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعمال له في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعا، فتأمله، فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له.

وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعدا هي من هذا القبيل، ومثال ذلك قوله: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ [الإسراء: ٧٨] فسر الدلوك بالزوال وفسر بالغروب، وحكيا قولين في كتب التفسير وليسا بقولين، بل اللفظ يتناولهما معا، فإن الدلوك هو الميل، ودلوك الشمس ميلها، ولهذا الميل مبدأ ومنتهى، فمبدأه الزوال ومنتهاه الغروب، فاللفظ متناول لهما بهذا الاعتبار، لا بتناول المشترك لمعنييه ولا اللفظ لحقيقته ومجازه.

ومثاله أيضا ما تقدم من تفسير الغاسق بالليل والقمر، وأن ذلك ليس باختلاف، بل يتناولهما لتلازمهما، فإن القمر آية الليل ونظائره كثيرة.

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧]. قيل: لولا دعاؤكم إياه، وقيل دعاؤه إياكم إلى عبادته، فيكون المصدر مضافا إلى المفعول، وعلى الأول مضافا إلى الفاعل، وهو الأرجح من القولين، وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء، وهو في دعاء العبادة أظهر، أي ما يعبأ بكم ربي لولا أنكم تعبدونه، وعبادته تستلزم مسألته، فالنوعان داخلان فيه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ فالدعاء يتضمن النوعين، وهو في دعاء العبادة أظهر، ولهذا عقبه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ

عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر: ٦٠] فسر الدعاء في الآية بهذا وهذا.

وقد روىٰ سفيان عن منصور عن ذر[1] عن يسيع الكندي عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر: «**إن الدعاء هو العبادة**»، ثم قرأ: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[2] رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. وأما قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ﴾ [الحج: ٧٣]، وقوله: ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ [النساء: ١١٧] وقوله: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾ [فصلت: ٤٨] وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وآلهتهم، فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة، فهو في دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة:

أحدها: أنهم قالوا: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم هو عبادتهم لهم.

الثاني: أن الله تعالىٰ فسر هذا الدعاء في مواضع أخرىٰ بأنه العبادة كقوله: ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣]، وقوله: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾[الأنبياء: ٩٨]، وقوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الكافرون: ١، ٢] وهو كثير في القرآن، فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم لها.

الثالث: أنهم إنما كانوا يعبدونها ويتقربون بها إلى الله، فإذا جاءتهم الحاجات والكربات والشدائد دعوا الله وحده وتركوها، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة، وقوله تعالىٰ:

---

(١) هكذا بالنسخة، وفي تفسير البغوي، عن أبي ذر. (ج).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٤٧، ٣٣٧٢) والطبراني في الدعاء (١/ ٢٢ رقم١).

﴿ فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [غافر: ١٤] هو دعاء العبادة، والمعنى: اعبدوه وحده، وأخلصوا عبادته لا تعبدوا معه غيره. وأما قول إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩] فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام، لأنه سميع لكل مسموع، وإذا كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب، وسمع الرب تبارك وتعالى له إثابته على الثناء وأجابته للطلب، فهو سميع لهذا وهذا.

وأما قول زكريا: ﴿ وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤] فقد قيل: إنه دعاء المسألة؛ والمعنى إنك عودتني أجابتك وإسعافك، ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه، كما حكى أن رجلًا سأل رجلًا وقال: أنا الذي أحسنت إليَّ وقت كذا وكذا، فقال: مرحبًا بمن توسل إلينا بنا. وقضى حاجته، وهذا ظاهر ههنا، ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد، وجعله وسيلة إلى ربه فطلب منه أن يجاريه على عادته التي عوّده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله.

وأما قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فهذا الدعاء المشهور، وأنه دعاء المسألة، وهو سبب النزول، قالوا: كان النبي ﷺ يدعوا ربه، فيقول مرة: «يا الله» ومرة: «يا رحمن» فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعوا إلهين، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال ابن عباس: سمع المشركون النبي ﷺ يدعو في سجوده: «يا رحمن، يا رحيم»، فقالوا: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا وهو يدعو مثنى مثنى. فأنزل الله هذه الآية: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾. وقيل: إن الدعاء ههنا بمعنى التسمية كقولهم: دعوت ولدي سعيدًا، وادعه بعبد الله ونحوه. والمعنى: سموا الله أو سموا الرحمن، فالدعاء ههنا بمعنى التسمية، وهذا قول الزمخشري، والذي حمله على هذا قوله: ﴿ أَيًّا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ﴾ فإن المراد بتعدده معني أي وعمومها ههنا تعدد الأسماء ليس إلا.

والمعنى: أي اسم سميتموه به من أسماء الله تعالى: إما الله إما الرحمن، فله الأسماء الحسنى، أي فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى، والضمير في (له) يعود إلى المسمى، فهذا الذي أوجب له أن يحمل الدعاء في هذه الآية على التسمية، وهذا الذي قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء في الآية، وليس هو عين المراد بل المراد، بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن، وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء، ولكنه متضمن معنى التسمية، فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب، بل التسمية الواقعة في دعاء الثناء والطلب، فعلى هذا المعنى يصح أن يكون في ﴿تَدۡعُواْ﴾ معنى تسموا فتأمله.

والمعنى أيًّا ما تسموا في ثنائكم ودعائكم وسؤالكم، والله أعلم.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨] فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنى: إنا كنا من قبل نخلص له العبادة، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره، فإن الله سبحانه يسأله من في السموات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب.

وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗا﴾ [الكهف: ١٤] أي لن نعبد غيره.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥].

وأما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤] فهذا من دعاء المسألة يبكتهم الله ﷻ ويخزيهم يوم القيامة بإراءتهم أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم، وليس المراد: اعبدوهم. وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾ [الكهف: ٥٢] وهذا التقرير نافع في مسألة الصلاة، وأنها هل نقلت عن

مسماها في اللغة، فصارت حقيقة شرعية منقولة، أو استعملت في هذه العبادة مجازًا، للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوي، أو هي باقية على الوضع اللغوي، وضم إليها أركان وشرائط؟ وعلى ما قررناه ولا حاجة إلى شيء من ذلك. فإن المصلي من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك من دعاء: إما دعاء عبادة وثناء أو دعاء طلب ومسألة، وهو في الحالين داع، فما خرجت الصلاة عن حقيقة الدعاء فتأمله. إذا عرفت هذا فقوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً ﴾ [الأعراف: ٥٥] فإنه يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً ﴾، وأن الله تعالى ذكر عبدا صالحا ورضي بفعله، فقال: ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴾ [مريم: ٣].

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله تعالى يسمع دعاءه الخفي وليس كالذي قال: إن الله يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا(١).

ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات، وإنما تخفض عندهم الأصوات، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه، ومن رفع وصوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى، فإذا كان يسمع الدعاء الخفي، فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

(١) فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي، كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ ﴾ [فصلت: ٢٢] الآية. أخرجه البخاري (رقم ٤٨١٧)، ومسلم (رقم ٢٧٧٥).

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع، الذي هو روح الدعاء ولبه ومقصوده، فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلت جوارحه، وخشع صوته، حتى إنه ليكاد تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه، فلا يطاوله بالنطق، فقلبه سائل طالب مبتهل، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلًا.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعية القلب على الله تعالى في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته، فكلما خفض صوته كان أبلغ في صمده وتجريد همته وقصده للمدعو ﷻ.

سادسها: وهو من النكت السرية البديعة جدًّا: أنه دال على قرب صاحبه من الله، وأنه لاقترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شيء إليه، فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب، لا مسألة نداء البعيد للبعيد؛ ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله: ﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾، فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب وتصور ذلك، أخفى دعاءه ما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسا له يسمع خفي كلامه، فبالغ في رفع الصوت استهجن ذلك منه، ولله المثل الأعلى سبحانه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح، لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير، وهم معه في السفر، فقال: «**اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصما ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته**»(١) وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. وقد جاء أن سبب نزولها: أن الصحابة قالوا: يا رسول الله ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٩٢) ومسلم (رقم ٢٧٠٤) وانظر: عمدة القاري (٢٣/ ١٢).

أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[١]، وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة في الدعاء، لا للنداء الذي هو رفع الصوت، فإنهم عن هذا سألوا، فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب، لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء، وإنما يسأل مسألة القريب المناجي، لا مسألة البعيد المنادي، وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قربا عاما من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابده، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد[٢]. وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة، الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه، بل هو قرب خاص من الداعي والعابد.

كما قال النبي ﷺ راويًا عن ربه تبارك وتعالى: **«من تقرَّب مني شبرًا تقرَّبت منه ذراعًا، ومن تقرَّب مني ذراعًا تقربت منه باعًا»**[٣] رواه البخاري ومسلم، فهذا قربه من عابده.

وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾، وقوله: ﴿ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب.

وأما قربة تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر وبناء آخر، وشأن آخر كما قد ذكرناه في كتاب (التحفة المكية)[٤] على أن العبارة تنبو عنه، ولا تحصل في القلب حقيقة معناه أبدًا، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها يكون تصديق العبد بهذا القرب.

وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية، أو يقع في قلبك غير معناها ومرادها،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣١٤ رقم ١٦٦٧) وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٣٥ رقم ٢٢).

(٢) فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»** أخرجه مسلم (رقم ٤٨٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٠٠) وشرح النووي (٤/ ٢٠٠- ٢٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٥) ومسلم (رقم ٢٦٧٥) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٨٤) والديباج على مسلم (٦/ ٤٤).

(٤) المؤلف يطلق التحفة المكية على مفتاح دار السعادة وعلى روضة المحبين انظر ص ٤٧ من المفتاح. (ج).

فتزل قدم بعد ثبوتها، وقد ضعف تمييز خلائق في هذا المقام وساء تعبيرهم، فوقعوا في أنواع من الطامات والشطح.

وقابلهم من غلظ حجابه، فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوف، فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا، وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء في كتاب التحفة أكثر من مائة طريق[1]. والمقصود ههنا الكلام علي هذه الآية.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته، فإنه قد يكل لسانه، وتضعف بعض قواه، وهذا نظير من يقرأ ويكرر رافعا صوته، فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد، فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والباطولية والخبيثة من الجن والأنس، فشوشت عليه ولا بد، ومانعته وعارضته، ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته، فيضعف أثر الدعاء لكفى، ومن له تجربة يعرف، هذا فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة.

تاسعها: إن أعظم النعم: الإقبال على الله، والتعبد له، والانقطاع إليه، والتبتل إليه، ولكل نعمة حاسد على قدرها دقت أو جلت، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة، فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد، وأن لا يقصد إظهارها له. وقد قال يعقوب ليوسف: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيار، فأصبح يقلب كفيه، ولهذا يوصي العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله،

---

(١) هذه الإحالة تنطبق على روضة المحبين (ج).

وأن لا يطلعوا عليه أحدًا، ويتكتمون به غاية التكتم، كما أنشد بعضهم في ذلك:

مــن ســارروه فأبــدي الــسر مجتهــدا لم يــأمنوه علــى الأســرار مــا عاشــا
وأبعــدوه فلــم يظفــر بقــربهم وأبــدلوه مكــان الأنــس إيحاشــا
لا يــأمنون مــذيعا بعــض ســرهم حاشــا ودادهــم مــن ذلكــم حاشــا[1]

والقوم أعظم شيء كتمانًا لأحوالهم مع الله، وما وهب الله لهم من محبته والأنس به وجمعية القلب عليه، ولاسيما للمبتدئ والسالك، فإذا تمكن أحدهم وقوي وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه بحيث لا يخشي عليه من العواصف، فإنه إذا أبدىٰ حاله وشأنه مع الله ليُقتدىٰ به ويؤتم به لم يبال، وهذا باب عظيم النفع، وإنما يعرفه أهله. وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال علىٰ الله، فهو من أعظم الكنوز، التي هي أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين، وهذه فائدة شريفة نافعة.

عاشرها: أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب، كما قال النبي ﷺ: «**أفضل الدعاء: الحمد لله**»[2]. فسمىٰ الحمد لله دعاء، وهو ثناء محض، لأن الحمد يتضمن الحب والثناء. والحب أعلىٰ أنواع الطلب للمحبوب، فالحامد طالب

(١) هذه الأبيات من بحر البسيط، وذكر الأبيات الثلاثة ابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ٣٢٤) مع اختلاف يسير ففيه: من شاوروه، وباعدوه فلم يسعد بقربهم: وأبدلوه من الإيناس إيحاشًا. لا يصطفون مذيعًا. بينما جاء عن الحلاج الحسين بن منصور الصوفي المشهور المقتول سنة ٣٠٩هـ بسبب زندقته وإلحاده، أنه قال شعرًا قريبًا من هذا:

من سارروه فأبدىٰ كل ما سروا ولم يــراعِ اتصالًا كان غشاشا
وعاقبوه علىٰ مــا كان مــن زللٍ وأبدلــوه مكان الإنس إيحاشا
لا يصطفون متذيعًا في مجالسهم حاشا جلالهم من ذلكــم حاشا

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٨٣) والحاكم (١/ ٦٧٦ رقم ١٨٣٤) وابن حبان (٣/ ١٢٦ رقم ٨٤٦) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٢٠٨ رقم ١٠٦٦٧) وابن ماجه (رقم ٣٨٠٠) وصححه الحاكم وحسنه الترمذي. وانظر: تحفة الأحوذي (٩/ ٢٢٩) وفيض القدير (٢/ ٣٤).

لمحبوبه، فهو أحق أن يسمىٰ داعيًا من السائل الطالب من ربه حاجة ما. فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلىٰ ما قيل: إن الذاكر متعرض للنوال، وإن لم يكن مصرحًا بالسؤال، فهو داع بما تضمنه ثناؤه من التعرض، كما قال أمية بن أبي الصلت:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حباؤك إن شيمتك الحباء
إذا أثنىٰ عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء[1]

وعلىٰ هذه الطريقة التي ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب، وهو طلب المحب فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمىٰ دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه.

والمقصود: أن كل واحد من الدعاء والذكر؛ يتضمن الآخر ويدخل فيه. وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فأمر تعالىٰ نبيه أن يذكره في نفسه، قال مجاهد وابن جريج: أمر أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح. وقد تقدم حديث أبي موسىٰ: كنا مع النبي ﷺ في سفر فارتفعت أصواتنا بالتكبير، فقال: «**يا أيها الناس، أربعوا علىٰ أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمًّا ولا غائبا، إنما تدعون سميعًا قريبًا، أقرب إلىٰ أحدكم من عنق راحلته**»[2] رواه البخاري ومسلم.

---

(١) هذان البيتان من بحر الوافر، وينسبان إلىٰ أمية بن أبي الصلت الثقفي، الشاعر الجاهلي، كان يلبس المسوح تعبدًا، وحرّم علىٰ نفسه الخمر ونبذ عبادة الأوثان، سمع من النبي ﷺ آيات من القرآن، وسألته قريش عن رأيه، فقال: أشهد أنه علىٰ الحق. فقالوا: هل تتبعه؟ فقال: حتىٰ أنظر في أمره. ولما علم بمقتل بعض أقاربه في وقعة بدر منعه من دخول الإسلام، مات سنة٥هـ. وقال عنه رسول الله ﷺ: «**وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم**» أخرجه البخاري (رقم ٣٨٤١) ومسلم (رقم ٢٢٥٦) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٥٣). ذكرهما البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٤١٤ رقم ٥٧٥) والمناوي في فيض القدير (٥/ ١٢٠). وابن عبد البر في بهجة المجالس (١/ ٤٣٣) (٢/ ٨١٩). وجاء البيت الأول: حياؤك ... الحياء. بالياء آخر الحروف.

(٢) تقدم قريبًا.

وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾.

وفي آية الدعاء: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾، فذكر التضرع فيهما معًا، وهو التذلل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرنا من الحكم وغيرها، وخص الذكر بالخيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولابد، فمن أكثر من ذكر الله تعالى أثمر له ذلك محبته.

والمحبة ما لم تقرن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها، بل قد تضره، لأنها توجب الإدلال والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل.

ولقد حدثني رجل: أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوة له، ترك فيها حضور الجمعة، فقال له الشيخ: أليس الفقهاء يقولون: إذا خاف على شيء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه؟ فقال له: بلى، فقال له: فقلب المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم أو كما قال، وهو إذا خرج ضاع قلبه، فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة في حقه، فقال له: هذا غرور، بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله، وحفظ قلبه مع الله. فالشيخ المربي العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر، ويراعي حفظ قلبه، أو كما قال.

فتأمل هذا الغرور العظيم، كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة، فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام: كانسلاخ الحية من قشرها، وهو يظن أنه من خاصة الخاصة، وسبب هذا اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته.

ولهذا قال بعض السلف: من عبد الله تعالى بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن[١].

(١) ذكر هذا الأثر الحافظ ابن رجب في التخويف من النار (ص ١٧).

وقد جمع الله تعالى هذه المقامات الثلاثة بقوله: ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧] فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف، فهذه طريقة عباده وأوليائه، وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات، ويقول: المحب لا يضره ذنب.

وصنف بعضهم في ذلك مصنفًا، وذكر فيه أثرا مكذوبًا: إذا أحب الله العبد لم تضره الذنوب. وهذا كذب قطعا مناف للإسلام، فالذنوب تضر بالذات لكل أحد كضرر السم للبدن.

ولو قدر أن هذا الكلام صح عن بعض الشيوخ؛ وأما عن رسول الله ﷺ، فمعاذ الله من ذلك، فله محمل، وهو أنه إذا أحبه لم يدعه حبه إياه إلى أن يصر على ذنب، لأن الإصرار على الذنب مناف لكونه محبا لله، وإذا لم يصر على الذنب بل بادر إلى التوبة النصوح منه، فإنه يمحو أثره، ولا يضره الذنب، وكلما أذنب وتاب إلى الله زال عنه أثر الذنب وضرره، فهذا المعنى صحيح.

والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق، ورده إليها كلما شرد، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته، لئلا تخرج عن الدرب، والرجاء حاد يحدوها يطيب لها السير، والحب قائدها وزمامها الذي يسوقها، فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق، وتركت تركب التعاسيف، خرجت عن الطريق وضلت عنها، فما حفظت حدود الله ومحارمه، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادًا لا يرجى صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسبه.

فتأمل أسرار القرآن الكريم وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء، ومع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضًا، فإنه قال: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي

نَفْسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فلم يحتج بعدها أن يقول: (خفية) وقال في الدعاء: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] فلم يحتج أن يقول في الأول: ادعوا ربكم تضرعا وخيفة، فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخيفة والخفية والتضرع أحسن انتظام، ودلت على ذلك أكمل دلالة. وذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء، لأن الدعاء مبني عليه، فإن الداعي ما لم يطمع في سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبة، إذ طلب ما لا طمع فيه ممتنع. وذكر الخوف في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه، كما تقدم، فذكر في كل آية ما هو اللائق بها، والأولى بها من الخوف والطمع.

فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما في الصدور وهدىً ورحمةً للمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] قيل: المراد أنه لا يحب المعتدين في الدعاء: كالذي يسأل ما لا يليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك.

وقد روى أبو داود في سننه من حديث حماد بن سلمة عن سعيد الجريري عن أبي نعامة أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني سل الله الجنة، وتعوّذ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه سيكون في هذه الأمة قوم يعتدون في الطهور والدعاء**»[1]. وعلى هذا فالاعتداءفي الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات، وتارة بأن يسأل ما لا يفعله الله، مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلى الطعام والشراب، أو يسأله أن يطلعه على غيبه، أو يسأله أن يجعله من المعصومين، أو يسأله أن يهب له ولدا من غير زوجة ولا أمة، ونحو ذلك مما سؤاله اعتداء.

فكل سؤال يناقض حكمة الله، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٩٦) وابن حبان (١٥/ ١٦٦ رقم ٦٧٦٣) والحاكم (١/ ٧٢٤ رقم ١٩٧٩) وابن ماجه (رقم ٣٨٦٤) وأحمد (٤/ ٨٧) (٥/ ٥٥) والروياني (٢/ ٩٨ رقم ٨٩٧) والطبراني في الدعاء (رقم ٥٩) وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ١٧) وصححه الحاكم، وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٩٨).

أخبر به، فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله. وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضًا في الدعاء، قال ابن جريج: من الاعتداء رفع الصوت في الدعاء والنداء في الدعاء والصياح.

وبعد فالآية أعم من ذلك كله، وإن كان الاعتداء في الدعاء مرادا بها، فهو من جملة المراد، والله لا يحب المعتدين في كل شيء: دعاء كان أو غيره، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته، وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان، وهم الذين يدعون معه غيره، فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانا، فإن أعظم العدوان الشرك، وهو وضع العبادة في غير موضعها، فهذا العدوان لا بد أن يكون داخلا في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

ومن العدوان أن يدعوه غير متضرع؛ بل دعاء مدل: كالمستغني بما عنده المدل على ربه به، وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة في مجموع حالاته، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف؛ فهو معتد.

ومن الاعتداء أن تعبده بما لم يشرعه، وتثني عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه، فإن هذا اعتداء في دعاء الثناء والعبادة، وهو نظير الاعتداء في دعاء المسألة والطلب، وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين:

أحدهما: محبوب للرب تبارك وتعالى مرض له، وهو الدعاء تضرعا وخفية.

الثاني: مكروه له مبغوض مسخوط، وهو الاعتداء، فأمر بما يحبه الله وندب إليه، وحذر مما يبغضه، وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير، وهو أنه لا يحب فاعله، ومن لم يحبه الله فأي خير يناله.

وفي قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ عقب قوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعًا وخفيةً فهو من المعتدين، الذين لا يحبهم. فقسمت الآية الناس إلى قسمين: داع لله تضرعاً وخفية، ومعتد بترك ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] قال أكثر

المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره.

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] وقال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض، فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم، وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر، فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم، وتقول: اللهم العنهم[(١)] فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر.

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والأتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة، فإن الله أصلح الأرض: برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تدبَّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله.

ومن تدبَّر هذا حق التدبر وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي حق غيره عموما وخصوصًا، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) أخرجه الصنعاني في تفسيره عن مجاهد (١/ ٥٧) والطبري في تفسيره (٢/ ٥٤- ٥٥) وسعيد بن منصور في سننه (٢/ ٦٣٨ رقم ٢٣٦) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ١٨٨) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٠١).

وقوله تعالى: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكره معه من الخوف والطمع، فأمر أولًا بدعائه تضرعًا وخفية، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضًا خوفًا وطمعًا، وفصل بين الجملتين إحداهما خبرية ومتضمنة للنهي، وهي قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾، والثانية طلبية وهي قوله: ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴾، والجملتان مقررتان مقويتان للجملة الأولى، مؤكدتان لمضمونها. ثم لما تم تقريرها وبيان ما يضادها ويناقضها أمر بدعائه خوفًا وطمعًا.

ثم قرر ذلك وأكد مضمونه بجملة خبرية، وهي ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فتعلق هذه الجملة بقوله: وادعواه خوفا وطمعا، كتعلق قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ بقوله: ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾.

ولما كان قوله تعالى: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ مشتملًا على جميع مقامات الإيمان والإحسان، وهي الحب والخوف والرجاء عقبها بقوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي إنما ينال من دعاة خوفا وطمعا، فهو المحسن والرحمة قريب منه، لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.

ولما كان دعاء التضرع والخفية يقابله الاعتداء بعدم التضرع والخفية عقب ذلك بقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

وانتصاب قوله: ﴿ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ و﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ قيل: هو على الحال، أي ادعوه متضرعين مخفين، خائفين طامعين. وهذا هو الذي رجحه السهيلي وغيره.

وقيل: هو نصب على المفعول له، وهذا قول كثير من النحاة.

وقيل: هو نصب على المصدر، وفيه على هذا تقديران:

أحدهما: أنه منصوب بفعل مقدر من لفظ المصدر، والمعنى: تضرعوا إليه تضرعا، واخفوا خفية.

الثاني: أنه منصوب بالفعل المذكور نفسه، لأنه في معنى المصدر، فإن الداعي

متضرع طامع في حصول مطلوبه، خائف من فواته، فكأنه قال تضرعًا تضرعًا.

والصحيح في هذا أنه: منصوب على الحال، والمعنى عليه، فإن المعنى: ادعوا ربكم متضرعين إليه خائفين طامعين، ويكون وقوع المصدر موقع الاسم على حد قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٧٧] وقولهم: رجل عدل ورجل صوم قال الشاعر: فإنما هي إقبال وإدبار[(١)].

وهو أحسن من أن يقال: ادعوه متضرعين خائفين وأبلغ.

والذي حسنه أن المأمور به هنا شيئان: الدعاء الموصوف المقيد بصفة معينة، وهي صفة التضرع والخوف والطمع، فالمقصود تقييد المأمور به بتلك الصفة، وتقييد الموصوف الذي هو صاحبها بها، فأتى بالحال على لفظ المصدر لصلاحيته، لأن يكون صفة للفاعل وصفة للفعل المأمور به.

فتأمل هذه النكتة فإنك إذا قلت: اذكر ربك تضرعا. فإنك تريد اذكره متضرعا إليه، واذكره ذكر تضرع، فأنت مريد للأمرين معا، ولذلك إذا قلت: ادعه طمعا أي ادعه دعاء طمع، وادعه طامعا في فضله.

وكذلك إذا قلت: ادعه رغبة ورهبة كقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ [الأنبياء: ٩٠] كان المراد: ادعه راغبًا وراهبًا، وادعه دعاء رغبة ورهبة.

فتأمل هذا الباب تجده كذلك، فأتى فيه بالمصدر الدال على وصف المأمور به

---

(١) هذا عجز بيت من بحر البسيط، وصدره: ترتع ما رتعت حتى إذا ادَّكرت. وينسب إلى الخنساء: تماضر بنت عمرو بن الحارث السلمية، أشهر شواعر العرب، بل أشعرهن على الإطلاق، وفدت على رسول الله ﷺ وأسلمت، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها: صخر ومعاوية، وكانا قد قتلا في الجاهلية، وشهد لها أربعة بنين حرب القادسية وكانت تحرضهم على الشهادة والقتال حتى قتلوا شهداء جميعًا فقالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم. وذكره المرزوقي في الأزمنة والأمكنة (١/ ٢٥) وفي الأمالي (ص٢٦٦) والجاحظ في البرصان والعرجان (ص١٤٥) والمبرد في التعازي والمراثي (ص١٣٢) وابن قتيبة الدينوري في الشعر والشعراء (١/ ٣٧١).

بتلك الصفة، وعلى تقييد الفاعل بها تقييد صاحب الحال بالحال.

ومما يدل على هذا أنك تجد مثل هذا صالحًا وقوعه جوابًا لكيف، فإذا قيل: كيف أدعوه؟ قيل: تضرعًا وخفيةً. وتجد اقتضاء كيف لهذا أشد من اقتضاء (لم). ولو كان مفعولا له لكان جوابا لـ (لم) ولا يحسن هنا: ألا ترى أن المعنى ليس عليه، فإنه لا يصح أن يقال: لم أدعوه؟ فيقول: تضرعًا وخفيةً. وهذا واضح، ولا هو انتصاب على المصدر المبين للنوع الذي لا يتقيد به الفاعل، لما ذكرناه من صلاحيته جوابًا لكيف.

وبالجملة فالمصدرية في هذا الباب لا تنافي الحال، بل الإتيان بالحال ههنا بلفظ المصدر يفيد ما يفيده المصدر مع زيادة فائدة الحال، فهو أتم معنى ولا تنافي بينهما، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فيه تنبيه ظاهر، على أن فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم ومطلوبكم أنتم من الله: هو رحمته، ورحمته قريب من المحسنين، الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفا وطمعا، فقرب مطلوبكم منكم، وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم، وهو الإحسان الذي هو في الحقيقة إحسان إلى أنفسكم، فإن الله تعالى هو الغني الحميد، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم. وقوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ له دلالة بمنطوقه ودلالة بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه. فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان. ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان، فهو السبب في قرب الرحمة منهم. ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين.

فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة. وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم، لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان، لأن الجزاء من جنس العمل[1]، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٢٧٧، ٤٦١) (٤/ ٢٨٤، ٣٢٥) وجامع العلوم والحكم (١/ ١٨٦) وفتح الباري (١٠/ ١٧٧).

يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعدا ببعد وقربا بقرب، فمن تقرب بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه فرحمته أبعد شيء منه.

والإحسان ههنا هو فعل المأمور به، سواء كان إحسانا إلى الناس أو إلى نفسه، فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد والإنابة إلى الله والإقبال عليه والتوكل عليه، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالا ومهابة وحياء ومحبة وخشية، فهذا هو مقام الإحسان، كما قال النبي ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان، فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[1].

وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة الله قريب من صاحبه، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وإنما كتب رحمته لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ، الذين يتبعون رسوله، فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان و﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] يعني هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أن يحسن ربه إليه، قال ابن عباس: هل جزاء من قال: لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة. وقد ذكر ابن أبي شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدي عن أنس بن مالك قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ ثم قال: «**هل تدرون ما قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**يقول هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة**»[2].

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٨) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٠) وشرح النووي (١/ ١٥٧).

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (٤/ ٣٣٧ رقم ٦٩٧٥) وذكره السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٧١٤) وعزاه إلى الحكيم الترمذي والبغوي في تفسيره والديلمي وابن النجار في تاريخه. وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٩).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

(١)أخبر سبحانه أنهما إحياءان، وأن أحدهما معتبر بالآخر مقيس عليه، ثم ذكر قياسا آخر: أن من الأرض ما يكون أرضا طيبة، فإذا أنزلنا عليها الماء أخرجت نباتها بإذن ربها، ومنها ما تكون أرضا خبيثة، لا تخرج نباتها إلا نكدا، أي قليلا غير منتفع به، فهذه إذا أنزل عليها الماء لم تخرج ما أخرجت الأرض الطيبة، فشبه سبحانه الوحي الذي أنزله من السماء على القلوب بالماء الذي أنزله على الأرض بحصول الحياة بهذا وهذا، وشبه القلوب بالأرض إذ هي محل الأعمال، كما أن الأرض محل النبات، وأن القلب الذي لا ينتفع بالوحي ولا يزكو عليه ولا يؤمن به كالأرض التي لا تنتفع بالمطر، ولا تخرج نباتها به إلا قليلًا لا ينفع، وأن القلب الذي آمن بالوحي وزكا عليه وعمل بما فيه: كالأرض التي أخرجت نباتها بالمطر، فالمؤمن إذا سمع القرآن وعقله وتدبَّره بان أثره عليه، فشُبِّه بالبلد الطيب الذي يمرع ويخصب، ويحسن أثر المطر عليه، فينبت من كل زوج كريم. والمعرض عن الوحي عكسه، والله الموفق.

(٢)ويكفي اللبيب موعظةً واستبصارًا ما قصه الله ﷻ عليه في سورة الأعراف في شأن أصحاب الهوى المذموم؛ تحذيرًا واعتبارًا، فبدأ ﷻ بهوى إبليس الحامل له على التكبر عن طاعة الله ﷻ في أمره بالسجود لآدم، فحمله هوى النفس وإعجابه بها على أن عصى أمره وتكبر على طاعته، فكان من أمره ما كان، ثم ذكر سبحانه هوى آدم حين رغب في الخلود في الجنة، وحمله هواه على أن أكل من الشجرة التي نهي عنها، وكان

---

(١) ١٤٠ أعلام جـ١.

(٢) ٢٠٥ روضة المحبين.

الحامل له على ذلك هوى النفس ومحبتها للخلود، فكان عاقبة ذلك الهوى والشهوة إخراجه منها إلى دار التعب والنصب.

وقيل: إنه إنما أكل منها طاعة لحواء، فحمله حبه لها أن أطاعها ودخل في هواها، وإنما توصل إليه عدوه من طريقها، ودخل عليه من بابها، فأول فتنة كانت في هذا العالم بسبب النساء.

ثم ذكر سبحانه فتنة الكفار الذين أشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا، وابتدعوا في دينه ما لم يشرعه، وحرموا زينته التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وتعبدوا له بالفواحش، وزعموا أنه أمرهم بها، واتخذوا الشياطين أولياء من دونه، والحامل لهم على ذلك كله الهوى والحب الفاسد، وعليه حاربوا رسله، وكذبوا كتبه، وبذلوا أنفسهم وأموالهم وأهليهم دونه، حتى خسروا الدنيا والآخرة، ثم ذكر ﷻ قصة قوم نوح، وما أصارهم إليه الهوى من الغرق في الدنيا ودخول النار في الآخرة، ثم ذكر قصة عاد وما أفضى إليه بهم الهوى من الهلاك الفظيع والعقوبة المستمرة، ثم قصة قوم صالح كذلك، ثم قصة العشاق أئمة الفساق وناكحي الذكران وتاركي النسوان، وكيف أخذهم وهم في خوضهم يلعبون، وقطع دابرهم وهم في سكر عشقهم يعمهون، وكيف جمع عليهم من العقوبات ما لم يجمعه على أمة من الأمم أجمعين، وجعلهم سلفا لإخوانهم اللوطية من المتقدمين والمتأخرين، ولما تجرأوا على هذه المعصية ومردوا، ونهجوا لإخوانهم طريقا وقاموا بأمرها وقعدوا ضجت الملائكة إلى الله من ذلك ضجيجا، وعجت الأرض إلى ربها من هذا الأمر عجيجا، وهربت الملائكة إلى أقطار السموات، وشكتهم إلى الله جميع المخلوقات، وهو ﷻ قد حكم أنه لا يأخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم، والتقدم بالوعد والوعيد إليهم، فأرسل إليهم رسوله الكريم، يحذرهم من سوء صنيعهم، وينذرهم عذابه الأليم، فأذن رسول الله ﷺ بالدعوة على رؤوس الملإ منهم والأشهاد، وصاح بها بين أظهرهم في كل حاضر وباد وقال فكان في قوله لهم من أعظم الناصحين: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا

سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، ثم أعاد لهم القول نصحًا وتحذيرًا وهم في سكرة عشقهم لا يعقلون: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، فأجاب العشاق جواب من أركس في هواه وغيه، فقلبه بعشقه مفتون، و﴿قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، فلما أن حان الوقت المعلوم، وجاء ميقات نفوذ القدر المحتوم، أرسل الرحمن تبارك وتعالىٰ لتمام الإنعام والامتحان إلىٰ بيت لوط ملائكة في صورة البشر، وأجمل ما يكون من الصور، وجاءوه في صورة الأضياف النزول بذي الصدر الرحيب، فـ: ﴿سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، وجاء الصريخ إلىٰ اللوطية: أن لوطًا قد نزل به شباب لم ينظر إلىٰ مثل حسنهم وجمالهم الناظرون، ولا رأىٰ مثلهم الراؤون، فنادىٰ اللوطية بعضهم بعضًا: أن هلموا إلىٰ منزل لوط، ففيه قضاء الشهوات، ونيل أكبر اللذات: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ٧٨]، فلما دخلوا إليه وهجموا عليه قال لهم وهو كظيم من الهم والغم، وقلبه بالحزن عميد: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، فلما سمع اللوطية مقاله أجابوه جواب الفاجر المجاهر العنيد: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، فقال لهم لوط مقالة المضطهد الوحيد: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]، فلما رأت رسل الله ما يقاسي نبيه من اللوطية كشفوا له عن حقيقة الحال، وقالوا: هوِّن عليك، ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]، فسُرَّ نبي الله سرور المحب، وافاه الفرج بغتة علىٰ يد الحبيب، وقيل له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، ولما أبوا إلا مراودته عن أضيافه، ولم يرعوا حق الجار، ضرب جبريل بجناحه علىٰ وجوههم، فطمس منهم الأعين،

وأعمى الأبصار، فخرجوا من عنده عميانا يتحسسون، ويقولون: «ستعلم غدا ما يحل بك أيها المجنون»، فلما انشق عمود الصبح جاء النداء من عند رب الأرباب: أن اخسف بالأمة اللوطية، وأذقهم أليم العذاب. فاقتلع القوي الأمين جبريل مدائنهم على ريشة من جناحه، ورفعها في الجو حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قلبها، فجعل عاليها سافلها، وأتبعوا الحجارة من سجيل، وهو الطين المستحجر الشديد، وخوّف سبحانه إخوانهم على لسان رسوله من هذا الوعيد، فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣]، فهذه عاقبة اللوطية عشاق الصور وهم السلف، وإخوانهم بعدهم على الأثر...

...وكذلك قوم شعيب إنما حملهم على بخس المكيال والميزان فرط محبتهم للمال، وغلبهم الهوى على طاعة نبيهم حتى أصابهم العذاب.

وكذلك قوم فرعون حملهم الهوى والشهوة وعشق الرئاسة على تكذيب موسى، حتى آل بهم الأمر إلى ما آل.

وكذلك أهل السبت الذين مسخوا قردة إنما أتوا من جهة محبة الحيتان وشهوة أكلها والحرص عليها.

وكذلك الذي آتاه الرب تبارك وتعالى آياته: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وتأمل قوله تعالى: ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ فأخبر أن ذلك إنما حصل له بإيتاء الرب له لا بتحصيله هو، ثم قال ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾، ولم يقل: فسلخناه بل أضاف الانسلاخ إليه، وعبر عن براءته منها بلفظة الانسلاخ الدالة على تخليه عنها بالكلية، وهذا شأن الكافر، وأما المؤمن ولو عصى الله تبارك وتعالى ما عصاه فإنه لا ينسلخ من الإيمان

بالكلية، ثم قال ﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ولم يقل: فتبعه، فإن في أتبعه إعلاما بأنه أدركه ولحقه، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ [الشعراء: ٦٠] أي لحقوهم ووصلوا إليهم، ثم قال ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ ففي ذلك دليل علىٰ أن مجرد العلم لا يرفع صاحبه، فهذا قد أخبر الله سبحانه أنه آتاه آياته ولم يرفعه بها، فالرفعة بالعلم قدر زائد علىٰ مجرد تعلمه، ثم أخبر الله ﷻ عن السبب الذي منعه أن يرفع بها، فقال: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾، وقوله: ﴿ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي سكن إليها، ونزل بطبعه إليها فكانت نفسه أرضية سفلية لا سماوية علوية، وبحسب ما يخلد العبد إلى الأرض يهبط من السماء.

قال سهل: قسم الله الأعضاء من الهوىٰ، لكل عضو منه حظًّا، فإذا مال عضو منها إلى الهوىٰ رجع ضرره إلى القلب، وللنفس سبع حجب سماوية وسبع حجب أرضية، فكلما دفن العبد نفسه أرضًا أرضًا سما قلبه سماء سماء، فإذا دفن النفس تحت الثرىٰ وصل القلب إلى العرش.

ثم ذكر سبحانه مثل المتبع لهواه كمثل الكلب الذي لا يفارقه اللهث في حالتي تركه والحمل عليه، فهكذا هذا لا يفارقه اللهث علىٰ الدنيا راغبًا وراهبًا.

والمقصود أن هذه السورة من أولها إلى آخرها في ذكر حال أهل الهوىٰ والشهوات، وما آل إليه أمرهم، فالعشق والهوىٰ أصل كل بلية...

***

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

...[1]قوله تعالىٰ إخبارًا عن نبيه شعيب أنه قال لقومه: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ

(١) ٦٤ شفاء العليل.

عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وهذا يبطل تأويل القدرية: المشيئة في مثل ذلك بمعنىٰ: الأمر. فقد علمت أنه من الممتنع علىٰ الله أن يأمر بالدخول في ملة الكفر والشرك به؛ ولكن استثنوا بمشيئته التي يضل بها من يشاء، ويهدي من يشاء.

ثم قال شعيب: ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأعراف: ٨٩] فرد الأمر إلىٰ مشيئته وعلمه، فإن له ـ سبحانه ـ في خلقه علم محيط، ومشيئته نافذة، وراء ما يعلمه الخلائق، فامتناعنا من العود فيها هو مبلغ علومنا ومشيئتنا، ولله علم آخر، ومشيئة أخرىٰ، وراء علومنا ومشيئتنا، فلذلك رد الأمر إليه.

ومثله قول إبراهيم: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠] فأعادت الرسل بكمال معرفتها بالله أمورها إلىٰ مشيئة الرب وعلمه؛ ولهذا أمر الله رسوله أن لا يقول لشيء إنه فاعله حتىٰ يستثني بمشيئة الله، فإنه إن شاء فعله، وإن شاء لم يفعله، وقد تقدَّم تقرير هذا المعنىٰ.

وبالجملة فكل دليل في القرآن علىٰ التوحيد، فهو دليل علىٰ القدر، وخلق أفعال العباد، ولهذا كان إثبات القدر أساس التوحيد. قال ابن عباس: الإيمان بالقدر نظام التوحيد(١)؛ فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده.

(٢)قال نبي الله شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ [الأعراف: ٨٩] أي: نحن لا نعود في ملتكم، ولا نختار ذلك، إلا أن يشاء الله ربنا شيئًا

(١) أخرجه مرفوعًا الطبراني في الأوسط (٤/ ٤٥-٤٦ رقم ٣٥٧٣) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٧): رواه الطبراني في الأوسط وفيه هانئ بن المتوكل وهو ضعيف. وأخرجه موقوفًا اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ١٢٢٤) والعقيلي في الضعفاء (٤/ ١٤٥ رقم ١٧١١) وابن المستفاض في القدر (رقم ٢٠٥). وقال ابن حجر في تهذيب التهذيب (٩/ ٤٠٨ رقم ٧٤٧). وأورد له العقيلي حديثًا رفعه لابن عباس: الإيمان بالقدر نظام التوحيد، فقال العقيلي: والصواب موقوف. وقال الذهبي: هذا لا يقتضي ضعفه.

(٢) ٧٦ أعلام جـ٤.

فينفذ ما شاءه.

وكذلك قال إبراهيم: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأنعام: ٨٠] أي لا يقع بي مخوف من جهة آلهتكم أبدًا، إلا أن يشاء ربي شيئًا فينفذ ما شاءه، فرد الأنبياء ما أخبروا ألا يكون إلى مشيئة الرب تعالى، وإلى علمه استدراكًا واستثناء، أي لا يكون ذلك أبدًا، ولكن إن شاءه الله تعالى كان، فإنه تعالى عالم بما لا نعلمه نحن من الأمور التي تقتضيها حكمته وحده.

***

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

[1]ومن عقوباتها[2] أنها تمحق: بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة. وبالجملة أنها تمحق: بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله، وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ٩٦]. وقال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن: ١٦]. وأن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه[3]، وفي الحديث: «**أن روح القدس نفث في روعي، أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته، وأن الله جعل الروح.**

---

(١) ١١١ الجواب الكافي.

(٢) أي المعاصي والذنوب.

(٣) أخرجه ابن حبان (٣/ ١٥٣ رقم ٨٧٢) وابن ماجه (رقم ٤٠٢٢) وأحمد (٥/ ٢٧٧) والطبراني في الكبير (٢/ ١٠٠ رقم ١٤٤٢) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١١٥ رقم ١٠٠١) والحاكم (١/ ٦٧٠ رقم ١٨١٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه المنذري في ترغيبه (٣/ ٢١٣ رقم ٣٧٣٣)، وحسنه الكناني في مصباح الزجاجة (٤/ ١٨٧ رقم ١٤٢٤).

والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»(١) وقد تقدَّم الأثر الذي ذكره أحمد في كتاب الزهد: «أنا الله إذا رضيت باركت، وليس لبركتي منتهى. وإذا غضبت لعنت ولعنتي تدرك السابع من الولد»(٢).

***

﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

(٣)الجهال بالله وبأسمائه وصفاته المعطلون لحقائقها يُبَغِّضون الله إلى خلقه، ويقطعون عليهم طريق محبته والتودد إليه بطاعته من حيث لا يعلمون.

ونحن نذكر من ذلك أمثلة تحتذى عليها. فمنها: أنهم يقررون في نفوس الضعفاء أن الله سبحانه لا تنفع معه طاعة، وإن طال زمانها وبالغ العبد وأتى بها بظاهره وباطنه. وأن العبد ليس على ثقة ولا أمن من مكره، بل شأنه سبحانه أن يأخذ المطيع المتقي من المحراب إلى الماخور، ومن التوحيد والمسبحة إلى الشرك والمزمار. ويقلب قلبه من الإيمان الخالص إلى الكفر. ويروون في ذلك آثارًا صحيحة لم يفهموها، وباطلة لم يقلها المعصوم، ويزعمون أن هذا حقيقة التوحيد، ويتلون على ذلك قوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ويقيمون إبليس حجة لهم على هذه المعرفة وأنه كان طاووس الملائكة، وأنه لم

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٧٩ رقم ٣٤٣٣٢) وعبد الرزاق في مصنفه (١١/ ١٢٥ رقم ٢٠١٠٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٨٥ رقم ١١٥١) والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٩٩ رقم ١٠٣٧٦) وابن السري في الزهد (١/ ٢٨١ رقم ٤٩٤) وصححه الحاكم وانظر: فتح الباري (١/ ٢٠).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص ٥٢) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٤١- ٤٢). بينما جاء عند ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٥٦٤ رقم ٨٩٦٥): الولد الرابع بدل: السابع. وكذلك عند ابن أبي شيبة (٧/ ١٨٤ رقم ٣٥١٧١).

(٣) ١٥٨ فوائد.

يترك في السماء رقعة، ولا في الأرض بقعة إلا وله فيها سجدة أو ركعة، لكن جنى عليه جاني القدر، وسطا عليه الحكم، فقلب عينه الطيبة، وجعلها أخبث شيء، حتى قال بعض عارفيهم: أنك ينبغي أن تخاف الله كما تخاف الأسد الذي يثب عليك بغير جرم منك ولا ذنب أتيته إليه. ويحتجون بقول النبي ﷺ: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»(١).

...(٢)وهل في التنفير عن الله وتبغيضه إلى عباده أكثر من هذا؟ ولو اجتهد الملاحدة على تبغيض الدين والتنفير عن الله لما أتوا بأكثر من هذا. وصاحب هذه الطريقة يظن أنه يقرر التوحيد والقدر، ويرد على أهل البدع وينصر الدين، ولعمر الله العدو العاقل أقل ضررا من الصديق الجاهل.

وكتب الله المنزلة كلها ورسله كلهم شاهدة بضد ذلك، ولاسيما القرآن، فلو سلك الدعاة المسلك الذي دعا الله ورسوله به الناس لصلح العالم صلاحًا لا فساد معه، فالله سبحانه أخبر وهو الصادق الوفي أنه إنما يعمل الناس بكسبهم ويجازيهم بأعمالهم، ولا يخاف المحسن لديه ظلمًا ولا هضمًا، ولا يخاف بخسًا ولا رهقًا، ولا يضيع عمل محسن أبدًا، ولا يضيع على العبد مثقال ذرة، ولا يظلمها، وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا، وإن كان مثقال حبة من خردل جازاه بها ولا يضيعها عليه. وأنه يجزي بالسيئة مثلها، ويحبطها بالتوبة والندم والاستغفار والحسنات والمصائب، ويجزي بالحسنة عشرة أمثالها ويضاعفها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.وهو الذي أصلح الفاسدين، وأقبل بقلوب المعرضين، وتاب على المذنبين، وهدى الضالين، وأنقذ الهالكين، وعلَّم الجاهلين، وبصّر المتحيرين، وذكَّر الغافلين، وآوى

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٣٢) ومسلم (رقم ٢٦٤٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٨٧-٤٩١) وشرح النووي (١٦/ ١٩٢).

(٢) ١٦٠ فوائد.

الشاردين. وإذا أوقع عقابًا أوقعه بعد شدة التمرد والعتو عليه، ودعوة العبد إلى الرجوع إليه والإقرار بربوبيته وحقه مرة بعد مرة، حتى إذا أيس من استجابته، والإقرار بربوبيته ووحدانيته، أخذه ببعض كفره وعتوّه وتمرّده، بحيث يعذر العبد من نفسه، ويعترف بأنه سبحانه لم يظلمه، وأنه هو الظالم لنفسه، كما قال تعالى عن أهل النار: ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١] وقال عمن أهلكهم في الدنيا أنهم لما رأوا آياته، وأحسوا بعذابه قالوا: ﴿ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٤، ١٥]، وقال أصحاب الجنة التي أفسدها عليهم لما رأوها، قالوا: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾[القلم: ٢٩].

وقال الحسن: لقد دخلوا النار وإنّ حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه حجة ولا سبيلا. ولهذا قال تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٤٥]، فهذه الجملة في موضع الحال، أي قطع دابرهم كونه سبحانه محمودا على ذلك، فقطع دابرهم قطعا مصاحبا لحمده، فهو قطع وإهلاك يحمد عليه الرب تعالى لكمال حكمته وعدله، ووضعه العقوبة في موضعها الذي لا يليق به غيرها. فوضعها في الموضع الذي يقول من علم الحال: لا تليق العقوبة إلا بهذا المحل، ولا يليق به إلا العقوبة. ولهذا قال عقيب إخباره عن الحكم بين عباده، ومصير أهل السعادة إلى الجنة، وأهل الشقاء إلى النار: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥] فحذف فاعل القول إشعارا بالعموم وأن الكون كله قال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لما شاهدوا من حكمة الحق وعدله وفضله. ولهذا قال في حق أهل النار: ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ [الزمر: ٧٢] كأن الكون كله يقول ذلك حتى تقوله أعضاؤهم وأرواحهم وأرضهم وسماؤهم، وهو سبحانه يخبر أنه إذا أهلك أعداءه أنجى أولياءه، ولا يعمهم بالهلاك بمحض المشيئة.

ولما سأله نوح نجاة ابنه أخبر أنه يغرقه بسوء عمله وكفره، ولم يقل إني أغرقه

بمحض مشيئتي وإرادتي بلا سبب ولا ذنب. وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين في سبيله ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم.

وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين الذين يتبعون رضوانه، وأخبر أنه لا يضل إلا الفاسقين الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه، وأنه إنما يضل من آثر الضلال واختاره على الهدى، فيطبع حينئذ على سمعه وقلبه، وأنه يقلب قلب من لم يرض بهداه إذا جاءه ولم يؤمن به، ودفعه وردّه، فيقلب فؤاده وبصره عقوبة له على رده ودفعه لما تحققه وعرفه، وأنه سبحانه لو علم في تلك المحال التي حكم عليها بالضلال والشقاء خيرا لأفهمها وهداها، ولكنها لا تصلح لنعمته ولا تليق بها كرامته.وقد أزاح سبحانه العلل، وأقام الحجج، ومكّن من أسباب الهداية، وأنه لا يضل إلا الفاسقين الظالمين، ولا يطبع إلا على قلوب المعتدين، ولا يركس في الفتنة إلا المنافقين بكسبهم، وأن الرين الذي غطى به قلوب الكفار هو عين كسبهم وأعمالهم كما قال: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] وقال عن أعدائه اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وأخبر أنه لا يضل من هداه حتى يبين له ما يتقي، فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى والغي على الرشاد، ويكون مع نفسه وشيطانه وعدو ربه عليه. وأما المكر الذي وصف به نفسه، فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيئ بمكره الحسن، فيكون المكر منهم أقبح شيء، ومنه أحسن شيء، لأنه عدل ومجازاة. وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه، فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر.

وأما كون «**الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب**»، فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملا صالحا مقبولا للجنة قد أحبه الله ورضيه ولم يبطله عليه.

وقوله: «**لم يبق بينه وبينها إلا ذراع**» يشكل على هذا التأويل، فيقال: لما كان العمل

بآخره وخاتمته لم يصبر هذا العامل على عمله حتى يتم له، بل كان فيه آفة كامنة، ونكتة خذل بها في آخر عمره، فخانته تلك الآفة والداهية الباطنة في وقت الحاجة، فرجع إلى موجبها وعملت عملها، ولو لم يكن هناك غش وآفة لم يقلب الله إيمانه[1]، لقد أورده مع صدقه فيه وإخلاصه بغير سبب منه يقتضي إفساده عليه، والله يعلم من سائر العباد ما لا يعلمه بعضهم من بعض.

وأما شأن إبليس: فإن الله سبحانه قال للملائكة: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فالرب تعالى كان يعلم ما في قلب إبليس من الكفر والكبر والحسد ما لا يعلمه الملائكة، فلما أمروا بالسجود، ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة والخشية والانقياد، فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والحسد، فأبى واستكبر، وكان من الكافرين.

وأما خوف أوليائه من مكره فحق، فإنهم يخافون أن يخذلهم بذنوبهم وخطاياهم، فيصيرون إلى الشقاء، فخوفهم من ذنوبهم ورجاؤهم لرحمته، وقوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٩٩] إنما هو في حق الفجار والكفار. ومعنى الآية: فلا يعصى ويأمن مقابلة الله له على مكر السيئات بمكره إلا القوم الخاسرون.

والذي يخافه العارفون بالله من مكره أن يؤخر عنهم عذاب الأفعال فيحصل منهم نوع اغترار فيأنسوا بالذنوب فيجيئهم العذاب على غرّة وفترة.

وأمر آخر وهو أن يغفلوا عنه وينسوا ذكره، فيتخلى عنهم إذا تخلوا عن ذكره وطاعته، فيسرع إليهم البلاء والفتنة، فيكون مكره بهم تخليه عنهم.وأمر آخر أن يعلم من ذنوبهم وعيوبهم ما لا يعلمونه من نفوسهم، فيأتيهم المكر من حيث لا يشعرون؛ وأمر آخر أن يمتحنهم ويبتليهم بما لا صبر لهم عليه فيفتنون به، وذلك مكر. اهـ.

***

(١) كذا في الأصل ولعل في العبارة تحريفًا أو نقصًا (ج).

﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

...[1] قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ﴾ [يونس: ١٣] الآية. وفي موضع آخر: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وفي هذه الآية ثلاثة أقوال أحدها: قال أبو إسحاق: هذا إخبار عن قوم لا يؤمنون، كما قال عن نوح: ﴿ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٣٦]، واحتج على هذا بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ قال: وهذا يدل على أنه قد طبع على قلوبهم.

وقال ابن عباس: فما كان أولئك الكفار ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذَّبوا يوم أخذ ميثاقهم، حين أخرجهم من ظهر آدم، فآمنوا كرهًا وأقروا باللسان وأضمروا التكذيب. وقال مجاهد: فما كانوا لو أحييناهم بعد هلاكهم ليؤمنوا بما كذبوا من قبل هلاكهم. قلت: وهو نظير قوله: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال آخرون: لما جاءتهم رسلهم بالآيات التي اقترحوها وطلبوها ما كانوا ليؤمنوا بعد رؤيتها ومعاينتها؛ بما كذبوا به من قبل رؤيتها ومعاينتها فمنعهم تكذيبهم السابق بالحق لما عرفوه من الإيمان به بعد ذلك، وهذه عقوبة من رد الحق أو أعرض عنه فلم يقبله، فإنه يصرف عنه ويحال بينه وبينه، ويقلب قلبه عنه، فهذا إضلال العقوبة، وهو من عدل الرب في عبده.

وأما الإضلال السابق الذي ضلَّ به عن قبوله أولًا والاهتداء به، فهو إضلال ناشئ عن علم الله السابق في عبده، أنه لا يصلح للهدى، ولا يليق به، وأن محله غير قابل له.

(١) ٣١ شفاء العليل.

فالله أعلم حيث يضع هداه وتوفيقه، كما هو أعلم حيث يجعل رسالته، فهو أعلم حيث يجعلها أصلًا وميراثًا، وكما أنه ليس كل محل أهلًا لتحمل الرسالة عنه وأدائها إلى الخلق، فليس كل محل أهلًا لقبولها والتصديق بها، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٣]. أي: ابتلينا واختبرنا بعضهم ببعض، فابتلي الرؤساء والسادة بالاتباعن والموالي والضعفاء؛ فإذا نظر الرئيس والمطاع إلى المولى والضعيف إنفة، أنف أن يسلم، وقال: هذا يمن الله عليه بالهدى والسعادة دوني، قال الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾، وهم الذين يعرفون النعمة وقدرها، ويشكرون الله عليها بالاعتراف والذل والخضوع والعبودية، فلو كانت قلوبكم مثل قلوبهم، تعرفون قدر نعمتي، وتشكروني عليها، وتذكروني بها، وتخضعون لي كخضوعهم، وتحبوني كحبهم لمننت عليكم كما مننت عليهم، ولكن لِمِنَّتِي ونعمي محال لا تليق إلا بها، ولا تحسن إلا عندها، ولهذا يقرن كثيرًا بين التخصيص والعلم، كقوله ههنا: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

***

﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

...[1]المقصود: الفرق بين الحجج والبينات، فنقول: الحجج: الأدلة العلمية، والبينات: جمع بينة، وهي صفة في الأصل يقال: آية بينة، وحجة بينة.

والبينة اسم لكل ما بين الحق من علامة منصوبة أو أمارة أو دليل علمي.

(١) ١٤٦ مفتاح جـ١.

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الحديد: ٢٥]. فالبينات: الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات؛ والكتاب هو الدعوة. وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

ومقام إبراهيم: آية جزئية، مرئية بالأبصار، وهو من آيات الله الموجودة في العالم. ومنه قول موسى لفرعون وقومه: ﴿ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ ﴾ [الأعراف: ١٠٥، ١٠٧]. وكان إلقاء العصا وانقلابها حية هو البينة، وقال هود: ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ يريدون آية الاقتراح، وإلا فهو قد جاءهم بما يعرفون به أنه رسول الله إليهم، فطلب الآية بعد ذلك تعنت واقتراح؛ لا يكون لهم عذر في عدم الإجابة إليه.

وهذه هي الآيات التي قال الله تعالى فيها: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء: ٥٩] فعدم إجابته سبحانه إليها إذ طلبها الكفار رحمة منه، وإحسان؛ فإنه جرت سنته التي لا تبديل لها أنهم إذا طلبوا الآية واقترحوها وأجيبوا ولم يؤمنوا عوجلوا بعذاب الاستئصال.

فلما علم سبحانه أن هؤلاء لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية لم يجبهم إلى ما طلبوا، فلم يعمهم بعذاب لما أخرج من بنيهم وأصلابهم من عباده المؤمنين، وإن أكثرهم آمن بعد ذلك بغير الآيات التي اقترحوها، فكان عدم إنزال الآيات المطلوبة من تمام حكمة الرب ورحمته وإحسانه، بخلاف الحجج، فإنها لم تزل متتابعة، يتلو بعضها بعضًا، وهي كل يوم في مزيد، وتوفي رسول الله ﷺ وهي أكثر ما كانت، وهي باقية إلى يوم القيامة.

***

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾.

بمحض مشيئتي وإرادتي بلا سبب ولا ذنب. وقد ضمن سبحانه زيادة الهداية للمجاهدين في سبيله ولم يخبر أنه يضلهم ويبطل سعيهم.

وكذلك ضمن زيادة الهداية للمتقين الذين يتبعون رضوانه، وأخبر أنه لا يضل إلا الفاسقين الذين ينقضون عهده من بعد ميثاقه، وأنه إنما يضل من آثر الضلال واختاره على الهدى، فيطبع حينئذ على سمعه وقلبه، وأنه يقلب قلب من لم يرض بهداه إذا جاءه ولم يؤمن به، ودفعه وردّه، فيقلب فؤاده وبصره عقوبة له على رده ودفعه لما تحققه وعرفه، وأنه سبحانه لو علم في تلك المحال التي حكم عليها بالضلال والشقاء خيرا لأفهمها وهداها، ولكنها لا تصلح لنعمته ولا تليق بها كرامته.وقد أزاح سبحانه العلل، وأقام الحجج، ومكّن من أسباب الهداية، وأنه لا يضل إلا الفاسقين الظالمين، ولا يطبع إلا على قلوب المعتدين، ولا يركس في الفتنة إلا المنافقين بكسبهم، وأن الرين الذي غطى به قلوب الكفار هو عين كسبهم وأعمالهم كما قال: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤] وقال عن أعدائه اليهود: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وأخبر أنه لا يضل من هداه حتى يبين له ما يتقي، فيختار لشقوته وسوء طبيعته الضلال على الهدى والغي على الرشاد، ويكون مع نفسه وشيطانه وعدو ربه عليه. وأما المكر الذي وصف به نفسه، فهو مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيئ بمكره الحسن، فيكون المكر منهم أقبح شيء، ومنه أحسن شيء، لأنه عدل ومجازاة. وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه، فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر.

وأما كون **«الرجل يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب»**، فإن هذا عمل أهل الجنة فيما يظهر للناس، ولو كان عملا صالحا مقبولا للجنة قد أحبه الله ورضيه ولم يبطله عليه.

وقوله: **«لم يبق بينه وبينها إلا ذراع»** يشكل على هذا التأويل، فيقال: لما كان العمل

مظعون(١) أي أصابنا بالقرعة لما اقترع الأنصار على نزول المهاجرين عليهم.

وفي حديث رويفع بن ثابت: حتى إن أحدنا ليطير له النصل والريش والآخر القدح(٢) أي يحصل له بالشركة في الغنيمة.

وقيل: في قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ أن الطائر ههنا هو العمل. قاله الفراء، وهو يتضمن الرد على نفاة القدر، وخص العنق بذلك من بين سائر أجزاء البدن، لأنها محل الطوق الذي يطوقه الإنسان في عنقه، فلا يستطيع فكاكه، ومن هذا يقال: إثم هذا في عنقك. وافعل كذا وإثمه في عنقي. والعرب تقول: طوقها طوق الحمامة وهذا ربقة في رقبته.

وعن الحسن: ابن آدم لتنظر لك صحيفة إذا بعثت قلدتها في عنقك، فخصوا العنق بذلك، لأنه موضع القلادة والتميمة واستعمالهم التعاليق فيها كثير.

كما خصت الأيدي بالذكر في نحو ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج: ١٠] ونحوه. وقيل: المعنى: أن الشؤم العظيم هو الذي لهم عند الله من عذاب النار، وهو الذي أصابهم في الدنيا. وقيل: المعنى: أن سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده، الذي يجري عليه ما يسوؤهم ويعاقبون عليهم بعد موتهم بما وعدهم الله، ولا طائر أشأم من هذا. وقيل: حظهم ونصيبهم وهذا لا يناقض قول الرسل: طائركم معكم، أي حظكم وما نالكم من خير وشر معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل ببغيكم وعدوانكم، فطائر الباغي الظالم معه وهو عند الله، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٧٨] ولو فقهوا أو فهموا لما تطيروا بما جئت به لأنه ليس فيما جاء به

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢٤٣) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٤١١).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٣٦) والبيهقي في الكبرى (١/ ١١٠ رقم ٥٣٣) والطبراني في الكبير (٥/ ٢٨ رقم ٤٤٩١) وأحمد (٤/ ١٠٨) وانظر: عون المعبود (١/ ٣٨) ونيل الأوطار (٥/ ٣٩٣).

الرسول ﷺ ما يقتضي الطيرة، فإنه كله خير محض لا شر فيه، وصلاح لا فساد فيه، وحكمة لا عبث فيها، ورحمة لا جور فيها.

فلو كان هؤلاء القوم من أهل الفهم والعقول السليمة لم يتطيروا من هذا، فإن الطيرة إنما تكون بالشر لا بالخير المحض والمصلحة والحكمة والرحمة، وليس فيما أتيتهم به لو فهموا ما يوجب تطيرهم، بل طائرهم معهم بسبب كفرهم وشركهم وبغيهم، وهو عند الله كسائر حظوظهم وأنصبائهم التي يتناولوها منه بأعمالهم وكسبهم، ويحتمل أن يكون المعنى طائركم معكم، أي راجع عليكم، فالطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم وهذا من باب القصاص في الكلام، مثل قوله في الحديث: «**أخذنا فالك من فيك**»[(١)].

ونظيره قول النبي ﷺ: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم**»[(٢)]، فعلى هذا معنى طائركم معكم، أي تصيبكم طيرتكم التي تطيرتم بها، لأنهم اعتقدوا الشؤم فيها، ولا شؤم فيها البتة، فقيل لهم: الشؤم منكم، وهو نازل بكم، فتأمله.

وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٦] قيل: جزاء مكرهم عنده فمكر بهم كما مكروا برسله، ومكره تعالى بهم إنما كان بسبب مكرهم، فهو مكرهم عاد عليهم، وكيدهم عاد عليهم، فهكذا طيرتهم عادت عليهم، وحلت بهم وسمى جزاء المكر مكرًا، وجزاء الكيد كيدًا، تنبيها على أن الجزاء من جنس العمل.

ولما ذكر سبحانه أن ما أصابهم من حسنة وسيئة أي نعمة ومحنة، فالكل منه تعالى بقضائه وقدره، فكأنهم قالوا: فما بالك أنت تصيبك الحسنات والسيئات كما تصيبنا؟ فذكر سبحانه أن ما أصابه من حسنة فمن الله منّ بها عليه، وأنعم بها عليه، وما أصابه من سيئة فمن نفسه، أي بسبب من قبله، أي لا لنقص ما جاء به، ولا لشر فيه، ولا

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٦٢ رقم ١١٦٩).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٥٨) ومسلم (رقم ٢١٦٣) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣-٤٤).

لشؤم يقتضي أن تصيبه السيئة، بل بسبب من نفسه ومن قبله.

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل: ٤٧] أن طائرهم ههنا هو السبب الذي يجيء فيه خيرهم وشرهم، فهو عند الله وحده، وهو قدره وقسمه إن شاء رزقكم وعافاكم، وإن شاء حرمكم وابتلاكم.

ومن هذا قالوا: طائر الله لا طائر كلبي، قدر الله الغالب الذي يأتي بالحسنات ويصرف السيئات. ومنه: «**اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك**»[(١)] وعلى هذا فالمعنى: بطائركم نصيبكم وحظكم، الذي يطيركم، ومن فسره بالعمل فالمعنى طائركم الذي طار عنكم من أعمالكم.

وبهذين القولين فسر معنى قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١٣] وأنه ما طار عنه من عمله أو صار لازما له، مما قضى الله عليه وقدر عليه، وكتب له من الرزق والأجل والشقاوة والسعادة.

***

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

[(٢)]فأول تلاعب الشيطان بهذه الأمة[(٣)] في حياة نبيها، وقرب العهد بإنجائهم من فرعون وإغراقه وإغراق قومه، فلما جاوزوا البحر رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم، فقالوا: ﴿ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾. فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ

---

(١) ورد هذا اللفظ مرفوعًا وموقوفًا، أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٦٥ رقم ١١٨٠) وأبو الشيخ في العظمة (٤/ ١٢٣٠-١٢٣١) والطبراني في الدعاء (رقم ١٢٧٠) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٢٩٢) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢١٣) والتمهيد (٢٤/ ٢٠١).

(٢) ٢٩٩ إغاثة جـ٢.

(٣) أي: الأمة المغضوب عليهم وهم اليهود.

تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

فأي جهل فوق هذا؟ والعهد قريب، وإهلاك المشركين أمامهم، بمرأى من عيونهم. فطلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا. فطلبوا من مخلوق أن يجعل لهم إلهًا مخلوقًا، وكيف يكون الإله مجعولا؟ فإن الإله هو الجاعل لكل ما سواه. والمجعول مربوب مصنوع، فيستحيل أن يكون إلهًا.

وما أكثر الخلف لهؤلاء في اتخاذ إله مجعول، فكل من اتخذ إلها غير الله فقد اتخذ إلها مجعولًا.

وقد ثبت عن النبي ﷺ: أنه كان في بعض غزواته، فمروا بشجرة يعلق عليها المشركون أسلحتهم وشاراتهم وثيابهم، يسمونها ذات أنواط. فقال بعضهم: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال: «**الله أكبر، قلتم كما قال قوم موسى لموسى: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾**»، ثم قال: «**لتركبنّ سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**»[1].

[2]في رؤيتهم ربهم تبارك وتعالى بأبصارهم جهرة كما يرى القمر ليلة البدر، وتجليه لهم ضاحكًا إليهم. هذا الباب أشرف أبواب الكتاب، وأجلها قدرًا، وأعلاها خطرًا، وأقرها عيون أهل السنة والجماعة، وأشدها على أهل البدعة والضلالة، وهي: الغاية التي شمر إليها المشمرون، وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، إذا ناله أهل الجنة نسوا ما هم فيه من النعيم، وحرمانه والحجاب عنه لأهل الجحيم أشد عليهم من عذاب الجحيم.

اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وجميع الصحابة والتابعون وأئمة الإسلام على تتابع القرون، وأنكرها أهل البدع المارقون، والجهمية المتهوكون، والفرعونية المعطلون، والباطنية الذين هم من جميع الأديان منسلخون، والرافضة الذين هم بحبائل الشيطان

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ٢٠٢ حادي الأرواح.

متمسكون، ومن حبل الله منقطعون، وعلى مسبة أصحاب رسول الله عاكفون، وللسنة وأهلها محاربون، ولكل عدو لله ورسوله ودينه مسالمون. وكل هؤلاء عن ربهم محجوبون، وعن بابه مطرودون، أولئك أحزاب الضلال وشيعة اللعين وأعداء الرسول وحزبه.

وقد أخبر الله ﷻ عن أعلم الخلق به في زمانه وهو كليمه ونجيه وصفيه من أهل الأرض أنه سأل ربه تعالى النظر إليه، فقال له ربه تبارك وتعالى: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وبيان الدلالة من هذه الآية من وجوه عديدة:

أحدها: أنه لا يظن بكليم الرحمن ورسوله الكريم عليه أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه، بل ما هو من أبطل الباطل وأعظم المحال، وهو عند فروخ اليونان والصابئة والفرعونية بمنزلة أن يسأله أن يأكل ويشرب وينام ونحو ذلك مما يتعالى الله عنه؛ فيا لله العجب كيف صار أتباع الصابئة والمجوس والمشركين: عباد الأصنام وفروخ الجهمية والفرعونية أعلم بالله تعالى من موسى بن عمران، وبما يستحيل عليه، ويجب له، واشد تنزيها له منه.

الوجه الثاني: إن الله ﷻ لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالًا لأنكره عليه، ولهذا لما سال إبراهيم الخليل ربه تبارك وتعالى أن يريه كيف يحيي الموتى لم ينكر عليه، ولما سأل عيسى ابن مريم ربه إنزال المائدة من السماء لم ينكر عليه سؤاله. ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه أنكر عليه سؤاله وقال: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٦، ٤٧].

الوجه الثالث: أنه أجابه بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ ولم يقل: لا تراني، ولا إني لست بمرئي، ولا تجوز رؤيتي، والفرق بين الجوابين ظاهر لمن تأمله، وهذا يدل على أنه ﷻ يرى، ولكن موسى لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار، لضعف قوة البشر فيها عن رؤيته تعالى، يوضحه.

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِي ﴾ فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبت لتجليه له في هذه الدار، فكيف بالبشر الضعيف الذي خلق من ضعف؟!

الوجه الخامس: إن الله ﷻ قادر على أن يجعل الجبل مستقرًّا مكانه، وليس هذا بممتنع في مقدوره، بل هو ممكن، وقد علق به الرؤية، ولو كانت محالًا في ذاتها لم يعلقها بالممكن في ذاته ولو كانت الرؤيا محالًا لكان ذلك نظير أن يقول: إن استقر الجبل فسوف آكل واشرب وأنام، فالأمران عندكم سواء.

الوجه السادس: قوله ﷻ: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ وهذا من أبين الأدلة على جواز رؤيته تبارك وتعالى، فإنه إذا جاز أن يتجلى للجبل الذي هو جماد لا ثواب له ولا عقاب عليه، فكيف يمتنع أن يتجلى لأنبيائه ورسله وأوليائه في دار كرامتهم ويريهم نفسه، فأعلم ﷻ موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته في هذه الدار فالبشر أضعف.

الوجه السابع: أن ربه ﷻ قد كلمه منه إليه، وخاطبه وناجاه وناداه، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبه كلامه معه بغير واسطة، فرؤيته أولى بالجواز، ولهذا لا يتم إنكار الرؤية إلا بإنكار التكليم، وقد جمعت هذه الطوائف بين إنكار الأمرين، فأنكروا أن يكلم أحدًا أو يراه أحد ولهذا سأله موسى النظر إليه لما أسمعه كلامه، وعلم نبي الله جواز رؤيته من وقوع خطابه وتكليمه فلم يخبره باستحالة ذلك عليه، ولكن أراه أن ما سأله لا يقدر على احتماله كما لم يثبت الجبل لتجليه، وأما قوله تعالى: ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ فإنما يدل على النفي في المستقبل، ولا يدل على دوام النفي، ولو قيدت بالتأبيد فكيف إذا أطلقت، قال تعالى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدًا ﴾ [البقرة: ٩٥] مع قوله تعالى: ﴿ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

(١)الدليل الثاني قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وقوله

(١) ٢٠٤ حادي الأرواح.

تعالىٰ: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ [الأحزاب: ٤٤] وقوله تعالىٰ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وأجمع أهل اللسان علىٰ أن اللقاء متىٰ نسب إلىٰ الحي السليم من العمىٰ والمانع اقتضىٰ المعاينة والرؤية.

ولا ينتقض هذا بقوله تعالىٰ: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ [التوبة: ٧٧] فقد دلت الأحاديث الصحيحة الصريحة علىٰ أن المنافقين يرونه تعالىٰ في عرصات القيامة، بل والكفار أيضا كما في الصحيحين من حديث التجلي يوم القيامة.

وفي هذه المسألة ثلاثة أقوال لأهل السنة: أحدها: أن لا يراه إلا المؤمنون. والثاني يراه جميع أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفار، فلا يرونه بعد ذلك. والثالث يراه المنافقون دون الكفار. والأقوال الثلاثة في مذهب أحمد، وهي لأصحابه، وكذلك الأقوال الثلاثة بعينها لهم في تكليمه لهم ولشيخنا في ذلك مصنف مفرد، وحكىٰ فيه الأقوال الثلاثة وحجج أصحابها.

وكذا قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦] إن عاد الضمير علىٰ العمل فهو رؤيته في الكتاب مسطورا مثبتًا، وإن عاد علىٰ الرب ﷻ فهو لقاؤه الذي وعد به.

(١)وقال الحسن في قوله تعالىٰ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]. قال: أمنعهم التفكر فيها.

وقال بعض العارفين: لو طالعت قلوب المتقين بفكرها إلىٰ ما قدر في حجب الغيب من خير الآخرة لم يصفو لهم في الدنيا عيش، ولم تقر لهم فيها عين.

وقال الحسن: طول الوحدة أتم للفكرة، وطول الفكرة دليل علىٰ طريق الجنة(٢).

---

(١) ١٨٠ مفتاح جـ١.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٣٩) ونسبه إلىٰ لقمان الحكيم.

وقال وهب: ما طالت فكرة أحد قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل[١].

وقال عمر بن عبد العزيز: الفكرة في نعم الله من أفضل العبادة[٢].

وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه، وقد رآه مفكرًا: أين بلغت؟ قال: الصراط.

وقال بشر: لو فكر الناس في عظمة الله ما عصوه.

وقال ابن عباس: ركعتان مقتصدتان في تفكر، خير من قيام ليلة بلا قلب[٣].

وقال أبو سليمان: الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة، وعقوبة لأهل الولاية، والفكرة في الآخرة: تورث الحكمة، وتجلي القلوب[٤].

وقال ابن عباس: التفكر في الخير يدعو إلى العمل به.

وقال الحسن: إن أهل العلم لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، والفكر على الذكر، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة.

ومن كلام الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكرة[٥]. وهذا لأن الفكرة: عمل القلب، والعبادة: عمل الجوارح. والقلب أشرف من الجوارح، فكان عمله أشرف من عمل الجوارح.

***

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١/ ٣١٣ رقم ٥٦) وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٣٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٣١٤) وذكره ابن كثير في التفسير (١/ ٤٣٩).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١/ ٣٠١-٣٠٢ رقم ٤٤) وابن المبارك في الزهد (رقم ٢٨٨، ١١٤٧) وذكره ابن كثير في تفسيره (١/ ٤٣٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٩/ ٢٧٨) وذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٣١٤).

(٥) ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/ ٢٥٣) والمناوي في فيض القدير (٢/ ٣١٤).

[1]من تلاعب الشيطان بهذه الأمة في حياة نبيهم أيضًا: ما قصه الله تعالىٰ في كتابه حيث يقول: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥]. أي عيانًا. قال ابن جرير: ذكرهم الله سبحانه بذلك اختلاف آبائهم، وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة معاينتهم من آيات الله ما يثلج بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس. وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسبوغ النعم من الله تعالىٰ لديهم. وهم مع ذلك مرة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلها غير الله، ومرة يعبدون العجل من دون الله، ومرة يقولون: لا نصدقك حتىٰ نرىٰ الله جهرة. وأخرىٰ يقولون له إذا دعوا إلىٰ القتال: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤] ومرة يقال لهم: ﴿ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٨]. فيقولون: «حبة في شعيرة». ويدخلون من قِبَل أستاههم. ومرة يعرض عليهم العمل بالتوراة، فيمتنعون من ذلك، حتىٰ نتق الله تعالىٰ عليهم الجبل كأنه ظلة.

إلىٰ غير ذلك من أفعالهم، التي آذوا بها نبيهم، التي يكثر إحصاؤها. فأعلم ربنا تبارك وتعالىٰ الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بني إسرائيل، الذين كانوا علىٰ عهد رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم أنهم لن يعدوا أن يكونوا في تكذيبهم محمداً صلىٰ الله تعالىٰ عليه وسلم وجحودهم نبوته، وتركهم الإقرار به وبما جاء به، مع علمهم به ومعرفتهم بحقيقة أمره كأسلافهم، وآبائهم الذين قص الله علينا قصصهم.

وقال محمد بن إسحاق: لما رجع موسىٰ إلىٰ قومه، فرأىٰ ما هم فيه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامري ما قال، وحرق العجل وذراه في اليم، اختار موسىٰ منهم سبعين رجلا، الخيِّر فالخير، وقال: انطلقوا إلىٰ الله ﷻ، فتوبوا إلىٰ الله مما صنعتم، واسألوه التوبة علىٰ من تركتم وراءكم من قومكم، فصوموا وتطهروا، وطهروا نيَّاتكم. فخرج بهم إلىٰ طور سيناء لميقاتٍ وقَّته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه، فقال له السبعون - فيما ذكر

---

(١) ٣٠٥ إغاثة جـ٢.

لي - حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا للقاء الله: يا موسى اطلب لنا إلى ربك أن نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام، حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فأدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا وكان موسى عليه السلام إذا كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه. فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجودًا، فسمعوه تعالى وهو يكلم نبيه موسى، يأمره وينهاه: افعل، ولا تفعل. فلما فرغ الله من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾. فأخذتهم الصاعقة فماتوا جميعًا. وقام موسى عليه السلام يناشد ربه ويدعوه، ويرغب إليه، ويقول: ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾(1) [الأعراف: ١٥٥].

فإن قيل: فما مقصود موسى بقوله: ﴿ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ ﴾. فقد ذكر فيه وجوه:

فقال السدي: لما ماتوا قام موسى يبكي، ويقول: يا رب، ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم، وقد أهلكت خيارهم؟.

وقال محمد بن إسحاق: اخترت منهم سبعين رجلا، الخير فالخير، أرجع إليهم وليس معي منهم رجل واحد؟ فما الذي يصدقوني به، أو يأمنوني عليه بعد هذا؟.

وعلى هذا، فالمعنى: لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا. فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك، ولا يتهمونني. وقال الزجاج: المعنى: لو شئت أهلكتهم من قبل أن تبتليهم بما أوجب عليهم الرجفة.

قلت: وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود. والذي يظهر - والله أعلم بمراده ومراد نبيه ـ: أن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه، وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبل، حين عبد قومهم العجل، ولم ينكروا عليهم. يقول موسى: إنهم قد تقدم منهم ما يقتضي هلاكهم. ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك، ولم تهلكهم، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره من طريق محمد بن إسحاق (١/ ٢٩١).

وهذا كما يقول من واخذه سيده بجرم: لو شئت واخذتني من قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم، ولكن وسعني عفوك أولًا، فليسعني اليوم.

ثم قال نبي الله: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾. فقال ابن الأنباري وغيره: هذا استفهام على معنى الجحد، أي: لست تفعل ذلك. والسفهاء هنا: عبدة العجل.

قال الفراء: ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ قومهم العجل، فقال: ﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ﴾. وإنما كان إهلاكهم بقولهم: ﴿ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [النساء: ١٥٣].

ثم قال: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وهذا من تمام الاستعطاف، أي ما هي إلا ابتلاؤك واختبارك لعبادك. فأنت ابتليتهم وامتحنتهم، فالأمر كله لك وبيدك، لا يكشفه إلا أنت، كما لم يمتحن به ويختبر به إلا أنت. فنحن عائذون بك منك. ولاجئون منك إليك(١).

(٢)وأما الفتون فهو مصدر فتنه يفتنه فتونا، قال الله تعالى: ﴿ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ﴾ [طه: ٤٠] أي امتحناك واختبرناك، والفتنة يقال على ثلاثة معان:

أحدها: الامتحان والاختبار، ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي امتحانك واختبارك.

والثاني: الافتتان نفسه، يقال هذه فتنة فلان، أي افتتانه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [الأنفال: ٢٥] يقال: أصابته الفتنة، وفتنته الدنيا، وفتنته المرأة وأفتنته قال الأعشى:

لئــن فتنتني لهي بالأمس أفتنت ... سعيدًا فأضحى قد قلى كل مسلم(٣)

---

(١) ناقش ابن القيم صاحب المنازل هنا مناقشة هامة لمن أرادها (ج).

(٢) ٤٧ روضة المحبين.

(٣) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى أعشى همدان: عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث الهمداني، شاعر اليمانيين بالكوفة وفارسهم في عصره، يعد من شعراء الدولة الأموية، وكان أحد الفقهاء القراء، وكان من الغزاة أيام الحجاج فغزا الديلم، ولما خرج عبد الرحمن بن الأشعث انحاز الأعشى إليه، =

وأنكر الأصمعي أفتنته.

والثالث: المفتون به نفسه، يسمى فتنة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥] وأما قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] أي لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه، وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤] فقيل: المعنى يحرقون، ومنه فتنت الذهب إذا أدخلته النار، لتنظر ما جودته. ودينار مفتون.

قال الخليل: والفتن الإحراق، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ وورق فتين أي فضة محرقة، وافتتن الرجل، وفتن إذا أصابته فتنة، فذهب ماله أو عقله، وفتنته المرأة إذا ولهته، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١-١٦٣] أي: لا تفتنون على عبادته إلا من سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم، فذلك الذي يفتن بفتنتكم إياه.

وأما قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦] فقيل: الباء زائدة. وقيل: المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور.

والصواب أن يبصر مُضمَّن معنى يشعر ويعلم، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ﴾ [الأحقاف: ٣٣] فعدى فعل الرؤية بالباء، وفي الحديث: «**المؤمن أخو المؤمن يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان**»[١] يروى بفتح الفاء وهو واحد وبضمها وهو جمع فاتن كتاجر وتجار، والمقصود أن الحب موضع الفتون، فما فتن من فتن إلا بالمحبة.

***

=

واستولى على سجستان معه وقاتل رجال الحجاج، ثم أسر بعد مقتل الأشعث فضرب الحجاج عنقه، ومات سنة ٨٣هـ. ذكر البيت الرامهرمزي في أمثال الحديث (ص ١٦٣) والحربي في غريب الحديث (٣/ ٩٤٠).

(١) تقدم تخريجه في أول هذا المجلد. في تفسير سورة الأنعام، الآية ٢٣.

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

...[1]قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فوجود الرسول في التوراة والإنجيل ووجود القرآن فيه واحد، فمن جعل وجود كلام الله في المصحف كذلك، فهو أضل من حمار أهله. وقد علم بذلك أنه لا يحتاج إلىٰ حذلقة متحذلق يقول: إنه لابد من حذف وإضمار، وتقديره عبارة كلام الله في المصحف أو حكايته؛ فإنك إذا قلت في هذا الكتاب: كلام رسول الله ﷺ أو كلام الشافعي وأحمد، فإن كل أحد يفهم المراد بذلك، ولا يتوقف فهمه علىٰ حذف وإضمار، كما لا يذهب وهمه إلىٰ أن صفة المتكلم، والقول القائم به، والصوت واللفظ المسموع منه: فارق ذاته، وانفصل من محله، وانتقل إلىٰ محل آخر؛ هذا كله أمر محسوس مشهود، لا ينازع فيه من فهمه إلا عنادًا؛ لكن قد يفهمه بعض الناس: لفرط بلادة، وعمىٰ قلب، أو غلبة هوىٰ. ومما يوضح هذا أن الله ـ سبحانه ـ كتب مقادير الخلائق عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض، كتابًا: مفصلًا، محيطًا بالكائنات، وأخبرنا بذلك في كتابه. فالخبر عنها مكتوب في المصاحف في قوله: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢] والإمام هو: الكتاب، ومعلوم قطعًا: إن كتابتها في الكتاب السابق ليس هو مثل كتابتها في القرآن؛ فإن ذلك كتابة مفصلة، وهذا إخبار عنها، فكتابة اسم القرآن في رقٍّ أو غيره؛ ليس هو مثل كتابة معانيه، وإذا كتب كلام المتكلم في كتاب لم تكن الحروف المكتوبة من جنس الحروف الملفوظة، لا من حيث المادة، ولا من حيث الصورة، حتىٰ يقال:

(١) ٣٢٠ مختصر الصواعق جـ٢.

انتقلت تلك الحروف بمادتها وصورتها، وحلت في الكتاب، ولا يتوهم هذا سليم العقل والحواس.

وكلام الرب تعالىٰ بل كلام كل متكلم تُدرك حروفه وكلماته: بالسمع تارة، والبصر تارة، فالسمع نوعان: مطلق ومقيد، فالمطلق ما كان بغير واسطة، كما سمع موسىٰ بن عمران: كلام الرب تعالىٰ من غير واسطة، بل كلمه تكليمًا منه إليه، وكما يسمع جبرائيل وغيره من الملائكة: كلامه وتكليمه سبحانه، وأما المقيد: فالسمع بواسطة المبلغ: كسماع الصحابة، وسماعنا لكلام الله حقيقة بواسطة المبلغ عنه، كما يسمع كلام رسول الله ﷺ بل وكلام غيره: كمالك، والشافعي، وسيبويه، والخليل بواسطة المبلغ، فقوله تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] من النوع الثاني، وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ [المائدة: ٨٣] وقوله في الحديث: «**كأنَّ الناس لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه يوم القيامة من الرحمن**»[1]. من النوع الأول، ومنه قوله ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان**»[2].

وأما النظر فعلىٰ نوعين أيضًا، فإن المكتوب قد يكتبه غير من يتكلم به، فيكون الناظر إليه ناظرًا إلىٰ الحروف والكلمات بواسطة ذلك الكتاب، وقد يكون المتكلم نفسه كتب كلامه؛ فينظر الناظر إلىٰ حروفه وكلماته التي كتبها بيده، كما سمع منه كلماته التي تكلم بها، وهذا كما كتب لموسىٰ التوراة بيده بغير واسطة، كما في الحديث الصحيح في قصة احتجاج آدم وموسىٰ، وفي حديث الشفاعة وغير ذلك. فجمع لموسىٰ بين الأمرين أسمعه كلامه بغير واسطة، وأراه إياه بكتابته ا.هـ.

[3]إن الأعيان توصف بكونها: طيبة، وخبيثة، ونافعة، وضارة، فكذلك توصف

(١) أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين (٢/ ٤٠٢-٤٠٣) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٢٥٧) إلىٰ أبي الشيخ.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٣٩) ومسلم (رقم ١٠١٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٠٤) (١٣/ ٤٣٠).

(٣) ١٠٤ مختصر الصواعق جـ٢.

بكونها: حلالاً، وحرامًا. إذ الحل والحرمة تبع طيبها وخبثها وكونها: ضارة، ونافعة. كما قال تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ولابد أن يكون الحلال طيبًا في نفسه، والحرام خبيثًا في نفسه، فوصفه بكونه حلالاً أو حرامًا جار مجرى وصفه بكونه طيبًا أو خبيثًا، ودلالة تحريم العين وتحليلها على الفعل المتعلق بها من باب دلالة الالتزام، وقد علمت أن ما يدل بالالتزام لا يقال فيه: إنه محذوف مقدر.

(١)وإذا كان لا معنى عندهم للمعروف إلا ما أمر به فصار معروفًا بالأمر، ولا للمنكر إلا ما نهى عنه، فصار منكرًا بنهيه، فأي معنى لقوله: ﴿ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهل حاصل ذلك زائد على أن يقال يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه، وهذا كلام ينزه عنه آحاد العقلاء، فضلًا عن كلام رب العالمين، وهل دلت الآية إلا على أنه أمرهم بالمعروف الذي تعرفه العقول وتقر بحسنه الفطر، فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم، ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول بحيث إذا عرض على العقول السليمة أنكرته أشد الإنكار، كما أن ما أمر به إذا عرض على العقل السليم قبله أعظم قبول وشهد بحسنه، كما قال بعض الأعراب وقد سئل: بم عرفت أنه رسول الله ﷺ فقال ما أمر بشيء فقال العقل ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال ليته أمر به. فهذا الأعرابي أعرف بالله ودينه ورسوله من هؤلاء، وقد أقر عقله وفطرته بحسن ما أمر به، وقبح ما نهى عنه، حتى كان في حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته.

ولو كان جهة كونه معروفًا ومنكرًا هو الأمر المجرد، لم يكن فيه دليل، بل كان يطلب له الدليل من غيره، ومن سلك ذلك المسلك الباطل لم يمكنه أن يستدل على صحة نبوته بنفس دعوته ودينه.

ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به والملة التي دعا إليها من أعظم براهين صدقه وشواهد نبوته، ومن لم يثبت لذلك صفات وجودية أوجبت حسنه وقبول العقول له،

---

(١) ٦ مفتاح جـ٢.

ولضده صفات أوجبت قبحه ونفور العقل عنه، فقد سد على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة، وجعلها مستدلًا عليه فقط.

ومما يدل على صحة ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ فهذا صريح في أن الحلال كان طيبًا قبل حله، وأن الخبيث كان خبيثًا قبل تحريمه. ولم يستفد: طيب هذا، وخبث هذا؛ من نفس الحل والتحريم لوجهين اثنين.

أحدهما: أن هـذا علم من أعلام نبوتـه، التي احتج الله بها على أهل الكتاب. فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فلو كان الطيب والخبيث إنما استفيد من التحريم والتحليل لم يكن في ذلك دليل، فإنه بمنزلة أن يقال: يحل لهم ما يحل، ويحرم عليهم ما يحرم، وهذا أيضًا باطل، فإنه لا فائدة فيه، وهو الوجه الثاني.

فثبت أنه أحل ما هو طيب في نفسه قبل الحل، فكساه بإحلاله طيبًا آخر، فصار منشأ طيبه من الوجهين معا، فتأمل هذا الموضع حق التأمل، يطلعك على أسرار الشريعة، ويشرفك على: محاسنها، وكمالها، وبهجتها، وجلالها، وأنه من الممتنع في حكمة أحكم الحاكمين أن ترد بخلاف ما وردت به، وأن الله تعالى يتنزه عن ذلك؛ كما يتنزه عن سائر ما لا يليق به.

...(١) موسى عليه السلام كان في مظهر الجلال، ولهذا كانت شريعته شريعة جلال وقهر، أُمروا بقتل نفوسهم، وحرمت عليهم: الشحوم، وذوات الظفر، وغيرها من الطيبات، وحرِّمت عليهم: الغنائم، وعجل لهم من العقوبات ما عجل، وحملوا من الآصار والأغلال ما لم يحمله غيرهم. وكان موسى ﷺ من أعظم خلق الله هيبة ووقارًا، وأشدهم بأسًا وغضبًا لله وبطشًا بأعداء الله، وكان لا يستطاع النظر إليه.

(١) ٤٥٧ مدارج جـ٢.

وعيسى ﷺ: كان في مظهر الجمال، وكانت شريعته شريعة فضل وإحسان، وكان لا يقاتل ولا يحارب، وليس في شريعته قتال البتة. والنصارىٰ يحرم عليهم دينهم القتال وهم به عصاة لشرعه، فإن الإنجيل يأمرهم فيه: أن: «من لطمك علىٰ خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن نازعك ثوبك فأعطه رداءك[1] ومن سخرك ميلا فامش معه ميلين»[2] ونحو هذا، وليس في شريعتهم مشقة ولا آصار ولا أغلال، وإنما النصارىٰ ابتدعوا تلك الرهبانية من قبل أنفسهم ولم تكتب عليهم.

وأما نبينا ﷺ: فكان في مظهر الكمال الجامع لتلك القوة والعدل والشدة في الله، وهذا اللين والرأفة والرحمة، وشريعته أكمل الشرائع، فهو نبي الكمال، وشريعته شريعة الكمال، وأمته أكمل الأمم، وأحوالهم ومقاماتهم أكمل الأحوال والمقامات، ولذلك تأتي شريعته بالعدل إيجابا له وفرضا، وبالفضل ندبا إليه واستحبابا، وبالشدة في موضع الشدة، وباللين في موضع اللين، ووضع السيف موضعه، ووضع الندىٰ موضعه، فيذكر الظلم ويحرمه، والعدل ويوجبه، والفضل ويندب إليه في بعض آيات: كقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾، فهذا عدل: ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾، فهذا فضل: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورىٰ: ٤٠] فهذا تحريم للظلم. وقوله: ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ ﴾ فهذا إيجاب للعدل وتحريم للظلم ﴿ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦] ندب إلىٰ الفضل، وقوله: ﴿ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٧٩] تحريم للظلم ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖ ﴾ عدل: ﴿ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨٠] فضل، وكذلك تحريم ما حرم علىٰ أمته صيانة وحمية.

حرم عليهم كل خبيث وضار، وأباح لهم كل طيب ونافع، فتحريمه عليهم رحمة،

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٦٢٥).
(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/ ١٩٦).

وعلى من قبلهم لم يخل من عقوبة، وهداهم لما ضلت عنه الأمم قبلهم، ووهب لهم من علمه وحلمه، وجعلهم خير أمة أخرجت للناس، وكمل لهم من المحاسن ما فرقه في الأمم قبلهم، كما كمل نبيهم ﷺ من المحاسن بما فرقه في الأنبياء قبله، وكمل في كتابه من المحاسن بما فرقها في الكتب قبله، وكذلك في شريعته، فهؤلاء «الضنائن» وهم المجتبون الأخيار، كما قال تعالى لهم: ﴿ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]، وجعلهم شهداء على الناس، فأقامهم في ذلك مقام الأنبياء الشاهدين على أممهم، وتفصيل تفضيل هذه الأمة وخصائصها يستدعي سفرا بل أسفارا، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

***

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

...[1]أشكل على ابن عباس: أمرُ الفرقة الساكتة، التي لم ترتكب ما نهيت عنه من اليهود: هل عذبوا أو نجوا؟ حتى بين له مولاه عكرمة دخولهم في الناجين دون المعذبين، وهذا هو الحق؛ لأنه سبحانه قال عن الساكتين: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الأعراف: ١٦٤] فأخبر أنهم أنكروا فعلهم وغضبوا عليهم، وإن لم يواجهوهم بالنهي، فقد واجههم به من أدّى الواجب عنهم؛ فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فرض كفاية، فلما قام به أولئك سقط عن الباقين، فلم يكونوا ظالمين بسكوتهم.

وأيضًا فإن الله سبحانه إنما عذَّب الذين نسوا ما ذكروا به، وعتوا عما نهوا عنه، وهذا لا يتناول الساكتين قطعًا، فلما بيَّن عكرمة لابن عباس: أنهم لم يدخلوا في الظالمين المعذبين؛ كساه بردة وفرح به.

(١) ٣٥٣ أعلام جـ١.

...[1] ولله سبحانه على كل أحد عبودية بحسب مرتبته، سوى العبودية العامة التي سوى بين عباده فيها. فعلى العالم من عبوديته: نشر السنة والعلم الذي بعث الله به رسوله ما ليس على الجاهل، وعليه من عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره.

وعلى الحاكم من عبودية إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به، والصبر على ذلك، والجهاد عليه ما ليس على المفتي.

وعلى الغني من عبودية أداء الحقوق التي في ماله ما ليس على الفقير. وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بيده ولسانه ما ليس على العاجز عنهما.

وتكلم يحيى بن معاذ الرازي يوما في: الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقالت له امرأة: هذا واجب قد وضع عنا، فقال: هبي أنه قد وضع عنكن سلاح اليد واللسان، فلم يوضع عنكن سلاح القلب. فقالت: صدقت جزاك الله خيرًا.

وقد غر إبليس أكثر الخلق بأن حسن لهم القيام بنوع من: الذكر والقراءة والصلاة والصيام والزهد في الدنيا والانقطاع، وعطلوا هذه العبوديات، فلم يحدثوا قلوبهم بالقيام بها، وهؤلاء عند ورثة الأنبياء من أقل الناس دينا، فإن الدين هو القيام لله بما أمر به، فتارك حقوق الله التي تجب عليه أسوأ حالًا عند الله ورسوله من مرتكب المعاصي، فإن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النهي من أكثر من ثلاثين وجها، ذكرها شيخنا رحمه الله في بعض تصانيفه.

ومن له خبرة بما بعث الله به رسوله ﷺ، وبما كان عليه هو وأصحابه، رأى أن أكثر من يشار إليهم بالدين، هم أقل الناس دينا، والله المستعان.

وأي دين وأي خير فيمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضاع، ودينه يترك، وسنة رسول الله ﷺ يرغب عنها، وهو بارد القلب، ساكت اللسان؟ شيطان أخرس! كما أن المتكلم بالباطل شيطان ناطق، وهل بلية الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ورياساتهم فلا مبالاة بما جرى على الدين؟ وخيارهم المتحزن المتلمظ

---

(١) ١٥٧ أعلام جـ٢.

ولو نوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله بذل وتبذل وجد واجتهد واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه، وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله، ومقت الله لهم، قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون، وهو: موت القلوب. فإن القلب كلما كانت حياته أتم كان غضبه لله ورسوله أقوىٰ، وانتصاره للدين أكمل. وقد ذكر الإمام أحمد وغيره أثرًا أن الله سبحانه أوحىٰ إلىٰ ملك من الملائكة. أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال يا رب كيف وفيهم فلان العابد فقال: به فابدأ فإنه لم يتمعر وجهه فيَّ يومًا قط[١].

وذكر أبو عمر في كتاب التمهيد: أن الله سبحانه أوحىٰ إلىٰ نبي من أنبيائه أن قل لفلان الزاهد: أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت به الراحة، وأما انقطاعك إلي فقد اكتسبت به العز، ولكن ماذا عملت فيما لي عليك؟ فقال: يا رب وأي شيء لك عليَّ؟! قال: هل واليت فيَّ وليا أو عاديت فيَّ عدوا؟[٢].

***

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

[٣]كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها، فلابد أن يقول على الله غير الحق في فتواه، وحكمه في خبره، وإلزامه، لأن أحكام الرب سبحانه كثيرًا ما تأتي على خلاف أغراض الناس.

---

(١) أخرجه مرفوعًا الطبراني في ا لأوسط (٧/ ٣٣٦ رقم ٧٦٦١) والبيهقي في الشعب (٦/ ٩٧ رقم ٧٥٩٥) قال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٧٠): رواه الطبراني في الأوسط من رواية عبيد بن إسحاق العطار عن عمار بن سيف، وكلاهما ضعيف، ووثق عمار بن سيف ابن المبارك وجماعة ورضي أبو حاتم عبيد بن إسحاق.

(٢) التمهيد (١٧/ ٤٣٢، ٤٣٤) والاستذكار (٨/ ٤٤٦) وأخرج أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣١٦-٣١٧) والخطيب البغدادي في تاريخه (٣/ ٢٠٢) والديلمي في الفردوس (١/ ١٣٥ رقم ٥١٨).

(٣) ٩٨ فوائد.

ولاسيما أهل الرئاسة. والذين يتبعون الشهوات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرًا، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرئاسة، متبعين للشهوات، لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولاسيما إذا قامت له شبهة، فتتفق الشبهة والشهوة، ويثور الهوى، فيخفى الصواب، وينطمس وجه الحق. وإن كان الحق ظاهرًا لا خفاء به ولا شبهة فيه، أقدم على مخالفته وقال: لي مخرج بالتوبة. وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ [مريم: ٥٩]. وقال تعالى فيهم أيضًا: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا: سيغفر لنا، وإن عرض لهم عرض آخر أخذوه، فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه؟ فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وأما الذين يتقون، فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا، فلا يحملهم حب الرئاسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة. وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها، والآخرة وإقبالها ودوامها. وهؤلاء لا بد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل فيجتمع لهم الأمران، فإن اتّباع الهوى يعمي عين القلب، فلا يميز بين السنة والبدعة، أو ينكسه فيرى البدعة سنة، والسنة بدعة. فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا، واتبعوا الرئاسات والشهوات. وهذه الآيات فيهم إلى قوله: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ

ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]. فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

(وتأمّل) ما تضمنته هذه الآية من ذمه، وذلك من وجوه:

أحدها: أنه ضل بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلًا.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة، كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء، لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه، بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، ولم يقل تبعه، فإن معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظا ومعنى.

ورابعها: أنه غوي بعد الرشد. والغي: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد. فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه، لأنه لم يرفع به، فصار وبالًا عليه، فلو لم يكن عالما لكان خيرًا له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض، وميل بكليّته إلى ما هناك، وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به، قال مالك بن نويرة:

بأبناء حي من قبائل مالك ... وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا[(١)]

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى مالك بن نويرة بن جمرة اليربوعي التميمي، يقال له: فارس ذي الخمار، وذو الخمار فرسه، أدرك الإسلام وأسلم وولاه رسول الله ﷺ صدقات قومه: بني يربوع، مات سنة ١٢هـ. ذكرالبيت الطبري في تفسيره (٩/ ١٢٨)، والأصمعي في الأصمعيات (٦١).

وعبّر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها، وما يستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها: أنه رغب عن هداه، واتبع هواه، فجعل هواه إماما له، يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة، وأسقطها نفسا، وأبخلها وأشدها كَلَـبًا، ولهذا سمي كَلْبًا.

وعاشرها: أنه شبه لهثه على الدنيا، وعدم صبره عنها، وجزعه لفقدها، وحرصه على تحصيلها، بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا. هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا، وإن وعظ وزجر فهو كذلك. فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب.

قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلاً لهذا الكافر، فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال: كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث. وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخس ما يكون وأشنعه. فهذا حال العالم المؤثر الدنيا على الآخرة.

وأما العابد الجاهل فآفته من إعراضه عن العلم وأحكامه وغلبة خياله وذوقه ووجده وما تهواه نفسه. ولهذا قال سفيان بن عيينة وغيره: احذروا فتنة العالم الفاجر، وفتنة العابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون[1]، فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه، وذاك بغيّه يدعو إلى الفجور. وقد ضرب الله سبحانه مثل النوع الآخر بقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ

---

(١) أحمد في العلل ومعرفة الرجال (١/ ١١٨رقم ٤٤٥٠١) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٣٠٨ رقم ١٨٩٦) وابن المبارك في الزهد (رقم ٧٥) والآجري في مسألة الطائفين (رقم ٤) وانظر: الجرح والتعديل (١/ ٩٢) وتهذيب الكمال (١١/ ١٦٨).

رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧]، وقصته معروفة، فإنه بنى أساس أمره على عبادة الله بجهل، فأوقعه الشيطان بجهله، وكفّره بجهله. فهذا إمام كل عابد جاهل يكفر ولا يدري، وذاك إمام كل عالم فاجر، يختار الدنيا على الآخرة.

وقد جعل سبحانه رضا العبد بالدنيا، وطمأنينته وغفلته عن معرفة آياته، وتدبرها والعمل بها، سبب شقائه وهلاكه، ولا يجتمع هذان، أعني الرضا بالدنيا والغفلة عن آيات الرب إلا في قلب من لا يؤمن بالمعاد، ولا يرجو لقاء رب العباد، وإلا فلو رسخ قدمه في الإيمان بالمعاد، لما رضي الدنيا، ولا اطمأن إليها، ولا أعرض عن آيات الله. وأنت إذا تأملت أحوال الناس وجدت هذا الضرب هو الغالب على الناس وهم عمّار الدنيا. وأقل الناس عددًا من هو على خلاف ذلك، وهو من أشدّ الناس غربة بينهم، لهم شأن وله شأن، علمه غير علومهم، وإرادته غير إرادتهم، وطريقه غير طريقهم، فهو في وادٍ وهم في وادٍ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧، ٨]. ثم ذكر وصف ضد هؤلاء ومآلهم وعاقبتهم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩]. فهؤلاء إيمانهم بلقاء الله أورثهم عدم الرضا بالدنيا والطمأنينة إليها، ودوام ذكر آياته، فهذه مواريث الإيمان بالمعاد، وتلك مواريث عدم الإيمان به والغفلة عنه.

***

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

[(١)]في صحيح الحاكم وغيره من حديث أبي جعفر الرازي، ثنا الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبيِّ بن كعب في قوله ـ تعالىٰ ـ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال جمعهم له يومئذ جمعًا ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة، فجعلهم أزواجًا، ثم صورهم، واستنطقهم، فتكلَّموا، وأخذ عليهم العهد والميثاق، وأشهدهم علىٰ أنفسهم: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]. قال: «فإني أشهد عليكم: السموات السبع، والأرضين السبع؛ وأشهد عليكم أباكم آدم، أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم، أو تقولوا: إنا كنا عن هذا غافلين. فلا تشركوا بي شيئًا؛ فإني أرسل إليكم رسلي: يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي. فقالوا: نشهد أنك: ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك، ورُفع لهم أبوهم آدم، فرأىٰ فيهم: الغني والفقير، وحسن الصورة وغير ذلك، فقال: رب! لو سويت بين عبادك: فقال: إني أحب أن أشكر. ورأىٰ فيهم الأنبياء، مثل السرج[(٢)]، وذكر تمام الحديث.

وفي صحيحه وجامع الترمذي من حديث هشام بن يزيد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما خلق الله آدم، مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة؛ هو خالقها إلىٰ يوم القيامة: أمثال الذر، ثم جعل بين عيني كل إنسان منهم وبيصًا من نور، ثم عرضهم علىٰ آدم، فقال: من هؤلاء يا رب، فقال: هؤلاء ذريتك. فرأىٰ فيهم رجلًا، أعجبه وبيص ما بين عينيه، فقال: يا رب من هذا؟ قال: ابنك داود، يكون في آخر الأمم، قال: كم جعلت له من العمر؟ قال: ستين سنة. قال: يا رب زده من عمري أربعين سنة، قال الله: إذًا يكتب ويختم، فلا يبدل. فلما**

---

(١) ٩ شفاء.

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٣ رقم ٣٢٥٥) والضياء المقدسي في المختارة (٣/ ٣٦٣-٣٦٥ رقم ١١٥٨، ١١٥٩) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٩٩١) وانظر: التمهيد (١٨/ ٩٢) وصححه الحاكم. وحسنه الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح (رقم ١٢٢).

انقضى عمر آدم، جاءه ملك الموت، قال: أو لم يبق من عمري أربعون سنة، قال له: أو لم تجعلها لابنك داود؟ قال: فجحد، فجحدت ذريته، ونسي، فنسيت ذريته، وخطئ، فخطئت ذريته»[1] قال: هذا على شرط مسلم.

***

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

[2]وقال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]. قالوا: فهل بعد هذه الآية بيان، فإن هذا آتاه الله آياته، فانسلخ منها، وآثر الضلال والغي، وقصته معروفة، حتى قيل: إنه كان أوتي الاسم الأعظم. ومع هذا فلم ينفعه علمه، وكان من الغاوين؛ فلو استلزم العلم والمعرفة: الهداية لاستلزمه في حق هذا.

[3]فشبه سبحانه من أتاه كتابه وعلَّمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به، واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق: بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرها وحرصًا ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض، يتشمم

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٣٥٥ رقم ٣٢٥٧) والترمذي (رقم ٣٠٧٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الحاكم، وأبو يعلى (١١/ ٢٦٣ رقم ٦٣٧٧) وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٣٦٤). وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٢٠٨).

(٢) ٩٢ مفتاح جـ١.

(٣) ١٦٥ أعلام جـ١.

ويستروح حرصًا وشرها، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته، وهو من أمهن الحيوانات، وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا والجيف القذرة المروحة، أحب إليه من اللحم الطري، والعذرة أحب إليه من الحلوىٰ، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لم يدع كلبا واحدًا يتناول منها شيئا، إلا هر عليه وقهره، لحرصه وبخله وشرهه، ومن عجيب أمره وحرصه أنه إذا رأىٰ ذا هيئة رثة وثياب دنية وحال زرية نبحه وحمل عليه: كأنه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قوته، وإذا رأىٰ ذا هيئة حسنة وثياب جميلة ورياسة وضع له خطمه بالأرض، وخضع له، ولم يرفع إليه رأسه.

وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها علىٰ الله والدار الآخرة مع وفور علمه بالكلب في حال لهثه، سر بديع، وهو أن الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه، إنما كان لشدة لهفه علىٰ الدنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنىٰ. قال ابن جريج: الكلب منقطع الفؤاد، لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترك الهدىٰ، فلا فؤاد له، إنما فؤاده منقطع.

قلت: مراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله علىٰ الصبر وترك اللهث وهكذا الذي انسلخ من آيات الله، لم يبق معه فؤاد يحمله علىٰ الصبر عن الدنيا وترك اللهف عليها، فهذا يلهف علىٰ الدنيا من قلة صبره عنها، وهذا يلهث من قلة صبره عن الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صبرا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرىٰ من العطش، وإن كان فيه صبر علىٰ الجوع، وعلىٰ كل حال فهو من أشد الحيوانات لهثا، يلهث قائما وقاعدا وماشيا وواقفا، وذلك لشدة حرصه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث، فهكذا مشبهه شدة الحرص وحرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث، فإن حملت عليه الموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهث.

قال مجاهد: وذلك مثل الذي أوتي الكتاب ولم يعمل به.

وقال ابن عباس: إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها، وإن تركته لم يهتد إلى خير: كالكلب إن كان رابضا لهث، وإن طرد لهث(١).

وقال الحسن: هو المنافق لا يثبت على الحق، دُعِيَ أو لم يدع، وُعِظَ أو لم يوعظ: كالكلب يلهث، طرد أو ترك.

وقال عطاء: ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه.

وقال أبو محمد بن قتيبة(٢): كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة وحال الصحة وحال المرض والعطش، فضربه الله مثلًا لمن كذب بآياته.

وقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال: كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، ونظيره قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]. وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعنى، فمنها قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة، والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه، ثم قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم، ولم يقل: فسلخناه منها، لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه.

ومنها قوله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي لحقه وأدركه، كما قال في قوم فرعون: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ وكان محفوظًا محروسًا بآيات الله، محميَّ الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئًا إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته، فكان من الغاوين العاملين بخلاف علمهم، الذين

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٩/ ١٢٩) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٠ رقم ٨٥٦٩) وانظر: الدر المنثور (٣/ ٦٠٨).

(٢) تقدم قريبًا كلام ابن قتيبة مع اختلاف يسير في (ص ٢٧٥).

يعرفون الحق ويعملون بخلافه كعلماء السوء، ومنها أنه سبحانه قال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره وقصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع.

وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو: موضوع لا يرفع أحد به رأسًا، فإن الخافض الرافع سبحانه خفضه ولم يرفعه، والمعنى لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

قال ابن عباس: ولو شئنا لرفعناه بعمله بها. وقالت طائفة: الضمير في قوله: ﴿ لَرَفَعْنَٰهُ ﴾: عائد على الكفر، والمعنى: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بما معه من آياتنا قال مجاهد وعطاء: لرفعنا عنه الكفر بالإيمان وعصمناه، وهذا المعنى حق، والأول هو مراد الآية، وهذا من لوازم المراد وقد تقدم أن السلف كثيرًا ما ينبهون على لازم معنى الآية فيظن الظان أن ذلك هو المراد منها. وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ قال سعيد بن جبير: ركن إلى الأرض. وقال مجاهد: سكن. وقال مقاتل: رضي بالدنيا. وقال أبو عبيدة: لزمها وأبطأ. والمخلد من الرجال: هو الذي يبطيء مشيته. ومن الدواب: التي تبقى ثناياه إلى أن تخرج رباعيته. وقال الزجاج: خلد وأخلد، وأصله من الخلود، وهو الدوام والبقاء. ويقال: أخلد فلان بالمكان إذا أقام به، قال مالك بن نويرة:

بأبناء حي من قبائل مالك ... وعمرو بن يربوع أقاموا فأخلدوا[1]

قلت: ومنه قوله تعالى: ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴾ [الواقعة: ١٧] أي قد خلقوا للبقاء، لذلك لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم على سن واحد أبدًا، وقيل: هم المقرطون في آذانهم، والمسورون في أيديهم، وأصحاب هذا القول فسروا اللفظة ببعض لوازمها، وذلك أمارة التخليد على ذلك السن، فلا تنافي بين القولين وقوله: ﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ قال

(١) تقدم قريبًا (٢٧٤).

الكلبي: اتبع مسافل الأمور، وترك معاليها. وقال أبو روق: اختار الدنيا على الآخرة. وقال عطاء: أراد الدنيا وأطاع شيطانه. وقال ابن دريد: كان هواه مع القوم، يعني: الذين حاربوا موسى وقومه، وقال يمان: اتبع امرأته لأنها هي التي حملته على ما فعل.

فإن قيل: الاستدراك بلكن يقتضي أن يثبت بعدها ما نفي قبلها أو ينفي ما أثبت، كما تقول: لو شئت لأعطيته لكني لم أعطه، ولو شئت لما فعلت كذا لكني فعلته. فالاستدراك يقتضي: ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنا لم نشأ أو لم نرفع، فكيف استدرك بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾؟

قيل: هذا من الكلام الملحوظ فيه جانب المعنى، المعدول فيه عن مراعاة الألفاظ إلى المعاني، وذلك أن مضمون قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أنه لم يتعاط الأسباب التي تقتضي رفعه بالآيات من إيثار الله ومرضاته على هواه، ولكنه آثر الدنيا وأخلد إلى الأرض واتبع هواه.

***

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

[(١)] لما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الحواس كانوا بمنزلة فاقديها، قال تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١] فالقلب يوصف بالبصر والعمى والسمع والصمم والنطق والبكم، بل هذه له أصلًا، وللعين والأذن واللسان تبعًا فإذا عدمها القلب فصاحبه أعمى مفتوح العين، أصم ولا آفة بإذنه، أبكم وإن كان فصيح اللسان، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فلا تنافي بين قيام الحجة بالعلم وبين سلبه ونفيه بالطبع والختم والقفل

(١) ١٠١ مفتاح جـ١.

على قلوب من لا يعمل بموجب الحجة وينقاد لها.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦] فأخبر سبحانه أنه منعهم فقه كلامه، وهو الإدراك الذي ينتفع به من فقهه، ولم يكن ذلك مانعا لهم من الإدراك، الذي تقوم به الحجة عليهم، فإنهم لو لم يفهموه جملة ما ولوا على أدبارهم نفورا عند ذكر توحيد الله، فلما ولوا عند ذكر التوحيد دل على أنهم كانوا يفهمون الخطاب، وأن الذي غشي قلوبهم كالذي غشي آذانهم، ومعلوم أنهم لم يعدموا لا سمع جملة ويصيروا كالأصم[(١)].

***

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

[(٢)]قاعدة جليلة: ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى قاعدة نفس الذات، كقولك: ذات، وموجود، وشيء.

الثاني: ما يرجع إلى صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله نحو: الخالق والرزاق.

الرابع: ما يرجع إلى التنزيه المحض، ولابد من تضمنه ثبوتًا، إذ لا كمال في العدم المحض: كالقدوس، والسلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس، وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة، لا تختص بصفة معينة، بل هو دال على معناه، لا على معنى مفرد نحو المجيد، العظيم، الصمد. فإن المجيد: من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على

(١) استمر البحث وتطرق في آخره لتقسيم خطاب الله لأهل الكتاب. (ج).
(٢) ١٥٩ بدائع جـ١.

هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه استمجد المرخ والغفار[1] وأمجد الناقة علفا، ومنه ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾[البروج: ١٥] صفة للعرش لسعته وعظمه وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله علىٰ رسوله ﷺ كما علمناه؛ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتىٰ في هذا المطلوب باسم تقتضيه، كما تقول: اغفر لي، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، ولا يحسن إنك أنت السميع البصير، فهو راجع إلىٰ المتوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه، ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي: «**ألظوا بـ ياذا الجلال والإكرام**»[2] ومنه: «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام**»[3] فهذا سؤال له وتوسل إليه وبحمده، وأنه الذي لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعا عند المسئول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد، أشرنا إليه إشارة، وقد فتح لمن بصره الله.

ولنرجع إلىٰ المقصود، وهو وصفه تعالىٰ بالاسم المتضمن لصفات عديدة.

فالعظيم: من اتصف بصفات كثيرة من صفات الكمال، وكذلك الصمد. قال ابن عباس: هو السيد الذي كمل في سؤدده. وقال ابن وائل: هو السيد الذي انتهىٰ سؤدده وقال عكرمة: الذي ليس فوقه أحد. وكذلك قال الزجاج: الذي ينتهي إليه السؤدد..

---

(١) انظر: لسان العرب (٣/ ٣٩٦) ومختار الصحاح (ص ٢٥٧).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٨٠-٨١ رقم ٢٠٦٥) والترمذي (رقم ٣٥٢٤، ٣٥٢٥) وأبو يعلىٰ (٦/ ٤٤٥ رقم ٣٨٣٣) وأحمد (٤/ ١٧٧) وقال الزيلعي في تخريج الأحاديث الآثار (٣/ ٣٩٦): رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه... وقال ابن طاهر: إسناده لا بأس به.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ٣٥١ رقم ١٥١٤) والحاكم (١/ ٦٨٣ رقم ١٨٥٦) وابن حبان (٣/ ١٧٥ رقم ٨٩٣) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٣٨٦ رقم ١٢٢٣) وأبو داود (رقم ١٤٩٥) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٨) والطبراني في الصغير (رقم ١٠٣٨) وفي الكبير (٥/ ١٠١ رقم ٤٧٢٢) وأحمد (٣/ ١٥٨، ٢٤٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ١١٧١) وصححه الحاكم.

فقد صمد له كل شيء. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد السيد الذي ليس فوقه أحد، الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم.

واشتقاقه يدل على هذا، فإنه من الجمع والقصد، الذي اجتمع القصد نحوه، واجتمعت فيه صفات السؤدد، وهذا أصله في اللغة، كما قال:

ألا بكــر النــاعي بخيــر بنــي أســد بعمرو بـن يربـوع وبالـسيد الـصمد[1]

والعرب تسمي أشرافها: بالصمد لاجتماع قصد القاصدين إليه، واجتماع صفات السيادة فيه.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، العفو القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة، والأسماء المزدوجة في القرآن.

فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك. واجتماع الغنى مع الحمد: كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك العفو القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه من أشرف المعارف.

وأما صفات السلب المحض: فلا تدخل في أوصافه تعالى إلا أن تكون متضمنة لثبوت كالأحد المتضمن لانفراده بالربوبية والإلهية والسلام المتضمن لبراءته من كل نقص يضاد كماله، وكذلك الإخبار عنه بالسلوب، هو لتضمنها ثبوتًا، كقوله تعالى: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فإنه متضمن لكمال حياته وقيوميته، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨] متضمن لكمال قدرته، وكذلك قوله: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ ﴾ [يونس: ٦١] متضمن لكمال علمه وكذلك

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى هند بنت معبد، شاعرة جاهلية. ذكره الطبري في تفسيره (٣٠/ ٣٤٧) وفيه: بعمرو بن مسعود. وكذا ذكره الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٥٥) والهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٣٠٩) (٩/ ٢٨٢) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٤٠) ولسان العرب (٣/ ٢٥٨) (٤/ ٢٦٧) وذكر الطبراني والهيثمي أن هذا البيت من قول الأسدية، بينما ذكر عبد الله البكري الأندلسي في معجم ما استعجم (٣/ ٩٩٦) أنه من قول هند بنت معبد بن نضلة ترثي عمرو بن مسعود وخالد بن نضلة.

قوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣] متضمن لكمال صمديته وغناه، وكذلك قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤] متضمن لتفرده بكماله، وأنه لا نظير له، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] متضمن لعظمته، وأنه جل عن أن يدرك بحيث يحاط به، وهذا مطرد في كل ما وصف به نفسه من السلوب.

ويجب أن تعلم هنا أمور:

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته: كالشيء والموجود والقائم بنفسه، فإنه يخبر به عنه، ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه بل يطلق عليه منها كمالها، وهذا كالمريد والفاعل والصانع، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعال لما يريد، فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلًا وخبرًا.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يشتق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض المتأخرين، فجعل من أسمائه الحسنى: المضل، الفاتن، الماكر. تعالى الله عن قوله، فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة، فلا يجوز أن يسمى بأسمائها المطلقة، والله أعلم.

الرابع: أن أسماءه الحسنى هي أعلام وأوصاف، والوصف بها لا ينافي العلمية بخلاف أوصاف العباد، فإنها تنافي علميتهم، لأن أوصافهم مشتركة، فنافتها العلمية المختصة بخلاف أوصافه تعالى.

الخامس: أن الاسم من أسمائه له دلالات: دلالة على الذات والصفة بالمطابقة، ودلالة على أحدهما بالتضمن، ودلالة على الصفة الأخرى باللزوم.

السادس: أن أسماءه الحسنى لها اعتباران: اعتبار من حيث الذات، واعتبار من حيث الصفات، فهي بالاعتبار الأول مترادفة، وبالاعتبار الثاني متباينة.

السابع: أن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيًا كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه، فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه: هل هي توقيفية، أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع؟

الثامن: أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر به عنه فعلًا ومصدرًا، نحو السميع البصير القدير، يطلق عليه منه السمع والبصر والقدرة، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك نحو: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ ﴾ [المجادلة: ١]. ﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴾ [المرسلات: ٢٣] هذا إن كان الفعل متعديًا، فإن كان لازما لم يخبر عنه به نحو الحي، بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل، فلا يقال حيي.

التاسع: أن أفعال الرب تبارك وتعالىٰ صادرة عن أسمائه وصفاته. وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالرب تبارك وتعالىٰ فعاله عن كماله والمخلوق كماله عن فعاله، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل، فالرب لم يزل كاملًا، فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمل ففعل، والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق به.

العاشر: إحصاء الأسماء الحسنىٰ والعلم بها أصل للعلم بكل معلوم. فإن المعلومات سواه إما أن تكون خلقًا له تعالىٰ أو أمرًا. إما علم بما كونه، أو علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنىٰ، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فالأمر كله مصدره عن أسمائه الحسنىٰ، وهذا كله حسن لا يخرج عن مصالح العباد والرأفة والرحمة بهم والإحسان إليهم بتكميلهم بما أمرهم به ونهاهم عنه. فأمره كله: مصلحة، وحكمة، ولطف، وإحسان، إذ مصدره أسماؤه الحسنىٰ. وفعله كله لا يخرج عن: العدل، والحكمة، والمصلحة، والرحمة؛ إذ مصدره أسماؤه الحسنىٰ، فلا تفاوت في خلقه ولا عبث، ولم يخلق خلقه باطلا ولا سدىً ولا عبثًا.

وكما أن كل موجود سواه فبإيجاده فوجود من سواه تابع لوجوده، تبع المفعول

المخلوق لخالقه، فكذلك العلم بها أصل للعلم بكل ما سواه.

فالعلم بأسمائه وإحصاؤها أصل لسائر العلوم، فمن أحصى أسماءه كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم، إذ إحصاء أسمائه أصل لإحصاء كل معلوم، لأن المعلومات هي من مقتضاها ومرتبطة بها. وتأمل صدور الخلق والأمر عن علمه وحكمته تعالى، ولهذا لا تجد فيها خللا ولا تفاوتا لأن الخلل الواقع فيما يأمر به العبد أو يفعله: إما أن يكون لجهله به أو لعدم حكمته، وأما الرب تعالى فهو العليم الحكيم، فلا يلحق فعله ولا أمره خلل ولا تفاوت ولا تناقض.

الحادي عشر: أن أسماءه كلها حسنى، ليس فيها اسم غير ذلك أصلًا.

وقد تقدم أن من أسمائه ما يطلق عليه باعتبار الفعل نحو الخالق والرازق والمحيي والمميت، وهذا يدل على أن أفعاله كلها خيرات محض لا شر فيها، لأنه لو فعل الشر لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، وهذا باطل، فالشر ليس إليه، فكما لا يدخل في صفاته، ولا يلحق ذاته، لا يدخل في أفعاله، فالشر ليس إليه، لا يضاف إليه فعلا ولا وصفا، وإنما يدخل في مفعولاته، وفرق بين الفعل والمفعول، فالشر قائم بمفعوله المباين له، لا بفعله الذي هو فعله.

فتأمل هذا فإنه خفي على كثير من المتكلمين، وزلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام، وهدى الله أهل الحق لما اختلفوا فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الثاني عشر: في بيان مراتب إحصاء أسمائه، التي من أحصاها دخل الجنة، وهذا هو قطب السعادة، ومدار النجاة والفلاح. المرتبة الأولى: إحصاء ألفاظها وعددها. المرتبة الثانية: فهم معانيها ومدلولها. المرتبة الثالثة: دعاؤه بها كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[الأعراف: ١٨٠] وهو مرتبتان:

إحداهما: دعاء ثناء وعبادة.

والثانية: دعاء طلب ومسألة، فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسأل إلا بها، فلا يقال: يا موجود، أو يا شيء، أو يا ذات اغفر لي وارحمني،

بل يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيا لذلك المطلوب، فيكون السائل متوسلا إليه بذلك الاسم.

ومن تأمل أدعية الرسل ولاسيما خاتمهم وإمامهم وجدها مطابقة لهذا.

وهذه العبارة أولى من عبارة من قال يتخلق بأسماء الله، فإنها ليست بعبارة سديدة، وهي منتزعة من قول الفلاسفة بالتشبه بالإله على قدر الطاقة.

وأحسن منها عبارة أبي الحكم بن برهان: وهي التعبد.

وأحسن منها العبارة المطابقة للقرآن: وهي الدعاء، المتضمن للتعبد والسؤال.

فمراتبها أربعة أشدها إنكارا عبارة الفلاسفة، وهي التشبه، وأحسن منها عبارة من قال التخلق، وأحسن منها عبارة من قال التعبد، وأحسن من الجميع الدعاء، وهي لفظ القرآن.

الثالث عشر: اختلف النظار في الأسماء التي تطلق على الله وعلى العباد: كالحي والسميع والبصير والعليم والقدير والملك ونحوها.

فقالت طائفة من المتكلمين: هي حقيقة في العبد مجاز في الرب، وهذا قول غلاة الجهمية، وهو أخبث الأقوال، وأشدها فسادًا.

الثاني: مقابله وهو أنها: حقيقة في الرب مجاز في العبد، وهذا قول أبي العباس الناشئ.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول أهل السنة، وهو الصواب، واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجها عن كونها حقيقة فيهما.

وللرب تعالى منها ما يليق بجلاله، وللعبد منها ما يليق به، وليس هذا موضع التعرض لمأخذ هذه الأقوال، وإبطال باطلها، وتصحيح صحيحها، فإن الغرض الإشارة إلى أمور ينبغي معرفتها في هذا الباب، ولو كان المقصود بسطها لاستدعت سفرين أو أكثر.

الرابع عشر: أن الاسم والصفة من هذا النوع له ثلاثة اعتبارات: اعتبار من حيث هو مع قطع النظر عن تقييده بالرب تبارك وتعالى أو العبد. الاعتبار الثاني: اعتباره مضافًا إلى

الرب مختصًّا به. الثالث: اعتباره مضافا إلىٰ العبد مقيدًا به، فما لزم الاسم لذاته وحقيقته كان ثابتا للرب والعبد، وللرب منه ما يليق بكماله، وللعبد منه ما يليق به.

وهذا كاسم السميع الذي يلزمه إدراك المسموعات، والبصير الذي يلزمه رؤية المبصرات، والعليم والقدير وسائر الأسماء، فإن شرط صحة إطلاقها حصول معانيها وحقائقها للموصوف بها، فما لزم هذه الأسماء لذاتها، فإثباته للرب تعالىٰ لا محذور فيه بوجه، بل ثبتت له علىٰ وجه لا يماثله فيه خلقه ولا يشابههم.

فمن نفاه عنه لإطلاقه علىٰ المخلوق ألحد في أسمائه وجحد صفات كماله. ومن أثبته له علىٰ وجه يماثل فيه خلقه فقد شبهه بخلقه ومن شبه الله بخلقه فقد كفر. ومن أثبته له علىٰ وجه لا يماثل فيه خلقه، بل كما يليق بجلاله وعظمته فقد برئ من فرث التشبيه ودم التعطيل، وهذا طريق أهل السنة.

وما لزم الصفة لإضافتها إلىٰ العبد وجب نفيه عن الله، كما يلزم حياة العبد من النوم والسنة والحاجة إلىٰ الغذاء ونحو ذلك، وكذلك ما يلزم إرادته من حركة نفسه في جلب ما ينتفع به ودفع ما يتضرر به، وكذلك ما يلزم علوه من احتياجه إلىٰ ما هو عال عليه، وكونه محمولًا به مفتقرًا إليه، محاطًا به، كل هذا يجب نفيه عن القدوس السلام تبارك وتعالىٰ.

وما لزم صفة من جهة اختصاصه تعالىٰ بها، فإنه لا يثبت للمخلوق بوجه كعلمه الذي يلزمه القدم والوجوب والإحاطة بكل معلوم، وقدرته وإرادته وسائر صفاته، فإن ما يختص به منها لا يمكن إثباته للمخلوق، فإذا أحطت بهذه القاعدة خبرًا وعقلتها كما ينبغي خلصت من الآفتين اللتين هما أصل بلاء المتكلمين: آفة التعطيل وآفة التشبيه، فإنك إذا وفيت هذا المقام حقه من التصور أثبت لله الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ حقيقة، فخلصت من التعطيل ونفيت عنها خصائص المخلوقين ومشابهتهم، فخلصت من التشبيه، فتدبر هذا الموضع واجعله أخيَّتك[1] التي ترجع

(١) في المطبوعة «جُنَّتك» ولعل الصواب ما أثبتناه لدلالة الكلام بعدها (ج).

إليها في هذا الباب، والله الموفق للصواب.

الخامس العشر: أن الصفة متى قامت بموصوف لزمها أمور أربعة: أمران لفظيان، وأمران معنويان. فاللفظيان ثبوتي وسلبي، فالثبوتي أن يشتق للموصوف منها اسم. أن يمتنع الاشتقاق لغيره، والمعنويان ثبوتي وسلبي. فالثبوتي أن يعود حكمها إلىٰ الموصوف ويخبر بها عنه. والسلبي أن لا يعود حكمها إلىٰ غيره، ولا يكون خبرا عنه، وهي قاعدة عظيمة في معرفة الأسماء والصفات.

فلنذكر من ذلك مثالا واحدا، وهو صفة الكلام فإنها إذا قامت بمحل كانت هو التكلم دون من لم تقم به، وأخبر عنه بها، وعاد حكمها إليه دون غيره، فيقال: قال وأمر ونهىٰ ونادىٰ وناجىٰ وأخبر وخاطب وتكلم وكلم ونحو ذلك، وامتنعت هذه الأحكام لغيره، فيستدل بهذه الأحكام والأسماء علىٰ قيام الصفة به وبسلبها عن غيره علىٰ عدم قيامها به وهذا هو أصل السنة الذي ردوا به علىٰ المعتزلة والجهمية، وهو من أصح الأصول طردًا وعكسًا.

السادس عشر: أن الأسماء الحسنىٰ لا تدخل تحت حصر ولا تحد بعدد، فإن لله تعالىٰ أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده، لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما في الحديث الصحيح: «**أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[1].

فجعل أسماءه ثلاثة أقسام: قسم سمَّىٰ به نفسه، فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه، وقسم أنزل به كتابه، فتعرف به إلىٰ عباده، وقسم استأثر به في علم

---

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) والحاكم (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٧) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩ رقم ١٠٣٥٢) وأبو يعلىٰ (٩/ ١٩٨ رقم ٥٢٩٧) وأحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) والبزار (٥/ ٣٦٣ رقم ١٩٩٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦) رواه أحمد أبو يعلىٰ والبزار والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلىٰ رجال الصحيح غير أبي سلمة وقد وثقه ابن حبان، ونقل الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٢٢٠) تصحيح ابن حبان.

غيبه، فلم يطلع عليه أحد من خلقه. ولهذا قال: «استأثرت به» أي انفردت بعلمه، وليس المراد انفراده بالتسمي به، لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزل الله بها كتابه.

ومن هذا قول النبي ﷺ في حديث الشفاعة: «فيفتح عليَّ من محامده بما لا أحسنه الآن»(١) وتلك المحامد تفي بأسمائه وصفاته، ومنه قوله: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(٢) وأما قوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة»(٣) فالكلام جملة واحدة. وقوله: «ومن أحصاها دخل الجنة» صفة لا خبر مستقل.

والمعنى: له أسماء متعددة من شأنها أن من أحصاها دخل الجنة.

وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها، وهذا كما تقول لفلان مائة مملوك وقد أعدهم للجهاد، فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم معدون لغير الجهاد، وهذا لا خلاف بين العلماء فيه.

السابع عشر: أن أسماءه تعالى منها ما يطلق عليه مفردًا ومقترنًا بغيره، وهو غالب الأسماء: كالقدير والسميع والبصير والعزيز والحكيم، وهذا يسوغ أن يدعى به مفردا ومقترنا بغيره، فتقول: يا عزيز يا حليم يا غفور يا رحيم، وأن يفرد كل اسم، وكذلك في الثناء عليه والخبر عنه بما يسوغ لك الإفراد والجمع.

ومنها ما لا يطلق عليه بمفرده بل مقرونا بمقابله: كالمانع والضار والمنتقم، فلا يجوز أن يفرد هذا عن مقابله، فإنه مقرون بالمعطي والنافع والعفو، فهو المعطي المانع، الضار النافع، المنتقم العفو، المعز المذل، لأن الكمال في اقتران كل اسم من هذه بما يقابله، لأنه يراد به أنه المنفرد بالربوبية وتدبير الخلق والتصرف فيهم: عطاء ومنعًا، ونفعًا وضرًّا، وعفوًا وانتقامًا. وأما أن يثنى عليه بمجرد المنع والانتقام

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٢٧).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٩).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣٦) ومسلم (رقم ٢٦٧٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٢٠-٢٢٧) وشرح النووي (١٧/ ٥).

والإضرار فلا يسوغ.

فهذه الأسماء المزدوجة تجري الأسماء منها مجرىٰ الاسم الواحد، الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض، فهي وإن تعددت جارية مجرىٰ الاسم الواحد، ولذلك لم تجيء مفردة، ولم تطلق عليه إلا مقترنة فاعلمه، فلو قلت: يا مذل، يا ضار، يا مانع. وأخبرت بذلك لم تكن مثنيا عليه، ولا حامدا له، حتىٰ تذكر مقابلها.

الثامن عشر: أن الصفات ثلاثة أنواع: صفات كمال، وصفات نقص، وصفات لا تقتضي كمالا ولا نقصا، وإن كانت القسمة التقديرية تقتضي قسمًا رابعًا: وهو ما يكون كمالا ونقصا باعتبارين.

والرب تعالىٰ منزه عن الأقسام الثلاثة وموصوف بالقسم الأول، وصفاته كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله؟

وهكذا أسماؤه الدالة علىٰ صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيرًا بمرادف محض، بل هو علىٰ سبيل التقريب والتفهيم.

وإذا عرفت هذا فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنىٰ وأبعده وأنزهه عن شائبة عيب أو نقص، فله من صفة الإدراكات: العليم الخبير، دون العاقل الفقيه، والسميع البصير دون السامع والباصر والناظر، ومن صفات الإحسان البر الرحيم الودود دون الرفيق والشفوق ونحوهما.

وكذلك العلي العظيم دون الرفيع الشريف، وكذلك الكريم دون السخي، والخالق البارئ المصور دون الفاعل الصانع المشكل، والغفور العفو دون الصفوح الساتر.

وكذلك سائر أسمائه تعالىٰ يجري علىٰ نفسه منها أكملها وأحسنها، وما لا يقوم غيره مقامه فتأمل ذلك، فأسماؤه أحسن الأسماء، كما أن صفاته أكمل الصفات، فلا تعدل عما سمىٰ به نفسه إلىٰ غيره، كما لا تتجاوز ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله إلىٰ ما وصفه به المبطلون والمعطلون.

التاسع عشر: أن من أسمائه الحسنى ما يكون دالا على عدة صفات ويكون ذلك الاسم متناولا لجميعها تناول الاسم الدال على الصفة الواحدة لها كما تقدم بيانه كاسمه العظيم والمجيد والصمد.

كما قال ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبي حاتم في تفسيره: الصمد: السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف: الذي قد كمل في شرفه، والعظيم: الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والعليم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع شرفه وسؤدده، وهو الله سبحانه، هذه صفته لا تنبغي إلا له، ليس له كفوا أحد، وليس كمثله شيء، سبحان الله الواحد القهار[1]. هذا لفظه، وهذا مما خفي على كثير ممن تعاطى الكلام في تفسير الأسماء الحسنى، ففسر الاسم بدون معناه، ونقصه من حيث لا يعلم، فمن لم يحط بهذا علما بخس الاسم الأعظم حقه وهضمه معناه، فتدبره.

العشرون: وهي الجامعة لما تقدم من الوجوه، وهي معرفة الإلحاد في أسمائه حتى لا يقع فيه، قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف: ١٨٠].

والإلحاد في أسمائه هو العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو مأخوذ من الميل، كما يدل عليه مادته (ل ح د) فمنه اللحد، وهو الشق في جانب القبر، الذي قد مال عن الوسط، ومنه الملحد في الدين: المائل عن الحق إلى الباطل.

قال ابن السكيت: الملحد المائل عن الحق المدخل فيه ما ليس منه.

ومنه الملتحد، وهو مفتعل من ذلك، وقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧] أي من تعدل إليه، وتهرب إليه، وتلتجئ إليه، وتبتهل، فتميل إليه عن غيره، تقول العرب: التحد فلان إلى فلان إذا عدل إليه.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٧٤ رقم ١٩٥٣٥) وأبو الشيخ في العظمة (١/ ٣٨٣-٣٨٤ رقم ٩٦) وانظر: الدر المنثور (٨/ ٦٨٢) وتفسير ابن كثير (٤/ ٥٧١).

إذا عرف هذا فالإلحاد في أسمائه تعالىٰ أنواع:

أحدها: أن يسمي الأصنام بها كتسميتهم اللات من الإلهية، والعزىٰ من العزيز، وتسميتهم الصنم إلها، وهذا إلحاد حقيقة، فإنهم عدلوا بأسمائه إلىٰ أوثانهم وآلهتهم الباطلة.

الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله: كتسمية النصارىٰ له أبا، وتسمية الفلاسفة له موجبا بذاته أو علة فاعلة بالطبع، ونحو ذلك.

وثالثها: وصفه بما يتعالىٰ عنه ويتقدس من النقائص، كقول أخبث اليهود: إنه فقير. وقولهم: إنه استراح بعد أن خلق خلقه. وقولهم: ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة: ٦٤]، وأمثال ذلك مما هو إلحاد في أسمائه وصفاته.

ورابعها: تعطيل الأسماء عن معانيها وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي والرحيم والمتكلم والمريد، ويقولون لا حياة له ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا إرادة تقوم به، وهذا من أعظم الإلحاد فيها عقلًا وشرعا ولغة وفطرة، وهو يقابل إلحاد المشركين، فإن أولئك أعطوا أسماءه وصفاته لآلهتهم وهؤلاء سلبوه صفات كماله وجحدوها وعطلوها، فكلاهما ملحد في أسمائه.

ثم الجهمية وفروخهم متفاوتون في هذا الإلحاد، فمنهم الغالي والمتوسط والمنكوب، وكل من جحد شيئا مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله فقد ألحد في ذلك، فليستقل أو ليستكثر.

وخامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالىٰ الله عما يقول المشبهون علوًّا كبيرًا. فهذا الإلحاد في مقابلة إلحاد المعطلة، فإن أولئك نفوا صفة كماله وجحدوها، وهؤلاء شبهوها بصفات خلقه، فجمعهم الإلحاد، وتفرقت بهم طرقه، وبرأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أنزلت عليه لفظًا ولا

معنى، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه، وتنزيههم خليا من التعطيل، لا كمن شبه حتى كأنه يعبد صنمًا، أو عطل حتى كأنه لا يعبد إلا عدمًا.

وأهل السنة وسط في النحل، كما أن أهل الإسلام وسط في الملل، توقد مصابيح معارفهم ﴿ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾، فنسأل الله تعالى أن يهدينا لنوره، ويسهل لنا السبيل إلى الوصول إلى مرضاته ومتابعة رسوله، إنه قريب مجيب.

فهذه عشرون فائدة مضافة إلى القاعدة التي بدأنا بها في أقسام ما يوصف به الرب تبارك وتعالى، فعليك بمعرفتها ومراعاتها، ثم اشرح الأسماء الحسنى إن وجدت قلبا عاقلا ولسانا قائلا ومحلا قابلا، وإلا فالسكوت أولى بك، فجناب الربوبية أجل وأعز مما يخطر بالبال أو يعبر عنه المقال: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦] حتى ينتهي العلم إلى من أحاط بكل شيء علمًا.

وعسى الله أن يعين بفضله على تعليق شرح الأسماء الحسنى مراعيًا فيه أحكام هذه القواعد، بريئًا من الإلحاد في أسمائه وتعطيل صفاته، فهو المانّ بفضله، والله ذو الفضل العظيم.

...[1]قلت: أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت، فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية، فالرحمن اسمه تعالى ووصفه، لا تنافي اسميته وصفيته، فمن حيث هو صفة جرى تابعا على اسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع، بل ورود الاسم العلم.

ولما كان هذا الاسم مختصًا به تعالى؛ حسن مجيئه مفردًا غير تابع كمجيء اسم الله كذلك وهذا لا ينافي دلالته على صفة الرحمن كاسم الله تعالى فإنه دال على صفة الألوهية، ولم يجئ قط تابعًا لغيره بل متبوعًا، وهذا بخلاف العليم والقدير والسميع

(١) ٢٤ بدائع جـ١.

والبصير ونحوها، ولهذا لا تجيء هذه مفردة بل تابعة.

فتأمل هذه النكتة البديعة يظهر لك بها أن الرحمن اسم وصفة، لا ينافي أحدهما الآخر، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعًا.

وأما الجمع بين الرحمن الرحيم ففيه معنى هو أحسن من المعنيين اللذين ذكرهما، وهو أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧] ولم يجئ قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصوف بالرحمة، ورحيم هو الراحم برحمته، وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب، وإن تنفست عندها مرآة قلبك لم تنجل لك صورتها.

[(١)]إنه ليس في القرآن صفة إلا وقد دلَّ العقل الصريح على إثباتها لله تعالى، فقد تواطأ عليها دليل العقل والسمع، فلا يمكن أن يعارض ثبوتها دليل صحيح البتة، لا عقلي ولا سمعي؛ بل إن كان المعارض سمعيًا؛ كان كاذبًا مفترىً أو مما أخطأ المعارض به في فهمه. وإن كان عقليًا؛ فهي شبهة خيالية.

واعلم أن هذه دعوى عظيمة ينكرها كل جهمي ونافٍ وفيلسوف، ويعرفها من نوّر الله قلبه بالإيمان، وباشر قلبه معرفة الذي دعت إليه الرسل، وأقرت به الفطر، وشهدت به العقول الصحيحة المستقيمة لا المنكوسة المركوسة.

وقد نبَّه سبحانه في كتابه على ذلك في غير موضع، وبين أن ما وصف به نفسه هو الكمال الذي لا يستحقه سواه، فجاحده جاحد لكمال الرب تعالى. فإنه تمدح بكل صفة وصف بها نفسه، وأثنى بها على نفسه، ومجد بها نفسه، وحمد بها نفسه، فذكرها سبحانه على وجه المدحة له والتعظيم والتمجيد، وتعرف بها إلى عباده؛ ليعرفوا كماله ومجده وعظمته وجماله. وكثيرًا ما يذكرها عند ذكر آلهتهم التي عبدوها من دونه،

---

(١) ١٥٦ مختصر الصواعق جـ١.

فذكر سبحانه من صفات كماله وعلوه على عرشه وتكلمه وتكليمه وإحاطة علمه ونفوذ مشيئته؛ ما هو منتف عن آلهتهم، فيكون ذلك من أدل دليل على بطلان إلهيتها وفساد عبادتها.

ويذكر ذلك عند دعوته عباده إلى ذكره وشكره وعبادته، فيذكر لهم من أوصاف كماله ونعوت جلاله، ما يحدو قلوبهم إلى المبادرة إلى دعوته والمسارعة إلى طاعته.

ويذكر صفاته لهم عند ترغيبهم وترهيبهم؛ لتعرف القلوب من تخافه وترجوه. ويذكر صفاته أيضًا عند أحكامه وأوامره ونواهيه. فقلَّ أن تجد آية حكم من أحكام المكلفين؛ إلا وهي مختتمة بصفة من صفاته أو صفتين.

وقد يذكر الصفة في أول الآية ووسطها وآخرها كقوله: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١]. ويذكر صفاته عند سؤال عباده لرسوله ﷺ عنه.

ويذكرها عند سؤالهم له عن أحكامه، حتى إن الصلاة لا تنعقد إلا بذكر أسمائه وصفاته، فذكر أسمائه وصفاته؛ روحها وسرها، يصحبها من أولها إلى آخرها. وإنما أمر بإقامتها ليذكر بأسمائه وصفاته. وأمر عباده أن يسألوه بأسمائه وصفاته؛ ففتح لهم باب الدعاء: رغبًا، ورهبًا، ليذكره الداعي بأسمائه وصفاته فيتوسل إليه بها؛ ولهذا كان أفضل الدعاء ما توسَّل فيه الداعي إليه بأسمائه وصفاته، قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وكان اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: آية الكرسي، وفاتحة آل عمران، لاشتمالهما على صفة الحياة المتضمنة لجميع الصفات، وصفة القيومية المتضمنة لجميع الأفعال؛ ولهذا كانت سيدة آي القرآن وأفضلها.

ولهذا كانت سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن؛ لأنها أخلصت الإخبار عن الرب تعالى وصفاته، دون خلقه وأحكامه وثوابه وعقابه.

وسمع النبي ﷺ رجلًا يدعو: «**اللهم إني أسألك بأنك أنت الله، الذي لا إله إلا أنت،**

المنان، بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم»[(١)]. وسمع آخر يقول: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد»[(٢)]. فقال لأحدهما: «لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»، وقال للآخر: «سل تعطه»، وذلك لما تضمنه هذا الدعاء من أسماء الرب وصفاته، وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «ما أصاب عبدًا قط هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي وغمي؛ إلا أذهب الله همه وأبدله مكانه فرحًا». قالوا: أفلا نتعلمهن يا رسول الله؟ قال: «بلى، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن»[(٣)].

وقد نبه سبحانه على إثبات صفاته وأفعاله بطريق المعقول. فاستيقظت لتنبيهه العقول الحية، واستمرت على رقادها العقول الميتة، فقال في صفة العلم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]. فتأمَّل صحة هذا الدليل مع غاية إيجاز لفظه

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٧٥ رقم ٢٠٥٨) والحاكم (١/ ٦٨٣ رقم ١٨٥٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٣٨٦ رقم ١٢٢٣) وأبو داود (رقم ١٤٩٥) والترمذي (رقم ٣٥٤٤) والطبراني في الكبير (٥/ ١٠١ رقم ٤٧٢٢) وفي الدعاء (رقم ١١٦، ١١٧) وابن المبارك في الزهد (رقم ١١٧١).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٦٨٣ رقم ١٨٥٨) وابن حبان (٣/ ١٧٣ رقم ٨٩١) وأبو داود (رقم ١٤٩٣) والترمذي (رقم ٣٤٧٥) وأحمد (٣٤٩، ٣٥٠) والبيهقي في الشعب (٢/ ٥٢٥ رقم ٢٦٠٤) وابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٧٥٨) ونقل المنذري تصحيح الحاكم. وقال: قال المملي قال شيخنا الحافظ أبو الحسن المقدسي: وإسناده لا مطعن فيه،ولم يرد في هذا الباب حديث أجود إسنادًا منه.

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٧) وابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩ رقم ١٠٣٥٢) وفي الدعاء (رقم ١٠٣٥) وأبو يعلى (٩/ ١٩٨-١٩٩ رقم ٥٢٩٧) وأحمد (١/ ٤٥٢) والبزار (٥/ ٣٦٣ رقم ١٩٩٤) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٨٦- ١٨٧): رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني في والبزار ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان.

واختصاره. وقال: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧] فما أصح هذا الدليل وما أوجزه. وقال تعالىٰ في صفة الكلام: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٨]. نبه بهذا الدليل علىٰ أن من لا يكلم ولا يهدي؛ لا يصلح أن يكون إلهًا. وكذلك قوله في الآية الأخرىٰ عن العجل: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه: ٨٩]، فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم وعدم ملك الضر والنفع؛ دليلًا علىٰ عدم الإلهية، وهذا دليل عقلي سمعي علىٰ أن الإله لابد أن يكلم ويتكلم، ويملك لعباده الضر والنفع؛ وإلا لم يكن إلهًا، وقال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ٨-١٠]. نبه بهذا الدليل العقلي القاطع: أن الذي جعلك تتصرف وتتكلَّم وتعلم؛ أولىٰ أن يكون بصيرًا متكلمًا عالمًا. وأي دليل عقلي قطعي أقوىٰ من هذا وأبين وأقرب إلىٰ العقول؟! قال تعالىٰ في آلهة المشركين المعطلين: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٩٥]. فجعل سبحانه عدم البطش والسمع والمشي والبصر لهم دليلًا علىٰ عدم إلهية من عدمت منه هذه الصفات.

وقد وصف الله سبحانه نفسه بضد صفة أوثانهم وبضد ما وصفه به المعطلة والجهمية. فوصف نفسه: بالسمع والبصر والفعل باليدين والمجيء والإتيان، وذكر ضد صفات الأصنام التي جعل امتناع هذه الصفات فيها دليلًا علىٰ عدم إلهيتها. فتأمل آيات التوحيد والصفات في القرآن علىٰ كثرتها وتفننها واتساعها وتوعها؛ تجدها كلها قد أثبتت الكمال للموصوف بها، وأنه المتفرد بذلك الكمال، فليس له فيه شبيه ولا مثيل.

وأي دليل في العقل أوضح من إثبات الكمال المطلق لخالق هذا العالم ومدبره، وملك السموات والأرض وقيومهما؟ فإذا لم يكن في العقل إثبات جميع الكمال له فأي قضية تصح في العقل بعد هذا؟

ومن شك في أن صفة السمع والبصر والكلام والحياة والإرادة والقدرة والغضب

والرضا والفرح والرحمة كمال؛ فهو ممن سلب خاصة الإنسانية وانسلخ من العقل. بل من شك أن إثبات الوجه واليدين وما أثبته لنفسه معهما كمال؛ فهو مصاب في عقله. ومن شك أن كونه يفعل باختياره ما شاء ويتكلم إذا شاء، وينزل إلىٰ حيث يشاء، ويجيء إلىٰ حيث شاء غير كمال؛ فهو جاهل بالكمال؛ والجماد عنده أكمل من الحي الذي تقوم به الأفعال الاختيارية.

***

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

(1) من حكمته سبحانه ما منعهم من العلم علم الساعة ومعرفة آجالهم.

وفي ذلك من الحكمة البالغة ما لا يحتاج إلىٰ نظر، فلو عرف الإنسان مقدار عمره فإن كان قصير العمر لم يتهنأ بالعيش وكيف يتهنأ به وهو يترقب الموت في ذلك الوقت، فلولا طول الأمل لخربت الدنيا، وأنما عمارتها بالآمال وإن كان طويل العمر وقد تحقق ذلك فهو واثق بالبقاء، فلا يبالي بالانهماك في الشهوات والمعاصي وأنواع الفساد، ويقول: إذا قرب الوقت أحدثت توبة. وهذا مذهب لا يرتضيه الله تعالىٰ ﷻ من عباده، ولا يقبله منهم، ولا تصلح عليه أحوال العالم، ولا يصلح العالم إلا علىٰ هذا الذي اقتضته حكمته وسبق في علمه، فلو أن عبدًا من عبيدك عمل علىٰ أن يسخطك أعوامًا ثم يرضيك ساعة واحدة إذا تيقن أنه صائر إليك، لم تقبل منه ولم يفز لديك بما يفوز به من همه رضاك، وكذا سنة الله ﷻ أن العبد إذا عاين الانتقال إلىٰ الله تعالىٰ لم ينفعه توبة ولا

---

(١) ٢٨٣ مفتاح جـ١.

إقلاع. قال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ [النساء: ١٨]، وقوله: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

والله تعالىٰ إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع الذنب منه علىٰ وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة، فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار في نفسه، فهذا ترجىٰ له مغفرة الله وصفحه وعفوه، لعلمه تعالىٰ بضعفه وغلبة شهوته له، وأنه يرىٰ كل وقت ما لا صبر له عليه، فهو إذا واقع الذنب واقعه مواقعة ذليل خاضع لربه خائف مختلج في صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الإيمان له، فهو يجيب داعي النفس تارة، وداعي الإيمان تارات.

فأما من بنىٰ أمره علىٰ أن لا يقف عن ذنب ولا يقدم خوفًا، ولا يدع لله شهوة، وهو فرح مسرور يضحك ظهرًا لبطن إذ ظفر بالذنب، فهذا الذي يخاف عليه أن يحال بينه وبين التوبة، ولا يوفق لها، فإنه من معاصيه وقبائحه علىٰ نقد عاجل يتقاضاه سلفا وتعجيلا، ومن توبته وإيابه ورجوعه إلىٰ الله علىٰ دين مؤجل إلىٰ انقضاء الأجل.

وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال بينهم وبين التوبة غالبا، لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلىٰ مخالفة الطبع والنفس والاستمرار علىٰ ذلك شديد علىٰ النفس صعب عليها، أثقل من الجبال، ولاسيما إذا انضاف إلىٰ ذلك ضعف البصيرة وقلة النصيب من الإيمان، فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقدا بنسيئة، ولا عاجلا بآجل. كما قال بعض هؤلاء وقد سئل: أيما أحب إليك درهم اليوم أو دينار غدا؟ فقال: لا هذا ولا هذا، ولكن ربع درهم من أول أمس، فحرام علىٰ هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله.

...[١]ومنها مخالفة الحديث صريحَ القرآن: كحديث مقدار الدنيا: «وأنها سبعة آلاف سنة، ونحن في الألف السابعة»[٢].

---

(١) ٨٠ المنار المنيف.

(٢) لم أجده.

وهذا من أبين الكذب؛ لأنه لو كان صحيحًا لكان كلُّ أحد عالمًا أنه قد بقي للقيامة من وقتنا هذا مئتان وأحد وخمسون سنة، والله تعالىٰ يقول: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]. وقال النبي ﷺ: «**لا يعلم متىٰ تقوم الساعة إلا الله**»(١).

وقد جاهر بالكذب بعض من يدَّعي في زماننا العلم ـ وهو يتشبع بما لم يعط ـ أن رسول الله ﷺ كان يعلم متىٰ تقوم الساعة، قيل له: فقد قال في حديث جبريل: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**»(٢)، فحرفه عن موضعه، وقال: معناه: أنا وأنت نعلمها. وهذا من أعظم الجهل وأقبح التحريف. والنبي ﷺ أعلم بالله من أن يقول لمن كان يظنه أعرابيًّا: أنا وأنت نعلم الساعة، إلا أن يقول هذا الجاهل: إنه كان يعرف أنه جبريل ورسول الله ﷺ هو الصادق في قوله: «**والذي نفسي بيده ما جاءني في صورة إلا عرفته، غير هذه الصورة**»(٣). وفي اللفظ الآخر: «**ما شبه عليَّ غير هذه المرة**»(٤). وفي اللفظ الآخر: «**ردوا عليَّ الأعرابي، فذهبوا فالتمسوا، فلم يجدوا شيئًا**»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٩٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٦٥) وعمدة القاري (١٨/ ٣١٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٩، ١٠) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢١) وشرح النووي (١/ ١٥٨).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٥٢-٥٣) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم ٣٦٨) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٤١): رواه الطبراني في الكبير ورجاله موثقون.

(٤) أخرجه ابن حبان (١/ ٣٩٧ -٣٩٨ رقم ١٧٣) والدارقطني (٢/ ٢٨٢ رقم ٢٠٧) وابن منده في الإيمان (١/ ١٤٦ -١٤٧ رقم ١٣) والبيهقي في الاعتقاد (ص ٢٠٦-٢٠٧) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (١/ ١٢٤): قال ابن حبان: تفرد سليمان التيمي بقوله: خذوا عنه. قلت: وهو من الثقات الأثبات.

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٧٧) بلفظ قريب: «ردوا عليَّ» فأخذوا ليردوا فلم يروا شيئًا. فقال: «هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم» وعند مسلم (رقم ٩) بلفظ: «ردوا عليَّ الرجلَ».

وإنما علم النبي ﷺ أنه جبريل بعد مدة، كما قال عمر: فلبثت مليًّا، ثم قال النبي ﷺ: «يا عمر أتدري من السائل؟»[(١)] والمحرِّف يقول: علم وقت السؤال أنه جبريل، ولم يخبر الصحابة بذلك إلا بعد مدة. ثم قوله في الحديث: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» يعم كل سائل ومسئول، فكل سائل ومسئول عن هذه الساعة شأنهما كذلك.

ولكن هؤلاء الغلاة عندهم أن علم رسول الله ﷺ منطبق على علم الله، سواء بسواء، فكل ما يعلمه الله يعلمه رسول الله ﷺ، والله تعالى يقول: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١]. وهذا في «براءة» وهو في أواخر «براءة»، وهي من أواخر ما نزل من القرآن، هذا والمنافقون جيرانه في المدينة. ومن هذا حديث: «عقد عائشة رضي الله عنها لما أرسل في طلبه فأثاروا الجمل فوجدوه»[(٢)]. ومن هذا حديث تلقيح النخل، وقال: «ما أرى لو تركتموه يضره شيء» فتركوه فجاء شيصًا، فقال: «أنتم أعلم بدنياكم»[(٣)]. وقد قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. ولما جرى لأم المؤمنين عائشة ما جرى، ورماها أهل الإفك بما رموها به، لم يكن ﷺ يعلم حقيقة الأمر، حتى جاءه الوحي من الله ببراءتها.

وعند هؤلاء الغلاة أنه عليه الصلاة والسلام كان يعلم الحال على حقيقته بلا ريبة، واستشار الناس في فراقها، ودعا الجارية فسألها وهو يعلم الحال، وقال لها: «إن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله»[(٤)] وهو يعلم علمًا يقينًا أنها لم تلم بذنب. ولا ريب أن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٨) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٤).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦١) ومسلم (رقم ٢٧٧٠).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٦٣) وانظر: شرح النووي (١٥/ ١١٦-١١٨).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤١٤١) ومسلم (رقم ٢٧٧٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٧٥) وشرح النووي (١٧/ ١١١).

الحامل لهؤلاء على هذا اللغو إنما هو اعتقادهم أنه يكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم الجنة، وكلما غلوا وزادوا غلوا فيه كانوا أقرب إليه وأخص به، فهم أعصى الناس لأمره، وأشدهم مخالفة لسنته، وهؤلاء فيهم شبه ظاهر من النصارى الذين غلوا في المسيح أعظم الغلو وخالفوا شرعه ودينه أعظم المخالفة.

والمقصود أن هؤلاء يصدقون بالأحاديث المكذوبة الصريحة، ويحرفون الأحاديث الصحيحة عن مواضعها لترويج معتقداتهم.

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) ﴾.

[1]قد استقرت حكمة الله ﷻ في خلقه وأمره على وقوع التناسب والتآلف بين الأشباه، وانجذابِ الشيء إلى مُوافقه ومجانسه بالطبع، وهُروبه من مخالفه، ونُفرته عنه بالطبع، فسِرُّ التمازج والاتصال في العالم العُلوي والسُّفلي، إنما هو التناسبُ والتشاكلُ، والتوافقُ، وسِرُّ التباين والانفصال، إنما هو بعدم التشاكل والتناسب، وعلى ذلك قام الخلق والأمر، فالمِثْلُ إلى مثلِه مائلٌ، وإليه صائرٌ، والضِّدُّ عن ضده هارب، وعنه نافرٌ، وقد قال تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، فجعل سُبحانه عِلَّةَ سكون الرَّجل إلى امرأته كونَها مِن جنسه وجوهره، فعِلَّةُ السكون المذكور وهو الحب كونُها منه، فدل على أن العِلَّة ليست بحُسن الصورة، ولا الموافقة فى القصد والإرادة، ولا فى الخلق والهَدْي، وإن كانت هذه أيضاً من أسباب السكون والمحبة.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «الأرْواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدةٌ، فما تَعارَفَ منها

(١) ٣١٩ زاد المعاد جـ٣.

ائْتلَفَ، وما تَناكَرَ منها اخْتَلَفَ»[(١)]. وفي مسند الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة في سبب هذا الحديث: أنَّ امرأة بمكةَ كانت تُضِحكُ الناسَ، فجاءت إلى المدينة، فنزلتْ على امرأة تُضِحكُ الناسَ، فقال النبيُّ ﷺ: «الأرواحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ...»... الحديثَ.

وقد استقرتْ شريعتُه سُبحانه أنَّ حُكم الشيء حُكْمُ مثله، فلا تُفَرِّقُ شريعته بين متماثلين أبداً، ولا تجمعُ بين مضادَّين، ومَن ظنَّ خِلاف ذلك، فإمَّا لِقلَّة علمه بالشريعة، وإما لِتقصيره في معرفة التماثُل والاختلاف، وإمَّا لنسبته إلى الشريعة ما لم يُنزلْ به سلطاناً، بل يكونُ من آراء الرجال، فبحكمتِه وعدلِه ظهر خَلقُه وشرعُه، وبالعدل والميزان قام الخلقُ والشرع، وهو التسويةُ بين المتماثلَيْن، والتفريق بين المختلفَيْن. هذا كما أنه ثابت في الدنيا، فهو كذلك يومَ القيامة. قال تعالى: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

قال عمر بن الخطاب ﷺ وبعدَه الإمامُ أحمد رحمه الله: أزواجهم أشباهُهم ونُظراؤهم. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧] أي: قُرِن كلُّ صاحب عملٍ بشكله ونظيره، فقُرِن بين المتحابِّين في الله في الجَنَّة، وقُرِن بين المتحابِّين في طاعة الشيطان في الجحيم، فالمرءُ مع مَن أَحَبَّ شاء أم أبَى...

[(٢)]والله تعالى يقول: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

فجعل علة السكون أنها منه، لو كان علة الحب حسن الصورة الجسدية؛ لوجب أن لا يُستحسنَ الأنقص من الصور، ونحن نجد كثيرًا ممن يؤثر الأدنى، ويعلم فضل غيره، ولا يجد محيدًا لقلبه عنه، ولو كان للموافقة في الأخلاق لما أحب المرء من لا

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٣٦) ومسلم (رقم ٢٦٣٨) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٦٩-٣٧٠) وشرح ا لنووي (١٦/ ١٨٥).
(٢) ٨٦ روضة.

يساعده ولا يوافقه، فعلمنا أنه شيء في ذات النفس، وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب، وتلك تفنى بفناء سببها.

(١) قوله تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠].

فالنفس الواحدة وزوجها: آدم وحواء، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما. ولا يلتفت إلى غير ذلك مما قيل: إن آدم وحوّاء كانا لا يعيش لهما ولدٌ؛ فأتاهما إبليس فقال: إن أحببتما أن يعش لكما ولدٌ فسمياه عبد الحارث ففعلا؛ فإن الله سبحانه اجتباه وهداه، فلم يكن ليشرك به بعد ذلك.

ونظير هذا الاستطراد قوله: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة: ١٨٩] ثم قال: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩] فإنهم كانوا يفعلون ذلك في الإحرام، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذي هو من فوائد الأهلة استطرد منه إلى ذكر ما يفعلونه فيه، وهو كثير جدًّا.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾.

(٢) بين سبحانه أن هذه الأصنام أشباح وصور خالية عن صفات الإلهية، وأن المعنى المعتبر معدومٌ فيها، وأنها لو دعيت لم تجب، فهي صور خالية عن أوصاف

(١) ٣٠٨ روضة.
(٢) ١٤٩ أعلام جـ١.

ومعان تقتضي عبادتها، وزاد هذا تقريرًا بقوله: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾.

أي إن جميع ما لهذه الأصنام من الأعضاء التي نحتتها أيديكم إنما هي صور عاطلة عن حقائقها وصفاتها، لأن المعنى المراد المختص بالرِّجْل هو مشيها، وهو معدوم في هذه الرِّجْل، والمعنى المختص باليد هو بطشها، وهو معدوم في هذه اليد، والمراد بالعين إبصارها، وهو معدوم في هذه العين، ومن الأذن سمعها وهو معدوم فيها، والصور في ذلك كله ثابتة موجودة، وكلها فارغة خالية عن الأوصاف والمعاني، فاستوى وجودها وعدمها، وهذا كله مدحض لقياس الشبه الخالي عن العلة المؤثرة والوصف المقتضي للحكم، والله أعلم.

[(١)] فقال تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٤]، ولهذا نفى الله عن الكفار: السمع والبصر والعقول، إما لعدم انتفاعهم بها، فنزلت منزلة المعدوم، وإما لأن النفي توجه إلى أسماع قلوبهم وأبصارها، وإدراكها؛ ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور، كقول أصحاب السعير: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠]، ومنه في أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨] فإنهم كانوا ينظرون إلى صورة النبي ﷺ بالحواس الظاهرة ولا يبصرون صورة نبوته ومعناها بالحاسة الباطنة، التي هي بصر القلب.

والقول الثاني: إن الضمير عائد على الأصنام. ثم فيه قولان:

أحدهما: أنه على التشبيه، أي كأنهم ينظرون إليك، ولا أبصار لهم يرونك بها.

والثاني: المراد به المقابلة تقول العرب: داري تنظر دارك، أي تقابلها.

وكذلك السمع ثابت لهم، وبه قامت الحجة عليهم. ومنتف عنهم وهو سمع

(١) ٤١٠ مدارج السالكين جـ٢.

القلب، فإنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك: كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاء ونداء، ولم يسمعوه بالروح الحقيقي، الذي هو روح حاسة السمع التي هي حظ القلب، فلو سمعوه من هذه الجهة: لحصلت لهم الحياة الطيبة، التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب، ولزال عنهم الصمم والبكم، ولأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة من عدم السمع والعقل.

فحصول السمع الحقيقي: مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة، التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم، فإن بها يحصل غذاء القلب ويعتدل، فتتم قوته وحياته وسروره ونعيمه وبهجته، وإذا فقد غذاءه الصالح: احتاج إلى أن يعتاض عنه بغذاء قبيح خبيث، وإذا فسد غذاؤه وخبث: نقص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب ما فسد من غذائه كالبدن إذا فسد غذاؤه ونقص.

***

﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾.

[(١)] ليس المراد إعراضه عمن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده، وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه، فلا يقابله ولا يعاتبه. قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم: صن فنسك عن مقابلتهم على سفههم، وهذا كثير في كلامهم.

[(٢)] وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ . قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية[(٣)]. وقد ذكر: أنه لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ لجبريل: «ما هذا»؟ قال: لا أدري حتى أسأل. فسأل ثم رجع إليه فقال: «إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن

(١) ١٠٠ مفتاح جـ١.
(٢) ٣٠٥ مدارج جـ٢.
(٣) ذكر هذا القول الحافظ ابن حجر في الفتح (٨/ ٣٠٦) وبدر الدين العيني في عمدة القاري (١٨/ ٢٤٣).

ظلمك»[١] ولا ريب أن للمطاع مع الناس ثلاثة أحوال:

أحدها: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم.

الثاني: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة.

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موال، ومعاد له معارض، وعليه في كل واحد من هذه واجب.

فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحهم وصلاح شأنهم، وينهاهم عن ضده.

وواجبه فيما يبذلونه له من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم وطوعت له به أنفسهم سماحة واختيارا، ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم.

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه: الإعراض عنهم وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه، فقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾. قال عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما: أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس[٢]. وقال مجاهد: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تجسيس[٣]. مثل قبول الأعذار والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: خذ ما عفا لك من أموالهم[٤]. وهو الفاضل عن العيال، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة: ٢١٩]. ثم قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ وهو كل معروف،

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (٩/ ١٥٥) وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (رقم ٢٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٠٦) (١٣/ ٢٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٤٣، ٤٦٤٤) والطبري في تفسيره (٩/ ١٥٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٠٥) وعمدة القاري (١٨/ ٢٤٢).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٥٤) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٨) وعمدة القاري (١٨/ ٢٤٢) وعون المعبود (١٣/ ١٠٠).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٥٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٠٥).

وأعرفه: التوحيد، ثم حقوق العبودية، وحقوق العبيد، ثم قال تعالىٰ ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ يعني إذا سفه عليك الجاهل، فلا تقابله بالسفه، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] وعلىٰ هذا فليست بمنسوخة، بل يعرض عنه مع إقامة حق الله عليه، ولا ينتقم لنفسه.

وهكذا كان خلقه ﷺ قال أنس ﷺ: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقًا»[١]، وقال: «ما مسست ديباجًا ولا حريرًا ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ[٢]، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته؟ لم فعلته ولا لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا»[٣] متفق عليهما.

[٤]وقال تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

فقوله: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ ﴾ عام مطلق، وقوله: ﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ خاص بأهل اليقين، ونظير ذلك قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧] ونظيره في الخصوص قوله تعالىٰ: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]، وقوله: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٠٣) ومسلم (رقم ٦٥٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٨٣) وشرح النووي (١٢٨/١٤) (٦٩/١٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٧٣) (٣٥٦١) ومسلم (رقم ٢٣٣٠) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٧٦) وعمدة القاري (١١/ ٨٧).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٠٩).

(٤) ١٦٩ إغاثة جـ٢.

ﱡٱلسَّلَٰمِ ﱠ [المائدة: ١٦]، ونظيره أيضًا قوله: ﱡ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﱠ[آل عمران: ١٣٨].

وقد أخبر أنه هدىً عام لجميع المكلفين. فقال: ﱡ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ﱠ[النجم: ٢٣].

فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس، والبصائر جمع بصيرة، وهي فعيلة بمعنى مفعلة، أي مبصرة لمن تبصر. ومنه قوله تعالى: ﱡ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ ﱠ [الإسراء: ٥٩]. أي مبينة موجبة للتبصير.

وفعل الإبصار يستعمل لازمًا ومتعديا. يقال: أبصرته، بمعنى أريته، وأبصرته، بمعنى رأيته، فمبصرة في الآية: بمعنى مرئية، لا بمعنى رائية، والذين ظنوها بمعنى رائية غلطوا في الآية، وتحيروا في معناها. فإنه يقال: بصر به، وأبصره، فيُعدَّى بالباء تارة، والهمزة تارة. ثم يقال: أبصرته كذا، أي أريته إياه، كما يقال: بصرته به. وبصر هو به.

فهاهنا بصيرة، وتبصرة، ومبصرة. فالبصيرة: المبينة التي تبصر، والتبصرة مصدر مثل التذكرة، وسُمِّي بها ما يوجب التبصرة، فيقال: هذه الآية تبصرة، لكونها آلة التبصر، وموجبه.

فالقرآن بصيرة وتبصرة، وهدى وشفاء، ورحمة، بمعنى عام، وبمعنى خاص. ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدى للعالمين، وموعظة للمتقين، وهدى للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، فهو في نفسه هدى ورحمة، وشفاء وموعظة.

فمن اهتدى به واتعظ واشتفى؛ كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي يحصل به الشفاء، فهو دواء له بالفعل. وإن لم يستعمله، فهو دواء له بالقوة، وكذلك الهدى. فالقرآن هدى بالفعل لمن اهتدى به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنما يُهتدى به ويُرحم، ويتعظ المتقون الموقنون. والهدى في الأصل: مصدر هدى يهدي هدًى.

فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديا، كما في الأثر: «من ازداد علما ولم يزدد هدى لم

يزدد من الله تعالىٰ إلا بعدًا»، ولكن يسمىٰ هدًى، لأن من شأنه أن يهديَ.

وهذا أحسن من قول من قال: إنه هدًى، بمعنىٰ هاد، فهو مصدر بمعنىٰ الفاعل، كعدل بمعنىٰ العادل، وزَوْر بمعنىٰ: الزائر، ورجل صَوْم أي بمعنىٰ صائم، فإن الله سبحانه قد أخبر أنه يهدي به. فالله الهادي، وكتابه الهدىٰ الذي يهدي به علىٰ لسان رسوله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم.

فهاهنا ثلاثة أشياء: فاعلٌ وقابلٌ وآلةٌ. فالفاعل: هو الله تعالىٰ، والقابل: قلب العبد، والآلة: هو الذي يحصل به الهدىٰ، وهو الكتاب المنزل، والله سبحانه يهدي خلقه هدىٰ، كما يقال: دلهم دلالة، وأرشدهم إرشادًا، وبين لهم بيانًا.

والمقصود: أن المحل القابل هو قلب العبد المتقي، المنيب إلىٰ ربه، الخائف منه، الذىٰ يبتغي رضاه، ويهرب من سخطه، فإذا هداه الله فكأنه وصل أثر فعله إلىٰ محل قابل، فيتأثر به، فصار هُدًىٰ له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول، وإذا لم يكن المحل قابلًا وصل إليه الهدىٰ فلم يؤثر فيه، كما يصل الغذاء إلىٰ محل غير قابل للاغتذاء، فإنه لا يؤثر فيه شيئًا، بل لا يزيده إلا ضعفًا وفسادًا إلىٰ فساده، كما قال تعالىٰ في السورة التي نزلها: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]، وقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢]. فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة، ولعدم آلة الهدىٰ تارة، ولعدم فعل الفاعل، وهو الهادي تارة، ولا يحصل الهدىٰ علىٰ الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

***

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾.

(١) قال: «والذكر: هو التلخص من الغفلة والنسيان والفرق بين الغفلة والنسيان: أن

---

(١) ٤٣٤ مدارج جـ٢.

«الغفلة» ترك باختيار الغافل، و«النسيان» ترك بغير اختياره؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] ولم يقل: ولا تكن من الناسين، فإن النسيان لا يدخل تحت التكليف، فلا ينهىٰ عنه.

قال: «وهو علىٰ ثلاث درجات الدرجة الأولىٰ: الذكر الظاهر ثناءً أو دعاءً أو رعايةً». يريد بالظاهر: الجاري علىٰ اللسان المطابق للقلب، لا مجرد الذكر اللساني، فإن القوم لا يعتدون به.

فأما ذكر الثناء: فنحو: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» وأما ذكر الدعاء فنحو: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] و«يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»[١] ونحو ذلك. وأما ذكر الرعاية: فمثل قول الذاكر: الله معي، والله ناظر إلي، الله شاهدي، ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله، وفيه رعاية لمصلحة القلب، ولحفظ الأدب مع الله، والتحرز من الغفلة، والاعتصام من الشيطان والنفس. والأذكار النبوية تجمع الأنواع الثلاثة، فإنها متضمنة للثناء علىٰ الله، والتعرض للدعاء والسؤال والتصريح به، كما في الحديث: «أفضل الدعاء الحمد لله»[٢] قيل لسفيان بن عيينة: كيف جعلها دعاءً؟ قال: أما سمعت قول أمية بن أبي الصلت لعبد الله بن جدعان يرجو نائله:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حباؤك إن شيمتك الحباء
إذا أثنىٰ عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضه الثناء[٣]

فهذا مخلوق واكتفىٰ من مخلوق بالثناء عليه من سؤاله فكيف برب العالمين

(١) أخرجه الضياء في المختارة (٦/ ٣٠٠ رقم ٢٣١٩، ٢٣٢٠) والحاكم (١/ ٦٨٩ رقم ١٨٧٥) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ١٤٧ رقم ١٠٤٠٥) والترمذي (رقم ٣٥٢٤). وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤٧٧٧).
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) تقدم ذكرهما في (ص ٢٢٦).

والأذكار النبوية متضمنة أيضا لكمال الرعاية ومصلحة القلب والتحرز من الغفلات والاعتصام من الوساوس والشيطان، والله أعلم.

[(١)] أعظم الأسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة ولذة النعيم في الدارين، ويدخل عليه عدوه منها؛ هو الغفلة المضادة للعلم، والكسل المضاد للإرادة والعزيمة، هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء، وهما من عدم العلم. أما الغفلة فمضادة للعلم منافية له، وقد ذم سبحانه أهلها، ونهى عن السكون منهم وطاعتهم والقبول منهم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال النبي ﷺ في وصيته لنساء المؤمنين: «**لا تغفلن فتنسين الرحمة**»[(٢)].

وسئل بعض العلماء عن عشق الصور، فقال: قلوب غفلت عن ذكر الله؛ فابتلاها الله بعبودية غيره، فالقلب الغافل مأوى الشيطان...

[(٣)] والمقصود: أن الغفلة والكسل اللذين هما أصل الحرمان سببهما عدم العلم، فعاد النقص كله إلى عدم العلم والعزيمة، والكمال كله إلى العلم والعزيمة، والناس في هذا على أربعة أضرب:

الضرب الأول: من رزق علمًا وأعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل، وهذا

---

(١) ١١٢ مفتاح جـ١.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٨٣) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٦/ ٧٣ رقم ٣٢٨٥) وأحمد (٦/ ٣٧٠) وعبد بن حميد (رقم ١٥٧٠) وابن أبي شيبة (٢/ ١٦٠ رقم ٧٦٥٦) والطبراني في الأوسط (٥/ ١٨٢ - ١٨٣ رقم ٥٠١٦) وفي الدعاء (رقم ١٧٧١) وإسحاق بن راهويه (٥/ ١٩٨-١٩٩ رقم ٢٣٢٧).

(٣) ١١٤ مفتاح جـ١.

الضرب خلاصة الخلق، وهم الموصوفون في القرآن بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾، وقوله: ﴿ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [ص: ٤٥]. وبقوله: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢] فبالحياة تنال العزيمة، وبالنور ينال العلم، وأئمة هذا الضرب؛ هم أولو العزم من الرسل.

الضرب الثاني: من حرم هذا وهذا، وهم الموصوفون بقوله: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢] وبقوله: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤] وبقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [النمل: ٨٠] وقوله: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢].

وهذا الصنف شر البرية، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، وعند أنفسهم أنهم يعلمون ولكن ظاهرًا من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون، ويعلمون ولكن ما يضرهم ولا ينفعهم، وينطقون ولكن عن الهوىٰ ينطقون. ويتكلمون ولكن بالجهل يتكلمون. ويؤمنون ولكن بالجبت والطاغوت. ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم. ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق. ويتفكرون ويبيتون ولكن ما لا يرضىٰ من القول يبيتون. ويدعون ولكن مع الله إلهًا آخر يدعون. ويذكرون ولكن إذا ذكروا لا يذكرون. ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون. ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يبغون. ويكتبون ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يسكبون، ويقولون: إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، فهذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة، وجلهم إذا فكرت فهم حمير أو كلاب أو ذئاب.

وصدق البحتري في قوله:

لم يبق من جل هذا الناس باقية ينالها الوهم إلا هذه الصور[١]

وقال الآخر:

لا تخدعنك اللحى والصور تسعة أعشار من ترى بقر

في شجر السرو منهم مثل لها رواء وما لها ثمر[٢]

وأحسن من هذا كله قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] عالمهم كما قيل فيه:

زوامل للأسفار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا بأوساقه أو راح ما في الغرائر[٣]

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى الوليد بن عبيد بن يحيى الطائي الشهير بالبحتري الشاعر الكبير، كان يقال لشعره: سلاسل الذهب، وهو أحد الثلاثة الذين كانوا أشعر أبناء عصرهم: المتنبي وأبو تمام والبحتري. قيل لأبي العلاء المعري: أي الثلاثة أشعر؟ فقال: المتنبي وأبو تمام حكيمان، وإنما الشاعر البحتري، مات سنة ٢٨٤هـ.

(٢) هذان البيتان من بحر المنسرح، وينسب إلى ابن لكنك البصري، وصفه الثعالبي بفرد البصرة وصدر أدبائها، وقال: أكثر شعره ملح وطرف، جلها في شكوى الزمان وأهله، وهجاء شعراء عصره. ولم يسلم من هجائه المتنبي. وهو صاحب هذا البيت:

نعيب زماننا والعيب فينا ولو نطق الزمان إذًا هجانا

مات سنة ٣٦٠هـ.

(٣) هذان البيتان من بحر الطويل، وينسبان إلى مروان بن سلمان بن يحيى بن أبي حفصة، شاعر عالي الطبقة، أدرك العصرين الأموي والعباسي، مدح المهدي والهادي وهارون الرشيدن يمتاز شعره بالعراقة والجودة ومتانة الألفاظ وسداد الرأي، تعصب للعباسيين فاغتاله بعض المتطرفين من الشيعة العلويين ببغداد سنة ١٨٢هـ وذكرهما الرامهرمزي في أمثال الحديث (ص ٨٩) وابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص ١٠). والجرجاني في أسرار البلاغة (ص ١٥٦).

لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

الضرب الثالث: من فتح له باب العلم، وأغلق عنه باب العزم والعمل، فهذا في رتبة الجاهل أو شر منه، وفي الحديث المرفوع: «**أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه**»(١) ثبته أبو نعيم وغيره، فهذا جهله كان خيرًا له واخف لعذابه من علمه فما زاده العلم إلا وبالًا وعذابًا، وهذا لا مطمع في صلاحه، فإن التائه عن الطريق يرجى له العود إليها إذا أبصرها، فإذا عرفها وحاد عنها عمدًا فمتى ترجى هدايته، قال تعالى: ﴿ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

الضرب الرابع: من رزق حظًّا من العزيمة والإرادة، ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة، فهذا إذا وفق له الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠] رزقنا الله من فضله، ولا حرمنا بسوء أعمالنا، إنه غفور رحيم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأعراف

والحمد لله رب العالمين



(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٧١ رقم ١١٢٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٨٤-٢٨٥ رقم ١٧٧٨) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥٦/ ٣٠٧) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٣٩) وقواعد التحديث (ص ٣٩٦).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

[1]لما كان في رمضان من هذه السنة؛ بلغ رسول الله ﷺ خبر العير المقبلة من الشام لقريش، صُحبةَ أبي سفيان، وهي العِير التي خرجوا في طلبها لما خرجت مِن مكة، وكانوا نحو أربعين رجلاً، وفيها أموالٌ عظيمة لِقريش، فندب رسولُ الله ﷺ الناسَ للخروج إليها، وأمر مَن كان ظهرُه حاضراً بالنهوض، ولم يحْتَفِلْ لها احتفالاً بليغاً، لأنه خرج مُسْرِعاً في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، ولم يكن معهم من الخيل إلا فَرَسانِ: فرس للزبير بن العوام، وفرسٌ للمِقداد بن الأسود الكِندي، وكان معهم سبعون بعيراً، يَعْتَقِبُ الرجلان والثلاثةُ على البعير الواحد، وكان رسولُ الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب، ومَرْثَدُ بنُ أبي مَرْثَدٍ الغَنوي، يعتقِبُون بعيراً، وزيدُ بن حارثة، وابنُه، وكبشةُ موالى رسول الله ﷺ، يعتَقِبُونَ بعيراً، وأبو بكر، وعمر، وعبدُ الرحمن بن عوف، يعتقِبُونَ بعيراً، واستخلف على المدينةِ وعلى الصلاة ابنَ أمِّ مكتوم، فلما كان بالرَّوحاءِ رد أبا لُبابة بنَ عبد المنذر، واستعمله على المدينة، ودفع اللِّواء إلى مُصعبِ بنِ عُمَير، والراية الواحدة، إلى عليّ بن أبي طالب، والأخرى التي للأنصار إلى سعد بن معاذ، وجعل على الساقة قيسَ بنَ أبي صَعْصَعَةَ، وسار، فلما قَرُبَ مِن الصَّفْرَاء، بعث بَسْبَسَ بنَ عمرو الجهني، وعدي ابن أبي الزَّغْباء الجهني، إلى بَدْر يتجسَّسان أخبارَ العِير.

وأما أبو سفيان، فإنه بلغه مخرجَ رسول الله ﷺ وقصده إياه، فاستأجر ضَمْضَمَ بنَ عَمْرو الغِفاري إلى مكة، مُستصْرخاً لقريش بالنَّفير إلى عِيرهم، ليمنعوه من محمد وأصحابه، وبلغ الصريخُ أهلَ مكة، فنهضوا مُسرِعين، وأوعبوا في الخروج، فلم

(١) زاد المعاد جـ٢.

يتخلَّفْ من أشرافهم أحدٌ سوى أبي لهب، فإنَّه عوَّض عنه رجلاً كان له عليه دَيْن، وحشدُوا مَنْ حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي، فلم يخرُجْ معهم منهم أحد، وخرجوا مِن ديارهم، كما قال تعالى: ﴿ بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٤٧]، وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ: «بِحَدِّهِمْ وَحَدِيدِهِم، تُحَادُّ اللهَ وَتُحَادُّ رَسُولَه»، وجاؤوا على حَرْدٍ قادرين، وعلى حميَّةٍ، وغضبٍ، وحَنَقٍ على رسول الله ﷺ وأصحابِه، لما يُريدون مِن أخذ عيرهم، وقتل مَن فيها، وقد أصابُوا بالأمسِ عَمْرو بن الحضرمي، والعِير التي كانت معه، فجمعهم اللهُ على غير ميعاد، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولما بلغَ رسولَ الله ﷺ خروجُ قريش، استشار أصحابه، فتكلَّم المهاجِرون فأحسَنُوا، ثم استشارهم ثانياً، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثالثاً، ففهمت الأنصارُ أنه يَعنيهم، فبادر سعدُ بنُ معاذ، فقال: «يا رسول الله، كَأَنَّكَ تُعَرِّضُ بنا؟» وكان إنما يَعنيهم، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم، فلما عزم على الخُروج، استشارهم لِيعلم ما عندهم، فقال له سعد: «لَعَلَّكَ تَخْشَى أَنْ تَكُون الأَنصارُ تَرَى حقًّا عليها أن لا ينصروكَ إلا في ديارها، وإني أقول عن الأنصار، وأُجِيب عنهم: فاظْعَنْ حَيْثُ شِئْت، وَصِلْ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ، واقْطَعْ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ، وخُذْ مِنْ أمْوَالِنَا مَا شِئْتَ، وَأَعطِنَا مَا شِئْتَ، وَمَا أَخَذْتَ مِنَّا كَانَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِمَّا تَرَكْتَ، ومَا أَمَرْتَ فِيهِ مِنْ أَمْرٍ فَأَمْرُنَا تَبَعٌ لأَمْرِكَ، فَواللهِ لَئِن سِرْتَ حَتَّى تَبْلُغ البَرْكَ مِنْ غمدَان، لَنَسِيرَنَّ مَعَكَ، وَوَاللهِ لَئِنِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هذَا البَحْرَ خُضْنَاهُ مَعَكَ»، وقَالَ لَهُ المِقْدَادُ: «لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسى: ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢٤]، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ، وَمِنْ خَلْفِكَ». فأشرق وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وسُرَّ بِمَا سَمِعَ مِنْ أصحابِه، وقالَ: «سِيرُوا

وأَبْشروا، فإنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَني إحْدَىٰ الطَّائِفَتَيْنِ، وإنِّي قَدْ رَأَيْتُ مَصارعَ القَوْمِ».

فسار رسولُ الله ﷺ إلىٰ بدر، وخَفَضَ أبو سفيان فَلَحِقَ بساحل البحر، ولما رأىٰ أنه قد نجا، وأحرز العير، كتب إلىٰ قريش: أن ارجعوا، فإنكم إنما خرجتُم لِتُحْرِزُوا عيركم. فأتاهم الخبرُ، وهم بالجُحْفَةِ، فهمُّوا بالرجوع، فقال أبو جهل: واللهِ لا نرجع حتىٰ نَقْدمَ بدراً، فنقيمَ بها، ونُطعِمَ مَنْ حَضَرَنَا مِن العرب، وتخافُنَا العربُ بعد ذلك، فأشار الأخنس بن شُريق عليهم بالرجوع، فَعَصَوْه، فرجع هو وبنو زُهرة، فلم يشهد بدراً زُهري، فاغتبطت بنو زُهرة بعدُ برأي الأخنس، فلم يزل فيهم مطاعاً معظماً، وأرادَتْ بنو هاشم الرجوع، فاشتدَّ عليهم أبو جهل، وقال: لا تُفَارِقُنَا هذه العِصابة حتىٰ نَرْجِعَ فساروا.

وسارَ رسولُ الله ﷺ حتىٰ نزل عشاءَ أدنىٰ ماء مِن مياه بدر، فقال: «أَشيرُوا عَلَيَّ في المَنْزِل». فقال الحُبَابُ بنُ المنذر: يا رسول الله؛ أنا عالم بها وبِقُلُبِهَا، إن رأيتَ أن نسيرَ إلىٰ قُلُبٍ قد عرفناها، فهي كثيرة الماء، عذبة، فننزِلَ عليها، ونَسبِقَ القوم إليها، ونُغوِّر ما سواها مِن المياه. وسار المشركون سِراعاً يريدون الماء.

وبعث عليًّا وسعداً والزبير إلىٰ بدر يلتمِسُون الخبر، فَقَدِمُوا بعبدين لقريش، ورسولُ الله ﷺ قائم يُصلِّي، فسألهما أصحابُه: مَنْ أنتما؟ قالا: نحن سُقاةٌ لِقريش، فكره ذلك أصحابه، ووَدُّوا لو كانا لِعير أبي سفيان، فلما سلَّم رسولُ الله ﷺ قال لهما: «أَخْبِرَانِي أَيْنَ قُرَيْشٌ»؟ قالا: وراء هذا الكثيب. فقال: «كم القومُ»؟ فقالا: لا عِلم لنا، فقال: «كم ينحرونَ كُلَّ يوم»؟ فقالا: يوماً عشراً، ويوماً تسعاً، فقال رسولُ الله ﷺ: «القومُ ما بينَ تسعمائة إلىٰ الألف»، فأنزل الله ﷻ في تلك الليلة مطراً واحداً، فكان علىٰ المشركين وابلاً شديداً منعهم من التقدم، وكان علىٰ المسلمين طَلاً طهَّرهم به، وأذهب عنهم رجْسَ الشيطان، ووطَّأ به الأرضَ، وصلَّب به الرملَ، وثبَّتَ الأقدام، ومهَّدَ به المنزل، وربطَ به علىٰ قلوبهم، فسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلىٰ الماء، فنزلوا عليه شطرَ الليل، وصنعوا الحياض، ثم غوَّروا ما عداها من المياه، ونزل رسول الله

ﷺ وأصحابه على الحياض. وبُنِيَ لرسول الله ﷺ عريش يكون فيها على تلٍّ مشرف على المعركة، ومشي في موضع المعركة، وجعل يُشير بيده: «هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله»، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته[(١)].

فلما طلع المشركون، وتراءى الجمعانِ، قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ هذه قُرَيْشٌ جَاءَتْ بِخيلائِها وفَخْرِهَا، جَاءَتْ تُحادُّك، وَتكَذِّبُ رَسُولَكَ». وقام، ورفع يديه، واستنصر ربَّه وقال: «اللَّهُمَّ أنْجِزْ لي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ»، فالتزمه الصِّدِّيق من ورائه، وقال: «يا رسول الله؛ أبشر، فوالذي نفسي بيده، لَيُنجِزَنَّ الله لكَ ما وَعَدَكَ»[(٢)]. واستنصر المسلمون الله، واستغاثوه، وأخلصوا له، وتضرَّعُوا إليه، فَأَوْحَى الله إلى مَلائِكَتِهِ: ﴿ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأنفال: ١٢] وأَوْحَى الله إلى رسوله: ﴿ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال: ٩] قرئ بكسر الدال وفتحها فقيل: المعنى: إنهم رِدْفٌ لكم. وقيل: يُرْدِفُ بعضُهم بعضًا أرسالاً لم يأتوا دَفعةً واحدة.

فإن قيل: ههنا ذكر أنه أمدَّهم بألفٍ، وفي سورة آل عمران قال: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٤-١٢٥]، فكيف الجمع بينهما؟

قيل: قد اختُلِفَ في هذا الإمداد الذي هو بثلاثة آلاف، والذي بالخمسة على قولين:

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ١٨٥-١٨٦) وابن سعد في الطبقات (٢/ ١٣-١٤) قال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٢-١٣): قلت: هذا كله في سيرة ابن هشام في غزوة بدر الكبرى من قول ابن إسحاق، وأخرج الطبري بعضه عن ابن عباس، وبعضه عن عروة بن الزبير، وبعضه عن السدي بتقديم وتأخير وزيادة ونقص، وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٦) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٠) وعون المعبود (٧/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه الطبري بنحوه في تفسيره (٩/ ٢٠٤) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٢) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣١٦) وفتح الباري (٧/ ٢٨٩) وتخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٨-١٩).

أحدهما: أنه كان يومَ أُحُد، وكان إمداداً معلَّقاً على شرط، فلما فات شرطُه، فات الإمدادُ، وهذا قولُ الضحاك ومقاتِل، وإحدى الروايتين عن عِكرمة.

والثاني: أنه كان يومَ بدر، وهذا قولُ ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والرواية الأخرى عن عِكرمة، اختاره جماعة من المفسِّرين.

حجة هؤلاء أن السياق يدل على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: هذا الإمداد ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

قال هؤلاء: فلما استغاثوا، أمدَّهم بتمام ثلاثةِ آلاف، ثم أمدَّهم بتمامِ خمسة آلافٍ لما صبرُوا واتقوا، فكان هذا التدريجُ، ومتابعة الإمداد، أحسن موقعاً، وأقوى لِنفوسهم، وأسرَّ لها من أن يأتي به مرةً واحدة، وهو بمنزلة متابعة الوحي ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقةُ الأولى: القصة في سياق أُحُد، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضاً في أثنائها، فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢١-١٢٢]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣] فذكَّرهم نعمتَه عليهم لمَّا نصرهم ببدر، وهم أذلة، ثم عاد إلى قصةِ أُحُد، وأخبر عن قول رسوله لهم: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، ثم وعدهم أنهم إن صبرُوا واتَّقُوا، أمدَّهم بخمسة آلاف، فهذا من قول رسولِهِ، والإمداد الذي ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة آلاف، وإمدَادُ بدر بألف، وهذا معلَّق على شرط، وذلك مطلق، والقصة في سورة آل عمران هي قصة أُحُد مستوفاة مطوَّلة، وبدر ذُكرت فيها اعتراضاً،

والقصة في سورة الأنفال قصة بدر مستوفاة مطوَّلة، فالسياق في آل عمران غير السياق في الأنفال.

يوضح هذا أن قوله: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ١٢٥]، قد قال مجاهد: إنه يومُ أُحد، وهذا يستلزِمُ أن يكون الإمدادُ المذكور فيه، فلا يَصِحُّ قولُه: إن الإمداد بهذا العدد كان يومَ بدر، وإتيانُهم من فورهم هذا يومَ أُحُد.. والله أعلم.

وباتَ رسولُ الله ﷺ يصلي إلى جِذْع شجرة هُناك، وكانت ليلةَ الجمعة السابع عشرَ من رمضان في السنة الثانية، فلما أصبحوا، أقبلتْ قريشٌ في كتائبها، واصطَف الفريقانِ، فمشى حكيمُ بنُ حِزام، وعُتبةُ بن ربيعة في قريش، أن يرْجِعُوا ولا يقاتلوا، فأبى ذلك أبو جهل، وجرى بينه وبين عتبة كلامٌ أَحْفَظَهُ، وأمر أبو جهل أخا عَمْرو بن الحضرمي أن يطلب دَمَ أخيه عَمْرو، فكشف عن اسْتِهِ، وصرخ: واعَمْراهُ، فحمي القومُ، ونشَبتِ الحربُ، وعَدَّلَ رسولُ الله ﷺ الصفوفَ، ثم رجع إلى العَريشِ هو وأبو بكر خاصة، وقام سعدُ بن معاذ في قوم من الأنصار على باب العريشِ، يحمون رسولَ الله ﷺ.

وخرج عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، والوليدُ بن عُتبة، يطلبون المبارزة، فخرج إليهم ثلاثةٌ من الأنصار: عبدُ الله بن رواحة، وعوفٌ، ومُعَوِّذٌ ابنا عفراء، فقالوا لهم: مَن أنتم؟ فقالوا: من الأنصار. قالوا: أكفَاءٌ كِرام، وإنما نُريد بني عمنا، فبرز إليهم عليٌّ وعُبيدة بن الحارث وحمزةُ، فقتل عليٌّ قِرْنَه الوليد، وقتل حمزة قِرنه عُتبة واختلف عُبيدة وقِرنُه الوليد[1] ضربتين، فكَّر عليٌّ وحمزةُ على قِرن عُبيدة، فقتلاه واحتملا عُبيدة ـ وقد قُطِعت

(١) المشهور كما في كتب السيرة أن قرن عبيدة بن الحارث هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس وليس الوليد كما ذكر العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ فالوليد كان قرن عليّ بن أبي طالب وقتله عليّ وقتل حمزة شيبة بن ربيعة بن عبد شمس، وقال ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٢٥٢: قال ابن إسحاق: وعتبة بن ربيعة بن عبد شمس قتله عبيدة بن الحارث بن المطلب. قال ابن هشام: اشترك فيه هو وحمزة وعلي.

قال ابن إسحاق: وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس قتله حمزة بن عبد المطلب، والوليد بن عتبة بن ربيعة قتله علي بن أبي طالب. وذكره أيضًا المباركفوري في الرحيق المختوم ص ٢١٦/ ٢١٧.

رجله ـ، فلم يزل صمتًا، حتى مات بالصَّفْراءِ. وكان عليٌّ يُقسِمُ بالله: لنزلت هذه الآيةُ فيهم: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ الآية(١) [الحج: ١٩].

ثم حمي الوطيسُ، واستدارت رَحى الحربِ، واشتدَّ القِتال، وأخذ رسولُ الله ﷺ في الدعاء والابتهالِ، ومناشدة ربِّه ﷻ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فردَّه عليه الصِّدِّيق ﷺ، وقال: «بعض مُناشَدَتِكَ ربَّكَ، فإِنَّهُ منجزٌ لَكَ ما وَعَدَكَ»(٢). فأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة، وأخذ القومَ النعاسُ في حال الحربِ، ثم رفعَ رسولُ الله ﷺ رأسَه فقال: «أَبْشِرْ يا أَبَا بَكْر، هذا جِبْرِيلُ عَلَى ثَنَايَاه النَّقْع(٣)». وجاء النصر، وأنزل الله جنده، وأيَّد رسوله والمؤمنين، ومنحهم أكتافَ المُشركِينَ أسراً وقتلاً، فقتلوا منهم سبعين، وأسرُوا سبعينَ.

***

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝ ﴾.

(٤)قال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الأنفال: ١٢] في تفسيرها: قوُّوا قلوبهم، وبشروهم بالنصر. وقيل: احضروا معهم، والقولان حق. فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٦٥) ومسلم (رقم ١٧٥٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٩٧) (٨/ ٤٤٤). وشرح النووي (١٨/ ١٦٦) وعمدة القاري (١٧/ ٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦٣) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٨٩) وشرح النووي (١٢/ ٨٥).

(٣) هذا اللفظ ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٧٤) وعزاه إلى ابن إسحاق وابن المنذر، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٢) والرياض النضرة (٢/ ٣٥).

(٤) ٤٦ مدارج جـ١.

[(١)] إن الختم على القلب لا يستلزم الصبر، بل قد يختم على قلب العبد ويسلبه صبره، بل إذا ختم على القلب زال الصبر وضعف، بخلاف الربط على القلب فإنه يستلزم الصبر، كما قال تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ [الأنفال: ١١] ومعنى الربط في اللغة الشد. ولهذا يقال لكل من صبر على أمر: ربط قلبه كأنه حبس قلبه عن الاضطراب، ومنه يقال: هو رابط الجأش. وقد ظن الواحدي أن «على» زائدة، والمعنى: يربط قلوبكم، وليس كما ظن، بل بين ربط الشيء والربط عليه فرق ظاهر، فإنه يقال: ربط الفرس والدابة، ولا يقال: ربط عليها، فإذا أحاط الربط بالشيء وعمه قيل: ربط عليه كأنه أحاط عليه بالربط، فلهذا قيل: ربط على قلبه وكان أحسن من أن يقال: ربط قلبه، والمقصود أن هذا الربط يكون معه الصبر أشد وأثبت بخلاف الختم.

***

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

[(٢)] لما عزموا على الخروج، ذكروا ما بينهم وبينَ بني كنانة مِن الحرب، فتبدَّىٰ لهم إبليسُ في صورة سُراقة بن مالك المُدْلجي، وكان مِن أشراف كنانة، فقال لهم: لا غَالِبَ لكم اليومَ من الناس، وإني جارٌ لكم من أن تأتيكم كِنانة بشيءٍ تكرهُونه، فخرجوا والشيطانُ جارٌ لهم لا يُفارقهم، فلما انبعثوا للقتال، ورأىٰ عدوُّ الله جندَ الله قد نزلت مِن السماء، فرَّ، ونكَصَ على عقبيه، فقالوا: إلى أين يا سُراقة ؟ ألم تكن قُلْتَ: إنك جار لنا لا تُفَارِقُنَا؟ فقال: إني أرىٰ ما لا ترون، إني أخاف اللهَ، واللهُ شديدُ العِقَاب[(٣)]، وصدق في قوله: إني أرىٰ ما لا ترون، وكذب في قوله: إني أخاف اللهَ.

(١) ١١٨ التبيان.

(٢) ٢٢٣ زاد المعاد جـ٢.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣١٨-٣١٩).

وقيل: كان خوفه على نفسه أن يَهْلِكَ معهم، وهذا أظهر.

ولما رأى المنافقون ومَن في قلبه مرض قِلَّة حزبِ الله وكثرةَ أعدائه، ظنُّوا أن الغلبة إنما هي بالكثرة، وقالوا: ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٤٩]، فأخبر الله سبحانه أن النصر بالتوكل عليه لا بالكثرة، ولا بالعدد، والله عزيز لا يُغلَب، حكيم ينصر مَن يستحق النصر، وإن كان ضعيفاً، فعزتُه وحكمتُه أوجبت نصرَ الفئةِ المتوكِّلَةِ عليه.

ولما دنا العدو وتواجه القومُ، قام رسول الله ﷺ في الناس، فوعظهم، وذكَّرهم بما لهم في الصبر والثباتِ مِن النصرِ، والظفرِ العاجِلِ، وثوابِ اللهِ الآجل، وأخبرهم «أن الله قد أوجبَ الجنة لمن استشهد في سبيلِهِ»، فقام عُمَيْرُ بنُ الحُمَامِ، فَقَالَ: يا رسولَ اللهِ؛ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّماواتُ والأَرْضُ؟ قال: «نَعَمْ». قال: بَخٍ بَخٍ يَا رَسولَ اللهِ. قالَ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ»؟ قال: لا واللهِ يا رَسُولَ اللهِ إلاَّ رَجَاءَ أنْ أكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا» قال: فأَخرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ، فَجَعَلَ يأكُلُ مِنْهُنَّ، ثم قال: لَئِنْ حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِي هذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلةٌ، فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِن التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ[1]. فكان أول قتيل. وأخذ رسول الله ﷺ مِلءَ كَفِّهِ مِنَ الحصباءِ، فَرَمَى بِهَا وجوهَ العَدُوِّ، فلم تترك رَجُلاً مِنهم إلاَّ ملأَتْ عينيه، وشُغِلُوا بالتراب في أعينهم، وشُغِلَ المسلمُونَ بقتلهم[2]، فأنزل الله في شأن هذه الرمية على رسوله ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]. وقد ظن طائفة أن الآية دلَّت على نفي الفعل عن العبد، وإثباتِهِ لله، وأنه هو الفاعلُ حقيقة، وهذا غلط منهم من وجوه عديدة مذكورة في غير هذا الموضع. ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لِرسوله ابتداءَ الرَّمي، ونفى عنه الإيصال الذي لم يحصل برميته، فالرميُ يُرادُ به: الحذفُ والإيصال، فأثبت

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠١) وانظر: شرح النووي (١٣/ ٤٥).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٨، ١٠٠، ١٠٢) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٧٣ رقم ٨٩٠٧، ٨٩٠٨) والطبراني في الكبير (٤/ ١٧٤ رقم ٤٠٥٦) وأبو يعلى (١٢/ ٦٦-٦٧ رقم ٦٧٠٨) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٧٤، ٨٤): رواه الطبراني وإسناده حسن، وانظر: فتح الباري (٧/ ١٦٩).

لنبيه الحذفَ، ونفى عنه الإيصال. وكانت الملائكة يومئذ تُبادِرُ المسلمين إلىٰ قتل أعدائهم.

...[(١)] وأما قوله: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]. فغاب عنهم فقه الآية وفهمها، والآية من أكبر معجزات النبي ﷺ، والخطاب بها خاص لأهل بدر. وكذلك القبضة التي رمى بها النبي ﷺ فأوصلها الله سبحانه إلىٰ جميع وجوه المشركين، وذلك خارج عن قدرته ﷺ، وهو الرمي الذي نفاه عنه، وأثبت له الرمي الذي هو في محل قدرته وهو الحذف، وكذلك القتل الذي نفاه عنهم هو قتل لم تباشره أيديهم، وإنما باشرته أيدي الملائكة فكان أحدهم يشتد في أثر الفارس وإذا برأسه قد وقع أمامه من ضربة الملك، ولو كان المراد ما فهمه هؤلاء الذين لا فقه لهم في فهم النصوص لم يكن فرق بين ذلك وبين كل قتل وكل فعل...

[(٢)] فهذه الآية نزلت في شأن رميه ﷺ المشركين يوم بدر بقبضة من الحصباء. فلم تدع وجه أحد منهم إلا أصابته، ومعلوم أن تلك الرمية من البشر لا تبلغ هذا المبلغ. فكان منه ﷺ مبدأ الرمي. وهو الحذف. ومن الله ﷻ: نهايته، وهو الإيصال. فأضاف إليه رمي الحذف الذي هو مبدؤه، ونفى عنه رمي الإيصال الذي هو نهايته.

ونظير هذا: قوله في الآية نفسها: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾. ثم قال: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧] فأخبره: أنه هو وحده هو الذي تفرد بقتلهم. ولم يكن ذلك بكم أنتم، كما تفرد بإيصال الحصى إلىٰ أعينهم. ولم يكن ذلك من رسوله. ولكن وجه الإشارة بالآية: أنه سبحانه أقام أسبابًا ظاهرة، كدفع المشركين، وتولىٰ دفعهم، وإهلاكهم بأسباب باطنة غير الأسباب التي تظهر للناس. فكان ما حصل من الهزيمة والقتل والنصرة مضافًا إليه وبه. وهو خير الناصرين.

(١) ٢٧٨ أعلام جـ٢.
(٢) ٤٢٦ مدارج جـ٣.

(١) وقوله تعالى: ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾ [الأنفال: ١٧] فالبلاء الحسن هنا هو النعمة بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء، وليس من الابتلاء الذي هو الامتحان بالمكروه، بل من أبلاه بلاء حسنًا إذا أنعم عليه، يقال: أبلاك الله ولا ابتلاك، فأبلاه بالخير، وابتلاه بالمكاره غالبًا، كما في الحديث «إني مبتليك ومبتل بك»(٢).

***

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

(٣) قال ابن عباس: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ في أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ المُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَه، وَصَوْتُ الفَارِسِ فَوْقَهُ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُوم، إذْ نَظَرَ إِلَى المُشْرِكِ أَمَامَهُ مُسْتَلْقِياً، فَنظَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذلِكَ أجْمَعُ، فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثالثة»(٤).

وقال أبو داود الأنصاري المَازِني: «إِنِّي لأَتْبَعُ رَجُلاً مِن المُشْرِكِينَ لأَضْرِبَه، إذْ وَقَع رَأْسُه قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفِي، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ غَيْرِي»(٥). وجاء رجلٌ مِن الأنصار بالعبَّاسِ بنِ عبد المطلب أسيرًا، فقال العباسُ: إنَّ هذا والله ما أسرني، لقد أسرني رجل أجلح، مِن أحسن النَّاسِ وجهًا، على فرسٍ أبْلَق، ما أراه في القومِ، فقال

---

(١) ٣٤٢ طرق الهجرتين.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٦٥) بلفظ: «إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك» وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٤، ٤١٨).

(٣) ٢٢٤ زاد المعاد جـ٢.

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦٣) وانظر: شرح النووي (١٢/ ٨٥).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٤/ ٧٧) وأحمد (٥/ ٤٥٠) وقال الهيثمي (٦/ ٨٣): رواه أحمد وفيه رجل لم يسم.

الأنصاري: أنا أسرتُه يا رسول الله، قال: «اسْكُتْ، فَقَدْ أَيَّدَكَ اللهُ بِمَلَكٍ كَرِيمٍ»(١).
وأُسِر من بني عبد المطلب ثلاثة: العباسُ، وعقيلٌ، ونوفل بن الحارث.

وذكر الطبراني في معجمه الكبير عن رِفاعة بن رافع، قال: «لما رأىٰ إبليسُ ما تفعَلُ الملائكةُ بالمشرِكِينَ يومَ بدر، أشفق أن يَخْلُصَ القتلَ إليه، فتشبَّثَ بِهِ الحارث بن هشام، وهو يظنُّه سُراقَةَ بنَ مالك، فوكز في صَدْرِ الحارث فألقاه، ثم خَرَجَ هارباً حتىٰ ألقىٰ نفسَه في البحر، ورفع يديه وقال: اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ نَظرَتَكَ إيَّاي، وخاف أن يخلُصَ إليه القتل، فأقبل أبو جهل بن هشام، فقال: يا معشر النَّاسِ؛ لا يَهْزِمَنَّكُم خِذْلانُ سُرَاقَةَ إيَّاكُم، فإنَّهُ كَانَ عَلَىٰ مِيعاد مِنْ مُحَمَّدٍ، ولا يَهولَنَّكُم قَتْلُ عُتْبَةَ وشَيْبَةَ والوَلِيدِ، فإنَّهُم قد عجلوا، فواللاَّتِ والعُزَّىٰ، لا نرجِعُ حتىٰ نَقْرِنَهُم بالحِبال، ولا أُلفِيَنَّ رَجُلاً مِنْكُم قَتَلَ رجلاً مِنهم، ولكن خُذوهم أخذاً حتىٰ نُعرِّفَهم سوء صنيعهم(٢). واستفتح أبو جهل في ذلك اليوم، فقال: اللَّهُمَّ أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه فأَحِنْهُ الغداة، اللَّهُمَ أيُّنَا كان أحبَّ إليكَ، وأرضىٰ عِنْدَكَ، فانصره اليومَ، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) [الأنفال: ١٩].

ولما وضع المسلمون أيدَيهم في العدو يقتلون ويأسِرون، وسعدُ بن معاذ واقفٌ علىٰ باب الخيمة التي فيها رسولُ الله ﷺ وهي العَرِيشُ متوشِّحاً بالسيف في ناسٍ مِن الأنصار، رأىٰ رسولُ الله ﷺ في وجهِ سعدِ بنِ معاذ الكراهية لما يصنَعُ الناسُ، فقالَ

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٦-٣٥٧ رقم ٣٦٦٧٩) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٣٣) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٣٨/ ٢٤٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٢٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٥/ ٤٧ رقم ٤٥٥٠) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٧٧) ورواه الطبراني وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير (٥/ ٢٠٨-٢٠٩) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٥ رقم ٣٦٦٧٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٧/ ١٨٠-١٨١) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٧).

رسولُ اللهِ ﷺ: «**كأَنَّكَ تَكْرَهُ مَا يَصْنَعُ النَّاسُ**»؟ قال: أجَلْ واللهِ، كانت أولَ وقعةٍ أوقعها الله بالمشركين، وكان الإثخانُ في القتل أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال[١].

ولما بردت الحربُ، وولَّى القومُ منهزمينَ، قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ يَنْظُرُ لنَا مَا صَنَعَ أَبُو جَهْلٍ**»؟ فانطلق ابنُ مسعودٍ، فوجَدَهُ قد ضَرَبَهُ ابنا عَفْراء حتَّى بَرَدَ، وأَخَذَ بِلِحْيَتِهِ فقال: أنْتَ أَبُو جَهْلٍ؟ فَقَالَ: لِمَن الدَّائِرةُ اليوم؟ فقال: للهِ وَلِرَسوله، وهَلْ أَخْزَاكَ اللهُ يَا عَدُوَّ اللَّهِ؟ فقال: وهل فَوْقَ رَجُلٍ قَتَلَهُ قَوْمُهُ؟ فَقَتَلَهُ عبدُ اللهِ[٢]، ثم أتى النبي ﷺ، فقال: قتلتُه، فقال: «**آللهُ الَّذِي لا إله إلاَّ هُو**» فردَّدَهَا ثلاثاً، ثم قال: «**الله أكبر، الحمد لله الذي صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه**» فانطلقنا فأريته إياه، فقال: «**هذا فِرْعَوْنُ هَذِهِ الأُمَّةِ**»[٣].

وأسر عبدُ الرحمن بنُ عوف أُمَيَّةَ بن خلف، وابنَه علياً، فأبصره بلالٌ، وكان أُمَيَّةُ يُعذِّبُه بمكة، فقال: رأسُ الكفر أُمية بن خلف؟ لا نَجَوْتُ إن نَجَا، ثم اسْتَصرخ جماعةً مِنَ الأَنْصَارِ، واشتد عبد الرحمن بهما يُحرِزُهما مِنهم، فأدركُوهم، فشغَلَهم عَنْ أُمَيَّة بابنه، ففَرَغُوا مِنْه، ثم لَحِقُوهما، فقالَ لَهُ عَبْدُ الرحمن: ابرُك، فَبَرَكَ فأَلْقَى نَفْسَه عَلَيْهِ، فَضَربُوهُ بالسُّيُوفِ مِنْ تَحتِهِ حَتَّى قَتَلُوهُ، وأصابَ بعضُ السيوف رِجْلَ عبد الرحمن بن عوف[٤]، وقد كان قال له أُمية قبل ذلك: مَن الرَّجُلُ المُعَلَّمُ في صَدْرِهِ بِرِيشَةِ نَعَامَةٍ؟ فَقَالَ: ذَلِكَ حمزةُ بنُ عبد المطلب. فقال: ذَاكَ الَّذِي فَعَلَ بِنَا الأفاعِيلَ[٥]، وَكَانَ مع

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٤٨) وانظر: الثقات (١/ ١٦٩) وتخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٣٨-٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٦٢، ٣٩٦٣) ومسلم (رقم ١٨٠٠) وانظر: شرح النووي (١٢/ ٦٣، ١٦٠).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٣٠١) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ١٢٨).

(٥) أخرجه الحاكم (٢/ ١٢٨ رقم ٢٥٤٨) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٢٧٦ رقم ٥٩٠٩) والطبراني في الكبير (٣/ ١٥٠ رقم ٢٩٥٧) والبزار (٣/ ٢٢٧ رقم ١٠١٦) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٨١): رواه الطبراني وإسناده منقطع. وقال أيضًا رواه البزار من طريقين في إحداهما شيخه علي بن الفضل الكرابيسي ولم أعرفه وبقية رجالها رجال الصحيح والأخرى ضعيفة. وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٢٨٧).

عبدالرحمن أدراعٌ قد استلبها، فلما رآه أُميَّةُ قال له: أنا خَيرٌ لَكَ مِنْ هذه الأدراع، فألقَاهَا وأخذه، فَلَمَّا قتله الأنصَارُ، كَانَ يَقُولُ: «يَرْحَمُ اللهُ بِلالاً، فَجَعَنِي، بأدْرَاعِي وبِأَسِيري»(١).

وانقطع يومئذ سيفُ عُكَّاشَةَ بنِ مِحْصَنٍ، فأعطاهُ النبيُّ ﷺ جِذْلاً مِنْ حَطَبٍ، فَقَالَ: 'دُونَكَ هذَا'، فلما أخذه عُكَّاشَةُ وهزَّه، عاد في يده سيفاً طويلاً شديداً أبيض، فلم يزل عنده يُقاتِلُ به حتَّى قُتِلَ في الرِّدة أيامَ أبي بكر.

ولقي الزبيرُ عُبيدةَ بن سعيد بنِ العاص، وهو مُدَجَّجٌ في السلاح لا يُرَىٰ مِنه إلا الحَدَقُ، فحمل عليه الزبيرُ بحربته، فطعنه في عَينه، فمات، فوضع رجله على الحربة، ثم تمطَّى، فكان الجَهْدُ أن نزعها، وقد انثنى طرفاها، قال عروة: فسأله إياها رسولُ الله ﷺ، فأعطاه إياها، فلما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ، أخذَها، ثم طَلَبها أبو بكر، فأعطَاه إياها، فلما قُبِض أبو بكر، سأله إيَّاها عمر، فأعطاه إياها، فلما قُبِض عُمرُ، أخذها، ثم طلبها عثمان، فأعطاه إياها، فلما قُبضَ عثمانُ، وقعت عِند آلِ علي، فطلبها عبدُ الله بن الزبير، وكانت عنده حتى قُتِلَ(٢).

وقال رِفاعةُ بنُ رافع: «رُمِيتُ بسهمٍ يومَ بدر، فَفُقِئَتْ عيني، فَبَصَقَ فيها رَسولُ الله ﷺ ودعا لي، فما آذاني منها شيء بعد»(٣).

ولما انقضتِ الحربُ، أقبلَ رسولُ الله ﷺ حَتَّىٰ وقَفَ عَلَى القَتْلَى فقال: «بِئْسَ عَشيرةُ النبي كُنْتُم لِنَبِيكُم، كَذَّبْتُمُوني وصَدَّقَني النَّاسُ، وخَذَلْتَموني ونَصَرَني النَّاسُ، وأَخْرَجْتمُوني وآواني النَّاسُ». ثم أمر بهم، فسُحِبوا إلى قَلِيبٍ مِن قُلُب بدر، فطُرِحُوا

(١) انظر: الثقات (١/ ١٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٩٨) وانظر: عمدة القاري (١٧/ ١٠٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩/ ٥٩ رقم ٩١٢٤) وفي الكبير (٥/ ٤٢ رقم ٤٥٣٥) والبزار(٩/ ١٨١-١٨٢ رقم ٣٧٢٩) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/ ٨٢): رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط، وفيه عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.

فيه، ثم وقف عليهم، فقال: «يا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، ويا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، ويا فلانُ، ويا فُلانُ، هَل وَجَدْتُم مَا وَعَدَكُمْ ربُّكم حَقّاً، فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقّاً»، فقال عُمَرُ بنُ الخطاب: يا رَسُولَ اللهِ ؛ ما تُخَاطِبُ مِنْ أقوام قَدْ جَيَّفُوا؟ فقالَ: «والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُم، وَلَكِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الجَوَابَ». ثم أقامَ رسولُ اللهِ ﷺ بعرصتهم ثَلاثاً، و«كان إذا ظَهَرَ عَلَىٰ قَوْمٍ أَقَامَ بِعَرْصَتِهِم ثلاثاً»[1].

ثم ارتحل مؤيَّداً منصوراً، قريرَ العين بنصر الله له، ومعه الأسارىٰ والمغانمُ، فلما كان بالصَّفراء، قسمَ الغنائم، وضرب عُنُقَ النَّضْرِ بن الحارث بن كلدة[2]، ثُمَّ لما نَزَلَ بِعِرْقِ الظَّبْيَةِ، ضرب عُنُقَ عُقبةَ بن أبي مُعَيْطٍ[3]. ودخل رسول الله ﷺ المدينةَ مؤيَّداً مظفَّراً منصوراً، قد خافه كُلُّ عدوٍ له بالمدينة وحولَها، فأسلم بَشَر كثير مِن أهل المدينة، وحينئذ دخل عبد الله بن أُبَيٍّ المنافقُ وأصحابُه في الإسلام ظاهراً.

وجملة مَن حضر بدراً من المسلمين ثلاثمائة وبضعةَ عشر رجلاً، من المهاجرين ستة وثمانون، ومن الأوس أحدٌ وستون، ومن الخزرج مائة وسبعون، وإنما قَلّ عَدَد الأوسِ عن الخزرج ـ وإن كانوا أشدَّ منهم، وأقوىٰ شوكَةً، وأصبرَ عند اللِّقاء ـ لأن منازِلهم كانت في عوالي المدينة، وجاء النفيرُ بغتةً، وقال النَّبيُّ ﷺ: «لا يَتْبَعُنَا إلاَّ مَنْ كان ظَهْرُهُ حَاضِراً»، فاستأذنه رِجالٌ ظُهورُهم في عُلو المدينة: أن يستأنيَ بهم حتىٰ يذهبُوا إلىٰ ظهورهم، فأبىٰ[4] ولم يَكُن عَزْمُهُم عَلَىٰ اللِّقَاءِ، ولا أعدُّوا لهُ عدته، ولا تأهبوا له أهبتَه، ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم علىٰ غير ميعاد. واستشهد من المسلمين يومئذ أربعةَ عشرَ رجلاً: ستةٌ من المهاجرينَ، وستة من الخزرج، واثنانِ من

(١) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٣٩٧٦) ومسلم (رقم ٢٨٧٣، ٢٨٧٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٠٢-٣٠٤) وعمدة القاري (٨/ ٢٠١-٢٠٢).

(٢) انظر: تحفة الطالب لابن كثير (ص ٤٦٥-٤٦٦).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (٩/ ٦٤ رقم ١٧٨٠٥) وانظر: تلخيص الحبير (٤/ ١٠٨) ونيل الأوطار (٨/ ١٤).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠١) وانظر: شرح النووي (٣/ ٤٥).

الأوس، وفرغ رسولُ الله ﷺ من شأن بدر والأسارىٰ في شوَّال.

(١)وذكر عبد الله بن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلىٰ جعفر وأصحابه، فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان جالس علىٰ التراب، قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه علىٰ تلك الحال، فلما رأىٰ ما في وجوهنا قال: إني أبشركم بما يسركم أنه جاءني من نحو أرضكم عين لي فأخبرني أن الله قد نصر نبيه ﷺ وأهلك عدوه، وأسر فلان وفلان وفلان، وقتل فلان وفلان: التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك، كأني أنظر إليه كنت أرعىٰ به لسيدي رجل من بني ضمرة، فقال له جعفر: ما بالك جالسًا علىٰ التراب، ليس تحتك بساط، وعليك هذه الأخلاق، قال: إنا نجد فيما أنزل الله علىٰ عيسىٰ ﷺ: أن حقًّا علىٰ عباد الله أن يحدثوا لله تواضعًا، عندما أحدث الله لهم من نعمة. فلما أحدث الله لي نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع(٢).

***

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

(٣)إخباره سبحانه عن تركه بعض مقدوره لما يستلزمه من المفسدة، وأن المصلحة في تركه ولوكان الأمر راجعًا إلىٰ محض المشيئة لم يكن ذلك علة للحكم كقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾[الأنفال: ٢٢، ٢٣] فعلل سبحانه عدم إسماعهم السماع الذي ينتفعون به وهو سماع الفهم. بأنهم لا خير فيهم يحسن معه أن يسمعهم، وبأن فيهم مانعًا آخر يمنع من الانتفاع بالمسموع لو سمعوه وهو الكبر والإعراض، فالأول: من باب تعليل عدم الحكم بعدم ما يقتضيه. والثاني:

---

(١) ١٤١ عدة الصابرين.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٩٢) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١٣٠).

(٣) ٢٠٣ شفاء.

من باب تعليله بوجود مانعه...

[(١)] وأما سماع الإجابة: ففي مثل قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] أي: مستجيبون لهم. وفي قوله: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١] أي: مستجيبون له. وهو المراد، وهذا المراد بقول المصلي: «سمع الله لمن حمده»[(٢)]، أي أجاب الله حَمْدَ من حمده، وهو السمع الذي نفاه الله ﷻ عمن لم يرد به خيرًا، في قوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣] أي: لجعلهم يسمعون سمع إجابة وانقياد. وقيل: المعنى لأفهمهم. وعلى هذا: يكون المعنى لأسمع قلوبهم. فإن سماع القلب يتضمن الفهم.

والتحقيق: أن كلا الأمرين مراد. فلو علم فيهم خيرًا لأفهمهم، ولجعلهم يستجيبون لما سمعوه وفهموه[(٣)]. والمقصود: أن «سماع الإجابة» هو سماع انقياد القلب، والروح، والجوارح، لما سمعته الأذنان.

[(٤)] ومعلوم أنهم لم يعدموا السمع جملة ويصيروا كالأصم، ولذلك ينفي سبحانه عنهم السمع تارة ويثبته أخرى، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾.

ومعلوم أنهم قد سمعوا القرآن وأمر الرسول بإسماعهم إياه، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] فهذا السمع المنفي عنهم سمع الفهم والفقه، والمعنى: ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم سمعا ينتفعون به، وهو فقهه المعنى وعقله، وإلا فقد سمعوه سمعًا تقوم به عليهم الحجة، ولكن لما سمعوه مع شدة بغضه وكراهته ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه.

والرجل إذا اشتدت كراهته للكلام ونفرته عنه لم يفهم ما يراد به، فينزل منزلة من لم يسمعه، قال تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠] نفى

---

(١) ١٩٨ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٩) ومسلم (رقم ٣٩١).

(٣) يأتي إن شاء الله في سورة يونس الكلام على هذه الآية رقم ٣١، فلعله فيه زيادة فائدة (ج).

(٤) ١٠١ مفتاح جـ١.

عنه استطاعة السمع مع صحة حواسهم وسلامتها وإنما لفرط بغضهم ونفرتهم عنه وعن كلامه صاروا بمنزلة من لا يستطيع أن يسمعه ولا يراه، وهذا استعمال معروف للخاصة والعامة، يقولون لا أطيق انظر إلى فلان، ولا أستطيع أن أسمع كلامه من بغضه ونفرته عنه.

وبعض الجبرية يحتج بهذه الآية وشبهها على مذهبهم ولا دلالة فيها، إذ ليس المراد سلبهم السمع والبصر الذي تقوم به الحجة قطعا، وإنما المراد سلب السمع الذي يترتب عليه فائدته وثمرته والقدر حق، ولكن الواجب تنزيل القرآن منازله ووضع الآيات مواضعها واتباع الحق حيث كان، ومثل هذا إذا لم يحصل له فهم الخطاب لا يعذر بذلك، لأن الآفة منه وهو بمنزلة من سد أذنيه عند الخطاب فلم يسمعه، فلا يكون ذلك عذرًا له.

ومن هذا قولهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥] يعنون أنهم في ترك القبول منه ومحبة الاستماع لما جاء به وإيثار الإعراض عنه وشدة النفار عنه بمنزلة من لا يعقله ولا يسمعه ولا يبصر المخاطب لهم به، فهذا هو الذي يقولون لا خلود في النار: ﴿لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] ولهذا جعل ذلك مقدورًا لهم وذنبًا اكتسبوه، فقال تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

والله تعالى ينفي تارة عن هؤلاء العقل والسمع والبصر، فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله. وتارة ينفي عنهم السمع والعقل. وتارة ينفي عنهم السمع والبصر. وتارة ينفي عنهم العقل والبصر.

وتارة ينفي عنهم السمع وحده، فنفي الثلاثة نفي لمدارك العلم بطريق المطابقة، ونفي بعضها نفي له بالمطابقة والآخر باللزوم، فإن القلب إذا فسد فسد السمع والبصر، بل أصل فسادهما من فساده، وإذا فسد السمع والبصر فسد القلب، فإذا

أعرض عن سمع الحق وأبغض قائله بحيث لا يحب رؤيته امتنع وصول الهدى إلى القلب ففسد، وإذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر، فكل مدرك من هذه يصح بصحة الآخر ويفسد بفساده، فلهذا يجيء في القرآن نفي ذلك صريحا ولزوما، وبهذا التفصيل يعلم اتفاق الأدلة من الجانبين....

...[1]إن الإنسان إنما يميز على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان، وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلًا منه، وأقوى بطشًا، وأكثر جماعًا وأولادًا، وأطول أعمارًا، وإنما ميز على الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه، فإذا عدم العلم بقي معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب، وهي الحيوانية المحضة، فلا يبقى فيه فضل عليهم، بل قد يبقى شرًّا منهم، كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢] فهؤلاء هم الجهال ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٣] أي: ليس عندهم محل قابل للخير (ولو) كان محلهم قابلًا للخير (لأسمعهم)، أي: لأفهمهم، والسمع ههنا سمع فهم، وإلا فسمع الصوت حاصل لهم، وبه قامت حجة الله عليهم، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١]، وسواء كان المعنى ومثل داعي الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتًا مجردة أو كان المعنى: ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذي ينعق بها، فلا تسمع إلا صوت الدعاء والنداء، فالقولان متلازمان بل هما واحد، وإن كان التقدير الثاني أقرب إلى اللفظ وأبلغ في المعنى، فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل للأنعام، فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التي يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان.

---

(١) ٧٨ مفتاح جـ١.

والسمع يراد به إدراك الصوت، ويراد به فهم المعنى، ويراد به القبول والإجابة، والثلاثة في القرآن.

فمن **الأول** قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] وهذا أصرح ما يكون في إثبات صفة السمع وذكر الماضي والمضارع واسم الفاعل: سمع ويسمع وهو سميع وله السمع، كما قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات[1]. لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في جانب البيت، وإنه ليخفى عليَّ بعض كلامها فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾[2].

والثاني: سمع الفهم كقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لأفهمهم ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] لما في قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق، ففيهم آفتان: إحداهما: أنهم لا يفهمون الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم، وهذا غاية النقص والعيب.

والثالث: سمع القبول والإجابة، كقوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] أي قابلون مستجيبون، ومنه قوله: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي: قابلون له مستجيبون لأهله، ومنه قول المصلي: «**سمع الله لمن حمده**» أي أجاب الله حمد من حمده ودعاء من دعاه وقول النبي ﷺ: «**إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: ربنا ولك الحمد، يسمع الله لكم**»[3] أي يجيبكم.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (ص ١٤٠٨) طبعة بيت الأفكار الدولية.

(٢) أخرجه البيهقي في الاعتقاد (ص٨٥) وأبو الشيخ في العظمة (٢/ ٥٣٦-٥٣٧ر قم ٢٣) والطبري في تفسيره (٢٨/ ٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٤٢ رقم ١٨٨٣٩) وابن ماجه (رقم ١٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٤٠٤) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٨٣-٢٨٤) وشرح النووي (٤/ ١٢١).

والمقصود أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه في معاشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيرًا منه، لسلامته في المعاد مما يهلكه دون الإنسان الجاهل. اهـ.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[1] أخبر ﷻ أن حياتنا إنما هي باستجابتنا لما يدعونا إليه الله والرسول من العلم والإيمان. فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك.

وشبه سبحانه من لا يستجيب لرسوله بأصحاب القبور، وهذا من أحسن التشبيه، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم، فقد ماتت قلوبهم وقُبرت في أبدانهم. فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾[فاطر: ٢٢] ولقد أحسن القائل:

وفي الجهل، قبل الموت موت لأهله ... وأجسامهم، قبل القبور، قبورُ

وأرواحهم في وحْشة من جسومهم ... وليس لهم حتى النشور نشورُ [2]

[3] قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[الأنفال: ٢٤].

فتضمنت هذه الآية أمورًا، أحدها: أن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات.

فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرا وباطنا. فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان. ولهذا كان أكمل

(١) ٢٢ إغاثة جـ١.

(٢) هذان البيتان من بحر الطويل، وينسبان إلى علي بن أبي طالب ﷺ، بينما ذكرهما القرطبي في تفسيره، وعزاهما لبعض شعراء البصرة (٧/ ٧٨) وفي صدر البيت الثاني: وإن امرءًا لم يحي بالعلم ميت.

(٣) ٨٧ فوائد.

الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ﷺ، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول. قال مجاهد: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني للحق، وقال قتادة: هو هذا القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة والعصمة في الدنيا والآخرة[1]. وقال السدي: هو الإسلام أحياهم به بعد موتهم بالكفر. وقال ابن إسحاق وعروة بن الزبير: واللفظ له: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل، وقوّاكم بعد الضعف، ومنعكم بها من عدوكم بعد القهر منهم لكم[2].

هذه كلها عبارات عن حقيقة واحدة، وهي القيام بما جاء به الرسول ظاهرًا وباطنًا. قال الواحدي: والأكثرون على أن معنى قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ هو الجهاد. وهو قول ابن إسحاق، واختيار أكثر أهل المعاني. قال الفراء: إذا دعاكم إلى إحياء أمركم بجهاد عدوكم يريد أن أمرهم إنما يقوي بالحرب والجهاد، فلو تركوا الجهاد ضعف أمرهم، واجترأ عليهم عدوهم. قلت: الجهاد من أعظم ما يحييهم به في الدنيا وفي البرزخ وفي الآخرة.

أما في الدنيا فإن قوتهم وقهرهم لعدوهم بالجهاد.

وأما في البرزخ فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وأما في الآخرة فإن حظ المجاهدين والشهداء من حياتها ونعيمها أعظم من حظ غيرهم. ولهذا قال ابن قتيبة: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني الشهادة.

وقال بعض المفسرين: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني الجنة. فإنها دار الحيوان، وفيها الحياة الدائمة الطيبة. حكاه أبو علي الجرجاني.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٢١٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٨٠ رقم ٨٩٥٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩٨) وعمدة القاري (١٨/ ٢٤٧).

والآية تتناول هذا كله، فإن الإيمان والإسلام والقرآن والجهاد يحيي القلوب الحياة الطيبة. وكمال الحياة في الجنة، والرسول داع إلى الإيمان وإلى الجنة، فهو داع إلى الحياة في الدنيا والآخرة. والإنسان مضطر إلى نوعين من الحياة:

حياة بدنه التي بها يدرك النافع والضار، ويؤثر ما ينفعه على ما يضرّه. ومتى نقصت فيه هذه الحياة ناله من الألم والضعف بحسب ذلك. ولذلك كانت حياة المريض والمحزون وصاحب الهم والغم والخوف والفقر والذل دون حياة من هو معافى من ذلك.

وحياة قلبه وروحه التي بها يميز بين الحق والباطل، والغي والرشاد، والهوى والضلال، فيختار الحق على ضده. فتفيده هذه الحياة قوة التمييز بين النافع والضار في العلوم والإرادات والأعمال. وتفيده قوة الإيمان والإرادة والحب للحق، وقوة البغض والكراهة للباطل. فشعوره وتمييزه وحبه ونفرته بحسب نصيبه من هذه الحياة، كما أن البدن الحي يكون شعوره وإحساسه بالنافع والمؤلم أتم، ويكون ميله إلى النافع ونفرته عن المؤلم أعظم. فهذا بحسب حياة البدن، وذاك بحسب حياة القلب. فإذا بطلت حياته بطل تمييزه. وإن كان له نوع تمييز لم يكن فيه قوة يؤثر بها النافع على الضار. كما أن الإنسان لا حياة له حتى ينفخ فيه الملك، الذي هو رسول الله من روحه، فيصير حيا بذلك النفخ. وكان قبل ذلك من جملة الأموات. وكذلك لا حياة لروحه وقلبه حتى ينفخ فيه الرسول ﷺ من الروح الذي ألقي إليه، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فأخبر أن وحيه روح ونور، فالحياة والاستنارة موقوفة على نفخ الرسول الملكي، فمن أصابه نفخ الرسول الملكي ونفخ الرسول البشري حصلت له الحياتان. ومن

حصل له نفخ الملك دون نفخ الرسول حصلت له إحدى الحياتين وفاتته الأخرى، قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فجمع له بين النور والحياة، كما جمع لمن أعرض عن كتابه بين الموت والظلمة. قال ابن عباس وجميع المفسرين: كان كافرًا ضالا فهديناه(١). وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ ﴾ يتضمن أمورًا:

أحدها: أنه يمشي في الناس بالنور وهم في الظلمة، فمثله ومثلهم كمثل قوم أظلم عليهم الليل فضلوا ولم يهتدوا للطريق. وآخر معه نور يمشي في الطريق ويراها ويرى ما يحذره فيها.

وثانيها: أنه يمشي فيهم بنوره، فهم يقتبسون منه لحاجتهم إلى النور.

وثالثها: أنه يمشي بنوره يوم القيامة على الصراط إذا بقي أهل الشرك والنفاق في ظلمات شركهم ونفاقهم.

وقوله: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. المشهور في الآية أنه يحول بين المؤمن وبين الكفر، وبين الكافر وبين الإيمان. ويحول بين أهل طاعته وبين معصيته، وبين أهل معصيته وبين طاعته، وهذا قول ابن عباس وجمهور المفسرين. وفي الآية قول آخر: أن المعنى أنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية، فهو بينه وبين قلبه. ذكره الواحدي عن قتادة، وكان هذا أنسب بالسياق، لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه فيعلم هل استجاب له قلبه، وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه.

وعلى القول الأول، فوجه المناسبة: أنكم إن تثاقلتم عن الاستجابة وأبطأتم عنها فلا تأمنوا أن يحول الله بينكم وبين قلوبكم، فلا يمكنكم بعد ذلك من الاستجابة عقوبة لكم

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣٥١-٣٥٢) عن ابن عباس وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ. وأخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٩٦٢) وابن أبي حاتم في تفسيره (٤/ ٣٨١ رقم ٧٨٥١) دون ذكر: فهديناه.

علىٰ تركها بعد وضوح الحق واستبانته، فيكون قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

(١)وقال تعالىٰ: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤]. أي: إن تركتم الاستجابة لله ورسوله عاقبكم بأن يحول بينكم وبين قلوبكم، فلا تقدرون علىٰ الاستجابة بعد ذلك.

(٢)قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. ووجه الاستدلال أن هذا أمر لكل مؤمن بلغته دعوة الرسول ﷺ إلىٰ يوم القيامة، ودعوته نوعان: مواجهة ونوع بواسطة المبلغ وهو مأمور بإجابة الدعوتين في الحالتين، وقد علم أن حياته في تلك الدعوة والاستجابة لها، ومن الممتنع أن يأمره الله تعالىٰ بالإجابة لمالا يفيد علماً أو يحييه بما لا يفيد علمًا أو يتوعده علىٰ ترك الاستجابة لما لا يفيد علمًا بأنه إن لم يفعل عاقبه وحال بينه، وبين قلبه.

(٣)ومنها: أن الرجل إذا أتيحت له فرصة القربة والطاعة، فالحزم كل الحزم في انتهازها، والمبادرة إليها، والعجز: في تأخيرها، والتسويف بها، ولاسيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعة الانتقاض، قلَّما تثبت. والله سبحانه يعاقب من فتح له بابًا من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه بعد من إرادته، عقوبة له، فمن لم يستجب لله ولرسوله ـ إذا دعاه ـ حال بينه وبين قلبه وإرادته، ولا يمكنه الاستجابة بعد ذلك، قال الله تعالىٰ:

---

(١) ٣١ شفاء.

(٢) مختصر الصواعق جـ٢.

(٣) ٣٧ زاد المعاد جـ٣.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقد صرح الله سبحانه بهذا في قوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠] وفي قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥] وهو كثير في القرآن.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

(١)هذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة، والنصر، والعلم، والنور، الفارق بين الحق والباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب وذلك غاية التيسير. وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٠] والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر.

(٢)وقال مالك للشافعي رضي الله عنهما في أول ما لقيه: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا، فلا تطفئه بظلمة المعصية(٣). وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ ومن الفرقان النور الذي يفرق به العبد بين الحق والباطل، وكلما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتم، وبالله التوفيق.

(٤)ومن الفرقان ما يعطيهم من النور الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والنصر والعزّ، الذي يتمكنون به من إقامة الحق وكسر الباطل، فسر الفرقان بهذا وبهذا...

***

(١) ٣٧ التبيان.

(٢) ٢٥٨ أعلام جـ٤.

(٣) ذكر هذا القول النووي في تهذيب الأسماء (١/ ٦٩، ٧٨).

(٤) ١٢٩ الفوائد.

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾.

(١) وتأمل قوله تعالى لنبيه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال: ٣٣] كيف يفهم منه أنه إذا كان وجودُ بدنه وذاته فيهم دفع عنهم العذاب وهم أعداؤه، فكيف وجود سره والإيمان به ومحبته ووجود ما جاء به إذا كان في قوم أو كان في شخص؟ أفليس دفعه العذاب عنهم بطريق الأولى والأحرى؟

(٢) وأما «الاستغفار» فهو نوعان: مفرد، ومقرون بالتوبة.

فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [نوح: ١٠، ١١] وكقول صالح لقومه: ﴿ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [النمل: ٤٦] وكقوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٩٩] وقوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٣].

والمقرون كقوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣]، وقول هود لقومه: ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [هود: ٥٢]، وقول صالح لقومه: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١]، وقول شعيب: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود: ٩٠].

فالاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعينها، مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره.

لا كما ظنه بعض الناس: أنها الستر فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له

(١) ٢٢٦ أعلام جـ١.
(٢) ٣٠٧ مدارج جـ١.

ولكن الستر لازم مسماها، أو جزؤه، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب، ومنه المغفر لما يقي الرأس من الأذى، والستر لازم لهذا المعنى، وإلا فالعمامة لا تسمى مغفرًا ولا القبع ونحوه مع ستره، فلابد في لفظ «المغفر» من الوقاية، وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] فإن الله لا يعذب مستغفرًا.

وأما من أصر على الذنب وطلب من الله مغفرته، فهذا ليس باستغفار مطلق، ولهذا لا يمنع العذاب، فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى فالاستغفار منه: طلب وقاية شره. وذنب يخاف وقوعه فالتوبة: العزم على أن لا يفعله.

والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى.

ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضًا فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقًا تؤديه إلى هلاكه، ولا توصله إلى المقصود، فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته، والتي توصله إلى مقصوده وفيها فلاحه.

فهاهنا أمران لابد منهما: مفارقة شيء والرجوع إلى غيره فخصت التوبة بالرجوع والاستغفار بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين ولهذا جاء والله أعلم الأمر بهما مرتبًا بقوله: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]، فإنه الرجوع إلى طريق الحق: بعد مفارقة الباطل.

وأيضًا فالاستغفار من باب إزالة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة، فالمغفرة أن

يقيه شر الذنب. والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده، والله أعلم.

***

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

(١)قال تعالى عن الكفار: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [الأنفال: ٣٥] قال ابن عباس، وابن عمر. وعطية، ومجاهد، والضحَّاك، والحسن، وقتادة «المكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق»(٢). وكذلك قال أهل اللغة: المكاء: الصفير، يقال: مكا، يمكو، مكاء، إذا جمع يديه ثم صفر فيهما، ومنه: مكت است الدابة، إذا خرجت منها الريح بصوت(٣). ولهذا جاء على بناء الأصوات، كالرغاء، والعواء، والثغاء. قال ابن السكيت: الأصوات كلها مضمومة، إلا حرفين: النداء، والغناء(٤).

وأما التصدية: فهي في اللغة: التصفيق، يقال: صدى يصدي تصدية، إذا صفق بيديه. قال حسان بن ثابت، يعيب المشركين بصفيرهم وتصفيقهم:

إذَا قَامَ المَلائِكَةُ انْبَعَثْتُمْ ... صَلاتُكُمُ التَّصَدِّي وَالمُكَاءُ(٥)

وهكذا الأشباه يكون المسلمون في الصلوات الفرض والتطوع، وهم في الصفير والتصفيق. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانت قريش يطوفون بالبيت عراة، ويصفرون ويصفقون». وقال مجاهد: «كانوا يعارضون النبي ﷺ في الطواف ويصفرون

(١) ٢٤٤ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٩/ ٢٤١-٢٤٢) والمقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ١١٧ رقم ١١٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٠٦) وعمدة القاري (١٨/ ٢٤٦) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٠٨).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢٤٠) وغريب الحديث للحربي (٢/ ٤٩١).

(٤) ذكره عنه ابن منظور في اللسان (١٥/ ٢٨٩).

(٥) هذا البيت من بحر الوافر. وذكر عجز البيت ابن منظور في اللسان (١٥/ ٢٨٩).

ويصفقون، يخلطون عليه صلاته وطوافه»[١]، ونحو ذلك عن مقاتل. ولا ريب أنهم كانوا يفعلون هذا وهذا.

فالمتقربون إلى الله بالصفير والتصفيق أشباه النوع الأول، وإخوانهم المخلطون به على أهل الصلاة والذكر والقراءة أشباه النوع الثاني. قال ابن عرفة، وابن الأنباري: المكاء والتصدية ليسا بصلاة، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها: المكاء والتصدية، فألزمهم ذلك عظيم الأوزار، وهذا كقولك: زرته، فجعل جفائي صلتي، أي أقام الجفاء مقام الصلة.

والمقصود: أن المصفقين والصفارين في يراع أو مزمار ونحوه فيهم شبه من هؤلاء، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر، فلهم قسط من الذم، بحسب تشبههم بهم، وإن لم يتشبهوا بهم في جميع مكائهم وتصديتهم.

والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه في الصلاة إذا نابهم أمر، بل أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح، لئلا يتشبهوا بالنساء، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة، وقرنوا به أنواعاً من المعاصي قولاً وفعلاً؟

***

﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣٩﴾ ﴾.

[٢]الفتنة بعشق الصورة تنافي أن يكون دين العبد كله لله، بل ينقص من كون دينه لله بحسب ما له من فتنة العشق، وربما أخرجت صاحبه من أن يبقى معه شيء من الدين لله. قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فناقض بين كون الفتنة وبين كون الدين كله، فكل منهما يناقض الآخر.

---

(١) أخرجه الطبري في تفيسره (٩/ ٢٤١) من قول سعيد بن جبير رحمه الله وانظر: النهاية (٣/ ٣٨)، واللسان (١٠/ ٢٠١)..

(٢) ١٥٨ إغاثة جـ٢.

والفتنة قد فسرت بالشرك، فما حصلت به فتنة القلوب فهو إما شرك، وإما من أسباب الشرك. وهي جنس تحته أنواع من الشبهات، والشهوات، وفتنة الذين اتخذوا من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله من أعظم الفتن، ومنه فتنة أصحاب العِجْل، كما قال تعالىٰ لموسىٰ: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥].

***

﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾.

(1) اللام في قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] فلام التعليل علىٰ بابها، فإنها مذكورة في بيان حكمته؛ في جمع أوليائه وأعدائه علىٰ غير ميعاد، ونصرة أوليائه مع قلتهم ورقتهم وضعف عددهم وعدتهم، علىٰ أصحاب الشوكة والعدد والحد والحديد، الذي لا يتوهم بشر أنهم ينصرون عليهم، فكانت تلك آية من أعظم آيات الرب سبحانه، صدق بها رسوله وكتابه؛ ليهلك بعدها من اختار لنفسه الكفر والعناد عن بينة؛ فلا يكون له علىٰ الله حجة ويحيىٰ من حي بالإيمان بالله ورسوله عن بينة، فلا يبقىٰ عنده شك ولا ريب، وهذا من أعظم الحكم.
ونظير هذا قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

***

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

---

(١) ١٩٣ شفاء.

[(١)]بين رعاية الحقوق مع الضر، ورعايتها مع العافية؛ بون بعيد. «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه»[(٢)] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥] ليس العجب من صحيح فارغ واقف مع الخدمة، إنما العجب من ضعيف سقيم تعتوره الأشغال، وتختلف عليه الأحوال، وقلبه واقف في الخدمة، غير متخلف بما يقدر عليه.

[(٣)]قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦] فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء؛ ما اجتمعت في فئة قط إلا نصرت وإن قلت وكثر عددها: أحدها: الثبات. الثاني: كثرة ذكره ﷻ. الثالث: طاعته وطاعة رسوله. الرابع: اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن وهو جند يقوي به المتنازعون عدوهم عليهم، فإنهم في اجتماعهم: كالحزمة من السهام، لا يستطيع أحد كسرها، فإذا فرقها وصار كل منهم وحده كسرها كلها. الخامس: ملاك ذلك كله وقوامه وأساسه وهو الصبر.

فهذه خمسة أشياء تبتنى عليها قبة النصر، ومتى زالت أو بعضها زال من النصر بحسب ما نقص منها، وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضًا، وصار لها أثر عظيم في النصر، ولما اجتمعت في الصحابة لم تقم لهم أمة من الأمم، وفتحوا الدنيا ودانت لهم العباد والبلاد، ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر إلى ما آل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والله المستعان وعليه التكلان.

***

(١) ١٦٩ فوائد.

(٢) أخرجه مرفوعًا من قول الله ﷻ الترمذي (رقم ٣٥٨٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٥/ ١٥١ رقم ٢٦٨٩).

(٣) ١٢٩ الفروسية.

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

[١]من كيده[٢] للإنسان: أنه يورده الموارد التي يخيل إليه أن فيها منفعته، ثم يُصْدِرهُ المصادر التي فيها عطبه، ويتخلى عنه ويسلمه ويقف يشمت به، ويضحك منه، فيأمره بالسرقة والزنا والقتل، ويدل عليه ويفضحه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨]. فإنه تراءى للمشركين عند خروجهم إلى بدر في صورة سراقة بن مالك، وقال: أنا جار لكم من بني كنانة أن يقصدوا أهلكم وذراريكم بسوء، فلما رأى عدو الله جنود الله تعالى من الملائكة نزلت لنصر رسوله فرَّ عنهم، وأسلمهم، كما قال حسان:

دَلاهُمُ بِغُرُورٍ، ثُمَّ أَسْلَمَهُمْ   إِنَّ الخبيثَ لمنْ وَالاهُ غَرَّارُ[٣]

وكذلك فعل بالراهب الذي قتل المرأة وولدها، أمره بالزنا ثم بقتلها، ثم دل أهلها عليه، وكشف أمره لهم، ثم أمره بالسجود له، فلما فعل فر عنه وتركه. وفيه أنزل الله سبحانه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦]. وهذا السياق لا يختص بالذي ذكرت عنه هذه القصة، بل هو عام في كل من أطاع الشيطان في أمره له بالكفر، لينصره ويقضي حاجته، فإنه يتبرأ منه ويسلمه كما يتبرأ من أوليائه جملة في النار، ويقول لهم: ﴿ إِنِّى

---

(١) ١٠٨ إغاثة جـ١.

(٢) أي الشيطان الرجيم، أعاذنا الله منه بمنه وكرمه.

(٣) هذا البيت من بحر البسيط وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٣/ ٢٩٥) والشنقيطي في أضواء البيان (٢/ ١٠٣).

﴿كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. فأوردهم شر الموارد، وتبرأ منهم كل البراءة.

وتكلم الناس، في قول عدو الله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ فقال قتادة وابن إسحاق: «صدق عدو الله في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ وكذب في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ والله ما به مخافة الله، ولكن علم أنه لا قوة له ولا منعة، فأوردهم وأسلمهم. وكذلك عادة عدو الله بمن أطاعه»(١).

وقالت طائفة: «إنما خاف بطش الله تعالى به في الدنيا، كما يخاف الكافر والفاجر أن يقتل أو يؤخذ بجرمه، لا أنه خاف عقابه في الآخرة». وهذا أصح، وهذا الخوف لا يستلزم إيمانًا ولا نجاة.

قال الكلبي: «خاف أن يأخذه جبريل فيعرفهم حاله فلا يطيعونه».

وهذا فاسد، فإنه إنما قال لهم ذلك بعد أن فر ونكص على عقبيه، إلا أن يريد أنه إذا عرف المشركون أن الذي أجارهم وأوردهم إبليس لم يطيعوه فيما بعد ذلك، وقد أبعد النجعة إن أراد ذلك، وتكلف غير المراد.

وقال عطاء: «إني أخاف الله أن يهلكني فيمن يهلك»، وهذا خوف هلاك الدنيا فلا ينفعه. وقال الزجاج وابن الأنباري: «ظن أن الوقت الذي أنظر إليه قد حضر ـ زاد ابن الأنباري ـ قال: أخاف أن يكون الوقت المعلوم الذي يزول معه إنظاري قد حضر فيقع بي العذاب، فإنه لما عاين الملائكة خاف أن يكون وقت الإنظار قد انقضى، فقال ما قال إشفاقًا على نفسه».

***

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة في تفسيره (٥/ ١٧١٦ رقم ٩١٦٤) وانظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٩) وتفسير السيوطي (٤/ ٧٩).

(١)من الآفات الخفية العامة: أن يكون العبد في نعمة أنعم الله بها عليه واختارها له، فيملها العبد ويطلب الانتقال منها إلىٰ ما يزعم لجهله ـ أنه خير له منها، وربه برحمته لا يخرجه من تلك النعمة، ويعذره بجهله وسوء اختياره لنفسه، حتىٰ إذا ضاق ذرعًا بتلك النعمة وسخطها وتبرّم بها واستحكم ملله لها سلبه الله إياها، فإذا انتقل إلىٰ ما طلبه ورأىٰ التفاوت بين ما كان فيه. وصار إليه، اشتد قلقه وندمه وطلب العودة إلىٰ ما كان فيه.

فإذا أراد الله بعبده خيرًا ورشدًا أشهده أن ما هو فيه نعمة من نعمه عليه ورضاه به وأوزعه شكره عليه، فإذا حدثته نفسه بالانتقال عنه استخار ربه استخارة جاهل بمصلحته، عاجز عنها مفوض إلىٰ الله، طالب منه حسن اختياره له. وليس علىٰ العبد أضر من ملله لنعم الله، فإنه لا يراها نعمة ولا يشكره عليها ولا يفرح بها، بل يسخطها ويشكوها ويعدّها مصيبة، هذا وهي من أعظم نعم الله عليه، فأكثر الناس أعداء نعم الله عليهم، ولا يشعرون بفتح الله عليهم نعمه، وهم مجتهدون في دفعها وردها جهلًا وظلمًا.

فكم سعت إلىٰ أحدهم من نعمة وهو ساع في ردها بجهده، وكم وصلت إليه وهو ساع في دفعها وزوالها بظلمه وجهله، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] فليس للنعم أعدىٰ من نفس العبد، فهو مع عدوه ظهير علىٰ نفسه، فعدوه يطرح النار في نعمه وهو ينفخ فيها، فهو الذي مكّنه من طرح النار، ثم أعانه بالنفخ، فإذا اشتدّ ضرامها استغاث من الحريق، وكان غايته معاتبة الأقدار:

وَعَاجِزُ الرَّأْيِ مِضْياعٌ لِفُرْصَتِهِ ... حَتَّىٰ إِذَا فَاتَ أَمْرٌ عَاتَبَ القَدَرَا(٢) اهـ.

---

(١) ١٨٠ فوائد.

(٢) هذا البيت من بحر البسيط وينسب إلىٰ الخليل بن أحمد الفراهيدي رحمه الله. من أئمة اللغة والأدب وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه، عاش فقيرًا صابرًا مغمورًا في الناس من مؤلفاته كتاب العين مات رحمه الله سنة ١٧٠هـ وذكر البيت الجاحظ في الأمل والمأمول (ص٢٢) وابن عبد ربه في العقد الفريد (١/ ١٠٣)، والراغب الأصفهاني في محاضرات الأدباء (١/ ٣١).

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

(١) قال الله تعالىٰ: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقال تعالىٰ في حق المؤمنين: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] وقال فيهم: ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤] وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ [النساء: ١٠٤]، أي: لا تضعفوا. وقال: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن**»(٢)، وكان النبي ﷺ يتعوذ بالله من الجبن، والجبن خلق مذموم عند جميع الخلق، وأهل الجبن هم أهل سوء الظن بالله. وأهل الشجاعة والجود هو أهل حسن الظن بالله، كما قال بعض الحكماء في وصيته: عليكم بأهل السخاء والشجاعة، فإنهم أهل حسن الظن بالله. والشجاعة جنة للرجل من المكاره، والجبن إعانة منه لعدوه علىٰ نفسه، فهو جند وسلاح يعطيه عدوه ليحاربه به.

وقد قالت العرب: الشجاعة وقاية والجبن مقتلة.

وقد أكذب الله سبحانه أطماع الجبناء في ظنهم أن جبنهم ينجيهم من القتل والموت، فقال الله تعالىٰ: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾ [الأحزاب: ١٦]. ولقد أحسن القائل:

أقول لها وقد طارت شعاعًا ... من الأبطال ويحك لن تراعي

---

(١) ١٢٥ الفروسية.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٢٢٧) وشرح النووي (٦/ ٢١٥).

فإنــك لــو ســألت بقــاء يــوم   علـى الأجـل الـذي لـك لـن تطـاعي
ومــا ثــوب الحيــاة بثــوب عــز   فيطــوي عــن أخــي الخنــع اليــراع
ســبيل المــوت غايــة كــل حــي   وداعيــه لأهــل الأرض داعــي[(١)]

واعتبر ذلك في معارك الحروب بأن من يقتل مدبرا أكثر ممن يقتل مقبلًا. وفي وصية أبي بكر الصديق[(٢)] لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهب لك الحياة، وقال خالد بن الوليد: حضرت كذا وكذا زحفًا في الجاهلية والإسلام وما في جسدي موضع إلا وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف، وها أنا ذا أموت على فراشي فلا نامت أعين الجبناء[(٣)]. ولا ريب عند كل عاقل أن استقبال الموت إذا جاءك خير من استدباره، قال حسان:

ولـسنا علـى الأعقـاب تـدمى كلومنـا   ولكـن علـى أقـدامنا تقطـر الـدما[(٤)]

[(٥)]فإذا قلت: علمت فمطلوبها ثلاثة معان: محل وصفة وإضافة الصفة إلى المحل،

---

(١) ذكر هذه الأبيات الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء (٤/ ١٥١-١٥٢) ونسبها إلى قطري بن الفجاءة التميمي المازني البطل المشهور رأس الخوارج، خرج زمن ابن الزبير وهزم الجيوش واستفحل بلاؤه، جهّز إليه الحجاج جيشًا بعد جيش فيكسرهم وغلب على بلاد فارس، وله وقائع مشهودة وشجاعة لم يسمع بمثلها وشعر فصيح سائر، وفي السير بيت ثالث سقط من هنا:

فصبرًا في مجال الموت صبرًا   فما نيل الخلــود بمستطاع

(٢) ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٢٥٦).

(٣) ذكره المزي في تهذيبه (٨/ ١٨٩)، والذهبي في سيره (١/ ٣٨٢)، وابن عساكر في تاريخه (١٦/ ٢٧٣) وابن عبد البر في الاستيعاب (٢/ ٤٣٠)، والنووي في تهذيب الأسماء (١/ ١٧٥).

(٤) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى الحصين بن حمام الفزاري، شاعر فارسي جاهلي سيد بني سهم بن مرة، لقب (مانع الضيم) في شعره حكمة نبذ عبادة الأوثان، مات سنة ١٠هـ قبل الهجرة. ورد أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قاله لما أصابته آجرة من جنود الحجاج بن يوسف ـ في مفرقه حتى فلقت رأسه، فوقف قائمًا وهو يقول: وذكر البيت، انظر: حلية الأولياء (١/ ٣٣٢، ٣٣٣) وتاريخ مدينة دمشق (٢٨/ ٢٢٣، ٢٢٤) والاستيعاب (٣/ ٩٠٨) وصفة الصفوة (١/ ٧٧٠) وتاريخ ابن معين (رواية الدوري) (٣/ ٢٩) وأخبار مكة للفاكهي (٢/ ٣٥٩).

(٥) ٦٢ بدائع.

وهن ثلاث معلومات إذا عرف هذا فقال بعض المتكلمين: لا يضاف إلى الله سبحانه إلا العلم لا المعرفة، لأن علمه متعلق بالأشياء كلها مركبها ومفردها تعلقًا واحدًا بخلاف علم المحدثين، فإن معرفتهم بالشيء المفرد، وعلمهم به غير علمهم ومعرفتهم لشيء آخر، وهذا بناء منه على أن الله تعالى يعلم المعلومات كلها بعلم واحد وأن علمه بصدق رسول الله ﷺ هو عين علمه بكذب مسيلمة. والذي عليه محققو النظار خلاف هذا القول، وأن العلوم متكثرة متغايرة بتكثر المعلومات وتغايرها، فلكل معلوم علم يخصه، ولإبطال قول أولئك وذكر الأدلة الراجحة على صحة قول هؤلاء مكان هو أليق به، وعلى هذا فالفرق بين إضافة العلم إليه تعالى وعدم إضافة المعرفة لا ترجع إلى الإفراد والتركيب في متعلق العلم، وإنما ترجع إلى نفس المعرفة ومعناها، فإنها في مجاري استعمالها إنما تستعمل فيما سبق تصوره من نسيان أو ذهول أو عزوف عن القلب، فإذا تصور وحصل في الذهن قيل: عرفه أو وصف له صفته ولم يره، فإذا رآه بتلك الصفة وتعينت فيه. قيل: عرفه، ألا ترى أنك إذا غاب عنك وجه الرجل ثم رأيته بعد زمان فتبينت أنه هو، قلت: عرفته وكذلك عرفت اللفظة، وعرفت الديار، وعرفت المنزل، وعرفت الطريق.

وسر المسألة أن المعرفة لتمييز ما اختلط فيه المعروف بغيره فاشتبه، فالمعرفة تمييز له وتعيين، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦] فإنهم كان عندهم من صفته قبل أن يروه ما طابق شخصه عند رؤيته، وجاء كما يعرفون أبناءهم من باب ازدواج الكلام وتشبيه أحد اليقينين بالآخر فتأمله، وقد بسطنا هذا في كتاب التحفة المكية، وذكرنا فيها من الأسرار والفوائد ما لا يكاد يشتمل عليه مصنف، وأما ما زعموا من قولهم: إن علمت قد يكون بمعنى عرفت، واستشهادهم بنحو قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠١] وبقوله: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] فالذي دعاهم إلى ذلك أنهم رأوا علمت قد تعدت إلى مفعول واحد، وهذا هو حقيقة العرفان فاستشهاد ظاهر

علىٰ أنه قد قال بعض الناس: إن تعدي فعل العلم في هذه الآيات وأمثالها إلىٰ مفعول واحد لا يخرجها عن كونها علمًا علىٰ الحقيقة، فإنها لا تتعدىٰ إلىٰ مفعول واحد علىٰ نحو تعدىٰ عرفت، ولكن علىٰ جهة الحذف والاختصار، فقوله: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ لا تنفي عنه معرفة أعيانهم وأسمائهم، وإنما تنفي عنه العلم بعدوانهم ونفاقهم، وما تقدم من الكلام يدلك علىٰ ذلك، وكذلك قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾، فربما كانوا يعرفونهم ولا يعلمونهم أعداء لهم، فيتعلق العلم بالصفة المضافة إلىٰ الموصوف لا بعينه وذاته، قال هذا وإنما مثل من يقول: إن علمت بمعنىٰ عرفت من أجل أنها متعدية إلىٰ مفعول واحد في اللفظ، كمثل من يقول: إن سألت يتعدىٰ إلىٰ غير العقلاء بقولهم: سألت الحائط، وسألت الدار، ويحتج بقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] قال: وإنما هذا جهل بالمجاز والحذف، وكذلك ما تقدم، وليس ما قاله هؤلاء بقوي، فإن الله سبحانه نفىٰ عن رسوله معرفة أعيان أولئك المنافقين، هذا صريح اللفظ، وإنما جاء نفي معرفة نفاقهم من جهة اللزوم، فهو ﷺ كان يعلم وجود النفاق في أشخاص معينين، وهو موجود في غيرهم ولا يعرف أعيانهم، وليس المراد أن أشخاصهم كانت معلومة له معروفة عنده، وقد انطووا علىٰ النفاق، وهو لا يعلم ذلك فيهم، فإن اللفظ لم يدل علىٰ ذلك بوجه، والظاهر بل المتعين أنه ﷺ لو عرف أشخاصهم لعرفهم بسيماهم وفي لحن القول، ولم يكن يخفىٰ عليه نفاق من يظهر له الإسلام، ويبطن عداوته وعداوة الله ﷻ.

والذي يزيد هذا وضوحًا الآية الأخرىٰ، فإن قوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ فيهم قولان:

أحدهما: إنهم الجن المظاهرون لأعدائهم من الإنس علىٰ محاربة الله ورسوله، وعلىٰ هذا فالآية نص في أن العلم فيها بمعنىٰ المعرفة، ولا يمكن أن يقال: إنهم كانوا عارفين بأشخاص أولئك جاهلين عداوتهم، كما أمكن مثله في الإنس.

والقول الثاني: إنهم المنافقون وعلى هذا فقوله: ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ﴾ إنما ينبغي حمله على معرفة أشخاصهم لا على معرفة نفاقهم، لأنهم كانوا عالمين بنفاق كثير من المنافقين، يعلمون نفاقهم ولا يشكون فيه، فلا يجوز أن ينفي عنهم علم ما هم عالمون به، وإنما ينفي عنهم معرفة أشخاص من هذا الضرب، فيكون كقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ فتأمله.. ويزيده وضوحًا أن هذه الأفعال لا يجوز فيها الاقتصار على أحد المفعولين، بخلاف باب أعطى وكسا للعلة المذكورة هناك، وهي تعلق هذه الأفعال بالنسبة، فلابد من ذكر المنتسبين بخلاف باب أعطى، فإنه لم يتعلق بنسبة، فيصح الاقتصار فيه على أحد مفعولين، وهذا واضح كما تراه، والله تعالى أعلم.وأما تنظيرهم ل سألت الحائط والدار فيا بعد ما بينهما، فإن هذا سؤال بلسان الحال وهو كثير في كلامهم جدًّ، على أنه لا يمتنع أن يكون سؤالا بلسان المقال صريحا كما يقول الرجل للدار الخربة: ليت شعري ما فعل أهلك؟! وليت شعري ما صيرك إلى هذه الحال؟! وليس هذا سؤال استعلام بل سؤال تعجب وتفجع وتحزن وأما قوله: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ فالقرية إن كانت هنا اسما للسكان كما هو المراد بها في أكثر القرآن الكريم والكلام، فلا مجاز ولا حذف، وإن كان المراد بها المسكن فعلى حذف المضاف، فأين التسوية والتنظير؟

قولهم: علمت وظننت يتعدى إلى مفعولين، ليس هنا مفعولان في الحقيقة، وإنما هو المبتدأ والخبر، وهو حديث إما معلوم وإما مظنون، فكان حق الاسم الأول أن يرتفع بالابتداء، والثاني بالخبر ويلغى الفعل؛ لأنه لا تأثير له في الاسم، إنما التأثير لعرفت الواقعة على الاسم المفرد تعيينًا وتمييزًا، ولكن أرادوا تشبث علمت بالجملة التي هي الحديث، كيلا يتوهم الانقطاع بين المبتدأ وبين ما قبله.

***

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ

قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

(١)تأليف القلوب جعل بعضها يألف بعضًا، ويميل إليه ويحبه، وهو من أفعالها الاختيارية، وقد أخبر سبحانه أنه هو الذي فعل ذلك لا غيره.

(٢)قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤] أي: اللَّهُ وحده كافيك، وكافي أتباعِك، فلا تحتاجون معه إلى أحد. وهنا تقديران:

أحدُهما: أن تكون الواو عاطفة لـ«مَنْ» على الكاف المجرورة، ويجوز العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار على المذهب المختار، وشواهدُه كثيرة، وَشُبَهُ المنع منه واهِية.

والثاني: أن تكون الواو وَاوَ «مع» وتكون «مَن» في محل نصب عطفاً على الموضع، فإن «حسبك» في معنى «كافيك»، أي: اللَّهُ يكفيك ويكفي مَنِ اتبعك، كما تقول العرب: حسبك وزيداً درهم، قال الشَّاعر:

إِذَا كَانَتِ الهَيْجَاءُ وَانْشَقَّتِ العَصَا ... فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكَ سَيْفٌ مُهَنَّد(٣)

وهذا أصحُّ التقديرين. وفيها تقدير ثالث: أن تكون «مَنْ» في موضع رفع بالابتداء، أي: ومن اتبعك من المؤمنين، فحسبُهُم الله. وفيها تقدير رابع، وهو خطأ من جهة المعنى، وهو أن تكون «مَنْ» في موضع رفع عطفاً على اسم الله، ويكون المعنى:

---

(١) ٥٧ شفاء.

(٢) ٣ زاد المعاد جـ١.

(٣) ذكر البيت ابن عبد البر في التمهيد (١٩/ ١٦١) وابن منظور في لسان العرب (٢/ ٣٩٥) (١٥/ ٦٦) والقرطبي في التفسير (١/ ٤١٩) (٨/ ٤٢) والشنقيطي في أضواء البيان (١/ ٣١٥).

حسبُك اللّه وأتباعُك، وهذا ـ وإن قاله بعضُ الناس ـ فهو خطأ محض، لا يجوز حملُ الآية عليه، فإن الحسب و الكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوىٰ والعبادة.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢]. ففرَّق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسبَ له وحدَه، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنىٰ اللّه سبحانه علىٰ أهل التوحيد والتوكل مِن عباده، حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، فإذا كان هذا قولَهم، ومدح الرب تعالىٰ لهم بذلك، فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعُك حسبُك، وأتباعه قد أفردوا الرب تعالىٰ بالحسب، ولم يُشركوا بينه وبين رسوله فيه، فكيف يُشرك بينهم وبينه في حسب رسوله؟! هذا مِن أمحل المحال وأبطل الباطل.

ونظيرُ هذا قولُه تعالىٰ: ﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩].

فتأمل كيف جعل الإيتاء لله ولرسوله، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧]. وجعل الحسبَ له وحده، فلم يقل: وقالوا: حسبنا الله ورسولُه، بل جعله خالصَ حقِّه، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩]. ولم يقل: وإلىٰ رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحدَه، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ﴾ [الشرح: ٧-٨]، فالرغبةُ، والتوكل، والإنابةُ، والحسبُ للهِ وحده، كما أن العبادةَ والتقوىٰ، والسجود لله وحدَه، والنذر والحلف لا يكون إلا لله ﷻ.

ونظيرُ هذا قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦]. فالحسبُ: هو الكافي، فأخبر ﷻ أنّه وحده كافٍ عبدَه، فكيف يجعل أتباعه مع اللّه في هذه الكفاية؟!

والأدلة الدَّالة على بطلان هذا التأويل الفاسد أكثر من أن تذكر هاهنا.

والمقصودُ: أنه بحسب متابعة الرسول تكونُ العزَّة والكفاية والنُّصرة، كما أن بحسب متابعته تكونُ الهدايةُ والفلاح والنجاة، فاللّه سبحانه علَّق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شَقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدىٰ والأمن، والفلاحُ والعزَّة، والكفاية والنصرة، والوِلاية والتأييد، وطيبُ العيش في الدنيا والآخرة.

ولمخالفيه الذِّلةُ والصَّغار، والخوفُ والضلال، والخِذلان والشقاءُ في الدنيا والآخرة.

[1]تأمل الحكمة في التشديد في أول التكليف، ثم التيسير في آخره بعد توطين النفس على العزم والامتثال، فيحصل للعبد الأمران: الأجر على عزمه وتوطين نفسه على الامتثال، والتيسير والسهولة بما خفف الله عنه.

فمن ذلك أمر الله تعالىٰ رسوله بخمسين صلاة ليلة الإسراء، ثم خففها وتصدق بجعلها خمسًا. ومن ذلك انه أمر أولا بصبر الواحد إلى العشرة ثم خفف عنهم ذلك إلى الاثنين. ومن ذلك أنه حرم عليهم في الصيام إذا نام أحدهم أن يأكل بعد ذلك أو يجامع ثم خفف عنهم بإباحة ذلك إلى الفجر. ومن ذلك أنه أوجب عليهم تقديم الصدقة بين يدي مناجاة رسوله ﷺ، فلما وطنوا له أنفسهم على ذلك خففه عنهم. ومن ذلك تخفيف الاعتداد بالحول بأربعة أشهر وعشرًا.

وهذا كما قد يقع في الابتلاء بالأوامر فقد يقع في الابتلاء بالقضاء والقدر، يشدد على العبد أولًا ثم يخفف عنه وحكمته تسهيل الثاني بالأول، وتلقى الثاني بالرضىٰ وشهود المنة والرحمة. وقد يفعل الملوك ببعض رعاياهم قريبًا من هذا، فهؤلاء المصادرون يطلب منهم الكثير جدًّا، الذي ربما عجزوا عنه، ثم يحطون إلى ما دونه لتطوع لهم أنفسهم بذلة ويسهل عليهم.

---

(١) ١٨٣ بدائع جـ٣.

وقد يفعل بعض الحمالين قريبًا من هذا، فيزيدون على الحمل شيئا لا يحتاجون إليها، ثم يحط تلك الأشياء فيسهل حمل الباقي عليهم.

والمقصود أن هذا باب من الحكمة خلقًا وأمرا، ويقع في الأمر والقضاء والقدر أيضا ضد هذا، فينقل عباده بالتدريج من اليسير إلى ما هو أشد منه، لئلا يفجأ هذا التشديد بغتة فلا تحمله ولا تنقاد له.

وهذا كتدريجهم في الشرائع شيئا بعد شيء دون أن يؤمروا بها كلها وهلة واحدة. وكذلك المحرمات، ومن هذا أنهم أمروا بالصلاة أولا ركعتين ركعتين، فلما ألفوها زيد فيها ركعتين أخريين في الحضر. ومن هذا أنهم أمروا أولا بالصيام، وخيروا فيه بين الصوم عينا وبين التخيير بينه وبين الفدية، فلما ألفوه أمروا بالصوم عينًا. ومن هذا أنهم أذن لهم بالجهاد أولًا من غير أن يوجبه عليهم، فلما توطنت عليه نفوسهم وباشروا حسن عاقبته وثمرته أمروا به فرضًا.

وحكمة هذا التدريج التربية على قبول الأحكام والإذعان لها والانقياد لها شيئا فشيئا، وكذلك يقع مثل هذا في قضائه وقدره المقدر على عبده، بل لا بد منه اقتضاء حمده وحكمته، فيبتليه بالأخف أولًا ثم يرقيه إلى ما هو فوقه، حتى يستكمل ما كتب عليه منه. ولهذا قد يسعى العبد في أول البلاء في دفعه وزواله ولا يزداد إلا شدة، لأنه كالمرض في أوله وتزايده، فالعاقل يستكين له أولا وينكسر ويذل لربه، ويمد عنقه خاضعا ذليلا لعزته، حتى إذا مر به معظمه وغمرته، وأذن ليله بالصباح فإذا سعى في زواله ساعدته الأسباب، ومن تأمل هذا في الخلق انتفع به انتفاعًا عظيمًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

***

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾.

[(١)] في هديه ﷺ في الأسارىٰ كان يَمُنُّ علىٰ بعضهم، ويقتُلُ بعضَهُم، ويُفادِي بعضَهم بالمال، وبعضَهم بأسرىٰ المسلمينَ، وقد فعل ذلك كلَّه بِحَسَبِ المصلحة، ففادَىٰ أسارىٰ بدرٍ بمالٍ، وقَالَ: «لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيًّا، ثُمَّ كَلَّمَني في هؤلاءِ النَّتْنَىٰ، لَتَرَكْتُهُم له»[(٢)].

وهبطَ عليه في صُلحِ الحديبية ثمانون متسلِّحُونَ يُريدون غِرَّته، فأسرهم ثمَّ مَنَّ عليهم[(٣)]. وأسرَ ثُمامةَ بن أثال سيِّدَ بني حَنيفَةَ، فرَبَطَه بِسَارِيَةِ المَسْجِدِ، ثم أطلقه فأسلم[(٤)].

واستشار الصحابة في أسارىٰ بدر، فأشار عليه الصِّدِّيقُ أن يأخُذَ منهم فِديةً، تكونُ لهم قوةً علىٰ عَدوِّهم، ويُطلِقَهم لعلَّ اللهَ أن يَهدِيهم إلىٰ الإسلام. وقال عمر: لا والله، ما أرىٰ الَّذِي رأىٰ أبُو بكر، ولكن أَرىٰ أن تُمَكِّنَنَا فَنضرِبَ أعناقَهم، فإنَّ هؤلاء أئمةُ الكفرِ وصناديدُها، فَهَوِيَ رسولُ الله ﷺ ما قال أبُو بكر، ولم يَهْوَ ما قال عُمَرُ، فلما كان مِن الغد، أقبلَ عُمَرُ، فإذا رسولُ الله ﷺ يَبكىٰ هو وأبُو بكر، فقال: يا رَسُولَ الله ؛ مِن أيِّ شيءٍ تبكىٰ أنتَ وصاحِبُكَ، فإن وجدتُ بُكاءً بَكَيْتُ، وإن لم أَجِدْ بكاءً تباكَيْتُ لبكائكما؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَليَّ أَصْحَابُك مِنْ أَخْذِهم الفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهم أدْنَىٰ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرة، وَأَنْزَلَ الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[(٥)] [الأنفال: ٦٧]».

وقد تكلَّمَ النَّاسُ، في أيِّ الرأيينِ كان أصوَب؟ فرجَّحتْ طائِفةٌ، قولَ عُمَرَ لهذا الحديث، ورجَّحت طَائِفةٌ قولَ أبي بكر، لاستقرار الأمر عليه، وموافقتِهِ الكِتابَ الذي

---

(١) ١٧٤ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١٣٩) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٤٣).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٨٠٨) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ١٦).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٩) ومسلم (رقم ١٧٦٤) وانظر: شرح النووي (١٢/ ٨٧).

(٥) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦٣).

سَبَقَ مِن اللهِ بإحلالِ ذلك لهم، ولِموافقته الرحمة التي غلبتِ الغضب[١]، ولتشبيه النبيِّ ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى[٢] ولِحصول الخيرِ العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئكَ الأسرى، ولخروجِ مَن خرج مِن أصلابهم مِن المسلمين، ولِحصولِ القوة التي حصلت لِلمسلمين بالِفداء، ولموافقةِ رَسولِ اللهِ ﷺ لأبي بكر أوّلاً، ولِموافقةِ اللهِ له آخرًا، حيثُ استقر الأمرُ على رأيه، ولِكمال نظر الصِّدِّيق، فإنه رأى ما يستقِرُّ عليه حُكْمُ اللهِ آخِراً، وغلَّب جانبَ الرحمةِ على جانبِ العُقُوبة.

قالوا: وأما بكاءُ النبيِّ ﷺ، فإنَّمَا كان رحمةً لِنزول العذابِ لمن أراد بذلك عرضَ الدنيا، ولم يُرِدْ ذَلِكَ رسولُ اللهِ ﷺ، ولا أبو بكر، وإن أرادَه بعضُ الصحابة، فالفتنةُ كانت تَعُمُّ ولا تُصيبُ مَن أرادَ ذلك خاصةً، كما هُزِمَ العسكرُ يومَ حُنَين بقول أحدهم: «لَنْ نُغْلَبَ اليَوْمَ مِن قِلَّةٍ»[٣] وبإعجاب كثرتهم لِمن أعجبته منهم، فهزم الجَيْشُ بذلك فِتنة ومحنة، ثم استقر الأمرُ على النصر والظفر.. واللهُ أعلم.

واستأذنه الأنصارُ أن يترُكُوا لِلعباس عَمِّهِ فِدَاءَه، فَقَالَ: «لا تَدَعُوا مِنْهُ دِرْهَمَاً»[٤].

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي» أخرجه البخاري (رقم ٣١٩٤) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤١٢).

(٢) قال رسول الله ﷺ: «وإن مثلك يا أبابكر كمثل إبراهيم ﷺ، قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، قال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] وإن مثلك يا عمر كمثل نوح، قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]» أخرجه أحمد (١/ ٣٨٣) والطبري في تفسيره (١٠/ ٤٣) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٢١ رقم ١٢٦٢٣) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٥٩ رقم ٣٦٦٩٠).

(٣) أخرجه الطبري (١٠/ ١٠١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٢٧) وتحفة الأحوذي (٥/ ١٣٩) وعون المعبود (٧/ ١٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٥٣٧) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ٢٩٥).

واستوهب مِن سلمة بنِ الأكوع جارية نَفَلَه إيَّاها أبو بكر في بعض مغازيه، فوهبها له، فبعثَ بها إلىٰ مكَّة، ففدىٰ بها ناساً مِن المسلمين[1]، وفدىٰ رجلين من المسلمين برجل من عقيل، ورد سبي هوازن عليهم بعد القِسْمَةِ.

قال تعالىٰ: ﴿لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] وقد اختلف السلف في هذا الكتاب السابق، فقال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم: لولا قضاء من الله سبق لكم يا أهل بدر في اللوح المحفوظ أن الغنائم حلال لكم لعاقبكم.

وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد الحجة لعاقبكم. وقال آخرون: لولا كتاب من الله سبق لأهل بدر أنه مغفور لهم وإن عملوا ما شاؤوا لعاقبهم. وقال آخرون ـ وهو الصواب ـ: لولا كتاب من الله سبق بهذا كله لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم، والله أعلم.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأنفال

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٥٥).

سُورَةُ التَّوْبَةِ

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ ﴾.

قال ابن إسحاق[1]: ثم أقام رسولُ الله ﷺ منصرَفه مِن تَبُوك بقيةَ رمضانَ وشوَّالاً وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج سنةَ تسع، لِيقيم للمسلمين حَجَّهم، والناس من أهل الشِّرك على منازلهم من حَجِّهم، فخرج أبو بكر والمؤمنون.

قال ابن سعد: فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بدنة، قلَّدها وأشعرها بيده، عليها ناجية بن جُندب الأسلمي، وساق أبو بكر خمس بدنات[2].

قال ابن إسحاق: فنزلت براءة في نقضٍ ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين مِن العهد الذي كانوا عليه، فخرج عليُّ بن أبي طالب على ناقة رسول الله ﷺ العضباء.

قال ابن سعد: فلما كان بالعَرْج وابن عائذ يقول: بضَجَنان لحقه عليُّ بن أبي طالب على العضباء، فلما رآه أبو بكر، قال: أميرٌ أو مأمورٌ؟ قال: لا بل مأمور، ثم مضيا.

وقال ابن سعد: فقال له أبو بكر: أستعملك رسولُ الله ﷺ على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس، وأنبذ إلى كل ذي عَهدٍ عهده[3]، فأقام أبو بكر للناس حَجَّهم، حتى إذا كان يومُ النحر، قام عليُّ بن أبي طالب، فأذَّن في الناس عند

(١) ٥٢ زاد المعاد جـ٣.
(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ١٦٨).
(٣) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ١٦٨).

الجمرة بالذي أمره رسول الله، ونبذ إلى كل ذي عهد عهده، وقال: «يأيها الناس؛ لا يدخُلُ الجنَّة كافر، ولا يحجُّ بعد العام مشرك، ولا يطوفُ بالبيت عُريان، ومَن كان له عهد عِند رسول الله ﷺ، فهو إلى مُدَّته»(١).

وقال الحميدي: حدَّثنا سفيان، قال: حدَّثني أبو إسحاق الهَمْدَاني،عن زيد بن يثيع، قال: سألنا علياً، بأي شيء بُعِثْتَ في الحَجَّة؟ قال: «بُعِثتُ بأربع: لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلا نفسٌ مُؤمِنة، ولا يَطُوفُ بالبيت عُريان، ولا يجتمِعُ مُسلم وكافر في المسجد الحرام بعد عامِه هذا، ومَنْ كان بينَه وبَيْن النبيِّ ﷺ عهد، فعهده إلى مُدَّته، ومَن لم يكن له عهد، فأجلُه إلى أربعةِ أشهرٍ»(٢).

وفي الصحيحين: عن أبي هُريرة، قال: «بعثني أبو بكر في تلك الحَجَّة في مُؤذِّنينَ بعثهم يومَ النحر يؤذِّنون بمِنَى: أَلاَ يَحُجَّ بعدَ هذا العامِ مُشرِك، ولا يَطُوفَ بالبيت عُريان، ثم أردف النبيُّ ﷺ أبا بَكر بعلي بنِ أبي طالب، فأمره أن يُؤذِّن ببراءة، قال: فأذَّن معنا عليٌّ في أهل مِنَى يَوْمَ النحرِ ببراءة، وأَلاَّ يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، ولا يَطُوفَ بالبَيْتِ عُرْيان»(٣).

وفي هذه القصة دليل على أن يومَ الحج الأكبر هو يومُ النحر.

واختُلِف في حَجَّة الصِّدِّيق هذه، هل هي التي أسقطت الفرضَ، أو المسقطة هي حَجَّة الوداع مع النبي ﷺ؟ على قولين. أصحهما الثاني، والقولان مبنيان على أصلين:

أحدُهما: هل كان الحَجُّ فُرِضَ قَبْلَ عام حَجَّة الوداع أو لا؟

والثاني: هل كانت حَجَّةُ الصِّدِّيق ﷺ في ذي الحجة، أم وقعت في ذي القَعدَة من أجل النسيء الذي كان الجاهليةُ يؤخِّرون له الأشهر ويُقدِّمونها؟ على قولين. والثاني:

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ٦٥) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه الحميدي (١/ ٢٦ رقم ٤٨) والضياء في المختارة (٢/ ٨٤ رقم ٤٦١) والحاكم (٣/ ٥٤ رقم ٤٣٧٦) والترمذي (رقم ٣٠٩٢) والدارمي (رقم ١٩١٩) وأبو يعلى (١/ ٣٥١ رقم ٤٥٢) وأحمد (١/ ٧٩) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٢١ رقم ٦٦٩، ٦٧٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٩) ومسلم (رقم ١٣٤٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣١٨-٣٢٢).

قولُ مجاهد وغيره.

وعلى هذا، فلم يُؤخِّر النبي ﷺ الحَجَّ بعد فرضه عاماً واحداً، بل بادر إلى الامتثال في العام الذي فُرِض فيه، وهذا هو اللائق بهَدْيه وحاله ﷺ، وليسَ بِيدِ مَن ادَّعى تقدُّم فرض الحَجّ سنةَ ست أو سبعٍ أو ثمانٍ أو تسع دليل واحد.

وغايةُ ما احتج به مَن قال: فُرِضَ سنة ست قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وهي قد نزلت بالحُديبية سنة ست، وهذا ليس فيه ابتداءُ فرض الحَجّ، وإنما فيه الأمر بإتمامه إذا شُرِعَ فيه، فأين هذا مِن وجوب ابتدائه، وآيةُ فرض الحَجّ، وهي قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران: ٩٧]، نزلت عامَ الوفود أواخرَ سنة تسع. أ. هـ.

[١]وسأله ﷺ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: عن يوم الحج الأكبر، فقال: «يوم النحر»[٢] ذكره الترمذي. وعند أبي داود بإسناد صحيح: أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج فيها، فقال: «أي يوم هذا؟» قالوا: يوم النحر، فقال: «هذا يوم الحج الأكبر»[٣].

وقد قال تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة: ٣] وإنما أذَّن المؤذن بهذه البراءة يوم النحر. وثبت في الصحيح: عن أبي هريرة أنه قال: يوم الحج الأكبر يوم النحر. ا.هـ[٤].

[٥]ومن هذا تفضيله بعض الأيام والشهور على بعض. فخير الأيام عند الله يوم

---

(١) ٣٠٣ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٩٥٧، ٩٥٨).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ١٩٤٥) وأصل الحديث عند البخاري (رقم ١٧٤٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٥٧٧) (٨/ ٣٢١).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣١٧٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٢١).

(٥) ١٦ زاد المعاد جـ١.

النحر، وهو يوم الحج الأكبر، كما في السنن عنه ﷺ أنه قال: «**أفضل الأيام عند الله: يوم النحر، ثم يوم القر**»(١).

وقيل: يومُ عرفة أفضلُ منه، وهذا هو المعروف عند أصحاب الشافعي، قالوا: لأنه يومُ الحج الأكبر، وصيامُه يكفر سنتين، ومَا مِنْ يَوْمٍ يَعْتِقُ اللهُ فِيهِ الرِّقابَ أَكْثَرَ مِنهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ، ولأنه ﷻ يَدْنُو فِيهِ مِنْ عِبَادِهِ، ثُمَّ يُبَاهِي مَلَائِكَتَه بِأَهْلِ الموقف. والصواب القول الأول، لأن الحديثَ الدالَّ على ذلك لا يُعارضه شيء يُقاومه، والصوابُ: أن يومَ الحج الأكبر هو يومُ النَّحر، لقوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣] وثبت في الصحيحين: أن أبا بكر وعلياً رضي الله عنهما، أَذَّنَا بِذَلِكَ يَوْمَ النَّحْرِ، لاَ يَومَ عَرَفَةَ.

وفي سنن أبي داود بأصح إسناد أن رسول الله ﷺ قال: «**يوم الْحَجِّ الأَكْبَرِ يَوْمُ النَّحْرِ**»(٢)، وكذلك قال أبو هريرة، وجماعةٌ من الصحابة.

ويومُ عرفة مقدِّمة ليوم النَّحر بين يديه، فإن فيه يكونُ الوقوفُ، والتضرعُ، والتوبةُ، والابتهالُ، والاستقالةُ، ثم يومَ النَّحر تكون الوفادةُ والزيارة، ولهذا سمي طوافُه طوافَ الزيارة، لأنهم قد طهروا من ذنوبهم يوم عرفة، ثم أذن لهم ربُّهم يوم النَّحر في زيارته، والدخولِ عليه إلى بيته، ولهذا كان فيه ذبحُ القرابين، وحلقُ الرؤوس، ورميُ الجمار، ومعظمُ أفعال الحج.

وعملُ يوم عرفة كالطهور والاغتسال بين يدي هذا اليوم.

وكذلك تفضيل عشر ذي الحجة على غيره من الأيام، فإنَّ أيامه أفضلُ الأيامِ عند الله، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله

(١) أخرجه ابن حبان (٧/ ٥١ رقم ٢٨١١) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢٣٧ رقم ٩٩٩٤) والطبراني في الأوسط (٣/ ٤٤ رقم ٢٤٢١) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٧٢ رقم ٤٧٥) والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ٢٠٤-٢٠٥ رقم ٢٦٨).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ١٩٤٦).

ﷺ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ العَمَلُ الصَّالح فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ هذه الأَيَّام العَشْرِ» قَالُوا: وَلاَ الجِهَادُ في سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «وَلاَ الجِهَادُ في سَبِيلِ اللهِ، إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ ومَالِهِ، ثُمَّ لَمْ يَرْجعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيءٍ»[1].

وهي الأيامُ العشر التي أقسم اللهُ بها في كتابه بقوله: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١-٢] ولهذا يُستحب فيها الإكثارُ من التكْبير والتهليل والتحميدِ، كما قال النبي ﷺ: «فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التكْبِيرِ وَالتَّهْلِيل وَالتَحْمِيدِ»[2]، ونسبتُهَا إلى الأيام كنسبة مواضع المناسك في سائر البقاع.

وَمِنْ ذَلك تفضيلُ شهر رمضان على سائر الشهور، وتفضيلُ عشرِهِ الأخير على سائر الليالي، وتفضيلُ ليلة القدر على ألف شهر.

فإن قلت: أيُّ العَشرين أفضلُ؟ عَشرُ ذي الحِجَّة، أو العشرُ الأخير من رمضان؟ وأيُّ الليلتين أفضلُ؟ ليلةُ القدرِ، أو ليلة الإسراء؟

قلت: أمّا السؤالُ الأول، فالصوابُ فيه أن يقالُ: ليالي العشر الأخير من رمضان، أفضلُ من ليالي عشر ذي الحجة، وأيَّام عشر ذي الحِجَّة أفضلُ من أيام عشر رمضان، وبهذا التفصيلِ يزولُ الاشتباه.

ويدل عليه أن لياليَ العشر من رمضان إنما فُضِّلَتْ باعتبار ليلة القدر، وهي من الليالي، وعشرُ ذيَ الحِجَّة إنما فُضِّلَ باعتبار أيامه، إذ فيه يومُ النحر، ويومُ عرفة، ويوم التروية.

وأما السؤال الثاني، فقد سُئِلَ شيخُ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجل قال: ليلةُ الإسراء أفضلُ مِن ليلة القدر، وقال آخر: بل ليلةُ القدر أفضلُ، فَأَيُّهما المصيبُ؟

فأجاب: الحمدُ للهِ، أما القائلُ بأن ليلة الإسراء أفضلُ مِن ليلة القدر، فإن أراد به:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٩٦٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٣١) وعبد بن حميد (رقم ٨٠٧) والطبراني في الكبير (١١/ ٨٢ رقم ١١١١٦) وفي الدعاء (رقم ٨٧١) والبيهقي في الشعب (٣/ ٣٥٣ رقم ٣٧٤٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٦١).

أن تكونَ الليلةُ التي أسري فيها بالنبي ﷺ ونظائِرُها مِن كل عام أفضلَ لأمَّة محمد ﷺ مِن ليلة القدر، بحيث يكونُ قيامُها والدعاءُ فيها أفضلَ منه في ليلةِ القدر، فهذا باطل، لم يقله أحدٌ من المسلمين، وهو معلومُ الفساد بالاطِّراد من دين الإسلام. هذا إذا كانت ليلةُ الإسراء تُعرف عينُها، فكيف ولم يقمْ دليلٌ معلوم لا على شهرها، ولا على عشرها، ولا على عينِها، بل النقولُ في ذلك منقطعةٌ مختلفة، ليس فيها ما يُقطع به، ولا شُرِعَ للمسلمين تخصيصُ الليلة التي يُظن أنها ليلة الإسراء بقيام ولا غيره، بخلاف ليلة القدر، فإنه قد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «**تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضانَ**»(١). وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَاناً واحْتِسَاباً، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»(٢).

وقد أخبر ﷻ: أنها خيرٌ مِن ألف شهر، وأنَّه أنزل فيها القرآن.

وإن أراد أن الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي ﷺ، وحصل له فيها ما لم يحصلْ له في غيرها مِن غير أن يُشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة، فهذا صحيح، وليس إذا أعطى اللهُ نبيه ﷺ فضيلة في مكان أو زمان، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكانُ أفضلَ مِن جميع الأمكنة والأزمنة. هذا إذا قدر أنه قام دليل على أن إنعامَ اللّه تعالى على نبيه ليلَة الإسراءِ كان أعظمَ من إنعامه عليه بإنزال القرآنِ ليلةَ القدر، وغيرِ ذلك من النعم التي أنعم عليه بها. والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأُمور، ومقادير النعم التي لا تُعرف إلا بوحي، ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم، ولا يُعرف عن أحد من المسلمين أنه جعل لليلة الإسراءِ فضيلةَ على غيرها، لاسيما على ليلة القدر، ولا كان الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان يقصدُون تخصيص ليلة الإسراء بأمر من الأمورِ، ولا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٠٢٠) ومسلم (رقم ١١٦٩) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٦١) وشرح النووي (٨/ ٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٠١) ومسلم (رقم ٧٦٠) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٦٧) وشرح النووي (٦/ ٤٠).

يذكرونها، ولهذا لا يُعرف أي ليلة كانت، وإن كان الإسراءُ مِن أعظم فضائله ﷺ، ومع هذا فلم يُشرع تخصيصُ ذلك الزمانِ، ولا ذلك المكانِ بعبادة شرعية، بل غارُ حراء الذي ابتدئ فيه بنزول الوحي، وكان يتحراه قبلَ النبوة، لم يقصِدْهُ هو ولا أحدٌ مِن أصحابه بعد النبوة مدةَ مُقامه بمكة، ولا خصَّ اليومَ الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرِها، ولا خصَّ المكانَ الذي ابتدئ فيه بالوحي ولا الزمانَ بشيء.

ومن خص الأمكنَة والأزمنَة من عنده بعبادات لأجل هذا وأمثاله، كان مِن جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمانَ أحوال المسيح مواسمَ وعبادات، كيوم الميلاد، ويوم التعميد، وغير ذلك من أحوال. وقد رأى عمرُ بن الخطاب ﷺ جماعة يتبادرون مكاناً يُصلون فيه، فقال: «ما هذا؟ قالوا: مكانٌ صلى فيه رسولُ الله ﷺ، فقال: أتُريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟! إنما هلكَ مَنْ كان قبلكم بهذا، فمن أدركته فيه الصلاة فليصل، وإلا فليمضِ»[1].

وقد قال بعضُ الناس: إن ليلة الإسراء في حق النبي ﷺ أفضل مِن ليلة القدر، وليلة القدر بالنسبة إلى الأمّة أفضلُ من ليلة الإسراء، فهذه الليلة في حق الأمّة أفضلُ لهم، وليلة الإسراء في حق رسول الله ﷺ، أفضلُ له.

فإن قيل: فأيهما أفضلُ: يوم الجمعة، أو يوم عرفة؟ فقد روى ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لاَ تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَلاَ تَغْرُبُ عَلَى يَوْمٍ أَفْضَلَ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ»**[2] وفيه أيضاً حديث أوس بن أوس **«خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْس يَوْمُ الجُمْعَةِ»**.

قيل: قد ذهب بعضُ العلماء إلى تفضيل يوم الجمعة على يوم عرفة، محتجاً بهذا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٢/ ١١٨ رقم ٢٧٣٤) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٦٩) وعمدة القاري (٤/ ٢٦٩).

(٢) أخرجه ابن حبان (٧/ ٥ رقم ٢٧٧٠) وعبد الرزاق (٣/ ٢٥٧ رقم ٥٥٦٣) والطبراني في الأوسط (١٨/٢ رقم ١٠٨٧) وأبو يعلى (١١/ ٣٥٥ رقم ٦٤٦٨) وأحمد (٢/ ٢٧٢) وعبد بن حميد (رقم ١٤٤٣) وتمام في فوائده (١/ ٢٥ رقم ٣٥) وانظر: عمدة القاري (٦/ ٢٩٢) والتمهيد (٢٢/ ٢٧).

الحديث، وحكى القاضي أبو يعلى رواية عن أحمد أن ليلة الجمعة أفضلُ من ليلة القدر.

والصوابُ: أن يوم الجمعة أفضلُ أيام الأسبوع، ويومَ عرفة ويوم النَّحر أفضلُ أيام العام، وكذلك ليلةُ القدر، وليلة الجمعة، ولهذا كان لوقفة الجمعة يومَ عرفة مزية على سائر الأيام من وجوه متعدّدة.

أحدها: اجتماعُ اليومين اللذين هما أفضلُ الأيام.

الثاني: أنه اليومُ الذي فيه ساعة محققة الإجابة، وأكثر الأقوال أنها آخر ساعة بعد العصر وأهل الموقف كلُّهم إذ ذاك واقفون للدعاء والتضرع.

الثالث: موافقتُه ليوم وقفة رسول الله ﷺ.

الرَّابع: أن فيه اجتماعَ الخلائق مِن أقطار الأرض للخطبة وصلاة الجمعة، ويُوافق ذلك اجتماعَ أهل عرفة يومَ عرفة بعرفة، فيحصُل مِن اجتماع المسلمين في مساجدهم وموقفهم من الدعاء والتضرع ما لا يحصُل في يوم سواه.

الخامس: أن يوم الجمعة يومُ عيد، ويومَ عرفة يومُ عيد لأهل عرفة، ولذلك كره لمن بعرفة صومه، وفي النسائي عن أبي هريرة قال: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ بِعَرَفَةَ»[(١)]، وفي إسناده نظر، فإن مهدي بن حرب العبدي ليس بمعروف، ومداره عليه، ولكن ثبت في الصحيح من حديث أم الفضل: «أن ناساً تمارَوْا عِنْدَهَا يَوْمَ عَرفَةَ في صِيَام رَسُولِ اللهِ ﷺ، فقال بعضُهم: هُوَ صَائِمٌ، وَقَالَ بعْضُهُمْ: لَيْسَ بِصَائِمٍ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ بقَدَحِ لَبنٍ، وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَى بَعِيرِهِ بِعَرَفَةَ، فَشَرِبَهُ»[(٢)].

وقد اختلف في حكمة استحباب فطر يوم عرفة بعرفة.

فقالت طائفة: لِيتقوى على الدعاء، وهذا هو قولُ الخِرقي وغيره.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٢/ ١٥٥ رقم ٢٨٣٠) وأبو داود (رقم ٢٤٤٠) والبيهقي في الكبرى (٤/ ٢٨٤ رقم ٨١٧٢) والطبراني في الأوسط (٣/ ٨١ رقم ٢٥٥٦) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٣٨) وعون المعبود (٧/ ٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٨٨) ومسلم (رقم ١١٢٣) وانظر: عمدة القاري (١١/ ١٠٨).

وقال غيرهم - منهم شيخ الإسلام ابن تيمية -: الحِكمة فيه أنه عيد لأهل عرفة، فلا يُستحب صومُه لهم، قال: والدليلُ عليه الحديث الذي في السنن عنه ﷺ أنه قال: «يَوْمُ عَرَفَةَ، وَيَوْمُ النَّحْرِ، وَأَيَّامُ مِنَىٰ عِيدُنَا أهلَ الإسلامِ»(١).

قال شيخنا: وإنما يكون يومُ عرفة عيداً في حق أهلِ عرفة، لاجتماعهم فيه، بخلاف أهل الأمصار، فإنهم إنما يجتمعون يوم النَحر، فكان هو العيدَ في حقهم، والمقصود: أنه إذا اتفق يومُ عرفة، ويومُ جمعة، فقد اتفق عيدانِ معًا.

السادس: أنه موافق ليوم إكمال الله تعالىٰ دينَه لعباده المؤمنين، وإتمامِ نعمته عليهم، كما ثبت في صحيح البخاري عن طارق بن شهاب قال: «جاء يهوديٌّ إلىٰ عمرَ بنِ الخطاب، فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤمِنِين آيَةٌ تَقْرَؤونَهَا في كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ اليَهُودِ نَزَلَتْ وَنَعْلَمُ ذَلِكَ اليَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، لاتَّخَذْنَاهُ عِيداً، قَالَ: أيُ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: إِنِّي لأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، وَالمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، نَزَلَتْ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ. بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ، وَنَحْنُ وَاقِفُونَ مَعَهُ بِعَرَفَةَ»(٢).

السابع: أنه موافق ليوم الجمع الأكبر، والموقفِ الأعظم يومِ القيامة، فإن القيامة تقومُ يومَ الجمعة، كما قال النبي ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللهَ خَيْراً إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ»(٣). ولهذا شرع اللهُ ﷻ لِعباده يوماً يجتمعون

---

(١) أخرجه ابن حبان (٨/ ٣٦٨ رقم ٣٦٠٣) وابن خزيمة (٣/ ٢٩٢ رقم ٢١٠٠) والنسائي في الكبرىٰ (٢/ ٤٢٠ رقم ٣٩٩٥) وأبو داود (رقم ٢٤١٩) والترمذي (رقم ٧٧٣) والدارمي (رقم ١٧٦٤) والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ٢٩٨ رقم ٨٢٤٥) والطبراني في الأوسط (٣/ ٢٩١ رقم ٣١٨٥) وفي الكبير (١٧/ ٢٩١ رقم ٨٠٣) وأحمد (٤/ ١٥٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٧٥) (٤/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٥) ومسلم (رقم ٣٠١٧) وانظر: عمدة القاري (١/ ٢٦٢).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٨٥٤) وانظر: فتح الباري (٢/ ٤٢٢).

فيه، فيذكرون المبدأ والمعاد، والجنَّة والنَّار، وادَّخر اللهُ تعالىٰ لهذه الأُمَّة يومَ الجمعة، إذ فيه كان المبدأُ، وفيه المعادُ، ولهذا كان النبيُّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم يقرأ في فجره سورتي «السجدة» و«هل أتىٰ علىٰ الإنسان» لاشتمالهما علىٰ ما كان وما يكونُ في هذا اليوم، مِن خلق آدم، وذكر المبدأ والمعاد، ودخولِ الجنَّة والنَّار، فكان تذكير الأمَّة في هذا اليوم بما كان فيه وما يكون، فهكذا يتذكَّر الإنسانُ بأعظم مواقف الدنيا - وهو يومُ عرفة - الموقفَ الأعظم بين يدي الرب سبحانه في هذا اليوم بعينه، ولا يتنصف حتىٰ يستقرَّ أهل الجنة في منازلهم، وأهل النَّار في منازلهم.

الثامن: أن الطاعةَ الواقِعَة مِن المسلمين يومَ الجُمعة، وليلةَ الجمعة، أكثر منها في سائر الأيام، حتىٰ إن أكثرَ أهل الفجور يَحترِمون يوم الجمعة وليلته، ويرون أن من تَجَرَّأ فيه علىٰ معاصي اللهِ ﷻ، عجَّل اللهُ عقوبته ولم يُمهله، وهذا أمر قد استقرَّ عندهم وعلموه بالتجارِب، وذلك لِعظم اليومِ وشرفِهِ عند الله، واختيارِ الله سبحانه له من بين سائر الأيام، ولا ريب أن للوقفة فيه مزيةً علىٰ غيره.

التاسع: أنه موافق ليوم المزيد في الجنة، وهو اليومُ الذي يُجمَعُ فيه أهلُ الجنة في وادٍ أَفْيحَ، ويُنْصَبُ لهم مَنَابِرُ مِن لؤلؤ، ومنابِرُ من ذهب، ومنابرُ من زَبَرْجَدٍ وياقوت علىٰ كُثبَانِ المِسك، فينظرون إلىٰ ربِّهم تبارك وتعالىٰ، ويتجلىٰ لهم، فيرونه عِياناً ويكون أسرعُهم موافاة أعجلَهم رواحاً إلىٰ المسجد، وأقربُهم منه أقربَهم من الإمام، فأهلُ الجنة مشتاقون إلىٰ يوم المزيد فيها، لما ينالون فيه من الكرامة، وهو يوم جمعة، فإذا وافق يوم عرفة، كان له زيادةُ مزية واختصاص وفضل ليس لغيره.

العاشر: أنه يدنو الرّبُّ تبارك وتعالىٰ عشيةَ يوم عرفة مِن أهل الموقف، ثم يُباهي بهم الملائكة، فيقول: «**مَا أَرَادَ هؤُلاءِ؟ أُشْهِدُكُم أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُم**»[1] وتحصلُ مع

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه (رقم ١٣٤٨) وأبو يعلىٰ (٧/ ١٤٠ رقم ٤١٠٦) والبيهقي في الشعب (٣/ ٤٦٠ رقم ٤٠٦٨) وفي فضائل الأوقات (رقم ١٨١) وانظر: التمهيد (١/ ١٢٠).

دنوه منهم تبارك وتعالىٰ ساعةُ الإجابة، التي لاَ يَرُدُّ فيها سائل يسأل خيراً، فيقربُون منه بدعائه والتضرع إليه في تلك الساعة، ويقرُب منهم تعالىٰ نوعين من القُرب:

أحدهما: قربُ الإجابة المحققة في تلك الساعة.

والثاني: قربه الخاص من أهل عرفة، ومباهاتُه بهم ملائكته، فتستشعِرُ قلوبُ أهل الإيمان هذه الأمور، فتزداد قوة إلىٰ قوتها، وفرحاً وسروراً وابتهاجاً ورجاء لفضل ربها وكرمه، فبهذه الوجوه وغيرها فُضِّلَتْ وقفةُ يومِ الجمعة علىٰ غيرها. وأمّا ما استفاض علىٰ ألسنة العوام بأنها تعدل ثنتين وسبعين حجة، فباطل لا أصل له عن رسول ﷺ، ولا عن أحد من الصحابة والتابعين والله أعلم.

والمقصود: أن الله ﷻ اختار مِن كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبَه، واختصه لنفسه وارتضاه دون غيره، فإنه تعالىٰ طيبٌ لا يحبُّ إلا الطيب، ولا يقبل من العمل والكلام والصدقة إلا الطيبَ، فالطيب مِن كل شيء هو مختارُه تعالىٰ. وأما خلقُه تعالىٰ، فعام للنوعين.

وبهذا يُعلم عنوانُ سعادة العبد وشقاوته، فإن الطيب لا يناسبه إلا الطيب، ولا يرضىٰ إلا به، ولا يسكُن إلا إليه، ولا يطمئن قلبُه إلا به، فله من الكلام الكَلِمُ الطيب الذي لا يصعد إلىٰ الله تعالىٰ إلا هو، وهو أشدُّ شيء نُفرة عن الفحش في المقال، والتفحُّش في اللسان والبذَاء، والكذب والغيبة، والنميمة والبُهت،وقول الزور، وكل كلام خبيث.

وكذلك لا يألف من الأعمال إلا أطيبها، وهي الأعمال التي اجتمعت علىٰ حسنها الفِطَرُ السليمةُ مع الشرائع النبوية، وزكتها العقولُ الصحيحة، فاتفق علىٰ حسنها الشرعُ والعقلُ والفِطرةُ، مثل أن يَعْبُدَ الله وحده لا يُشرِكُ به شيئاً.

***

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟

سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾.

[1]ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهلُ صُلح وهُدنة، وأهلُ حرب، وأهلُ ذِمة، فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يُوفى لهم به ما استقامُوا على العهد، فإن خاف منهم خِيانة، نبذَ إليهم عهدهم، ولم يُقاتِلْهم حتى يُعْلِمَهم بِنَقْضِ العهد، وأُمِرَ أن يقاتل مَن نقض عهده.

ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها، فأمره فيها أن يُقاتِلَ عدوَّه مِن أهل الكتاب حتى يُعطوا الجزيَةَ، أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجِهَادِ الكُفَّارِ والمنافقين والغِلظة عليهم. فجاهد الكفار بالسيفِ والسنانِ، والمنافقين بالحُجَّةِ واللِّسان. وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار، ونبذ عُهودهم إليهم.

وجعلَ أهلَ العهد في ذلك ثلاثة أقسام:

قسماً أمره بقتالهم، وهُم الذين نقضُوا عهده، ولم يستقِيموا له، فحاربهم وظهر عليهم.

وقسماً لهم عهد مُؤقَّت لم ينقضُوه، ولم يُظاهِروا عليه، فأمره أن يُتِمَّ لهم عهدَهم إلى مدتهم.

وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يُحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأمر أن يُؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم، وهي الأشهر الأربعة المذكورة في قوله: ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ [التوبة: ٢] وهي الحُرُمُ المذكورة في قوله: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ٥]. فالحُرُم ههنا: هي أشهر التسيير، أولها يومُ الأذان وهو اليومُ العاشر من ذي الحِجة، وهو يومُ الحجِّ الأكبر الذي وقع فيه التأذين بذلك، وآخِرُها العاشر من ربيع الآخر.

---

(١) ٢٠٨ زاد المعاد جـ٢.

وليست هي الأربعة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦] فإن تلك واحِد فرد، وثلاثة سرد: رجبٌ، وذُو القَعدة، وذو الحِجة، والمحَرَّمُ، ولم يسير المشركين في هذه الأربعة، فإن هذا لا يُمكن، لأنها غيرُ متوالية، وهو إنما أجلهم أربعة أشهر، ثم أمره بعد انسلاخها أن يُقاتلهم، فقتل الناقض لعهده، وأجَّل مَنْ لا عهد له، أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يُتمَّ للموفي بعهده عهدَه إلىٰ مدته، فأسلم هؤلاء كُلُّهم، ولم يُقيموا علىٰ كفرهم إلىٰ مدتهم، وضَرَبَ علىٰ أهل الذِّمة الجِزية.

فاستقر أمرُ الكفار معه بعد نزول «براءة» علىٰ ثلاثة أقسام: محاربينَ له، وأهلِ عهد، وأهلِ ذِمة، ثم آلت حالُ أهل العهد والصلح إلىٰ الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذِمة، والمحاربون له خائفون منه، فصار أهلُ الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمِن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين، فإنه أُمِرَ أن يَقبل مِنهم علانيتَهم، ويَكِلَ سرائِرَهم إلىٰ الله، وأن يُجاهِدَهم بالعِلم والحُجَّة، وأمره أن يُعرِضَ عنهم، ويُغلِظَ عليهم، وأن يَبْلُغَ بالقولِ البليغ إلىٰ نفوسهم، ونهاه أن يُصلِّي عليهم، وأن يقومَ علىٰ قبورهم، وأخبر أنه إن استغفر لهم سبعين مرة، فلن يغفر الله لهم.

فهذه سيرتُه في أعدائه مِن الكفار والمنافقين. اهـ.

[(١)] في خطبته العظيمة ثاني يوم الفتح من أنواع العلم: فمنها قولُه: «**إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ**»[(٢)]، فهذا تحريمٌ شرعي قَدَري سبق به قدرُه يومَ خلق هذا العالَم، ثم ظهر به علىٰ لسان خليله إبراهيم، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما.

---

(١) ٤٢٠ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٠٤) ومسلم (رقم ١٣٥٤) وانظر: عمدة القاري (٢/ ١٣٩، ١٤٥) وشرح النووي (٩/ ١٢٧).

كما في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «اللَّهُمَّ إنَّ إبْرَاهيمَ خَليلَكَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وإنِّي أُحرِّمُ المدِينَة»[١] فهذا إخبارٌ عن ظهور التحريم السابق يومَ خلق السمواتِ والأرضَ على لسان إبراهيم، ولهذا لم يُنازع أحد من أهل الإسلام في تحريمها، وإن تنازعُوا في تحريم المدينة، والصوابُ المقطوعُ به تحريمُها، إذ قد صحَّ فيه بضعةٌ وعِشرونَ حديثاً عن رسولِ الله ﷺ لا مطعن فيها بوجه.

ومنها: قوله: «فلا يَحلُّ لأحَدٍ أنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمَاً»[٢]، هذا التحريمُ لسفك الدم المختصّ بها، وهو الذي يُباح في غيرها، ويُحرم فيها لكونها حرماً، كما أن تحريم عَضْدِ الشجر بها، واختلاء خلاها، والتقاط لُقطتها، هو أمر مختصٌ بها، وهو مباحٌ في غيرها، إذ الجميعُ في كلام واحد، ونظام واحد، وإلا بطلت فائدة التخصيص، وهذا أنواعٌ:

أحدها: وهو الذي ساقه أبو شريح العدوى لأجله: أن الطائفة الممتنعة بها من مبايعة الإمام لا تُقاتَل، لاسيما إن كان لها تأويل، كما امتنع أهلُ مكة مِن مبايعة يزيد، وبايعُوا ابنَ الزبير، فلم يكن قِتالهُم، ونصبُ المنجنيق عليهم، وإحلالُ حَرَمِ الله جائزاً بالنص والإجماع، وإنما خالف في ذلك عمرو بن سعيد الفاسق وشيعتُه، وعارض نصَّ رسول الله ﷺ برأيه وهواه، فقال: إنَّ الحَرَمَ لا يُعِيذُ عَاصِيًا[٣]، فيقال له: هو لا يُعيذ عاصياً مِن عذاب الله، ولو لم يُعِذْه من سفك دمه، لم يكن حرماً بالنسبة إلى الآدميين، وكان حرماً بالنسبة إلى الطير والحيوان البهيم، وهو لم يزل يُعيذُ العصاةَ مِن عهد إبراهيم صلوات الله عليه وسلامُه، وقام الإسلام على ذلك...

[٤]وتأمل كيف أضافه سبحانه إلى الرسول بلفظ القول، وأضافه إلى نفسه بلفظ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٩٣، ٣٣٦٧) ومسلم (رقم ١٣٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٨٣٢) ومسلم (رقم ١٣٥٤) وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٣) وشرح النووي (٩/ ١٢٤-١٢٧).

(٣) انظر: المراجع السابقة.

(٤) ١١١ التبيان.

الكلام في قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦] فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله، فيقول: قلت: كذا وكذا. وقلت له ما أمرتني أن أقوله، كما قال المسيح: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ [المائدة: ١١٧] والمرسل يقول للرسول: قل لهم كذا وكذا. كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم: ٣١] ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الإسراء: ٥٣] ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠] ونظائره، فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال: قال الرسول كذا، وهذا قول الرسول ـ أي قاله مبلغًا ـ وهذا قوله مبلغًا عن مرسله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في موضع واحد، بل قيل للصديق ـ وقد تلى آية ـ هذا كلامك وكلام صاحبك فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي. هذا كلام الله[1].

[2]قال الله تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥] فأمر بقتلهم حتى يتوبوا من شركهم، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة.

ومن قال: لا يقتل تارك الصلاة يقول متى تاب من شركه سقط عنه القتل، وإن لم يقم الصلاة ولا آتى الزكاة. وهذا خلاف ظاهر القرآن.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري قال: بعث علي بن أبي طالب ﷺ وهو باليمن إلى النبي ﷺ بذهيبة فقسمها بين أربعة، فقال رجل: يا رسول الله اتق الله فقال: «ويلك ألست أحق أهل الأرض أن يتقي الله» ثم ولى الرجل، فقال خالد ابن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ فقال: «لا، لعله أن يكون يصلي» فقال خالد:

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١/ ١٨٨-١٨٩ رقم ١٦٨) وفي الاعتقاد (ص ١٠٢) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٥٤).
(٢) ٥ كتاب الصلاة.

فكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم»(١). فجعل النبي ﷺ المانع من قتله كونه يصلي، فدل على أن من لم يصل يقتل، ولهذا قال في الحديث الآخر: «نهيت عن قتل المصلين»(٢). وهو يدل على أن غير المصلين لم ينهه الله عن قتلهم.

وروى الإمام أحمد والشافعي في مسنديهما: من حديث عبيد الله بن عدي بن الخيار أن رجلًا من الأنصار حدثه أنه أتى النبي ﷺ وهو في مجلس فساره يستأذنه في قتل رجل من المنافقين فجهر رسول الله ﷺ فقال: «أليس يشهد أن لا إله إلا الله» فقال الأنصاري: بلى يا رسول الله ولا شهادة له، قال: «أليس يشهد أن محمدًا رسول الله» قال: بلى ولا شهادة له، قال: «أليس يصلي الصلاة» قال: بلى ولا صلاة له، قال: «أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم»(٣). فدل على أنه لم ينهه عن قتل من لم يصل.

وفي صحيح مسلم عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: «إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد بريء، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع» فقالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ فقال: «لا، ما صلوا»(٤).

وفي الصحيحين من حديث عبدالله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٥١) ومسلم (رقم ١٠٦٤) وانظر: شرح النووي (٧/ ١٦١-١٦٣).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٢٨) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٢٤ر قم ١٦٧٦٤) والدارقطني (٢/ ٥٤ رقم ٩) والطبراني في الأوسط (٥/ ١٩٤ر قم ٥٠٥٨) وفي الكبير (١٨/ ٢٦ رقم ٤٤) وأبو يعلى (١/ ٩٠ رقم ٩٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٣٥) والتمهيد (٤/ ٢٣٥).

(٣) أخرجه الشافعي في مسنده (ص ٣٢٠) وفي الأم (٦/ ١٥٧) (٧/ ٢٩٥) وأحمد (٥/ ٤٣٢) ومالك (١/ ١٧١ رقم ٤١٣) وابن حبان (١٣/ ٣٠٩ رقم ٥٩٧١) والبيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٧ رقم ٦٢٩٤) وعبد الرزاق (١٠/ ١٦٣ رقم ١٨٦٨٨) وعبد بن حميد (رقم ٤٩٠) وانظر: جامع العلوم و الحكم (١/ ٨٧) والتمهيد (٤/ ٢٣٥) (١٠/ ١٤٩-١٥٣) وشرح الزرقاني (١/ ٤٩٦).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٨٥٤، ١٨٥٥).

فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»[(١)].

فوجه الاستدلال به من وجهين: أحدهما: أنه أمر بقتالهم إلى أن يقيموا الصلاة، الثاني قوله: **«إلا بحقها»** والصلاة من أعظم حقها.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، ثم قد حرمت عليَّ دماؤهم وأموالهم وحسابهم على الله»**[(٢)]. رواه الإمام أحمد وابن خزيمة في صحيحه، فأخبر ﷺ أنه أمر بقتالهم إلى أن يقيموا الصلاة، وأن دماءهم وأموالهم إنما تحرم بعد الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فدماؤهم وأموالهم قبل ذلك غير محرمة بل هي مباحة.

وعن أنس بن مالك قال: لما توفي رسول الله ﷺ ارتد العرب فقال عمر: يا أبا بكر كيف تقاتل العرب؟ فقال أبو بكر: إنما قال رسول الله ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة»**[(٣)]. رواه النسائي وهو حديث صحيح.

وتقييد هذه الأحاديث يبين مقتضى الحديث المطلق الذي احتجوا به على ترك القتل مع أنه حجة عليهم، فإنه لم يثبت العصمة للدم والمال إلا بحق الإسلام، والصلاة آكد حقوقه على الإطلاق.

وأما حديث ابن مسعود وهو: **«لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث»**[(٤)] فهو حجة لنا في المسألة، فإنه جعل منهم التارك لدينه، والصلاة ركن الدين الأعظم،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٥) ومسلم (رقم ٢٢) وانظر: فتح الباري (١/ ٧٦) وشرح النووي (١/ ١٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٤٦) ومسلم (رقم ٢٠، ٢١).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٢/ ٢٨٠ رقم ٣٤٣١) وفي الصغرى (رقم ٣٠٩٤) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤ رقم ١٢٨٩٧) والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ٤٧٢-٤٧٣ رقم ٤٧٠) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (١/ ٨٩-٩٠ رقم ٥) وانظر: نيل الأوطار (١/ ٣٦٦).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٧٨) ومسلم (رقم ١٦٧٦) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٧٣) وشرح النووي (١١/ ٢١٧).

ولاسيما إن قلنا بأنه كافر فقد ترك الدين بالكلية، وإن لم يكفر فقد ترك عمود الدين. قال الإمام أحمد(١) وقد جاء في الحديث: «**لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة**»(٢).

وقد كان عمر بن الخطاب يكتب إلى الآفاق: إن أهم أموركم عندي الصلاة، فمن حفظها حفظ دينه، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع(٣)، ولاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة. قال فكل مستخف بالصلاة مستهين بها فهو مستخف بالإسلام مستهين به، وإنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة، ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة، فاعرف نفسك يا عبدالله، واحذر أن تلقي الله ولا قدر للإسلام عندك، فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك.

وقد جاء الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**الصلاة عمود الدين**»(٤)، ألست تعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط، ولم ينتفع بالطنب ولا بالأوتاد. وإذا قام عمود الفسطاط انتفعت بالطنب والأوتاد، وكذلك الصلاة من الإسلام.

وجاء في الحديث: إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن

---

(١) انظر: رسالة الصلاة للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله (ص ٣٥) بتحقيقي وهي من منشورات دار القاسم بالرياض.

(٢) أخرجه من قول عمر بن الخطاب ﷺ كل من البيهقي في الكبرى (٣/ ٣٦٦ رقم ٦٢٩١) والدارقطني (٢/ ٥٢ رقم ١) وابن أبي شيبة (٧/ ٤٣٩ رقم ٣٧٠٧٤) وعبد الرزاق (٣/ ١٢٥ رقم ٥٠١٠) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٨٩٢ رقم ٩٢٣) (٢/ ٨٩٣ رقم ٩٢٤، ٩٢٥) (٢/ ٨٩٤ رقم ٩٢٦) وانظر: الاستذكار (١/ ٢٣٥) (٢/ ١٤٩) وعون المعبود (١٢/ ٢٨٤). وصححه الألباني في إرواء الغليل (١/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١/ ٥٣٦ رقم ٢٠٣٨) وانظر: المدونة الكبرى (١/ ٥٦) والدر المنثور (١/ ٧١٣).

(٤) ويروى أيضًا بلفظ: «الصلاة عماد الدين» أخرجه الديلمي في الفردوس (٢/ ٤٠٤ رقم ٣٧٩٥) والحكيم الترمذي (٣/ ١٣٦) وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٩ رقم ١٦٢١) وقال الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (١/ ١٧٣): فقال النووي في التنقيح: هو منكر باطل. قلت: وليس كذلك، بل رواه أبو نعيم شيخ البخاري في كتاب الصلاة عن حبيب بن سليم عن بلال بن يحيى قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله، فقال: «الصلاة عمود الدين» وهو مرسل رجاله ثقات.

تقبلت منه صلاته تقبل منه سائر عمله، وإن ردت عليه صلاته رد عليه سائر عمله[١]، فصلاتنا آخر ديننا، وهي أول ما نسأل عنه غدًا من أعمالنا يوم القيامة، فليس بعد ذهاب الصلاة إسلام ولا دين إذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الإسلام. هذا كله كلام أحمد[٢].

والصلاة أول فروض الإسلام، وهي آخر ما يفقد من الدين، فهي أول الإسلام وآخره، فإذا ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه، وكل شيء ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه. قال الإمام أحمد: كل شيء يذهب آخره فقد ذهب جميعه، فإذا ذهبت صلاة المرء ذهب دينه[٣].

والمقصود: أن حديث عبدالله بن مسعود: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه»[٤]. من أقوى الحجج في قتل تارك الصلاة.

واختلف القائلون بقتله في مسائل إحداها: أنه هل يستتاب أم لا؟ فالمشهور أنه يستتاب، فإن تاب ترك وإلا قتل، هذا قول الشافعي وأحمد، وأحد القولين في مذهب مالك. وقال أبو بكر الطرطوشي في تعليقه: مذهب مالك، أنه يقال له: صل. ما دام الوقت باقيًا، فإن فعل ترك، وإن امتنع حتى خرج الوقت قتل، وهل يستتاب أم لا؟ قال بعض أصحابنا: يستتاب، فإن تاب وإلا قتل. وقال بعضهم: لا يستتاب، لأن هذا حد من الحدود يقام عليه فلا تسقطه التوبة: كالزاني والسارق، وهذا القول يلزم من قال يقتل حدا، فإنه إذا كان حده على ترك الصلاة القتل كان كمن حده القتل على الزنا والمحاربة والحدود تجب، ولا تسقطها التوبة بعد الرفع إلى الإمام. وأما من قال:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٢٦٢ رقم ٣٥٩٠٦) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٦٧).
(٢) انظر: رسالة الصلاة للإمام أحمد (ص ٣٦-٣٨).
(٣) انظر: رسالة الصلاة للإمام أحمد (ص ٤٤).
(٤) تقدم تخريجه.

يقتل لكفره فلا يلزمه هذا، لأنه جعله كالمرتد، وإذا أسلم سقط عنه القتل. قال الطرطوشي: وهكذا حكم الطهارة والغسل من الجنابة والصيام عندنا، فإذا قال: لا أتوضأ ولا أغتسل من الجنابة ولا أصوم قتل ولم يستتب.

(١)أورد شيخنا الهراسي سؤالًا على القول بكفر تارك الصلاة، وزعم أنه لا جواب عنه، فقال: إذا أراد هذا الرجل معاودة الإسلام فبماذا يسلم، فإنه لم يترك كلمة الإسلام؟ فأجابه ابن عقيل بأن قال: إنما كان كفره بترك الصلاة لا بترك الكلمة، فهو إذا عاود فعل الصلاة صارت معاودته للصلاة إسلامًا، فإن الدال على إسلام الكافر الكلمة أو الصلاة. قلت: وهذا الذي ذكره شيخنا يرد عليه في كل من كفر بشيء من الأشياء مع إتيانه بالشهادتين، وتلك صور عديدة.

(٢)ويقال: له: الصلاة رياضة النفس والبدن جميعًا؛ إذ كانت تشتمل على حركات وأوضاع مختلفة، من الانتصاب والركوع والسجود والتورك والانتقالات وغيرها من الأوضاع، التي يتحرَّك معها أكثرُ المفاصل، وينغمِزُ معها أكثرُ الأعضاء الباطنة، كالمَعِدَة، والأمعاء، وسائر آلات النَّفَس، والغذاء، فما يُنكر أن يكونَ في هذه الحركات تقويةٌ وتحليلٌ للمواد، ولاسِيَّما بواسطة قوةِ النفس وانشراحِها في الصلاة، فتقوى الطبيعة، فيندفع الألم، ولكن داء الزندقةِ والإعراض عما جاءت به الرُّسُل، والتَّعوُّضِ عنه بالإلحاد داءٌ ليس له دواء، إلا نارٌ تَلَظَّى لاَ يَصْلاَهَا إلاَّ الأشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى.

وأمَّا تأثيرُ الجهادِ في دفع الهم والغم، فأمرٌ معلوم بالوجدان، فإنَّ النفس متى تركتْ صائِلَ الباطل وصَوْلته واستيلاءَه، اشتد همُّها وغمُّها، وكربُها وخوفها، فإذا جاهدته لله أبدل الله ذلك الهمَّ والحُزْنَ فرحاً ونشاطاً وقوةً، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ

---

(١) ١٧٦ بدائع جـ٣.

(٢) ٢٧٩ زاد المعاد جـ٣.

قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤-١٥]، فلا شيءَ أذهبُ لجوَىٰ القلب وغَمِّه وهَمِّه وحُزنه من الجهاد.. والله المستعان.

وأمَّا تأثيرُ «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله»[1] في دفع هذا الداءِ، فلِما فيها من كمالِ التفويضِ، والتبرِّي من الحَوْل والقُوَّة إلا به، وتسليمِ الأمر كله له، وعدمِ منازعته في شيء منه، وعموم ذلك لكلِّ تحوُّلٍ من حَال إلىٰ حال في العالَم العُلويِّ والسُّفليّ، والقوةِ علىٰ ذلك التحول، وأنَّ ذلك كُلَّه بالله وحدَه، فلا يقوم لهذه الكلمة شيء. وفي بعض الآثار: «إنه ما ينزِلُ مَلَكٌ من السماء، ولا يَصعَدُ إليها إلا بلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله»، ولها تأثيرٌ عجيب في طرد الشيطان.. والله المستعان.

***

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ

(١) فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، كان دواء من تسعة وتسعين داءً أيسرها الهم» أخرجه الحاكم (١/ ٧٢٧ رقم ١٩٩٠) وقال: هذا حديث صحيح ولم يخرجاه، والطبراني في الأوسط (٥/ ١٨٧ رقم ٥٠٢٨) وفي الدعاء (رقم ١٦٧٤) وإسحاق بن راهويه في مسنده (١/ ٤٦٤ رقم ٥٤١) والديلمي في الفردوس (٥/ ٩ رقم ٧٢٨٤) وانظر: فيض القدير (٦/ ٤٢٥).

﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

[(١)]أبو حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالىٰ قالوا: لا ينتقض العهد إلا بأن يكون لهم منعة، فيمتنعون من الإمام، ويمنعون الجزية، ولا يمكنه إجراء الأحكام عليهم. فأما إذا امتنع الواحد منهم عن أداء الجزية، أو فعل شيئًا من هذه الأشياء، التي فيها ضرر على المسلمين أو غضاضة على الإسلام لم يصر ناقضًا للعهد.

لكن من أصولهم أن ما لا قتل فيه عندهم مثل القتل بالمثقل والتلوط وسب الذمي لله ورسوله وكتابه ونحو ذلك، إذا تكرر فعلى الإمام أن يقتل فاعله تعزيرًا، وله أن يزيد على الحد المقدر فيه إذا رأىٰ المصلحة في ذلك ويحملون ما جاء عن النبي ﷺ من القتل في مثل هذه الجرائم على أنه رأىٰ [المصلحة] في ذلك، ويسمونه القتل سياسةً. وكان حاصله أن للإمام أن يعزر بالقتل في الجرائم التي تغلَّظت بالتكرار، وشرع القتل في جنسها، ولهذا أفتىٰ أكثر أصحابهم بقتل من أكثر من سب النبي ﷺ من أهل الذمة وإن أسلم بعد أخذه. وقالوا: يقتل سياسة، وهذا متوجه على أصولهم.

قال القاضي في «التعليق»: والدلالة على أن نقض العهد يحصل بهذه الأشياء ـ وإن لم يشترطه في عقد الذمة ـ أن الإمام يقتضي الكف عن الإضرار، وفي هذه الأشياء إضرار فيجب أن ينتقض العهد بفعلها. كما لو شرط ذلك في عقد الأمان. قال: ولأن عقد الذمة عقد أمان فانتقض بالمخالفة من غير شرط كالهدنة.

الدليل الثاني: قلت: واحتج غيره من الأصحاب بوجوه أخر سوىٰ ما ذكره، منها قوله تعالىٰ: ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩] فلا يجوز الإمساك عن قتالهم إلا إذا كانوا

(١) ٨٠٩ أحكام جـ٢.

صاغرين حال إعطاء الجزية. والمراد بإعطاء الجزية من حين بذلها أو التزامها إلى حين تسليمها وإقباضها فإنهم إذا بذلوا الجزية شرعوا في الإعطاء ووجب الكف عنهم إلى أن نقبضها منهم، فمتى لم يلتزموها أو التزموها وامتنعوا من تسليمها لم يكونوا معطين لها، فليس المراد أن يكونوا صاغرين حال تناول الجزية منهم فقط، ويفارقهم الصغار فيما عدا هذا الوقت، هذا باطل قطعا. وإذا علم هذا فمن جاهرنا بسب الله ورسوله وإكراه حريمنا على الزنا وتحريق جوامعنا ودورنا ورفع الصليب فوق رؤوسنا فليس معه من الصغار شيء، فيجب قتاله بنص الآية حتى يصير صاغرًا.

فإن قيل: فالمأمور به القتال إلى هذه الغاية، فمن أين لكم القتل المقدور عليه؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن كل من أمرنا بقتاله من الكفار فإنه يقتل إذا قدرنا عليه.

الثاني: أنا إذا كنا مأمورين أن نقاتلهم إلى هذه الغاية لم يجز أن نعقد لهم عهد الذمة بدونها، ولو عقد لهم كان عقدًا فاسدًا.

الثالث: أن الأصل إباحة دمائهم يمسك عصمتها الحبلان: حبل من الله بالأمر بالكف عنهم. وحبل من الناس بالعهد والعقد، ولم يوجد واحد من الحبلين. أما حبل الله سبحانه فإنه إنما اقتضى الأمر بالكف عنهم إذا كانوا صاغرين، فمتى لم يوجد وصف الصغار المقتضي للكف منهم وعنهم، فالقتل المقدور عليه منهم والقتال للطائفة الممتنعة واجب. وأما حبل الناس فلم يعاهدهم الإمام والمسلمون إلا على الكف عما فيه إدخال ضرر على المسلمين وغضاضة في الإسلام، فإذا لم يوجد فلا عهد لهم من الإمام ولا من الله، وهذا ظاهر لا خفاء به.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَـٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة: ٧، ١٢] فنفى الله أن يكون لمشرك عهد ممن كان النبي ﷺ عاهدهم إلا قومًا ذكرهم، فجعل لهم عهدًا ما داموا

مستقيمين لنا. فعلم أن العهد لا يبقى للمشرك إلا ما دام مستقيمًا، ومعلوم أن مجاهرتنا بتلك الأمور تقدح في الاستقامة، كما تقدح مجاهرتنا بالاستقامة فيها. بل مجاهرتنا بسب ربنا ونبينا وكتابنا وإحراق مساجدنا ودورنا أشد علينا من مجاهرتنا بالمحاربة إن كنا مؤمنين. فإنه يجب علينا أن نبذل دماءنا وأموالنا حتى تكون كلمة الله هي العليا، ولا يجهر بين أظهرنا بشيء من أذى الله ورسوله. فإذا لم يكونوا مستقيمين لنا مع القدح في أهون الأمرين، فكيف يستقيمون لنا مع القدح في أعظمهما؟

يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨] أي: كيف يكون لهم عهد ولو ظهروا عليكم لم يرقبوا الرحم التي بينكم وبينهم ولا العهد. فعلم أن من كانت حالته أنه إذا ظهر لم يرقب ما بيننا وبينه من العهد لم يكن له عهد. ومن جاهرنا بالطعن في ديننا وسب ربنا ونبينا كان ذلك من أعظم الأدلة على أنه لو ظهر علينا لم يرقب العهد الذي بيننا وبينه، فإنه إذا كان هذا فعله مع وجود العهد والذلة، فكيف يكون مع القدرة والدولة؟ وهذا بخلاف من لم يظهر لنا شيئا من ذلك، فإنه يجوز أن يفي لنا بالعهد ولو ظهر.

فإن قيل: فالآية إنما هي في أهل الهدنة المقيمين في دارهم.

قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن لفظها أعم. **والثاني:** أنها إذا كان معناها في أهل الذمة المقيمين بدارهم، فثبوته في أهل الذمة المقيمين بدارنا أولى وأحرى.

الدليل الرابع: قوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ [التوبة: ١٢] فأمر سبحانه بقتال من نكث يمينه أي عهده الذي عاهدنا عليه من الكف عن أذانا والطعن في ديننا، وجعل علة قتاله ذلك. وعطف الطعن في الدين على نكث بالعهد. وخصه بالذكر بيانًا أنه من أقوى الأسباب الموجبة للقتال، ولهذا تغلظ على صاحبه العقوبة. وهذه كانت سنة رسول الله ﷺ، فإنه كان يهدر دماء من آذى الله ورسوله، وطعن في الدين، ويمسك عن غيره.

فإن قيل: فالآية تدل على أن من نقض عهده، وطعن في الدين فإنه يقاتل، فمن أين لكم أن من طعن في الدين، ولم ينقض العهد لم يقاتل؟ ومعلوم أن الحكم المعلق بوصفين لا يثبت إلا بوجود أحدهما.

فالجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا من باب تعليق الحكم بالوصفين المتلازمين الذين لا ينفك أحدهما عن الآخر، فمتى تحقق أحدهما تحقق الآخر، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥] وكقوله: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ [البقرة: ٤٢]، وكقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ١٤]. ونظائره كثيرة جدًّا، فلا يتصور بقاؤه على العهد مع الطعن في ديننا، بل إمكان بقائه على العهد دينا أقرب من بقائه على العهد مع المجاهرة بالطعن في الدين، بل إن أمكن بقاؤه على العهد مع المجاهرة بالطعن في الدين وسبه الله ورسوله أمكن بقاؤه عليه مع المحاربة باليد ومنع إعطاء الجزية، وهذا واضح لا خفاء به.

الجواب الثاني: أنه لابد أن يكون لكل صفة من هاتين الصفتين ما يبين في الحكم وإلا فالوصف العديم التأثير لا يتعلق به الحكم، فلا يصح أن يقال: من أكل وزنى حد، ثم قد تكون كل صفة مستقلة بالتأثير لو انفردت، كما يقال: يقتل هذا لأنه زانٍ مرتد. وقد يكون مجموع الجزاء مرتبًا على المجموع، ولكل وصف تأثير في البعض، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٨٦]. وقد تكون تلك الصفات متلازمة، كل منها لو فرض تجرده لكان مؤثرًا على سبيل الاستقلال، فيذكر إيضاحًا وبيانًا للموجب.

وقد يكون بعضها مستلزما للبعض من غير عكس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١]. وهذه الآية ـ من

أي الأقسام فرضت - كانت دليلًا، لأن أقصى ما يقال: أن نقض العهد هو المبيح للقتال والطعن في الدين مؤكد له موجب له.

فنقول: إذا كان الطعن يغلظ قتال من ليس بيننا وبينه عهد ويوجبه، فلأن يوجب قتل من بيننا وبينه ذمة - وهو ملتزم للصغار - أولى، فإن المعاهد له أن يظهر في داره ما شاء من أمر دينه، والذمي ليس له أن يظهر في دار الإسلام شيئًا من دينه الباطل.

الجواب الثالث: أن مجرد نكث الأيمان مقتض للمقاتلة ولو تجرد عن الطعن في الدين، وضرره أشد من ضرر الطعن في الدين علينا، فإذا كان أيسر الأمرين مقتضيًا للمقاتلة فكيف بأشدهما؟

الجواب الرابع: أن الذمي إذا سب الله والرسول، أو عاب الإسلام علانية فقد نكث يمينه وطعن في ديننا، ولا خلاف بين المسلمين أنه يعاقب على ذلك بما يردعه وينكل به، فعلم أنه لم يعاهدنا عليه إذ لو كان معاهدًا عليه لم تجز عقوبته عليه، كما لا يعاقب على شرب الخمر وأكل الخنزير ونحو ذلك، وإذا كنا عاهدناه على ألا يطعن في ديننا ثم طعن، فقد نكث يمينه من بعد عهده، فيجب قتله بنص الآية.

قال شيخنا: «وهذه دلالة ظاهر جدًّا؛ لأن المنازع سلم لنا أنه ممنوع من ذلك بالعهد الذي بيننا وبينه. لكنه يقول: «ليس كل ما منع منه ينقض عهده كإظهار الخمر والخنزير». ولكن الفرق بين من وجد منه فعل ما منع منه العهد مما لا يضر بنا ضررًا بيِّنًا كترك الغيار مثلا وشرب الخمر وإظهار الخنزير - وبين من وجد منه فعل ما منع منه العهد مما فيه غاية الضرر بالمسلمين وبالدين، فإلحاق أحدهما بالآخر باطل.

يوضح ذلك **الجواب الخامس**: أن النكث هو مخالفة العهد، فمتى خالفوا شيئًا مما صولحوا عليه فهو نكث، مأخوذ من نكث الحبل، وهو نقض قواه، ونكث الحبل يحصل بنقض قوة واحدة، كما يحصل بنقض جميع القوى، لكن قد يبقى من قولهما ما يتمسك به الحبل، وقد يهن بالكلية. وهذه المخالفة من المعاهد قد تبطل العهد بالكلية حتى تجعله حربيًّا، وقد تشعث العهد حتى تبيح عقوبتهم، كما أن فقد بعض

الشروط في البيع والنكاح وغيرهما قد يبطله بالكلية، وقد يبيح الفسخ والإمساك.

وأما من قال: «ينتقض العهد بجميع المخالفات» فظاهر علىٰ قول قاله القاضي في «التعليق». واحتج القاضي بأنهم «لو أظهروا منكرًا في دار الإسلام مثل إحداث البيع والكنائس في دار الإسلام، ورفع الأصوات بكتبهم، والضرب بالنواقيس، وإطالة البناء علىٰ أبنية المسلمين، وإظهار الخمر والخنزير.

وكذلك ما أخذ عليهم تركه من التشبه بالمسلمين في ملبوسهم ومركوبهم وشعورهم وكناهم. قال: والجواب أن من أصحابنا من جعله ناقضا للعهد بهذه الأشياء ـ وهو ظاهر كلام الخرقي، فإنه قال: «ومن نقض العهد بمخالفة شيء مما صولحوا عليه عاد حربيًّا» ـ فعلىٰ هذا لا نسلم. وإن سلمناه فلما تبين فيها أنه لا ضرر علىٰ المسلمين فيها، وإنما نهوا عن فعلها لما في إظهارها من المنكر، وليس كذلك في ملتنا، لأن في فعلها ضررًا بالمسلمين، فبان الفرق»، انتهىٰ كلامه. قال شيخنا: فعلىٰ التقديرين فقد اقتضىٰ العقد ألا يظهروا شيئًا من عيب ديننا، وأنهم متىٰ أظهروه فقد نكثوا وطعنوا في الدين، فيدخلون في عموم الآية لفظًا ومعنىً، ومثل هذا العموم يبلغ درجة النص[(١)].

وفي الآية دليل من وجه آخر، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ ﴾ [التوبة: ١٢] وهم الذين نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا في ديننا، ولكن أقام الظاهر مقام المضمر بينهما علىٰ الوصف الذي استحقوا به المقاتلة، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]. ونظائره، فدل علىٰ أن من نكث يمينه، وطعن في ديننا، فهو من أئمة الكفر، وإمام الكفر هو الداعي إليه المتبع فيه. وإنما صار إمامًا في الكفر لأجل الطعن، وإلا فإن مجرد النكث لا يوجب ذلك. وهذا ظاهر: فإن الطاعن في الدين يعيبه ويذمه ويدعو إلىٰ خلافه، وهذا شأن الإمام. فإذا طعن الذمي في الدين كان إمامًا في الكفر فيجب قتاله. وقوله: ﴿ إِنَّهُمۡ لَآ

---

(١) الصارم المسلول لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٦).

أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ ﴾ [التوبة: ١٢] علة أخرى لقتاله. فأما على قراءة الكسر فتكون الآية قد تضمنت ذكر المقتضي للقتال وهو نكث العهد والطعن في الدين وبيان عدم المانع من القتال، وهو الإيمان العاصم. وأما على قراءة فتح الألف فالأيمان جمع يمين وهي أحسن القراءتين، لأنه قد تقدم في أول الآية قوله: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم ﴾ [التوبة: ١٢]. فأخبر سبحانه عن سبب القتال وهو نكث الأيمان والطعن في الدين، ثم أخبر أنه لا أيمان لهم تعصمهم من القتل، لأنهم قـد نكثوها.

والمراد بالأيمان هنا العهود لا القسم بالله، فإن النبي ﷺ لم يقاسمهم بالله عام الحديبية، وإنما عاهدهم ونسخة الكتاب محفوظة ليس فيها قسم. وهذا لأن كلا من المتعاهدين يمد يمينه إلى الآخر، ثم صار مجرد الكلام بالعهد يسمى يمينا، وإن لم يحصل فيه مد اليمين.

وقد قيل: سمي العهد يمينًا [لأن اليمين] هي القوة والشدة، كما قال تعالى: ﴿ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴾ [الحاقة: ٤٥].

ولما كان الحلف معقودًا مشدودًا سمي يمينًا، فاسم اليمين جامع للعهد الذي بين العبد وبين ربه وإن كان نذرا، ومنه قول النبي ﷺ: «النذر حلفة»(١) وللعهد الذي بين المخلوقين. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا ﴾ [النحل: ٩١]. فالنهي عن نقض العهود وإن لم يكن فيها قسم، وقال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠] وإن لم يكن هناك قسم. ومنه قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ

(١) لم أجده بهذا اللفظ، والوارد بلفظ: «النذر يمين وكفارته كفارة يمين» أخرجه أحمد (٤/ ١٤٨) والطبراني في الكبير (١٧/ ٣١٣ رقم ٨٦٦) وأبو يعلى (٣/ ٢٨٣ رقم ١٧٤٤) قال المناوي في فيض القدير (٦/ ٢٩٨) رمز المصنف لصحته... أن الحافظ العراقي قال: إن الحديث حسن لا صحيح.

أما لفظ المصنف: «النذر حلفة» فقد ذكره رحمه الله في حاشيته على أبي داود (٩/ ٨٥) وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ (ص ١٧) وفي مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٧٧) وكذا ذكره ابن قدامة في المغني (١٠/ ٦٩).

ﱡﭐ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﱠ [النساء: ١]. معناه: تتعاهدون وتتعاقدون به، والمقصود: أن كل من طعن في ديننا بعد أن عاهدناه عهدًا يقتضي ألا يفعل ذلك، فهو إمام في الكفر لا يمين له، فيجب قتله بنص الآية، وبهذا يظهر الفرق بينه وبين الناكث الذي ليس بإمام في الكفر، وهو من خالف بفعل شيء مما صولح عليه[1].

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ ﴾ [التوبة: ١٣] فجعل همَّهم بإخراج الرسول موجبًا لقتالهم؛ لما فيه من الأذى له. ومعلوم قطعًا أن سبه أعظم أذى له من مجرد إخراجه من بلده ولهذا عفا ﷺ عام الفتح عن الذين هموا بإخراجه، ولم يعف عمن سبَّه: فالذمي إذا أظهر سبه ﷺ فقد نكث عهده، وفعل ما هو أعظم من الهم بإخراج الرسول، وبدأ بالأذى فيجب قتاله.

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥] فأمر سبحانه بقتال الناكثين الطاعنين في الدين، ورتب على ذلك ستة أشياء: تعذيبهم بأيدي المؤمنين، وخزيهم، والنصرة عليهم، وشفاء صدور المؤمنين، وذهاب غيظ قلوبهم، وتوبته، على غيرهم. والتقدير: إن تقاتلوهم يحصل هذا. وإذا كانت هذه الأمور مرتبة على قتال الناكث والطاعن في الدين ـ وهي أمور مطلوبة ـ كان سببها المقتضي لها مطلوبًا للشارع ـ وهو القتال ـ. وإذا كانت هذه الأمور مطلوبة حاصلة بالقتال، لم يجز تعطيل القتال الذي هو سببها مع قيام المقتضي له من جهة من يقاتله وهو النكث والطعن في الدين.

فشفاء الصدور الحاصل من ألم النكث والطعن، وذهاب الغيظ الحاصل في صدور المؤمنين من ذلك مقصود للشارع مطلوب الحصول.

ولا ريب أن من أظهر سب رسول الله ﷺ من أهل الذمة فإنه يغيظ المؤمنين

(١) انظر: الصارم المسلول (ص ١٧-١٨).

ويؤلمهم أكثر من سفك دماء بعضهم وأخذ أموالهم، فإن هذا يثير الغضب لله والحمية له ولرسوله، وهذا القدر لا يهيج في قلب المؤمن غيظ أكثر منه. بل المؤمن المسدّد لا يغضب هذا الغضب إلا لله ورسوله؛ والله سبحانه يحب شفاء صدور المؤمنين وذهاب غيظ قلوبهم. وهذا إنما يحصل بقتل السبَّاب لأوجه:

أحدها: أن تعزيره وتأديبه يذهب غيظ قلوبهم إذا شتم واحدًا من المسلمين، فلو أذهب التعزير والتأديب غيظ قلوبهم إذا شتم الرسول؛ لكان غيظهم من سب نبيهم مثل غيظهم من سب واحد منهم، وهذا باطل قطعًا.

الثاني: أن شتمه أعظم عندهم من أن يسفك دماء بعضهم بعضًا. ثم لو قتل واحد منهم لم يشف صدورهم إلا قتله، فأَنْ لا تُشْفَى صدورهم إلا بقتل الساب أولى وأحرى.

الثالث: أن الله جعل قتالهم هو السبب في حصول الشفاء، والأصل عدم سبب آخر يحصله، فيجب أن يكون القتل هو الشافي لصدور المؤمنين من مثل هذا.

الرابع: أن النبي ﷺ لما فتحت مكة وأراد أن يشفي صدور خزاعة ـ وهم القوم المؤمنون ـ من بني بكر الذين قاتلوهم، مكّنهم منهم نصف النهار أو أكثر مع أمانه لسائر الناس. فلو كان شفاء صدورهم وذهاب غيظ قلوبهم يحصل بدون القتل للذين نكثوا أو طعنوا لما فعل ذلك مع أمانه الناس.

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٦٣] ذكر سبحانه هذه الآية عقيب قوله: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة: ٦١]. فجعلهم مؤذين له بقولهم: «هو أذن»، ثم قال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، فجعلهم بهذا محادين. ومعلوم قطعا أن من أظهر مسبة الله ورسوله والطعن في دينه أعظم محادة له ولرسوله؛ وإذا ثبت أنه محاد، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى

ﵟٱلۡأَذَلِّينَﵞ [المجادلة: ٢٠] والأذل أبلغ من الذليل، ولا يكون أذل حتى يخاف على نفسه وماله، لأن من كان دمه وماله معصوما لا يستباح فليس بأذلّ.

يدلّ عليه قوله تعالى: ﵟضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِﵞ [آل عمران: ١١٢]. فبين سبحانه أنهم أينما ثقفوا فعليهم الذلة إلا مع العهد. فعلم أن من له عهد وحبل يأمن به على نفسه وماله لا ذلة عليه وإن كانت عليه المسكنة، فإن المسكنة قد تكون مع عدم الذلة، وقد جعل سبحانه الحادين في الأذلين، فلا يكون لهم عهد، إذ العهد ينافي الذلة، كما دلت عليه الآية، وهذا ظاهر فإن الأذل ليس له قوة يمتنع بها ممَّن أراده بسوء، فإذا كان [له] من المسلمين عهد يجب عليهم به نصره ومنعه فليس بأذل، فثبت أن المحاد لله ورسوله لا يكون له عهد يعصمه[1].

[2]قولهم: «ولا نرغب في ديننا ولا ندعو إليه أحدًا»: هذا من أولى الأشياء أن ينتقض العهد به: فإنه حراب الله ورسوله باللسان، وقد يكون أعظم من الحراب باليد، كما أن الدعوة إلى الله ورسوله جهاد بالقلب وباللسان، وقد يكون أفضل من الجهاد باليد.

ولما كانت الدعوة إلى الباطل مستلزمة ـ ولابد ـ للطعن في الحق كان دعاؤهم إلى دينهم وترغيبهم فيه طعنًا في دين الإسلام، وقد قال تعالى: ﵟوَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِﵞ [التوبة: ١٢].

ولا ريب أن الطعن في الدين أعظم من الطعن بالرمح والسيف، فأولى ما انتقض به العهد الطعن في الدين، ولو لم يكن مشروطًا عليهم، فالشرط ما زاده إلا تأكيدًا وقوة.

[3]مرض القلب نوعان: نوع لا يتألم به صاحبه في الحال، وهو النوع المتقدم، كمرض

---

(١) انظر: الصارم المسلول (١٩-٢٢).
(٢) ٧٢٩ أحكام جـ٢.
(٣) ١٨ إغاثة جـ١.

الجهل، ومرض الشبهات والشكوك، ومرض الشهوات. وهذا النوع هو أعظم النوعين ألما، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم، ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين إدراك الألم، وإلا فألمه حاضر فيه حاصل له، وهو متوار عنه باشتغاله بضده، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما. وعلاجه إلى الرسل وأتباعهم، فهم أطباء هذا المرض.

والنوع الثاني: مرض مؤلم له في الحال، كالهم والغم والحزن والغيظ، وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية، كإزالة أسبابه، أو بالمداواة بما يضاد تلك الأسباب، ويدفع موجبها مع قيامها، وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن، فكذلك البدن يتألم كثيرا بما يتألم به القلب، ويشقيه ما يشقيه.

فأمراض القلب التي تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن، وهذه قد لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت. وأما أمراضه التي لا تزول إلا بالأدوية الإيمانية النبوية فهي التي توجب له الشقاء والعذاب الدائم، إن لم يتداركها بأدويتها المضادة لها، فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء، ولهذا يقال: «شفى غيظه» فإذا استولى عليه عَدُوُّه آلمه ذلك، فإذا انتصف منه اشتفى قلبه، قال تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ [التوبة: ١٤-١٥]. فأمر بقتال عدوهم، وأعلمهم أن فيه ست فوائد.

فالغيظ يؤلم القلب، ودواؤه في شفاء غيظه، فإن شفاه بحق اشتفى، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضا من حيث ظن أنه يشفيه، وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق، فإن ذلك يزيد مرضه، ويوجب له أمراضًا أُخر أصعب من مرض العشق، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وكذلك الغم والهم والحزن أمراض للقلب، وشفاؤها بأضدادها: من الفرح والسرور، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصح وبرئ من مرضه، وإن كان بباطل توارى ذلك واستتر، ولم يزل، وأعقب أمراضا هي أصعب وأخطر.

وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب. فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم، وهي في الحقيقة إنما تزيده مرضا إلى مرضه، لكن اشتغل القلب بها عن إدراك الألم الكامن فيه، بسبب جهله بالعلوم النافعة، التي هي شرط في صحته وبرئه، وقال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الذين أفتوا بالجهل، فهلك المستفتي بفتواهم «قتلوه، قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا؟ فإنما شفاء العي السؤال»[1]، فجعل الجهل مرضا وشفاءه سؤال أهل العلم.

وكذلك الشاك في الشيء المرتاب فيه، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين، ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين: ثلج صدره، وحصل له برد اليقين، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رشده، وينشرح بالهدى والعلم، قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وسيأتي ذكر مرض ضيق الصدر وسببه وعلاجه، إن شاء الله تعالى.

والمقصود: أن من أمراض القلوب ما يزول بالأدوية الطبيعية. ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية الإيمانية، والقلب له حياة وموت، ومرض وشفاء، وذلك أعظم مما للبدن.

***

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٣٦، ٣٣٧) وابن ماجه (رقم ٥٧٢) والبيهقي في الكبرى (١/ ٢٢٧ رقم ١٠١٦) والدارقطني (١/ ١٨٩ رقم ٣) والدارمي (رقم ٧٥٢) وعبد الرزاق (١/ ٢٢٣ رقم ٨٦٧) وأبو يعلى (٤/ ٣٠٩ رقم ٢٤٢٠) وأحمد (١/ ٣٣٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٩١ رقم ١١٦٣) والحاكم (١/ ٢٨٥ رقم ٦٣٠) والطبراني في الكبير (١١/ ١٩٤ رقم ١١٤٧٢) ونقل الحافظ ابن حجر تصحيح ابن السكن في تلخيص الحبير (١/ ١٤٧) وقال الزيلعي في نصب الراية (١/ ١٨٧): قال البيهقي في المعرفة: هذا الحديث أصح ما روي في هذا الباب مع اختلاف في إسناده.

وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

(١)أخبر ﷻ أنه لا يستوي عنده عمار المسجد الحرام، وهم عماره بالاعتكاف والطواف والصلاة، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن، وأهل سقاية الحاج، لا يستوون هم وأهل الجهاد في سبيل الله؛ وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون. وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات، فنفى التسوية بين المجاهدين وعمار المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عماره بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨] فهؤلاء هما عمار المساجد، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم.

(٢)واختلف نفر من الصحابة في أفضل الأعمال؛ فقال بعضهم: سقاية الحاج، وقال بعضهم: عمارة المسجد الحرام، وقال بعضهم: الحج، وقال بعضهم: الجهاد في سبيل الله، فاستفتى عمرُ في ذلك رسول الله ﷺ فأنزل الله ﷻ: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ

(١) ٣٥٦ طريق الهجرتين.
(٢) ٣١١ أعلام جـ٤.

ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾.

(١)نفي التساوي في كتاب الله قد يأتي بين الفعلين كقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾. وقد تأتي بين الفاعلين نحو: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٩٥]. وقد تأتي بين الجزاءين كقوله: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٢] فالأعمى والبصير: الجاهل والعالم. والظلمات والنور: الكفر والإيمان. والظل والحرور: الجنة والنار. والأحياء والأموات: المؤمنون والكفار.

(٢)وأما تقديم المال على الولد فلم يطرد في القرآن، بل قد جاء مقدمًا كذلك في قوله: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ ﴾ [سبأ: ٣٧] وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥]. وقوله: ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٩].

وجاء ذكر البنين مقدما كما في قوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٤] فأما تقديم الأموال في تلك المواضع الثلاثة، فلأنها ينتظمها معنىً واحد، وهو التحذير من الاشتغال بها والحرص على تحصيلها، حتى يفوته حظه من الله والدار الآخرة،

(١) ٨ بدائع جـ٤.
(٢) ٧٤ بدائع جـ١.

فهي في موضع عن الإلتهاء بها، وأخبر في موضع أنها فتنة، وأخبر في موضع آخر أن الذي يقرب عباده إليه إيمانهم وعملهم الصالح لا أموالهم ولا أولادهم، ففي ضمن هذا النهي عن الاشتغال بها عما يقرب إليه.

ومعلوم أن اشتغال الناس بأموالهم والتلاهي بها أعظم من اشتغالهم بأولادهم، وهذا هو الواقع، حتى إن الرجل ليستغرقه اشتغاله بماله عن مصلحة ولده وعن معاشرته وقربه.

وأما تقديمهم على الأموال في تينك الآيتين فلحكمة باهرة، وهي أن براءة متضمنة لوعيد من كانت تلك الأشياء المذكورة فيها أحب إليه من الجهاد في سبيل الله.

ومعلوم أن تصور المجاهد فراق أهله وأولاده وآبائه وإخوانه وعشيرته تمنعه من الخروج عنهم أكثر مما يمنعه مفارقته ماله، فإن تصور مع هذا أن يقتل فيفارقهم فراق الدهر نفرت نفسه عن هذه أكثر وأكثر، ولا يكاد عند هذا التصور يخطر له مفارقة ماله، بل يغيب بمفارقة الأحباب عن مفارقة المال، فكان تقديم هذا الجنس أولى من تقديم المال. وتأمل هذا الترتيب البديع في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، يطلعك على عظمة هذا الكلام وجلالته.

فبدأ أولا بذكر أصول العبد، وهم آباؤه المتقدمون: طبعا وشرفا ورتبة. وكان فخر القوم بآبائهم ومحاماتهم عنهم أكثر من محاماتهم عن أنفسهم وأموالهم وحتى عن أبنائهم؛ ولهذا حملتهم محاماتهم عن آبائهم ومناضلتهم عنهم إلى أن احتملوا القتل وسبي الذرية، ولا يشهدون على آبائهم بالكفر والنقيصة، ويرغبون عن دينهم لما في ذلك من إزرائهم بهم.

ثم ذكر الفروع وهم الأبناء، لأنهم يتلونهم في الرتبة، وهم أقرب أقاربهم إليهم، وأعلق بقلوبهم، وألصق بأكبادهم من الإخوان والعشيرة.

ثم ذكر الإخوان وهم الكلالة وحواشي النسب.

فذكر الأصول أولًا، ثم الفروع ثانيًا، ثم النظراء ثالثاً. ثم الأزواج رابعًا، لأن

الزوجة أجنبية عنده، ويمكن أن يتعوض عنها بغيرها، وهي إنما تراد للشهوة، وأما الأقارب من الآباء والأبناء والإخوان فلا عوض عنهم، ويرادون للنصرة والدفاع، وذلك مقدم علىٰ مجرد الشهوة.

ثم ذكر القرابة البعيدة خامسًا، وهي العشيرة وبنو العم، فإن عشائرهم كانوا بني عمتهم غالبا، وإن كانوا أجانب فأولىٰ بالتأخير.

ثم انتقل إلىٰ ذكر الأموال بعد الأقارب سادسًا، ووصفها بكونها مقترفة أي مكتسبة، لأن القلوب إلىٰ ما اكتسبته من المال أميل، وله أحب، وبقدره أعرف، لما حصل له فيه من التعب والمشقة، بخلاف مال جاء عفوا بلا كسب من ميراث أو هبة أو وصية، فإن حفظه للأول ومراعاته له وحرصه علىٰ بقائه أعظم من الثاني، والحس شاهد بهذا وحسبك به.

ثم ذكر التجارة سابعاً، لأن محبة العبد للمال أعظم من محبته للتجارة التي يحصله بها، فالتجارة عنده وسيلة إلىٰ المال المقترف، فقدم المال علىٰ التجارة تقديم الغايات علىٰ وسائلها، ثم وصف التجارة بكونها مما يخشىٰ كسادها، وهذا يدل علىٰ شرفها وخطرها، وأنه قد بلغ قدرها إلىٰ أنها مخوفة الكساد.

ثم ذكر الأوطان ثامنًا آخر المراتب، لأن تعلق القلب بها دون تعلقه بسائر ما تقدم، فإن الأوطان تتشابه وقد يقوم الوطن الثاني مقام الأول من كل وجه، ويكون خيرا منه فمنها عوض. وأما الآباء والأبناء والأقارب والعشائر فلا يتعوض منهما بغيرها، فالقلب وإن كان يحن إلىٰ وطنه الأول فحنينه إلىٰ آبائه وأبنائه وزوجاته أعظم، فمحبة الوطن آخر المراتب، وهذا هو الواقع إلا لعارض يترجح عنده إيثار البعيد علىٰ القريب، فذلك جزئي لا كلي، فلا تناقض به، وأما عند عدم العوارض فهذا هو الترتيب المناسب والواقع.

[1]غزوة حنين وتسمىٰ غزوة أوطاس وهما موضعان بينَ مكة والطائف، فسُمِّيت

(١) ٤٣٨ زاد المعاد جـ٢.

الغزوةُ باسم مكانها، وتُسمىٰ غزوةَ هَوازن، لأنهم الذين أَتَوْا لِقتال رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: ولما سمعت هَوازِنُ برسول الله ﷺ، وما فتح الله عليه مِن مكة، جمعها مالكُ بنُ عوف النَّصْري، واجتمع إليه مع هَوازِن ثقيفٌ كُلُّها، واجتمعت إليه مُضَرُ وجُشَمُ كُلُّها، وسعدُ بن بكر، وناسٌ من بني هلال، وهم قليل، ولم يشهدها من قَيْس عَيلان إلا هؤلاء، ولم يحضُرْهَا مِن هَوازِن: كعبٌ، ولا كِلاب، وفي جشم: دريدُ بنُ الصِّمة، شيخ كبير، ليس فيه إلا رأيُهُ ومعرفتُه بالحرب، وكان شجاعاً مجرَّباً، وفي ثقيف سيِّدَانِ لهم، وفي الأحلاف: قاربُ بن الأسود، وفي بني مالك: سُبيع بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث، وجِماعُ أمر الناس إلىٰ مالك بن عوف النَّصْري.

فلما أجمع السيرَ إلىٰ رسول الله ﷺ، ساق مع الناس أموالَهم ونساءَهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس، اجتمع إليه الناسُ وفيهم دُرَيْدُ بن الصِّمة، فلما نزل قال: بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نِعْمَ مَجَالُ الخيل، لا حَزْنٌ ضِرْس، ولا سَهْلٌ دَهْسٌ، مالي أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبُكاء الصبي، ويُعار الشاء؟ قالوا: ساق مالِكُ بن عوفٍ مع الناسِ نِساءَهُم وأموالَهم وأبناءهم. قال: أَيْنَ مالك؟ قيل: هذا مالك، ودُعي له. قال: يا مالك ؛ إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك، وإن هذا يومٌ كائن له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبُكاء الصغير، وثغاء الشاء؟، قال: سقتُ مع الناس أبناءهم، ونساءَهم، وأموالَهم. قال: ولِمَ؟ قال: أردتُ أن أجعل خلفَ كُلِّ رجل أهلَه وماله ليقاتل عنهم. فقال راعىٰ ضأنٍ: والله، وهل يردُّ المنهزمَ شيء، إنها إن كانت لك لم ينفعْك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليكَ، فُضِحْتَ في أهلك ومالك، ثم قال: ما فعلت كعبٌ وكِلاب؟ قالوا: لم يشهدْها أحدٌ منهم. قال: غاب الحدُّ والجِدُّ، لو كان يوم علاءٍ ورِفعة، لم تَغِبْ عنه كعبٌ ولا كِلاب، ولوَدِدْت أنكم فعلتم ما فعلت كعبٌ وكلاب، فمَن شهدها منكم؟ قالوا: عَمْرو بن عامر، وعَوْف بن عامر، قال: ذَانِكَ الجَذَعَانِ من عامر، لا ينفعان ولا يضران. يا مالك ؛ إنك لم تصنع بتقديم البَيْضةِ بَيْضةِ هَوازِن إلىٰ نحورِ الخيل شيئاً، ارفعهم إلىٰ مُتمنَّع بلادهم

وعُليا قومهم، ثم الق الصُّباة علىٰ متون الخيل، فإن كانت لك، لحقَ بك مَنْ وراءَك، وإن كانت عليك، ألْفاكَ ذلك، وقد أحرزتَ أهلك ومالك. قال: واللهِ لا أفعلُ، إنك قد كَبِرْتَ وَكَبِرَ عَقلُكَ، واللهِ لتُطِيعُنَّني يا معشَرَ هَوازِن، أو لأتَّكِئَنَّ علىٰ هذا السيف حتىٰ يخرُجَ مِن ظهري، وكره أن يكون لِدُريد فيها ذِكر ورأي، فقالوا: أطعناك، فقال دُريد: هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتْني.

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعْ ... أَخُبُّ فِيهَا وَأَضَعْ
أَقُودُ وَطْفَاءَ الزَّمَعْ ... كَأَنَّهَا شَاةٌ صَدَعْ[(١)]

ثم قال مالك للناس: إذا رأيتمُوهم فاكسروا جُفون سيوفكم، ثم شُدُّوا شدةَ رجل واحد.. وبعث عيوناً مِن رجاله، فأتَوْه وقد تفرَّقت أوصالُهم، قال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رِجالاً بيضاً علىٰ خيل بُلقٍ، واللهِ ما تماسكنا أن أصابَنَا ما ترىٰ، فواللهِ ما ردَّه ذلك عن وجهه أن مَضَىٰ علىٰ ما يُريدُ. ولما سمع بهم نبيُّ الله ﷺ، بعث إليهم عبد الله بن أبي حَدْرَدٍ الأسلمي، وأمره أن يدخُل في الناس، فيُقيم فيهم حتىٰ يعلَم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبي حدرد، فدخل فيهم حتىٰ سمِعَ وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ﷺ، وسَمِعَ مِن مالك وأمر هوازن ما هُم عليه، ثم أقبل حتىٰ أتىٰ رسولَ الله ﷺ فأخبره الخبر فلما أجمع رسولُ الله ﷺ السير إلىٰ هَوازِن، ذُكِرَ له أن عند صفوان بنِ أُمية أدراعاً وسلاحاً، فأرسل إليه، وهو يومئذ مشرك، فقال: «يا أبا أُمية ؛ أعِرْنا سِلاحك هذا نلقىٰ فيه عدونا غداً»، فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟ قال: «بَلْ عَارِيَّةٌ مَضْمُونَةٌ حَتَّىٰ نُؤَدِّيَهَا إِلَيْكَ»[(٢)]، فقال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة دِرع بما

---

(١) هذان البيتان من بحر مجزوء الرجز، وينسب إلىٰ دريد بن الصمة، من الشعراء الأبطال المعمرين في الجاهلية، كان سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم أدرك الإسلام ولم يسلم، وقتل علىٰ دين الجاهلية يوم حنين سنة ٨هـ. ذكر الطبري في تفسيره البيت الأول فقط (١٠/ ١٤٤) والسيوطي في الديباج علىٰ مسلم (١/ ١٨٨) وذكر البيتين ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٧/ ٢٣٩) وابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٥٣) وابن منظور في اللسان (٨/ ٣٩٨).

(٢) أخرجه بلفظ قريب الضياء في المختارة (٨/ ٢٣ رقم ١٣) والحاكم (٢/ ٥٤ رقم ٢٣٠٠) والنسائي في =

يكفيها مِن السلاح، فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيَهم حملها، ففعل.

ثم خرج رسولُ الله ﷺ معه ألفانِ مِن أهل مكة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه، ففتح الله بهم مكة، وكانوا اثني عشر ألفاً، واستعمل عتَّابَ بن أسيد على مكة أميراً، ثم مضى يُريد لقاء هوازن(١).

قال ابن إسحاق: فحدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله، قال: لما استقبلنا وادي حُنَين، انحدرنا في وادٍ من أودية تِهامة أجوفَ حَطُوط، إنما ننحدر فيه انحداراً. قال: وفي عَماية الصبح، وكان القومُ قد سبقونا إلى الوادي، فكَمَنُوا لنا في شِعابه وأجنابه ومضايقه، قد أجمعوا، وتهيؤوا، وأعدوا فوالله ما راعنا ـ ونحن منحطُّون ـ إلا الكتائبُ، قد شدُّوا علينا شَدَّةَ رجل واحد، وانشمر الناسُ راجعين لا يَلْوِي أحدٌ منهم على أحد، وانحاز رسولُ الله ﷺ ذاتَ اليمين، ثم قال: «إلى أيْنَ أيُّهَا النَّاسُ؟ هَلُمَّ إليَّ، أنا رَسُولُ الله، أنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله»، وبقي مع رسول الله ﷺ نَفَرٌ من المهاجرين والأنصارِ وأهلِ بيته، وفيمن ثبت معه من المهاجرين: أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته: علي والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه، والفَضل بن العباس، وربيعةُ بن الحارث، وأُسامةُ بن زيد، وأيمن ابن أُم أيمن، وقُتِلَ يومئذ. قال: ورجل من هَوازِن عليٍّ جمل له أحمر بيده راية سوداء في رأس رُمح طويل أمامَ هَوازِن، وهَوازِنُ خلفه، إذا أدرك، طعن برمحه، وإذا فاته الناسُ، رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه، فبينا هو كذلك إذ أهوى عليه علي بن أبي طالب، ورجل من الأنصار يُريدانه، قال: فأتى علي منْ خَلْفِهِ، فضرب عرقوبي الجمل، فوقع على عجزه، ووثب الأنصاريُّ على الرجل، فضربه ضربةً أطن قدَمه بنصف ساقه، فانجعفَ عن رحله، قال: فاجتلد الناسُ، قال: فوالله ما رجعت راجعةُ

= الكبرى (٣/ ٤٠٩ رقم ٥٧٧٦، ٥٧٧٧) وأبو داود (رقم ٣٥٦٢، ٣٥٦٣) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٨٩ رقم ١١٢٥٧، ١١٢٥٨) والدارقطني (٣/ ٣٩ رقم ١٦١) وأحمد (٣/ ٤٠٠) (٦/ ٤٦٥).

(١) انظر: الثقات لابن حبان (٢/ ٦٤) وتاريخ مدينة دمشق (١٧/ ٢٣٨-٢٤٠).

الناس مِن هزيمتهم، حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله ﷺ[(١)].

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المسلمون، ورأى مَن كان مَع رسول الله ﷺ مِن جُفاة أهل مكة الهزيمة، تكلَّم رجال منهم بما في أنفسهم من الضِّغنِ، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهُم دونَ البحر، وإن الأزلامَ لمعه في كِنانته، وصرخ جَبَلَة بن الجنيد، وقال ابن هشام: صوابه كَلَدَة: ألا بطل السِّحْرُ اليوم، فقال له صفوانُ أخوه لأُمه وكان بعدُ مشركاً: اسكت فضَّ اللهُ فاك، فوالله لأن يَرُبَّني رَجُلٌ مِن قريش، أحبُّ إليَّ من أن يربَّني رجلٌ مِن هَوازِن[(٢)].

وذكر ابنُ سعد عن شيبة بن عُثمان الحَجَبي، قال: لما كان عامُ الفتح، دخل رسول الله ﷺ مكة عَنوة، قلت: أسيرُ مع قريش إلى هَوازِن بحُنَيْن، فعسى إن اختلطوا أن أُصيب مِن محمد غِرَّة، فأثأرَ منه، فأكون أنا الذي قمتُ بثأر قريش كُلِّها، وأقولُ: لو لم يبقَ مِن العرب والعجم أحد إلا اتبع محمداً، ما تبعتُه أبداً، وكنت مُرْصداً لما خرجتُ له لا يزدادُ الأمر في نفسي إلا قوةً، فلما اختلط الناسُ، اقتحم رسولُ الله ﷺ عن بغلته، فأصلتَ السيف، فدنوتُ أريدُ ما أريدُ منه، ورفعتُ سيفي حتى كِدتُ أشعره إياه، فرُفِعَ لي شُواظٌ مِن نار كالبرق كاد يمحشُني، فوضعتُ يدي على بصري خوفاً عليه، فالتفتَ إليَّ رسول الله ﷺ، فناداني: «يَا شَيْبُ؛ ادْنُ مِنِّي» فَدَنَوْتُ مِنْهُ، فَمَسَحَ صَدْرِي، ثم قال: «**اللَّهُمَّ أَعِذْهُ مِنَ الشَّيْطَانَ**» قال: فوالله لهو كان ساعتَئِذٍ أحبَّ إليَّ مِنْ سمعي، وبصري، ونفسي، وأذهبَ اللهُ ما كان في نفسي، ثم قال: «**ادْنُ فقاتِلِ الكفار**»، فتقدمتُ أمامَه أضربُ بسيفي، الله يعلمُ أني أحب أن أقيَه بنفسي كُلَّ شيء، ولو لقيتُ تلك

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٧٦) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٨٠): رواه أحمد وأبو يعلى.... ورواه البزار باختصار وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع في رواية أبي يعلى وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

(٢) أخرجه ابن حبان (١١/ ٩٥-٩٦ رقم ٤٧٧٤) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٧٠ رقم ١٢٨٧٩) وأبو يعلى (٣/ ٣٨٨-٣٨٩ رقم ١٨٦٣) قال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٨٠): ورواه البزار وفيه ابن إسحاق وقد صرح بالسماع في رواية أبي يعلى وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. وانظر: تهذيب الكمال (٢٤/ ٢٠٦-٢٠٧) والاستيعاب (٣/ ١٣٣٢-١٣٣٣).

الساعة أبي ـ لو كان حيًّا ـ لأوقعتُ به السيف، فجعلتُ ألزمُه فيمن لزمه حتىٰ تراجعَ المسلمون، فكرُّوا كَرَّةَ رجل واحد، وقُرِّبَتْ بغلةُ رسولِ الله ﷺ، فاستوىٰ عليها، وخرج في أثرهم حتىٰ تفرَّقوا في كُلِّ وجه، ورجع إلىٰ معسكره، فدخل خِباءه، فدخلتُ عليه، ـ ما دخل عليه أحدٌ غيري ـ حباً لرؤية وجهه، وسروراً به، فقال: «يا شَيْبُ؛ الذي أرادَ اللهُ بكَ خَيْرٌ ممَّا أرَدْتَ لِنَفْسِك»، ثم حدَّثني بكلِّ ما أضمرتُ في نفسي ما لم أكن أذكره لأحد قط، قال: فقلتُ: فإني أشهدُ أنْ لا إله إلا اللهُ، وأنكَ رسولُ الله، ثم قلت: استغفر لي. فقال: «غَفَرَ اللهُ لَكَ»[(١)].

وقال ابن إسحاق: وحدَّثني الزُّهْري، عن كثير بن العباس، عن أبيه العباس ابن عبد المطلب، قال: إني لمعَ رسولِ الله ﷺ آخذٌ بِحَكَمَةِ بغلته البيضاء، قد شَجَرْتُها بها، وكنت امرءاً جسيماً شديدَ الصوت، قال رسُولُ الله ﷺ يقول حين رأىٰ ما رأىٰ من الناس: «إلىٰ أيْنَ أيُّهَا النَّاسُ». قال: فلم أر الناس يَلْوُون علىٰ شيء، فقال: «يا عَبَّاسُ اصْرَخْ: يا مَعْشَر الأنْصَارِ، يَا مَعْشَرَ أصْحَاب السَّمُرَةِ»، فأجابوا: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ. قال: فيذهبُ الرجلُ ليثنىٰ بعيرَه، فلا يقدِرُ علىٰ ذلك، فيأخذ دِرعه فيقذفها فى عُنُقه، ويأخذ سيفَه وقوسه وتُرسَه، ويقتحِمُ عن بعيره، ويُخلىٰ سبيلَه، ويؤم الصوت حتىٰ ينتهيَ إلىٰ رسول الله ﷺ، حتىٰ إذا اجتمع إليه منهم مائة، استقبلُوا النَّاس، فاقتتلُوا فكانت الدعوة أوَّلَ ما كانت: يا للأنصار، ثم خلصت آخراً: يا للخزرج، وكانوا صُبُرَاً عند الحرب، فأشرف رسولُ الله ﷺ في ركائبه، فنظر إلىٰ مُجْتَلَدِ القوم، وهم يَجْتَلِدُونَ، فقال: «الآنَ حَمِيَ الوَطيسُ» وزَاد غيره:

أَنَـــا النَّبِـــــيُّ لاَ كَـــــذِبْ أنـــا ابْـــنُ عَبْـــدِ المُطَّلِـــبْ[(٢)]

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢٣/ ٢٥٥-٢٥٦) وبنحوه أخرجه إسماعيل التيمي الأصبهاني في دلائل ا لنبوة (رقم ٢٣٦) والفاكهي في أخبار مكة (٥/ ٩٢ رقم ٢٨٩٧) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٦) وصفة الصفوة (١/ ٧٢٨-٧٢٩).

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (رقم ١٧٧٥) وابن حبان (١٥/ ٥٢٣ -٥٢٤ رقم ٧٠٤٩) والنسائي في الكبرىٰ (٥/ ١٩٤ رقم ٨٦٤٧).

وفي صحيح مسلم: ثم أخذ رسولُ اللهِ ﷺ حَصيَاتٍ، فرمىٰ بها في وجوه الكُفَّارِ، ثم قال: «انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ»، فما هو إلا أن رماهم، فما زِلْتُ أرىٰ حَدَّهُم كليلاً، وأمرَهم مُدْبِراً[(١)]. وفي لفظ له: إنه نزل عن البغلة، ثم قبضَ قبضة مِن تُراب الأرض، ثم استقبل بها وجوهَهم، وقال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ»، فما خلق اللهُ منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة، فولَّوا مدبرين[(٢)].

وذكر ابن إسحاق عن جُبير بن مطعم، قال: «لقد رأيت قبل هزيمةِ القوم ـ والناس يقتتلون يومَ حُنَيْنٍ ـ مثلَ البَجادِ[(٣)] الأسود، أقبل مِن السماء حتىٰ سقط بيننا وبينَ القوم، فنظرتُ فإذا نمل أسودُ مبثوث قد ملأ الوادي، فلم يكن إلا هزيمة القوم، فلم أشك أنها الملائكة»[(٤)].

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المشركون، أتوا الطائف، ومعهم مالكُ بن عَوْف، وعسكر بعضُهم بأوطاس، وتوجَّه بعضُهم نحو نخلةَ، وبعثَ رسولُ اللهِ ﷺ في آثار مَن توجَّه قِبل أوطاس أبا عامر الأشعري، فأدركَ مِن الناس بعضَ مَن انهزم، فناوشُوه القِتَال، فرُمِيَ بسهم فقُتِل، فأخذ الراية أبو موسىٰ الأشعري ـ وهو ابن عمه ـ فقاتلهم، ففتح اللهُ عليه، فهزمهم اللهُ، وقتل قاتل أبي عامر، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لعُبَيْدٍ أبِي عَامِرٍ وَأَهْلِهِ، واجْعَلْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ**»[(٥)] واستغفر لأبي موسىٰ.

ومضىٰ مالكُ بن عوف حتىٰ تحصَّن بحصن ثقيف، وأمر رسولُ اللهِ ﷺ بالسَّبْي والغنائمِ أن تُجْمَعَ فَجُمِعَ ذلكَ كُلُّهُ، ووجَّهوه إلىٰ الجِعْرَانَةِ، وكان السَّبيُّ ستةَ آلاف

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٧٥) وانظر: شرح النووي (١٢/ ١١٦).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٧٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٢) وشرح النووي (١٢/ ١١٦).

(٣) البجاد: الكساء، وجمعه بُجُد، أراد الملائكة الذين أيدهم الله بهم. قاله ابن الأثير في النهاية (١/ ٩٦) وانظر: لسان العرب (٣/ ٧٨) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٦).

(٤) انظر: فتح الباري (٧/ ٣١٢) وعمدة القاري (١٧/ ٢٩٤).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٢٣) ومسلم (رقم ٢٤٩٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٣) والطبقات الكبرىٰ (٢/ ١٥١-١٥٢) (٤/ ٣٥٧) وتاريخ مدينة دمشق (٣٨/ ٢٢٣).

رأس، والإبلُ أربعةً وعشرين ألفاً، والغنم أكثرَ من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أُوقية فضة، فاستأنى بهم رسول الله ﷺ أن يقدَموا عليه مسلمين بِضْعَ عشرة ليلة ثم بدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلَّفةَ قلوبُهم أوَّلَ الناسِ، فأعطى أبا سفيان بنَ حرب أربعين أُوقية، ومائةً من الإبل، فقال: ابني يزيد؟ فقال: «**أَعْطُوهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً وَمِائَةً مِنَ الإبل**»، فقال: ابني معاوية؟ قال: «**أَعْطُوهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، وَمِائَةً من الإبل**»، وأعطى حكيم بن حِزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أُخرى فأعطاه، وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفي خمسين، وذكر أصحاب المائة وأصحاب الخمسين، وأعطى العباسَ بن مرداس أربعين، فقال في ذلك شعراً، فكمَّل له المائة. ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاءِ الغنائم والناس، ثم فرضها على الناس، فكانت سهامُهم لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعينَ شاة، فإن كان فارساً أخذ اثني عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة[1].

قال ابن إسحاق: وحدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبي سعيد الخدري قال: لما أعطى رسولُ الله ﷺ ما أعطى مِن تلك العطايا في قريش، وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وَجَدَ هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كَثُرت فيهم القالةُ، حتى قال قائلُهم: لقي واللهِ رسولُ الله ﷺ قومَه، فدخل عليه سعدُ بنُ عبادة، فقال: يا رسول الله؛ إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وَجَدوا عليك في أنفسهم لِما صنعتَ في هذا الفيء الذي أصبتَ، قسمتَ في قومك، وأعطيتَ عطايا عِظاماً في قبائل العرب، ولم يكن في هذا الحيِ من الأنصار منها شيء، قال: «**فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ**»؟ قال: يا رسولَ الله؛ ما أنا إلا مِن قومِي. قال: «**فاجْمَعْ لي قَوْمَكَ في هذِهِ الحَظِيرَةِ**» قال: فجاء رجالٌ من المهاجرينَ، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم، فلما اجتمعوا، أتى سعدٌ، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٥٢).

رسولُ الله ﷺ، فَحَمِدَ اللهَ، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؛ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْني عَنْكُم، وجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا في أَنْفُسِكُمْ؟ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلاً فَهداكُم اللهُ بي، وعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بي، وأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللهُ بَيْنَ قُلُوبكُم»؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أَمَنُّ وأفضلُ، ثم قال: «أَلاَ تُجيبُوني يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ»؟ قالوا: بماذَا نجيبُك يا رسولَ الله، للهِ ولِرسُوله المنُّ والفَضْلُ، قال: «أَمَا واللهِ لَوْ شِئْتُم، لَقُلْتُم، فَلَصَدَقْتُم ولَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّباً فَصَدَّقْنَاكَ، ومَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيداً فآوَيْنَاكَ، وعائِلاً فآسيناكَ، أَوجَدْتم عليَّ يَا مَعْشَرَ الأَنصارِ في أَنْفُسِكُم في لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قوماً لِيُسْلِمُوا، وَوكَلْتُكُم إلىٰ إسْلامِكُم، ألا تَرْضَوْنَ يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاء والبَعير، وتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللهِ إلىٰ رحالِكم، فَوالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ لَمَا تَنْقَلِبُون بِهِ خيرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ، وَلَوْلا الهِجْرَةُ، لَكُنْتُ امْرُءاً مِن الأَنْصارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْباً وَوَادياً، وسَلَكَت الأنصار شِعْباً وَوَادياً لَسَلكْتُ شِعْبَ الأَنْصارِ وواديها، الأنصارُ شِعَارٌ، والنَّاسُ دِثارٌ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصار، وأبناءَ أبناءِ الأَنْصار». قال: فبكى القومُ حتَّى أخضلُوا لِحاهم، وقالوا: رَضينَا برسُولِ اللهِ ﷺ قَسْماً وحظاً، ثم انصرف رسولُ اللهِ ﷺ وتفرَّقوا[1].

وقدمت الشَّيماءُ بنت الحارث بن عبد العُزَّىٰ أُختُ رسول الله ﷺ من الرّضاعة، فقالت: يا رسول الله؛ إني أختُك مِن الرضاعة، قال: «وما علامَة ذلك»؟ قالت: عضَّةٌ عَضَضتنيها في ظهري، وأنا متورِّكَتُكَ. قال: فعرف رسولُ ﷺ العلامة. فبسط لها رداءه، وأجلسها عليه وخيَّرها، فقال: «إنْ أَحْبَبْتِ الإقامَةَ فَعِنْدِي مُحَبَّبَةً مُكَرَّمَةً، وإنْ أَحْبَبْتِ أنْ أُمَتِّعَكِ فَتَرْجِعين إلىٰ قَوْمِكِ»؟ قالت: بل تُمَتِّعني وتردُّني إلىٰ قومي، ففعل، فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غُلامًا ـ يقال له: مكحول ـ وجارية، فزوجت إحداهما من الآخر، فلم

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧٦) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٠) رواه أحمد كلها وأبو يعلى، ورجال الرواية الأولى لأحمد رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق وقد صرح بالسماع وأصل الحديث عند مسلم (رقم ١٠٦١، ٢٥٠٦)، وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٢). وصححه الألباني في تحقيقه لفقه السيرة (ص ٣٩٦-٣٩٧).

يزل فيهم من نسلهما بقية[١]. وقال أبو عمر: فأسلمت، فأعطاها رسول الله ﷺ ثلاثة أعبد وجارية، ونعمًا، وشاءً، وسماها حذافة. وقال: والشيماء لقب[٢].

وقدم وفد هَوازِنَ على رسول الله ﷺ، وهم أربعةَ عشر رجلاً، ورأسُهم زُهَيرُ بن صُرَد، وفيهم أبو بُرقان عمُّ رسول الله ﷺ من الرضاعة، فسألوه أن يَمُن عليهم بالسَّبْي والأموال، فقال: «**إنَّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ، وإنَّ أحَبَّ الحَدِيث إليَّ أصْدَقُهُ، فَأَبْنَاؤُكُم ونِسَاؤُكُمْ أحَبُّ إلَيْكُم أمْ أمْوَالُكُمْ**»؟ قالوا: ما كنا نعدِلُ بالأحساب شيئاً فقال: إذا صَلَّيْتُ الغَدَاةَ فَقُومُوا فقولوا: إنَّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ الله ﷺ إلى المُؤمِنينَ، ونَسْتَشْفِعُ بِالمُؤمنين إلى رَسُولِ الله ﷺ أنْ يَرُدُّوا عَلَيْنَا سَبْيَنَا، فلما صلَّى الغداة، قاموا فقالُوا ذلِكَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أمَّا مَا كَانَ لي ولبني عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَهُوَ لَكُمْ، وَسَأَسْأَلُ لَكُمُ النَّاسَ**»، فقال المهاجِرُونَ والأنصار: ما كان لنا فهو لِرسول الله ﷺ، فقال الأقرعُ بنُ حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عُيينة بن حِصن: أما أنا وبنو فَزارة فلا، وقال العباسُ بنُ مرداس: أما أنا وبنُو سليم فلا، فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال العباسُ بنُ مرداس: وهَّنتموني، فقال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ هؤلاء القَوْمَ قَدْ جَاؤوا مُسْلِمِينَ، وقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ سَبْيَهُم، وقَد خَيَّرْتُهم، فَلَمْ يَعْدِلُوا بالأبناء والنِّساء شَيئاً، فمنْ كانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شيء، فَطَابَتْ نَفْسَهُ بأن يَرُدَّه، فسبيلُ ذلكَ، وَمَنْ أحَبَّ أنْ يَسْتَمْسِكَ بِحَقِّهِ، فليردَّ عليهِمْ، ولَهُ بِكُلِّ فَرِيضَةٍ ستُّ فرائضَ منْ أوَّلِ ما يفيءُ اللهُ علينا**»، فقال الناسُ: قد طيبنا لرسول الله ﷺ. فقال: «**إنَّا لا نعرِفُ مَنْ رَضِي مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَرْضَ، فارْجِعُوا حَتَّى يَرفَعَ إلينَا عرفاؤُكم أمْرَكُم**»، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم. ولم يتخلف منهم أحد غير عُيينة بن حصن، فإنه أبى أن يرد عجوزاً صارت في يديه، ثم ردَّها بعد ذلك، وكسا رسولُ الله ﷺ السَّبي قُبطية قُبطية[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (رقم ٤٠٦).

(٢) انظر: الاستيعاب (٤/ ١٨٧٠-١٨٧١).

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٥٢-١٥٤) وأحمد (٢/ ٢١٨) وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق (رقم ٣٨٣) والطبراني في الكبير (٥/ ٢٧٠-٢٧١ رقم ٥٣٠٤) وانظر: تعليق التعليق (٣/ ٤٧٤).

في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهية والنُّكت الحكمية كان اللهُ ﷻ قد وعد رسولَه، وهو صادقُ الوعد، أنه إذا فتح مكَّة، دخل النَّاسُ في دينه أفواجاً، ودانت له العربُ بأسرها، فلما تمَّ له الفتحُ المبين، اقتضت حِكمتُه تعالى أن أمسك قلوبَ هَوازِنَ ومَن تَبِعَهَا عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألَّبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين، لِيظهر أمرُ الله، وتمامُ إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولِتكون غنائمُهم شكراناً لأهل الفتح، وليُظهرَ اللهُ سبحانه رسولَه وعِبادَه، وقهرَه لهذه الشَّوْكة العظيمة التي لم يلق المسلمون مثلها، فلا يُقاومهم بعدُ أحدٌ من العرب، ولغير ذلك مِن الحكم الباهرة التي تلوحُ للمتأملين، وتبدو للمتوسمين[1].

[2]حدثنا وكيع، عن عبيد الله بن أبي زياد، عن ابن أبي نجيح، عن عبد الله بن عمرو قال: من أكل أجور بيوت مكة فإنما يأكل في بطنه نار جهنم[3].

حدثنا أبو إسماعيل المؤدب، عن عبد الله بن مسلم بن هُرمُز عن عطاء أنه كره الكراء بمكة[4].

حدثنا إسماعيل بن عياش، عن ابن جريج قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى الناس: ينهي عن كراء بيوت مكة[5].

حدثنا إسحاق الأزرق، عن عبد الله بن أبي سليمان قال: كتب عمر بن عبد العزيز

---

(١) ساقها المؤلف قرابة نصف كراسة لمن أرادها (ج).

(٢) ١٢٨ أحكام جـ١.

(٣) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٤٦ رقم ٢٠٥١، ٢٠٥٢) والقاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٦٣) والدارقطني (٣/ ٥٧ رقم ٢٢٥، ٢٢٦) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨٤) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٥ رقم ١٠٩٦٧) والأزرقي في أخبار مكة (١/ ١٦٣).

(٤) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٤٩) وابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨١) والقاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٦٤) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٤٩ رقم ٢٠٦١).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠ رقم ١٤٦٨٣) وابن سعد في الطبقات (٥/ ٣٦٤) والقاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٦٥).

إلى أمير مكة: ألا يدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجرًا، فإنه لا يحل لهم[1].

حدثنا يحيى بن سعيد، عن عبيد الله بن عمر عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر؛ أنه نهى أن تغلق دور مكة دون الحاج، وأنهم يضطربون فيما وجدوا منها فارغًا[2].

حدثنا أبو إسماعيل [يعني المؤدب] عن عبد الله بن مسلم بن هرمز، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الحرم كله مسجد[3].

حدثنا إسماعيل بن حفص، عن إسرائيل، عن ثوير، عن مجاهد، عن ابن عمر: الحرم كله مسجد[4].

قلت: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨] وهذا لمكة كلها، قال أبو عبيد: فإذا كانت مكة هذه سننها أنها مناخ من سبق إليها، وأنها لا تباع رباعها، ولا يطيب كراء بيوتها، وأنها مسجد لجماعة المسلمين؛ فكيف تكون هذه غنيمة فتقسم بين قوم يحوزونها دون الناس، أو تكون فيئًا فتصير أرض خراج، وهي أرض من أرض العرب الأميين الذين كان الحكم عليهم: الإسلام أو القتل، فإذا أسلموا كانت أرضهم العشر، ولا تكون خراجًا أبدًا؟ ثم جاء الخبر عن النبي ﷺ مفسرًا حين قال: «**لا تحل غنائمها**»[5][6]. قال: «ليس تشبه مكة شيئًا من البلاد لما خُصت به، فلا حجة لمن زعم أن الحكم على غيرها كالحكم عليها؛ وليست تخلو بلاد العنوة ـ سوى مكة ـ من أن تكون غنيمة،

---

(١) أخرجه القاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٦٦).

(٢) أخرجه القاسم بن سلام (رقم ١٦٧) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٤٧ رقم ٢٠٥٦).

(٣) أخرجه القاسم بن سلام (رقم ١٦٨) وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٧٧٦ رقم ١٠٠١٦).

(٤) أخرجه عبد الرزاق عن مجاهد (٤/ ٣٤٥ رقم ٨٠٠٥) (٤/ ٣٦٨ رقم ٨٠٩٥) والفاكهي في أخبار مكة (٣/ ٢٥٢ رقم ٢٠٧٢) بينما قال بدر الدين العيني في عمدة القاري (٩/ ٢٢٥): وكذا روي عن ابن عمر. وذكره.

(٥) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في الأموال (رقم ١٧١).

(٦) انظر: الأموال (ص ٨٥-٨٦).

كما فعل رسول الله ﷺ: بخيبر أو تكون فيئًا، كما فعل عمر ؓ بأرض السواد وغيره من أرض الشام ومصر»[(١)]. انتهى.

فغلط في مكة طائفتان: طائفة ألحقت غيرها بها فجوزت ألا تقسم ولا يضرب عليها خراج، ولا تكون فيئًا؛ وطائفة شبهت مكة بغيرها فجوزت قسمتها، وضرب الخراج عليها؛ وهي أقبح الطائفتين وأسوأهم مقالة؛ وبالله التوفيق.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

[(٢)]قد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه، دون سائر الذنوب وإن كانت مشتملة على ذلك، لكن الذي وقع في القرآن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨] وقوله تعالى في حق اللوطية: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٤] وقالت اللوطية: ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦] فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطًا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له. وقال تعالى في حق الزنا: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾ [النور: ٢٦].

فأما نجاسة الشرك فهي نوعان: نجاسة مغلظة، ونجاسة مخففة.

فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ﷻ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به. والمخففة: الشرك الأصغر، كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، والحلف به وخوفه

(١) انظر: الأموال (ص ٨٦).
(٢) ٥٩ إغاثة جـ١.

ورجائه. ونجاسة الشرك عينية. ولهذا جعل سبحانه الشرك نجسا، بفتح الجيم، ولم يقل: إنما المشركون نجس، بالكسر، فإن النجَس عين النجاسة، والنجِس، بالكسر، هو المتنجس. فالثوب إذا أصابه بول أو خمر نجِس. والبول والخمر نجَس. فأنجس النجاسة الشرك، كما أنه أظلم الظلم. فإن النجَس في اللغة والشرع هو المستقذر، الذي يطلب مباعدته والبعد منه، بحيث لا يلمس ولا يشم ولا يرىٰ، فضلًا أن يخالط ويلابس لقذارته، ونفرة الطباع السليمة عنه. وكلما كان الحي أكمل حياة وأصح حياء كان إبعاده لذلك أعظم، ونفرته منه أقوىٰ.

فالأعيان النجسة إما أن تؤذىٰ البدن أو القلب، أو تؤذيهما معا. والنجَس قد يؤذىٰ برائحته، وقد يؤذىٰ بملابسته، وإن لم تكن له رائحة كريهة.

والمقصود: أن النجاسة تارة تكون محسوسة ظاهرة، وتارة تكون معنوية باطنة، فيغلب علىٰ الروح والقلب الخبث والنجاسة، حتىٰ إن صاحب القلب الحي ليشم من تلك الروح والقلب رائحة خبيثة يتأذىٰ بها، كما يتأذىٰ من يشم رائحة النَّتْن، ويظهر ذلك كثيرًا في عرقه، حتىٰ ليوجد لرائحة عرقه نتنا. فإن نَتْن الروح والقلب يتصل بباطن البدن أكثر من ظاهره. والعرق يفيض من الباطن.

ولهذا كان الرجل الصالح طيب العرق. وكان رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم أطيب الناس عرقًا. قالت أم سليم، وقد سألها رسول الله عليه الصلاة والسلام عنه، وهي تلتقطه: «هو من أطيب الطيب»[(١)].

فالنفس النجسة الخبيثة يقوىٰ خبثها ونجاستها حتىٰ يبدو علىٰ الجسد. والنفس الطيبة بضدها، فإذا تجردت وخرجت من البدن وجد لهذه كأطيب نفحة مسك وُجدت علىٰ وجه الأرض، ولتلك كأنتن ريح جيفة وجدت علىٰ وجه الأرض[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٣١) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٧٣) (١١/ ٧٢) وشرح النووي (١٥/ ٨٦-٨٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٤٩٤-٤٩٦ رقم ٧٢٠) وابن حبان (٧/ ٢٨٤ رقم ٣٠١٤) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٦٠٣ رقم ١٩٥٩) وفي الصغرىٰ (رقم ١٨٣٣) وابن أبي شيبة =

والمقصود: أن الشرك لما كان أظلم الظلم، وأقبح القبائح، وأنكر المنكرات، كان أبغض الأشياء إلى الله تعالى وأكرهها له، وأشدها مقتا لديه. ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه، وأخبر أنه لا يغفره، وأن أهله نجس، ومنعهم من قربان حرمه، وحرم ذبائحهم ومناكحتهم، وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين، وجعلهم أعداء له سبحانه ولملائكته ورسله وللمؤمنين، وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يتخذوهم عبيدًا، وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبية، وتنقيص لعظمة الإلهية، وسوء ظن برب العالمين...

[(١)] الأمكنة التي يمنع أهل الذمة من دخولها والإقامة بها. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: بينما نحن في المسجد خرج علينا النبي ﷺ فقال: «انطلقوا إلى يهود» فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس، فقام النبي ﷺ فناداهم فقال: «يا معشر اليهود، أسلموا تسلموا»، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال: «ذلك أريد»، فقال: «أسلموا تسلموا»، فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ذلك أريد» ثم قالها الثالثة فقال: «اعملوا أنما الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن وجد منكم بماله شيئًا فليبعه، وإلا فاعلموا أنما الأرض لله ورسوله»[(٢)] متفق عليه، ولفظه للبخاري؛ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يوم الخميس، وما يوم الخميس! قال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فقال: «ائتوني

(٣/ ٥٤-٥٥ رقم ١٢٠٥٩) والطيالسي (رقم ٧٥٣) قال المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٨ رقم ٥٣٩٧): رواه ابن حبان في صحيحه وهو عند ابن ماجه بنحوه بإسناد صحيح.

(١) ١٧٥ أحكام جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٩٤٤) ومسلم (رقم ١٧٦٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٠٣) وشرح النووي (١٢/ ٩٠).

بكتف أكتب لكم كتابًا لا تضلون بعده أبدًا»؛ فتنازعوا ـ ولا ينبغي عند نبي تنازع ـ فقالوا: ما له؟ أهجر؟ استفْهِموه، فقال: «ذروني، الذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه». فأمرهم بثلاث فقال: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو مما كنت أجيزهم»، والثالثة إما سكت عنها، وإما قالها فنسيتها. متفق عليه ولفظه للبخاري[(١)]...

***

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

[(٢)]أما أبو حنيفة رحمه الله تعالىٰ فعنده: لهم دخول الحرم كله حتىٰ الكعبة نفسها، ولكن لا يستوطنون به، وأما الحجاز فلهم الدخول إليه والتصرف فيه والإقامة بقدر قضاء حوائجهم، وكأن أبا حنيفة رحمه الله تعالىٰ قاس دخولهم مكة علىٰ دخولهم مسجد رسول الله ﷺ ولا يصح هذا القياس، فإن لحرم مكة أحكامًا يخالف بها المدينة، علىٰ أنها ليست عنده حَرمًا.

فإن قيل: الله سبحانه إنما منع المشركين من قربان المسجد الحرام، ولم يمنع أهل الكتاب منه: ولهذا أذن مؤذن النبي ﷺ يوم الحج الأكبر: «أنه لا يحج بعد العام

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٦٨) ومسلم (رقم ١٦٣٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٣٢) وشرح النووي (١١/ ٨٩).

(٢) ١٨٨ أحكام جـ١.

مشرك»(١) والمشركون الذين كانوا يحجون هم عبدة الأوثان لا أهل الكتاب، فلم يتناولهم المنع.

قيل: للناس قولان في دخول أهل الكتاب في لفظ المشركين، فابن عمر وغيره كانوا يقولون: هم من المشركين، قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لا أعلم شركًا أعظم من أن يقول: المسيح ابن الله وعُزَير ابن الله(٢)! وقد قال تعالى فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

والثاني: لا يدخلون في لفظ المشركين لأن الله سبحانه جعلهم غيرهم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ [الحج: ١٧]. قال شيخنا: «والتحقيق أن أصل دينهم دين التوحيد، فليسوا من المشركين في الأصل، والشرك طارئ عليهم، فهم منهم باعتبار ما عرض لهم لا باعتبار أصل الدين، فلو قدر أنهم لم يدخلوا في لفظ الآية دخلوا في عمومها المعنوي، وهو كونهم نجسًا، والحكم يعم بعموم علته».

فإن قيل: فالآية نبهت على دخولهم الحرم عوضًا عن دخول عباد الأوثان، فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٢٨]. فإنها لما نزلت انقطع عنهم ما كان المشركون يجلبون إليهم من الميرة، فأعاضهم الله بالجزية.

قيل: ليس في هذا ما يدل على دخول أهل الجزية المسجد الحرام بوجه ما، بل تؤخذ منهم الجزية وتحمل إلى من بالمسجد الحرام وغيره على أن الإغناء من فضل الله وقع بالفتوح والفيء والتجارات التي حملها المسلمون إلى مكة.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٩) ومسلم (رقم ١٣٤٧) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣١٩-٣٢٠) وشرح النووي (٩/ ١١٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٨٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤١٧).

فإن قيل: فالآية إنما منعت قربانهم المسجد الحرام خاصة فمن أين لكم تعميم الحكم للحرم كله؟

قيل: المسجد الحرام يراد به في كتاب الله تعالىٰ ثلاثة أشياء: نفس البيت، والمسجد الذي حوله، والحرم كله؟

فالأول كقوله تعالىٰ: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

والثاني: كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥]. علىٰ أنه قد قيل: إن المراد به هاهنا الحرم كله، والناس سواء فيه.

والثالث: كقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]. وإنما أسرىٰ به من داره من بيت أم هانئ.

وجميع الصحابة والأئمة فهموا من قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]. أن المراد مكة كلها والحرم، ولم يخص ذلك أحد منهم بنفس المسجد الذي يطاف فيه.

ولما نزلت هذه الآية كانت اليهود بخيبر وما حولها ولم يكونوا يمنعون من المدينة، كما في الصحيح أن رسول الله ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي علىٰ طعام أخذه لأهله[(١)] فلم يجلهم رسول الله ﷺ عند نزولها من الحجاز وأمر مؤذنه أن يؤذن بأن «**لا يحج بعد العام مشرك**».

فإن قيل: فما تقولون في دخولهم مساجد الحل؟

قيل: إن دخلوها بغير إذن منعوا من ذلك ولم يمكنوا منه، لأنهم نجس والجنب والحائض أحسن حالا منهم، وقد منعا من دخول المساجد، وإن دخلوها بإذن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩١٦) ومسلم (رقم ١٦٠٣) وانظر: فتح الباري (٥/ ١٤٢-١٤٤) وشرح النووي (١٢/ ٧٠) (١٣/ ٢١١).

مسلم، ففيه قولان للفقهاء، هما روايتان عن أحمد.

ووجه الجواز أن رسول الله ﷺ أنزل الوفود من الكفار في مسجده، فأنزل فيه وفد نجران ووفد ثقيف وغيرهم.

وقال سعيد بن المسيب: كان أبو سفيان يدخل مسجد المدينة وهو على شركه، وقدم عمير بن وهب ـ وهو مشرك ـ فدخل المسجد، والنبي ﷺ فيه ليفتك به، فرزقه الله تعالى الإسلام(١).

ووجه المنع أنهم أسوأ حالاً من الحائض والجنب، فإنهم نجس بنص القرآن. والحائض والجنب ليسا بنجس بنص السنة.

ولما دخل أبو موسى على عمر بن الخطاب وهو في المسجد أعطاه كتابا فيه حساب عمله، فقال له عمر: ادع الذي كتبه ليقرأه، فقال: إنه لا يدخل المسجد قال: ولم؟ قال: إنه نصراني(٢). وهذا يدل على شهرة ذلك بين الصحابة، ولأنه قد انضم إلى حدث جنابته حدث شركه فتغلظ المنع.

وأما دخول الكفار مسجد النبي ﷺ فكان ذلك لما كان بالمسلمين حاجة إلى ذلك، ولأنهم كانوا يخاطبون النبي ﷺ في عهودهم، ويؤدون إليه الرسائل، ويحملون منه الأجوبة، ويسمعون منه الدعوة، ولم يكن النبي ﷺ ليخرج من المسجد لكل من قصده من الكفار، فكانت المصلحة في دخولهم إذ ذاك.المسجد لكل من قصده من الكفار فكانت المصلحة في دخولهم إذ ذاك أعظم من المفسدة التي فيه، بخلاف الجنب والحائض، فإنه كان يمكنهما التطهر والدخول إلى المسجد، وأما الآن فلا مصلحة للمسلمين في دخولهم مساجدهم والجلوس فيها، فإن دعت إلى ذلك مصلحة راجحة جاز دخولها بلا إذن. والله أعلم.

---

(١) انظر: المغني (٩/ ٢٨٧).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١٢٧ رقم ٢٠١٩٦) وفي شعب الإيمان (٧/ ٤٣ رقم ٩٣٨٤) وانظر: المغني (٩/ ٢٨٧) (١٠/ ١١٤).

[(١)]وأجاب: أما سبب وضع الجزية فهو قوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

فأجمع الفقهاء على أن الجزية تؤخذ من أهل الكتاب ومن المجوس، وكان عمر بن الخطاب ﷺ قد توقف في أخذ الجزية من المجوس، حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر.[(٢)] ذكره البخاري.

وذكر الشافعي أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس، فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «سنّوا بهم سنة أهل الكتاب»[(٣)]. وهذا صريح في أنهم ليسوا من أهل الكتاب...

[(٤)]والمقصود ذكر بعض الحكمة في إبقاء أهل الكتاب بالجزية، وهذه الحكمة منتفية في حق غيرهم، فيجب قتالهم حتى يكون الدين كله لله.

والمسألة مبنية على حرف: وهو أن الجزية هل وضعت عاصمة للدم، أو مظهرًا لصغار الكفر وإذلال أهله؛ فهي عقوبة؟ فمن راعى فيها المعنى الأول قال: لا يلزم من عصمها لدم من خف كفره بالنسبة إلى غيره ـ وهم أهل الكتاب ـ أن تكون عاصمة لدم من يغلظ كفره.

ومن راعى فيها المعنى الثاني قال: المقصود إظهار صَغار الكفر وأهله وقهرهم؛

---

(١) ١ أحكام جـ١.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١٥٦، ٣١٥٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٦١).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ١٨٩ رقم ١٨٤٣٤) والشافعي في مسنده (ص ٢٠٩) وفي الأم (٤/ ١٧٤) وابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٥ رقم ١٠٧٦٥) وعبد الرزاق (٦/ ٦٨-٦٩ رقم ١٠٠٢٥) ومالك (١/ ٢٧٨ رقم ٦١٦) والبزار (٣/ ٢٦٤-٢٦٥ رقم ١٠٥٦) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٢٦١): وهذا منقطع مع ثقة رجاله، وقال الذهبي في تذكرة الحفاظ (١/ ١٦٧): هذا منقطع الإسناد. وضعفه الزيلعي في نصب الراية (٣/ ١٧٠) (٤/ ١٨١).

(٤) ١٥ أحكام جـ١.

وهذا أمر لا يختص أهل الكتاب بل يعم كل كافر.

قالوا: وقد أشار النص إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾[التوبة: ٢٩] فالجزية صغار وإذلال. ولهذا كانت بمنزلة ضرب الرق.

قالوا: وإذا جاز إقرارهم بالرق على كفرهم جاز إقرارهم عليه بالجزية بالأولى، لأن عقوبة الجزية أعظم من عقوبة الرق؛ ولهذا يسترق من لا تجب عليه الجزية من النساء والصبيان وغيرهم...

(١)**فإن قيل**: فالنبي ﷺ لم يأخذها من أحد من عبَّاد الأوثان مع كثرة قتاله لهم.

قيل: أجل، وذلك لأن آية الجزية إنما نزلت عام «تبوك» في السنة التاسعة من الهجرة بعد أ ن أسلمت جزيرة العرب، ولم يبق بها أحد من عباد الأوثان، فلما نزلت آية الجزية أخذها النبي ﷺ ممن بقي على كفره من النصارى والمجوس. ولهذا لم يأخذها من يهود المدينة حين قدم المدينة، ولا من يهود خيبر؛ لأنه صالحهم قبل نزول آية الجزية، وهذه الشبهة هي التي أوقعت عند اليهود أن أهل خيبر لا جزية عليهم، وأنهم مخصوصون بذلك من جملة اليهود، ثم أكدوا أمرها بأن زوروا كتابًا فيه أن رسول الله ﷺ أسقط عنهم الكلف والسُّخر والجزية، ووضعوا فيه شهادة سعد بن معاذ، ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهما، وهذا الكتاب كذب مختلق بإجماع أهل العلم من عشرة أوجه...

(٢)**أحدها**: أنَّ فيه «شهادة سعد بن معاذ». وسعد قد توفي قبلَ ذلك في غزوة الخندق.

ثانيها: أن فيه «وكتب معاوية بن أبي سفيان». هكذا، ومعاوية إنما أسلم زمن الفتح، وكان من الطلقاء.

ثالثها: أن الجزية لم تكن نزلت حينئذ، ولا يعرفها الصحابة ولا العرب، وإنما

(١) ٦ أحكام جـ١.
(٢) ١٠٢ المنار.

أنزلت بعد عام تبوك، وحينئذ وضعها النبي ﷺ على نصارى نجران ويهود اليمن، ولم تؤخذ من يهود المدينة، لأنهم وادعوه قبل نزولها، ثم قتل من قتل منهم، وأجلى بقيتهم إلى خيبر وإلى الشام، وصالحه أهل خيبر قبل فرض الجزية، فلما نزلت آية الجزية استقرَّ الأمر على ما كان عليه، وابتدأ ضربها على من لم يتقدم له معه صلح، فمن هاهنا وقعت الشبهة في أهل خيبر.

رابعها: أن فيه «وضع عنهم الكلف والسخر» ولم يكن في زمانه كلف ولا سخر ولا مكوس.

خامسها: أنه لم يجعل لهم عهدًا لازمًا، بل قال: «**نقركم ما شئنا**»[1]. فكيف يضع عنهم الجزية التي يصير لأهل الذمة بها عهدٌ لازمٌ مؤبَّد، ثم لا يثبت لهم أمانًا لازمًا مؤبدًا؟

سادسها: أن مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، فكيف يكون قد وقع، ولا يكون علمه عند حملة السنة: من الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، وينفرد بعلمه ونقله اليهود؟

سابعها: أن أهل خيبر لم يتقدم لهم من الإحسان ما يوجب وضع الجزية عنهم، فإنهم حاربوا الله ورسوله، وقاتلوه وقاتلوا أصحابه، وسلُّوا السيوف في وجوههم، وسموا النبي ﷺ وآووا أعداءه المحاربين له المحرضين على قتاله. فمن أين يقع هذا الاعتناءُ بهم؟ وإسقاط هذا الفرض الذي جعله الله عقوبة لمن لم يدن منهم بدين الإسلام؟

ثامنها: أن النبي ﷺ لم يسقطها عن الأبعدين، مع عدم معاداتهم له كأهل اليمن، وأهل نجران، فكيف يضعها عن جيرانه الأدنين، مع شدة معاداتهم له، وكفرهم وعنادهم؟ ومن المعلوم: أنه كلما اشتد كفر الطائفة وتغلظت عداوتهم، كانوا أحق بالعقوبة لا بإسقاط الجزية.

---

(١) انظر: فتح الباري (٥/ ١٤) وعمدة القاري (١٢/ ١٦٨) وعون المعبود (٨/ ١٧١).

تاسعها: أن النبي ﷺ لو أسقط عنهم الجزية ـ كما ذكروا ـ لكانوا من أحسن الكفار حالًا، ولم يحسن بعد ذلك أن يشترط لهم إخراجهم من أرضهم وبلادهم متىٰ شاء، فإن أهل الذمة الذين يقرون بالجزية لا يجوز إخراجهم من أرضهم وديارهم، ما داموا ملتزمين لأحكام الذمة، فكيف إذا روعي جانبهم بإسقاط الجزية، وأعفوا من الصغار الذي يلحقهم بأدائها؟ فأيُّ صغارٍ بعد ذلك أعظم من نفيهم من بلادهم، وتشتيتهم في أرض الغربة؟ فكيف يجتمع هذا وهذا؟

عاشرها: أن هذا لو كان حقًّا لما اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون والفقهاء كلهم علىٰ خلافه، وليس في الصحابة رجل واحد قال: لا تجب الجزية علىٰ الخيبرية، لا في التابعين، ولا في الفقهاء؛ بل قالوا: أهل خيبر وغيرهم في الجزية سواءٌ، وعرضوا بهذا الكتاب المكذوب، وقد صرحوا بأنه كذب، كما ذكر ذلك الشيخ أبو حامد، والقاضي أبو الطيب، والقاضي أبو يعلىٰ وغيرهم.

وذكر الخطيب البغدادي هذا الكتاب، وبين أنه كذبٌ من عدة وجوه[1]، وأحضر هذا الكتاب بين يدي شيخ الإسلام، وحوله اليهود يزفونه ويجلونه، وقد غشي بالحرير والديباج فلما فتحه وتأمله بزق عليه، وقال: هذا كذب من عدة أوجه، وذكرها، فقاموا من عنده بالذل والصغار.

[2]ومن تلاعب الشيطان بهم أيضًا أنهم لما حُرِّمت عليهم الشحوم أذابوها، ثم باعوها، وأكلوا ثمنها، وهذا من عدم فقههم وفهمهم عن الله تعالىٰ دينه. فإن ثمنها بدلٌ منها فتحريمها تحريمٌ لبدلها والمعاوضة عنها، كما أن تحريم الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير يتناول تحريم أعيانها وأبدالها.

ومن تلاعبه بهم أيضًا، اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، وقد لعنهم رسول الله ﷺ علىٰ ذلك، ولعنته تتناولُ فعلهم.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (١٢/ ١٠١-١٠٢).

(٢) ٣١٨ إغاثة جـ٢.

ومن تلاعبه بهم أيضًا: أنهم كانوا يقتلون الأنبياء الذين لا تنال الهداية إلا على أيديهم، ويتخذون أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله تعالى، يحرمون عليهم ويحلون لهم، فيأخذون بتحريمهم وتحليلهم. ولا يلتفتون: هل ذلك التحريم، والتحليل من عند الله تعالى أم لا؟

قال عدي بن حاتم: أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فسألته عن قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]. فقلت: يا رسول الله، ما عبدوهم. فقال: «**حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فأطاعوهم. فكانت تلك عبادتهم إيَّاهم**» رواه الترمذي وغيره[١].

وهذا من أعظم تلاعب الشيطان بالإنسان؛ أن يقتل أو يقاتل من هداه على يديه، ويتخذ من لم تضمن له عصمته ندًّا لله يحرم عليه، ويحلل له.

ومن تلاعبه بهم: ما كان منهم في شأن زكريا ويحيى عليهما السلام، وقتلهم لهما حتى سلط الله عليهم بختنصر وسنجاريب وجنودهما. فنالوا منهم ما نالوه.

[٢]قال أبو عمر في الجامع: باب فساد التقليد ونفيه، والفرق بينه وبين الاتباع، قال أبو عمر: قد ذم الله تبارك وتعالى التقليد في غير موضع من كتابه فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ روي عن حذيفة وغيره وقال: لم يعبدوهم من دون الله، ولكنهم أحلوا لهم وحرموا عليهم فاتبعوهم[٣]. وقال عدي ابن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب فقال: «**يا عدي ألق هذا الوثن من عنقك**»

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٠٩٥) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٦ رقم ٢٠١٣٧) والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢ رقم ٢١٨) والبخاري في التاريخ الكبير (٧/ ١٠٦ رقم ٤٧١) والمزي في تهذيب الكمال (٢٣/ ١١٨-١١٩) والجرجاني في تاريخ جرجان (رقم ١١٦٢) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي وفي غاية المرام (رقم ٦).

(٢) ١٧١ أعلام جـ٢.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١١٥).

وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة حتى أتى على هذه الآية ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: فقلت: يا رسول الله إنا لم نتخذهم أربابا قال: «**بلى أليس يحلون لكم ما حرم عليكم فتحلونه، ويحرمون عليكم ما أحل لكم فتحرمونه**» فقلت بلى: قال: «**فتلك عبادتهم**»(١).

قلت: الحديث في المسند والترمذي مطولًا. وقال أبو البختري في قوله ﷻ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قال: «**أما إنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكنهم أمروهم فجعلوا حلال الله حرامه وحرامه حلاله، فأطاعوهم، فكانت تلك الربوبية**»(٢).

وقال وكيع: ثنا سفيان والأعمش جميعا عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي ثابت عن أبي البختري قال: قيل لحذيفة في قوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أكانوا يعبدونهم فقال: «**لا ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيحلونه، ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه**».

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

فمنعهم الاقتداء بآبائهم من قبول الاهتداء فقالوا: ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٤] وفي هؤلاء ومثلهم قال الله ﷻ: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]. وقال تعالى معاتبًا لأهل الكفر وذامًّا لهم: ﴿ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١١٤) والطبراني في الكبير (١٧/ ٩٢ رقم ٢١٨).
(٢) انظر: الإحكام لابن حزم (٦/ ٣١٧-٣١٨).

ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢، ٥٣]. وقال: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

ومثل هذا في القرآن كثير من ذم تقليد الآباء والرؤساء وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها، لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين المقلدين بغير حجة للمقلد، كما لو قلد رجلًا فكفر، وقلد آخر فأذنب، وقلد آخر في مسألة فأخطأ وجهها. كان كل واحد ملومًا على التقليد بغير حجة لأن كل ذلك تقليد يشبه بعضه بعضًا، وإن اختلفت الآثام فيه، وقال الله ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥].

[١]ومن نظر في ذلك وتأمله: علم أن الله سبحانه شهد لرسوله أصدق الشهادة، وأعدلها وأظهرها، وصدقه[٢] بسائر أنواع التصديق: بقوله الذي أقام البراهين على صدقه فيه، وبفعله وإقراره، وبما فطر عليه عباده: من الإقرار بكماله، وتنزيهه عن القبائح، وعما لا يليق به. وفي كل وقت يُحدث من الآيات الدالة على صدق رسوله ما يقيم به الحجة، ويزيل به العذر، ويحكم له ولأتباعه بما وعدهم به من العز والنجاة والظفر والتأييد، ويحكم على أعدائه ومكذبيه بما توعدهم به: من الخزي والنكال والعقوبات المعجلة، الدالة على تحقيق العقوبات المؤجلة ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [الفتح: ٢٨] فيظهره ظهورين: ظهورًا بالحجة، والبيان، والدلالة وظهورًا بالنصر والظفر والغلبة، والتأييد. حتى يظهره على مخالفيه ويكون منصورًا.

***

(١) ٤٧٠ مدارج جـ٣.

(٢) الإشارة إلى ما ذكره من الأدلة على صدق الرسول ﷺ عقليها ونقليها وفطريها وضروريها ونظريها ا.هـ (ج).

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ ﴾.

(١) معنى النسيء تأخير رجب إلى شعبان، والمحرم إلى صفر، وأصله مأخوذ من نسأت الشيء إذا أخرته، ومنه النسيئة في البيع، وكان من جملة ما يعتقدونه من الدين تعظيم هذه الأشهر الحرم، فكانوا يتحرجون فيها: عن القتال وعن سفك الدماء، ويأمن بعضهم بعضًا، إلى أن تنصرم هذه الأشهر، ويخرجوا إلى أشهر الحلِّ، فكان أكثرهم يتمسكون بذلك، ولا يستحلون القتال فيها، وكان قبائل منهم يستبيحونها، فإذا قاتلوا في شهر حرام حرَّموا مكانه شهرًا آخر من أشهر الحل، ويقولون: نسأنا الشهر، واستمر ذلك بهم حتى اختلط ذلك عليهم، وخرج حسابه من أيديهم، فكانوا ربما يحجون في بعض السنين في شهر، ويحجون من قابل في شهر غيره، إلى أن كان العام الذي حج فيه رسول الله ﷺ فصادف حجهم شهر الحج المشروع، وهو ذو الحجة، فوقف بعرفة اليوم التاسع منه، ثم خطبهم فأعلمهم أن أشهر النسيء قد تناسخت باستدارة الزمان، وعاد الأمر إلى الأصل الذي وضع الله...

(٢) وعير سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨]، وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها، يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

---

(١) ٤٠٧ تهذيب السنن جـ٢.

(٢) ٩٥ فوائد.

[١]لما بايع الرسول ﷺ أهل العقبة أمر أصحابه بالهجرة إلىٰ المدينة، فعلمت قريش أن أصحابه قد كثروا وأنهم سيمنعونه، فأعملت آراءها في استخراج الحيل، فمنهم من رأىٰ الحبس، ومنهم من رأىٰ النفي. ثم اجتمع رأيهم علىٰ القتل، فجاء البريد بالخبر من السماء، وأمره أن يفارق المضجع، فبات عليٌّ مكانه ونهض الصديق لرفقة السفر. فلما فارقا بيوت مكة اشتد الحذر بالصدّيق، فجعل يذكر الرصد فيسير أمامه، وتارة يذكر الطلب فيتأخر وراءه، وتارة عن يمينه، وتارة عن شماله، إلىٰ أن انتهيا إلىٰ الغار، فبدأ الصدّيق بدخوله ليكون وقاية له إن كان ثم مؤذ. وأنبت الله شجرة لم تكن قبل، فأظلّت المطلوب وأضلّت الطالب، وجاءت عنكبوت فحازت وجه الغار، فحاكت ثوب نسجها علىٰ منوال الستر[٢]، فأحكمت الشقة حتىٰ عمي علىٰ القائف المطلب، وأرسل الله حمامتين فاتخذتا هناك عشًّا جعل علىٰ أبصار الطالبين غشاوة، وهذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود.فلما وقف القوم علىٰ رؤوسهم وصار كلامهم بسمع الرسول ﷺ والصدّيق، قال الصدّيق وقد اشتد به القلق: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلىٰ ما تحت قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[٣]؟

لما رأىٰ رسول الله ﷺ حزنه قد اشتد، لكن لا علىٰ نفسه، قوي قلبه ببشارة: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[٤] [التوبة: ٤٠]. فظهر سر هذا الاقتران في المعية لفظًا، كما ظهر حكمًا ومعنى، إذ يقال: رسول الله وصاحب رسول الله، فلما مات ﷺ قيل: خليفة رسول الله، ثم انقطعت إضافة الخلافة بموته، فقيل: أمير المؤمنين. فأقاما في الغار

---

(١) ٧٠ فوائد.

(٢) يأتي في سورة يس إن شاء الله بسط هذا (ج).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٥٣) ومسلم (رقم ٢٣٨١) وانظر: فتح الباري (٧/ ١١) وشرح النووي (١٥/ ١٤٩-١٥٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٥٢) ومسلم (رقم ٢٠٠٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ١١).

ثلاثًا ثم خرجا منه، ولسان القدر يقول: لتدخلنها دخولًا لم يدخله أحد قبلك، ولا ينبغي لأحد من بعدك». فلما استقلا على البيداء، لحقهما سراقة بن مالك، فلما شارف الظفر أرسل عليه الرسول ﷺ سهما من سهام الدعاء، فساخت قوائم فرسه في الأرض إلى بطنها[(١)]، فلما علم أنه لا سبيل له عليهما أخذ يعرض المال على من قد رد مفاتيح الكنوز، ويقدم الزاد إلى شبعان: «**أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني**»[(٢)]. كانت تحفة ثاني اثنين مدخرة للصديق، دون الجميع، فهو الثاني في الإسلام، وفي بذل النفس، وفي الزهد، وفي الصحبة، وفي الخلافة، وفي العمر، وفي سبب الموت؛ لأن الرسول ﷺ مات عن أثر السم، وأبو بكر سم فمات، أسلم على يديه من العشرة: عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص. وكان عنده يوم أسلم أربعون ألف درهم، فأنفقها أحوج ما كان الإسلام إليها، فلهذا جلبت نفقته عليه: «**ما نفعني مال، ما نفعني مال أبي بكر**»[(٣)]. فهو خير من مؤمن آل فرعون؛ لأن ذلك كان يكتم إيمانه، والصدّيق أعلن به، وخير من مؤمن آل ياسين؛ لأن ذلك جاهد ساعة والصديق جاهد سنين.

عاين طائر الفاقة يحوم حول حب الإيثار، ويصيح: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فألقى له حب المال على روض الرضا واستلقى على فراش الفقر، فنقل الطائر الحب إلى حوصلة المضاعفة ثم علا على أفنان شجرة الصدق، يغرد بفنون المدح، ثم قام في محاريب الإسلام يتلو: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢) وابن سعد في الطبقات (١/ ١٨٨، ٢٣٢) وانظر: صفة الصفوة (١/ ١٣٦) وسبل السلام (١/ ٨٣).

(٢) أخرجه بلفظ قريب البخاري (رقم ١٩٦٣) ومسلم (رقم ١١٠٣) وانظر: فتح الباري (٤/ ٢٠٣).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٥/ ٢٧٣ رقم ٦٨٥٨) وفي الموارد (رقم ٢١٦٦) والترمذي (رقم ٣٦٦١) وأحمد (٢/ ٢٥٣، ٣٦٦) وابن أبي عاصم (٢/ ٥٧٧ رقم ١٢٢٩) وابن ماجه (رقم ٩٤) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وقال الكناني في مصباح الزجاجة (١/ ١٦ رقم ٣٧): وهذا إسناد رجاله ثقات.

يُؤْتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴾[الليل: ١٧، ١٨].

نطقت بفضله الآيات والأخبار؛ واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار. فيا مبغضيه في قلوبكم من ذكره نار، كلما تليت فضائله علا عليهم الصغار. أترى لم يسمع الروافض الكفّار ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾[التوبة: ٤٠].

دعي إلى الإسلام فما تلعثم ولا أبى، وسار على المحجّة فما زال ولا كبا، وصبر في مدته من مدى العدى على وقوع الشبا، وأكثر في الإنفاق فما قلل حتى تخلل بالعبا. تالله لقد زاد على السبك في كل دينار دينار ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾.

من كان قرين النبي في شبابه؟ من ذا الذي سبق إلى الإيمان من أصحابه؟ من الذي أفتى بحضرته سريعًا في جوابه؟ من أوّل من صلّى معه؟ ومن آخر من صلّى به؟ من الذي ضاجعه بعد الموت في ترابه، فاعرفوا حق الجار.

نهض يوم الردة بفهم واستيقاظ، وأبان من نص الكتاب معنى دق عن حديد الإلحاظ، فالمحب يفرح بفضائله والمبغض يغتاظ.

حسرة الرافضي أن يفر من مجلس ذكره، ولكن أين الفرار.

كم وقى الرسول بالمال والنفس، وكان أخص به في حياته وهو ضجيعه في الرمس. فضائله جلية وهي خليّة عن اللبس. يا عجبًا! من يغطي عين ضوء الشمس في نصف النهار.

لقد دخلا غارا لا يسكنه لابث، فاستوحش الصديق من خوف الحوادث، فقال الرسول ﷺ: «ما ظنّك باثنين والله الثالث».

فنزلت السكينة فارتفع خوف الحادث. فزال القلق وطاب عيش الماكث. فقام مؤذن النصر ينادي على رؤوس منائر الأمصار: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾.

حبه والله رأس الحنيفية، وبغضه يدل على خبث الطوية. فهو خير الصحابة والقرابة، والحجة على ذلك قوية. لولا صحة إمامته ما قال ابن الحنفية: مهلًا مهلاً!! فإن دم الروافض قد فار، والله ما أحببناه لهوانا، ولا نعتقد في غيره هوانا، ولكن أخذنا

بقول عليٍّ وكفانا: رضيك رسول الله لديننا، أفلا نرضاك لدنيانا تالله لقد أخذت من الروافض بالثأر. تالله لقد وجب حق الصدّيق علينا، فنحن نقضي بمدائحه، ونقر بما نقر به من السني عينًا، فمن كان رافضيا فلا يعد إلينا، وليقل: لي أعذار.

[١]إن من عرف الله أحبه ولابد، ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان، وعمر قلبه بالسرور والأفراح، وأقبلت إليه وفود التهاني والبشائر من كل جانب، فإنه لا حزن مع الله أبدًا، ولهذا قال حكاية عن نبيه ﷺ إنه قال لصاحبه أبي بكر: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ فدل أنه لا حزن مع الله، وأن من كان الله معه فما له وللحزن! وإنما الحزن كل الحزن لمن فاته الله، فمن حصل الله له فعلى أي شيء يحزن؟ ومن فاته الله فبأي شيء يفرح؟

***

﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

[٢]فقال تعالى: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾[التوبة: ٤٦].

والتثبيط رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله، قال ابن عباس: يريد خذلهم وكسلهم

(١) ٢٨٠ طريق الهجرتين.
(٢) ١٠١ شفاء العليل.

عن الخروج، وقال في رواية أخرى: حبسهم، قال مقاتل، وأوحى إلى قلوبهم اقعدوا مع القاعدين. وقد بين سبحانه حكمته في هذا التثبيط والخذلان قبل وبعد، فقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾[التوبة: ٤٥، ٤٦].

فلما تركوا الإيمان به وبلقائه، وارتابوا بما لا ريب فيه، ولم يريدوا الخروج في طاعة الله، ولم يستعدوا له، ولا أخذوا أهبة ذلك، كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه. فإن من لم يرفع به وبرسوله أو كتابه رأسًا، ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب خلقه إليه وأكرمهم عليه، ولم يعرف قدر هذه النعمة ولا شكرها، بل بدلها كفرًا، فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهه الله سبحانه؛ فثبطه لئلا يقع ما يكره من خروجه، وأوحى إلى قلبه قدرًا وكونًا أن يقعد مع القاعدين.

ثم أخبر سبحانه عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء عنهم، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾[التوبة: ٤٧].

والخبال الفساد والاضطراب فلو خرجوا مع المؤمنين؛ لأفسدوا عليهم أمرهم، فأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلاف، قال ابن عباس: ما زادوكم إلا خبالًا عجزًا وجبنًا يعني يجبنوهم عن لقاء العدو: بتهويل أمرهم وتعظيمهم في صدورهم، ثم قال: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ﴾[التوبة: ٤٧] أي أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد.

قال ابن عباس: يريد ضعفوا شجاعتكم، يعني بالتفريق بينهم لتفرق الكلمة فيجبنوا عن العدو، وقال الحسن: لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات البين، وقال الكلبي: ساروا بينكم يبغونكم العيب، قال لبيد:

أرانا موضعين لأمر غيب ... ونسحر بالطعام وبالشراب[1]

(١) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلى امرئ القيس أشهر شعراء العرب على الإطلاق، يروى أنه حامل لواء الشعر في جهنم يوم القيامة والعياذ بالله، مات سنة ٨٠ قبل الهجرة. وذكر البيت ابن منظور في =

أي: مسرعين، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

تبـا لهـن بالعرفـان لـما عرفنني وقلـن امـرؤ بـاغ أكـل وأوضـعا[١]

أي: أسرع حتى كلت مطيته: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] قال قتادة: وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم.

وقال ابن إسحاق: وفيكم قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم، ومعناه على هذا القول... وفيكم أهل سمع وطاعة لهم لو صحبهم هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم[٢]، قلت: فتضمن سماعين معنى مستجيبين.

وقال مجاهد وابن زيد والكلبي. المعنى وفيكم عيون لهم ينقلون إليهم يسمعون منكم أي: جواسيس.

والقول هو الأول كما قال تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١] أي قابلون له، ولم يكن في المؤمنين جواسيس للمنافقين، فإن المنافقين كانوا مختلطين بالمؤمنين ينزلون معهم، ويرحلون ويصلون معهم، ويجالسونهم، ولم يكونوا متحيزين عنهم، قد أرسلوا فيهم العيون ينقلون إليهم أخبارهم؛ فإن هذا إنما يفعله من انحاز عن طائفة ولم يخالطها، وأرصد بينهم عيونًا له، فالقول قول قتادة وابن إسحاق والله أعلم.

فإن قيل: انبعاثهم إلى طاعته له فكيف يكرهها، وإذا كان سبحانه يكرهها فهو يحب

= لسان العرب (٤/ ٣٤٩) ونسبه إلى امرئ القيس. وكذا فعل الحموي في معجم البلدان (٤/ ٤٧٣) ونسبه أيضًا إلى امرئ القيس، وفيهما «لأمر غيب».

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، أرق شعراء عصره، من طبقة جرير والفرزدق، ولد في الليلة التي مات فيها عمر بن الخطاب فسمي باسمه، ولما علم عمر بن عبد العزيز أنه يتعرض للنساء ويشبب بهن نفاه إلى دهلك، ثم غزا البحر فغرق سنة ٩٣هـ. ذكر البيت ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١١/ ٢٦٤) ونسبه إلى عمر بن أبي ربيعة وفيه: «لما نكرنني» بدل: «لما عرفنني».

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٤٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٢).

ضدها لا محالة؟ إذ كراهة أحد الضدين تستلزم محبة الضد الآخر، فيكون قعودهم محبوبًا له، فكيف يعاقبهم عليه.

قيل: هذا سؤال له شأن وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب، وأجوبة الطوائف على حسب أصولهم.

فالجبرية تجيب عنه بأن أفعاله لا تعلل بالحكم والمصالح، وكل ممكن فهو جائز عليه، ويجوز أن يعذبهم على فعل ما يحبه ويرضاه، وترك ما يبغضه ويسخطه، والجميع بالنسبة إليه سواء، وهذه الفرقة قد سدت على نفسها باب الحكمة والتعليل.

والقدرية تجيب عنه على أصولها بأنه سبحانه لم يثبطهم حقيقة ولم يمنعهم؛ بل هم منعوا أنفسهم وثبطوها عن الخروج، وفعلوا ما لا يريد، ولما كان في خروجهم المفسدة التي ذكرها الله سبحانه ألقى في نفوسهم كراهة الخروج مع رسوله.

قالوا: وجعل سبحانه إلقاء كراهة الانبعاث في قلوبهم كراهة مشيئة من غير أن يكره هو سبحانه انبعاثهم، فإنه أمرهم به. قالوا: وكيف يأمرهم بما يكرهه؟ ولا يخفى على من نوَّر الله بصيرته فساد هذين الجوابين وبعدهما من دلالة القرآن.

فالجواب الصحيح: أنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره واتّباعًا لرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ونصرة له وللمؤمنين، وأحب ذلك منهم ورضيه لهم دينا، وعلم سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقع على هذا الوجه، بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين، فكان خروجا يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه، ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه، فكان مكروهًا له من هذا الوجه، ومحبوبًا له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه، وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه إليه فكرهه، وعاقبهم على ترك الخروج الذي يحبه ويرضاه لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه.

وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه ولم يرضه منهم، وهذا الخروج المكروه له ضدان:

أحدهما: الخروج المرضي المحبوب، وهذا الضد هو الذي يحبه.

والثاني: التخلف عن رسوله والقعود عن الغزو معه، وهذا الضد يبغضه ويكرهه أيضًا، وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا ينافي كراهته لهذا الضد.

فنقول للسائل: قعودهم مبغوض له، ولكن ههنا أمران مكروهان له سبحانه، وأحدهما أكره له من الآخر، لأنه أعظم مفسدة، فإن قعودهم مكروه له، وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه، ولم يكن لهم بد من أحد المكروهين إليه سبحانه فدفع المكروه الأعلى بالمكروه الأدنى، فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه، فإن مفسدة قعودهم تختص بهم، ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين، فتأمل هذا الموضع.

فإن قلت: فهلا وفقهم للخروج الذي يحبه ويرضاه، وهو الذي خرج عليه المؤمنون.

قلت: قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مرارا، وأن حكمته سبحانه تأبى أن يضع التوفيق في غير محله وعند غير أهله، فالله أعلم حيث يجعل هداه وتوفيقه وفضله، وليس كل محل يصلح لذلك، ووضع الشيء في غير محله لا يليق بحكمته.

فإن قلت: وعلى ذلك فهلا جعل المحال كلها صالحة.

قلت: يأباه كمال ربوبيته وملكه وظهور آثار أسمائه وصفاته في الخلق والأمر، وهو سبحانه لو فعل ذلك لكان محبوبا له، فإنه يحب أن يذكر ويشكر ويطاع ويوحد ويعبد، ولكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه من استواء أقدام الخلائق في الطاعة والإيمان وهو محبته لجهاد أعدائه والانتقام منهم وإظهار قدر أوليائه وشرفهم، وتخصيصهم بفضله، وبذل نفوسهم له في معاداة من عاداه، وظهور عزته وقدرته وسطوته، وشدة أخذه، وأليم عقابه، وأضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيل للخلق ولو تناهوا في العلم والمعرفة إلى الإحاطة بها، ونسبة ما عقلوه منها إلى ما خفي عليهم كنقرة عصفور في بحر.

[(١)] فأهل الانقطاع هم المتخلفون عن صحبة الركب، وهـذا الوفد هم الذين ﴿ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦] فثبط عزائمهم وهممهم أن تسير إليه وإلىٰ جنته، وأمر قلوبهم أمرًا كونيًّا قدريًّا أن تقعد مع القاعدين المتخلفين عن السعي إلىٰ محابه، فلو عاينت قلوبهم حين أمرت بالقعود عن مرافقة الوفد، وقد غمرتها الهموم، وعقدت عليها سحائب البلاء. فأحضرت كل حزن وغم، وأمواج القلق والحسرات تتقاذف بها، وقد غابت عنها المسرات، ونابت عنها الأحزان ـ لعلمت أن الأبرار في هذه الدار في نعيم، وأن المتخلفين عن رفقتهم في جحيم.

وهذا الحزن يذهب به ذوق طعم الإيمان، فيذيق الصديق طعم الوعد الذي وعد به علىٰ لسان الرسول، فلا يعقله ظن، ولا يقطعه أمل. ولا تعوقه أمنية ـ كما تقدم ـ فيباشر قلبه حقيقة قوله تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾ [القصص: ٦١]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٢٣] وأمثال هذه الآيات.

[(٢)] فإن قلت: كيف يرضي لعبده شيئًا ولا يعينه عليه!

قلت: لأن إعانته عليه تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه تتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة؛ بحيث يكون وقوعها منه مستلزمًا لمفسدة راجحة ومفوتًا لمصلحة راجحة، وقد أشار تعالىٰ إلىٰ ذلك في قوله: ﴿ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ۝٤٦ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٦، ٤٧].

---

(١) ١٦٢ مدارج جـ٣.

(٢) ٢٠١ مدارج جـ٢.

فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم مع رسوله ﷺ للعزو. وهو طاعة وقربة، وقد أمرهم به، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه. ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي كانت سترتب على خروجهم لو خرجوا مع رسول الله ﷺ فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: فسادًا وشرًّا ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ﴾ أي: سعوا فيما بينكم بالفساد والشر ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: قابلون منهم مستجيبون لهم. فيتولد من بين سعي هؤلاء بالفساد وقبول أولئك منهم من الشر، ما هو أعظم من مصلحة خروجهم. فاقتضت الحكمة والرحمة: أن منعهم من الخروج، وأقعدهم عنه.

فاجعل هذا المثال أصلًا لهذا الباب. وقس عليه...

(١)قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] نزلت في الجد بن قيس لما غزا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، تبوك قال له: «**هل لك يا جد في جلاد بني الأصغر، تتخذ منهم السراري والوصفاء**» فقال جَدٌّ: ائذنْ لي في القعود عنك، فقد عرف قومي أني مغرم بالنساء، وأني أخشى إن رأيت بنات الأصفر أن لا أصبر عنهن، فأنزل الله تعالى، هذه الآية(٢)، قال ابن زيد: يريد لا تفتني بصباحة وجوههن، وقال أبو العالية: لا تعرِّضني للفتنة. وقوله تعالى: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ﴾ قال قتادة: «ما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، والرغبة بنفسه عنه أعظم».

فالفتنة التي فر منها ـ بزعمه ـ هي فتنة محبة النساء، وعدم صبره عنهن، والفتنة التي وقع فيها هي فتنة الشرك والكفر في الدنيا، والعذاب في الآخرة.

ولفظ الفتنة في كتاب الله تعالى يراد بها الامتحان الذي لم يفتتن صاحبه، بل خلص

---

(١) ١٥٨ إغاثة جـ٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٠/ ١٤٨-١٤٩) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢١٣) إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٣) وعمدة القاري (١٨/ ٢٥٤، ٢٥٨).

من الافتتان، ويراد بها الامتحان الذي حصل معه افتتان.

فمن الأول: قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩] وقوله: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ﴾.

ويطلق على ما يتناول الأمرين، كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣] ومنه قول موسى عليه السلام: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي امتحانك وابتلاؤك، تضل بها من وقع فيها، وتهدي من نجا منها[1].

***

﴿فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٥٥﴾.

[2]إن تعلق العبد بما سوى الله تعالى مضرة عليه، إذا أخذ منه فوق القدر الزائد على حاجته، غير مستعين به على طاعته، فإذا نال من الطعام والشراب والنكاح واللباس فوق حاجته ضره ذلك، ولو أحب سوى الله ما أحب، فلابد أن يسلبه ويفارقه، فإن أحبه لغير الله فلابد أن تضره محبته ويعذب بمحبوبه، إما في الدنيا وإما في الآخرة، والغالب أنه يعذب به في الدارين.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٤ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ

(١) تكملة البحث في الصافات والتغابن، وتقدم في سورة البقرة كما سيأتي في سياق غزوة تبوك آخر السورة إن شاء الله تعالى (ج).

(٢) ٣٥ إغاثة جـ١.

هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[التوبة: ٣٤، ٣٥].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾[التوبة: ٥٥].

ولم يصب من قال: إن الآية علىٰ التقديم والتأخير، كالجرجاني، حيث قال: ينتظم قوله: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بعد فصل آخر ليس بموضعه، علىٰ تأويل «فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا في الآخرة»(١).

وهذا القول يروىٰ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وهو منقطع، واختاره قتادة وجماعة، وكأنهم لما أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك، فروا إلىٰ التقديم والتأخير.

وأما الذين رأوا أن الآية علىٰ وجهها ونظمها فاختلفوا في هذا التعذيب.

فقال الحسن البصرىٰ: يعذبهم بأخذ الزكاة منها والإنفاق في الجهاد، واختاره ابن جرير(٢)، وأوضحه. فقال: العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه، إذ كان يؤخذ منه ذلك، وهو غير طيب النفس، ولا راج من الله جزاء، ولا من الآخذ منه حمدا ولا شكرا، بل علىٰ صغار منه وكره.

وهذا أيضًا عدول عن المراد بتعذيبهم فى الدنيا بها، وذهاب عن مقصود الآية.

وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم، وسبىٰ أولادهم فإن هذا حكم الكافر، وهم في الباطن كذلك.

وهذا أيضًا من جنس ما قبله فإن الله سبحانه أقر المنافقين، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر وتولىٰ سرائرهم، فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه من غنيمة أموالهم وسبىٰ أولادهم، فإن الإرادة هاهنا كونية بمعنىٰ المشيئة،

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ١٥٣) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٤).
(٢) أخرجه عنه كما في تفسيره (١٠/ ١٥٣).

وما شاء الله كان ولا بد، وما لم يشأ لم يكن.

الصواب، والله أعلم، أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهده على تحصيلها.

العذاب هنا هو الألم والمشقة والنصب، كقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ»(١). وقوله: «إِنَّ المَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»(٢). أي يتألم ويتوجع، لا أنه يعاقب بأعمالهم.

وهكذا من كانت الدنيا كل همه أو أكبر همه، كما قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره من حديث أنس ﷺ: «مَنْ كانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ في قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ. وَمَنْ كانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يأْتِهِ مِنَ الدُّنْيا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ»(٣).

ومن أبلغ العذاب في الدنيا: تشتيت الشمل وتفرق القلوب، وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب، على أن أكثرهم لا يزال يشكو أو يصرخ منه.

وفي الترمذي أيضاً عن أبي هريرة ﷺ عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٨٠٤) ومسلم (رقم ١٩٢٧) وانظر: فتح الباري (٣/ ٦٢٢-٦٢٤) وشرح النووي (١٣/ ٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٢٨٦) ومسلم (رقم ٩٢٨) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٥٤، ١٦٠) وشرح النووي (٦/ ٢٢٨-٢٣١).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٦٥) وابن ماجه (رقم ٤١٠٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٢٨٨ رقم ١٠٣٣٨) وهناد في الزهد (٢/ ٣٥٥ رقم ٦٦٩) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٣٠٧-٣٠٨) وبنحوه أخرجه ابن حبان (٢/ ٤٥٥ رقم ٦٨٠) والدارمي (رقم ٢٢٩) والطبراني في الكبير (٥/ ٤٣ رقم ٤٨٩١) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٥٦ رقم ٤٧٨٨): رواه ابن ماجه ورواته ثقات، وقال في موضع آخر (٤/ ٢١٢): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

«يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ابْنَ آدَم، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لا تَفْعَلْ مَلأْتُ يَدَيْكَ شُغْلا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»(١).

وهذا أيضًا من أنواع العذاب، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومحاربة أهلها إياه، ومقاساة معاداتهم.

كما قال بعض السلف: من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب. ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث: همّ لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي(٢). وذلك أن محبها لا ينال منها شيئا إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه.

كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: «لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى لَهُمَا ثَالِثًا»(٣). وقد مثل عيسى ابن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا(٤)...

***

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

(٥)أما الرغبة في الله إرادةُ وجهه، والشوق إلى لقائه فهي رأس مال العبد وملاك أمره

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٦٦) وابن ماجه (رقم ٤١٠٧) وابن حبان (٢/ ١١٩ رقم ٣٩٣) وأحمد (٢/ ٣٥٨) وابن أبي شيبة (٧/ ١٢٦ رقم ٣٤٦٩٩) وعبد الرزاق (١١/ ١٩٥ رقم ٢٠٣٠٥) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢١٦ رقم ٥٠٠) والحاكم (٤/ ٣٦٢ رقم ٧٩٢٦) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وحسنه الترمذي.

(٢) انظر: فيض القدير (٢/ ٣٦٩) وعزاه المناوي إلى الحسن البصري.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٣٦) ومسلم (رقم ١٠٤٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٢٥٤-٢٥٥) وشرح النووي (٧/ ١٣٩).

(٤) أخرج الخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ٤٩٣-٤٩٤ رقم ٤٨٤) بسنده أن عيسى عليه السلام قال: مثل طالب الدنيا كشارب ماء البحر كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا، وذكره ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٤٧/ ٤٣١) وزاد فيه: حتى يقتله.

(٥) ٤٣٢ روضة المحبين.

وقوامُ حياته الطيبة، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقرَّة عينه، ولذلك خلق، وبه أمر، وبذلك أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب.

ولا صلاح للقلب ولا نعيمَ إلا بأن تكونَ رغبته إلى الله ﷻ وحده، فيكون هو وحده مرغوبه ومطلوبه ومراده، كما قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الشرح: ٧، ٨]. وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ [التوبة: ٥٩].

والراغبون ثلاثة أقسام: راغب في الله، وراغب فيما عند الله، وراغبٌ عن الله، فالمحب راغبٌ فيه، والعاملُ راغبٌ فيما عنده، والراضي بالدنيا من الآخرة راغبٌ عنه، ومن كانت رغبته في الله كفاه الله كل مهم، وتولَّاه في جميع أموره، ودفع عنه ما لا يستطيع دفعه عن نفسه، ووقاه وقاية الوليد، وصانه من جميع الآفات، ومن آثر الله على غيره آثره الله على غيره، ومن كان لله كان الله له حيث لا يكون لنفسه، ومن عرف الله لم يكن شيء أحب إليه منه، ولم تبق له رغبة فيما سواه، إلا فيما يقربه إليه ويعينه على سفره إليه.

ومن علامات المعرفة الهيبة فكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت هيبته له وخشيته، إياه كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨] أي العلماء به...

[1]كان رهط من المنافقين، منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة، يقال له: مخشي بن حمير قال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم لبعض؟ والله، لكأنَّا بكم غدًا مقرنين في الحبال، إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين. فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل منا مائة جلدة وأنا ننقلب قبل أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول

(١) ٩ زاد المعاد جـ٣.

الله ﷺ لعمار بن ياسر: «أدرك القوم، فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار. فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت: كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥] فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، فكان الذي عفا عنه في هذه الآية، وتسمى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيدًا لا يعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر اهـ[1].

***

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

[2]تأمل قول الحق: ﴿ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] كيف عدل فيهم كل العدل بأن نسيهم كما

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٣١) وعزاه إلى ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن كعب ابن مالك، وقال أيضًا: وأخرجه ابن مردويه عن ابن عباس وذكره وذكرها أيضًا ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٦٨). والقصة أخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٣١ رقم ١٠٤٠٢) وانظر: الاستيعاب (٣/ ١٣٨١).

(٢) ٣٤٦ مختصر الصواعق جـ١.

نسوه، وأنساهم حظوظ أنفسهم ونعيمها وكمالها وأسباب لذاتها وفرحها، عقوبة لهم على نسيان المحسن إليهم بصنوف النعم، المتحبب إليهم بآلائه، فقابلوا ذلك بنسيان ذكره والإعراض عن شكره، فعدل فيهم بأن أنساهم مصالح أنفسهم فعطلوها، وليس بعد تعطيل مصلحة النفس إلا الوقوع فيما تفسد به وتتألم بفوته غاية الألم...

(١) قال تعالى: ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٩] فذكر تعالى الأصلين: وهما داء الأولين والآخرين:

أحدهما: الاستمتاع بالخلاق وهو النصيب من الدنيا، والاستمتاع به، متضمن لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر، بخلاف المؤمن فإنه وإن نال من الدنيا وشهواتها فإنه لا يستمتع بنصيبه كله ولا يذهب طيباته في حياته الدنيا، بل ينال منها ما ينال منها، ليتقوى به على التزود لمعاده.

والثاني: الخوض بالشبهات الباطلة، وهو قوله: ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ﴾ وهذا شأن النفوس الباطلة التي لم تخلق للآخرة، لا تزال ساعية في نيل شهواتها، فإذا نالتها فإنما هي في خوض بالباطل، الذي لا يجدي عليها إلا الضرر العاجل والأجل. ومن تمام حكمة الله تعالى أنه يبتلي هذه النفوس بالشقاء والنصب في تحصيل مراداتها وشهواتها فلا تتفرغ للخوض بالباطل إلا قليلًا، ولو تفرغت هذه النفوس الباطولية لكانت أئمة تدعو إلى النار، وهذا حال من تفرغ منها، كما هو مشاهد بالعيان، وسواء كان المعنى وخضتم كالحزب الذي خاضوا أو كالفريق الذي خاضوا، فإن الذي يكون للواحد والجمع.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾

(١) ٤٠ مفتاح جـ١.

لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٣٣، ٣٤] لكن لا يجرى على جمع تصحيح فلا يجيء المسلمون الذي جاؤوا، وإنما يجيء غالبًا في اسم الجمع كالحزب والفريق، أو حيث لا يذكر الموصوف، وإن كان جمعًا كقول الشاعر:

وإن الذي حانت بفلج[1] دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد[2]

أو حيث يراد الجنس دون الواحد والعدد، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

ونظيره الآية التي نحن منها وهي قوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾.

أو كان المعنى على القول الآخر وخضتم خوضًا كالخوض الذي خاضوا، فيكون صفة لمصدر محذوف كقولك: اضرب كالذي ضرب وأحسن كالذي أحسن ونظائره.

وعلى هذا فيكون العائد منصوبًا محذوفًا، وحذفه في مثل ذلك قياس مطرد على القولين، فقد ذمه سبحانه على الخوض بالباطل واتباع الشهوات، وأخبر أن من كانت هذه حالته فقد حبط عمله في الدنيا والآخرة، وهو من الخاسرين.

ونظير هذا قول أهل النار لأهل الجنة، وقد سألوهم: كيف دخلوها؟ ﴿قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٣-٤٦] فذكروا الأصلين: الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين. وإيثار الشهوات وما يستلزمه من ترك الصلوات وإطعام ذوي الحاجات، فهذان الأصلان هما هما، والله ولي التوفيق.

---

(١) في المطبوعة «جاءت تقبح» والصواب ما أثبتناه (ج).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى الأشهب ابن رميلة الدارمي التميمي، ولد في الجاهلية وأسلم ولكنه لم يجتمع بالنبي ﷺ، عاش إلى العصر الأموي، وفد على الوليد بن عبد الملك، نسب إلى أمه رميلة، وأبوه ثور بن أبي حارثة النهشلي، مات سنة ٨٦هـ. وذكر البيت الطبري في تفسيره (١/ ١٤١) وابن كثير في تفسيره (١/ ٥٤) وابن منظور في لسان العرب (٢/ ٣٤٩) (١٥/ ٢٤٦) ونسبه إلى الأشهب بن رميلة وكذا فعل الحموي في معجم البلدان (٤/ ٢٧٢) وأبو عبيد البكري الأندلسي في معجم ما استعجم (٣/ ١٠٢٨).

[(١)] وقد أكَّده سبحانه بضرب من الأولى، وهو أن مَنْ قبلنا كانوا أقوىٰ منا؛ فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ما حلَّ بهم، ومنه قوله تعالى: ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٩].

وقد اختلف في محل هذا الكاف وما يتعلق به، فقيل هو رفع خبر مبتدأ محذوف أي أنتم كالذين من قبلكم.

وقيل: نصب بفعل محذوف تقديره: فعلتم كفعل الذين من قبلكم، والتشبيه على هذين القولين في أعمال الذين من قبل.

وقيل: إن التشبيه في العذاب، ثم قيل: العامل محذوف، أي لعنهم وعذبهم، كما لعن الذين من قبل.

وقيل: بل العامل ما تقدم، أي وعد الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم، ولعنهم كلعنهم، ولهم عذاب مقيم كالعذاب الذي لهم.

والمقصود أنه سبحانه ألحقهم بهم في الوعيد، وسوَّىٰ بينهم فيه، كما تساووا في الأعمال، وكونهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالًا وأولادًا فَرْقٌ غير مؤثر، فعلق الحكم بالوصف الجامع المؤثر، وألغى الوصف الفارق، ثم نبه على أن مشاركتهم في الأعمال اقتضت مشاركتهم في الجزاء، فقال: ﴿ فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾، فهذه هي العلة المؤثرة والوصف الجامع.

وقوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ هو الحكم، والذين من قبل هم الأصل، والمخاطبون الفرع.

---

(١) ١٣٤ أعلام جـ١.

قال عبد الرزاق في تفسيره: أنا معمر عن الحسن في قوله: ﴿ فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَـٰقِهِمْ ﴾ قال: بدينهم[١] ويروى عن أبي هريرة.

وقال ابن عباس: استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا، وقال آخرون: بنصيبهم من الدنيا.

وحقيقة الأمر أن الخلاق هو النصيب والحظ، كأنه الذي خلق للإنسان وقدر له، كما يقال: قسمه الذي قسم له ونصيبه الذي نصب له أي أثبت وقطه الذي قُطَّ له أي قطع.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقول النبي ﷺ: «**إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة**»[٢]. والآية تتناول ما ذكره السلف كله، فإنه سبحانه قال: ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ فبتلك القوة التي كانت فيهم كانوا يستطيعون أن يعملوا للدنيا والآخرة، وكذلك الأموال والأولاد، وتلك القوة والأموال والأولاد هي الخلاق، فاستمتعوا بقوتهم وأموالهم وأولادهم في الدنيا ونفس الأعمال التي عملوها بهذه القوة من الخلاق الذي استمتعوا به ولو أرادوا بذلك الله والدار الآخرة لكان لهم خلاق في الآخرة، فتمتعهم بها أخذ حظوظهم العاجلة، وهذا حال من لم يعمل إلا لدنياه، سواء كان عمله من جنس العبادات أو غيرها، ثم ذكر سبحانه حال الفروع، فقال: ﴿ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ ﴾ فدل هذا على أن حكمهم حكمهم، وأنه ينالهم ما نالهم، لأن حكم النظير حكم نظيره. ثم قال: ﴿ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ﴾ فقيل: الذي صفة لمصدر محذوف أي كالخوض الذي خاضوا.

وقيل: لموصوف محذوف أي كخوض القوم الذي خاضوا وهو فاعل الخوض.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٨٣) والطبري في تفسيره (١٠/ ١٧٦) وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٣٤ رقم ١٠٥٠٤) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٨٣٥) ومسلم (رقم ٢٠٦٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٩٨-٢٩٩) وشرح النووي (١٤/ ٤٣).

وقيل: الذي مصدرية، كما أي كخوضهم، وقيل: هي موضع الذين.

والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض بالباطل، لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض، أو يقع في العمل بخلاف الحق، والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق.

فالأول البدع، والثاني اتباع الهوى، وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء، وبهما كذبت الرسل، وعصي الرب، ودخلت النار، وحلت العقوبات، فالأول من جهة الشبهات، والثاني من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه.

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون[(١)]. فهذا يشبه المغضوب عليهم، الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه. وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.

وفي صفة الإمام أحمد رحمه الله: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته البدع فنفاها والدنيا فأباها[(٢)]. وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] فبالصبر تترك الشهوات، وباليقين تدفع الشبهات، قال تعالى: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٣] وقوله تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص: ٤٥].

---

(١) أخرجه أحمد في العلل ومعرفة الرجال (٣/ ١١٨ رقم ٤٥٠١) عن سفيان الثوري، وكذا فعل الآجري في مسألة الطائفين (رقم ٤) والبيهقي في ا لمدخل إلى السنن الكبرى (رقم ٥٤٤) والمزي في تهذيب الكمال (١١/ ١٦٨).

(٢) انظر: تاريخ مدينة دمشق (٥/ ٢٩١) (٥١/ ٢١٩) والمغني (١/ ١٩) والتقييد لمحمد بن عبدالغني البغدادي (ص ١٦٤).

وفي بعض المراسيل: «**إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات**»[١].

فقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ﴾ إشارة إلىٰ اتباع الشهوات، وهو داء العصاة، وقوله: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ﴾ إشارة إلىٰ الشبهات، وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات، وكثيرًا ما يجتمعان، فقل من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله.

والمقصود أن الله أخبر أن في هذه الأمة من يستمتع بخلاقه، كما استمتع الذين من قبله بخلاقهم، ويخوض كخوضهم، وأنهم لهم من الذم والوعيد كما للذين من قبلهم.

ثم حضهم علىٰ القياس والاعتبار بمن قبلهم، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

فتأمل صحة هذا القياس وإفادته لمن علق عليه من الحكم، وأن الأصل والفرع قد تساويا في المعنىٰ، الذي علق به العقاب، وأكده، كما تقدم بضرب من الأولىٰ وهو شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد، فإذا لم يتعذر علىٰ الله عقاب الأقوىٰ منهم بذنبه، فكيف يتعذر عليه عقاب من هو دونه؟

***

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾.

[٢]قال عمر بن الخطاب ﷺ: «لو أن الدنيا من أولها إلىٰ آخرها أوتيها رجل، ثم جاءه الموت؛ لكان بمنزلة من رأىٰ في منامه ما يسره. ثم استيقظ فإذا ليس في يده

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير مرفوعًا (رقم ٩٥٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٥٢ رقم ١٠٨٠).
(٢) ٩٣ مدارج جـ٣.

شيء». وقال مطرف بن عبد الله ـ أو غيره: «نعيم الدنيا بحذافيره في جنب نعيم الآخرة، أقل من ذرة في جنب جبال الدنيا».

ومن حدق عين بصيرته في الدنيا والآخرة، علم أن الأمر كذلك.

فكيف يليق بصحيح العقل والمعرفة، أن يقطعه أمل من هذا الجزء الحقير عن نعيم لا يزول، ولا يضمحل؟ فضلًا عن أن يقطعه عن طلب من نسبة هذا النعيم الدائم إلى نعيم معرفته ومحبته، والأنس به، والفرح بقربه، كنسبة نعيم الدنيا إلى نعيم الجنة؟ قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] فيسير من رضوانه ـ ولا يقال له يسير ـ أكبر من الجنات وما فيها.

(١) إن رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها. لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ بعد قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا الجزاء أفضل الجزاء، كان سببه أفضل الأعمال.

(٢) وتأمل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ كيف جاء بالرضوان مبتدأ منكرًا مخبرًا عنه بأنه أكبر من كل ما وعدوا به، فأيسر شيء من رضوانه أكبر الجنات، وما فيها من المساكن الطيبة وما حوته؛ ولهذا لما يتجلى لأوليائه في جنات عدن، ويمنيهم أي شيء يريدون، فيقولون: ربنا وأي شيء نريد أفضل مما أعطيتنا؟ فيقول تبارك وتعالى: إن لكم عندي أفضل من ذلك: أحل عليكم

---

(١) ٢١٧ مدارج جـ٢.

(٢) ١٦٦ بدائع جـ٢.

رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدًا[(١)].

[(٢)]إن العبد إذا رضي به وعنه في جميع الحالات، لم يتخير عليه المسائل، وأغناه رضاه بما يقسمه له ويقدره ويفعله به عن ذلك، وجعل ذكره في محل سؤاله، بل يكون من سؤاله له الإعانة على ذكره، وبلوغ رضاه، فهذا يُعطى أفضل ما يعطاه سائل، كما جاء في الحديث: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين»[(٣)] فإن السائلين سألوه، فأعطاهم الفضل الذي سألوه، والراضون رضوا عنه فأعطاهم رضاه عنهم، ولا يمنع الرضا سؤاله أسباب الرضا، بل أصحابه ملحون في سؤاله ذلك.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٧٣) ﴾.

[(٤)]لما كان الجِهَاد ذِروةَ سَنَام الإسلام وقُبَّتَه، ومنازِلُ أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرِّفعةُ في الدنيا، فهم الأَعْلَوْنَ في الدُّنيَا والآخِرةِ، كان رسول الله ﷺ في الذِّروةِ العُليا منه، واسْتولى على أنواعه كُلِّها فجاهد في اللهِ حقَّ جهاده بالقلب، والجَنانِ، والدَّعوة، والبيان، والسيفِ، والسِّنَانِ، وكانت ساعاته موقوفةً على الجهاد، بقلبه، ولسانه، ويده. ولهذا كان أرفعَ العَالَمِينَ ذِكراً، وأعظمَهم عند الله قدراً. وأمره الله تعالى بالجِهاد مِن حينَ بعثه، فقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١-٥٢]، فهذه سورة مكية، أمر

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٤٩) ومسلم (رقم ٢٨٢٩) وانظر: عمدة القاري (٢٣/ ١٢٠).
(٢) ٢١٧ مدارج جـ٢.
(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٤٠ رقم ٥٨٤) والبيهقي في الشعب (١/ ٤١٣ رقم ٥٧٢) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٦٤) والبخاري في خلق أفعال العباد (رقم ٥٤٤) وفي التاريخ الكبير (٢/ ١١٥ رقم ١٨٧٩) قال ابن حجر في فتح الباري (١١/ ١٣٤): أخرجه الطبراني بسند لين، وحديث أبي سعيد بلفظ: «من شغله القرآن وذكري عن مسألتي» الحديث أخرجه الترمذي وحسنه.
(٤) ١٠٢ زاد المعاد جـ٢.

فيها بجهاد الكفار، بالحُجة، والبيان، وتبليغِ القرآن، وكذلكَ جهادُ المنافقِينَ، إنما هو بتبليغ الحُجَّة، وإلا فهم تحت قهر أهلِ الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. فجهادُ المنافقين أصعبُ مِن جهاد الكفار، وهو جهادُ خواصِّ الأمة، وورثةِ الرُّسل، والقائمون به أفرادٌ في العالَم، والمشارِكُون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هُم الأقلين عدداً، فهم الأعظمون عند الله قدراً.

ولما كان مِن أفضل الجهاد قولُ الحقِّ مع شدة المُعارِضِ ـ مثلَ أن تتكلم به عند مَن تُخاف سَطوتهُ وأذاه ـ كان لِلرسلِ صلواتُ الله عليهم وسلامُهُ مِن ذلك الحظُّ الأوفَرُ، وكان لنبينا صلواتُ الله وسلامُه عليه من ذلك أكملُ الجهاد وأتمُّه.

ولما كان جهاد أعداءِ الله في الخارج فرعاً علىٰ جهادِ العبد نفسه في ذاتِ الله، كما قال النبيُّ ﷺ: «المجاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ في ذات الله»[1]، «والمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَىٰ الله عنه»[2]. كان جهادُ النفس مُقَدَّماً علىٰ جِهَادِ العدوِّ في الخارج، وأصلاً له، فإنه ما لم يُجاهِدْ نفسه أوَّلاً لِتفعل ما أُمِرَتْ به، وتتركَ ما نُهيتْ عنه، ويُحارِبْهَا في الله، لم يُمكِنْهُ جهادُ عدوه في الخارج، فكيف يُمكِنُهُ جهادُ عدوه والانتصاف منه، وعدوُّه الذي بين جنبيه قاهرٌ له، متسلِّطٌ عليه، لم يُجاهده، ولم يُحاربه في الله، بل لا يُمكنه الخروجُ إلىٰ عدوِّه، حتىٰ يُجاهِدَ نفسَه علىٰ الخروج. فهذان عدوَّانِ قد امْتُحِنَ العبدُ بجهادهما، وبينهما عدوٌّ ثالث، لا يمكنه جهادُهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يُثَبِّطُ العبدَ عن جهادهما، ويُخَذِّلُه، ويُرجِفُ به، ولا يزالُ يُخَيِّل له ما في جهادهما مِن المشاق، وتركِ الحظوظ، وفوتِ اللذاتِ، والمشتهيات.

***

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٠٠ رقم ٦٣٩) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٤٩) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ٢٣٤) وانظر: فيض القدير (٢/ ٤٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٠) وانظر: عمدة القاري (١/ ١٣٠-١٣١).

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

(1) قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [التوبة: ٧٥] فهذا نذر مؤكد بيمين وإن لم يقل فيه فعلي، إذ ليس ذلك من شرط النذر، بل إذا قال: إن سلمني الله تصدقت، أو لأتصدقن، فهو وعد وعده الله، فعليه أن يفي به وإلا دخل في قوله: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٧].

فوعد العبد ربه نذر يجب عليه أن يفي له به، فإنه جعله جزاء وشكرًا له على نعمته عليه، فجرى مجرى عقود المعاوضات لا عقود التبرعات، وهو أولى باللزوم من أن يقول ابتداء: «لله عليَّ كذا» فإن هذا التزام منه لنفسه أن يفعل ذلك، والأول تعليق بشرط، وقد وجد، فيجب فعل المشروط عنده لالتزامه له بوعده.

فإن الالتزام تارة يكون بصريح الإيجاب، وتارة يكون بالوعد، وتارة يكون بالشروع كشروعه في الجهاد والحج والعمرة والالتزام بالوعد آكد من الالتزام بالشروع، وآكد من الالتزام بصريح الإيجاب.

فإن الله سبحانه ذم من خالف ما التزمه له بالوعد، وعاقبه بالنفاق في قلبه، ومدح من وفى بما نذره له، وأمر بإتمام ما شرع فيه له من الحج والعمرة، فجاء الالتزام بالوعد آكد الأقسام الثلاثة، وإخلافه يعقب النفاق في القلب.

وأما إذا حلف يمينًا مجردة: ليفعلن كذا، فهذا حض منه لنفسه، وحث على فعله باليمين، وليس إيجابًا عليها، فإن اليمين لا توجب شيئا ولا تحرمه، ولكن الحالف عقد اليمين بالله ليفعلنه، فأباح الله سبحانه له حل ما عقده بالكفارة، ولهذا سماها الله

(١) ١١٢ أعلام جـ٢.

تحلة، فإنها تحل عقد اليمين.

وليست رافعة لإثم الحنث، كما يتوهمه بعض الفقهاء، فإن الحنث قد يكون واجبا، وقد يكون مستحبا، فيؤمر به أمر إيجاب أو استحباب، وإن كان مباحا. فالشارع لم يبح سبب الإثم، وإنما شرعها الله حلا لعقد اليمين، كما شرع الله الاستثناء مانعا من عقدها.

فظهر الفرق بين ما التزم لله وبين ما التزم بالله، فالأول ليس فيه إلا الوفاء. والثاني يخير فيه بين الوفاء وبين الكفارة، حيث يسوغ ذلك.

وسر هذا أن ما التزم له آكد مما التزم به، فإن الأول متعلق بإلهيته، والثاني بربوبيته، فالأول من أحكام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾، والثاني من أحكام ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ قسم الله من هاتين الكلمتين ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قسم العبد، كما في الحديث الصحيح الإلهي: «هذه بيني وبين عبدي نصفين»[1].

***

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

[2]أما ما احتجوا به من قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ [التوبة: ٩٢]، والذي دعاهم إلى ذلك، أن جواب إذا هو قوله تعالى: ﴿ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾ [التوبة: ٩٢]، والمعنى: إذا أتوك ولم يكن عندك ما تحملهم عليه تولوا يبكون، فيكون الواو في ﴿ قُلْتَ ﴾ مقدرة، لأنها معطوفة على فعل الشرط وهو ﴿ أَتَوْكَ ﴾ هذا تقرير احتجاجهم، ولا حجة فيه، لأنه جواب إذا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٩٥) ولفظه: «قسَمت الصَّلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل». وفي رواية: «قسَمت الصَّلاة بيني وبين عبدي نصفين: فنصفها لي ونصفها لعبدي» وانظر: شرح النووي (٤/ ١٠١-١٠٣) والتمهيد (٢/ ٢٣٠).

(٢) ٢١ بدائع جـ١.

في قوله ﴿ قُلْتَ لَآ أَجِدُ ﴾ والمعنى: إذا أتوك لتحملهم لم يكن عندك ما تحملهم عليه، فعبر عن هذا بقوله: ﴿ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ لنكتة بديعة، وهي الإشارة إلى تصديقهم له، وأنهم اكتفوا من علمهم بعدم الإمكان بمجرد إخباره لهم بقوله: ﴿ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ بخلاف ما لو قيل: لم يجدوا عندك ما تحملهم عليه، فإنه يكون تبيين حزنهم خارجًا عن إخباره، وكذلك لو قيل: لم تجد ما تحملهم عليه لم يؤد هذا المعنى، فتأمله فإنه بديع.

فإن قيل: فبأي شيء يرتبط قوله: ﴿ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾، وهذا عطف على ما قبله، فإنه ليس بمستأنف.

فالجواب: أن ترك العطف هنا من بديع الكلام لشدة ارتباطه بما قبله ووقوعه منه موقع التفسير، حتى كأنه هو وتأمل مثل هذا في قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٢] كيف لم يعطف فعل القول بأداة عطف، لأنه كالتفسير، لتعجبهم، والبدل من قوله تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ فجرى مجرى قوله: ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩] فلما كان مضاعفة العذاب بدلًا وتفسيرًا لـ﴿ أَثَامًا ﴾ لم يحسن عطفه عليه، وزعم بعض الناس أن من هذا الباب قول عمر ﷺ في الحديث الصحيح: لا يغرنك هذه التي أعجبها حسنها حب رسول الله ﷺ لها[1]. فقال: المعنى: أعجبها حسنها وحب رسول الله ﷺ، وليس الأمر كذلك، ولكن قوله: حب رسول الله ﷺ بدل من قوله هذه، وهو من بدل الاشتمال، والمعنى: لا يغرنك حب رسول الله ﷺ، لهذه التي قد أعجبها حسنها، ولا عطف هناك ولا حذف، وهذا واضح بحمد الله.

***

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٩١٣) ومسلم (رقم ١٤٧٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٥٨).

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ
دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى
رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ
ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

(١) من أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود، ولاسيما حدود المشروع المأمور والمنهي. فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود، حتى لا يدخل فيها ما ليس منها، ولا يخرج منها ما هو داخل فيها، قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧]. فأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلًا، وبالله التوفيق.

(٢) قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فأخبر تعالى أنه أعدها للمهاجرين والأنصار وأتباعهم بإحسان، فلا مطمع لمن خرج عن طريقتهم فيها.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤] فوصفهم بإقامة حقه باطنًا وظاهرًا وبأداء حق عباده.

(١) ١٤٠ فوائد.
(٢) ٨٨ حادي الأرواح.

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لما كان يوم حنين أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد، وفلان شهيد، وفلان شهيد. حتىٰ مروا علىٰ رجل، فقالوا: فلان شهيد. فقال رسول الله ﷺ: «**كلا إني رأيته في النار في بردة غلها أو عباءة**» ثم قال رسول الله ﷺ: «**يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون**» قال: فخرجت فناديت: أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون(١)، وللبخاري معناه. وفي الصحيحين: من حديث أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ أمر بلالًا ينادي في الناس: «**إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة**»(٢) وفي بعض طرقه «مؤمنة»(٣) وفي الحديث قصة.

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني من يومي هذا: كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، فحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا، وإن الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»(٤) الحديث...

(٥)﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠]، فهؤلاء هم السعداء الذين ثبت لهم رضي الله عنهم ورضوا عنه، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، وكل من تبعهم بإحسان إلىٰ يوم القيامة، ولا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١١٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٦٢) ومسلم (رقم ١١١) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٧٤).

(٣) أخرجه ابن حبان (١١/ ١٨٥ رقم ٤٨٤٩) وابن خزيمة (٤/ ٣١٣ رقم ٢٩٦٠) والضياء المقدسي في المختارة (٢/ ٨٥ رقم ٤٦٢) والحاكم (٣/ ٥٤ رقم ٤٣٧٦) والنسائي في الكبرىٰ (٢/ ١٧٠ رقم ٢٨٩٥) والترمذي (رقم ٣٠٩٢) وحسنه. وصححه الحاكم.

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٦٥) وانظر: شرح النووي (١٧/ ١٩٧).

(٥) ٤٢ التبوكية.

يختص ذلك القرن الذين رأوهم فقط، وإنما خص التابعون بمن رأوا الصحابة تخصيصا عرفيًا، ليتميزوا به عمن بعدهم. فقيل: التابعون مطلقًا لذلك القرن فقط، وإلا فكل من سلك سبيلهم فهو من التابعين لهم بإحسان، وهو ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه ورضي عن الله.

وقيد سبحانه هذه التبعية بأنها تبعية بإحسان، ليست مطلقة فتحصل بمجرد النية والاتباع في شيء والمخالفة في غيره، ولكن تبعية مصاحبة للإحسان. فإن الباء ههنا للمصاحبة. والإحسان في المتابعة شرط في حصول رضي الله عنهم وجناته.

[(1)]فنقول: الكلام في مقامين: أحدهما: في الأدلة الدالة على وجوب اتباع الصحابة، الثاني: في الجواب عن شبه النفاة.

فأما الأول فمن وجوه: أحدها ما احتج به مالك، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فوجه الدلالة إن الله تعالى أثنى على من اتبعهم، فإذا قالوا قولًا فاتبعهم متبع عليه قبل أن يعرف صحته فهو متبع لهم، فيجب أن يكون محمودا على ذلك، وأن يستحق الرضوان، ولو كان اتباعهم تقليدًا محضًا كتقليد بعض المفتين لم يستحق من اتبعهم الرضوان، إلا أن يكون عاميا فأما العلماء المجتهدون فلا يجوز لهم اتباعهم حينئذ.

فإن قيل: اتباعهم هو أن يقول ما قالوا بالدليل، وهو سلوك سبيل الاجتهاد، لأنهم إنما قالوا بالاجتهاد والدليل عليه قوله: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾، ومن قلدهم لم يتبعهم بإحسان، لأنه لو كان مطلق الاتباع محمودًا لم يفرق بين الاتباع بإحسان أو بغير إحسان.

وأيضًا فيجوز أن يراد به اتباعه في أصول الدين وقوله: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي بالتزام الفرائض واجتناب المحارم، ويكون المقصود: أن السابقين قد وجب لهم الرضوان

(١) ١٢٣ أعلام جـ٤.

وإن أساءوا، لقوله ﷺ: «وما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[١].

وأيضًا فالثناء على من اتبعهم كلهم وذلك اتباعهم فيما أجمعوا عليه وأيضًا فالثناء على من اتبعهم لا يقتضي وجوبه، وإنما يدل على جواز تقليدهم، وذلك دليل على جواز تقليد العالم، كما هو مذهب طائفة من العلماء أو تقليد الأعلم كقول طائفة أخرى، أما الدليل على وجوب اتباعهم فليس في الآية ما يقتضيه، فالجواب من وجوه:
أحدها: أن الاتباع لا يستلزم الاجتهاد لوجوده:

أحدها: أن الاتباع المأمور به في القرآن كقوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] ونحوه لا يتوقف على الاستدلال على صحة القول مع الاستغناء عن القائل.

الثاني: أنه لو كان المراد اتباعهم في الاستدلال والجهاد لم يكن فرق بين السابقين وبين جميع الخلائق، لأن اتباع موجب الدليل يجب أن يتبع فيه كل أحد، فمن قال قولا بدليل صحيح وجب موافقته فيه.

الثالث: أنه إما أن تجوز مخالفتهم في قولهم بعد الاستدلال أو لَا تجوز، فإن لم تجز فهو المطلوب، وإن جازت مخالفتهم فقد خولفوا في خصوص الحكم، واتبعوا في أحسن الاستدلال، فليس جعل من فعل ذلك متبعًا لموافقتهم في الاستدلال بأولى من جعله مخالفًا لمخالفته في عين الحكم.

الرابع: أن من خالفهم في الحكم الذي أفتوا به لا يكون متبعًا لهم أصلًا، بدليل أن من خالف مجتهدًا من المجتهدين في مسألة بعد اجتهاد لا يصح أن يقال اتبعه، وإن أطلق ذلك فلابد من تقييده بأن يقال: «اتبعه» في الاستدلال أو الاجتهاد.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٨١) ومسلم (رقم ٢٤٩٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٠٥) وشرح النووي (١٦/ ٥٦).

الخامس: أن الاتباع افتعال من اتبع، وكون الإنسان تابعا لغيره نوع افتقار إليه ومشي خلفه، وكل واحد من المجتهدين المستدلين ليس تبعًا للآخر ولا مفتقرًا إليه بمجرد ذلك، حتى يستشعر موافقته والانقياد له، ولهذا لا يصح أن يقال لمن وافق رجلًا في اجتهاده أو فتواه اتفاقا: إنه متبع له.

السادس: أن الآية قصد بها مدح السابقين، والثناء عليهم، وبيان استحقاقهم: أن يكونوا أئمة متبوعين، وبتقدير ألا يكون قولهم موجبًا للموافقة، ولا مانعًا من المخالفة، بل إنما يتبع القياس مثلا، لا يكون لهم هذا المنصب، ولا يستحقون هذا المدح والثناء.

السابع: أن من خالفهم في خصوص الحكم فلم يتبعهم في ذلك الحكم، ولا فيما استدلوا به على ذلك الحكم، فلا يكون متبعا لهم بمجرد مشاركتهم في صفة عامة، وهي مطلق الاستدلال والاجتهاد، ولاسيما وتلك الصفة العامة لا اختصاص لها به، لأن ما ينفي الاتباع أخص مما يثبته، وإذا وجد الفارق الأخص والجامع الأعم، وكلاهما مؤثر، كان التفريق رعاية للفارق أولى من الجمع رعاية للجامع.

وأما قوله ﴿بِإِحْسَـٰنٍ﴾ فليس المراد به أن يجتهد، وافق أو خالف، لأنه إذا خالف لم يتبعهم، فضلا عن أن يكون بإحسان، ولأن مطلق الاجتهاد ليس فيه اتباع لهم، لكن الاتباع لهم اسم يدخل فيه كل من وافقهم في الاعتقاد والقول، فلابد مع ذلك أن يكون المتبع محسنا بأداء الفرائض واجتناب المحارم، لئلا يقع الاغترار بمجرد الموافقة قولًا.

وأيضًا فلابد أن يحسن المتبع لهم القول فيهم، ولا يقدح فيهم اشتراط الله ذلك لعلمه: بأن سيكون أقوام ينالون منهم، وهذا مثل قوله تعالى بعد أن ذكر المهاجرين والأنصار: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَـٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلࣰّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفࣱ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]...

***

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

(١)أما ما زعموا من قولهم: إن علمت قد يكون بمعنى عرفت، واستشهادهم بنحو قوله تعالى: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠١] وبقوله: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فالذي دعاهم إلى ذلك أنهم رأوا علمت قد تعدت إلى مفعول واحد، وهذا هو حقيقة العرفان فاستشهاد ظاهر. على أنه قد قال بعض الناس: إن تعدي فعل العلم في هذه الآيات وأمثالها إلى مفعول واحد لا يخرجها عن كونها علمًا على الحقيقة، فإنها لا تتعدى إلى مفعول واحد، على نحو تعدي عرفت، ولكن على جهة الحذف والاختصار، فقوله: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ لا تنفي عنه معرفة أعيانهم وأسمائهم، وإنما تنفي عنه العلم بعدوانهم ونفاقهم، وما تقدم من الكلام يدلك على ذلك.

وكذلك قوله: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾، فربما كانوا يعرفونهم، ولا يعلمونهم أعداء لهم، فيتعلق العلم بالصفة المضافة إلى الموصوف لا بعينه وذاته.

قال: هذا وإنما مثل من يقول: إن علمت بمعنى عرفت من أجل أنها متعدية إلى مفعول واحد في اللفظ، كمثل من يقول: إن سألت يتعدى إلى غير العقلاء بقولهم: سألت الحائط، وسألت الدار، ويحتج بقوله: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ﴾ [يوسف: ٨٢].

قال: وإنما هذا جهل بالمجاز والحذف، وكذلك ما تقدم.

(١) ٦٢ بدائع جـ٢.

وليس ما قاله هؤلاء بقوي؛ فإن الله سبحانه نفى عن رسوله معرفة أعيان أولئك المنافقين، هذا صريح اللفظ، وإنما جاء نفي معرفة نفاقهم من جهة اللزوم، فهو ﷺ كان يعلم وجود النفاق في أشخاص معينين، وهو موجود في غيرهم ولا يعرف أعيانهم، وليس المراد أن أشخاصهم كانت معلومة له معروفة عنده، وقد انطووا على النفاق وهو لا يعلم ذلك فيهم، فإن اللفظ لم يدل على ذلك بوجه.

والظاهر بل المتعين أنه ﷺ لو عرف أشخاصهم، لعرفهم بسيماهم وفي لحن القول، ولم يكن يخفى عليه نفاق من يظهر له الإسلام ويبطن عداوته وعداوة الله ﷻ، والذي يزيد هذا وضوحًا الآية الأخرى، فإن قوله: ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ﴾[الأنفال: ٦٠]. فيهم قولان.

أحدهما: أنهم الجن المظاهرون لأعدائهم من الإنس على محاربة الله ورسوله. وعلى هذا فالآية نص في أن العلم فيها بمعنى المعرفة، ولا يمكن أن يقال: إنهم كانوا عارفين بأشخاص أولئك جاهلين عداوتهم، كما أمكن مثله في الإنس.

القول الثاني: إنهم المنافقون، وعلى هذا فقوله: ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ﴾ إنما ينبغي حمله على معرفة أشخاصهم، لا على معرفة نفاقهم، لأنهم كانوا عالمين بنفاق كثير من المنافقين، يعلمون نفاقهم ولا يشكون فيه، فلا يجوز أن ينفي عنهم علم ما هم عالمون به، وإنما ينفي عنهم معرفة أشخاص من هذا الضرب، فيكون كقوله تعالى: ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ فتأمله ...

[(١)]في حديث أبي لبابة لما بلغ النبي ﷺ ارتباطه قال: «**لو أتاني لاستغفرت له، وإذ فعل فلست أطلقه حتى يطلقه الله**»[(٢)]. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾[التوبة: ١٠٢] فأطلقه النبي ﷺ حينئذ. وفي هذا ما

(١) ٢١٢ بدائع جـ٣.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ١٥٢) والتمهيد (٢٠/ ٨٤) والاستيعاب (٤/ ١٧٤١) وشرح الزرقاني على موطأ مالك (٣/ ٩٠).

يدل على صحة قول المفسرين: أن عسى من الله واجب[(١)].

وفيه: أن فاطمة جاءت تحله، فقال: لا إلا رسول الله ﷺ، فقال: «فاطمة بضعة مني»[(٢)] فإن قيل: فهل يبر الحالف بمثل هذا لو اتفق اليوم.

قيل: لا إما لأنه مختص بالنبي ﷺ وإما لأن فاطمة بضعة منه قطعًا، والله أعلم.

[(٣)] الزكاة في اللغة: هي النماء والزيادة في الصلاح، وكمال الشيء، يقال: زكا الشيء إذا نما، قال الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣] فجمع بين الأمرين: الطهارة والزكاة، لتلازمهما. فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، وبمنزلة الدغل في الزرع، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد، فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من ا لذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة: زكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت، فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته، كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠] فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

[(٤)] غزوة تبوك كانت في شهر رجَب سنةَ تسع، قال ابن إسحاق: وكانت في زمن

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٩/ ٦٠) وابن أبي حاتم (٣/ ٩٠٥ رقم ٥٠٤٤) وعزاه إلى ابن عباس رضي الله عنهما. وذكره البيهقي في سننه الكبرى (٩/ ١٣) عن الشافعي رحمه الله، وانظر: تفسير الطبري (١٥/ ١٠١) والدر المنثور (١/ ٥٨٧) وصحيح ابن حبان (٨/ ٢٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٧١٤) ومسلم (رقم ٢٤٤٩) وانظر: فتح الباري (٧/ ٧٩) (٩/ ٣٢٩) وشرح النووي (١٦/ ٢).

(٣) ٤٦ إغاثة جـ١.

(٤) ٣ زاد المعاد جـ٣.

عُسْرَةٍ مِنَ الظهر والزاد والماء، وجَدْبٍ من البلاد، وحين طابت الثمارُ، والناس يُحبون المُقام في ثمارهم وظِلالهم، ويكرهون شُخوصهم على تلك الحال.

وكان رسولُ اللهِ ﷺ قلَّما يخرج في غزوة إلا كنَّى عنها، وورَّى بغيرها، إلا ما كان مِن غزوة تَبُوك، لبُعْد الشُّقة، وشِدة الزمان. فقال رسول الله ﷺ - ذاتَ يوم، وهو في جَهَازه - للجَدِّ بنِ قيس أحد بني سلمة: «يا جَدُّ؛ هَلْ لَكَ العَامَ في جِلاَدِ بَني الأَصْفَرِ»؟ فقال: يا رسول الله؛ أَوَ تأذنُ لي ولا تَفْتِنِّي؟ فواللهِ لقد عرف قومي أنه ما مِن رَجُلٍ بأشدَّ عجباً بالنساء مني، وإنِّي أخشى إن رأيتُ نساءَ بني الأصفر أن لا أصبِرَ، فأعرضَ عنه رسولُ الله ﷺ وقال: «قَدْ أَذِنْتُ لَكَ»، ففيه نزلت الآية: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى ﴾[1] [التوبة: ٤٩] وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفِرُوا في الحَرِّ، فأنزل الله فيهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ﴾ الآية [التوبة: ٨١] ثُم إنَّ رسول الله ﷺ جدَّ في سفره، وأمر الناسَ بالجَهَاز، وحضَّ أهلَ الغِنَى على النفقة والحُملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغِنَى واحتسبُوا، وأنفق عثمانُ بن عفانُ في ذلك نفقةً عظيمة لم يُنفِقْ أحدٌ مِثلها.

قلت: كانت ثلاثمائة بعير بأحْلاسها وأقتابِها وعُدَّتها، وألفَ دينار عَيْناً[2].

وذكر ابنُ سعد قال: بلغ رسولَ الله ﷺ أنَّ الرومَ قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام، وأن هِرَقْل قد رَزَق أصحابَه لسنة، وأجلبت معه لَخْمٌ، وجُذام، وعَامِلَة، وغسان، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء. وجاء البكَّاؤون وهم سبعة يستحمِلُون رسولَ الله ﷺ، فقال: ﴿ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢]، وهم سالمُ بن عُمير، وعُلْبَةُ بنُ زيد، وأبو ليلى المازني، وعمرو بن عَنَمَة،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٧٠٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ١٠٢ رقم ١٤١٩) وفي الجهاد (١/ ٢٦٧ رقم ٧٧) وفي السنة (٢/ ٥٨٧ رقم ١٢٨٠) والطبراني في الأوسط (٦/ ٩٨ رقم ٥٩١٥) وأحمد (٤/ ٧٥) والطيالسي (رقم ١١٨٩) وعبد بن حميد (رقم ٣١١) وابن سعد في الطبقات (٧/ ٧٨) وقال النووي في تهذيب الأسماء (١/ ٢٩٩): رواه الترمذي بإسناد جيد.

وسلمة بن صخر، والعِرباض بن سارية. وفي بعض الروايات: وعبد الله بن مُغَفَّل، ومعقِل بن يسار. وبعضهم يقول: البكّاؤون بنو مُقَرِّن السبعة، وهم من مُزينة[١]. وابن إسحاق: يعدُّ فيهم عَمْرو بن الحُمام بن الجَموح. وأرسل أبا موسىٰ أصحابُه إلىٰ رسولِ الله ﷺ لِيحمِلهم، فوافاه غضبان، فقال: «لا والله لا أحملكم، ولا أجدُ ما أحملكم عليه»، ثم أتاه إبل، فأرسل إليهم، ثم قال: «مَا أَنَا حَمَلْتُكُم، ولَكِنَّ الله حَمَلَكُم، وإنِّي وَالله لاَ أَحْلِفُ عَلَىٰ يَمِينٍ، فَأَرَىٰ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، إلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي وَأَتَيْتُ الَّذي هُوَ خَيْرٌ»[٢].

وقام عُلبة بن زيد فصلَّىٰ من الليل وبكىٰ، وقال: اللَّهُمَّ إنَّك قد أمرتَ بالجهاد، ورغَّبتَ فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوَّىٰ به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحمِلُني عليه، وإني أتصدَّق علىٰ كل مسلم بكل مَظْلِمَةٍ أصابني فيها مِن مال، أو جسد، أو عِرض، ثم أصبح مع الناس، فقال النبي ﷺ: «أَيْنَ المُتَصَدِّقُ هذِهِ اللَّيْلَة»؟ فلم يقم إليه أحد، ثم قال: «أَيْنَ المُتَصَدِّقُ فَلْيَقُمْ»، فَقَام إليه، فأخبرَه، فقال النبي ﷺ: «أَبْشِرْ فَوالذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ كُتِبَتْ في الزَّكَاةِ المتَقَبَّلَة»[٣]. وجاءَ المعذِّرُونَ من الأعرابِ ليؤذن لهم، فلم يَعْذِرْهم. قال ابن سعد: وهم اثنان وثمانون رجلاً، وكان عبدُ الله بنُ أُبَيّ ابن سَلول قد عسكر علىٰ ثنية الوَداع في حُلفائه من اليهود والمنافقين، فكان يقال: ليس عسكره بأقلِّ العسكرين، واستخلف رسولُ الله ﷺ علىٰ المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري. وقال ابن هشام: سباع بن عُرْفُطَةَ، والأول أثبت - فلما سار رسولُ الله ﷺ، تخلَّف عبدُ الله بن أُبَيّ ومَنْ كان معه، وتخلَّف نَفَر مِن المسلمين

(١) انظر: الطبقات الكبرىٰ (٢/ ١٦٥) وتاريخ مدينة دمشق (٢/ ٣٤) وعمدة القاري (١٨/ ٤٥).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١٣٣) ومسلم (رقم ١٦٤٩) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٦٥، ٦١٣-٦١٤) وشرح النووي (١١/ ١١٠).
(٣) أخرجه بنحوه البيهقي في الشعب (٦/ ٢٦٢ رقم ٨٠٨٤) وابن أبي الدنيا في مداراة الناس (رقم ٩، ١٠) وذكره الحافظ ابن حجر في الإصابة في ترجمة علبة (٤/ ٤٥٦ -٤٥٧ رقم ٥٦٦١).

مِن غير شك ولا ارتياب، منهم: كعبُ بن مالك، وهِلالُ ابن أُمية، ومُرَارَةُ بنُ الربيع وأبو خَيثمة السالمي، وأبو ذر، ثم لحقه أبو خيثمة، وأبو ذر، وشهدها رسولُ الله ﷺ في ثلاثين ألفاً مِن الناس، والخيلُ عشرة آلاف فرس، وأقام بها عشرين ليلة يقصُر الصَّلاة، وهِرَقْلُ يومئذٍ بحمص[١].

قال ابن إسحاق: ولما أراد رسولُ الله ﷺ الخروجَ، خلَّف عليَّ بنَ أبي طالب على أهله، فأرْجَفَ به المنافقون، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالاً وتخففاً منه، فأخذ عليٌّ ﷺ سِلاحه، ثم خرج حتى أتى رسولَ الله ﷺ وهو نازل بالجُرْفِ، فقال: يا نبيَّ الله؛ زعم المنافقون أَنك إنما خلَّفتني لأنك استثقلتني وتخففتَ مني، فقال: «**كَذَبُوا، ولكِنِّي خَلَّفْتُكَ لما تركْتُ وَرَائِي، فارْجعْ فَاخْلُفْني في أَهْلِي وَأَهْلِكَ، أَفَلاَ تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُون مِنْ مُوسى؟ إلا أَنَّهُ لا نَبِي بَعْدِي**»[٢] فرجع عليٌّ إلى المدينة. ثُمَّ إنَّ أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسولُ الله ﷺ أياماً إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشينِ لهما في حائطه، قد رشَّت كُلُّ واحدة منهما عريشَها، وبرَّدَتْ له ماء، وهيأت له فيه طعاماً، فلما دخل، قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسولُ الله ﷺ في الضِّحِّ، والرِّيح، والحر، وأبو خيثمة في ظِلٍّ بارد، وطعام مُهَيأ، وامرأة حسناء، ما هذا بالنَّصَفِ، ثم قال: واللهِ لا أدخل عريشَ واحدة منكما حتى أَلحقَ برسولِ الله، فهيِّئا لي زاداً، ففعلتا، ثم قدَّم ناضِحه، فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تَبُوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عُميرُ بن وهب الجمحي في الطريق يطلُب رسولَ الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دنيا من تَبُوك، قال أبو خيثمة لِعُمير بن وهب: إنَّ لي ذنباً، فلا عليك أن تتخلَّف عني حتى آتي رسولَ الله ﷺ، ففعل حتى إذا دنا مِن رسولِ الله وهو نازل بتبُوك، قال الناس: هذا راكبٌ على الطريق مُقبل، فقال

(١) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ١٦٦).

(٢) أخرجه بلفظ قريب البخاري (رقم ٤٤١٦) ومسلم (رقم ٢٤٠٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ١١٢) وشرح النووي (١٥/ ١٧٤).

رسول الله ﷺ: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ» قالوا: يا رسول الله؛ هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل، فسلَّم على رسول الله ﷺ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «أَوْلَى لَكَ يَا أَبَا خَيْثَمَة»، فأخبرَ رسولَ الله ﷺ خبرَه، فقال له رسول الله ﷺ خَيْراً ودعا له بخير. وقد كان رسول الله ﷺ حين مرَّ بالحِجْر بديار ثمود، قال: «لا تَشْرَبُوا مِنَ مَائِهَا شَيْئاً، وَلا تَتَوَضَّؤوا مِنْهُ لِلصَّلاةِ، وما كَانَ مِنْ عَجِينٍ عَجَنْتُمُوه فَاعْلِفُوهُ الإِبِلَ، ولا تَأْكُلُوا مِنْهُ شَيْئاً، ولا يَخْرُجَنَّ أَحَدٌ منكم إلا ومعه صَاحِبٌ له»، ففعل النَّاسُ، إلا أنَّ رجلين من بني ساعدة خرج أحدُهما لحاجته، وخرج الآخرُ في طلب بعيره، فأما الذي خرج لحاجته، فإنه خُنِقَ على مذهبه، وأما الذي خرج في طلب بعيره، فاحتملته الريحُ حتى طرحته بجبلي طيء، فأُخبرَ بذلك رسولُ الله ﷺ، فقال: «أَلَمْ أَنْهَكُم أَنْ لا يَخْرُجَ أَحَدٌ مِنْكُم إلاَّ ومَعَهُ صَاحِبُه»، ثم دعا للذي خُنِقَ على مذهبه فشُفي، وأما الآخر فأهدته طيء لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة[1].

قلت: والذي في «صحيح مسلم»، من حديث أبي حُمَيد: انطلقنا حتى قَدِمْنَا تَبُوكَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «سَتَهُبُّ عَلَيْكُم اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَلا يَقُمْ مِنْكُم أَحَدٌ، فَمنْ كانَ لَهُ بَعِيرٌ فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ» فهبَّت رِيحٌ شَدِيدَة، فقام رجل فحملته الريحُ حتى ألقته بِجَبَلَي طَيء[2].

قال ابن هشام: بلغني عن الزُّهْري أنه قال: لما مرَّ رسول الله ﷺ بالحِجْر، سجَّى ثوبه على وجهه، واستحثَّ راحلته، ثم قال: «لا تَدْخُلُوا بُيوتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم، إلاَّ وَأَنْتُم بَاكُونَ، خَوْفاً أَنْ يُصِيبَكُم مَا أَصَابَهُمْ»[3].

قلت: في الصحيحين من حديث ابن عمر، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تَدْخُلوا عَلَى

---

(١) أخرجه الدورقي في مسند سعد (رقم ٨٠) وانظر: الاستيعاب (٤/ ١٦٤٢) أما لفظ: «كن أبا خيثمة» أخرجه مسلم (رقم ٢٧٦٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ١١٨-١١٩) وشرح النووي (١٧/ ٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٣٩٢) وانظر: شرح النووي (١٥/ ٤٢).

(٣) قال ابن عبد البر في التمهيد (١٣/ ١٤٥): هذا حديث يرويه ابن شهاب مرسلًا. ورواه مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر عن النبي ﷺ من حديث القعنبي، وروي من غير هذا الوجه أيضًا أنه لما أتى ذلك الوادي أمر الناس فأسرعوا، وقال: إن هذا واد ملعون. وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٥٥٧).

هؤلاءِ القَوْمِ المُعَذَّبِينَ إلاَّ أنْ تَكُونُوا بَاكِينَ، فإنْ لم تَكُونُوا بَاكِينَ، فَلا تَدْخُلوا عَلَيْهِم لا يُصِيبُكم مِثْلُ مَا أَصَابَهُم»(١). وفي صحيح البخاري أنه أمرهم بإلقاء العجين وطرحه(٢). وفي صحيح مسلم: «أنه أمرهم أن يَعْلِفوا الإبلَ العَجِين، وأن يُهرِيقُوا الماءَ، ويستقوا من البئر التي كانت تَرِدُها الناقة»(٣). وقد رواه البخاري أيضاً، وقد حفظ راويه ما لم يحفظه مَنْ روى الطرح.

وذكر البيهقي أنه نادى فيهم: «الصلاةَ جامعة»، فلما اجتمعوا، قال: «علامَ تدخُلون على قوم غَضِبَ اللهُ عليهم»، فناداه رجل فقال: نَعْجَبُ مِنْهُم يَا رَسول الله، فقال: «ألاَ أُنبِئُكُم بِما هُوَ أعْجَبُ مِنْ ذلِكَ؟ رَجُلٌ مِنْ أنْفُسِكُم يُنَبِّئُكُمْ بِما كَانَ قَبْلَكُم وَمَا هُو كَائِنٌ بَعْدَكُم، اسْتَقِيمُوا وَسَدِّدُوا، فإنَّ الله ﷻ لاَ يَعْبأُ بِعَذابِكُم شَيْئاً، وَسَيأتِي اللهُ بِقَوْمٍ لا يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِم شيئاً»(٤).

قال ابن إسحاق: وأصبح الناسُ ولا ماء معهم، فَشكَوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسولُ الله ﷺ، فأرسلَ الله سُبحانه سحابةً، فأمطرت حتى ارتوى الناسُ، واحتملُوا حاجَتهم من الماء. ثم إنَّ رسولَ الله ﷺ سار حتى إذا كان ببعضِ الطريق، ضلَّت ناقتُه، فقال زيد بن أبي الصلت وكان منافقاً: أليس يزعُمُ أنه نبي، ويُخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدرى أين ناقتُه؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ رَجُلاً يَقُولُ ـ وذَكَرَ مَقَالَتَهُ ـ وإنِّي واللهِ لا أعْلَمُ إلاَّ ما عَلَّمني اللهُ، وقَدْ دَلَّني اللهُ عَلَيْهَا، وهي في الوَادي في

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٣) ومسلم (رقم ٢٩٨٠) وانظر: فتح الباري (١/ ٥٣٠) (٦/ ٣٨٠) وشرح النووي (١٨/ ١١١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٧٨) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٨٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٨١) وانظر: شرح النووي (١٨/ ١١١-١١٢).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٤٠ رقم ٨٥١) وابن أبي شيبة (٧/ ٤٢٥ رقم ٣٧٠١٢). وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٩٤): رواه أحمد وفيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي وقد اختلط. وقال أيضًا (١٠/ ٢٣٤-٢٣٥): رواه الطبراني من طريق المسعودي وقد اختلط وبقية رجاله وثقوا. وقال في موضع ثالث (١٠/ ٢٩١): رواه الطبراني وأحمد بأسانيد وأحدها حسن.

شِعْبِ كَذا وكَذَا، وقَدْ حَبَسَتْها شَجَرَةٌ بِزِمَامِها، فانْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتوني بها فذهبوا فأَتَوْهُ بها»[(١)]. وفي طريقه تلك خَرَصَ حديقة المرأة بعشرة أوسق.

ثم مضى رسولُ الله ﷺ، فجعل يتخلَّف عنه الرجلُ فيقولون: تخلَّف فلان، فيقول: «دَعُوه، فإنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ، فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ بِكُم، وإنْ يَكُ غَيْرَ ذلِكَ، فَقَد أَرَاحَكُمُ اللهُ مِنْهُ». وتلوَّم على أبي ذَرٍ بعيرُه، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه على ظهره، ثم خرج يتبعُ أثر رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل رسولُ الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظر مِن المسلمين فقال: يا رسولَ الله؛ إنَّ هذا الرجل يمشي على الطريق وحدَه، فقال رسول الله ﷺ: «كُنْ أبَا ذَرٍ»، فلما تأمله القومُ، قالوا: يا رسول الله؛ واللهِ هو أبو ذر. فقال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أبا ذَرٍ؛ يَمْشِي وَحْدَهُ، ويَمُوتُ وَحْدَهُ، ويُبْعَثُ وحْدَهُ»[(٢)]...[(٣)].

[(٤)]ذكر أبو الأسود في مغازيه عن عُرْوَة قال: ورجع رسولُ اللهِ ﷺ قافلاً مِن تَبُوك إلى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق، مكر برسولِ الله ﷺ ناسٌ من المنافقين، فتآمرُوا أن يطرحُوه من رأسِ عَقَبَةٍ في الطريق، فلما بلغوا العقبة، أرادوا أن يسلكُوها معه، فلما غشيَهم رسولُ الله ﷺ، أُخبر خبرهم، فقال: «مَنْ شَاءَ مِنْكُم أَنْ يَأْخُذَ بِبَطْنِ الوَادِي، فإنَّه أَوْسَعُ لَكُمْ» وأَخذ رسولُ الله ﷺ العَقَبة، وأخذ الناسُ ببطن الوادي إلا النَّفَرَ الذين هَمُّوا بالمكر برسول الله ﷺ، لما سمعوا بذلك، استعدُّوا وتلثَّموا، وقد هَمُّوا بأمر عظيم، وأمر رسُولُ الله ﷺ حُذيفةَ بنَ اليمان، وعمَّارَ بن ياسر، فمشيا معه، وأمر عمَّاراً أن يأخذ بزِمام الناقة، وأمر حُذيفة أن يسوقها، فبينا هُم يسيرون، إذ سمعوا وكزة القومِ مِن ورائهم قد

(١) انظر: فتح الباري (١٣/ ٣٦٤) والمحلى (١١/ ٢٢٢) والإصابة (٢/ ٦١٩) وأخبار المدينة (١/ ٢٠٥-٢٠٦) ودلائل النبوة، لإسماعيل التيمي الأصبهاني (رقم ١٤٨) والثقات (٢/ ٩٣).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/ ٥٢ رقم ٤٣٧٣) وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٥٦) والإصابة (٧/ ١٢٩) وتاريخ مدينة دمشق (٦٦/ ١٨٦) والثقات (٢/ ٩٤) وفيض القدير (٤/ ٣٦٨) وتخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٠٦-١٠٧) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) تركنا بقية سياق الغزوة اختصارًا قرابة نصف كراسة (ج).

(٤) ١٦ زاد المعاد جـ٣.

غَشَوْه، فَغَضِبَ رسولُ الله ﷺ، وأمر حُذيفة أن يردهم، وأبصرَ حذيفة غضبَ رسول الله ﷺ، فرجع ومعه مِحجن، واستقبل وجوهَ رواحلهم، فضربها ضرباً بالمحجن، وأبصرَ القومَ، وهم متلثِّمون، ولا يشعرُ إلا أن ذلك فعل المسافر، فأرعبهم اللهُ سبحانه حين أبصروا حُذيفة، وظنوا أنَّ مكرهم قد ظهر عليه، فأسرعُوا حتى خالَطُوا الناسَ، وأقبل حُذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ، فلما أدركه، قال: «اضْرِب الرَّاحِلَة يا حُذَيْفَة، وامْشِ أنْتَ يا عَمَّارُ»، فأسرعوا حتى استووا بِأَعْلاها، فخرجوا من العَقَبَةِ ينتظرون الناسَ، فقال النبي ﷺ لحذيفَة: «هَلْ عَرَفْتَ مِنْ هؤُلاءِ الرَّهْطِ أو الرَّكْبِ أحَداً»؟ قال حُذيفة: عرفتُ راحِلة فلان وفلان، وقال: كانت ظلمة الليل، وغشيتُهم، وهم متلثِّمون، فقال رسول الله ﷺ: «هل عَلِمْتُم ما كانَ شأن الرَّكْبِ وما أرادوا»؟ قالوا: لا والله يا رسول الله، قال: «فإنهم مَكَرُوا لِيَسِيرُوا مَعِي، حَتَّى إذا اطَّلعتُ في العَقَبَةِ طَرَحُوني منها» قالوا: أَوَ لا تأمُرُ بهم يا رسول الله إذاً، فنضرِبَ أعناقهم، قال: «أكره أن يتحدَّث الناسُ ويقولوا: إنَّ محمداً قد وضع يده في أصحابه»، فسماهم لهما، وقال: «اكتماهم»[(١)].

وقال ابن إسحاق في هذه القصة: «إنَّ الله قد أخبرني بأسمائهم، وأسماء آبائهم، وسأُخبِرُك بهم إن شاء الله غداً عند وجه الصبح، فانطلِقْ حتى إذا أصبَحْت، فاجمعهم»، فلما أصبح قال: «ادع عبد الله بن أُبَي، وسعد بن أبي سرح، وأبا خاطر الأعرابي، وعامراً ـ أو أبا عامر ـ، والحلاس بن سويد بن الصامت ـ، وهو الذي قال: لا ننتهي حتى نرمي محمداً مِن العَقَبَةِ الليلة، وإن كان محمد وأصحابُه خيراً منا، إنا إذاً لغنم وهو الراعي، ولا عقل لنا وهو العاقِل، وأمره أن يدعُوَ مجمع بن حارثة، ومليحاً التيمي، وهو الذي سرق طِيبَ الكعبة، وارتدَّ عن الإسلام، وانطلق هارِباً في الأرض، فلا يُدْرىٰ أين ذهب[(٢)]، وأمره أن يدعوَ حِصن بن نمير الذي أغار على تمر الصدقة فسرقه، وقال له رسول الله ﷺ: «وَيْحَكَ، ما حَمَلَكَ عَلَى هذَا»؟ فقال: حملني عليه أني

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٢٤٣) وعزاه إلى البيهقي في الدلائل.

(٢) انظر: الدر المنثور (٤/ ٢٤٣-٢٤٤).

ظننتُ أنَّ الله لا يُطلعك عليه، فأما إذا أطلعك الله عليه، وعلمتَه، فأنا أشهد اليوم أنك رسُولُ الله، وإني لم أُؤمن بك قطُّ قبل هذه الساعة، فأقال رسولُ الله ﷺ عثرَته، وعفا عنه[1]، وأمره أن يدعو طُعيمة بن أبيرق، وعبدَ الله ابن عُيينة، وهو الذي قال لأصحابه: اسهرُوا هذه الليلة تسلمُوا الدهرَ كُلَّه، فوالله ما لكم أمر دون أن تقتلُوا هذا الرجل، فدعاه فقال: «وَيْحَكَ، مَا كَانَ يَنْفَعُكَ مِنْ قَتْلِي لَوْ أَنِّي قُتِلْتُ»؟ فقال عبد الله: فوالله يا رسولَ الله لا نزالُ بخير ما أعطاك الله النصرَ على عدوِّك، إنما نحن بالله وبِكَ، فتركه رسولُ الله ﷺ، وقال: «ادعُ مُرَّة بن الربيع»، وهو الذي قال: نقتل الواحد الفرد، فيكون الناسُ عامةً بقتله مطمئنين، فدعاه رسولُ الله ﷺ فقال: «وَيْحَكَ، مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَقُولَ الَّذِي قُلْتَ»؟ فقال: يا رسولَ الله؛ إن كنتُ قلتُ شيئاً من ذلك إنك لعالِم بهِ، وما قلتُ شيئاً من ذلك، فجمعهم رسولُ الله ﷺ وهم اثنا عشر رجلاً الذين حاربُوا الله ورسولَه وأرادوا قتله، فأخبرهم رسولُ الله ﷺ بقولهم، ومنطقهم، وسرهم، وعلانيتهم، وأطلعَ اللهُ سبحانه نبيه على ذلك بعلمه، ومات الاثنا عشر منافقين محاربين لله ولرسوله، وذلك قوله ﷻ: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ [التوبة: ٧٤] وكان أبو عامر رأسهم، وله بنوا مسجد الضِّرار، وهو الذي كان يُقال له: الراهب، فسمَّاه رسول الله ﷺ: الفاسق، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، فأرسلوا إليه، فقدم عليهم، فلما قدِم عليهم، أخزاه الله وإيَّاهم، فانهارت تلك البقعة في نار جهنم.

قلت: وفي سياق ما ذكره ابن إسحاق وَهْمٌ من وجوه:

أحدُها: أنَّ النبيَّ ﷺ أسرَّ إلى حُذيفة أسماء أُولئك المنافقين، ولم يُطلع عليهم أحداً غيره، وبذلك كان يُقال لحذيفة: إنه صاحِبُ السِّرِّ الذي لا يعلمهُ غيرُه[2]، ولم يكن

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٨/ ١٩٨ رقم ١٦٦١٦) وانظر: الإصابة (٢/ ٩٠).

(٢) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٦٢٧٨) وفيه: ذهب علقمة إلى الشام، فأتى المسجد فصلى ركعتين، فقال: اللهم ارزقني جليسًا، فقعد إلى أبي الدرداء، فقال: ممن أنت؟ قال: من أهل الكوفة، قال: أليس فيكم صاحب السر الذي كان لا يعلمه غيره. يعني حذيفة. وانظر: الفتح (١٣/ ٣٧).

عمر، ولا غيرُه يعلمُ أسماءهم، وكان إذا مات الرجل وشكُّوا فيه، يقول عمر: «انظروا، فإن صلَّى عليه حذيفة، وإلا فهو منافق منهم»[(١)].

الثاني: ما ذكرناه من قوله: فيهم عبد الله بن أُبيّ، وهو وَهْمٌ ظاهر، وقد ذكر ابن إسحاق نفسه، أنَّ عبد الله بن أُبيٍّ تخلَّف في غزوة تبوك.

الثالث: أن قوله: «وسعد بن أبي سرح» وَهْمٌ أيضاً، وخطأ ظاهرٌ، فإن سعد بن أبي سرح لم يُعرف له إسلام البتة، وإنما ابنُه عبد الله كان قد أسلم وهاجر، ثم ارتدَّ ولَحِقَ بمكة، حتى استأمن له عثمانُ النبيَّ ﷺ عام الفتح، فأمَّنه وأسلم، فَحَسُنَ إسلامُه ـ ولم يظهر منه بعد ذلك شيء يُنكر عليه، ولم يكن مع هؤلاء الاثني عشر ألبتة، فما أدري ما هذا الخطأ الفاحش؟

الرابع: قوله: «وكان أبو عامر رأسَهم»، وهذا وَهْمٌ ظاهر لا يخفى على مَنْ دونَ ابن إسحاق، بل هو نفسُه قد ذكر قِصة أبي عامر هذا في قصة الهجرة، عن عاصم بن عمر بن قتادة، أن أبا عامر لما هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة، خرجَ إلى مكة ببضعَة عشرَ رجلاً، فلما افتتح رسولُ الله ﷺ مكة، خرج إلى الطائف، فلما أسلم أهلُ الطائف، خرج إلى الشام، فمات بها طريداً وحيداً غريباً»، فأين كان الفاسقُ وغزوة تَبُوك ذهاباً وإياباً؟

[(٢)]فلما دنا رسولُ الله ﷺ من المدينة، خرج الناس لتلقيه، وخرج النساءُ والصبيان والولائد يقلن:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا   مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَدَاعْ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا   مَا دَعَا للهِ دَاعْ[(٣)]

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ١١) وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٨٦).

(٢) ٢٠ زاد المعاد جـ٣.

(٣) أخرجه أحمد بن عبد الله الطبري في الرياض النضرة (١/ ٤٨٠ رقم ٣٩٣) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٧/ ٢٦١): من طريق عبيد الله بن عائشة منقطعًا، وانظر: عمدة القاري (١٧/ ٦٠) والتمهيد (١٤/ ٨٢) ولسان العرب (٨/ ٣٨٧).

وبعضُ الرواة يَهِمُ في هذا، ويقولُ: إنما كان ذلك عند مقدَمِه إلى المدينة من مكةَ، وهو وَهْمٌ ظاهر، لأن ثنياتِ الوداع إنما هي من ناحية الشام، لا يراها القادِمُ من مكة إلى المدينة، ولا يمرُّ بها إلا إذا توجَّه إلى الشام[١].

فلما أشرف على المدينة، قال: «هذِهِ طَابَةُ، وَهَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه»[٢].

[٣]ولما دخل رسول الله ﷺ المدينَة، بدأ بالمسجد فصلَّى فيه ركعتين، ثم جلس للنَّاس، فجاءه المخلَّفون، فطفِقُوا يعتذِرون إليه، ويحلِفُون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسولُ الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، وَوَكَل سَرائِرَهم إلى الله، وجاءه كعبُ بنُ مالك، فلما سلَّم عليه، تبسم تبسُّمَ المُغْضَبِ، ثم قال له: «تعال». قال: فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ماخَلَّفَكَ، ألم تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهرَك»؟ فقلتُ: بَلَى والله، إني لو جلستُ عندَ غيرِك من أهل الدنيا، لرأيتُ أن أخرُجَ مِن سخطه بعُذرٍ، ولقد أُعطِيتُ جدلاً، ولكني والله لقد عَلِمْتُ لإن حدثتُك اليومَ حديثَ كذب تَرضى به عليَّ، ليوشِكَنَّ اللهُ أن يُسْخِطَك عَلَيَّ، ولئن حدَّثْتُكَ حَديثَ صِدقٍ، تَجِدُ عليَّ فيه، إنِّي لأرجُو فيه عفوَ الله، والله ما كان لي مِن عذر، والله ما كنتُ قَطُّ أقوى ولا أيسرَ مِني حين تخلَّفتُ عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذَا فَقَدْ صَدَقَ، فقُم حتى يقضِيَ اللهُ فيك». فقمتُ، وثار رِجالٌ من بني سلمة، فاتبعوني يُؤنِّبوني، فقالوا لي: والله ما علمناكَ كنتَ أذنبتَ ذنباً قبلَ هذا، ولقد عَجَزْتَ ألا تكونَ اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلَّفون، فقد كان كافيَك ذنبَك استغفارُ رسولِ الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يُؤنبوني حتى أردتُ أن أرجع، فأكذِبَ نفسي، ثم قلتُ لهم: هل لقي هذا معي أحدٌ؟ قالوا: نعم رَجُلانِ قالا مِثْلَ ما قلتَ، فقيل لهما مثلَ الذي قيل لك، فقلتُ: مَن هما؟ قالوا: مُرارة بنُ الربيع العامري، وهِلالُ بنُ أُمية

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ١٢٩).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٤٨١، ٤٤٢٢) ومسلم (رقم ١٣٩٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٧٨).
(٣) ٢١ زاد المعاد. جـ٣.

الواقفي، فذكروا لي رجلين صالِحين شهدا بدراً فيهما أُسوةٌ، فمضيتُ حين ذكروهما لي. ونهى رسولُ الله ﷺ المسلمينَ عن كلامِنا أيُّها الثَّلاثَةُ مِن بين مَنْ تخلَّفَ عنه، فاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وتغيَّروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرضُ، فما هي التي أعرِفُ، فلبثنا على ذلك خمسينَ ليلةً، فأما صاحباي، فاستكانا وقعدا في بيوتِهما يَبكيانِ، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدَهم، فكنتُ أخرج، وأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين، وأطوفُ في الأسواق، ولا يُكلِّمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ، فأُسَلِّمُ عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام عليَّ أم لا؟ ثم أُصَلِّي قريباً منه، فأسارِقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتي، أقبل إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه، أعرضَ عني، حتى إذا طالَ عليَّ ذلك مِن جفوة المسلمين، مشيتُ حتى تسوَّرتُ جدار حائط أبي قتادة، وهو ابنُ عمي، وأحبُّ الناسِ إليَّ، فسلَّمتُ عليه، فواللهِ ما ردَّ عليَّ السلامَ، فقلت: يا أبا قتادة؛ أنشدُك باللهِ، هل تعلَمُني أُحِبُّ الله ورسولَه ﷺ؟ فسكت، فعُدت له، فنشدتُه، فسكت، فعُدت له فنشدتُه، فقال: اللهُ ورَسُولُه أعلمُ، ففاضت عيناي، وتولّيتُ حتَّى تسورتُ الجِدَار. فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبَطِي من أنباطِ الشام ممن قَدِمَ بالطعام يَبيعه بالمدينة يقولُ: مَنْ يدُلُّ على كعبِ بْنِ مالك، فطفِقَ الناسُ يُشِيرونَ لهُ حتَّى إذا جاءني، دفع إليَّ كتاباً من ملك غَسَّان، فإذا فيه: أما بعدُ.. فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالحق بنا نُواسِك. فَقُلْتُ: لما قرأتها: وهذا أيضاً مِن البلاء، فتيممتُ بها التنور، فسجرتُها حتى إذا مضت أربعون ليلةً مِن الخمسين، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمُرُك أن تعتزِلَ امرأتَك، فقلتُ: أُطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا ولكن اعتزلها ولا تقربْها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يَقْضِيَ اللهُ في هذا الأمر، فجاءت امرأةُ هلال بن أُمية، فقالت: يا رسول الله؛ إنَّ هلالَ بنَ أُمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدُمه قال: «**لا ولكن لا يقرَبْك**»، قالت: إنه واللهِ ما بِه حركة إلى شيء، واللهِ ما زال يبكي منذ كان مِن أمره ما

كان إلى يومه هذا، قال كعب: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسولَ الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هِلال بن أُمية أن تخدُمه، فقلت: والله لا أستأذِنُ فيها رسولَ الله، وما يُدريني ما يقولُ رسول الله إذا استأذنتُه فيها، وأنا رجل شاب، ولبثتُ بعد ذلك عشرَ ليالٍ حتى كَمُلَت لنا خمسون ليلةً من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صَلَّيتُ صلاةَ الفجر صُبْحَ خمسين ليلةً على سطح بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت عليَّ الأرضُ بما رحُبت، سمعتُ صوتَ صارخ أوفى على جبل سَلْعٍ بأعلى صوتِه: يا كعبَ بنَ مالك؛ أبشر، فخررتُ ساجداً، فعرفتُ أن قد جاء فرجٌ مِن الله، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صَلَّى الفجر، فذهب الناسُ يُبشرونَنا، وذهب قِبَلَ صاحبي مبشرون، وركَضَ إليَّ رجل فرساً، وسعى ساع مِن أسلمَ، فأوفى على ذِرْوة الجبل، وكان الصوتُ أسرعَ مِن الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني، نزعتُ له ثوبيَّ فكسوتُه إياهما ببُشراه، والله ما أملك غيرهما، واستعرتُ ثوبين، فلبستُهما، فانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناسُ فوجاً فوجاً يُهنئونني بالتوبة وهم يقولون: لِيهْنِكَ توبةُ الله عليك، قال كعب: حتى دخلتُ المسجد، فإذا رسولُ الله ﷺ جالس حولَه الناس، فقام إليَّ طلحةُ بنُ عُبيد الله يُهروِلُ حتى صافحني وهنَّأني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولستُ أنساها لِطلحة، فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ، قال وهو يَبْرُقُ وجهُه من السرور: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْم مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ».

قال: قلتُ: أمِن عندك يا رسولَ الله، أم مِن عند الله؟ قال: «لا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ»، وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُه، حتى كأنه قِطعةُ قمر، وكنا نعرفُ ذلك منه، فلما جلستُ بين يديه، قلت: يا رسول الله؛ إنَّ مِن توبتي أن أنخلِع مِن مالي صَدَقة إلى الله، وإلى رسوله، فقال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قلت: فإني أُمسِكُ سهمي الذي بخَيْبرَ. فقلتُ: يا رسول الله؛ إنَّ الله إنما نجاني بالصدق، وإنَّ من توبتي ألاَّ أُحَدِّثُ إلا صدقاً ما بقيتُ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق

الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا ما أبلاني، والله ما تعمدتُ بعد ذلك إلى يومي هذا كذباً، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيتُ، فأنزلَ الله تعالى على رسوله: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ [التوبة: ١١٧] إلى قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، فوالله ما أنعم الله عليَّ نعمة قَطُّ بعد أن هداني للإسلام، أعظمَ في نفسي من صدقي رسولَ الله ﷺ، أن لا أكون كذبته، فأهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فإن الله قال للذين كذَبُوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد قال: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ [التوبة:٩٥] إلى قوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٦]. قال كعب: وكان تخلُّفنا أيُّها الثَّلاثَةُ عن أمر أُولئك الذين قبل منهم رسولُ الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ أمرَنا حتى قضى اللهُ فيه، فبذلك قال الله: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ [التوبة: ١١٨]، وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفُه إيَّانا، وإرجاؤُه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه فقبل منه(١).

وقال عثمان بن سعيد الدارمي: حدَّثنا عبد الله بن صالح، حدَّثني معاوية بن صالح، عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ﴾ [التوبة: ١٠٢] قال: كانوا عشرةَ رهط تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تَبُوك، فلما حضر رسولُ الله ﷺ أوثقَ سبعةٌ منهم أنفسَهم بسواري المسجد، وكان يَمُرُّ النبي ﷺ إذا رجع في المسجد عليهم، فلما رآهم قال: «مَنْ هؤلاء المُوثِقُون أنْفُسَهُم بالسوارِي»؟ قالوا: هذا أبو لُبابة وأصحابٌ له تخلَّفوا عنك يا رسولَ الله أوثقُوا أنفسَهم حتى يُطلِقَهُم النبي ﷺ ويعذرهم. قال: «وأَنَا أُقْسِمُ بِالله لا أُطْلِقُهُم وَلاَ أَعْذِرُهم، حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُهُمْ، رَغِبُوا عَنِّي، وتَخَلَّفُوا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٤١٨) ومسلم (رقم ٢٧٦٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ١١٨-١٢٠) وشرح النووي (١٧/ ٨٧-٩٣).

عَن الغَزْو مَعَ المُسْلِمِينَ»، فلما بلغهم ذلك، قالوا: ونحن لا نُطْلِقُ أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يُطلقنا، فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ وعسى من الله واجب ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾. فلما نزلت، أرسل إليهم النبي ﷺ، فأطلقهم، وعذرهم، فجاءوا بأموالهم، فقالوا: يا رسول الله؛ هذه أموالنا، فتصدَّق بها عنا، واستغفر لنا، قال: «ما أُمِرْتُ أنْ آخُذَ أمْوَالَكُم» فأنزل الله: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ ﴾ يقول: استغفر لهم ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فأخذ مِنهم الصدقة، واستغفر لهم، وكان ثلاثة نَفَر لم يُوثقوا أنفسهم بالسواري، فأُرجِئوا لا يَدرونَ أيُعذَّبون أم يُتاب عليهم؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ﴾ إلى قَولِه: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾. إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تابعَه عطية بن سعد(١).

(٢)في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد.

فمنها: جوازُ القتال في الشهر الحرام ـ إن كان خروجُه في رجب محفوظاً ـ على ما قاله ابن إسحاق، ولكن ههنا أمر آخر، وهو أن أهلَ الكتاب لم يكونوا يُحرِّمون الشهرَ الحرام، بخلاف العرب، فإنها كانت تُحرِّمه، وقد تقدَّم أنَّ في نسخ تحريمِ القتال فيه قولين، وذكرنا حُجَج الفريقين.

ومنها: تصريحُ الإمام للرعية، وإعلامُهم بالأمر الذي يضرُّهم سترُه وإخفاؤُه، ليتأهبوا له، ويُعِدُّوا له عُدته، وجوازُ ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة.

ومنها: أنَّ الإمام إذا استنفر الجيش، لزمهم النفيرُ، ولم يجز لأحد التخلفُ إلا بإذنه،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٢-١٣) وانظر: تفسير السيوطي (٤/ ٢٧٥) وتخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٩٨).

(٢) ٢٦ زاد المعاد جـ٣.

ولا يُشترطُ في وجوب النفير تعيينُ كلِّ واحد منهم بعينه، بل متى استنفر الجيش، لزم كُلَّ واحد منهم الخروجُ معه، وهذا أحدُ المواضع الثلاثة التي يصير فيها الجهاد فرض عَيْن. والثاني: إذا حضر العدوُّ البلد. والثالث: إذا حضر بين الصفين.

ومنها: وجوبُ الجهاد بالمال، كما يجبُ بالنفس، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد، وهي الصوابُ الذي لا ريب فيه، فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيقُ الأمر بالجهاد بالنفس في القرآن وقرينُه، بل جاء مقدَّماً على الجهاد بالنفس في كُلِّ موضع، إلا موضعاً واحداً، وهذا يدل على أن الجهاد به أهم وآكدُ من الجهاد بالنفس، ولا ريبَ أنه أحدُ الجهادين، كما قال النبي ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فَقَدْ غزَا»[1]، فيجب على القادر عليه، كما يجب على القادر بالبدن، ولا يَتِمُّ الجهاد بالبدن إلا ببذله، ولا ينتصر إلا بالعدد والعُدد، فإن لم يقدر أن يكثر العَدد، وجب عليه أن يمد بالمال والعُدة، وإذا وجب الحجُّ بالمال على العاجز بالبدن، فوجوبُ الجهاد بالمال أَوْلىٰ وأَحرىٰ.

ومنها: ما برَّز به عُثمانُ بن عفان من النفقةِ العظيمة في هذه الغزوة، وسبق به الناس، فقال النبي ﷺ: «غَفَرَ اللهُ لَكَ يا عُثْمَانُ ما أَسْرَرْتَ، ومَا أَعْلَنْتَ، ومَا أَخْفَيْتَ، وما أَبْدَيْتَ»[2]. ثم قال: «ما ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ اليَوْمِ»[3]، وكان قد أنفق ألفَ دينار، وثلاثمائة بعير بعُدتها وأحلاسها وأقتابِها.

ومنها: أن العاجزَ بماله لا يُعذرُ حتى يَبْذُلَ جهده، ويتحقَّقَ عجزُهُ، فإن الله سبحانه إنما نفى الحَرَجَ عن هؤلاء العاجزين بعد أن أتَوْا رسولَ الله ﷺ ليحملهم، فقال: ﴿لَآ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٤٣) ومسلم (رقم ١٨٩٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٠) (١١/ ٧٨) وشرح النووي (١٣/ ٤٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٣٦٤ رقم ٣٢٠٥٩) والديلمي في الفردوس (٣/ ٩٩ رقم ٤٢٧٥) وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٤٩) وأحمد في فضائل الصحابة (١/ ٤٥٦ رقم ٧٣٦) (١/ ٥١٨ رقم ٨٥٣).

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ١١٠ رقم ٤٥٥٣) والترمذي (رقم ٣٧٠١) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٨٧ رقم ١٢٧٩) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٤٥ رقم ١٢٧٤) وحسنه الترمذي وصححه الحاكم وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي وفي تحقيق مشكاة المصابيح (رقم ٦٠٦٤).

أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ فرجعوا يبكون لما فاتهم من الجهاد، فهذا العاجز الذي لا حَرَج عليه.

ومنها: استخلافُ الإمام إذا سافر رجلاً من الرعية على الضعفاء، والمعذورين، والنساء، والذُّرِّية، ويكون نائبه مِن المجاهدين، لأنه من أكبر العون لهم. وكان رسولُ الله ﷺ يستخلِف ابنَ أُمِّ مكتوم، فاستخلفه بضعَ عشرة مرة، وأما في غزوة تَبُوك. فالمعروفُ عند أهل الأثر أنه استخلف علي بن أبي طالب، كما في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص، قال: خلَّف رسولُ الله ﷺ علياً في غزوة تَبُوك، فقال: يا رسول الله؛ تُخَلِّفُني مَعَ النساءِ والصبيان، فقال: «أَمَا تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَىٰ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ نَبِي بَعْدِي»[1]. ولكن هذه كانت خلافةً خاصة على أهله، وأما الاستخلافُ العام، فكان لمحمد بن مسلمة الأنصاري، ويدل على هذا أن المنافقين لما أرجفُوا به، وقالوا: خلَّفه استثقالاً، أخذ سلاحه ثم لحق بالنبي ﷺ، فأخبره، فقال: «كَذَبُوا، ولكِنْ خَلَّفْتُكَ لِمَا تَرَكْتُ وَرائي، فارْجعْ فاخْلُفْني في أَهْلي وَأَهْلِكَ»[2]...

[3]ومنها: انعقادُ اليمين في حال الغضب إذا لم يَخْرُج بصاحبه إلى حد لا يعلم معه ما يقول، وكذلك ينفُذ حكمه، وتَصِحُّ عقُودُه، فلو بلغ به الغضبُ إلى حد الإغلاق، لم تنعقِدْ يمينه ولا طلاقه. قال أحمد في رواية حنبل في حديث عائشة: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا طَلاَقَ وَلا عَتَاقَ في إغْلاَقٍ»[4]، يريد الغضبَ.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٧٠٦) ومسلم (رقم ٢٤٠٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٧٤) وشرح النووي (١٥/ ١٧٤).

(٢) أخرجه البزار (٤/ ٣٢-٣٣ رقم ١١٩٤) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦٠٠ رقم ١٣٣٢) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢/ ٣٠ -٣١) وانظر: الرياض النضرة (٢/ ١٩١).

(٣) ٣٢ زاد المعاد جـ٣.

(٤) أخرجه أبو داود ر(رقم ٢١٩٣) وابن ماجه (رقم ٢٠٤٦) والبيهقي (٧/ ٣٥٧ رقم ١٤٨٧٥) والدارقطني (٤/ ٣٦ رقم ٩٩) والحاكم (٢/ ٢١٦ رقم ٢٨٠٢) وأبو يعلى (٧/ ٤٢١ رقم ٤٤٤٤) وأحمد (٦/ ٢٧٦) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٢٨٧ رقم ٥٠٠) وصححه الحاكم. وحسنه الألباني في صحيح أبي داود (٢/ ٢٥٨) وفي إرواء الغليل (٧/ ١١٣).

ومنها: قولُه ﷺ: «ما أنا حملتُكم، ولكن الله حملَكم»(١)، قد يتعلق به الجبري، ولا متعلق له به، وإنما هذا مثل قوله: «واللهِ لا أُعْطي أحَداً شَيْئاً، ولا أَمْنَعُ، وإنَّما أَنَا قَاسِمٌ، أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ»(٢)، فإنه عبد الله ورسوله، إنما يتصرف بالأمر، فإذا أُمِرَه ربه بشيءٍ، نفذه، فالله هو المعطي، والمانع، والحامل، والرسول منفذ لما أمر به. وأما قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال: ١٧]، فالمرادُ به القبضةُ من الحصباء التي رمىٰ بها وجوهَ المشركين، فوصلَت إلىٰ عُيون جميعهم، فأثبتَ اللهُ سبحانه له الرمي باعتبار النبذِ والإلقاء، فإنه فعله، ونفاه عنه باعتبار الإيصال إلىٰ جميع المشركين، وهذا فعلُ الرب تعالىٰ لا تَصِلُ إليه قُدْرَةُ العبد، والرميُ يُطلق علىٰ الخَذف وهو مبدؤه، وعلىٰ الإيصال، وهو نهايتُه.

ومنها: تركُه قتل المنافقين، وقد بلغه عنهم الكفرُ الصريحُ، فاحتج به مَن قال: لا يُقْتَلُ الزنديق إذا أظهر التوبة، لأنهم حلفوا لرسول الله ﷺ أنهم ما قالوا، وهذا إذا لم يكن إنكاراً، فهو توبة وإقلاع، وقد قال أصحابُنا وغيرهم:ومَن شُهِدَ عليه بالرِّدَّةِ، فشهد أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمداً رسول الله، لم يكشف عن شيء منه بعد، وقال بعض الفقهاء: إذا جحد الرِّدَّة، كفاه جحدها. ومَن لم يقبل توبة الزنديق، قال: هؤلاء لم تَقُمْ عليهم بيِّنة، ورسول الله ﷺ لا يحكمُ عليهم بعلمه، والذي بلَّغ رسول الله عنهم قولَهم لم يبلِّغه إياه نصابُ البيِّنة، بل شهد به عليهم واحد فقط، كما شهد زيدُ بن أرقم وحدَه علىٰ عبد الله ابن أُبَيّ، وكذلك غيرُه أيضاً، إنما شهد عليه واحد.

وفي هذا الجواب نظر، فإن نفاق عبد الله بن أُبَيّ، وأقوالَه في النفاق كانت كثيرةً جداً، كالمتواترة عند النبي ﷺ وأصحابه، وبعضهم أقرَّ بلسانه، وقال: ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥]، وقد واجهه بعضُ الخوارج في وجهه بقوله: إنَّك لم

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١١٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢١٨).

تَعْدِلْ[١]. والنبي ﷺ لما قيل له: ألا تقتلهم؟ لم يقل ما قامت عليهم بيِّنةٌ، بل قال: «لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أَصْحَابَه»[٢].

فالجوابُ الصحيح إذن: أنه كان في ترك قتلهم في حياة النبي ﷺ مصلحة تتضمن تأليفَ القلوب على رسول الله ﷺ، وجمع كلمة الناس عليه، وكان في قتلهم تنفيرٌ، والإسلام بعدُ في غُربة، ورسولُ الله ﷺ أحرصُ شيءٍ على تأليف الناسِ، وأتركُ شيء لما يُنَفِّرُهم عن الدخول في طاعته، وهذا أمر كان يختصُّ بحال حياته ﷺ، وكذلك تركُ قتل مَن طعن عليه في حكمه بقوله في قصة الزُّبير وخصمه: «أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ». وفي قسمه بقوله: «إِنَّ هذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ»[٣]. وقول الآخر له: «إنك لم تعدِل»، فإنَّ هذا محضُ حقه، له أن يستوفِيَه، وله أن يترُكَه، وليس للأُمة بعده تركُ استيفاء حقِّه، بل يتعينُ عليهم استيفاؤه، ولا بُدَّ، ولتقرير هذه المسائل موضع آخر، والغرضُ التنبيه والإشارة.

ومنها: أن أهلَ العهد والذِّمَّة إذا أحدث أحد منهم حَدَثاً فيه ضرر على الإسلام، انتقضَ عهدُه في ماله ونفسه، وأنه إذا لم يقدر عليه الإمام، فدمُه وماله هدر، وهو لمن أخذه، كما قال في صلح أهل أيلة: فمَن أحدث منهم حَدَثاً، فإنه لا يحول مالُه دون نفسه، وهو لمن أخذه من الناس[٤]، وهذا لأنه بالإحداث صار محارباً، حكمه حكم أهل الحرب[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦١٠) ومسلم (رقم ١٠٦٤) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٥٤) (١٢/ ٢٩٣) وشرح النووي (٧/ ١٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٩٠٥) ومسلم (رقم ٢٥٨٤) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٢٧) (٥/ ٤٠) وشرح النووي (٧/ ١٥٨-١٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٦١، ٢٣٦٢) ومسلم (رقم ٢٣٥٧) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٦) (٨/ ٢٥٤) وشرح النووي (١٢/ ١٥، ١٠٧).

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٢/ ٤١) وانظر: عون المعبود (٨/ ٢٣٠).

(٥) ساق المؤلف رحمه الله ما تضمنته هذه الغزوة في قرابة كراستين، وهي فوائد عظيمة منوعة نقلنا بعضها في هذه السورة وتركنا الباقي اختصارًا (ج).

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾.

(١) تحريقُ أمكنة المعصية التي يُعصىٰ اللهُ ورسولُه فيها وهدمُها، كما حرقَ رسول الله ﷺ مسجد الضِّرار، وأمر بهدمه، وهو مسجدٌ يُصلَّىٰ فيه، ويُذكر اسمُ الله فيه، لما كان بناؤه ضِراراً وتفريقاً بين المؤمنينَ، وإرصادًا ومأوىٰ للمنافقين المحاربين لله ورسوله.

وكُلُّ مكان هذا شأنه، فواجب علىٰ الإمام تعطيلُه: إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وُضِعَ له. وإذا كان هذا شأنَ مسجد الضِّرارِ، فمشاهِدُ الشِّرْكِ التي تدعو سدنتُها إلىٰ اتخاذ مَنْ فيها أنداداً من دون الله أحقُّ بالهدمِ وأوجب، وكذلك محالُّ المعاصي والفسوق، كالحانات، وبُيوت الخمَّارين، وأرباب المنكرات، وقد حرق عمرُ بن الخطاب قريةً بكمالها يُباع فيها الخمر، وحرق حانوت رُويشد الثقفي وسماه فويسقاً، وحرق قصرَ سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية، وهمَّ رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تَاركي حضور الجماعة والجُمُعة، وإنما منعه مَن فيها من النساء والذُّرِّية الذين لا تجبُ عليهم كما أخبر هو عن ذلك.

ومنها: أن الوقف لا يصح علىٰ غير برٍّ ولا قُربة، كما لم يصحَّ وقفُ هذا المسجد، وعلىٰ هذا: فيُهدم المسجد إذا بُني علىٰ قبر، كما يُنبش الميتُ إذا دُفِنَ في المسجد، نص

---

(١) ٣٥ زاد المعاد جـ٣.

علىٰ ذلك الإمام أحمد وغيرُه، فلا يجتمع فى دين الإسلام مسجدٌ وقبر، بل أيُّهما طرأ علىٰ الآخر. منع منه، وكان الحكم لِلسابق، فلو وُضِعا معاً، لم يجز، ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز، ولا تَصِحُّ الصلاة فى هذا المسجد لنهي رسولِ الله ﷺ عن ذلك، ولعنه مَن اتخذ القبر مسجداً أو أوقد عليه سراجاً، فهذا دينُ الإسلام الذىٰ بعث الله به رسوله ونبيه، وغربتُه بينَ الناس كما ترىٰ.

[(١)]أقبل رسول الله ﷺ مِنْ تَبُوك، حتىٰ نزل بذي أوَان، وبينها وبين المدينة ساعة، وكان أصحابُ مسجد الضِّرار أتَوْه وهو يتجهَّز إلىٰ تَبُوك، فقالوا: يا رسولَ الله ؛ إنَّا قد بنينا مسجداً لِذي العِلَّة والحاجة، واللَّيلة المطيرة الشاتية، وإنَّا نُحِبُّ أن تأتيَنا فتُصَلِّيَ لنا فيه، فقال: «إنِّي عَلىٰ جَناح سَفَر، وحَالِ شُغْلٍ، وَلَوْ قَدِمْنا إنْ شَاءَ اللهُ لأَتَيْنَاكُم فَصَلَّيْنَا لَكُم فيه»، فلما نزل بذي أوانَ جاءه خبرُ المسجد من السماء، فدَعا مالك بن الدُّخْشم أخا بني سلمة بن عوف، ومَعن بن عدي العجلاني، فقال: «انطلقا إلىٰ هذا المسجدِ الظالِمِ أهلُه، فاهدِماه، وحرِّقاه»، فخرجا مُسرعَين، حتىٰ أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهطُ مالك بن الدُّخشم، فقال مالك لمعن: أنْظِرْني حتىٰ أخرُج إليك بنارٍ مِن أهلي، ودخل إلىٰ أهله، فأخذ سعفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرجا يشتدَّان حتىٰ دخلاه وفيه أهلُه، فحرقاه وهدماه، فتفرَّقوا عنه، فأنزل الله فيه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ١٠٧-١١٠]. إلىٰ آخر القصة[(٢)]. وذكر ابن إسحاق الذين بنوه، وهم اثنا عشر رجلاً، منهم: ثعلبةُ بن حاطب.

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي: حدَّثنا عبد الله بن صالح، حدَّثني معاوية بن صالح، عن علىّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾: «هم أُناس من الأنصار ابتَنَوْا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابنُوا

(١) ١٩ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه الطبري ١١/ ٢٣) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٨٦) وتفسير ابن كثير(٢/ ٣٨٩) وتخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٠٠-١٠١).

مسجدكم، واستمِدُّوا ما استطعتم مِن قوة ومِن سلاح، فإني ذاهبٌ إلىٰ قَيْصرَ ملكِ الروم، فآتي بجند من الروم، فأُخْرِجُ محمداً وأصحابه، فلما فرغوا مِن مسجدهم، أتوا النبي ﷺ فقالوا: إنَّا قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنُحب أن تُصَلِّي فيه، وتدعو بالبركة، فأنزلَ اللهُ ﷻ: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ يعني مسجد قباء ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ يعني قواعده، ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني: الشك ﴿ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ يعني بالموت(١).

(٢)ومنها: جواز إنشادِ الشِّعر للقادم فرحاً وسروراً به ما لم يكن معه مُحرَّم من لهو، كمزمار، وشبابة، وعود، ولم يكن غناءً يتضمن رُقية الفواحش، وما حرَّم الله، فهذا لا يُحَرِّمُه أحد، وتَعَلُّقُ أربابِ السماع الفِسقي به كتعلق مَن يستحِلُّ شُربَ الخمر المسكر قياساً علىٰ أكل العنب، وشرب العصير الذي لا يُسْكِر، ونحو هذا من القياسات التي تشبه قياس الذين قالوا: ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ومنها: استماعُ النبي ﷺ مدحَ المادحين له، وتركُ الإنكار عليهم، ولا يَصِحُّ قياسُ غيره عليه في هذا، لما بين المادحين والممدوحين من الفروق، وقد قال: «احْثُوا في وُجُوه المَدَّاحِينَ التُّرابَ»(٣).

ومنها: ما اشتملت عليه قصةُ الثلاثة الذين خُلِّفُوا مِن الحِكَم والفوائد الجمَّة، فنشيرُ إلىٰ بعضِها:

فمنها: جوازُ إخبار الرجل عن تفريطه وتقصِيرِه في طاعة الله ورسوله، وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمرُه، وفي ذلك مِن التحذير والنصيحة، وبيانِ طُرُقِ الخير والشر، وما يترتب عليها ما هو من أهم الأُمور. ومنها: جوازُ مدح الإنسان نفسه بما فيه من

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٢٤) وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٨٧٨ رقم ١٠٠٦٠) وانظر: الدر المنثور (٤/ ٢٨٤) وتخريج الأحاديث (٢/ ١٠٢).

(٢) ٣٦ زاد المعاد جـ٣.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٣٠٠٢) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٧٧) (١٣/ ٤٠٠) وشرح النووي (١٨/ ١٢٨).

الخير إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع. ومنها: تسلية الإنسان نفسَه عما لم يُقدَّر له من الخير بما قُدِّر له مِن نظيره أو خير منه. ومنها: أن بَيْعةَ العَقَبَةِ كانت مِن أفضل مشاهد الصحابة، حتى إن كعباً كان لا يراها دونَ مشهد بدر. ومنها: أن الإمام إذا رأى المصلحة في أن يستر عن رعيته بعضَ ما يهم به ويقصِدُه من العدو، ويُورِّى به عنه، استُحِبَّ له ذلك، أو يتعين بحسب المصلحة. ومنها أن السِّترَ والكِتمان إذا تضمن مفسدة، لم يجز. ومنها: أن الجيشَ في حياة النبي ﷺ لم يكن لهم دِيوان، وأول مَن دوَّن الدِّيوان عمر بن الخطاب ﷺ[1]، وهذا مِن سُنَّته التي أمر النبي ﷺ باتباعها، وظهرت مصلحتُها، وحاجةُ المسلمين إليها.

[2]من أراد علو بنيانه فعليه بتوثيق أساسه وإحكامه وشدة الاعتناء به، فإن علو البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه. فالأعمال والدرجات بنيان وأساسها الإيمان، ومتى كان الأساس وثيقا حمل البنيان واعتلى عليه. وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد. فالعارف همّته تصحيح الأساس وإحكامه، والجاهل يرفع في البناء عن غير أساس، فلا يلبث بنيانه أن يسقط. قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة: ١٠٩] فالأساس لبناء الأعمال كالقوة لبدن الإنسان، فإذا كانت القوة قوية حملت البدن، ودفعت عنه كثيرًا من الآفات، وإذا كانت القوة ضعيفة ضعف حملها للبدن، وكانت الآفات إليه أسرع شيء، فاحمل بنيانك على قوة أساس الإيمان، فإذا تشعث شيء من أعالي البناء وسطحه كان تداركه أسهل عليك من

---

(١) انظر: فتح الباري (٨/ ١١٨) وعمدة القاري (٢٤/ ٦٤) والطبقات الكبرى (٣/ ٢٨٢) وتهذيب الأسماء (٢/ ٣٣١).

(٢) ١٥٤ فوائد.

خراب الأساس. وهذا الأساس أمران: صحة المعرفة بالله وأمره وأسمائه وصفاته.

والثاني: تجريد الانقياد له ولرسوله دون ما سواه، فهذا أوثق أساس أسس العبد عليه بنيانه، وبحسبه يعتلي البناء ما شاء. فأحكم الأساس، واحفظ القوة، ودم على الحمية، واستفرغ إذا زاد بك الخلط، والقصد القصد وقد بلغت المراد، وإلا فما دامت القوة ضعيفة والمادة الفاسدة موجودة والاستفراغ معدوما:

فاقر السلام على الحياة فإنها قد آذنتك بسرعة التوديع(١)

فإذا كمل البناء فبيضه بحسن الخلق والإحسان إلى الناس، ثم حطه بسور من الحذر، لا يقتحمه عدو، ولا تبدو منه العورة، ثم أرخ الستور على أبوابه، ثم أقفل الباب الأعظم بالسكوت عما تخشى عاقبته، ثم ركب له مفتاحا من ذكر الله، به تفتحه وتغلقه، فإن فتحت فتحت بالمفتاح، وإن أغلقت الباب أغلقته به، فتكون حينئذ قد بنيت حصنًا، تحصنت فيه من أعدائك، إذا طاف به العدو لم يجد منه مدخلا، فييأس منك. ثم تعاهد بناء الحصن كل وقت، فإن العدو إذا لم يطمع في الدخول من الباب نقّب عليك النقوب من بعيد بمعاول الذنوب، فإن أهملت أمره وصل إليك النقب، فإذا العدو معك في داخل الحصن، فيصعب عليك إخراجه، وتكون معه على ثلاث خلال: إما أن يغلبك على الحصن، ويستولي عليه، وإما أن يساكنك فيه، وإما أن يشغلك بمقابلته عن تمام مصلحتك، وتعود إلى سد النقب ولم شعث الحصن.

***

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾.

(١) لم أجده.

[(١)] جعل سبحانه ها هنا الجنة ثمنا لنفوس المؤمنين وأموالهم، بحيث إذا بذلوها فيه استحقوا الثمن، وعقد معهم هذا العقد، وأكده بأنواع من التأكيد.

أحدها: إخبارهم ﷺ بصيغة الخبر المؤكد بأداة إن.

الثاني: الإخبار بذلك بصيغة الماضي الذي قد وقع وثبت واستقر.

الثالث: إضافة هذا العقد إلى نفسه سبحانه، وأنه هو الذي اشترى هذا المبيع.

الرابع: أنه أخبر بأنه وعد بتسليم هذا الثمن وعدا لا يخلفه ولا يتركه.

الخامس: أنه أتى بصيغة على التي للوجوب، إعلاما لعباده بأن ذلك حق عليه، أحقه هو على نفسه.

السادس: أنه أكد ذلك بكونه حقا عليه.

السابع: أنه أخبر عن محل هذا الوعد، وأنه في أفضل كتبه المنزلة من السماء، وهي التوراة والإنجيل والقرآن.

الثامن: إعلامه لعباده بصيغة استفهام الإنكار، وأنه لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

التاسع: أنه ﷺ أمرهم أن يستبشروا بهذا العقد، ويبشر به بعضهم بعضا بشارة من قد تم له العقد ولزم، بحيث لا يثبت فيه خيار، ولا يعرض له ما يفسخه.

العاشر: أنه أخبرهم إخبارا مؤكدا بأن ذلك البيع الذي بايعوه به هو الفوز العظيم، والبيع ههنا بمعنى المبيع الذي أخذوه بهذا الثمن، وهو الجنة، وقوله: ﴿ بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ أي عاوضتم و ثامنتم به.

ثم ذكر سبحانه أهل هذا العقد الذي وقع العقد وتم لهم دون غيرهم، وهم: التائبون مما يكره، العابدون له بما يحب، الحامدون له على ما يحبون وما يكرهون، السائحون، وفسرت السياحة بالصيام، وفسرت بالسفر في طلب العلم، وفسرت بالجهاد، وفسرت بدوام الطاعة.

---

(١) ٦٤ حادي الأرواح.

والتحقيق فيها أنها سياحة القلب في ذكر الله ومحبته والإنابة إليه والشوق إلى لقائه، ويترتب عليها كل ما ذكر من الأفعال، ولذلك وصف الله سبحانه نساء النبي ﷺ اللاتي لو طلق أزواجه بدله بهن بأنهن سائحات وليست سياحتهن جهادا ولا سفرا في طلب علم ولا إدامة صيام، وإنما هي سياحة قلوبهن في محبة الله تعالى، وخشيته والإنابة إليه وذكره.

وتأمل كيف جعل الله سبحانه التوبة والعبادة قرينتين: هذه ترك ما يكره، وهذه فعل ما يحب، والحمد والسياحة قرينتين هذا الثناء عليه بأوصاف كماله، وسياحة اللسان في أفضل ذكره، وهذه سياحة القلب في حبه وذكره وإجلاله.

كما جعل سبحانه العبادة والسياحة قرينتين في صفة الأزواج، فهذه عبادة البدن، وهذه عبادة القلب.

وجعل الإسلام والإيمان قرينين، فهذا علانية، وهذا في القلب، كما في المسند عنه ﷺ: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب»[1].

وجعل القنوت والتوبة قرينين: هذا فعل ما يحب، وهذا ترك ما يكره، وجعل الثيوبة والبكارة قرينتين، فهذه قد وطئت وارتاضت وذللت صعوبها، وهذه روضة أنف لم يرتع فيها بعد.

وجعل الركوع والسجود قرينين، وجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قرينين وأدخل بينهما الواو دون ما تقدم، إعلاما بأن أحدهما لا يكفي حتى يكون مع الآخر، وجعل ذلك قرينا لحفظ حدوده، فهذا حفظها في نفس الإنسان، وذلك أمر غيره بحفظها.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٤) وأبو يعلى (٥/ ٣٠١-٣٠٢ رقم ٢٩٢٣) وابن أبي شيبة (٦/ ١٥٩ رقم ٣٠٣١٩) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥٢): رواه أحمد وأبو يعلى بتمامه والبزار باختصار ورجاله رجال الصحيح ما خلا علي بن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان، وأبو داود الطيالسي، وأبو حاتم، وابن معين، وضعّفه آخرون.

وأفهمت الآية خطر النفس الإنسانية وشرفها وعظم مقدارها، فإن السلعة إذا خفي عليك قدرها فانظر إلى المشتري لها من هو وانظر إلى الثمن المبذول فيها ما هو؟ وانظر إلى ما جرى على يده عقد التبايع، فالسلعة النفس، والله سبحانه المشتري لها، والثمن جنات النعيم، والسفير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة وأكرمهم عليه وخيرهم من البشر وأكرمهم عليه:

قد هيؤك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل(١)

وفي جامع الترمذي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة**»(٢) قال: هذا حديث حسن غريب.

(٣)وأما قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ فكان تقديم الأنفس هو الأولى؛ لأنها هي المشتراة في الحقيقة، وهي مورد العقد، وهي السلعة التي استامها ربها، وطلب شراءها لنفسه، وجعل ثمن هذا العقد رضاه وجنته، فكانت هي المقصود بعقد الشراء، والأموال تبع لها؛ فإذا ملكها مشتريها ملك مالها، فإن العبد وما يملكه لسيده، ليس له فيه شيء، فالمالك الحق إذا ملك النفس ملك أموالها ومتعلقاتها؛ فحسن تقديم النفس على المال في هذه الآية حسنًا لا مزيد عليه.

(٤)ويتعلق بهذا نوع آخر من التقديم لم يذكره، وهو تقديم الأموال على الأنفس في

---

(١) هذا البيت من بحر البسيط، وينسب إلى الحسين بن علي الطغرائي مؤيد الدين الأصبهاني، كان وزيرًا للسلطان مسعود بن محمد السلجوقي صاحب الموصل. توفي سنة ٥١٣ هـ. وانتحل البيت أحمد نسيم ابن عثمان بك المتوفى بالقاهرة سنة ١٣٥٦هـ والبيت عندهما: قد رشحوك لأمر إن فطنت له.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٥٠) والحاكم (٤/ ٣٤٣ رقم ٧٨٥١) وعبد بن حميد (رقم ١٤٦٠) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٥١٢ رقم ٨٨١) (٧/ ٣٥٨ رقم ١٠٥٧٦) والرامهرمزي في أمثال الحديث (رقم ٨٣) وحسنه الترمذي وصححه الحاكم.

(٣) ٧٨ بدائع الفوائد جـ١.

(٤) ٧٧ بدائع الفوائد جـ١.

الجهاد، حيث ما وقع في القرآن الكريم إلا في موضع واحد، وهو قوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

وأما سائر المواضع فقدم فيها المال نحو قوله: ﴿ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف: ١١] وقوله: ﴿ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [التوبة: ٢٠].

وهو كثير، فما الحكمة في تقديم المال على النفس؟ وما الحكمة في تأخيره في هذا الموضع وحده؟ وهذا لم يتعرض له السهيلي رحمه الله.

فيقال: أولًا: هذا دليل على وجوب الجهاد بالمال، كما يجب بالنفس، فإذا دهم العدو وجب على القادر الخروج بنفسه، فإن كان عاجزًا وجب عليه أن يكتري بماله ـ وهذا إحدى الروايتين عن الإمام أحمد، والأدلة عليها أكثر من أن تذكر هنا، ومن تأمل أحوال النبي ﷺ وسيرته في أصحابه وأمرهم بإخراج أموالهم في الجهاد قطع بصحة هذا القول.

والمقصود تقديم المال في الذكر، وأن ذلك مشعر بإنكار وهم من يتوهم أن العاجز بنفسه إذا كان قادرا على أن يغزو بماله لا يجب عليه شيء، فحيث ذكر الجهاد قدم ذكر المال، فكيف يقال لا يجب به!

ولو قيل: إن وجوبه بالمال أعظم وأقوى من وجوبه بالنفس، لكان هذا القول أصح من قول من قال: لا يجب بالمال، وهذا بين.

وعلى هذا فتظهر الفائدة في تقديمه في الذكر.

وفائدة ثانية على تقدير عدم الوجوب، وهي أن المال محبوب النفس ومعشوقها، التي تبذل ذاتها في تحصيله وترتكب الأخطار، وتتعرض للموت في طلبه، وهذا يدل على أنه هو محبوبها ومعشوقها، فندب الله تعالى محبيه المجاهدين في سبيله إلى بذل معشوقهم ومحبوبهم في مرضاته، فإن المقصود أن يكون الله هو أحب شيء إليهم، ولا يكون في الوجود شيء أحب إليهم منه، فإذا بذلوا محبوبهم في حبه، نقلهم إلى مرتبة أخرى أكمل منها، وهي بذل نفوسهم له، فهذا غاية الحب، فإن الإنسان لا شيء

أحب إليه من نفسه، فإذا أحب شيئا بذل له محبوبه من نفسه وماله، فإذا آل الأمر إلى بذل نفسه ضن بنفسه وآثرها على محبوبه، هذا هو الغالب، وهو مقتضى الطبيعة الحيوانية والإنسانية، ولهذا يدافع الرجل عن ماله وأهله وولده، فإذا أحس بالمغلوبية والوصول إلى مهجته ونفسه فر وتركهم، فلم يرض الله من محبيه بهذا، بل أمرهم أن يبذلوا له نفوسهم بعد أن بذلوا له محبوباتها.

وأيضًا فبذل النفس آخر المراتب، فإن العبد يبذل ماله أولا يقي به نفسه، فإذا لم يبق له ماله بذل نفسه، فكان تقديم المال على النفس في الجهاد مطابقا للواقع.

***

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

[(1)]الكلام على واو الثمانية، قولهم: إن الواو تأتي للثمانية، ليس عليه دليل مستقيم، وقد ذكروا ذلك في مواضع، فلنتكلم عليها واحدًا واحدًا.

الموضع الأول قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[التوبة: ١١٢].

فقيل: ﴿وَٱلنَّاهُونَ﴾ الواو واو الثمانية لمجيئها بعد استيفاء الأوصاف السبعة، وذكروا في الآية وجوهًا أخرى:

منها: أن هذا التفنن في الكلام أن يعطف بعضه ويترك عطف بعضه.

ومنها: أن الصفات التي قبل هاتين الصفتين صفات لازمة متعلقة بالعامل، وهاتان الصفتان متعديتان متعلقتان بالغير، فقطعتا عما قبلهما بالعطف.

ومنها: أن المراد التنبيه على أن الموصوفين بالصفات المتقدمة هم الآمرون

(١) ٥١ بدائع جـ٣.

بالمعروف والناهون عن المنكر، وكل هذه الأجوبة غير سديدة، وأحسن ما يقال فيها: إن الصفات إذا ذكرت في مقام التعداد:

فتارة: يتوسط بينها حرف العطف، لتغايرها في نفسها، وللإيذان بأن المراد ذكر كل صفة بمفردها.

وتارة: لا يتوسطها العاطف لاتحاد موصوفها وتلازمها في نفسها، وللإيذان بأنها في تلازمها كالصفة الواحدة.

وتارة: يتوسط العاطف بين بعضها، ويحذف مع بعض، بحسب هذين المقامين.

فإذا كان المقام مقام تعداد الصفات من غير نظر إلى جمع أو انفراد؛ حسن إسقاط حرف العطف.

وإن أريد الجمع بين الصفات أو التنبيه على تغايرها حسن إدخال حرف العطف.

فمثال الأول: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ﴾ وقوله: ﴿مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ [التحريم: ٥].

ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

وتأمل كيف اجتمع النوعان في قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ [غافر: ١-٣] فأتي بالواو في الوصفين الأولين، وحذفها في الوصفين الآخرين، لأن غفران الذنب وقبول التوب قد يظن أنهما يجريان مجرى الوصف الواحد، لتلازمهما، فمن غفر الذنب قبل التوب فكان في عطف أحدهما على الآخر ما يدل على أنهما صفتان وفعلان متغايران ومفهومان مختلفان، لكل منهما حكمه:

أحدهما: يتعلق بالإساءة والإعراض وهو المغفرة.

والثاني: يتعلق بالإحسان والإقبال على الله تعالى والرجوع إليه، وهو التوبة، فتقبل هذه الحسنة، وتغفر تلك السيئة، وحسن العطف ههنا هذا التغاير الظاهر، وكلما كان

التغاير أبين كان العطف أحسن، ولهذا جاء العطف في قوله: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾، وترك في قوله: ﴿ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ﴾، وقوله: ﴿ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٣، ٢٤] وأما: ﴿ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ﴾، فترك العطف بينهما لنكتة بديعة، وهي الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه، وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول، وطوله لا ينافي شدة عقابه، بل هما مجتمعان له بخلاف الأول والآخر، فإن الأولية لا تجامع الآخرية، ولهذا فسرها النبي ﷺ بقوله: «**أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء**» فأوليته أزليته، وآخريته أبديته.

فإن قلت: فما تصنع بقوله: ﴿ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ فإن ظهوره تعالى ثابت مع بطونه، فيجتمع في حقه الظهور والبطون. والنبي ﷺ فسَّر الظاهر بأنه الذي ليس فوقه شيء، والباطن بأنه الذي ليس دونه شيء، وهذا العلو والفوقية مجامع لهذا القرب والدنو والإحاطة؟

قلت: هذا سؤال حسن، والذي حسن دخوله الواو ههنا: أن هذه الصفات متقابلة متضادة، وقد عطف الثاني منها على الأول للمقابلة التي بينهما، والصفتان الآخريان كالأوليين في المقابلة، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة الآخر إلى الأول، فكما حسن العطف بين الأوليين حسن بين الآخرين.

فإذا عرف هذا فالآية التي نحن فيها يتضح بما ذكرناه معنى العطف وتركه فيها، لأن كل صفة لم تعطف على ما قبلها فيها كان فيه تنبيه على أنها في اجتماعها كالوصف الواحد لموصوف واحد، فلم يحتج إلى عطف، فلما ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما متلازمان مستمدان من مادة واحدة حسن العطف، ليتبين أن كل وصف منهما قائم على حدته مطلوب تعيينه، لا يكتفي فيه بحصول الوصف الآخر، بل لابد أن يظهر أمره بالمعروف بصريحه ونهيه عن المنكر بصريحه.

وأيضًا فحسن العطف ههنا ما تقدم من التضاد، فلما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضدين: أحدهما طلب الإيجاد، والآخر طلب الإعدام، كانا كالنوعين المتغايرين المتضادين، فحسن لذلك العطف.

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم: ٥] فقيل هذه واو الثمانية[1] لمجيئها بعد الوصف السابع وليس كذلك، ودخول الواو ههنا متعين، لأن الأوصاف التي قبلها المراد اجتماعها في النساء وأما وصفا البكارة والثيوبة فلا يمكن اجتماعهما، فتعين العطف، لأن المقصود أنه يزوجه بالنوعين الثيبات والأبكار.

الموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾[الكهف: ٢٢].

قيل: المراد إدخال الواو ههنا لأجل الثمانية، وهذا يحتمل أمرين: أحدهما: هذا.

والثاني: أن يكون دخول الواو ههنا إيذانًا بتمام كلامهم عند قولهم ﴿ سَبْعَةٌ﴾، ثم ابتدأ قوله ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، وذلك يتضمن تقرير قولهم ﴿ سَبْعَةٌ﴾، كما إذا قال لك: زيد فقيه، فقلت: ونحوي. وهذا اختيار السهيلي، وقد تقدم الكلام عليه، وأن هذا إنما يتم إذا كان قوله ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ ليس داخلا في المحكي بالقول، والظاهر خلافه، والله أعلم.

الموضع الرابع: قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[الزمر: ٧٣] فأتى بالواو لما كانت أبواب الجنة ثمانية وقال في النار ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ لما كانت سبعة، وهذا في غاية البعد، ولا دلالة في اللفظ على الثمانية حتى تدخل الواو لأجلها، بل هذا من باب حذف الجواب

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٦٧) والاستذكار (٥/ ١٤٩) والتمهيد (٧/ ١٨٧-١٨٨) والقاموس المحيط (ص ١٧٦٤).

لنكتة بديعة، وهي أن تفتيح أبواب النار كان حال موافاة أهلها، ففتحت في وجوههم، لأنه أبلغ في مفاجأة المكروه وأما الجنة فلما كانت دار الكرامة وهي مأدبة الله وكان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره شرع لهم أبوابها، ثم استدعاهم إليها مفتحة الأبواب أتى بالواو العاطفة ههنا الدالة على أنهم جاءوها بعدما فتحت أبوابها، وحذف الجواب تفخيما لشأنه، وتعظيما لقدره، كعادتهم في حذف الأجوبة، وقد أشبعنا الكلام على هذا فيما تقدم، والله أعلم.

***

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾.

(١)توبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربه: سابقة ولاحقة، فإنه تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد. فتاب الله عليه ثانيًا، قبولًا وإثابة. قال الله ﷻ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾[التوبة: ١١٧، ١١٨].

فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين، فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم،

(١) ٣١٢ مدارج جـ١.

والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا، هدايته لعبده قبل الاهتداء، فيهتدي بهدايته، فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى، يثيبه الله بها هداية على هدايته، فإن من ثواب الهدى، الهدى بعده، كما أن من عقوبة الضلالة، الضلالة بعدها، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧] فهداهم أولًا فاهتدوا، فزادهم هدى ثانيًا.

وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه «الأول، والآخر»، فهو المعدُّ، وهو الممدّ، ومنه السبب والمسبب، وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به: «وأعوذ بك منك» والعبد تواب. والله تواب، فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد.

[1]فاعلم الآن: أن التوبة نهاية كل عارف، وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهي نهاية، والحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية، بل هي في النهاية في محل الضرورة.

فاسمع الآن ما خاطب الله به رسوله في آخر الأمر عند النهاية، وكيف كان رسول الله ﷺ في آخر حياته أشد ما كان استغفارًا وأكثره، قال الله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧].

وهذا أنزله الله سبحانه بعد غزوة تبوك. وهي آخر الغزوات التي غزاها ﷺ بنفسه، فجعل الله سبحانه «التوبة عليهم» شكرانًا لما تقدم من تلك الأعمال. وذلك الجهاد.

وقال تعالى في آخر ما أنزل على رسوله: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ

(١) ٤٣٥ مدارج جـ٣.

يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝﴾ [سورة النصر]، وفي الصحيح أنه ﷺ ما صلى صلاة - بعد ما نزلت عليه هذه السورة - إلا قال فيها: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**»(١) وذلك في نهاية أمره صلوات الله وسلامه عليه.

ولهذا فهم منها علماء الصحابة - كعمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، ﷺ -: أنه أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله إياه. فأمره سبحانه بالاستغفار في نهاية أحواله، وآخر أمره، على ما كان عليه ﷺ مقامًا وحالًا، وآخر ما سمع من كلامه عند قدومه على ربه: «**اللهم اغفر لي، وألحقني بالرفيق الأعلى**»(٢).

وكان ﷺ يختم كل عمل صالح بالاستغفار، كالصوم، والصلاة، والحج، والجهاد، فإنه كان إذا فرغ منه، وأشرف على المدينة، قال: «**آيبون، تائبون، لربنا حامدون**»(٣).

وشرع أن يختم المجلس بالاستغفار، وإن كان مجلس خير وطاعة: شرع أن يختم العبد عمل يومه بالاستغفار، فيقول عند النوم: «**أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه**»(٤) وأن ينام على سيد الاستغفار(٥)...

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٩٤) ومسلم (رقم ٤٨٤) وانظر: فتح الباري (٣/ ٨) (٨/ ٢٠) وشرح النووي (٤/ ٢٠١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٤٠) ومسلم (رقم ٢٤٤٤) وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٣٠-١٣١) وشرح ا لنووي (١٥/ ٢٠٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٧٩٧) ومسلم (رقم ١٣٤٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ١٩٣) (١١/ ١٨٩).

(٤) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٩٧) ولفظه: «**من قال حين يأوي إلى فراشه: أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، ثلاث مرات، غفر الله ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر، وإن كانت عدد ورق الشجر، وإن كانت عدد رمل عالج، وإن كانت عدد أيام الدنيا**» وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وأخرجه أيضًا أحمد (٣/ ١٠) بينما ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٥٧٢٨) وضعيف سنن الترمذي.

(٥) حديث سيد الاستغفار أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٦) ولفظه: «**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت،**
=

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾.

[1] منها: عِظَم مقدارِ الصِّدق، وتعليقُ سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة مِن شرهما به، فما أنجى الله مَن أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك مَن أهلَكه إلا بالكذب، وقد أمر الله سبحانه عِباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء وأشقياء، فجعل السعداء هم أهلَ الصدق والتصديق، والأشقياء هم أهلَ الكذب والتكذيب، وهو تقسيم حاصِر مطَّرد منعكِس. فالسعادةُ دائرة مع الصدق والتصديقِ، والشقاوةُ دائرة مع الكذب والتكذيب. وأخبر ﷺ: أنه لا ينفعُ العبادَ يومَ القيامة إلا صدقهم.

وجعل عَلَم المنَافقين الذي تميزوا به هو الكذبَ في أقوالهم وأفعالهم، فجميعُ ما نعاه عليهم أصلُه الكذبُ في القول والفعل.

فالصدق بريدُ الإيمان، ودليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وحِليته، ولباسُه، بل هو لبُّه وروحه.

والكذب: بريدُ الكفر والنفاق، ودليلهُ، ومركبه، وسائقه، وقائدُه، وحليته، ولباسه، ولبُّه، فمضادة الكذبِ للإيمان كمضادة الشِّرك للتوحيد، فلا يجتمعُ الكذب والإيمان إلا ويطرُد أحدهما صاحبه، ويستقِرُّ موضعه.

والله سبحانه أنجى الثلاثَةَ بصدقهم، وأهلكَ غيرَهم من المخلَّفين بكذبهم، فما أنعم الله على عبدٍ بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق الذي هو غِذاء الإسلام وحياتُه، ولا ابتلاه ببلية أعظمَ من الكذب الذي هو مرضُ الإسلام وفساده. والله المستعان.

=
أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» قال: «ومن قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة». وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٩-١٠١).

(١) ٥٠ زاد المعاد جـ٣.

وقوله تعالىٰ: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧]، هذا من أعظَم ما يُعَرِّفُ العبد قدرَ التوبة وفضلَها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن، فإنَّه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزواتِ بعد أن قَضَوْا نحبَهم، وبذلوا نفوسهم، وأموالهم، وديارهم لله، وكان غايةَ أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبي ﷺ يومَ توبةِ كعب خيرَ يوم مَرَّ عليه منذ ولدته أُمه، إلىٰ ذلك اليوم، ولا يعرِفُ هذا حق معرفته إلا مَن عرف الله، وعرف حقوقَه عليه، وعرف ما ينبغي له من عُبوديته، وعرف نفسَه وصفاتِها وأفعالها، وأن الذي قام به مِن العبودية بالنسبة إلىٰ حق ربه عليه، كقَطْرة في بحرٍ، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة.

فسُبحان مَن لا يسعُ عبادَه غيرُ عفوه ومغفرته، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته، وليس إلا ذلك أو الهلاك، فإن وضع عليهم عدله، فعذَّب أهلَ سماواته وأرضه عذَّبهم، وهو غيرُ ظالم لهم، وإن رحمهم، فرحمتُه خير لهم من أعمالهم، ولا يُنجي أحداً منهم عملُه.

وتأمل تكريرَه سبحانه توبتَه عليهم مرتين في أول الآية وآخِرها، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا، تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم، وهو الذي وفقهم لِفعلها، وتفضَّل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه، وله وفي يديه، يعطيه مَن يشاءُ إحساناً وفضلاً، ويحرمه مَن يشاء حكمةً وعدلاً.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ [التوبة: ١١٨]، قد فسَّرها كعبٌ بالصواب، وهو أنهم خُلِّفُوا من بين مَن حلفَ لرسول الله ﷺ، واعتذر من المتخلفين، فخلَّف هؤلاء الثلاثة عنهم، وأرجأ أمرهم دونهم، وليس ذلك تخلُّفهم عن الغزو، لأنه لو أراد ذلك، لقال: تخلَّفوا، كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٢٠]، وذلك لأنهم تخلَّفوا بأنفسهم بخلاف تخليفهم عَن أمر المتخلِّفين سواهم، فإن الله سبحانه هو الذي خلَّفهم عنهم،

ولم يتخلَّفوا عنه بأنفسهم.. والله أعلم.

(١)قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩] قال غير واحد من السلف: هم أصحاب محمد ﷺ، ولا ريب أنهم أئمة الصادقين، وكل صادق بعدهم فبهم يأتمُّ في صدقه، بل حقيقة صدقه اتباعه لهم وكونه معهم، ومعلوم أن من خالفهم في شيء - وإن وافقهم في غيره - لم يكن معهم فيما خالفهم فيه، وحينئذ فيصدق عليه أنه ليس معهم، فتنتفي عنه المعية المطلقة، وإن ثبت له قسط من المعية فيما وافقهم فيه، فلا يصدق عليه أنه معهم بهذا القسط.

وهذا كما نفى الله ورسوله الإيمان المطلق عن الزاني والشارب والسارق والمنتهب؛ بحيث لا يستحق اسم المؤمن وإن لم ينتف عنه مطلق الاسم الذي يستحق لأجله أن يقال: معه شيء من الإيمان، وهذا كما أن اسم الفقيه والعالم عند الإطلاق لا يقال لمن معه مسألة أو مسألتان من فقه وعلم، وإن قيل: معه شيء من العلم، ففرق بين المعية المطلقة ومطلق المعية، ومعلوم أن المأمور به الأول لا الثاني.

فإن الله تعالى لم يرد منا أن نكون معهم في شيء من الأشياء وأن نحصل من المعية ما يطلق عليه الاسم، وهذا غلط عظيم في فهم مراد الرب تعالى من أوامره؛ فإذا أمرنا بالتقوى والبر والصدق والعفة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ونحو ذلك، لم يرد منا أن نأتي من ذلك بأقل ما يطلق عليه الاسم، وهو مطلق الماهية المأمور بها، بحيث نكون ممتثلين لأمره إذا أتينا بذلك، وتمام تقرير هذا الوجه بما تقدم في تقرير الأمر بمتابعتهم سواء.

(٢)ومن منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ منزلة «الصدق».

وهي منزلة القوم الأعظم، الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين، والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل

---

(١) ١٣٢ أعلام جـ٤.

(٢) ٢٦٨ مدارج جـ٢.

الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضِعَ علىٰ شيء إلا قطعه، ولا واجه باطلًا إلا أرداه وصرعه، من صال به لم ترد صولته، ومن نطق به علت علىٰ الخصوم كلمته، فهو روح الأعمال، ومحك الأحوال، والحامل علىٰ اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلىٰ حضرة ذي الجلال، وهو أساس بناء الدين، وعمود فسطاط اليقين.

في الجنات تجري العيون والأنهار إلىٰ مساكن الصادقين، كما كان من قلوبهم إلىٰ قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين.

وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين، وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فهم الرفيق الأعلىٰ ﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] ولا يزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحسانًا منه وتوفيقًا، ولهم مرتبة المعية مع الله، فإن الله مع الصادقين، ولهم منزلة القرب منه، إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين.

وأخبر تعالىٰ أن من صدقه فهو خير له. فقال: ﴿ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد: ٢١].

وأخبر تعالىٰ عن أهل البر، وأثنىٰ عليهم بأحسن أعمالهم: من الإيمان، والإسلام، والصدقة، والصبر، بأنهم أهل الصدق فقال: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ

هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهذا صريح في أن «الصدق» بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن «الصدق» هو مقام الإسلام والإيمان.

***

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

[(١)] أخبر سبحانه عن فعلهم وهو الانصراف، وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره، لأنهم ليسوا أهلا له، فالمحل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن فهم، وحسن قصد. وهؤلاء قلوبهم لا تفقه وقصودهم سيئة.

وقد صرح سبحانه بهذا في قوله: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣] فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم، وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه إلى قلوبهم، فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به، وإن سمعوه سماعا تقوم به عليهم حجته، فسماع الفهم الذي سمعه به المؤمنون لم يحصل لهم.

ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم، يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص، وهو الكبر والتولي والإعراض، فالأول مانع من الفهم، والثاني مانع من الانقياد والإذعان، فأفهام سيئة وقصود ردية، وهذه نسخة الضلال وعلم الشقاء، كما أن نسخة الهدى وعلم السعادة: فهم صحيح وقصد صالح، والله المستعان.

وتأمل قوله سبحانه: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم ﴾ كيف جعل هذه الجملة الثانية سواء كانت خبرًا أو إعادة عقوبة لانصرافهم، فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول، فإن انصرافهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لإقبالهم، ولأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول، فلم ينلهم الإقبال والإذعان، فانصرفت قلوبهم بما فيها من

(١) ٩٧ شفاء.

الجهل والظلم عن القرآن فجازاهم علىٰ ذلك صرفا آخر غير الصرف الأول، كما جازاهم علىٰ زيغ قلوبهم عن الهدىٰ إزاغة غير الزيغ الأول: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾، وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه، فلا يمكنه من الإقبال عليه.

ولتكن قصة إبليس منك علىٰ ذكر تنتفع بها أتم انتفاع، فإنه لما عصىٰ ربه تعالىٰ ولم ينقد لأمره وأصر علىٰ ذلك، عاقبه بأن جعله داعيا إلىٰ كل معصية، فعاقبه علىٰ معصيته الأولىٰ بأن جعله داعيا إلىٰ كل معصية وفروعها صغيرها وكبيرها، وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق، فمن عقاب السيئة السيئة بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها(١).

فإن قيل: فكيف يلتئم إنكاره سبحانه عليهم الانصراف والإعراض عنه، وقد قال تعالىٰ: ﴿ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ [غافر: ٦٩] و﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤] وقال: ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴾ [المدثر: ٤٩]، فإذا كان هو الذي صرفهم وجعلهم معرضين ومأفوكين، فكيف ينفي ذلك عليهم؟

قيل: هم دائرون بين عدله وحجته عليهم، فمكنهم وفتح لهم الباب، ونهج لهم الطريق، وهيأ لهم الأسباب، فأرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، ودعاهم علىٰ ألسنة رسله، وجعل لهم عقولا تميز بين الخير والشر والنافع والضار وأسباب الردي وأسباب الفلاح، وجعل لهم أسماعا وأبصارا، فآثروا الهوىٰ علىٰ التقوىٰ، واستحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ، وقالوا: معصيتك آثر عندنا من طاعتك، والشرك أحب إلينا من توحيدك، وعبادة سواك أنفع لنا في دنيانا من عبادتك. فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم، وانصرفت عن طاعته ومحبته، فهذا عدله فيهم، وتلك حجته

(١) أخرجه بنحوه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٤٦ رقم ٧٢٢٢) من قول أبي الحسين المزين، وذكره الحافظ ابن كثير عن بعض السلف في تفسيره (١/ ٤١٩) (٢/ ٣٧٩). وانظر: صفة الصفوة (٢/ ٢٦٦).

عليهم، فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختيارا، فسده عليهم اضطرارا، فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم، وولاهم ما تولوه، ومكنهم فيما ارتضوه، وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه، وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه وهم معرضون، فلا أقبح من فعلهم، ولا أحسن من فعله، ولو شاء لخلقهم على غير هذه الصفة، ولأنشأهم على غير هذه النشأة، ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل والنور والظلمة والنافع والضار والطيب والخبيث والملائكة والشياطين والشاء والذياب، ومعطيها آلاتها وصفاتها وقواها وأفعالها، ومستعملها فيما خلقت له، فبعضها بطباعها، وبعضها بإرادتها ومشيئتها، وكل ذلك جار على وفق حكمته، وهو موجب حمده، ومقتضى كماله المقدس، وملكه التام، ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ما خفي عليهم بوجه ما، إن هو إلا كنقرة عصفور من البحر.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة التوبة

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ يُونُسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

(١) أي عجب من هذا حتى يقول الكافرون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢]، وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده، وهدايته، وإنعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله ﷺ، بطريق الخير والشر، وما هم صائرون إليه بعد الموت، وأمرهم ونهيهم، حتى يقابل ذلك بالتعجب، ونسبة ما جاء به إلى السحر، لولا غاية الجهل والظلم؟! وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم، كما قال تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥].

(٢) وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ

---

(١) ٢٧١ التبيان.

(٢) ٢٣٨ طريق الهجرتين.

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [يونس: ٣-٥] وقوله: ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [آل عمران: ١-٣]، فهذا أمره وتنزيله مصدره الحق، والأول خلقه وتكوينه مصدره الحق أيضًا، فبالحق كان الخلق والأمر، وعنه صدر الخلق والأمر...

(١)ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والإضاءة، وكيف جعل لهما بروجًا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة؟ لإقامة دولة السنة، وتمام مصالح حساب العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه، فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون، والإجازات والمعاملات والعدد، وغير ذلك فلولا حلول الشمس والقمر في تلك المنازل وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك. وقد نبه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥] وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [الإسراء: ١٢].

(٢)وإذا فكرت في طلوع الشمس وغروبها لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعها لبطل أمر هذا العالم، فكم في طلوعها من الحكم والمصالح، وكيف يكون حال الحيوان لو أمسكت عنه، وجعل الليل عليه سرمدًا والدنيا مظلمة عليه؟ فبأي نور كانوا يتصرفون؟ وكيف كانت تنضج ثمارهم، وتكمل أقواتهم، وتعتد صورهم وأبدانهم؟ فالحكم في طلوعها أعظم من أن تخفى أو تُحصى، ولكن تأمل الحكمة في

(١) ٢٠٩ مفتاح دار السعادة جـ١.

(٢) ٣٠٤ مختصر الصواعق جـ١.

غروبها، فلولا غروبها لم يكن للحيوان هدوء ولا قرار مع شدة حاجتهم إلى الهدوء والراحة، وأيضًا لو دامت على الأرض لاشتد حرها بدوام طلوعها عليها، فاحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فاقتضت حكمة الخلاق العليم والعزيز الحكيم أن جعلها تطلع عليهم في وقت دون وقت، بمنزلة سراج يرفع لأهل الدار مليًّا، ليقضوا مأربهم، ثم يغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدءوا، وصار ضياء النهار وحرارته وظلام الليل وبرده على تضادهما وما فيهما، متظاهرين متعاونين على ما فيه صلاح العالم وقوامه.

ثم اقتضت حكمته أن جعل للشمس ارتفاعًا وانحطاطًا، لإقامة هذه الفصول الأربعة من السنة، وما فيها من قيام الحيوان والنبات، ففي زمن الشتاء تفور الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد فيها مواد النار، ويغلظ الهواء بسبب البرد، فيصير مادة للسحاب، فيرسل العزيز الحكيم الريح المثيرة فتنشره قزعًا، ثم يرسل عليه المؤلفة فتؤلف بينه حتى يصير طبقًا واحدًا، ثم يرسل عليه الريح اللاقحة التي فيها مادة الماء فتلقحه، كما يلقح الذكر الأنثى، فيحمل الماء من وقته، فإذا كان بروز الحمل وانفصاله أرسل عليه الريح الذارية فتذروه وتفرقه في الهواء؛ لئلا يقع صبة واحدة فيهلك ما على الأرض وما أصابه ويقل الانتفاع به، فإذا أسقي ما أمر بسقيه وفرغت حاجتهم منه أرسل عليه الرياح السائقة، فتسوقه وتزجيه إلى قوم آخرين وأرض أخرى محتاجة إليه. فإذا جاء الربيع تحركت الطبائع، وظهرت المواد الكامنة في الشتاء، فخرج النبات، وأخذت الأرض زخرفها وازينت وأنبتت من كل زوج كريم، فإذا جاء الصيف سخن الهواء وتحللت فضلات الأبدان، فإذا جاء الخريف كسر ذلك السموم والحرور، وبرد الهواء واعتدل وأخذت الأرض والشجر في الراحة والجموم والاستعداد للحمل الآخر.

واقتضت حكمته سبحانه أن أنزل الشمس والقمر في البروج، وقدر لهما المنازل؛ ليعلم العباد عدد السنين والحساب من الشهور والأعوام، فتتم بذلك مصالحهم، وتعلم بذلك آجال معاملاتهم، ومواقيت حجهم وعباداتهم ومدد أعمارهم، وغير

ذلك من مصالح حسابهم، فالزم مقدار الحركة، ألا ترى أن السنة الشمسية مسير الشمس من الحمل إلى الحمل؟ واليوم مقدار مسيرها من المشرق إلى المغرب وتحركه الشمس والقمر لكمال الزمان من يوم خلقا إلى أن يجمع الله بينهما، ويعزلهما عن سلطانهما، ويرى عابديهما أنهم عبدوا الباطل من دونه. قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥]. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَـٰهُ تَفْصِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٢].

واقتضت حكمته سبحانه في تدبيره أن فاوت بين مقادير الليل والنهار، ولم يجعلهما دائمًا على حد سواء، ولا أطول مما هما عليه وأقصر؛ بل جاء استواؤهما وأخذ أحدهما من الآخر على وفق الحكمة، حتى إن المكان الذي يقصر أحدهما فيه جدًّا، لا يتكون فيه حيوان ونبات كالمكان الذي لا تطلع عليه شمس أو لا تغرب عنه، فلو كان النهار مقدار مائة ساعة أو أكثر أو كان الليل كذلك لتعطلت المصالح التي نظمها الله بهذا المقدار في الليل والنهار.

ثم تأمل الحكمة في إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل، فإنه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء، لم تقتض المصلحة أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها، فلا يمكن فيها شيء من العمل، وربما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم في النهار، ولإفراط الحر فيه فاحتاجوا إلى العمل في الليل في نور القمر من حرث الأرض وقطع الزرع وغير ذلك، فجعل ضوء القمر في الليل معونة للناس على هذه الأعمال، وجعل في الكواكب جزءًا يسيرًا من النور ليسد مسد القمر إذا لم يكن، وجعلت زينة للسماء ومعالم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ودلالات واضحات على الخلاق العليم، وغير ذلك من الحكم التي بها انتظام هذا العالم،

وجعلت الشمس على حالة واحدة لا تقبل الزيادة والنقصان، لئلا تتعطل الحكم المقصودة منها، وجعل القمر يقبل الزيادة والنقصان؛ لئلا تتعطل الحكم المقصودة من جعله كذلك، وإن كان في نوره من التبريد والتصلب ما يقابل ما في ضوء الشمس من التسخين والتحليل، فتنضم المصلحة وتتم الحكمة من هذا في هذا التسخين والتبريد.

ثم تأمل اللطف والحكمة الإلهية في جعل الكواكب السيارات ومنازلها تظهر في بعض السنة وتحتجب في بعضها؛ لأنها لو ظهرت دائمًا أو اختفت دائمًا لفاتت الحكمة المطلوبة منها، كما اقتضت الحكمة أن يظهر بعضها، ويحتجب بعضها، فلا تظهر كلها دفعة واحدة، ولا تحتجب دفعة واحدة، بل ينوب ظاهرها عن خفيها في الدلالة، وجعل بعضها ظاهرًا لا يحتجب أصلًا بمنزلة الأعلام المنصوبة التي يهتدي بها الناس في الطرق المجهولة في البر والبحر، فهم ينظرون إليها متى أرادوا، ويهتدون بها حيث شاءوا.

ثم تأمل حال النجوم واختلاف مسيرها: ففرقة منها لا تريم مراكزها من الفلك، ولا تسير إلا مجتمعة كالجيش الواحد، وفرقة منها مطلقة تنتقل في البروج وتتفرق في مسيرها، وكل واحد منها يسير سيرين مختلفين: أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب، والآخر خاص لنفسه نحو المشرق، وذلك من أعظم الدلالات على الفاعل المختار العليم الحكيم على كمال علمه وحكمته.

وتأمل كيف صار هذا الفلك بشمسه وقمره ونجومه وبروجه، يدور على هذا العالم هذا الدوران العظيم السريع المستمر بتقدير محكم، لا يزيد ولا ينقص ولا يختل نظامه، بل هو تقدير العزيز العليم، كما أشار تعالى إلى أن ذلك التقدير صادر عن كمال عزته وعلمه، قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

[(١)] ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز سبحانه، فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات، لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر، وكان يكون الليل دائمًا سرمدًا على من لم تطلع عليهم، والنهار سرمدًا على من هي طالعة عليهم، فيفسد هؤلاء وهؤلاء.

فاقتضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق، فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة، حتى تنتهي إلى الغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار، فيختلف عندهم الليل والنهار، فتنتظم مصالحهم.

ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة، وان مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة، واختلفت الحكمة بذلك، بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة، وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما، فما يزيد في أحدهما من الآخر، يعود الآخر فيسترده منه.

قال الله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [فاطر: ١٣] وفيه قولان: أحدهما: أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك، وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر، فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه، وعلى هذا فهي عامة في كل ليل ونهار.

والقول الثاني: إنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، فما ينقص منه يلج في الآخر، لا يذهب جملة.

وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال، فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر، وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهي الزيادة خمس عشرة ساعة، فيصير الآخر تسع ساعات، فإذا زاد

---

(١) ٢٠٩ مفتاح دار السعادة جـ١.

على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان، ولا يتكون فيه النبات، وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه، والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب، وأعدلها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة، ويكون فيها اعتدالان خريفين وربيعين.

ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل والحكمة في ذلك، فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على الأبدان والنبات، فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان، فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار، ولم يجعله ظلمة داجية حندسا، لا ضوء فيه أصلا، فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا لأعمال، ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لايتهيأ له بالنهار لضيق النهار أو لشدة الحر أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان، جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه إعمال كثيرة: كالسفر والحرث وغير ذلك من اعمال اهل الحروث والزروع، فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات، وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس، لئلا يستوى الليل والنهار، فتفوت حكمة الاختلاف بينهما، والتفاوت الذي قدره العزيز العليم، فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور، يستعين به على هذه الدولة المظلمة، ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفا، بل ظلمة مشوبة بنور، رحمة منه وإحسانا، فسبحان من أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه!.

***

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝﴾.

[1]توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه، فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[يونس: ٧، ٩]. وعيَّر سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨] وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة.

ويكفي في الزهد في الدنيا قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]. وقوله: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [يونس: ٤٥]. وقوله: ﴿ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ۝ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٢-٤٦]. قوله: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖ ﴾ [الروم: ٥٥]. وقوله: ﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ۝ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤]. وقوله: ﴿ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ

---

(١) ٩٥ فوائد.

زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه: ١٠٢-١٠٤] والله المستعان وعليه التكلان.

(١)قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

قال حجاج عن ابن جريج أخبرت أن قوله: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ قال إذا مر بهم الطير ليشتهونه، قالوا: سبحانك اللهم، وذلك دعواهم، فيأتيهم الملك بما اشتهوا، فيسلم عليهم فيردون عليه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ قال: فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال سعيد: عن قتادة قوله تعالى: ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ يقول: ذلك دعاؤهم فيها، وتحيتهم فيها سلام(٢).

وقال الأشجعي: سمعت سفيان الثوري يقول: إذا أرادوا الشيء قالوا: سبحانك اللهم، فيأتيهم ما دعوا به(٣).

ومعنى هذه الكلمة: تنزيه الرب تعالى وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به.

وذكر سفيان عن عبد الله بن موهب: سمعت موسى بن طلحة قال: سئل رسول الله ﷺ عن «**سبحان الله**»: فقال: «**تنزيه الله عن السوء**»(٤).

وسأل ابن الكواء عليًّا عنها، فقال: كلمة رضيها الله تعالى لنفسه(٥).

---

(١) ٢٩٨ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٩٠).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٩٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٤٦).

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٩٠) وقال الدارقطني في العلل (٤/ ٢٠٨): رواه الثوري عن عثمان ابن موهب عن موسى بن طلحة مرسلًا.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٩٠) والطبراني في الدعاء (رقم ١٧٦١) والبرقي في جزء الحميري =

وقال حفص بن سليمان ثنا طلحة بن يحيى بن طلحة عن أبيه عن طلحة بن عبيد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير «**سبحان الله**» فقال: «**هو تنزيه الله عن كل سوء**»[1]. فأخبر الله تعالى عن أول دعواهم إذا استدعوا شيئًا، قالوا: سبحان الله، وعن آخر دعواهم عند ما يحصل لهم هو قولهم: الحمد لله رب العالمين، ومعنى الآية أعم من هذا والدعوى مثل الدعاء، والدعاء يراد به الثناء، ويراد به المسألة.

وفي الحديث: «**أفضل الدعاء: الحمد لله رب العالمين**»[2] فهذا دعاء ثناء وذكر، يلهمه الله أهل الجنة، فأخبر سبحانه عن أوله وآخره، فأوله تسبيح، وآخره حمد، يلهمونهما كما يلهمون النفس، وفي هذا إشارة إلى أن التكاليف في الجنة يسقط عنهم، ولا تبقى عبادتهم إلا هذه الدعوى، التي يلهمونها.

وفي لفظ: اللهم إشارة إلى صريح الدعاء، فإنها متضمنة لمعنى يا الله، فهي متضمنة للسؤال والثناء، وهذا هو الذي فهمه من قال: إذا أرادوا شيئًا قالوا: سبحانك اللهم، فذكروا بعض المعنى، ولم يستوفوه مع أنهم قصروا به، فإنهم أوهموا أنهم إنما يقولون ذلك عندما يريدون الشيء، وليس في الآية ما يدل على ذلك، بل يدل على أن أول دعائهم التسبيح وآخره الحمد، وقد دل الحديث الصحيح على أنهم يلهمون ذلك كما يلهمون النفس، فلا تختص الدعوى المذكورة بوقت إرادة الشيء، وهذا كما أنه لا يليق بمعنى الآية، فهو لا يليق بحالهم، والله تعالى أعلم بالصواب.

***

=

(رقم ٥) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (١/ ٢٦٩) إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر. وانظر: لسان العرب (٢/ ٤٧١).

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٩٠) والحاكم (١/ ٦٨٠ رقم ١٨٤٨) والشاشي في مسنده (١/ ٧١ رقم ١٠) والطبراني في الدعاء (رقم ١٧٥١) وانظر: الكفاية في علم الرواية للخطيب (ص ٢٢٦).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ٩٠ رقم ٤٣٧١) ولفظه: «**أفضل الدعاء لا إله إلا الله، وأفضل الذكر الحمد لله**»، وفي رواية: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله**» وأخرجه الطبراني في الدعاء (رقم ١٤٨٣) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ١٠٣).

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

...[1]نقول: إن الله تعالىٰ وضع الألفاظ بين عباده تعريفًا ودلالة علىٰ ما في نفوسهم، فإذا أراد أحدهم من الآخر شيئًا عرفه بمراده وما في نفسه بلفظه، ورتب علىٰ تلك الإرادات والمقاصد أحكامها بواسطة الألفاظ، ولم يرتب تلك الأحكام علىٰ مجرد ما في النفوس من غير دلالة فعل أو قول ولا علىٰ مجرد ألفاظ مع العلم بأن المتكلم بها لم يرد معانيها ولم يحط بها علمًا.

بل تجاوز للأمة عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل به أو تكلم به وتجاوز لها عما تكلمت به مخطئة أو ناسية أو مكرهة أو غير عالمة به إذا لم تكن مريدة لمعنىٰ ما تكلمت به أو قاصدة إليه.

فإذا اجتمع القصد والدلالة القولية أو الفعلية ترتب الحكم، هذه قاعدة الشريعة، وهي من مقتضيات عدل الله وحكمته ورحمته.

فإن خواطر القلوب وإرادة النفوس لا تدخل تحت الاختيار فلو ترتبت عليها الأحكام لكان في ذلك أعظم حرج ومشقة علىٰ الأمة، ورحمة الله تعالىٰ وحكمته تأبىٰ ذلك.

والغلط والنسيان والسهو وسبق اللسان بما لا يريده العبد بل يريد خلافه والتكلم به مكرها وغير عارف لمقتضاه من لوازم البشرية، لا يكاد ينفك الإنسان من شيء منه، فلو رتب عليه الحكم لحرجت الأمة وأصابها غاية التعب والمشقة، فرفع عنها المؤاخذة بذلك كله حتىٰ الخطأ في اللفظ من شدة الفرح والغضب والسكر، كما تقدمت شواهده، وكذلك الخطأ والنسيان والإكراه والجهل بالمعنىٰ وسبق اللسان بما لم يرده والتكلم في الإغلاق ولغو اليمين، فهذه عشرة أشياء لا يؤاخذ الله بها عبده

---

(١) ١١٧ إعلام جـ٣.

بالتكلم في حال منها لعدم قصده وعقد قلبه الذي يؤاخذه به.

أما الخطأ من شدة الفرح فكما في الحديث الصحيح: حديث فرح الرب بتوبة عبده، وقول الرجل: «أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»[(١)].

وأما الخطأ من شدة الغضب، فكما في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس: ١١] قال السلف: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله حال الغضب، لو أجابه الله تعالى لأهلك الداعي ومن دعى عليه فقضى إليهم أجلهم[(٢)].

وقد قال جماعة من الأئمة: الإغلاق الذي منع النبي ﷺ من وقوع الطلاق والعتاق فيه هو الغضب وهذا كما قالوه فإن للغضب سكرًا كسكر الخمر أو أشد.

وأما السكران فقد قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣] فلم يرتب على كلام السكران حكمًا حتى يكون عالما بما يقول ولذلك أمر النبي ﷺ رجلًا يشكك المقر بالزنا ليعلم هل هو عالم بما يقول أو غير عالم بما يقول ولم يؤاخذ حمزة بقوله في حال السكر: «هل أنتم إلا عبيد لأبي»[(٣)] ولم يكفر من قرأ في حال سكره في الصلاة: «أعبد ما تعبدون، ونحن نعبد ما تعبدون»[(٤)].

---

(١) أخرجه بلفظه مسلم (رقم ٢٧٤٧) وأصل الحديث عند البخاري (رقم ٦٣٠٨، ٦٣٠٩) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٣) (١١/ ٣١٤).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٧).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٧٥) ومسلم (رقم ١٩٧٩) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٢١٨-٢١٩).

(٤) أخرجه الطبري بسنده عن عبد الله بن حبيب أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعامًا وشرابًا، فدعا نفرًا من أصحاب النبي فأكلوا وشربوا حتى ثملوا، فقدموا عليًا يصلي بهم المغرب، فقرأ: (قل يا أيها الكافرون، أعبد ما تعبدون، وأنتم عابدون ما أعبد، وأنا عابد ما عبدتم، لكم دينكم ولي دين) تفسير الطبري (٥/ ٩٥) وأخرجه الترمذي (رقم ٣٠٢٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وأخرجه أيضًا تمام في فوائده (٢/ ٢٢٨ رقم ١٥٩٢) وعبد بن حميد (رقم ٨٢) والبزار (٢/ ٢١١ رقم ٥٩٨) =

وأما الخطأ والنسيان فقد قال تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقال الله تعالى: «**قد فعلت**»(١) وقال النبي ﷺ: «**إن الله قد تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»(٢).

وأما المكره فقد قال الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [النحل: ١٠٦] والإكراه داخل في حكم الإغلاق.

وأما اللغو فقد رفع الله تعالى المؤاخذة به حتى يحصل عقد القلب.

وأما سبق اللسان بما لم يرده المتكلم، فهو دائر بين الخطأ في اللفظ والخطأ في القصد، فهو أولى أن لا يؤاخذ به من لغو اليمين، وقد نص الأئمة على مسائل من ذلك تقدم ذكر بعضها.

وأما الإغلاق فقد نص عليه صاحب الشرع، والواجب حمل كلامه فيه على عمومه اللفظي والمعنوي، فكل من أغلق عليه باب قصده وعلمه كالمجنون والسكران والمكره والغضبان فقد تكلم في الإغلاق، ومن فسره بالجنون أو بالسكر أو بالغصب أو بالإكراه فإنما قصد التمثيل لا التخصيص، ولو قدر أن اللفظ يختص بنوع من هذه الأنواع لوجب تعميم الحكم بعموم العلة، فإن الحكم إذا ثبت لعلة تعدى بتعديها وانتفى بانتفائها...

والحاكم (٤/ ١٥٩ رقم ٧٢٢٢) وقال: هذه الأسانيد كلها صحيحة. والضياء المقدسي في المختارة (٢/ ١٨٧ رقم ٥٦٦) وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٥٠١).

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٢٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٥٢).

(٢) أخرجه ابن حبان (١٦/ ٢٠٢ رقم ٧٢١٩) وابن ماجه (رقم ٢٠٤٣) والحاكم (٢/ ٢١٦ رقم ٢٨٠١) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٣٥٦ رقم ١٤٨٧١) والدارقطني (٤/ ١٧٠ رقم ٣٣) والطبراني في الصغير (رقم ٧٦٥) وفي الكبير (٢/ ٩٧ رقم ١٤٣٠) (١١/ ١٣٣ رقم ١١٢٧٤) وفي مسند الشاميين (٢/ ١٥٢ رقم ١٠٩٠) وحسنه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٧١) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (٥/ ١٦١): ورجاله ثقات، إلا أنه أعل بعلة غير قادحة. ونقل تصحيح ابن حبان في الفتح (٩/ ٣٩٠).

[(١)]والله ﷻ رفع المؤاخذة عن المتكلم بكلمة الكفر مكرها، لما لم يقصد معناها ولا نواها. فكذلك المتكلم بالطلاق والعتاق والوقف واليمين والنذر مكرها، لا يلزمه شيء من ذلك، لعدم نيته وقصده، وقد أتى باللفظ الصريح، فعلم أن اللفظ إنما يوجب معناه لقصد المتكلم به.

والله تعالى رفع المؤاخذة عمن حدث نفسه بأمر بغير تلفظ أو عمل، كما رفعها عمن تلفظ باللفظ من غير قصد لمعناه ولا إرادة، ولهذا لا يكفر من جرى على لسانه لفظ الكفر سبقا من غير قصد لفرح أو دهش وغير ذلك، كما في حديث الفرح الإلهي بتوبة العبد، وضرب مثل ذلك بمن فقد راحلته عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة، فأيس منها ثم وجدها، فقال: «**اللهم أنت عبدي وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح**»[(٢)]. ولم يؤاخذ بذلك، وكذلك إذا أخطأ من شدة الغضب لم يؤاخذ بذلك، ومن هذا قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾.

قال السلف هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله في حال الغضب ولو استجابه الله تعالى لأهلكه وأهلك من يدعو عليه، ولكنه لا يستجيبه، لعلمه بأن الداعي لم يقصده[(٣)].

ومن هذا رفعه صلى الله عليه وآله وسلم حكم الطلاق عمن طلق في إغلاق. وقال الإمام أحمد في رواية حنبل: هو الغضب، وكذلك فسره أبو داود، وهو قول القاضي إسماعيل بن إسحاق أحد أئمة المالكية ومقدم فقهاء أهل العراق منهم، وهي عنده من لغو اليمين أيضًا، فأدخل يمين الغضبان في لغو اليمين وفي يمين الإغلاق، وحكاه شارح أحكام عبد الحق عنه، وهو ابن بزيزة الأندلسي قال: وهذا قول علي وابن عباس وغيرهما من الصحابة: إن الأيمان المنعقدة كلها في حال الغضب لا تلزم.

وفي سنن الدارقطني بإسناد فيه لين من حديث ابن عباس يرفعه: «**لا يمين في**

---

(١) ٦٣ أعلام جـ٣.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٧).

غضب»[١]، «ولا عتاق فيما لا يملك»[٢] وهو وإن لم يثبت رفعه فهو قول ابن عباس.

وقد فسر الشافعي: «لا طلاق في إغلاق»[٣] بالغضب، وفسره به مسروق، فهذا مسروق والشافعي وأحمد وأبو داود والقاضي إسماعيل كلهم فسروا الإغلاق بالغضب، وهو من أحسن التفسير، لأن الغضبان غلق عليه باب القصد بشدة غضبه، وهو كالمكره، بل الغضبان أولىٰ بالإغلاق من المكره.

[٤]ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ [يونس: ١١].

فقال السلف في تفسيرها: هو الرجل يدعو علىٰ نفسه وأهله في وقت الغضب من غير إرادة منه لذلك، فلو استجاب الله دعاءه لأهلكه وأهلك من دعا عليه، ولكن لرحمته لما علم أن الحامل له علىٰ ذلك سكر الغضب لا يجيب دعاءه[٥].

ومن هذا قول الواجد لراحلته بعد يأسه منها وإيقانه بالهلاك: «اللهم أنت عبدي وأنا ربك». قال رسول الله ﷺ: «أخطأ من شدة الفرح» ولم يكن بذلك كافرًا لعدم قصده، وذكر النبي ﷺ، ذلك تحقيقًا لشدة الفرح الذي أفضىٰ به إلىٰ ذلك. وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب السكر لأن السكر سببه ما يوجب اللذة القاهرة التي تغمر العقل، وسبب اللذة إدراك المحبوب، فإذا كانت المحبة قوية وإدراك المحبوب قويًّا والعقل ضعيفًا حدث السكر، لكن ضعف العقل يكون تارة من ضعف المحبة، وتارة من قوة

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (٢/ ٤٠٩) مرفوعًا، وضعف سنده الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٥٦٥).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٢٢٢ رقم ٢٨٢٠) والطبراني في الكبير (١١/ ٢٧ رقم ١٠٩٣٣) وأحمد (٢/ ١٨٩) بينما أخرج الحديث كاملًا الدارقطني كما أشار المصنف رحمه الله (٣/ ١٥٩ رقم ٣) وقال ابن عبد الهادي في تنقيح تحقيق أحاديث التعليق (٣/ ٥٠٨): هذا الحديث لا يصح، وقال الزيلعي في نصب الراية (٣/ ٢٧٨): وذكره عبد الحق في أحكامه من جهة الدارقطني، وقال: إسناده ضعيف. وقال ابن القطان: وعلته سليمان بن أبي سليمان، فإنه شيخ ضعيف الحديث.

(٣) سبق تخريجه بلفظ: «لا طلاق ولا عتاق في إغلاق».

(٤) ١٦٦ روضة المحبين.

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٥/ ٤٧).

السبب الوارد، ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه.

***

﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

(١)تأمل هاتين الحجتين القاطعتين بهذا اللفظ الوجيز: إحداهما: أن هذا من الله لا من قبلي، ولا هو مقدور لي، ولا من جنس مقدور البشر، وأن الله لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني وأسماعكم وأفهامكم، فلم أتمكن من تلاوته عليكم، ولم تتمكنوا من درايته وفهمه. الحجة الثانية: أني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به، وأنتم تشاهدوني وتعرفوني وتصحبوني حضرًا وسفرًا، وتعرفون دقيق أمري وجليله، وتحققون سيرتي، هل كانت سيرة من هو أكذب الخلق وأفجرهم وأظلمهم؟ فإنه لا أكذب ولا أظلم ولا أقبح سيرة ممن جاهر ربه بالكذب والفرية عليه، وطلب إفساد العالم وظلم النفوس والبغي في الأرض بغير الحق.

هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أحفظ كتابًا ولا أخطه بيميني، ولا صاحبت من أتعلم منه، بل صاحبتم أنتم في أسفاركم من تتعلمون منه، وتسألونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها، ما لم أشارككم فيه بوجه، ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين، وعلم ما كان وما سيكون على التفصيل، فأي برهان أوضح من هذا؟ وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له؟..

...(٢)إنه سبحانه أخبر: أنه لو شاء لما تلاه عليهم ولا أدراهم به وأن ذلك إنما هو بمشيئته وإذنه وعلمه، كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ [يونس: ١٦] وهذا من أبلغ الحجج وأظهرها، أي: هذا الكلام ليس من قبلي ولا

(١) ٩٩ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) ١١٧ التبيان.

من عندي، ولا أقدر أن أفتريه على الله، ولو كان ذلك مقدورا لي لكان مقدورا لمن هو من أهل العلم والكتابة، ومخالطة الناس والتعلم منهم. ولكن الله بعثني به ولو شاء سبحانه لم ينزله ولم ييسره بلساني، فلم يدعني أتلوه عليكم وأن أعلمكم به البتة لا على لساني ولا على لسان غيري، ولكنه أوحاه إليَّ وأذن لي في تلاوته عليكم، وأدراكم به بعد أن لم تكونوا دارين به، فلو كان كذبا وافتراء كما تقولون لأمكن غيري أن يتلوه عليكم، وتدرون به من جهته، لأن الكذب لا يعجز عنه البشر، وأنتم لم تدروا بهذا، ولم تسمعوه إلا مني، ولم تسمعوه من بشر غيري.

ثم أجاب عن سؤال مقدر، وهو: أنه تعلمه من غيره أو افتراه من تلقاء نفسه، فقال: ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ﴾ تعلمون حالي ولا يخفى عليكم سيري ومدخلي ومخرجي وصدقي وأمانتي ومن هذا لم أتمكن من قول شيء منه البتة ولا كان لي به علم ولا ببعضه، ثم أتيتكم به وهلة من غير تعمل ولا تعلم ولا معاناة للأسباب، التي أتمكن بها منه، ولا من بعضه.

وهذا من أظهر الأدلة وأبين البراهين: أنه من عند الله، أوحاه إليَّ وأنزله عليَّ، ولو شاء ما فعل. فلم يمكني من تلاوته، ولا أمكنكم من العلم به، بل مكنني من تلاوته ومكنكم من العلم به، فلم تكونوا عالمين به ولا ببعضه، ولم أكن قبل أن يوحى إليَّ تاليا له ولا لبعضه. فتأمل صحة هذا الدليل وحسن تأليفه وظهور دلالته.

***

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٢٢) ﴾ .

[(١)] من آياته الباهرة هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض، يدرك بحس اللمس عند هبوبه، يدرك جسمه ولا يرى شخصه، فهو يجري بين السماء

(١) ٢٠٠ مفتاح دار السعادة جـ١.

والأرض، والطير محلقة فيه سابحة بأجنحتها في أمواجه، كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه، كما تضطرب أمواج البحر، فإذا شاء ﷻ حركه بحركة الرحمة، فجعله رخاء ورحمة وبشرىٰ بين يدي رحمته، ولاقحًا للسحاب يلقحه بحمل الماء، كما يلقح الذكر الأنثىٰ بالحمل.

وتسمىٰ رياح الرحمة: المبشرات والنشر والذاريات والمرسلات والرخاء واللواقح. ورياح العذاب العاصف والقاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرصر، وهما في البر. وإن شاء حركه بحركة العذاب، فجعله عقيمًا، وأودعه عذابًا أليمًا، وجعله نقمة علىٰ من يشاء من عباده، فيجعله صرصرًا ونحسًا وعاتيًا ومفسدًا لما يمر عليه، وهي مختلفة في مهابها، فمنها صبا ودبور وجنوب وشمال، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف: فريح لينة رطبة تغذىٰ النبات وأبدان الحيوان، وأخرىٰ تجففه، وأخرىٰ تهلكه وتعطبه، وأخرىٰ تشده وتصلبه، وأخرىٰ توهنه وتضعفه. ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها: فريح تثير السحاب، وريح تلقحه، وريح تحمله علىٰ متونها، وريح تغذىٰ النبات، ولما كانت الرياح مختلفة في مهابها وطبائعها جعل لكل ريح ريحًا مقابلتها، تكسر سورتها وحدتها، ويبقىٰ لينها ورحمتها، فرياح الرحمة متعددة، وأما ريح العذاب فإنه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لإهلاك، ما ترسل بإهلاكه، فلا تقوم لها ريح أخرىٰ تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها، بل تكون كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء، يدمر كل ما أتىٰ عليه.

وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا في البر. وأما في البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد، كقوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢] فإن السفن إنما تسير بالريح الواحدة، التي تأتي من وجه واحد، فإذا اختلفت الرياح علىٰ السفن وتقابلت لم يتم سيرها، فالمقصود منها في

البحر خلاف المقصود منها في البر، إذ المقصود في البحر إن تكون واحدة طيبة لا يعارضها شيء، فأفردت هنا وجمعت في البر.

ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذي يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والبأس ما يفلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة، ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه، فانظر إليه مع لطافته وخفته إذا دخل في الزق مثلا وامتلأ به، ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره، وتحامل عليه ليغمسه في الماء لم يطق، ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه، فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له، ولم يمتنع منه القوي الشديد، وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه، وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء، فإنه لا يرسب فيه، لأن الهواء يمتنع من الغوص في الماء فتتعلق به السفينة المشحونة الموقرة.

فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به حتى أمن من الغرق، وهذا كالذي يهوى في قليب، فيتعلق بذيل رجل قوي شديد، يمتنع عن السقوط في القليب، فينجو بتعلقه به، فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة، ولا عقدة تشاهد...[1]

ومن هذا الباب ذكر الرياح في القرآن جمعًا ومفردة، فحيث كانت في سياق الرحمة أتت مجموعة، وحيث وقعت في سياق العذاب أتت مفردة.

وسر ذلك: أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهاب والمنافع، وإذا هاجت منها ريح أنشأ لها ما يقابلها وما يكسر سورتها ويصدم حدتها، فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات، فكل ريح منها في مقابلها ما يعدلها ويرد سورتها، فكانت في الرحمة ريحًا، وأما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد وحمام واحد لا يقوم لها شيء، ولا يعارضها غيرها حتى تنتهي إلى حيث أمرت، لا يرد سورتها ولا يكسر شرتها،

(١) ١١٨ بدائع جـ١.

فتمتثل ما أمرت به، وتصيب ما أرسلت إليه، ولهذا وصف سبحانه الريح التي أرسلها على عاد بأنها عقيم، فقال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]. وهي التي لا تلقح ولا خير فيها، والتي تعقم ما مرَّت عليه.

ثم تأمل كيف اطرد هذا إلا في قوله في سورة يونس: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢] فذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الإفراد؛ لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة، سيرها من وجه واحد[1]، فإذا اختلف عليها الرياح وتصادمت وتقابلت فهو سبب الهلاك، فالمطلوب هناك ريح واحدة لا رياح، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب، دفعًا لتوهم أن تكون ريحًا عاصفة، بل هي مما يفرح بها لطيبها.

فلينزه الفطن بصيرته في هذه الرياض المونقة المعجبة التي ترقص القلوب لها فرحًا، ويتغذى بها عن الطعام والشراب، والحمد لله الفتاح العليم، فمثل هذا الفصل يعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنيها من كلام الله، والله الموفق للصواب.

***

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

[2]شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزيَّن في عين الناظر فتروقه بزينتها وتعجبه،

(١) في الأصل: إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها، ولعل الصواب ما أثبتناه. (ج).

(٢) ١٥٣ إعلام جـ١.

فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها، سلبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب ويحسن نباتها ويروق منظرها للناظر، فيغتر به، ويظن أنه قادر عليها، مالك لها، فيأتيها أمر الله فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفرًا منها؛ فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس.

ولما كانت الدنيا عرضة لهذه الآفات، والجنة سليمة منها قال: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] فسماها هنا: دار السلام لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا، فعمَّ بالدعوة إليها، وخص بالهداية من يشاء، فذاك عدله وهذا فضله.

وقال خالقها سبحانه: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٤، ٢٥] فأخبر عن خسة الدنيا وزهَّد فيها، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها. وقال تعالى: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦]. وقال تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ

وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ۝١٤ ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّـٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴾ [الرعد: ٢٦][1].

***

﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٢٥ ۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٦ ﴾.

[2] قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس: ٢٥] وهذا حث علىٰ إجابة هذه الدعوة، والمبادرة إليها، والمسارعة في الإجابة.

والتحقيق أن يقال: الجنة ليست اسمًا لمجرد الأشجار والفواكه والطعام والشراب والحور العين والأنهار والقصور. وأكثر الناس يغلطون في مسمىٰ الجنة، فإن «الجنة» اسم لدار النعيم المطلق الكامل.

ومن أعظم نعيم الجنة: التمتع بالنظر إلىٰ وجه الله الكريم، وسماع كلامه وقرة العين بالقرب منه وبرضوانه، فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول والمشروب والملبوس والصور إلىٰ هذه اللذة أبدا، فأيسر يسير من رضوانه: أكبر من الجنان وما فيها من ذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ﴾ [التوبه: ٧٢] وأتىٰ به منكرا في سياق الإثبات أي: أي شيء كان من رضاه عن عبده فهو أكبر من الجنة.

قليـــل منـــك يقنعنـــي ولكـــن قليلـــك لا يقـــال لـــه قليـــل[3]

---

(١) تقدم آخر البحث في أول هذه السورة علىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ﴾ [يونس: ٧] الآية (ج).

(٢) ٨٠ مدارج جـ٢.

(٣) هذا البيت من بحر الوافر، وينسب إلىٰ عبيد الله بن أحمد بن علي الميكالي المتوفىٰ سنة ٤٣٦هـ، وكان أميرًا من الكتاب الشعراء، من أهل خراسان. وذكر البيت عبد الرحيم العباسي أبو الفتح المتوفىٰ سنة =

وفي الحديث الصحيح حديث الرؤية: «فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إلى وجهه»[(١)].

وفي حديث آخر: أنه سبحانه إذا تجلى لهم ورأوا وجهه عيانا: نسوا ما هم فيه من النعيم وذهلوا عنه ولم يلتفوا إليه.

ولا ريب أن الأمر هكذا، وهو أجل مما يخطر بالبال أو يدور في الخيال، ولا سيما عند فوز المحبين هناك بمعية المحبة، فإن المرء مع من أحب[(٢)]. ولا تخصيص في هذا الحكم، بل هو ثابت شاهدًا وغائبًا.

فأي نعيم وأي لذة وأي قرة عين وأي فوز يداني نعيم تلك المعية ولذتها وقرة العين بها؟ وهل فوق نعيم قرة العين بمعية المحبوب، الذي لا شيء أجل منه ولا أكمل ولا أجمل قرة عين البتة.

وهذا ـ والله ـ هو العلم الذي شمر إليه المحبون، واللواء الذي أمه العارفون، وهو روح مسمى الجنة وحياتها، وبه طابت الجنة وعليه قامت.

فكيف يقال: لا يعبد الله طلبًا لجنته ولا خوفًا من ناره؟

وكذلك النار ـ أعاذنا الله منها ـ فإن لأربابها من عذاب الحجاب عن الله وإهانته وغضبه وسخطه والبعد عنه: أعظم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم، بل التهاب هذه النار في قلوبهم: هو الذي أوجب التهابها في أبدانهم، ومنها سرت إليها، فمطلوب الأنبياء والمرسلين والصديقين والشهداء والصالحين: هو الجنة ومهربهم من النار، والله

٩٦٣هـ في كتابه معاهد التنصيص في شرح شواهد التلخيص ونسبه إلى أبي نصر أحمد الميكالي. وذكره أيضًا العظيم آبادي في عون المعبود (٢/ ١٣) وفيه: «يكفيني» بدل «يقنعني» وينسب هذا البيت إلى جعفر بن حمد بن محمد الحلي، شاعر عراقي من أهل الحلة، ولد بها سنة ١٢٧٧هـ وتوفي سنة ١٣١٥هـ له الجعفريات في رثاء أهل البيت وسحر بابل وسجع البلابل وهي نسبة غير صحيحة.

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨١) وانظر: عمدة القاري (٥/ ٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦١٦٨، ٦١٦٩) ومسلم (رقم ٢٦٤٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٥٥- ٥٥٩)، وشرح النووي (١٦/ ١٨٦).

المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

[(١)]حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل حدثنا أيوب بن أبي شبيب الصنعاني قال: كان فيما عرضنا على رباح بن زيد حدثني عبد الله بن نمير: سمعت عبد الرحمن بن يزيد يقول: سمعت عبد الله بن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تنسوا العظيمتين**» قلنا: وما العظيمتان يا رسول الله؟ قال: «**الجنة والنار**»[(٢)].

وذكر أبو بكر الشافعي من حديث كليب بن حزن قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اطلبوا الجنة جهدكم، واهربوا من النار جهدكم، فإن الجنة لا ينام طالبها، وإن النار لا ينام هاربها، وإن الآخرة اليوم محفوفة بالمكاره، وإن الدنيا محفوفة باللذات والشهوات، فلا تلهينكم عن الآخرة**»[(٣)].

أسماء الجنة ومعانيها واشتقاقها ولها عدة أسماء باعتبار صفاتها، ومسماها واحد باعتبار الذات، فهي مترادفة من هذا الوجه، وتختلف باعتبار الصفات، فهي متباينة من هذا الوجه، وهكذا أسماء الرب ﷻ، وأسماء كتابه، وأسماء رسله، وأسماء اليوم الآخر، وأسماء النار.

الاسم الأول: الجنة وهو الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة الأعين.

وأصل اشتقاق هذه اللفظة من الستر والتغطية، ومنه الجنين لاستتاره في البطن، والجان لاستتاره عن العيون، والمجن لستره ووقايته الوجه، والمجنون لاستتار عقله

(١) ٧٠ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (رقم ٦٦) والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ٤١٧) والدولابي في الكنى (٢/ ١٦٤).وانظر: التخويف من النار (ص٣٢-٣٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٩/ ٢٠٠) رقم ٤٤٩) وعنه أبو نعيم في صفة الجنة مختصرًا (رقم ٣٠) وكذا أخرجه الطبراني مختصرًا في الأوسط (٤/ ٧٣ رقم ٣٦٤٣) وقال الحافظ ابن رجب في التخويف من النار (ص ١٢) ويروى هذا الحديث أيضًا عن يعلى بن الأشدق عن عبد الله بن جراد عن النبي ﷺ، وأحاديث يعلى بن الأشدق باطلة منكرة. وذكره المنذري في الترغيب (٤/ ٢٤٥-٢٤٦ رقم ٥٥٣١) وسكت عنه.

وتواريه عنه، والجان وهي الحية الصغيرة الرقيقة، ومنه قول الشاعر:

فـدقَّت وجلَّـت واسـبكرَّت وأُكملـت   فلـو جُـنَّ إنسـان مـن الحـسن جُنَّـتِ[(١)]

أي: لو غطى وستر عن العيون لفعل بها ذلك.

ومنه سمى البستان جنة، لأنه يستر داخله بالأشجار ويغطيه، فلا يستحق هذا الاسم إلا موضع كثير الأشجار مختلف الأنواع.

والجنة بالضم ما يستجن به من ترس أو غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَـٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾[(٢)] أي يستترون بها من إنكار المؤمنين عليهم.

[(٣)]الاسم الثاني: دار السلام، وقد سماها الله بهذا الاسم في قوله: ﴿۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٢٧] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]، وهي أحق بهذا الاسم، فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه، وهي دار الله واسمه ﷻ السلام الذي سلمها وسلم أهلها ﴿وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]، ﴿وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] والرب تعالى يسلم عليهم من فوقهم، كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَـٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَـٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٧، ٥٨]، وسيأتي حديث جابر في سلام الرب تبارك وتعالى عليهم في الجنة وكلامهم كلهم فيها سلام، أي لا لغو فيها ولا فحش ولا باطل، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَـٰمٗا﴾ [مريم: ٦٢].

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل ذكره ابن قتيبة في غريب الحديث (٢/ ٦١٣) ونسبه إلى الشنفرى، وذكر عجزه ابن الأثير في النهاية (١/ ٣٠٩) ونسبه أيضًا إلى الشنفرى، وهو عمرو بن مالك الأزدي شاعر جاهلي من فحول الطبقة الثانية، وهو صاحب لامية العرب، شرحها الزمخشري، وفي الأمثال: «أعدى من الشنفرى»، لأنه من فتاك العرب وعدّائيهم، مات سنة ٧٠ قبل الهجرة، وانظر: أخبار النساء لابن الجوزي (ص ٢٧٤) والإعجاز والإيجاز لأبي منصور الثعالبي (ص ١٥٠) والبديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ (ص ٢٦٥).

(٢) المجادلة: ١٦، والمنافقون: ٢.

(٣) ٧٢ حادي الأرواح.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٩٠، ٩١] فأكثر المفسرين حاموا حول المعنى وما وردوه، وقالوا أقوالًا لا يخفى بعدها عن المقصود، وإنما معنى الآية والله أعلم: فسلام لك أيها الراحل عن الدنيا حال كونك من أصحاب اليمين، أي: فسلامه لك كائنًا من أصحاب اليمين الذين سلموا من الدنيا وأنكادها ومن النار وعذابها، فبشر بالسلامة عند ارتحاله من الدنيا وقدومه على الله، كما يبشر الملك روحه عند أخذها بقوله: أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان. وهذا أول البشرى التي للمؤمن في الآخرة.

الاسم الثالث: دار الخلد، وسميت بذلك لأن أهلها لا يظعنون عنها أبدًا، كما قال تعالى: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود: ١٠٨]، وقال: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص: ٥٤]، وقال: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]، وسيأتي إبطال قول من قال من الجهمية والمعتزلة بفنائها أو فناء حركات أهلها إن شاء الله تعالى.

الاسم الرابع: دار المقامة، قال تعالى حكاية عن أهلها: ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥] قال مقاتل: أنزلنا دار الخلود، أقاموا فيها أبدا، لا يموتون ولا يتحولون منها أبدًا، قال الفراء والزجاج: المقامة مثل الإقامة، يقال: أقمت بالمكان إقامة ومقامة ومقامًا.

الاسم الخامس: جنة المأوى، قال تعالى: ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٥]. والمأوى: مفعل من أوى يأوي إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به. وقال عطاء عن ابن عباس: هي الجنة التي يأوي إليها جبريل والملائكة. وقال مقاتل والكلبي: هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء. وقال كعب: جنة المأوى جنة فيها طير خضر،

ترتع فيها أرواح الشهداء[(١)]. وقالت عائشة رضي الله عنها، وزر بن حبيش: هي جنة من الجنان. والصحيح أنه اسم من أسماء الجنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] وقال في النار: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٩] وقال: ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [الجاثية: ٣٤].

الاسم السادس: جنات عدن، فقيل: هو اسم لجنة من الجنان.

والصحيح: أنه من لجملة الجنان، وكلها جنات عدن، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١].

وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [فاطر: ٣٣] وقال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢].

والاشتقاق يدل على أن جميعها جنات عدن، فإنه من الإقامة والدوام، يقال: عدن بالمكان إذا أقام به، وعدنت البلد توطنته، وعدنت الإبل مكان كذا لزمته، فلم تبرح منه.

قال الجوهري: ومنه جنات عدن، أي إقامة. ومنه سمي المعدن بكسر الدال، لأن الناس يقيمون فيه الصيف والشتاء، ومركزه كل شيء معدنه، والعادن الناقة المقيمة في المرعى.

[(٢)]قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٥، ٢٦].

فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجهه الكريم كذلك فسرها رسول الله ﷺ الذي أنزل عليه القرآن، فالصحابة من بعده.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٤/ ٢١٥ رقم ١٩٤٢٥) وابن المبارك في الجهاد (رقم ٦١) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٥/ ٣٨١).

(٢) ٢٠٥ حادي الأرواح.

كما روىٰ مسلم في صحيحه من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليلىٰ عن صهيب، قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادىٰ منادٍ: يا أهل الجنة: إن لكم عند الله موعدًا ويريد أن ينجزكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويزحزحنا عن النارّ فيكشف الحجاب فينظرون الله، فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة»[(١)].

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا سلم بن سالم البلخي، عن نوح بن أبي مريم عن ثابت عن أنس قال: سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: «للذين أحسنوا العمل في الدنيا الحسنىٰ وهي الجنة، والزيادة وهي النظر إلىٰ وجه الله»[(٢)].

وقال محمد بن جرير: حدثنا ابن حميد: حدثنا إبراهيم بن المختار عن ابن جريج، عن عطاء، عن كعب بن عجزة عن النبي ﷺ في قوله تعالىٰ: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: «الزيادة النظر إلىٰ وجه الرحمن جل جلاله»[(٣)] قلت: عطاء هذا هو الخراساني، وليس عطاء بن أبي رباح.

قال ابن جرير: وحدثنا ابن عبد الرحيم، حدثنا عمرو بن أبي سلمة قال: سمعت زهيرًا وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا صفوان بن صالح: حدثنا الوليد بن مسلم: حدثنا زهير بن محمد قال: حدثني من سمع أبا العالية الرياحي يحدث عن أبي بن

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨١) وانظر: عمدة القاري (٥/ ٤٣).

(٢) أخرجه الدارقطني في رؤية الله (رقم ٦٧) والخطيب البغدادي في تاريخه (٩/ ١٤٠) وابن عدي في الكامل (٣/ ٣٢٦) والذهبي في السير بسنده (٢٢/ ١١٣) وقال: نوح تالف وسلم ضعّفوه، وقال ابن عدي: وهذان الحديثان لعل البلاء فيهما من نوح بن أبي مريم وهو أبو عصمة المروزي قاضيها، فإنه من سلم بن سالم، ولسلم بن سالم أحاديث إفرادات وغرائب، وأنكر ما رأيت له ما ذكرته من هذه الأحاديث، وبعضها لعل البلاء فيه من غيره، وأرجو أن يحتمل حديثه.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٠٧) والبيهقي في الاعتقاد (ص ١٢٤).

كعب قال: سألت رسول الله ﷺ عن الزيادة في كتاب الله ﷻ، قوله تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: «**الحسنى الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله ﷻ**»[(١)].

وقال أسد السنة: حدثنا قيس بن الربيع، عن أبان، عن أبي تميمة الهجيمي أنه سمع أبا موسى يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**يبعث الله ﷻ يوم القيامة مناديًا ينادي: يا أهل الجنة بصوت يسمع أولهم وآخرهم، إن الله وعدكم الحسنى، والحسنى: الجنة، والزيادة،: النظر إلى وجه الله ﷻ**»[(٢)].

[(٣)]فتأمل قوله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٦، ١٧] كيف أفردت هنا لما كان المراد الوصف الشامل والفوق المطلق، ولم يرد سماء معينة مخصوصة.

ولما لم تفهم الجهمية هذا المعنى أخذوا في تحريف الآية عن مواضعها، وكذا قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١] بخلاف قوله في سبأ: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣] فإن قبلها ذكر سبحانه سعة ملكه ومحله، وهو السماوات كلها والأرض.

ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي ذلك أفردها إرادة للجنس.

وتأمل كيف أتت مجموعة في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣] فإنها أتت مجموعة هنا لحكمة ظاهرة، وهي تعلق الظرف بما في اسمه تبارك وتعالى من معنى الإلهية، فالمعنى وهو الإله وهو المعبود في كل واحدة من السماوات، ففي كل واحدة من هذا الجنس هو المألوه المعبود، فذكر

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٠٧) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٧٨٠) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٧٨) وانظر: عمدة القاري (٥/ ٤٣) وتفسير ابن كثير (٢/ ٤١٥).

(٢) أخرجه الطبري (١١/ ١٠٥) واللالكائي (رقم ٧٨٢) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٤١٥) وتخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٢٥).

(٣) ١١٥ بدائع جـ١.

الجمع هنا أبلغ وأحسن من الاقتصار على لفظ الجنس الواحد.

ولما عزب هذا المعنى عن فهم بعض المتسننة فسر الآية بما لا يليق بها، فقال: الوقف التام على ﴿ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ ثم يبتدئ بقوله: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ ﴾، وغلط في فهم الآية، وأن معناها ما أخبرتك به، وهو قول محققي أهل التفسير.

وتأمل كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٣] إرادة لهذين الجنسين، أي رب كل ما علا وكل ما سفل، فلما كان المراد عموم ربوبيته أتى بالاسم الشامل لكل ما يسمى سماء وكل ما يسمى أرضا، وهو أمر حقيقي لا يتبدل ولا يتغير، وإن تبدلت عين السماء والأرض.

فانظر كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجمعة: ١] في جميع الصور لما كان المراد الإخبار عن تسبيح سكانها على كثرتهم وتباين مراتبهم، لم يكن بد من جمع محلهم.

ونظير هذا جمعها في قوله: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وكذلك جاءت في قوله: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ ﴾ [الإسراء: ٤٤] مجموعة إخبارا بأنها تسبح له بذواتها وأنفسها على اختلاف عددها، وأكد هذا المعنى بوصفها بالعدد، ولم يقتصر على السماوات فقط، بل قال: ﴿ ٱلسَّبْعُ ﴾.

وانظر كيف جاءت مفردة في قوله: ﴿ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢] فالرزق المطر وما وعدنا به الجنة، وكلاهما في هذه الجهة لا أنهما في كل واحدة واحدة من السماوات، فكان لفظ الإفراد أليق بها.

ثم تأمل كيف جاءت مجموعة في قوله: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥] لما كان المراد نفي علم الغيب عن كل من هو في واحدة واحدة من السماوات أتى بها مجموعة.

وتأمل كيف لم يجئ في سياق الإخبار بنزول الماء منها إلا مفردة، حيث وقعت لما لم يكن المراد نزوله من ذات السماء بنفسها، بل المراد الوصف، وهذا باب قد فتح الله لي ولك فلجه، وانظر إلىٰ أسرار الكتاب وعجائبه وموارد ألفاظه: جمعًا وإفرادا، وتقديما وتأخيرًا، إلىٰ غير ذلك من أسراره، فلله الحمد والمنة، لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، فإن قيل: فهل يظهر فرق بين قوله تعالىٰ: في سورة يونس: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ [يونس: ٣١] وبين قوله في سورة سبأ: ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [سبأ: ٢٤].

قيل: هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرقا، فتدبر السياق تجده نقيضا لما وقع، فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به، ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالىٰ هو رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم ومدبر أمورهم وغيرها، ومخرج الحي من الميت، والميت من الحي، فلما كانوا مقرين بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم، إن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف يعبدون معه غيره، ويجعلون له شركاء، لا يملكون شيئا من هذا، ولا يستطيعون فعل شيء منه، ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالىٰ: ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ أي لابد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه، فلابد أن يكون المذكور مما يقرون به، والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء، التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلىٰ سماء، حتىٰ تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلىٰ هذا، فأفردت لفظ السماء هنا، فإنه لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها، لاسيما والرزق هاهنا إن كان هو المطر، فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فإنه يسمىٰ سماء لعلوه.

وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [الروم: ٤٨].

والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس، فلا يلتفت إلى غيره. فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا إفراد السماء، لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح، ولا بد من الوحي الذي به الحياة الحقيقية الأبدية، وهو أولى باسم الرزق من المطر الذي به الحياة الفانية المنقضية، فما ينزل من فوق ذلك من الوحي والرحمة والألطاف والموارد الربانية والتنزلات الإلهية، وما به قوام العالم العلوي والسفلي من أعظم أنواع الرزق، ولكن القوم لم يكونوا مقرين به، فخوطبوا بما هو أقرب الأشياء إليهم، بحيث لا يمكنهم إنكاره.

وأما الآية التي في سورة سبأ، فلم ينتظم بها ذكر إقرارهم بما ينزل من السماوات، ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها، ولم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون، فقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾، ولم يقل: سيقولون الله. فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده، الذي ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السماوات السبع، وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها في واحدة من الاثنين، إذ يقر به كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر.

[1]وأما تقديم السماء على الأرض، ففيه معنى آخر غير ما ذكره وهو أن السموات والأرض تذكر غالبا في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته وربوبيته، ومعلوم أن الآيات في السموات أعظم منها في الأرض، لسعتها وعظمها وما فيها من كواكبها وشمسها وقمرها وبروجها وعلوها واستغنائها عن عمد تقلها أو علاقة ترفعها إلى غير ذلك من عجائبها التي الأرض وما فيها كقطرة في سعتها، ولهذا أمر سبحانه بأن يرجع الناظر فيها البصر كرة، بعد كرة ويتأمل استواءها واتساقها وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض، وفي كل شيء له آية، سبحانه وبحمده.

---

(١) ٧٤ بدائع جـ١.

وأما تقديم الأرض عليها في قوله: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[يونس: ٦١] وتأخيرها عنها في سبأ فتأمل كيف وقع هذا الترتيب في سبأ في ضمن قول الكفار: ﴿ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٣] كيف قدم السموات هنا، لأن الساعة إنما تأتي من قبلها، وهي غيب فيها ومن جهتها تبتدئ وتنشأ، ولهذا قدم صعق أهل السموات على أهل الأرض عندها، فقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[الزمر: ٦٨] وأما تقديم الأرض على السماء في سورة يونس، فإنه لما كان السياق سياق تحذير وتهديد للبشر وإعلامهم أنه سبحانه عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها، وأنه لا يغيب عنه منها شيء، اقتضى ذلك ذكر محلهم وهو الأرض قبل ذكر السماء، فتبارك من أودع كلامه من الحكم والأسرار والعلوم ما يشهد أنه كلام الله تعالى، وأن مخلوقًا لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبدًا.

***

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

[(١)]من ذلك احتجاجه سبحانه على نبوة رسوله ﷺ وصحة ما جاء به من الكتاب، وأنه من عنده، وكلامه الذي تكلم به، وأنه ليس من صنع البشر بقوله: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ إلخ فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي أنزله على عبده، وأنه كلام الله أن يأتي بسورة واحدة مثله، وهذا يتناول أقصر سورة من سوره، ثم فسح له إن عجز عن ذلك أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ

(١) ٩٧ مختصر الصواعق جـ١.

ﭐللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨]. وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ﴾ [هود: ١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

ثم سجل عليهم تسجيلًا عامًّا في كل مكان وزمان بعجزهم، ولو تظاهر عليه الثقلان، فقال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨].

فانظر إلىٰ أي موقع يقع من الأسماع والقلوب هذا الحجاج الجليل القاطع الواضح، الذي لا يجد طالب الحق ومؤثره ومريده عنه محيدًا، ولا فوقه مزيدًا، ولا وراءه غاية، ولا أظهر منه آية، ولا أوضح منه برهانًا، ولا أبلغ منه بيانًا. وقال في إثبات نبوة رسوله باعتبار المتأمل لأحواله ودعوته وما جاء به: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨-٧٠].

فدعاء سبحانه إلىٰ تدبر القول، وتأمل حال القائل، فإن كون القول كذبًا وزورًا يعرف من نفس القول تارة، وتارة من تناقضه واضطرابه، وظهور شواهد الكذب عليه، ويعرف من حال القائل تارة، فإن المعروف بالكذب والفجور والمنكر والخداع والمكر لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولا يأتي منه من القول والفعل ما يتأتي من البار الصادق من كل فاحشة وغدر وفجور وكذب، بل قلب هذا وقصده وعمله وقوله يشبه بعضه بعضًا، وقلب ذلك وقوله وعمله وقصده يشبه بعضه بعضًا، فدعاهم سبحانه إلىٰ تدبر القول وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ يتحقق لهم ويتبين حقيقة الأمر، وأن ما جاء به أعلىٰ مراتب الصدق.

[1]قوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ

(١) ١٣٨ أعلام جـ١.

ﵟٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَﵞ [يونس: ٣٩] فأخبر أن من قبل المكذبين أصل يعتبر به، والفرع نفوسهم، فإذا ساووهم في المعنى ساووهم في العاقبة.

***

ﵟوَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَ ٤٣ﵞ.

(1) اختلف ابن قتيبة وابن الأنباري في السمع والبصر، أيهما أفضل، ففضل ابن قتيبة السمع ووافقه طائفة، واحتج بقوله تعالى: ﵟوَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَ ٤٢ وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَۚ أَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَلَوۡ كَانُواْ لَا يُبۡصِرُونَﵞ [يونس: ٤٢، ٤٣]، قال: فلما قرن بذهاب السمع ذهاب العقل ولم يقرن بذهاب النظر إلا ذهاب البصر، كان دليلًا على أن السمع أفضل، قال ابن الأنباري: هذا غلط وكيف يكون السمع أفضل، وبالبصر يكون الإقبال والإدبار، والقرب إلى النجاة، والبعد من الهلاك، وبه جمال الوجه وبذهابه شينه، وفي الحديث: «من ذهبت كريمتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابًا دون الجنة»(2).

وأجاب عما ذكره ابن قتيبة بأن الذي نفاه الله تعالى مع السمع بمنزلة الذي نفاه عن البصر، إذ كأنه أراد إبصار القلوب، ولم يرد إبصار العيون، والذي يبصره القلب هو الذي يعقله؛ لأنها نزلت في قوم من اليهود كانوا يستمعون كلام النبي ﷺ فيقفون على صحته ثم يكذبونه، فأنزل الله فيهم: ﵟأَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّﵞ أي: المعرضين ﵟوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَعۡقِلُونَﵞ، ﵟوَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَﵞ، بعين نقص ﵟأَفَأَنتَ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَﵞ أي:

---

(١) ١٦٤ بدائع جـ٣.

(٢) أخرجه البخاري لفظ قريب (رقم ٥٦٥٣) عن أنس قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر، عوَّضته منهما الجنة» يريد: عينيه. واللفظ المذكور هنا أخرجه الضياء والمقدسي في الأحاديث المختارة (١٠/ ٨٣ رقم ٧٧) وابن حبان (٧/ ١٩٣ رقم ٢٩٣٠) وفي الموارد (رقم ٧٠٥) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٥ رقم ١١٤٤٦) والترمذي (رقم ٢٤٠١) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وانظر: فتح الباري (١٠/ ١١٦).

المعرضين ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾.

قال: ولا حجة في تقديم السمع على البصر هنا، فقد أخبر في قوله تعالى: ﴿ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ﴾ [هود: ٢٤].

قلت: واحتج مفضلو السمع بأن به ينال غاية السعادة من سمع كلام الله وسماع كلام رسوله، قالوا: وبه حصلت العلوم النافعة، وبه يدرك الحاضر والغائب والمحسوس والمعقول، فلا نسبة لمدرك البصر إلى مدرك السمع.

قالوا: ولهذا يكون فاقده أقل علمًا من فاقد البصر؛ بل قد يكون فاقد البصر أحد العلماء الكبار بخلاف فاقد صفة السمع، فإنه لم يعهد من هذا الجنس عالم البتة.

قال مفضلو البصر: أفضل النعيم النظر إلى الرب تعالى، وهو يكون بالبصر، والذي يراه البصر لا يقبل الغلط بخلاف ما يسمع، فإنه يقع فيه الغلط والكذب والوهم، فمدرك البصر أتم وأكمل، قالوا: وأيضًا فمحله أحسن وأكمل وأعظم عجائب من محل السمع، وذلك لشرفه وفضله.

قال شيخنا: والتحقيق أن السمع له مزية، والبصر له مزية، فمزية السمع العموم والشمول، ومزية البصر كمال الإدراك وتمامه، فالسمع أعم وأشمل، والبصر أتم وأكمل، فهذا أفضل من جهة شمول إدراكه وعمومه، وهذا أفضل من جهة كمال إدراكه وتمامه.

***

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

(١) حلف ﷺ في أكثر من ثمانين موضعًا، وأمره الله سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع: فقال تعالى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ﴾ [يونس: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ: ٣].

(١) ٨٤ زاد المعاد جـ١.

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

وكان إسماعيل بن إسحاق القاضي يذاكر أبا بكر محمد بن داود الظاهري، ولا يسميه بالفقيه، فتحاكم إليه يومًا وهو خصم له، فتوجهت اليمين على أبي بكر بن داود فتهيأ للحلف، فقال له القاضي إسماعيل: أو تحلف؟ ومثلك يحلف يا أبا بكر؟ فقال: وما يمنعني من الحلف، وقد أمر الله تعالى نبيه بالحلف في ثلاثة مواضع من كتابه، قال: أين ذلك؟ فسردها له أبو بكر، فاستحسن ذلك منه جدًّا، ودعاه بالفقيه من ذلك اليوم.

وكان ﷺ يستثني في يمينه تارة، ويكفرها تارة، ويمضي فيها تارة، والاستثناء يمنع عقد اليمين، والكفارة تحلها بعد عقدها، ولهذا سمَّاها الله ﴿تَحِلَّةَ﴾ [التحريم: ٢].

***

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

[1]قد تقدم أن جماع أمراض القلب هي أمراض الشبهات والشهوات. والقرآن شفاء للنوعين. ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك، بحيث يرى الأشياء على ما هي عليه.

وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين و الآيات على المطالب العالية: من التوحيد، وإثبات الصفات، وإثبات المعاد والنبوات، ورد النِّحل الباطلة والآراء الفاسدة، مثل القرآن. فإنه كفيل بذلك كله، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها، وأقربها إلى العقول، وأفصحها بيانا. فهو الشفاء على الحقيقة من أدواء الشبه والشكوك.

ولكن ذلك موقوف على فهمه ومعرفة المراد منه. فمن رزقه الله تعالى ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه، كما يرى الليل والنهار، وعلم أن ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم: بين علوم لا ثقة بها، وإنما هي آراء وتقليد؛ وبين ظنون كاذبة لا

(١) ٤٤ إغاثة جـ١.

تغني من الحق شيئًا. وبين أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها؛ وبين علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها، مع قلة نفعها. فهي: «لَحْمُ جَمَلٍ غَثّ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ وَعْرٍ، لا سَهْلٌ فَيُرْتَقَى، ولا سَمِينٌ فَينتقلُ»(١).

وأحسن ما عند المتكلمين وغيرهم فهو في القرآن أصح تقريرا وأحسن تفسيرا، فليس عندهم إلا التكلف والتطويل والتعقيد، كما قيل:

لَوْلا التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا لَـما وُضِعَتْ ... كُتْبُ التَّنَاظُرِ، لا المُغْنِي وَلا الْعُمَدُ
يُحَلِّلُونَ بِزَعْمٍ مِنْهُمُ عُقَدًا ... وَبِالَّذِي وَضَعُوهُ زَادَتِ العُقَدُ(٢)

فهم يزعمون أنهم يدفعون بالذي وضعوه الشبه والشكوك، والفاضل الذكي يعلم أن الشبه والشكوك زادت بذلك. ومن المحال أن لا يحصل الشفاء والهدى، والعلم واليقين من كتاب الله تعالى وكلام رسوله، ويحصل من كلام هؤلاء المتحيرين المتشككين الشاكين، الذين أخبر الواقف على نهايات إقدامهم بما انتهى إليه من مرامهم، حيث يقول:

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَأَكْثَرُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا(٣)

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا. ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥١٨٩) ومسلم (رقم ٢٤٤٨) وانظر: شرح النووي (١٥/ ٢١٢-٢١٣).

(٢) هذان البيتان من بحر البسيط والبيت الأول منهما ينسب إلى أبي العلاء المعري أحمد بن عبد الله التنوخي، شاعر وفيلسوف، عمي في السنة الرابعة من عمره، كان يحرم إيلام الحيوان، ولم يأكل اللحم خمسًا وأربعين سنة. ولد ومات في معرة النعمان ٣٦٣-٤٤٩هـ والبيت الثاني لم أقف على قائله. وهو في ديوانه، وفيه: «كتب القناطر» وذكر البيت ياقوت الحموي في معجم الأدباء (١/ ٦٤١).

(٣) هذه الأبيات الثلاثة لفخر الدين الرازي صاحب تفسير مفاتيح الغيب وذكر الأبيات الشنقيطي في أضواء البيان (٧/ ٢٩٦) والسبكي في طبقات الشافعية (٨/ ٩٦).

أقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، [فاطر: ١٠].

واقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠] من جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي(١).

فهذا إنشاده وألفاظه في آخر كتبه. وهو أفضل أهل زمانه على الإطلاق في علم الكلام والفلسفة، وكلام أمثاله في مثل ذلك كثير جدًّا، قد ذكرناه في كتاب الصواعق وغيره. وذكرنا قول بعض العارفين بكلام هؤلاء «آخر أمر المتكلمين الشك، وآخر أمر المتصوفين الشطح»(٢). والقرآن يوصلك إلى نفس اليقين في هذه المطالب التي هي أعلى مطالب العباد، ولذلك أنزله من تكلم به. وجعله شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين.

وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، والتزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ويرغب عما يضره، فيصير القلب محبا للرشد، مبغضًا للغي. فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة، فيصلح القلب، فتصلح إرادته، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية.

(٣)وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾ عام مطلق، وقوله: ﴿وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ خاص بأهل اليقين.

ونظير ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠١) وأضواء البيان (٧/ ٢٩٦).

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٢/ ٣٠٨).

(٣) ١٦٩ إغاثة جـ٢.

ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ونظيره في الخصوص قوله تعالىٰ: ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] وقوله: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦].

ونظيره أيضًا قوله: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقد أخبر أنه هدىٰ عام لجميع المكلفين، فقال: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

فأخبر سبحانه أن القرآن بصائر لجميع الناس، والبصائر جمع بصيرة، وهي فعيلة بمعنىٰ مفعلة، أي مبصرة لمن تبصَّر، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء: ٥٩] أي مبيِّنة موجبة للتبصير.

وفعل الإبصار يستعمل لازما ومتعديا. يقال: أبصرته، بمعنىٰ أريته، وأبصرته، بمعنىٰ رأيته، فمبصرة فىٰ الآية: بمعنىٰ مرئية، لا بمعنىٰ رائية، والذين ظنوها بمعنىٰ رائية غلطوا في الآية، وتحيروا في معناها.

فإنه يقال: بصر به، وأبصره، فيعدىٰ بالباء تارة، والهمزة تارة. ثم يقال: أبصرته كذا، أي أريته إياه، كما يقال: بصرته به. وبصر هو به.

فهاهنا بصيرة، وتبصرة، ومبصرة. فالبصيرة: المبينة التىٰ تبصر، والتبصرة مصدر مثل التذكرة، وسُمِّي بها ما يوجب التبصرة، فيقال: هذه الآية تبصرة، لكونها آلة التبصر، وموجبه.

فالقرآن بصيرة وتبصرة، وهدىٰ وشفاء، ورحمة، بمعنىٰ عام، وبمعنىٰ خاص. ولهذا يذكر الله سبحانه هذا وهذا، فهو هدىٰ للعالمين، وموعظة للمتقين، وهدىٰ للمتقين، وشفاء للعالمين، وشفاء للمؤمنين، وموعظة للعالمين، وموعظة للمتقين، فهو فىٰ نفسه هدىٰ ورحمة، وشفاء وموعظة.

فمن اهتدىٰ به واتعظ واستشفىٰ، كان بمنزلة من استعمل الدواء الذىٰ يحصل به الشفاء، فهو دواء له بالفعل. وإن لم يستعمله، فهو دواء له بالقوة، وكذلك الهدىٰ.

فالقرآن هدىٰ بالفعل لمن اهتدىٰ به، وبالقوة لمن لم يهتد به، فإنما يهتدي به ويرحم ويتعظ المتقون الموقنون. والهدىٰ في الأصل: مصدر هَدَىٰ يهدي هُدًىً.

فمن لم يعمل بعلمه لم يكن مهتديا، كما في الأثر: «من ازداد علما ولم يزدد هدىٰ لم يزدد من الله تعالىٰ إلا بعدًا»(١) ولكن يسمىٰ هدىٰ، لأن من شأنه أن يهدىٰ.

وهذا أحسن من قول من قال: إنه هدىٰ، بمعنىٰ هاد، فهو مصدر بمعنىٰ الفاعل، كعدل بمعنىٰ العادل، وزور بمعنىٰ الزائر، ورجل صوم أىٰ بمعنىٰ صائم، فإن الله سبحانه قد أخبر أنه يهدىٰ به. فالله الهادي، وكتابه الهدىٰ الذي يهدىٰ به علىٰ لسان رسوله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم.

فهاهنا ثلاثة أشياء: فاعل وقابل وآلة. فالفاعل: هو الله تعالىٰ، والقابل: قلب العبد، والآلة: هو الذي يحصل به الهدىٰ، وهو الكتاب المنزل، والله سبحانه يهدىٰ خلقه هدىٰ، كما يقال: دلهم دلالة، وأرشدهم إرشادًا، وبين لهم بيانًا. والمقصود: أن المحل القابل هو قلب العبد المتقي، المنيب إلىٰ ربه، الخائف منه، الذي يبتغي رضاه، ويهرب من سخطه، فإذا هداه الله فكأنه وصل أثر فعله إلىٰ محل قابل، فيتأثر به، فصار هدىٰ له وشفاء ورحمة وموعظة بالوجود والفعل والقبول، وإذا لم يكن المحل قابلًا وصل إليه الهدىٰ فلم يؤثر فيه، كما يصل الغذاء إلىٰ محل غير قابل للاغتذاء، فإنه لا يؤثر فيه شيئا، بل لا يزيده إلا ضعفًا وفسادًا إلىٰ فساده، كما قال تعالىٰ في السورة التي نزلها: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥]، وقال: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

فتخلف الاهتداء يكون لعدم قبول المحل تارة، ولعدم آلة الهدىٰ تارة، ولعدم فعل

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٦٠٢ رقم ٥٨٨٧) وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٣٠٤ رقم ٢٤٠٢) وقال: رواه الديلمي عن علي رفعه، وسنده ضعيف كما قال العراقي. وانظر: فيض القدير (٦/ ٥٢).

الفاعل، وهو الهادي تارة، ولا يحصل الهدىٰ على الحقيقة إلا عند اجتماع هذه الأمور الثلاثة.

وقد قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٣]. فأخبر سبحانه أنه قطع عنهم مادة الاهتداء، وهو إسماع قلوبهم وإفهامها ما ينفعها، لعدم قبول المحل، فإنه لا خير فيه، فإن الرجل إنما ينقاد للحق بالخير الذي فيه، والميل إليه، والطلب له، ومحبته، والحرص عليه، والفرح بالظفر به، وهؤلاء ليس في قلوبهم شيء من ذلك، فوصل الهدىٰ إليها ووقع عليها كما يصل الغيث النازل من السماء، ويقع على الأرض الغليظة العالية، التي لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، فالماء في نفسه رحمة وحياة، ولكن ليس فيها قبول له.

ثم أكد الله هذا المعنىٰ في حقهم بقوله: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾، فأخبر أن فيهم مع عدم القبول والفهم آفة أخرىٰ، وهي الكبر والإعراض، وفساد القصد، فلو فهموا لم ينقادوا، ولم يتبعوا الحق. ولم يعملوا به، فالهدىٰ في حق هؤلاء هدىٰ بيان وإقامة حجة، لا هدىٰ توفيق وإرشاد، فلم يتصل الهدىٰ في حقهم بالرحمة.

وأما المؤمنون: فاتصل الهدىٰ في حقهم بالرحمة، فصار القرآن لهم هدىٰ ورحمة ولأولئك هدىٰ بلا رحمة. والرحمة المقارنة للهدىٰ في حق المؤمنين عاجلة وآجلة.

فأما العاجلة فما يعطيهم الله تعالىٰ في الدنيا من محبة الخير والبر، وذوق طعم الإيمان، ووجدان حلاوته، والفرح والسرور بأن هداهم الله تعالىٰ لما أضل عنه غيرهم، ولما اختلف فيه من الحق بإذنه، فهم يتقلبون في نور هداه، ويمشون به في الناس، ويرون غيرهم متحيرًا في الظلمات، فهم أشد الناس فرحًا بما آتاهم ربهم من الهدىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

فأمر سبحانه عباده المؤمنين المهتدين أن يفرحوا بفضله ورحمته.

وقد دارت عبارات السلف على أن الفضل والرحمة هو العلم والإيمان والقرآن، واتباع الرسول، وهذا من أعظم الرحمة التي يرحم الله بها من يشاء من عباده، فإن الأمن والعافية والسرور، ولذة القلب ونعيمه وبهجته، وطمأنينته: مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة، والخوف، والهم، والغم، والبلاء، والألم، والقلق: مع الضلال والحيرة.

ومثل هذا بمسافرين: أحدهما قد اهتدى لطريق مقصده، فسار آمنًا مطمئنًا، والآخر قد ضل الطريق فلم يدر أين يتوجه؟ كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام: ٧١].

فالرحمة التي تحصل لمن حصل له الهدى، هي بحسب هداه، فكلما كان نصيبه من الهدى أتم كان حظه من الرحمة أوفر، وهذه هي الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين، وهي غير الرحمة العامة بالبر والفاجر.

وقد جمع الله سبحانه لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم، فقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧].

(١)﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس: ٥٨] فالفرح بفضله ورحمته تبع للفرح به سبحانه، فالمؤمن يفرح بربه أعظم من فرح كل أحد بما يفرح به: من حبيب أو حياة، أو مال، أو نعمة، أو ملك، يفرح المؤمن بربه أعظم من هذا كله، ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتى يجد طعم هذه الفرحة والبهجة، فيظهر سرورها في قلبه ونضرتها في وجهه، فيصير له حال من حال أهل الجنة، حيث لقَّاهم الله نضرة وسرورًا ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات: ٦١] ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦].

(١) ٢٨١ طريق الهجرتين.

[(١)]إن الله سبحانه أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم، وأخبر أنه خير مما يجمع الناس، فقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

وفسر فضل الله بالإيمان، ورحمته بالقرآن، والإيمان والقرآن هما العلم النافع، والعمل الصالح، والهدىٰ ودين الحق، وهما أفضل علم وأفضل عمل.

[(٢)]قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والحسن وغيرهم: فضل الله الإسلام ورحمته القرآن[(٣)]. فجعلوا «رحمته» أخص من «فضله»، فإن فضله الخاص عام علىٰ أهل الإسلام، ورحمته بتعليم كتابه لبعضهم دون بعض، فجعلهم مسلمين بفضله، وأنزل إليهم كتابه برحمته، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦] وقال أبو سعيد الخدري ﷺ: فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلنا من أهله[(٤)].

قلت: يريد بذلك أن ههنا أمرين.

أحدهما: الفضل في نفسه. والثاني: استعداد المحل لقبوله: كالغيث يقع علىٰ الأرض القابلة للنبات، فيتم المقصود بالفضل وقبول المحل له، والله أعلم.

والفرح: لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب ونيل المشتهىٰ، فيتولد من إدراكه حالة تسمىٰ الفرح والسرور، كما أن الحزن والغم من فقد المحبوب، فإذا فقده تولد من فقده: حالة تسمىٰ الحزن والغم.

وذكر سبحانه الأمر بالفرح بفضله وبرحمته عقيب قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم

---

(١) ٥١ مفتاح جـ١.

(٢) ١٥٦ مدارج جـ٣.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٢٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٥٢٤ رقم ٢٥٩٧)، وانظر: الدر المنثور (٤/ ٣٦٨).

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٥٢٤ رقم ٢٥٩٨).

مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧]، ولا شيء أحق أن يفرح العبد به من فضل الله ورحمته التي تتضمن الموعظة وشفاء الصدور من أدوائها بالهدى والرحمة، فأخبر سبحانه أن ما آتى عباده من الموعظة التي هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب، وشفاء الصدور المتضمن لعافيتها من داء الجهل والظلمة والغي والسفه، وهو أشد ألما لها من أدواء البدن، ولكنها لما ألفت هذه الأدواء لم تحس بألمها، وإنما يقوى إحساسها بها عند المفارقة للدنيا، فهناك يحضرها كل مؤلم محزن. وما آتاها من ربها الهدى الذي يتضمن ثلج الصدور باليقين، وطمأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، وحياة الروح به، والرحمة التي تجلب لها كل خير ولذة، وتدفع عنها كل شر ومؤلم.

فذلك خير من كل ما يجمع الناس من أعراض الدنيا وزينتها، أي هذا هو الذي ينبغي أن يفرح به، ومن فرح به فقد فرح بأجل مفروح به، لا ما يجمع أهل الدنيا منها، فإنه ليس بموضع للفرح، لأنه عرضة للآفات، ووشيك الزوال، ووخيم العاقبة، وهو طيف خيال، زار الصب في المنام، ثم انقضى المنام، وولى الطيف، وأعقب مزاره الهجران.

وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مطلق ومقيد.

فالمطلق جاء في الذم كقوله تعالى: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦] وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ١٠].

والمقيد نوعان: أيضًا مقيد بالدنيا، ينسي صاحبه فضل الله ومنته، فهو مذموم كقوله: [الأنعام: ٤٤]. والثاني: مقيد بفضل الله وبرحمته، وهو نوعان أيضًا: فضل ورحمة بالسبب، وفضل بالمسبب.

فالأول كقوله: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

والثاني كقوله: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

فالفرح بالله، وبرسوله وبالإيمان وبالسنة وبالعلم، وبالقرآن: من أعلى مقامات العارفين، قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤] وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد: ٣٦].

فالفرح بالعلم والإيمان والسنة: دليل على تعظيمه عند صاحبه، ومحبته له وإيثاره له على غيره، فإن فرح العبد بالشيء عند حصوله له على قدر محبته له ورغبته فيه فمن ليس له رغبة في الشيء لا يفرحه حصوله له ولا يحزنه فواته.

فالفرح تابع للمحبة والرغبة.

والفرق بينه وبين الاستبشار: أن الفرح بالمحبوب بعد حصوله.

والاستبشار يكون به قبل حصوله، إذا كان على ثقة من حصوله، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٠].

والفرح صفة كمال، ولهذا يوصف الرب تعالى بأعلى أنواعه وأكملها: كفرحه بتوبة التائب أعظم من فرحة الواجد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقده لها، واليأس من حصولها.

والمقصود أن الفرح أعلى أنواع نعيم القلب ولذته وبهجته، والفرح والسرور نعيمه، والهم والحزن عذابه، والفرح بالشيء فوق الرضا به، فإن الرضا طمأنينة وسكون وانشراح. والفرح لذة وبهجة وسرور، فكل فَرِحٍ راض، وليس كل راض فَرِحًا، ولهذا كان الفرح ضد الحزن، والرضا ضد السخط، والحزن يؤلم صاحبه، والسخط لا يؤلمه، إلا إن كان مع العجز عن الانتقام، والله أعلم[1].

---

(١) سيأتي قريبًا مزيد بحث للبشرى والفرح والسرور على قوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (ج).

[(١)]وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧] فهو شفاء لما في الصدور من مرض الجهل والغيِّ، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدىٰ، والغي مرض شفاؤه الرشد.

وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين.

فقال: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: ١، ٢].

ووصف رسوله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم خلفاءه بضدهما، فقال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»[(٢)].

وجعل كلامه سبحانه موعظة للناس عامة، وهدىٰ ورحمة لمن آمن به خاصة، وشفاء تامًّا لما في الصدور، فمن استشفىٰ به صح وبرئ من مرضه، ومن لم يستشف به فهو كما قيل:

إذا بلَّ من داء به ظن أنه ... نجا وبه الداء الذي هو قاتله[(٣)]

[(٤)]وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول، وإن وقع ذلك ضمنًا وتبعًا في بعضها، لأسباب اقتضته لابد منها، هي من لوازم هذه النشأة.

فأوامره سبحانه، وحقه الذي أوجبه علىٰ عباده، وشرائعه التي شرعها لهم، هي قرة العيون ولذة القلوب، ونعيم الأرواح وسرورها، وبها شفاؤها وسعادتها وفلاحها،

---

(١) ١٥ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ١٧٤ رقم ٣٢٩) وابن حبان (١/ ١٧٨-١٧٩ رقم ٥) وفي الموارد (رقم ١٠٢) وأبو داود (رقم ٤٦٠٧) وابن ماجه (رقم ٤٢) والترمذي (رقم ٢٦٧٦) والطبراني في الأوسط (١/ ٢٨ رقم ٦٦) وفي الكبير (١٨/ ٢٤٥ رقم ٦١٧) وأحمد (٤/ ١٢٦) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح ليس له علة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٦-٣٧) وشرح النووي (١١/ ٢١٧).

(٣) ذكر البيت ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (١٦/ ١٢٧) والفاكهي في أخبار مكة (٢/ ٦٤ رقم ١١٥٦) وابن منظور في لسان العرب (١١/ ٦٥).

(٤) ٣١ إغاثة جـ١.

وكمالها في معاشها ومعادها، بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم في الحقيقة إلا بذلك، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٧-٥٨].

قال أبو سعيد الخدري: فضل الله: القرآن، ورحمته: أن جعلكم من أهله.

وقال هلال بن يساف: بالإسلام الذي هداكم إليه. وبالقرآن الذي علمكم إياه، هو خير مما تجمعون: من الذهب والفضة[١].

وكذلك قال ابن عباس والحسن وقتادة: فضله: الإسلام، ورحمته: القرآن. وقالت طائفة من السلف: «فضله: القرآن، ورحمته: الإسلام».

والتحقيق: أن كلا منهما فيه الوصفان، الفضل والرحمة، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله عليه الصلاة والسلام، فقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢].

والله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والإيمان. ووضع من وضع بعدمهما. فإن قيل: فقد وقع تسمية ذلك تكليفا في القرآن كقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله: ﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [المؤمنون: ٢٣]. قيل: نعم، إنما جاء ذلك في جانب النفي، ولم يسم سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفا قط، بل سماها روحًا ونورًا، وشفاء وهدى ورحمة، وحياة، وعهدًا، ووصية، ونحو ذلك.

[٢]قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾، ثم أعاد سبحانه ذكرهما، فقال: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١١/ ١٢٤-١٢٥).

(٢) ١٣٢ فوائد.

وقد تنوعت عبارات السلف في تفسير الفضل والرحمة، والصحيح: أنهما الهدى والنعمة، ففضله: هداه، ورحمته: نعمته، ولذلك يقرن بين الهدى والنعمة، كقوله في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

ومن ذلك قوله لنبيه يذكره بنعمه عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨] فجمع له بين هدايته له وإنعامه عليه بإيوائه وإغنائه.

ومن ذلك قول نوح: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨].

وقول شعيب: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨].

وقال عن الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

وقال لرسوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣]. وقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

ففضله: هدايته، ورحمته إنعامه وإحسانه إليهم وبره بهم، وقال: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

والهدى: منعه من الضلال، والرحمة: منعه من الشقاء، وهذا هو الذي ذكره في أول السورة، في قوله: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١، ٢]، فجمع بين إنزال القرآن عليه ونفي الشقاء عنه، كما قال في آخرها في حق أتباعه: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

فالهدىٰ والفضل، والنعمة والرحمة، متلازمات لا ينفك بعضها عن بعض.

كما أن الضلال والشقاء متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧] والسعر: جمع سعير، وهو: العذاب الذي هو غاية الشقاء.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال تعالىٰ عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

ومن هذا أنه سبحانه يجمع بين الهدىٰ وانشراح الصدر والحياة الطيبة، وبين الضلال وضيق الصدر والمعيشة الضنك، قال تعالىٰ: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقال: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

والهدىٰ والرحمة وتوابعهما من الفضل والإنعام كله من صفة العطاء، والإضلال والعذاب وتوابعهما من صفة المنع، وهو سبحانه يصرف خلقه بين عطائه ومنعه، وذلك كله صادر عن حكمة بالغة، وملك تام، وحمد تام، فلا إله إلا الله.

***

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

(١)قسم الحكم إلىٰ قسمين: قسم أذن فيه وهو الحق، وقسم افتري عليه وهو ما لم يأذن فيه، فأين أذن لنا أن نقيس البلوط علىٰ التمر في جريان الربا فيه؟ وأن نقيس

(١) ٢٤٤ أعلام جـ١.

القزدير على الذهب والفضة، والخردل على البر؟ فإن كان الله ورسوله وصَّانا بهذا فسمعًا وطاعة لله ورسوله، وإلا فإنا قائلون لمنازعينا: أم كنتم شهداء إذ وصَّاكم الله بهذا؟ فما لم تأتنا به وصية من عند الله على لسان رسوله ﷺ فهو عين الباطل.

وقد أمرنا الله بردِّ ما تنازعنا فيه إليه وإلى رسوله ﷺ فلم يُبح لنا قط أ ن نردَّ ذلك إلى: رأي ولا قياس ولا تقليد إمام، ولا منام ولا كشوف ولا إلهام، ولا حديث قلب ولا استحسان ولا معقول ولا شريعة الديوان ولا سياسة الملوك، ولا عوائد الناس التي ليس على شرائع المسلمين أضر منها: فكل هذه طواغيت من تحاكم إليها أو دعا منازعه إلى التحاكم إليها فقد حاكم إلى الطاغوت.

(١)وقال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا، ولا أدركت أحدًا أقتدي به يقول في شيء: هذا حلال، وهذا حرام، وما كانوا يجترئون على ذلك، وإنما كانوا يقولون: نكره كذا، ونرى هذا حسنًا؛ فينبغي هذا، ولا نرى هذا، ورواه عنه عتيق بن يعقوب، وزاد: ولا يقولون حلال ولا حرام، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩] الحلال: ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله(٢).

***

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

(٣)في سنن أبي داود: من حديث أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل

(١) ٣٩ أعلام جـ١.
(٢) انظر: أضواء البيان (٧/ ٣٤٩-٣٥٠).
(٣) ٤٤١ روضة.

الأعمال: الحب في الله، والبغض في الله»[١].

وفيه أيضًا: عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله» قالوا: يا رسول الله، تخبرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابُّوا بروح الله على غير أرحام، بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إنَّ وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، ولا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس» وقرأ هذه الآية ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٢] [يونس: ٦٢].

وفي لفظ لغيره: «إن لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء بمكانهم من الله» قالوا: يا رسول الله صفهم لنا، جلِّهم لنا، لعلنا نحبهم. قال: «هم قوم تحابوا بروح الله على غير أموال تباذلوها، ولا أرحام تواصلوها، هم نور، ووجوههم نور، وعلى كراسي من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٣].

[٤]والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان:

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٥٩٩) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ١٤ رقم ٤٥٩٣): رواه أبو داود وهو عند أحمد أطول منه، وقال فيه: «إن أحب الأعمال إلى الله ﷺ الحب في الله والبغض في الله». وفي إسنادهما راوٍ لم يسم. وانظر: فتح الباري (١/ ٤٧) وعمدة القاري (١/ ١١٣) وعون المعبود (١٢/ ٢٢٨) وفيض القدير (٢/ ٢٦، ٢٨) والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (رقم ١٧٨٦).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٣٢) وأبو داود (رقم ٣٥٢٧) وأحمد (٥/ ٣٤٢) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٨٦ رقم ٨٩٩٨) وهناد في الزهد (١/ ٢٧٢ رقم ٤٧٥) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٩١ رقم ٣٤٣٥) وابن قدامة في المتحابين في الله (رقم ٤٧) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥) والحديث صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود وفي صحيح الترغيب والترهيب (رقم ٣٠٢٦).

(٣) أخرجه بنحوه الحاكم (٤/ ١٨٨ رقم ٧٣١٨) والبيهقي في الشعب (٦/ ٤٨٦ رقم ٩٠٠١) والطبراني في الكبير (٣/ ٢٩٠ رقم ٣٤٣٣).

(٤) ٣٢٣ الروح.

أن أولياء الرحمن ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ هم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾، وهم المذكورون في أول سورة البقرة إلى قوله: ﴿ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾. وفي وسطها في قوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وفي أول الأنفال إلى قوله: ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ١-٤]، وفي أول سورة المؤمنين إلى قوله: ﴿ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١-١١]، وفي آخر سورة الفرقان [الفرقان: ٦٣-٧٧] وفي قوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية. وفي قوله: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وفي قوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥٢] وفي قوله: ﴿ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴾ [المعارج: ٢٢، ٣٥] وفي قوله: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ﴾ [التوبة: ١١٢] إلى آخر الآية.

فأولياء الرحمن هم المخلصون لربهم المحكمون لرسوله في الحرم والحل، الذين يخالفون غيره لسنته، ولا يخالفون سنته لغيرها، فلا يبتدعون ولا يدعون إلى بدعة، ولا يتحيزون إلى فئة غير الله ورسوله وأصحابه، ولا يتخذون دينهم لهوا ولعبًا، ولا يستحبون سماع الشيطان على سماع القرآن، ولا يؤثرون صحبة الأفتان على مرضاة الرحمن، ولا المعازف والمثاني على السبع المثاني.

ولا يشتبه أولياء الرحمن بأولياء الشيطان إلا على فاقد البصيرة والإيمان، وأنى يكون المعرضون عن كتابه وهدي ورسوله وسنته المخالفون له إلى غيره أولياءه، وقد ضربوا لمخالفته جاشًا، وعدلوا عن هدي نبيه وطريقته ﴿ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

فأولياء الرحمن المتلبسون بما يحبه وليهم، الداعون إليه المحاربون لمن خرج عنه، وأولياء الشيطان المتلبسون بما يحبه وليهم قولًا وعملًا، يدعون إليه ويحاربون من نهاهم عنه، فإذا رأيت الرجل يحب السماع الشيطاني ومؤذن الشيطان، وإخوان الشياطين ويدعو إلى ما يحبه الشيطان من الشرك والبدع والفجور علمت أنه من أوليائه فإن اشتبه عليك فاكشفه في ثلاثة مواطن في صلاته ومحبته للسنة وأهلها، ونفرته عنهم ودعوته إلى الله ورسله وتجريد التوحيد والمتابعة وتحكيم السنة فزنه بذلك لا تزنه بحال ولا كشف ولا خارق، ولو مشى على الماء وطار في الهواء.

وبهذا يعلم الفرق بين الحال الإيماني والحال الشيطاني، فإن الحال الإيماني ثمرة المتابعة للرسول والإخلاص في العمل وتجريد التوحيد ونتيجته منفعة المسلمين في دينهم ودنياهم، وهو إنما يصح بالاستقامة على السنة والوقوف مع الأمر والنهي.

والحال الشيطاني نسبته إما شرك أو فجور، وهو ينشأ من قرب الشياطين والاتصال بهم ومشابهتهم، وهذا الحال يكون لعباد الأصنام والصلبان والنيران والشيطان، فإن صاحبه لما عبد الشيطان خلع عليه حالًا يصطاد به ضعفاء العقول والإيمان، ولا إله إلا الله كم هلك بهؤلاء من الخلق ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

فكل حال خرج صاحبه عن حكم الكتاب وما جاء به الرسول فهو شيطاني كائنًا ما كان، وقد سمعت بأحوال السحرة وعباد النار وعباد الصليب وكثير ممن ينتسب إلى الإسلام ظاهرًا وهو بريء منه في الباطن، له نصيب من هذا الحال بحسب موالاته للشيطان ومعاداته للرحمن.

وقد يكون الرجل صادقًا، ولكن يكون ملبوسا عليه بجهله، فيكون حاله شيطانيا مع زهد وعبادة وإخلاص، لكن لبس عليه الأمر لقلة علمه بأمور الشياطين والملائكة وجهله بحقائق الإيمان.

وقد حكى هؤلاء وهؤلاء من ليس منهم، بل هو متشبه صاحب مخاييل ومخاريق.

ووقع الناس في البلاء بسبب عدم التمييز بين هؤلاء وهؤلاء، فحسبوا كل سوداء تمرة، وكل بيضاء شحمة.

والفرقان أعز ما في هذا العالم، وهو نور يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل، ويزن به حقائق الأمور: خيرها وشرها، وصالحها وفاسدها، فمن عدم الفرقان وقع ولابد في أشراك الشيطان، فالله المستعان وعليه التكلان.

(١)البشرى: يراد بها أمران: أحدهما: بشارة المخبِر. والثاني: سرور المخبَر.

قال الله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٤] فسرت البشرى بهذا وهذا، ففي حديث عبادة بن الصامت وأبي الدرداء رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «هي الرؤيا الصالحة، يراها المسلم، أو ترى له»(٢).

وقال ابن عباس: بشرى الحياة الدنيا، هي عند الموت: تأتيهم ملائكة الرحمة بالبشرى من الله. وفي الآخرة عند خروج نفس المؤمن، إذا خرجت يعرجون بها إلى الله، تزف كما تزف العروس، تبشر برضوان الله(٣).

وقال الحسن: هي الجنة، واختاره الزجاج والفراء.

وفسرت بشرى الدنيا بالثناء الحسن، يجري له على ألسنة الناس، وكل ذلك صحيح فالثناء من البشرى، والرؤيا الصالحة من البشرى، وتبشير الملائكة له عند الموت من

---

(١) ١٥٩ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه مسلم من حديث ابن عباس (رقم ٤٧٩)، أما حديث عبادة بن الصامت أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٨/ ٢٥٩-٢٦٠ رقم ٣١٥) والدارمي (رقم ٢١٣٦) وأحمد (٥/ ٣١٥) أما حديث أبي الدرداء فأخرجه الحاكم (٤/ ٤٣٣ رقم ٨١٨٠) والترمذي (رقم ٢٢٧٣) (ورقم ٣١٠٦) وسعيد بن منصور (رقم ١٠٦٧) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٧٥) والتمهيد (٥/ ٥٦-٥٨).

(٣) انظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٤١٥-٤١٦).

البشرى، والجنة من أعظم البشرى، قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

قيل: وسميت بذلك لأنها تؤثر في بشرة الوجه، ولذلك كانت نوعين: بشرى سارة تؤثر فيه نضارة وبهجة، وبشرى محزنة تؤثر فيه بسورًا وعبوسًا، ولكن إذا أطلقت كانت للسرور، وإذا قيدت كانت بحسب ما تقيد به.

(١)قوله: «هو أصفى من الفرح»، واحتج على ذلك بأن «الأفراح ربما شابها أحزان»، أي: ربما مازجها ضدها بخلاف السرور.

فيقال: والمسرات ربما شابها أنكاد وأحزان، فلا فرق.

قوله: «ولذلك نزل القرآن باسمه في أفراح الدنيا في مواضع».

يريد: أن الله تعالى نسب الفرح إلى أحوال الدنيا في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وفي قوله تعالى: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦] وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ١٠] فإن الدنيا لا تتخلص أفراحها من أحزانها وأتراحها البتة، بل ما من فرحة إلا ومعها ترحة سابقة أو مقارنة أو لاحقة، ولا تتجرد الفرحة بل لا بد من ترحة تقارنها، ولكن قد تقوى الفرحة على الحزن، فينغمر حكمه وألمه مع وجودها وبالعكس.

فيقال: ولقد نزل القرآن أيضًا بالفرح في أمور الآخرة في مواضع، كقوله تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٧٠] وقوله تعالى: ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس: ٥٨] فلا فرق بينهما من هذا الوجه، الذي ذكره.

قوله: وورد اسم السرور في القرآن في موضعين في حال الآخرة.

---

(١) يعني: صاحب المنازل الإمام الهروي رحمه الله تعالى، صاحب المتن الذي شرحه المصنف ابن قيم الجوزية رحمه الله وسماه: مدارج السالكين.

يريد بهما قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩] والموضع الثاني: قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] فيقال: وورد السرور في أحوال الدنيا في موضع على وجه الذم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٠-١٣] فقد رأيت ورود كل واحد من الفرح والسرور في القرآن بالنسبة إلىٰ أحوال الدنيا وأحوال الآخرة، فلا يظهر ما ذكره من الترجيح.

بل قد يقال: الترجيح للفرح، لأن الرب تبارك وتعالىٰ يوصف به، ويطلق عليه اسمه دون السرور، فدل علىٰ أن معناه أكمل من معنىٰ السرور، وأمر الله به في قوله تعالىٰ: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ وأثنىٰ على السعداء به في قوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧١].

***

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

(١)التوكل مركب السائر الذي لا يتأتىٰ له السير إلا به، ومتىٰ نزل عنه انقطع لوقته، وهو من لوازم الإيمان ومقتضياته.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فجعل التوكل شرطاً في الإيمان، فدل علىٰ انتفاءِ الإيمان عند انتفاء التوكل، وفي الآية الأُخرىٰ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. فجعل دليل صحة الإسلام التوكل. وقال تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٢).

فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل علىٰ استدعاءِ الإيمان للتوكل،

---

(١) ٢٥٥ طريق الهجرتين.

(٢) آل عمران: ١٢٢، ١٦٠. والمائدة: ١١. والتوبة: ٥١. وإبراهيم: ١١. والمجادلة: ١٠. والتغابن: ١٣.

وإن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه.

وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً، فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد.

والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية.

فأما التوكل والعبادة، فقد جمع سبحانه بينهما في سبعة مواضع من كتابه:

أحدها: في سورة أُم القرآن، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

والثاني: قوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤].

الرابع: قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:٨-٩].

الخامس: قوله: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

السادس: قوله: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

السابع: قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهذه السبعة مواضع جمعت الأصلين: التوكل وهو الوسيلة، والإنابة وهى الغاية، فإن العبد لا بد له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية، فأَشرف غاياته التى لا غاية له أجل منها عبادة ربه، والإنابة إليه.

وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له

إلىٰ هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة، فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل.

وأما الجمع بين الإيمان والتوكل، ففي مثل قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: ٢٩]، ونظيره قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وأما الجمع بين التوكل والإسلام، ففي قوله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

وأما الجمع بين التقوىٰ والتوكل، ففي مثل قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١ - ٣]، وقوله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

وأما الجمع بين التوكل والهداية ففي مثل قول الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم:١٢]، وقال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]، فأمر سبحانه بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل، مصحح له، مستدع لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ فإن كون العبد علىٰ الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل علىٰ الله، والاكتفاء به، والإيواءَ إلىٰ ركنه الشديد، فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به، فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو علىٰ الحق؟ كما قالت الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ فعجبوا من تركهم التوكل علىٰ الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً.

وهذا دليل علىٰ أن الهداية والتوكل متلازمان: فصادف الحق- لعلمه بالحق ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره- مضطر إلىٰ توكله علىٰ الله لا يجد بداً من توكله.

فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله.

أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أَمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جُماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ولكن لا بد فيه من العلم، وهو إما شرط فيه، وإما جزءٌ من ماهيته[(١)].

والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل على ربه؟

وإذا كان على الباطل علماً وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئناً واثقاً بربه، فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده، فإن الله لا يتولى الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه، فهو منقطع النسب إليه بالكلية، فإنه سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق. ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أقواله كذلك.

فلما كان الباطل لا يتعلق به، بل هو مقطوع البتة كان صاحبه كذلك. ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعاً عن ربه لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله.

فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآخر، لو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية لكانت حقيقة أن تودع في خزانة القلب، لشدة الحاجة إليها. والله المستعان وعليه التكلان.

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال

---

(١) انظر: فتح الباري (٦/ ٨٢) وعمدة القاري (١٤/ ١٧١) وتحفة الأحوذي (١٠/ ١٧٦).

الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل. والله أعلم.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

(1) قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ

---

(١) ١٠ بدائع جـ٤.

بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧] هو من أحسن النظم وأبدعه، فإنه ثنى أولًا إذ كان موسى وهارون هما الرسولان المطاعان، ويجب على بني إسرائيل طاعة كل واحد منهما، سواء وإذا تبوَّءا البيوت لقومهما، فهم تبع لهما.

ثم جمع الضمير فقال: وأقيموا الصلاة، لأن إقامتها فرض على الجميع.

ثم وحده في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن موسى هو الأصل في الرسالة، وأخوه رِدأً ووزيرًا، فكما كان الأصل في الرسالة فهو الأصل في البشارة.

وأيضًا فإن موسى وأخاه لما أرسلا برسالة واحدة كانا رسولًا واحدًا كقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] فهذا الرسول هو الذي قيل له: وبشر المؤمنين اهـ.

[(١)] وأما الشد على القلب ففي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩]، فهذا الشد على القلب هو الصد والمنع.

ولهذا قال ابن عباس: يريدا منعها، والمعنى: قسِّها واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان، وهذا مطابق لما في التوراة: أن الله سبحانه قال لموسى: اذهب إلى فرعون، فإني سأقسي قلبه فلا يؤمن حتى تظهر آياتي وعجائبي بمصر[(٢)].

وهذا الشد والتقسية من كمال عدل الرب سبحانه في أعدائه، جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم، كعقوبته لهم بالمصائب، ولهذا كان محمودًا عليه فهو حسن منه، وأقبح شيء منهم فإنه عدل منه وحكمة، وهو ظلم منهم وسفه، فالقضاء والقدر فعل عادل حكيم غني عليم، يضع الخير والشر في أليق المواضع بهما، والمقضي المقدر يكون ظلمًا وجورًا وسفهًا وهو فعل جاهل ظالم سفيه.

---

(١) ٩٦ شفاء العليل.

(٢) انظر: البداية والنهاية (١/ ٢٥٣).

[(١)]الأصل في الدماء حقنها وفي الأبضاع والذبائح تحريمها.

فأبقوا كل شيء على أصله: وهذا غاية الفقه، وأسد ما يكون من النظر.

قالوا: ولله تعالى حِكَم في إبقاء أهل الكتابين بين أظهرنا، فإنهم مع كفرهم شاهدون بأصل النبوات والتوحيد واليوم الآخر والجنة والنار؛ وفي كتبهم من البشارات بالنبي ﷺ وذكر نعوته وصفاته وصفات أمته ما هو من آيات نبوته وبراهين رسالته، وما يشهد بصدق الأول والآخر.

وهذه الحكمة تختص بأهل الكتاب دون عبدة الأوثان، فبقاؤهم من أقوى الحجج على منكر النبوات والمعاد والتوحيد.

وقد قال تعالى لمنكري ذلك: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] ذكر هذا عقب قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

يعني: سلوا أهل الكتاب: هل أرسلنا قبل محمد رجالًا يُوحى إليهم أم كان محمد بدعًا من الرسل، لم يتقدمه رسول حتى يكون إرساله أمرًا منكرًا لم يطرق العالم رسول قبله؟ وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

والمراد بسؤالهم سؤال أممهم عما جاؤوهم به، هل فيه أن الله شرع لهم أن يعبد من دونه إله غيره؟

قال: الفراء: المراد سؤال أهل التوراة والإنجيل، فيخبرونه عن كتبهم وأنبيائهم.

وقال: ابن قتيبة: التقدير واسأل من أرسلنا إليهم رسلًا من قبلك، وهم أهل الكتاب. وقال: ابن الأنباري: التقدير وسل من أرسلنا من قبلك.

وعلى كل تقدير فالمراد التقرير لمشركي قريش وغيرهم ممن أنكر النبوات

---

(١) ١١ أحكام جـ١.

والتوحيد، وأن الله أرسل رسولًا، أو أنزل كتابًا، أو حرم عبادة الأوثان، فشهادة أهل الكتاب بهذا حجة عليهم، وهي من أعلام صحة رسالته ﷺ، إذ كان قد جاء على ما جاء به إخوانه الذين تقدموه من رسل الله سبحانه، ولم يكن بدعًا من الرسل ولا جاء بضد ما جاؤوا به، بل أخبر بمثل ما أخبروا به من غير شاهد ولا اقتران في الزمان، وهذه من أعظم آيات صدقة.

وقال تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس: ٩٤].

وقد أشكلت هذه الآية على كثير من الناس، وأورد اليهود والنصارى على المسلمين فيها إيرادًا، وقال: وكان في شك فأمر أن يسألنا، وليس فيها بحمد الله إشكال، وإنما أتي أشباه الأنعام من سوء قصدهم وقلة فهمهم، وإلا فالآية من أعلام نبوته ﷺ.

وليس في الآية ما يدل على وقوع الشك ولا السؤال أصلًا، فإن الشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه.

كما قال: تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء: ٢٢] وقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٢] وقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥] ونظائره. فرسول الله ﷺ لم يشك ولم يسأل.

وفي تفسير سعيد عن قتادة قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشك ولا أسأل»[(١)]. وقد ذكر ابن جريج عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: فإن كنت في شك أنك مكتوب عندهم فاسألهم. وهذا اختيار ابن جرير، قال: يقول تعالى لنبيه: فإن كنت

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٩٨) وفي المصنف (٦/ ١٢٥ رقم ١٠٢١١) والطبري في تفسيره (١١/ ١٦٨) وقال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٤٠ رقم ٦٠٦): هو معضل. وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ١٦٨، ٤٣٣) وعون المعبود (١٤/ ١١).

يا محمد في شك من حقيقة ما أخبرناك وأنزلنا إليك من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في نبوتك قبل أن أبعثك رسولا إلى خلقي، لأنهم يجدونك مكتوبا عندهم، ويعرفونك بالصفة التي أنت بها موصوف في كتبهم، فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك: كعبد الله بن سلام ونحوه من أهل الصدق والإيمان بك منهم، دون أهل الكذب والكفر بك، وكذلك قال: ابن زيد قال: هو عبد الله بن سلام، وقال: الضحاك: سل أهل التقوى والإيمان من مؤمني أهل الكتاب[1].

ولم يقع هؤلاء ولا هؤلاء على معنى الآية ومقصودها وأين كان عبد الله بن سلام وقت نزول هذه الآية؟ فإن السورة مكية وابن سلام إذ ذاك على دين قومه، وكيف يؤمر رسول الله ﷺ أن يستشهد على منكري نبوته بأتباعه؟

وقال كثير من المفسرين: هذا الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره، لأن القرآن نزل عليه بلغة العرب، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره، كما يقول متمثلهم: إياك أعني واسمعي يا جارة[2]، وكقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ [الأحزاب: ١] والمراد أتباعه بهذا الخطاب.

قال أبو إسحاق: إن الله تعالى يخاطب النبي ﷺ والخطاب شامل للخلق، والمعنى: وإن كنتم في شك، والدليل على ذلك قوله تعالى في آخر السورة: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٠٤].

وقال ابن قتيبة: كان الناس في عصر النبي ﷺ أصنافًا، منهم كافر به مكذب، وآخر مؤمن به مصدق، وآخر شاك في الأمر، لا يدري كيف هو، فهو مقدم رجلًا ويؤخر

(١) أخرجه الطبري في التفسير (١١/ ١٦٦-١٦٧).

(٢) ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٠٤) والمزي في تهذيب الكمال (٣/ ٣٧٤) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٩/ ٣٧٣) وابن قدامة في المغني (٧/ ٣٥٣)، والميداني في مجمع الأمثال (١/ ١٢٩) وأبو العلاء المعري في رسالة الغفران (ص ٤١٣) وأبو هلال العسكري في جمهرة الأمثال (١/ ٤١).

رجلًا، فخاطب الله تعالىٰ هذا الصنف من الناس، وقال: فإن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدىٰ علىٰ لسان محمد فسل. قال: ووحد وهو يريد الجمع، كما قال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار: ٦] و﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق: ٦]، ﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ [الزمر: ٨].

وهذا - وإن كان له وجه - فسياق الكلام يأباه فتأمله وتأمل قوله تعالىٰ: ﴿ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [يونس: ٩٤]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ٩٦]، وقوله: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

وهذا كله خطاب واحد متصل بعضه ببعض. ولما عرف أرباب هذا القول أن الخطاب لا يتوجه إلا علىٰ النبي ﷺ قالوا: الخطاب له، والمراد به هذا الصنف الشاك، وكل هذا فرار من توهم ما ليس بموهوم، وهو وقوع الشك منه والسؤال؛ وقد بينا أنه لا يلزم إمكان ذلك فضلا عن وقوعه.

فإن قيل: فإذا لم يكن واقعًا ولا ممكنًا، فما مقصود الخطاب والمراد به؟

قيل: المقصود به إقامة الحجة علىٰ منكري النبوات والتوحيد، وأنهم مقرون بذلك لا يجحدونه ولا ينكرونه، وأن الله سبحانه أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه بذلك، وأرسل ملائكته إلىٰ أنبيائه بوحيه وكلامه، فمن شك في ذلك فليسأل أهل الكتاب، فأخرج هذا المعنىٰ في أوجز عبارة وأدلها علىٰ المقصود، بأن جعل الخطاب لرسوله الذي لم يشك قط ولم يسأل قط، ولا عرض له ما يقتضي ذلك. وأنت إذا تأملت هذا الخطاب بدا لك علىٰ صفحاته: من شك فليسأل، فرسولي لم يشك ولم يسأل.

***

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

[١]إذنه هاهنا قضاؤه وقدره، لا مجرد أمره شرعه، كذلك قال السلف في تفسير هذه الآية، قال ابن المبارك عن الثوري: بقضاء الله[٢].

وقال محمد بن جرير: يقول جل ذكره لنبيه: وما لنفس خلقها من سبيل إلى أن تصدقك، إلا أن يأذن لها في ذلك، فلا تجهدن نفسك في طلب هداها، وبلغها وعيد الله ثم خلها، فإن هداها بيد خالقها[٣]، وما قبل الآية وما بعدها لا يدل إلا على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠] أي: لا تكفي دعوتك في حصول الإيمان حتى يأذن الله لمن دعوته أن يؤمن. ثم قال: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

قال ابن جرير: يقول تعالى: يا محمد قل لهؤلاء السائلينك الآيات على صحة ما تدعو إليه: من توحيد الله وخلع الأنداد والأوثان: انظروا أيها القوم ماذا في السماوات من الآيات الدالة على حقيقة ما أدعوكم إليه من توحيد الله: من شمسها وقمرها، واختلاف ليلها ونهارها، ونزول الغيث بأرزاق العباد من سحابها، وفي الأرض من جبالها، وتصدعها بنباتها وأقوات أهلها، وسائر صنوف عجائبها؟! فإن في ذلك لكم إن عقلتم وتدبرتم عظة ومعتبرًا ودلالة، على أن ذلك من فعل من لا يجوز أن يكون له

(١) ٦٠ شفاء العليل.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ١٧٤).
(٣) انظر: تفسير الطبري (١١/ ١٧٤).

في ملكه شريك، ولا له على حفظه وتدبيره ظهير، يغنيكم عما سواها من الآيات، وما يغني عن قوم قد سبق لهم من الله الشقاء، وقضى عليهم في أم الكتاب أنهم من أهل النار فهم لا يؤمنون بشيء من ذلك، ولا يصدقون به ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم(١).

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة يونس
والحمد لله رب العالمين(٢)

❁❁❁

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/ ١٧٥) (٢٢/ ١٥٠).

(٢) اللهم لك الحمد على إتمام تحقيق الجزء الثالث من هذا الكتاب المبارك (الضوء المنير) فأسألك اللهم أن تجعل عملي هذا خالصًا ابتغاء مرضاتك ونيل رضاك، وأن تثقل به ميزاني وتبيض به وجهي، وتدخلني في عبادك الصالحين، وتحشرني مع أوليائك وأحبائك، وأن لا تحرم مؤلفه وجامعه الأجر الجميل والذكر الحسن، وأن ينتفع به القاصي والداني ويكتب له القبول بين العباد، فقد انتهيت من تحقيق هذا المجلد في ليلة الجمعة المباركة الثامن من شهر ربيع الأول لعام ١٤٣٠هـ الموافق الخامس من شهر مارس ٢٠٠٩م بمدينة الرياض.

الفهرس

الصفحة الموضوع

سُورَةُ الأَنْعَامِ

٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية.
٥ بحث في قوله: ﴿ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾.
٦ بحث حول قوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَـٰتِ وَٱلنُّورَ﴾.
٧ بحث حول جمع الظلمات وإفراد النور.
٩ بحث حول قوله الله: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾.
٩ معاني إطلاق الجعل على الله وعلى خلقه.
١١ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ الآية.
١٢ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا ﴾.
١٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا ﴾.
١٥ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ﴾ الآية.
١٥ تفنيد آراء من يرى الذي بسم الله مفردًا أو مضمرًا.
١٧ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ ﴾ الآية
١٧ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ الآيات.
١٧ استدراك على بعض آراء المفسرين.
٢٠ سياق اعترافات اليهود ومشركي العرب وهرقل الروم بصدق الرسول ﷺ.
٢١ معاني إطلاق الفتنة وأقسامها.
٢٤ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ الآية.
٢٨ الخلاف في ما المراد بقوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾.

الصفحة الموضوع
٣٠ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ الآية.
٣٢ عقوبة ترك لما ذكر الله في كتابه حسية ومعنوية.
٣٥ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ الآية.
٣٦ بحث حول معاني الحكمة وأقوال الناس فيها.
٣٨ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾.
٣٩ علق ﷻ المزيد بالشكر ووصف الشاكرين بأنهم قليل.
٤١ ذكر أن الشكر هو الغاية من خلق الله وأمره.
٤٧ ذكر أن كل ما شغل العبد عن الله فهو شؤم، وكل ما رده إليه فهو رحمة.
٤٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.
٤٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ ونقض المعطلة لقولهم إنه مجاز.
٥١ بحث حول مشركي الصابئة ومشركي سائر الأمم، إلخ.
٥٢ محاجة إبراهيم عليه السلام لقومه، وحكم الله بين الفريقين.
٥٤ الفرق بين الحجج والبينات.
٥٥ تفاوت الناس في أفهامهم من القرآن وبيان ذلك.
٥٨ ذكر أن المحاجة فيما ظهر نوع من العبث وأدب الأنبياء مع الله في تعليق تصرفاتهم على مشيئة الله.
٦٠ المناظرة في العلم نوعان: أحدهما للتمرن على إقامة الحجج ودفع الباطل إلخ.
٦١ أقسام الجهاد: الجهاد الواجب والمباح.
٦٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾.
٦٦ الإشارة والبشارة أنه لا ضيعة لمن قام بالشريعة والعكس بالعكس.
٧٠ دعوة محمد هي دعوة جميع المرسلين قبله والأدلة على صدق نبوته.
٧١ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ﴾ وتهور اليهود في ذلك.
٧٥ ذكر مناظرة بين الشيخ ابن القيم أحد علماء أهل الكتاب وانهزامه.

الصفحة الموضوع

٧٧ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ وإعادة الروح إلى البدن.
٧٩ جواب شيخ الإسلام ابن تيمية بتفصيل حول إعادة الروح للبدن وذكر مذاهب الناس.
٨١ الجواب عن كون عذاب القبر لم يذكر في القرآن إجمالًا أو تفصيلًا.
٨٣ بحث عن النفس والروح هل هما شيء واحد أم متغايران؟ والتفصيل في ذلك.
٨٦ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾.
٨٧ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ والرد على المعارضين.
٩١ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ مفصلًا.
٩٤ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾.
٩٥ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ ﴾ الآية بتفصيل.
٩٧ ذم الله أهل الجهل في مواضع كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ الآية.
٩٩ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾.
١٠١ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ الآية.
١٠٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.
١٠٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ الآية.
١٠٦ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ ﴾ الآية.
١٠٨ حياة القلب مادة كل خير فيه، وموته وظلمته مادة كل شر فيه بتفصيل.
١١٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ ﴾ الآية بتفصيل.
١١٤ الأسباب التي تشرع الصدر والتي تضيقه.

الصفحة الموضوع
١١٦ أعظم أسباب شرح الصدر التوحيد والنور الذي يقذفه الله في قلب العبد.
١٢٠ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الآية.
١٢٤ تلاعب الشيطان بعباد الحيوانات وبحث قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ الآية.
١٣٠ ذكر قدوم وفد خولان.
١٣١ ذكر تحريم بيع الخنزيل وتحريم بيع الأصنام بتفصيل.
١٣٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ الآية بتفصيل.
١٣٧ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا ﴾ الآية بتفصيل.
١٤٣ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ الآية بتفصيل.
١٤٤ لا يأتي المعطل للتوحيد بتأويل إلا أمكن رده بتفصيل.
١٤٦ بحث في إتيان الرب ﷻ يوم القيامة بتفصيل.
١٥٠ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾.

سُورَةُ الأَعْرَافِ

١٥٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ الآيات.
١٥٤ بحث حول الأقوام الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا.
١٥٤ بحث حول إحباط الحسنات بالسيئات.
١٥٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾.
١٥٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ... ﴾ الآيات بتفصيل.
١٦٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ الآيات.

الصفحة الموضوع

١٦٥ هل طمع آدم وحواء أن يكونا ملكين أو من الخالدين؟.
١٦٨ معنى التدلية وكيف دلاهما الشيطان بغرور؟.
١٦٩ فصل في أن الشيطان كاد نفسه وذريته قبل أن يكيد الأبوين وذريتهما.
١٧٠ كيف كاد الشيطان آدم وحواء.
١٧٠ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ﴾ الآية.
١٧٢ فصل في أن أصل الفواحش المحبة لغير الله تعالى.
١٧٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴾.
١٧٤ القلوب مفطروة على حب إلهها وفاطرها وتأليهه.
١٧٤ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ﴾.
١٧٥ بحث في أن القبائح والفواحش هي قبائح وفواحش قبل النهي عنها وبعد النهي عنها.
١٧٧ الرد على من يزعم غير ذلك وبيان أن القرآن صريح في إبطال هذا المذهب.
١٧٨ بيان أن أوامر الرب كلها حسنة في العقول مقبولة في الفطر.
١٧٩ فصل في معنى الأدب وبيان أنه هو الدين كله، ومعنى أخذ الزينة عند كل مسجد.
١٨٠ صور من الأدب مع الله ﷻ.
١٨١ فصل في هديه ﷺ في حفظ الصحة وقوله: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾.
١٨٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ ﴾ الآية.
١٧٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ الآية.
١٨٦ رتب الله المحرمات أربع مراتب، مع بيان أنواعها.
١٨٨ القول على الله بلا علم أشد المحرمات وأعظمها إثمًا.
١٨٩ ماذا يفعل الحاكم والمفتي إذا نزلت به نازلة؟.
١٩١ فائدة في أن حكم الله ورسوله يظهر على أربعة ألسنة.

الصفحة الموضوع
١٩٢ بحث حول سبق الكتاب بالشقاوة والسعادة.
١٩٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ ...﴾ الآيات.
١٩٥ بحث حول طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم.
١٩٦ تعريف جامع مانع لمعنى الإسلام.
١٩٦ بحث حول عذاب المقلدين لأسلافهم من الكفار وقولهم: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾.
١٩٧ بحث حول المقلد المعرض عن الحق والمقلد الذي لم يتمكن من الوصول للحق.
١٩٨ أحكام الدنيا تجري على ظاهر الأمر والأصول الأربعة التي يزول بها الإشكال.
٢٠٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ ﴾ الآية.
٢٠٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ ﴾ الآية.
٢٠١ أحسن صور الاعتراض الذي يكون تأكيدًا أو تنبيهًا أو احترازًا، مع إيراد بعض صوره.
٢٠٣ الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة وقول أهلها: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا ﴾ الآية.
٢٠٧ بحث حول أهل الأعراف، ومن هم؟ وما هو مصيرهم؟ بتفصيل.
٢١٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾.
٢١١ بحث حول العرش واستواء الرب ﷻ عليه والرد على النفاة بتفصيل.
٢١٤ إثبات الفوقية للرب سبحانه والرد على الجهمية.
٢١٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾.

الصفحة الموضوع

٢١٧ نفي سبحانه عن المعبودين من دونه والنفع والضر القاصر والمعتدي.
٢١٨ بحث حولي نوعي الدعاء: دعاء العبادة ودعاء المسألة بتفصيل.
٢٢٢ بحث في بيان الفوائد من إخفاء الدعاء.
٢٢٧ بحث في أن كل من الدعاء والذكر يتضمن الآخر.
٢٢٩ بحث في أن المحبة إذا لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها.
٢٣٣ بحث حول أسرار القرآن وحكمته في اقتران الخيفة بالذكر والخفية بالدعاء.
٢٣٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ وبيان أن الاعتداء في الدعاء وغيره.
٢٣٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ﴾ وبيان أن الفساد فيها بالمعاصي.
٢٣٥ اشتمال قوله تعالى: ﴿ وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ على جميع مقامات الإيمان والإحسان.
٢٣٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ الآيات.
٢٣٧ بحث حول تحذير الله ﷻ من الهوى المذموم وبيان شأن أصحابه تفصيلًا.
٢٤١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ﴾.
٢٤٣ بحث في أن المعاصي سبب لمحق بركات الدنيا والآخرة.
٢٤٤ بحث في أن الجهال بالله وبأسمائه وصفاته يُبغِّضون الله إلى خلقه ويقطعون الطريق الموصل إليه.
٢٤٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾ الآية.
٢٤٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ﴾ الآية ومعنى الطبع على قلوب الكافرين.
٢٥١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ ﴾.

الصفحة المـــوضـــوع
٢٥٥ بحث حول تلاعب الشيطان باليهود في عبادتهم وطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلهًا.
٢٥٦ بحث في رؤية الرب تبارك وتعالى يوم القيامة بالأبصار كما يُرى القمر ليلة البدر.
٢٥٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ ﴾ وبيان إمكانية رؤية الرب تعالى يوم القيامة وعدمها في الدنيا.
٢٥٩ أقوال أهل السنة فيمن يرون الله تبارك وتعالى يوم القيامة.
٢٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾.
٢٦١ ومن تلاعب الشيطان أيضًا بهم قولهم لموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة.
٢٦٢ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ﴾ الآية.
٢٦٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ ﴾ ومعنى الافتتان.
٢٦٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ... ﴾.
٢٦٦ بحث حول كلام الله تعالى وكيفية إدراكه.
٢٦٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ ﴾.
٢٦٨ بحث حول مقام موسى في مظهر الجلال وعيسى في مظهر الجمال ومحمد في مظهر الكمال.
٢٧٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾.
٢٧١ العبودية الواجبة على كل أحد حسب مرتبته والكلام حولها.
٢٧٢ كل من آثر الدنيا وهو من أهل العلم لابد أن يقول على الله غير الحق.
٢٧٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ الآية.
٢٧٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾.
٢٨٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ الآية.

الصفحة الموضوع
٢٨٣ بحث في ما يجري صفة أو خبرًا على الرب تبارك وتعالى أقسام وبيانها.
٢٨٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾.
٢٩٤ بحث في معنى الإلحاد.
٢٩٦ بحث في أن أسماء الرب: أسماء ونعوت.
٢٩٧ بحث فيأن ما وُصِفَ به الرب سبحانه في القرآن إلا ودل عليه العقل الصريح.
٢٩٨ بحث في أن اسم الله الأعظم في آية الكرسي وفاتحة آل عمران.
٣٠١ الحكمة من منع الرب عن الناس علم الساعة ومعرفة آجالهم.
٣٠٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ الآية.
٣٠٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾.
٣٠٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾.
٣٠٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.
٣١١ بحث في أن القرآن بصائر لجميع الناس.
٣١٣ بحث في الذكر وحول قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾.
٣١٥ بحث في أن الغفلة والكسل هما أصل الحرمان.
٣١٥ أقسام الناس وحظوظهم من العلم والعزيمة.

سُورَةُ الأَنْفَالِ

٣١٩ بحث في غزوة بدر الكبرى والدروس المستفادة منها.
٣٢٢ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾.
٣٢٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾.
٣٢٦ تمثل الشيطان في صورة سراقة بن مالك ونكوصه على عقبيه.
٣٢٧ ليس النصر بكثرة العدد بل بالتوكل على الله.

الصفحة الموضوع

٣٢٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾.
٣٢٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ﴾.
٣٢٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾ الآية.
٣٣٤ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.
٣٣٥ الفرق بين السماع الذي يقوم به الحجة والسماع الذي ينتفع به وهو فقه المعنى وعقله.
٣٣٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ الآية.
٣٣٩ بحث عن معنى الحياة الحقيقية الطيبة التي تحصل للمؤمنين بسبب طاعتهم لله ورسوله.
٣٤٢ بحث عن معنى أن الله يحول بين المرء وقلبه.
٣٤٤ بحث حول قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ الآية.
٣٤٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ الآية.
٣٤٥ بحث حول مفهوم الاستغفار وعلاقته بالتوبة.
٣٤٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ﴾ الآية.
٣٤٨ بحث حول تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾.
٣٤٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾.
٣٤٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾.
٣٥١ كيد الشيطان للإنسان وقول الله عنه: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ الآية.
٣٥٣ بحث في الآفات الخفية العامة: كون الإنسان في نعمة فيملها ويتطلع بجهله إلى غيرها.

الصفحة الموضوع

٣٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾.
٣٥٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾.
٣٥٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ﴾.
٣٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.
٣٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.
٣٦٠ الفرق بين الحسب والتأييد.
٣٦١ الحكم في التشديد في أول التكليف ثم النيسير في آخره.
٣٦٣ فصل في هديه ﷺ في الأسارى.
٣٦٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ... ﴾.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

٣٦٦ بحث في نزول سورة براءة في نقض ما بين رسول الله وبين المشركين العهد الذي كانوا عليه.
٣٦٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ الآية.
٣٦٨ بحث في خير الأيام وتفضيل بعض الأيام والليالي على بعض وكذلك الأمكنة بتفصيل.
٣٧٦ فصل في أن الله طيب لا يقبل إلا الطيب من الأقوال والأفعال.
٣٧٧ حال الكفار مع النبي ﷺ بعد الأمر بالجهاد على ثلاثة أقسام.
٣٧٨ فصل في اشتمال خطبته العظيمة ثاني يوم الفتح على أنواع من العلم.
٣٨٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ الآية.

الصفحة الموضوع

٣٨١ بحث في فضل الصلاة ومنزلتها من الدين وقتل تاركها وأقوال أهل العلم في ذلك.
٣٨٦ بحث في دفع الهم والغم بالجهاد وبلا حول ولا قوة إلا بالله.
٣٨٧ فصل في نقض أهل الذمة عهدهم، وبأي شيء ينقض؟ وقول أهل العلم في ذلك.
٣٨٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦ ﴾.
٣٨٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾.
٣٩١ نكث الأيمان بعد العهد والطعن في الدين يستلزمان مقاتلة أئمة الكفر وأقوال أهل العلم في ذلك.
٣٩٢ الدلالة على أن من نكث الأيمان بعد العهد والطعن في الدين أنه من أئمة الكفر.
٣٩٤ دليل آخر على قتال من نكث الأيمان في قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ ﴾.
٣٩٤ دليل آخر في قوله: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾ الآية.
٣٩٤ كيفية شفاء الصدور من الألم الحاصل من نكث العهد والطعن.
٣٩٥ دليل آخر في قوله: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ﴾.
٣٩٦ قولهم: ولا نرغب في ديننا ولا ندعو إليه أحدًا، من الأشياء التي ينتقض بها العهد.
٣٩٦ بحث في أمراض القلوب وبيان أنه نوعان.
٣٩٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾.
٣٩٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ الآيات.
٣٩٩ اختلاف نفر من الصحابة في أفضل الأعمال.
٤٠٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ ﴾ الآية.

الصفحة الموضوع
٤٠٢ فصل في غزوة حنين وتسمى أيضًا غزوة أوطاس بتفصيل.
٤١١ فصل في قدوم وفد هوازن على رسول الله ﷺ.
٤١٢ فصل في الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من مسائل فقهية ونكث حكمية.
٤١٤ فصل في أن الشرك والزنا واللواط من أخبث الأفعال وأشنع الخصال.
٤١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ الآية.
٤١٧ بحث في دخول المشركين الحرم وأقوال أهل العلم.
٤١٧ بحث في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية.
٤١٨ بحث في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ الآية.
٤٢١ الحكمة في إبقاء أهل الكتاب الجزية.
٤٢٤ بيان كذب الكتاب المنسوب إلى رسول الله ﷺ لليهود بأنه أسقط عنهم الجزية.
٤٢٤ فصل في تلاعب الشيطان باليهود لما حرم عليهم الشحوم أذابوها وباعوها وأكلوا ثمنها.
٤٢٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية وذم التقليد.
٤٢٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾.
٤٢٩ بحث في هجرة رسول الله ﷺ.
٤٣٠ بحث في فضائل ومناقب الصديق الأكبر ﷺ والرد على من الروافض.
٤٣٢ بحث في نفي الحزن عن من أحب الله وكان الله معه.
٤٣٣ بحث في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الآية.

الصفحة الموضوع

٤٣٣ الحكمة في عدم خروج المنافقين مع المؤمنين للقتال.
٤٣٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ الآية.
٤٣٤ بحث حول قول من قال: انبعاثهم إلى طاعته طاعة له فكيف يكرهها سبحانه منهم والرد على ذلك بتفصيل.
٤٣٧ بحث عن أهل الانقطاع وأنهم هم المتخلفون وهم الذين كره الله انبعاثهم فثبطهم.
٤٣٧ الرد على من قال: كيف يرضى لعبده شيئًا ولا يعينه عليه؟.
٤٣٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾.
٤٣٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.
٤٤٠ بحث في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ الآية.
٤٤٢ بحث في معنى الرغبة في الله وإرادة وجهه والشوق إلى لقائه.
٤٤٢ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية.
٤٤٤ بحث في استهزاء المنافقين بالمؤمنين ونزول قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية.
٤٤٥ بحث في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾.
٤٤٦ بحث في معنى الخوض والاستمتاع بالخلاق بتفصيل.
٤٥٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ﴾.
٤٥٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

الصفحة الموضوع
٤٥١ بحث في رضوان الله ﷻ على المؤمنين.
٤٥٢ فصل في هديه ﷺ في الجهاد والغزوات.
٤٥٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ الآية.
٤٥٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾.
٤٥٥ ذم الله سبحانه من خالف ما التزمه له بالوعد وعاقبه بالنفاق في قلبه.
٤٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ الآية.
٤٥٦ بحث في قوله: ﴿ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا ﴾.
٤٥٧ بحث في بيان أن أنفع العلوم: علم الحدود وخاصة حدود المشروع المأمور والمنهي.
٤٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ الآية.
٤٥٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ الآية.
٤٥٩ بحث في تبعية الصحابة والأدلة على وجوب اتباعهم والرد على شبه النفاة بتفصيل.
٤٦٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ ﴾.
٤٦٤ بحث في الزكاة وقول الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ... ﴾ الآية.
٤٦٤ فصل في غزوة تبوك والدروس المستفادة منها بتفصيل.
٤٧٠ فصل في رجوع النبي ﷺ من تبوك وكيد المنافقين به وعصمة الله له بتفصيل.
٤٧٤ دخول الرسول المدينة بعد قدومه من تبوك وما كان من شأن المخلفين واعتذارهم وما كان من قصة كعب بن مالك.
٤٧٨ فصل فيما تضمنته غزوة تبوك من الفقه والفوائد بشيء من التفصيل.
٤٨٣ فصل في أمر مسجد الضرار وما كان من شأن رسول الله ﷺ معه.

الصفحة الموضـــوع
٤٨٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾.
٤٨٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾.
٤٩٠ الحكمة من تقديم الأنفس على الأموال في هذه السورة وتقديم الأموال على الأنفس في غير هذا الموضع.
٤٩٢ بحث في الكلام على [واو] الثمانية وقوله تعالى: ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ﴾.
٤٩٤ بحث في دخول واو العطف بين الصفات المتقابلة في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾.
٤٩٦ بحث في التوبة وأنها محفوفة بتوبة من الله قبلها وتوبة منه بعدها.
٤٩٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾.
٤٩٩ بحث في عظمة الصدق وأن السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة متعلقة به.
٥٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾.
٥٠١ فصل في منزلة الصدق وأنها منزلة القوم الأعظم والطريق الأقوم.
٥٠٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ... ﴾.

سُورَةُ يُونُسَ

٥٠٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ الآية.
٥٠٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ الآيات.
٥٠٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ ﴾.

الصفحة الموضوع

٥٠٩ بحث في الحكمة من إنارة القمر والكواكب في الليل.
٥١١ بحث في الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم سبحانه.
٥١٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾.
٥١٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ﴾.
٥١٦ بحث في أن الله وضع الألفاظ بين عباده تعريفًا ودلالة على ما في نفوسهم.
٥١٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾.
٥١٩ بحث في رفع الله المؤاخذة عن المتكلم بكلمة الكفر مكرها.
٥٢١ بحث حول قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾الآية.
٥٢٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾الآية.
٥٢٣ بحث في رياح الرحمة ورياح العذاب.
٥٢٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ ...﴾الآية.
٥٢٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾.
٥٢٩ بحث في أسماء الجنة ومعانيها واشتقاقاتها وصفاتها.
٢٣٢ بحث قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾.
٥٣٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾الآية.
٥٣٧ بحث في الحكمة في تقديم السماء على الأرض في سورة يونس.
٥٣٨ بحث في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾الآية.
٥٣٩ بحث في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾الآية.
٥٤٠ بحث حول السمع والبصر وأيهما أفضل وحجة كل فريق.

الصفحة الموضوع

٥٤١ بحث في أن الله أمر نبيه ﷺ بالحلف في ثلاثة مواضع في القرآن.
٥٤٢ بحث في أن القرآن متضمن أدوية القلب وعلاجه من جميع الأمراض.
٥٤٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾.
٥٤٥ بحث في الاهتداء وقبول له وعدم قبوله.
٥٤٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ الآية.
٥٥١ بحث في الفرق بين الفرح وبين الاستبشار.
٥٥٢ بحث في أنه ليس المقصود من العبادات والأوامر المشقة وإن حصلت بالتبع والتضمن.
٥٥٤ بحث في الفضل والرحمة والهدىٰ وتوابع ذلك.
٥٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾.
٥٥٧ بحث في الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.
٥٦٠ بحث في البشرىٰ وقوله تعالى: ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ... ﴾ الآية.
٥٦٢ بحث في التوكل وقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ ﴾.
٥٦٣ بحث في اقتران التوكل بالإيمان والإسلام والتقوىٰ والهداية وبيان أن التوكل أصل لجميع مقامات الدين.
٥٦٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾.
٥٦٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا ﴾.

الصفحة الموضوع
٥٦٨ بحث في أن الأصل في الدماء حقنها وفي الأبضاع والذبائح تحريمها.
٥٦٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾.
٥٧٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الآية.

بهذا انتهى بفضل الله وكرمه المجلد الثالث

ويليه إن شاء الله الجزء الرابع

